راجي أنور هيفا
الحائز على الجائزة الذهبية لأفضل كتاب في الفكر الإسلامي المعاصر

فاجعة كربلاء

في الضمير العالمي الحديث

دراسة تحليلية لرؤى دينية وفكرية عالمية

الجزء الأول

دار العلوم

شبكة الفكر
alfeker.net

فاجعة كربلاء

في الضمير العالمي الحديث

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

المكتب : الرويس - بناية عروس الرويس - تلفاكس : 03/473919 - 01/545182
ص . ب : 140 / 24 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

فاجعة كربلاء

في الضمير العالمي الحديث

دراسة تحليلية لرؤى دينية وفكرية عالمية

تأليف
راجي أنور هيفا

الجزء الأول

دار العلوم
للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

صِرَاطَ الَّذِينَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّينَ

الإهداء

إلى العينين الحزينتين
المهاجرتين في كلّ لحظةٍ
باتجاه زُرقة السّماء
إلى العمامة الطاهرة
التي اجتمع في كلّ خيطٍ من خيوطها
سواد ليالي كربلاءْ،
فأضحى صاحبها رَمزاً للصبر على كلّ مصيبةٍ
وكلّ بلاءْ
إلى الذي علّمنا أنّ شهادة أن لا إله إلا اللّه،
وأنّ محمداً رسوله هي الترتيلة المباركة المقدّسة
التي كتبها اللّه لنا، وشَرَّفنا بها،
وما علينا إلا أن ننشدها دوماً بصدقٍ وإخلاصٍ ويقينٍ
إلى أن تأذن ساعة الرحيل.
إلى الإمام الذي علّمنا أنّ المؤمن، الغريب، الوحيد، العطشان، المظلوم، الذي يرفع يديه إلى السّماء ويقول صابراً محتسباً: (آه) فإنّما ينادي (اللّه).
إلى الذي علّمنا أنّ الحياة أن نموت قاهرين،
وأنّ الموت أن نحيا مقهورين.
إلى كلّ جرحٍ من جراحك يا سيّدي ويا مولاي،
يا بن عليّ والزهراء،
إليك يا سيّدي، يا حسين...

راجي

شعاعٌ من وهج الحقيقة والتاريخ

إنّ الحديث عن فاجعة كربلاء وعن بطلها الإمام الشهيد وما حَلّ به وبأهل بيته الأطهار عليهم السلام هو حديثٌ طويلٌ وأليم، إنّه حديثٌ يفيض بالحزن والغربة، وبالعِبَرِ والعَبَراتِ، وبالدروس التي لا تزال المجتمعات الإنسانية المعاصرة تنهل منها ما تشاء من حِكَمٍ ومواعظ وقيمٍ أخلاقية عالية تجعلها أساساً راسخاً لثوراتها ضدّ كلّ مظاهر الظلم والطغيان، وضدّ كلّ صور الجور والفساد والانحراف عن القِيَم الإيجابية الفاضلة المتجذّرة في النّفس الإنسانية السليمة وَالسويّة.

والحديث عن مسيرة الإمام الحسين عليه السلام بأهله إلى أرض كربلاء هو حديثٌ عن هجرة الروح وسَفر النور الحسيني إلى عالم السّماء وإلى مملكة الخلود في رحاب النّور الإلهيّ المطلق.

فالإمام الحسين عليه السلام، إمام الشهداء، لم يكن في سفره مجرّد إمامٍ مجاهدٍ اختار الحركة الاستشهادية ضدّ واقعٍ سلبيّ منحرف حاول أن يفرض ذاته عليه وعلى أتباعه المؤمنين فحسب، بل كان سفره حركة إيمانية شاملة ومتكاملة حملت عناوين عديدة ومتنوعة ومن ضمنها الاستشهاد من أجل شرف الكلمة وروح الرسالة.

وعندما نقول: إنّ الإمام الحسين عليه السلام قد اختار إعلاء شرف الكلمة وإحياء روح الرسالة ولو كلّفه ذلك بَذلَ الغالي والرخيص وصولاً إلى تقديم الدماء والأرواح من أجل ذلك الهدف السّامي النبيل، فماذا يعني هذا الكلام؟!

يعني هذا الكلام، وبكلّ بساطةٍ، أنّ الكثير من النّاس يتحدّثون عن واقعة كربلاء من وجهة نظر تراجيدية بحتة تقوم على أساس موت البطل مع أسرته الطاهرة المقدّسة بطريقةٍ مأساوية أليمة على يدِ جيشٍ جرّارٍ من الظلمة الحاقدين القادمين من كهوف التاريخ ومن صفحات الثقافة الجاهليّة العفنة ومن مراتع الظلام وأقبية الجهل الضاربة بجذورها عميقاً في عقولهم الصدئة وقلوبهم المهترئة.

ونحن لا نشكّ في أنّ هذه الرؤية صحيحة بوجهها العام، ولكن لا يمكن أن تكون هذه النظرة دقيقة وشاملة في حالة دراستها من زوايا خاصةٍ أخرى.

فهناك الكثير من رجال التأريخ والسِّير ومن الرواة أيضاً ممّن ينقلون لنا صورة الإمام الحسين عليه السلام بطريقةٍ فَجّةٍ غير ناضجةٍ حيث يصوّرونه لنا بصورة الإمام الثائر الذي لم يكن له هَمٌّ إلا أن يُقتَل بسيوف الأعداء وتُقطّع أوصاله برماحهم من أجل الحصول على شرف الشهادة فقط.

وفي الحقيقة، لا يمكننا أن نقول إلا أنّ هذه الصورة التراجيدية ناقصة في محتواها الروحي والفكريّ، وقاصرة في عمقها الاجتماعي والإيماني، ويأتي جزءٌ كبيرٌ من هذا النقص المعرفيّ من حقيقة أنّنا غالباً ما نقوم بتسليط الأضواء على الإمام الحسين عليه السلام وعلى أهله الكرام عليهم السلام وعلى جيشه الصغير - إنْ جازَ لها أن نُسَمّيه جيشاً - فقط، دون تسليط بعض الأضواء على خصومه وأعدائه وعلى طبيعة ذلك الجيش العَرَمرم الذي يستقوي به ذلك الخصم العنيد، فعندما نعرف ماهيّة وأهداف وغايات يزيد بن معاوية (لع)، فإنّنا وقتها سنعرف بلا ريب أهداف ورسالة الإمام الحسين بن علي عليه السلام الذي خرج بأعزّ ما يملك من أجل إجلاء الغبار عن رسالة جدّه المختار محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، أوّل خلق الله وخاتم رُسُله عليهم السلام.

فعندما نقرأ بعمقٍ ورويّة وصيّة ورسالة الإمام الحسين عليه السلام لأخيه محمد بن الحنفيّة قبيل مغادرته المدينة، سنعلم وبشكلٍ واضحٍ أهمّ الأسباب التي دعت الإمام الحسين عليه السلام للخروج ومُلاقاة جحافل يزيد بن معاوية، وها هو أبو المؤيّد الموفق بن أحمد المكي الحنفي المعروف بـ (أخطب خوارزم) يحدّثنا في كتابه (مقتل الحسين) عن أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد دعا بدواةٍ وبياض وكتب فيها هذه الوصيّة الهامّة لأخيه محمد وذلك قُبيلَ خروجه بوقتٍ قصيرٍ:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد بن علي المعروف بابن الحنفية، أنّ الحسين بن علي يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ من عند الحقّ، وأنّ الجنّة والنّار حقّ، وأنّ السّاعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور.

إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت أطلب الإصلاح في أمّة جدّي محمد صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي محمد، وسيرة أبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومَن ردَّ عليّ هذا صبرت حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ ويحكم بيني وبينهم وهو خير الحاكمين.

هذه وصيّتي إليك يا أخي، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكّلت وإليه أنيب، والسّلام عليك وعلى من اتّبع الهدى ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم»[١].

إنّ هذه السطور القليلة، بالإضافة إلى خطب وأقوال أخرى للإمام الحسين عليه السلام سنأتي على ذكرها في مكانها الصحيح في هذا الكتاب، تلخّص لنا فلسفة الحركة

---

(١) الخوارزمي الحنفي، مقتل الحسين، مطبعة الزهراء، النجف الأشرف، ١٩٤٨، ج١ ص١٨٨.

الحسينية المباركة الكامنة وراء مسيرته من المدينة المنوّرة إلى كربلاء.

فالوعد الحسيني يمثّل لنا الأمل الدائم في ضرورة التخلّص والقضاء على كلّ أنواع الانحراف الذي يصيب الضمير الإنساني القابل للتمظهر بمظهر الإيمان والعدل والنقاء، ولذلك فإنّنا نقول إنّ خروج الإمام الحسين عليه السلام مع أهل بيته الكرام الأطهار طلباً للإصلاح في أمّة جدّه لا يعني أنّ الفساد قد دخل قلب الرسالة الإسلامية وجوهرها، بل الشيء الذي فسد وتحلّل من كلّ روابط مبادئ وقِيَم تلك الرسالة السماوية الخالدة هو قلب الإنسان الطاغية الذي أراد أن يفسد كلّ ما حوله بقدر الفساد الذي يعيشه هو شخصياً من الداخل ومن الخارج على حدٍّ سواء.

فالرسالة الإسلامية رسالةٌ سماويّةٌ واضحةٌ، وأُسُسها واضحةٌ، وأحكامها جَليّة، وقوانينها ومبادئها بَيّنة، ولكن ما تبدَّل حقاً هو التطبيق والممارسة لا النظرية ولا المبادئ، نعم، لا يشكّ كلُّ قارئٍ للتاريخ الإسلاميّ في أنّ الحكّام والملوك الأمويّين قد ألقوا بغبار سيرتهم السوداء على الوجه الناصع للمرآة الإسلامية التي تعكس بصدقٍ ونقاء قوانين وأحكام السّماء، وأنّهم حاولوا أيضاً أن يُطفئوا نور الله بأفواههم، ولكنَّ إرادة الله كانت دائماً فوق إرادتهم، ومشيئتهُ أعلى وأقوى من مشيئتهم ومن مكرهم.

فالصورة التي نقلتها لنا كتب التاريخ والسِّير عن خروج الإمام الحسين عليه السلام هي صورةٌ حركيّةٌ تتجاوز في أبعادها الروحية والفكرية حدود المشهد والتراجيديا التصويريّة لتنقلنا إلى عمق العبرة التي تفتح الحدث على الفكرة والهدف، وهذا يعني أنّ حركة الإمام الحسين عليه السلام لم تكن مجرّد ثورة بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، بل إنّ حركته عليه السلام تعني الثورة الرسالية المتكاملة التي تنادي بالتغييرات الكليّة الشاملة،

والتي أوّل ما تبدأ من الدعوة الصريحية للثورة على الذلّ والاستكانة الداخلية والخضوع النفسي داخل ذات الإنسان، ولِتَتّسع بعد ذلك حتّى تشمل حدود تغيير المجتمع بكلّ أبعاده، وذلك من خلال تغيير الأشخاص والرموز التي تَدَّعي أنّها الموكلة به والقيّمة عليه.

ولذلك، فإنّ للنهضة الحسينية أبعاداً عميقة لا نراها في غيرها من الحركات والثورات والتحركات النهضويّة المختلفة، فهي ـ الثورة الحسينية ـ حركةٌ نهضوية لا تنبع من منظور أو من منطلق شخصي، ولا تهدف إلى تحقيق منفعة ذاتيّة فردية، ولا تقوم على تغييب الجانب الروحي والأخروي في خَطِّ سيرها وفي منهجها، بل على العكس من ذلك، فهي حركةٌ جهاديّة ذات أهداف شمولية وإنسانية عامة، تقوم على خلق نوعٍ من التوازن بين احتياجات الروح ومتطلّبات الوجود، إنّها الحركة التي تجعل من الأرض ساحة صراع بين قِيَم الحقّ وقوى الباطل وذلك من أجل مشروع تأسيس وبناء هيكل للروح في عالم السّماء، فالجنّة التي وُعِدَ بها المؤمنون والتي يبلغ (عرضها) السماوات والأرض، والتي لم يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن مدى (طولها)، هي الهدف والمنطلق الذي حرَّك وفجَّر الثورة الرساليّة المحمديّة العلويّة الحسينيّة لتكون ثورةً إنسانيّةً دائمةً لا يخمد لهيبها طالما أنّ هناك قِيَماً للخير وقوى للشرّ على مسرح الحياة.

أمّا النقطة الثانية التي تميّز هذه النهضة عن غيرها، فهي نقطة التجاوز لحدود الملحمة القومية التي تخصّ شعباً دون شعب أو بلداً دون بلدٍ آخر، فالدّماء الطاهرة التي بذلها الإمام الحسين عليه السلام فوق رمال كربلاء الحارقة جعلت منه نشيداً روحيّاً تتغنّى به دائماً وأبداً أفواه أبناء الإنسانيّة المعذّبة، وتحوّلت عندها جراحهُ المتعانقة

على مساحة جسده الشريف إلى أوتارٍ قدسيّة تعزف لكلّ الثائرين من بعدهِ لحنَ السموّ والإيمان والخلود.

ومن هنا يمكننا أن نقول للقارئ الكريم: إنّ هذا الكتاب الذي هو بين أيدينا الآن هو كتابٌ فريدٌ في نوعه، شأنه في ذلك شأن كتابنا السابق (الإمام علي عليه السلام في الفكر المسيحيّ المعاصر)، ذلك الكتاب الذي حظي بالكثير من الثناء والمديح من قبل الكثير من المفكّرين والنقّاد ورجال الدّين على مختلف مشاربهم واعتباره أيضاً كتاباً فريداً جديداً لم يسبق للمكتبتين العربية والإسلامية أن سَجَّلتا حضوراً مميّزاً لكتابٍ شبيه به في ما يحويه من أقوالٍ وشواهد وقوّةٍ في الدراسة والتحليل.

وما على الذي يريد التأكّد من ذلك إلا الدّخول على العَديد من المواقع الدينية والثقافية على شبكة الإنترنت للوقوف على حقيقة ذلك.

وبالتالي، فإنّ هذا الكتاب الذي نقرأ صفحاته الآن هو كتابٌ يتناول الحركة الحسينية من وجهات نظر عديدة، إسلامية وغير إسلامية، وبالطبع، عندما نقول وجهات نظر إسلاميّة فإنّنا نقصد بذلك وجهات نظر إسلاميّة غير شيعية، وعلى الرغم من أنّني قد تعمّدت أن يتناول هذا الكتاب شخصية وسيرة الإمام الحسين عليه السلام وحركته الثوريّة وآثارها من وجهات نظر عصريّة، إلا أنّني وجدتُ نفسي مرغماً بعض الأحيان على العودة إلى بطون الكتب التاريخية القديمة للتأكيد، بما جاء فيها، على ما كَتَبهُ حديثاً رجالُ الفكر والأدب والدين والسياسة حول فاجعة كربلاء وقرابينها المقدّسة.

وبالطبع، فقد قمت بتقسيم الكتاب إلى عدّة فصول، وكلّ فصلٍ يتناول موضوعاً معيّناً ولكنّه بنفس الوقت يعتبر حلقة وصل تربط بين الفصل السابق والفصل اللاحق،

ولم أعتمد على التسلسل الزمني للأحداث التي وقعت على مسرح الفاجعة وذلك لأنّ هذا الكتاب ليس كتاباً يهتمّ بالدرجة الأولى بتسلسل الأحداث التاريخيّة لتفاصيل الفاجعة، وإنّما هو كتاب يهتمُّ بالدرجة الأولى بالناحيّة الإنسانيّة وبالآثار الاجتماعية والسياسية التي خلّفتها وقائع تلك الملحمة الحسينية الدامية في نفوس المسلمين والمسيحيين، بل وحتّى في نفوس الكثير من الذين لا يندرجون تحت هويّة الإسلام أو المسيحيّة، كالمهاتما غاندي، على سبيل المثال، أو غيره من اليهود والصابئة.

ويمكن أن أضيف إلى هذه المقدمة الموجزة فكرة هامّة قد يعتبرها البعض غريبة بعض الشيء، ولكن لن أستفيض في مناقشتها هنا، بل سيكون لها مكانها المناسب في صفحات هذا الكتاب، وتتلخّص هذه الفكرة الهامّة والموجزة بقولنا إنّ ما جرى في كربلاء لم يكن بالشيء المستغرب ولم يكن التخطيط له وليد اللحظة، بل إنّ فاجعة كربلاء هي ابنة أحداث سقيفة بني ساعدة، وسيلاحظ القارئ الكريم أنّ الخوض في هذه الفكرة ليس شيئاً دخيلاً على موضوع هذا الكتاب وعلى جوهره، بل سيلاحظ مدى عمق العلاقة بين ما حدث في سقيفة بني ساعدة وبين ما جرى على مسرح الفاجعة، علماً أنَّ هدفنا هنا ليس التجريح أو الإهانة، وإنّما تقييم مواقف خاطئة فقط.

وعلى كلّ حالٍ، فإنّ لكلّ فكرةٍ مكانها الخاصّ بها والمناسب لها، وعلينا أن لا نستعجل الأمورَ وعلينا أيضاً أن نكون في أنسبِ مكانٍ يمكن للمرء أن يكون فيه بعيداً عن روح التعصّب والانفعال، وعن لغة الانحياز إلى تيّار العاطفة الذي يجرّه بعيداً عن تيار العقل وعن نهج المنطق القويم، وانطلاقاً من هذه النقطة تحديداً، فقد قمت بإجراء واستعراض الوقائع والأحداث كما جاءت في الكتب والدراسات الفكريّة والتاريخية المختلفة، والتي هي بأغلبيتها كتب ودراسات غير شيعية، أي أن الكُتّاب

والمفكّرين الذي قاموا بكتاباتها ودراستها هُم ليسوا من الشيعة أبداً، بل من أديان ومذاهب مختلفة.

وبعد أن قمت باستعراض الأحداث والوقائع كما جاءت في صفحات كتبهم الفكريّة وفي دواوينهم الشعرية، وبعد أن ذكرتُ تحليلاتهم الخاصّة بهم والمتعلّقة بدراسة الشخصيات والأحداث، وحتّى الخطب والأحاديث، فقد قمت عند ذلك بإجراء تحليلاتي الخاصّة آخذاً بعين الاعتبار أنّ القرار الأخير في كلّ مسألةٍ من المسائل التي تعرَّضَ لها هذا الكتاب هو قرار القارئ الكريم وليس قراري الشخصي.

فمن غير اللائق أن يعتبر الكاتب أنّ القارئ عبارةٌ عن حجر شطرنج يمكن تحريكه كيفما يشاء، فللقارئ، بلا ريب، عقله وفكره وثقافته الخاصّة، وله أيضاً منطقه ومنهجه الفكريّ الخاصّ به، ولذلك ما علينا نحن أن نقوم به هو أن نزوّده بالوقائع وبالدراسات والتحليلات الفكريّة المختلفة المبنيّة على الحجج والبراهين، وما عليه هو ـ كقارئ يبحث عن الحقائق ـ إلا أن يقوم بتحليلاته الخاصّة أيضاً وأن يجعل عقله يعمل ويتفاعل بشكلٍ أكثر فاعليّة مع ما يقرؤه وبأسلوب عقلاني واعٍ يحميه من الوقوع في شَرَكِ الطائفيّة وأفخاخ المذهبيّة التي لا ترحم حقيقةً ولا تحترم حقّاً مهما كان ذلك الحقّ مُتجلياً للبصائر وبادياً للأبصار.

فغاية الكتابة عن التاريخ وأحداثه هي إدراك الماضي كما كان، لا كما نتوهَّمُ أنّه كان، وكذلك ليس التاريخ هو تصوير الماضي كما يجب أن يكون أو كما نريده أن يكون بل هو التصوير الدقيق والصادق للأحداث وللأشخاص مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذا التصوير مُتصفٌ بروح الموضوعيّة والحياديّة وإلا فإنّ التاريخ، في حال عدم اتصافه بالحيادية وبالصدق في التصوير، لن يكون إلا بمثابة المساحيق والألوان

الزاهية التي توضع على وجه أنثى تضجّ روحها ونفسُها بالقبح والفجور.

وربّ قارئٍ يتساءل قائلاً: وهل تاريخنا العربي والإسلامي يندرج تحت عنوان التاريخ الصادق والمحايد في وصفه وتأطيره للأحداث بالشكل الصحيح أم أنّه يندرج تحت سياق التاريخ الموجّه والمشوّه والذي يمكن تمثيله بالوجه الأنثوي المترهّل والمُمَوّه، ذلك الوجه الذي عَمَد البعض إلى وضع الكثير من الأصبغة والمساحيق الكثيفة عليه في محاولة يائسةٍ منهم لإخفاء صورته الحقيقيّة بكلّ ما تحمله من قبح وتشوّهات؟!

ويؤسفني أن أقول في جوابي على هذا السّؤال المُفتَرض: إنّ تاريخنا العربي والإسلامي هو تاريخٌ مليءٌ بالزّيف ومُترعٌ بالأكاذيب.

وليعذرني القارئ الكريم على هذه الصراحة الخشنة في حديثي، فأنا لم أعتد أن أجامل أحداً في حديثي عن قضايا هامّة وحساسة كهذه، وما اعتدت أن أكون إلا منطقيّاً في معالجة أيّة قضيّة من هذا المستوى أو العيار.

وحتّى لا أكون مجُحِفاً بحقّ تاريخنا ولا مُتَجنّياً عليه، وحتّى أكون أكثر إنصافاً وأكثر موضوعيّة واتّزاناً في حكمي عليه، أرى لِزاماً عليّ أن أشير وبكلّ وضوح إلى أنّ هناك صفحات بيضاء ناصعة في تاريخنا العربيّ والإسلاميّ بحيث لا يستطيع كائن مَن كان أن يتجاهل تلك الصفحات أو أن ينكرها أو يضرب عنها صفحاً.

فتاريخنا ليس كلّه مظلماً وليس كلّه عبثاً على الحقيقة، بل نستطيع أن نقول إنّنا بحاجةٍ إلى أقلام حرّة وجريئة، إلى أقلامٍ حرّةٍ تنتقد بنزاهةٍ وموضوعيّةٍ، إلى أقلام تمجّد الحقّ لا إلى أقلام تقدّس السلطة والسلطان، إنّنا بحاجةٍ إلى كلّ هذه الأقلام اليوم من أجل رفع النقاب عن وجه التاريخ الإسلامي وإظهار الوقائع والأحداث على

حقيقتها التي كانت عليه بالفعل، فمعالجة قضايانا التاريخية يجب أن تستند إلى سلطة العقل لا إلى عقل السلطة.

علينا اليوم أن نقول إنّ تلك الصفحة من تاريخنا كانت بيضاء مشرّفة، ونحن نعتزّ بها ونعتبرها مثالاً رائعاً ومَثَلاً أعلى نحتذي به في عصرنا الراهن، ولكن علينا بنفس الوقت أن نكون شجعاناً أمام ذواتنا ونقول بصوتٍ عالٍ إنّ تلك الصفحة الأخرى من تاريخنا سوداء ومُذلّة، ونحن نعترف بها ونخجل منها ولكنّها اليوم درسٌ مفيدٌ لنا إذْ علينا أن نحلّلها ونستوعب كلّ السلبيات التي أفرزتها وذلك من أجل الحرص الشديد على عدم تكرارها في وقتنا الحاضر.

فثمار اليوم هي النتيجة الطبيعية لغراس الماضي، فإذا ساءت الغرسة أو سَكَتْنا عن الآفات التي تعصف بها، فإنّ الثمار ستأتي بعد حين مريضة وغير مكتملة في نضجها، وربّما الشجرة ذاتها لن تعرف أغصانها طريقاً إلى شمس المستقبل لأنّها ستكون قد هَوَتْ على الأرض وقد حَوَّلها داؤها العضال إلى مجرّد كومةٍ من الحطب لا تصلح أن تكون إلا وقوداً للنّار التي سَتُحيلها إلى رمادٍ تذروه الرياح والعواصف.

والمشكلة الحقيقية هنا هي أنّنا لا نتّعظ من الماضي ولا نأخذ عِبَراً من دروسه القاسية والمريرة، فلا أحد يشكّ في أنّ العصر الجاهلي، ذلك العصر السابق على مجيء الرسالة الإسلاميّة، قد مَرَّ وانقضى وأخذ معه الكثير من متناقضاته والكثير من نقائصه وسيئاته، ولا سبيل إلى عودته اليوم في الحالة التي كان عليها بالأمس.

نعم، لا أحد يشكّ باستحالة عودة هيكل الماضي للعيش معنا في الحاضر، ولكنّ الذي نشكّ فيه، وربّما تصل عندنا درجة الشكّ إلى حالة اليقين، هو حقيقة أنّنا قد تخلّصنا تماماً من رواسب العصر الجاهلي ومن سلبيّاته ومساوئه، فروحُ العصر

الجاهليّ لا تزال تعيش في حالة كمون داخل عقول وقلوب الكثيرين من أبناء القرن الحادي والعشرين من المسلمين داخل وخارج ديار العروبة.

وباختصارٍ شديد، أقول إنّنا نعاني اليوم من جاهليّة القرن الحادي والعشرين والتي لا تختلف بجوهرها كثيراً عن جاهليّة ما قبل الإسلام.

وأعتقد أنّني قد ناقشت هذه النقطة بشكلٍ موسّع في الكتاب السابق (الإمام علي عليه السلام في الفكر المسيحي المعاصر) وذلك من خلال الكلام عن ربط مفهوم العروبة بالإسلام لدرجة جعل العروبة هي الهوية القومية للرسالة الإسلامية من جهة، وجعل الإسلام هو الهوية الروحية للعروبة من جهة أخرى.

ولذلك لا داعي للإسهاب في الحديث عن هذا الموضوع ولكن ما أردت قوله هنا هو أنّ هناك من لا يزال يكتب عن أحداث التاريخ الإسلامي بقلمٍ يستمدّ مِداده من محابر العصر الجاهليّ ويستمدّ قوّته وغطرسته من روح العصر الأمويّ، ذلك العصر الذي قام أساساً على أُسس ومرتكزات التركيبة النفسيّة والاجتماعية للعصر الجاهليّ متجاوزاً بذلك معظم قِيَم ومبادئ الرسالة الإسلامية التي جاء بها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هديةً كريمةً من السّماء إلى عموم أهل الأرض من عربٍ وغير عرب.

ولذلك أقول بصراحةٍ، إنّ هناك ارتباطاً وثيقاً جدّاً بين العصرين، العصر الجاهليّ والعصر الأمويّ لدرجة أنّني عندما أقرأ ما جاء في العصر الجاهلي من مثالب ومساوئ أجد نفسي في حالة استرجاع فكري شامل لمِا كان يتّصف به العصر الأمويّ من صفاتٍ سلبيّة مشابهة، وبالمقابل أيضاً، عندما أقرأ عن واقع المسلمين والعرب المسلمين في ظلّ الحكومات الأمويّة المتعاقبة أجد نفسي، وبشكلٍ لاشعوري، في حالة مقارنة بين هذا العصر المحسوب على الإسلام وبين عصرٍ آخر أكثر قِدَماً ويقع

خارج الدائرة الإسلامية لأجد ـ بعد تلك المقارنة ـ أنّ أبسطَ ما يمكن أن يقال هو أنّ العصر الأمويّ يمثّل الابن الشرعيّ للعصر الجاهليّ وليس للرسالة الإسلاميّة.

ولا أريدُ هنا أن أكشف النقاب عن الوجه المظلم لجاهليّة ما قبل الإسلام وكيف كانت حالة التركيبة النفسيّة والاجتماعيّة لغالبية الأفراد في تلك الفترة، ولكن يكفي أن أشير إلى أنّ التركيبة الفكريّة والبنيّة النفسيّة للذات العربية قد تسللت بما هي عليه إلى دائرة الانتماء الإسلاميّ المولود حديثاً والمنادى به من قبل الرسول المصطفى ﷺ.

فهناك العديد من المسلمين ـ وهذا ليس سرّاً على أحدٍ ـ قد دخلوا إلى دائرة الانتماء الإسلاميّ إمّا طمعاً وإمّا خوفاً ولم يدخل الإيمان المطلوب إلى قلوبهم، وقد صرّح القرآن الكريم بهذه الحقيقة في أكثر من موقعٍ واصفاً إيّاهم بالمنافقين سواءً كانوا من (الأعراب) أم من (أهل المدينة) ليقطع بذلك الطريق على كلّ من يريد أن يقول إنّ ظاهرة النفاق مقتصرةٌ على الأعراب دون غيرهم من العرب، فالآية القرآنية الكريمة التالية: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ﴾[1]، إنّها آيةٌ شريفة واضحة ودالّة على وجود ظاهرة النفاق في صفوف المسلمين، تلك الصفوف التي تمثّل الجيل الأوّل من الداخلين إلى الدعوة الجديدة سواءٌ كانوا عرباً أم أعراباً.

وأرى من الواجب علينا هنا أن نذكر مثالاً أو مثالين عن أناسٍ دخلوا وانضمّوا إلى صفوف المسلمين لكنّهم لم يستطيعوا أن يتخلّوا تماماً عن طبيعتهم الجاهليّة وعن عصبياتهم القبليّة وثاراتهم الشخصية القديمة.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠١.

ولذلك، وقبل إيراد البعض من هذه الأمثلة المناسبة لابدّ من التأكيد على صفة بارزةٍ لازمت العقل العربيّ منذ زمنٍ بعيدٍ يصعب تحديد بدايته وتتعلّق بعدم قبول (الآخر) واحترام هويّته حتّى ولو كان ذلك (الآخر) عربياً ولكن من قبيلةٍ أخرى.

فالإنسان العربيّ، وعلى الرغم من الصفات الإيجابيّة التي كان يتحلّى بها، لم يستطع أن يتخلّى عن (أناه) المفرطة والمتضخّمة أمام الآخرين من غير قبيلته، إنّه مستعدٌّ أن يكون حجرة مُصمَتَةً على رقعة قبيلته الشطرنجيّة بحيث يُحرَّك على مساحة تلك الرقعة دون إرادةٍ منه إلى درجة أن تذوب (أناه) في ميدان تلك القبيلة بكلّ يُسرٍ ورحابة صدرٍ، غير أنّه من المستحيل تقريباً أن يقبل ذلك الرجل احتواء آراء الآخرين من القبائل المحيطة بقبيلته حتّى في أعظم الأمور التي تتطلّب من الفرد أن يُعمِلَ عقله فيها كأنْ يلقي بسيفه جانباً ولا يشارك قبيلته في حرب جائرةٍ ظالمةٍ ضدّ قبيلةٍ أخرى ضعيفة ومظلومةٍ ولا ناصر لها، وما قول الشاعر:

وما أنا إلا من غزيّةٍ إنْ غوتْ غويتُ، وإنْ ترشد غزيَّةُ أرشد

ما هذا القول إلاّ واحدٌ من عشرات الأقوال والأمثلة الصائبة والدالّة على صدق مقالنا إنّ مرض (الأنا) المتضخّمة ضمن إطار القبيلة والتعصّب لها والذي اجتاح عقولنا بالأمس لا يزال يسري فيها بقوّةٍ حتّى يومنا هذا، إنّها حالةٌ أشبه ما تكن بحالة السير أثناء النّوم أو ما تُعرف علمياً بحالة (السَّرنمة)، فكَم من رأس قطع بالسيف وكم من صدرٍ طعن بالرمح من أجل ناقةٍ أو من أجل فرسٍ كما حدث في حرب البسوس وفي حرب داحس والغبراء، وكم عَقْدٍ من الزمان دامت هذه الحروب وكم كلَّفت من دماءٍ وأرواحٍ من أجل إرضاء خاطر هذه القبيلة أو تلك!!

إنّ العقل العربيّ وقتذاك كان يقدّم ولاءه المطلق للقبيلة وكأنّ حدود العالم تنتهي

عند آخر خيمةٍ من خيام قبيلته، لقد كان يشعر أنَّ (الأنا) هي الكمال والـ (هو) من غير قبيلته هو النقص، إذْ لا مجال للاتفاق بين النقص والكمال إلا ضمن أُطُرٍ محددة لا يُسمح بتجاوزها أبداً[1].

وللأسف الشديد، فقد انتقلت هذه الحالة إلى ظلّ الدولة الأمويّة ومن بعدها إلى الدولة العباسية بشكلٍ ملحوظٍ تماماً وصار العقل العربيّ ينظر إلى عقول البقيّة ممّن هم في جوارهم نظرةً دونيّةً غير قائمةٍ على احترام الإرث الثقافي والروحي لهذا الشعب أو ذاك، بل نرى أنّ الكثير من المفكّرين العرب أنفسهم قد أُعدِموا بتهمةِ الزندقة والكفر وحوربت الفلسفة ورُفِضَ علم المنطق وراحت المدارس الإسلاميّة تكفّر بعضها بعضاً، وكان من نتيجة ذلك أن سالت الدماء بين الأخوة العرب وبين المسلمين عموماً.

وحتّى لا نكون جائرين على الدولة الأمويّة، أو على الأقلّ حتّى لا يتّهمنا أحدٌ بذلك، نرى أنّ هناك العديد من المشاهد والصور التي تعكس بصدقٍ كلّ ما أسلفنا من قول على الرغم من أنّها مشاهد وصور مأخوذة من الخيوط الأولى لفجر الرسالة الإسلاميّة ومن العهد الراشدي أيضاً.

وعلى سبيل المثال، كلّ واحدٍ منّا يعرف من هو خالد بن الوليد وكيف أسلم ومتى كان ذلك، وكلّنا يعرف أيضاً دورهُ القويّ في التصدّي للرسالة الإسلامية وللرسول الكريم ﷺ وكيف لعب الدور الحاسم في إلحاق الهزيمة بالمسلمين يوم غزوة أحد، وكيف استطاع هو وجنودهُ العُتاةُ النّيل من الرسول الكريم ﷺ حتّى سال

---

(١) راجي أنور هيفا، محاكمة العقل العربي، مجلّة النور العدد (١٠٧)، دار النّور، لندن، نيسان ٢٠٠٠م، ص١٢.

الدّم الغزير من رأسه الشريف ومن فمه، فما كان منه ﷺ إلا أن وقف ورفع يديه إلى السّماء قائلاً: «كيف يُفلح قومٌ خضّبوا وجه نبيّهم بالدّم!!»[1].

نعم، كلّنا يعرف أنّ هذا قد حدث قبل إسلام خالد بن الوليد، ولكنْ هل كلّنا يعرف ماذا حدث بعد إظهار إسلامه؟!

على كلّ حالٍ دعونا الآن نقرأ ما جاء في الجزء الثالث من كتاب (تاريخ الأمم والملوك) للمؤرّخ (محمد ابن جرير الطبري) حول بعض ما قام به خالد بن الوليد بعد إظهاره للإسلام، وسنترك التعليق على ما حدث للقارئ الكريم كي يرى أنّ الأخلاق الجاهليّة والنزعات التعصّبية كانت عميقةً في جذورها داخل عقول وقلوب العديد من أولئك الذين دخلوا دائرة الدّين الإسلامي الجديد.

إنّ المؤرّخ (الطبري) يحدّثنا عن مسير خالد بن الوليد، بتكليفٍ رسميّ من الرسول الكريم ﷺ، إلى بني جذيمة ليؤكّد على دعوة الرسول ﷺ لهم مجُدّداً كي يجاهروا بإسلامهم ويؤمنوا عمليّاً بمبادئه وقِيَمه بعد أن بيّنها وشرحها لهم.

وبالفعل، يتحرّك خالد بن الوليد على رأس جماعةٍ من معاونيه لتنفيذ المهمّة الموكلة إليه، ولكن ما أن يصل خالد ورجاله إلى القبيلة المقصودة حتّى يظهرَ أمرٌ غريبٌ من خالد، فبعد أن وصل إلى القبيلة وعرّفهم على نفسه بأنّه مبعوث رسول الله ﷺ إليهم، وبَعد أن أعطاهم الأمان على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، نراه يأمر رجاله أن يجُرِّدوا رجال القبيلة من أسلحتهم، ثمّ يأمر بهم بعد ذلك فتوثق أيديهم، ولم يَكتفِ خالد بفعل ذلك، بل عَرضهم على السيف، فقتلَ من قتلَ منهم، فلمّا انتهى الخبر

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ج٢ ص٥١٥.

المشؤوم إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السّماء، ثمّ قال: «اللهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد».

ويتابع (الطبري) حديثه قائلاً بأنّه بعد أن دفع الإمام علي عليه السلام ديّات القتلى نيابةً عن رسول الله وبأمره ﷺ، وقف رسول الله فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتّى إنّه لَيُرى بياض ما تحت منكبيه، وهو يقول: «اللهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد» ثلاث مرّات[1].

هذا هو المشهد الأول من المشاهد الدالّة على انتقال العصبيّة القبليّة والروح الجاهليّة إلى ميدان العمل الإسلاميّ من قبل أشخاصٍ دخلوا إلى الإسلام وانضمّوا إلى صفوفه في الوقت الذي كانت فيه قلوبهم ما تزال تئنّ وتعاني من أمراض الجاهليّة المزمنة.

أمّا المشهد الثاني من مجموعة المشاهد الكثيرة التي يمكن أن نوردها في بحثنا هذا، هو ذلك المشهد المأساوي الذي ذكرهُ المفكّر والباحث المصري المعاصر (خليل عبد الكريم) في كتابه (الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية) والمتعلّق بمقتل أحد الرجال المسلمين على يد خالد بن الوليد أيضاً بتهمة الارتداد عن الدين، إذْ إنّ الطريقة الوحيدة للتخلّص من الخصم هي رميه بتهمة الزندقة أو الارتداد عن الدّين.

ويلخّص لنا الأستاذ الباحث (عبد الكريم) تلك الحادثة المأساوية والدالّة على التركيبة النفسيّة المضطربة لخالد بن الوليد بتأكيده على أنّ خالداً ما أراد أن يلصق تهمة الارتداد عن الدّين بـ (مالك بن نويرة) إلا من أجل أن يتخلّص منه ويصفو له

(١) نفس المصدر السابق، ج٣ ص٦٨.

الجوّ لاغتصاب زوجته البارعة الجمال (أمّ تميم)، وهذا ما قام به خالد بن الوليد بالفعل، فقد أعمل خالد سيفه وسيوف رجاله في رقاب بني يربوع، رهط مالك بن نويرة، بل وقام بقتل أسراهم ومن ثمّ قام بقتل مالك بن نويرة بنفسه ونكح امرأته في نفس اليوم، حتّى أنّ عمر بن الخطاب لمّا سمع بما قام به خالد على رؤوس الأشهاد، أغلظ القول لخالد بن الوليد مهدّداً متوعّداً: (قتلتَ امرءاً مسلماً ثمّ نزوتَ على امرأته، والله لأرجمنَّك بالحجارة!)[1].

وبعد أن يورد الأستاذ (عبد الكريم) هذه الحادثة الشنيعة التي قام بها خالد بن الوليد بحقّ مالك بن نويرة وبحقّ زوجته أمّ تميم، نراه يعلّق على تلك الحادثة بقوله مخاطباً القارئ ومُبيِّناً له كيف أنَّ بعض المؤرّخين والباحثين راحوا يلتمسون الأعذار لِما قام به ابن الوليد من عملية اغتصاب لزوجة رجل مسلم قَتَلَه غدراً ومكراً:

(دَعْكَ ممّا ذكره المؤرّخون من أنّ تلك الزوجة (أمّ تميم) كانت صاحبة أجمل ساقين بين نساء العرب حتّى كان يُضرب بهما المثل فيقال (أحسن من سَاقَيٍّ أمّ تميم)، أو أنّها كانت ذات شعرٍ أسود فاحم ينسدل حتّى منتصف ظهرها، أو أنَّ عينيها زانهما الحَوَر فزادهما سحراً، أو أنّ ابن الوليد كان يهواها في الجاهليّة، دَعْكَ من كلّ هذا، فحتّى لو كانت أمّ تميم تلك أقبح امرأةٍ في جزيرة العرب فما كان يجوز لخالد أن ينكحها - أو (يَنزو عليها) بتعبير عمر بن الخطاب - بعد أن قَتَلَ زوجها، هذه التجاوزات التي لا يمكن تبريرها أو الدفاع عنها)[2].

وهنا نرى أنَّه من حقّنا أن نتساءل قائلين، ودون أدنى إحراج:

---

(١) خليل عبد الكريم، الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص١١١.

(٢) نفس المصدر السابق ص١١١.

لماذا لم تفعل الأخلاق الإسلامية فعلتها في قلب وضمير خالد بن الوليد كي تمنعه من قتل امرئٍ مسلم من أجل مجرَّد الفوز بساقَيّ زوجته الجميلة؟!

وأيُّ إيمانٍ هذا الذي يدفع بقائدٍ، والقائد يجب أن يكون قدوةً لغيره، إلى أن يعمد إلى نحر رجلٍ بريءٍ بعد رميه بتهمٍ باطلة، ومن ثمّ التمثيل بجثّته وحرقها، لا لشيءٍ إلا لأنَّ هذا المسكين قد تزوّج وبطريقةٍ شرعيّةٍ، من عشيقة ذلك القائد المسلم (البطل) حيث كان يهواها في الجاهليّة في الوقت الذي كانت هي ترفض أن تبادله ذلك الهوى؟!

ولا أعتقد أنّ الإجابة على أسئلةٍ كهذه تحتاج إلى الكثير من الجهد والعناء، بل أعتقد أنَّ ما تحتاجه الإجابة هو القليل من الجرأة والموضوعيّة والصدق مع الذات أوّلاً وآخراً.

وأظنّ، بنفس الوقت، أنَّ هذين المشهدين أو هاتين الحادثتين تكفيان تماماً لإعطاء صورة واضحة المعالم عن كيفيّة انتقال الإرث الفكريّ الجاهليّ إلى الساحة الإسلامية عن طريق أناسٍ لم يستطيعوا أن ينفصلوا تمام الانفصال عن جاهليتهم وسلوكيّاتها، وَلم يستطيعوا أيضاً أن يتشرَّبوا ويتمثّلوا أخلاقيات وأدبيات الدّين السّماوي الجديد.

أمّا النقطة الثانية، وهي النقطة المتعلّقة بقضيّة تضخّم (الأنا) ضمن إطار القبيلة، فإنّني أعتقد أنَّ هذه المسألة أيضاً أخذت طريقها إلى الدولتين الأموية والعباسية مروراً بالخلافة الراشديّة ذاتها، ولا أريد أن أستفيض في شرح هذه المسألة ولا أن أُكثِرَ من الأمثلة للتأكيد على وجودها، ولكن كلّ ما أريد أن أقوله الآن هو أنّ العرب الذين يعيّرون بقيّة القوميات والشعوب بامتلاكهم للنزعة الشعوبية، تلك النزعة التي تحطّ

من قيمة العرب ومقدارهم إنّما هم مخطئون تماماً في ما يدّعون، فالعرب يعيّرون غيرهم بالشعوبية انطلاقاً من مبدأ (الهجوم خير وسيلةٍ للدفاع) وذلك لأنّنا لو راجعنا بعض المواقف التي شهدتها ساحة الخلافة الراشدية لوَجدنا أنّ (الخليفة) ذاته كان هو البادئ في قدح شرارة تلك النزعة القائمة على احتقار بقيّة الشعوب وعلى الانتقاص من قدرهم أمام (الأنا) المتضخّمة قَبَليّاً من جهة وعُروبيّاً من جهةٍ أخرى.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، عندما تولّى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أن أوصى له بها الخليفة الأول أبو بكر، قام بعدّة أعمال وإجراءات كان من شأنها أن زرعت بذور الشقاق بين العرب والعجم، وبين القبائل العربية ذاتها ممّا أدّى إلى إزكاء نار الحقد والبغضاء بين القبائل وزيادة الشعور بضرورة التعصّب والتحزّب في ظلّ دينٍ لا يسمح أساساً بالتعصّب إلا للحقّ وحده ولا يرغب بالتحزّب إلا لمكارم الفِعال ومحامد الخصال.

ولم يكن المؤرّخون القدماء ولا الباحثون المسلمون المعاصرون هم وحدهم الذين أدركوا هذه الحقائق والوقائع، بل نرى أنّ المفكّرين المسيحيين المعاصرين أيضاً قد أدركوا ذلك، وقد أثبتوا في كتبهم، وبالاعتماد على مصادر إسلاميّة سنيّة، أنّ عمر بن الخطاب حينما تولّى الخلافة، (فَرضَ العطاء على مبدأ التفضيل، ففضّل السابقين على غيرهم، وفضّل المهاجرين على الأنصار، والعرب على العجم، والصريح على المولى، ومضر على ربيعة، والأوس على الخزرج)[1].

ويرى بعض المفكّرين المسيحيين أيضاً أنّ عمر بن الخطاب قد ابتعد كثيراً عن سياسة الرسول المصطفى ﷺ الدّاعية إلى جعل النّاس، أمام مقياس العدل والحقّ

(١) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، انتشارات الهاشميّ، قم، ط٣/١٩٨٤، ص١٩٧.

متساوين كأسنان المشط، والدّاعية أيضاً إلى جعل التقوى هي المعيار الأساسي للتفضيل بين فرد وآخر أو قوم وآخر، إذْ لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلا بالتقوى، ولذلك فإنّ عمر بن الخطاب، في نظر ذلك الصنف من المفكرين والأدباء المسيحيين المعاصرين، قد لعب الدور الأبرز في الابتعاد عن المناقبيّة الإسلامية وعن الصفة العالميّة للرسالة التي أرادها الرسول المصطفى ﷺ شريعة عالميّة منفتحة على العالم بأسره تأبى الانعزال والتقوقع على ذاتها ضمن دائرة العروبة وداخل حدود العصبيّات القبليّة البغيضة(١).

وبناءً على ما تقدّم، ألا يعني هذا أنّ الحركة الشعوبية التي بلغت أوجها في العصر العباسيّ إنّما كانت نتيجة حتميّة وطبيعية للرؤى وللممارسات الاستعلائية الخاطئة التي صدرت أوّل ما صدرت عن (الخليفة الراشدي) نفسه؟!

ألا يعني هذا أيضاً أنَّ هذه الحقائق التي تغصُّ بها كتبنا التاريخية والتراثية الإسلاميّة، والتي تكشف النقاب عن الوجه الصحيح للكثير من الشخصيات التي لعبت دوراً بارزاً في تصنيع أحداث ذلك الماضي، ألا يعني ذلك أنَّ هذه الحقائق الثابتة تاريخياً هي التي تُخيف المفكّرين والباحثين العرب والمؤرّخين المسلمين المعاصرين أيضاً وتمنعهم من الخوض في مسألة إعادة كتابة التاريخ العربيّ والإسلاميّ؟!

فهناك خوفٌ واضحٌ عند العديد من المفكّرين العرب والإسلاميين تجاه مسألة إعادة كتابة التاريخ بكافّة أبعاده وفي مختلف مجالاته، وهم بذلك يتعاملون مع التاريخ وكأنّه تاريخٌ مقدّسٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولذلك لا يجوز المساس به ولا يجوز

---

(١) سليمان كتاني، الإمام الحسن الكوثر المهدور، (ضمن مجموعة محمد شاطئ وسحاب)، دار المرتضى، بيروت، ١٩٩٠م، ص٧١٨.

حتّى التفكير في مجرّد إعادة ترتيب أوراقه ووضع النقاط على الحروف.

وهنا نقول لهذا الصنف من المفكّرين إنّ التاريخ ليس كتاباً مقدّساً وليس مرآة صافية تعكس دائماً الصورَ والوجوه كما هي عليه بالفعل، وفوق ذلك، فالتاريخ ليس إرثاً قومياً بل هو ميراث إنسانيّ عام، ولا أعتقد أنّ الأديب الفرنسي (ألبير كامو ١٩١٣-١٩٦٠) قد جانب الصواب عندما قال موضّحاً وجهة نظره تجاه التاريخ العامّ للبشريّة المُتعَبة وكيفيّة التعامل معه: (ليس للتاريخ عيون، ولذا ينبغي رفض عدالته والاستعاضة عنها قَدَر الإمكان بالعدالة التي يتصوّرها الفكر)[١].

فالتاريخ ليس مادّةً صمّاء تُكتب مرّةً واحدةً وبشكلٍ حاسمٍ وقاطعٍ، بل هو المادّة التي يمكن، بل يجب، أن تُعاد كتابتها وباستمرار على ضوء ظهور معلومات جديدة تتعلّق بأيّ حادثة مفصليّة من حوادث التاريخ أو على ضوء ظهور أدوات فكريّة مستجدّة تستخدم في فهم التاريخ وفي تحليل أحداثه وتعليلها، بل وفي كشف المزيّف منها أيضاً.

وعلى سبيل المثال، يذكر الباحث المصري المعاصر (أحمد بهاء الدين ١٩٢٧-١٩٩٦) في معرض حديثه عن التاريخ وعن ضرورة إعمال الفكر في دراسة التاريخ ودراسة أحداثه وكشف المزيّف منها أنّ الكثير من المؤرّخين ينسبون إلى بعض فراعنة مصر القدماء أنّهم كانوا يمحون ما سبق أنْ حفَرَهُ أسلافهم على الصخر الأصمّ من تسجيل للأحداث التاريخية، وكانوا يعيدون كتابة بعض تلك الأحداث ناسبين إلى أنفسهم معارك ووقائع لم يخوضوها أبداً، وانتصارات خياليّة لم يحرزوها البتّة،

(١) بيير . هنري سيمون، الفكر والتاريخ، ترجمة: د. عادل العوّا، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ١٩٦٣م، ص٥.

وجلائل أعمالٍ لم يقوموا بها مطلقاً، سواءٌ كان ذلك تهميشاً لحكّام وفراعنة سابقين عليهم قاموا بتلك الأعمال، أو انتحالاً لفضل لا حَقّ لهم فيه أبداً.

وليس هذا فحسب، بل وفي القرن العشرين أيضاً، وبعد أن مات (لينين) قائد وزعيم الثورة الاشتراكية الروسيّة، ودارت رحى الحرب العنيفة على السلطة وعلى المراكز السلطوية من بعده بين أشهر وأبرز رفيقين له وهما (ستالين) وَ(تروتسكي) انتهت تلك المعركة الحامية بانتصار (ستالين) وبهزيمة (تروتسكي) وبطرده من البلاد شرَّ طردٍ.

وبعد ذلك، فقد عمدَ (ستالين) إلى وثائق الثورة مستخدماً سلطته الشخصية المستمدّة من سلطة الدولة المطلقة وراح يمحو منها كلّ عملٍ مهمٍّ ومفيدٍ قام به (تروتسكي) في سبيل الثورة ومن أجل الشعب، وظهرت ـ وقتذاك ـ أعداد هائلة من الكتب ودوائر المعارف التي طُبعت طبعات جديدة تعيد صياغة أحداث الثورة وتعيد تشريح ودراسة شخصياتها البارزة بطريقةٍ جديدةٍ تماماً بحيث تزيل وتمحو أثر (تروتسكي) أو تشوّه دوره الإيجابي في أحداث الثورة.

ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل حتّى اللوحات الزيتيّة الرائعة التي رسمها الفنّانون تخليداً لمجريات الثورة وأحداثها الحاسمة، عادت إليها ريشة الفنان، وبأمرٍ من ستالين، كي تمحو وجه (تروتسكي) حيثما ظهر فيها، وقد قاموا بالعمل ذاته في الأرشيف الذي يحتوي على الصور الفوتوغرافية الهامّة، فأجروا عليها الكثير من التعديلات التي تصبّ في المجرى ذاته[1].

---

(١) أحمد بهاء الدّين، المثقّفون والسلطة في عالمنا العربي (كتاب العربي)، الكتاب ٣٨، الكويت ١٥ أكتوبر، ١٩٩٩م، ص١٥٧.

إذن، ما حدث منذ ما يقارب الأربعة آلاف عام يتكرّر أيضاً في القرن العشرين، القرن الذي غادرنا منذ سنوات قليلة فقط، ولذلك، فممّا لا شكّ فيه أبداً، أنّ عادة التزييف والتلاعب بالتاريخ هي عادةٌ مستحكمةٌ في العقول السلطوية، بل وفي عقول أولئك المفكّرين والباحثين الذين يعملون تحت إشراف السلطة وبرعايتها، فيكتبون ما تريده السلطة الحاكمة ويحذفون ما تشاء ويحرّفون ويشوّهون ما ترغب فيه وتبتغيه.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة نستطيع أن نؤكّد أنَّ تاريخنا العربيّ والإسلامي هو عبارةٌ عن حلقة من حلقات التاريخ البشري الطويل، وبالتالي هو أيضاً معرّضٌ للتزييف والتشويه وقلب الحقائق رأساً على عقب، شأنه في ذلك شأن أيّ تاريخٍ يُكتَب بِسياط الجلاد أو بسيف السيّاف أو حتّى بريشة الكاتب المُعتاش على فُتات موائد السلطان الحاكم.

ولسنا هنا بمعرض الحديث المطوّل والمعمّق حول حجم وطبيعة التشويه والتزييف اللذين لحِقا بتاريخنا، وبشكلٍ خاص التاريخ الإسلاميّ الذي كان له النصيب الأوفر من طمس الحقائق قياساً بما لحق التاريخ العربي عموماً من تزوير وقلبٍ للوقائع والحقائق، ولكن كلّ ما نريد أن نقوله هنا هو أنّ حادثة كربلاء، تلك الحادثة الفاجعة التي اهتزَّ لها الضمير الإنسانيّ عموماً لم تكن أيضاً بمعزلٍ وبمنأى عن يدِ الدّهاء والمكر التي تريد أن تنال من قيمتها الفكريّة ومن معانيها الروحية، بل وتريد أن تجُمِّل صورة القاتل أيضاً في الوقت الذي تريد فيه أن تشوّه صورة الضحيّة وتزيّف قائمة المبادئ والقيم التي كانت تلك الضحيّة تسعى لتحقيقها بكلّ ما أوتيت من عزمٍ وتصميمٍ وإيمان.

ومن هنا يأتي دور كتابنا هذا في الردّ على أولئك المتعصّبين الذين يريدون أن

يدافعوا عن القتلة وأن يلتمسوا لهم الأعذار والحجج في كلّ ما أقدموا عليه من عملٍ شنيعٍ أو تصرُّفٍ فظيعٍ يتنافى مع أبسط قواعد ومبادئ الإسلام ومع أدنى حدٍّ من حدود الإنسانيّة.

وليس هذا فحسب، بل يأتي دور هذا الكتاب أيضاً في كشف الكثير من الحقائق التي تتعلّق بالمبادئ والأهداف والغايات التي يسعى إلى تحقيقها كلٌّ من الطرفين المتصارعين في كربلاء على كافّة المستويات الحياتية والأخرويّة.

والأهمّ هذا، هو أنّ الزاوية التي سننظر منها إلى فاجعة كربلاء لن تكون زاوية ذات نظرةٍ شيعيّة أو رؤية إماميّة، بل ستكون الرؤية منطلقة من زاوية أكثر اتساعاً وشموليّة، إنّها الرؤية المبنيّة على الفكر الإنسانيّ العامّ وعلى الضمير العالمي الشامل، إنّها تلك الرؤية الإنسانية العالمية التي لا تعترف بحواجز المكان ولا تعترف بحدود الزمان، ولا حتّى بمبدأ تأطير الفاجعة ضمن خطوط وحدود الدّين الواحد الذي وُلِدت الفاجعة الكربلائية في أحضانه.

ويرى أصحاب تلك النظرة الإنسانيّة العامّة أنّ المساحة الزمنيّة التي تحتلّها كربلاء على امتداد الوجود البشريّ تبدأ منذ اليوم الذي اغتال فيه (قابيل) أخاه الوحيد والمظلوم (هابيل) باللجوء إلى الحوار الدمائي معه دون وجه حقّ، وتنتهي عند حدود آخر فاجعة يمكن أن يشهدها مسرح الحياة في عمليّة الصراع المرير والدائم بين قوّى الخير وقوى الشرّ، فالفاجعة الكربلائية عند أولئك المفكّرين والأدباء ـ كما سنرى لاحقاً في فصول هذا الكتاب ـ تمثّل الاختزال الحقيقي لكلّ بلاءٍ وابتلاءٍ حلّ بعالَمِ الأنبياء والرسل أو بعالم الفواجع البشريّة التي دفع فيها الإنسان المؤمن أغلى ما يملك من ولدٍ ومالٍ وروحٍ ودماءٍ من أجل الدفاع عن قِيَمِ الحقّ والخير والفضيلة ومن أجل

إبقاء الشعلة الإلهية حيّةً ودائمةَ الاتّقاد في صدور المؤمنين بالله من جهة، وبكرامة الإنسانيّة وقِيَمها ومُثُلِها الرفيعة من جهةٍ أخرى.

وهنا نعتقد أنّ الوقت قد حانَ فعلاً للانطلاق في رحلتنا المؤثّرة عبر صفحةٍ داميةٍ من صفحات التاريخ الإسلاميّ لنتعرّف من خلالها على ماهيّة الصراع بين الحقّ والباطل، بين الخير والشرّ، بين النّفس المطمئنّة والنّفس المسوِّلة، وليكنْ شعارنا دائماً هو: (الحقّ هو القوّة وليست القوّة هي الحقّ).

أهل البيت عليهم السلام عمادُ الوجودِ ورحمتُه

أنْ نبدأ الحديث عن أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام، معنى ذلك أن نتحدّث عن رسالة الإسلام السماوية بكلّ قِيَمها وبكلّ أبعادها الروحيّة والفكرية، معنى ذلك أن نتحدّث عن القرآن العظيم الخالد بكلّ ما يختزن من مفردات وجوديّة وبكلّ ما يملك من ذخائر معرفيّة تتناول الحياتين الدينية والدنيوية.

أنْ نتحدّث عن أهل البيت المحمديّ عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً، معنى ذلك أن نتحدّث عن الطهر الإلهي وعن الصفاء السّماوي الأزلي السرمديّ المستمدّ في وجوده وبقائه من ديمومة الحقّ الأبلج المطلق، ذلك الحقّ الذي لا يُحدّ بِحدٍّ ولا يُقاسُ بِندٍّ.

أنْ نتحدَّث عن آل بيت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذين افترض الله سبحانه وتعالى مودَّتهم ومحبَّتهم في محكم تنزيله الشريف على كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ ومؤمنٍ ومؤمنةٍ، يعني ذلك أن نتحدّث عن معاني الحبّ ورموزه، عن التجسيد العملي والحركي لكلّ جانبٍ من جوانب الحبّ الأسمى، عن تلك القوّة الهائلة التي يمنحنا الحبُّ إيّاها كي نقف بثباتٍ وبقوّة إيمانٍ أمام رياح الشرِّ وعواصفه وأمام الأمواج العاتية التي تجتاحنا أحياناً من الدّاخل حيث تستيقظ مع تلك الأمواج كوامنُ النّفس الأمّارة بالسّوء وتثور معها أيضاً نزعات ورغبات النّفس المسوّلة لتجعل من ذواتنا هشيماً وحطاماً، بل وأثراً بعد عين أيضاً.

فالله محبّة، والمحبّة لا تفيض إلا من ذاتها ولا تلقي على الآخرين إلا وَريفَ ظلالها.

والمحبّة نورٌ أيضاً، والنّور لا يقبل أن يجتمع مع الظلام في مكانٍ واحدٍ وفي زمانٍ واحد أبداً.

ولأنّ الله نورٌ ولأنّ الله محبّة، فإنّ الله سيتجلّى نوراً ومحبّةً في قلوب المحبّين العاشقين: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1]، فدائرة العشق الإلهي لن تكتمل عند العاشق المحبّ ما لم يصل إلى حالة محوِ المحبِّ لصفاته من أجل إثبات وتأكيد المحبوب بذاته.

والحبّ في وجودنا لا يتحرّك في فراغٍ ولا يتجسّدُ ويتجلّى في غير أهله، الحبّ ليس معنىً مجرّداً وليس هو عبارةٌ عن حالة غيبيّة ميتافيزيقيّة، بل هو حالة حركة وثورة داخليّة، وهو حالةٌ توحّديّة يتّحد فيها المحبّ مع الحبّ ذاته من أجل الوصول إلى الحبيب المقصود.

فروح المؤمن أشدُّ اتّصالاً بالله من شعاع الشمس بقرصها، وكذلك الحالُ في نهاية المطاف بين الطالب والمطلوب، بين الحبيب والمحبوب.

وعندما نتكلّم عن أهل البيت عليهم السلام فإنّنا نتكلّم عن كلمات الله التامّات التي تلقّاها سيدنا آدم (عليه الصّلاة والسّلام) من ربِّه الغفور الرحيم فتاب عليه، فأهل بيت الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم هم الكلمات التامّات وهم أنوار العرش العظيم وهم مصابيح الهدى وسفن النجاة، وهم سفينة نوح وباب حطّة، وهم عماد الوجود وأساس كلّ موجود.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

وليست هذه الأوصاف المختصّة بأهل البيت عليهم السلام هي مجرّد أوصافٍ نلتقي بها كثيراً في كتب ومؤلّفات المسلمين الشيعة بحيث يخُيَّل للمرء أنّها أوصاف مُبالغ فيها وربّما تكون أوصافاً نابعةً من عاطفةٍ مذهبيّةٍ جيّاشة تتجاوز في عمقها وشدّتها كلّ حدٍّ وتصورٍ، بل هي في الواقع أوصاف حقيقية صادقة ويمكن لنا أن نقع عليها في الكثير من مؤلّفات ودواوين إخواننا المسلمين السنّة، وليس هذا فحسب، بل حتّى أنّه يمكننا أن نقرأ تلك الأوصاف العميقة والتوصيفات الدقيقة في الكثير من كتب ودواوين ودراسات المفكّرين المسيحيين أيضاً.

والشيء الآخر الذي يمكننا أن ندركه أيضاً هو أنّ تلك الصفات العميقة التي ذكرناها بشأن حقيقة أهل البيت عليهم السلام والتي سنستعرضها لاحقاً في كتب السنّة والمسيحيين، لم تكن ناتجةً عن عاطفةٍ مذهبيّةٍ أو عن عصبيّةٍ فئويّة، بل هي أوصاف وحقائق جاء بها رسول الإنسانيّة صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك الرسول الذي لا ينطق عن الهوى، بل هو الرسول الأمين الذي يبلّغ النّاسَ ما يوحى إليه عن ربّ العالمين دون زيادةٍ أو نقصان وبكلِّ صدقٍ وأمانة.

ولو توقّفنا الآن قليلاً مع أهل البيت عليهم السلام، ذلك البيت النبويّ الشريف والذي يمثّل الإمام الحسين عليه السلام أحد أقطابه الهامّة، فإنّنا نستطيع أن نقول من خلال هذه الوقفة القصيرة إن أهل البيت النبويّ عليهم السلام هم المرموز إليهم في محكم التنزيل بـ (المؤمنين) وَ(الصادقين) وَ(خير البريَّة) وَ(أهل الذّكر) وإلى غير ما هنالك من أوصافٍ حميدةٍ لا تليق إلا بهم عليهم السلام.

وفوقَ كلّ ذلك، هُم معتمدُ كلّ الأنبياء والمرسلين السابقين عليهم السلام، وهم كهفهم وملاذهم، وبهم وبفضلهم كانت نجاتهم من المهالك وكان خلاصهم من كلّ هَمٍّ

وغمّ.

فما هي الكلمات التي تلقّاها آدم عليه السلام من ربّه حتّى تابَ عليه؟!

وماذا قال سيّدنا إبراهيم عليه السلام حتّى جعل الله سبحانه وتعالى النّار برداً وسلاماً عليه؟!

وكيف فرّج الله الكربات عن النبيّ الصابر أيوب؟!

وكيف استجاب الله لدعاء يعقوب؟!

وكيف تخلَّص سيدنا يوسف من البلاء العظيم عندما أُلقيَ في غياهب الجبِّ؟!

إنّها، بلا شكّ، أسئلة بالغة الحساسية ومثيرةٌ بالفعل، غير أنَّ الإجابة عليها ستكون بدورها أكثر إثارةً وأعظم دلالةً على خصيص مكانة أهل البيت عليهم السلام في الكِتابين الإلهيين العظيمين، الكتاب التدويني المتمثّل بالقرآن الكريم، والكتاب التكويني المتمثّل بالوجود وعالم الإمكان.

وقبل الإجابة على بعض تلك الأسئلة المطروحة سابقاً، لابدّ لنا من الوقوف على تفسير بعض الآيات القرآنية الشريفة لنتعرّف من خلالها على المكانة الرفيعة التي يشغلها آل بيت النبوّة في الكتاب الإلهي العظيم.

وعلى سبيل المثال، فقد جاء في كتاب (الصواعق المحرقة) لشهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي، وفي غيره من كتب السنّة المعتبرة، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً﴾[1].

قوله: وأخرج أحمد عن ابن عباس (في تفسير الآية المذكورة) هي (المودّة لآلِ

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

محمد صلّى الله عليه (وآله) وسلّم)[١].

وقد جاء في العديد من كتب السنّة أيضاً أنّ المقصود من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٢] هم آل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى سبيل المثال أيضاً، فقد ذكر المتقي الهندي الحنفي في كتابه (كنز العمال) والحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي في كتابه (الدرّ المنثور) أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لمّا نزلت هذه الآية ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾: «ذاك من أحبَّ الله ورسوله وأحبَّ أهلَ بيتي صادقاً غير كاذب وأحبّ المؤمنين شاهداً وغائباً، ألا بذكر الله يتحابّون»[٣].

وقد جاء في صحيح الإمام مسلم أنّه لمّا نزلت هذه الآية ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا

---

(١) راجع ما جاء في كلٍّ من:

أ- شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي، الصواعق المحرقة، المطبعة الميمنيّة بمصر المحروسة، ١٣١٢هـ، ص١٠١.

ب- الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري الشهير بالحاكم، مستدرك الصحيحين، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد دكن، ١٣٢٤هـ، ج٣ ص١٧٢.

جـ- الإمام محمود بن عمر الزمخشري، تفسير القرآن المسمّى بالكشّاف، مطبعة مصطفى محمد بمصر، ١٣٥٤هـ، راجع ما جاء في تفسير الآية المذكورة ضمن شرح سورة (الشورى).

د- الإمام جلال الدين السيوطي الشافعي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، المطبعة الميمنيّة بمصر، ١٣١٤هـ، راجع تفسير الآية المذكورة ضمن شرح سورة (الشورى).

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٣) راجع على سبيل المثال ما جاء في:

أ . المتقي الهندي، كنز العمال ج١ ص٢٥١، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد دكن، ١٣١٢هـ.

ب . الإمام السيوطي الشافعي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، مصدر سابق، راجع ذيل تفسير الآية المذكورة.

وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ﴾[١]، وهي الآية المعروفة باسم آية المباهلة، دعا رسولُ الله ﷺ عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال: «اللهمّ هؤلاء أهلي»[٢].

وهناك أيضاً عشرات الآيات القرآنية المباركة التي نزلت لتبيان فضائل أهل البيت المحمديّ الطاهر عليهم السلام ولإظهار خصيص مكانتهم وسموّ مواقعهم، ولكنّنا لا نستطيع أن نورد كلّ ما جاء في حقّهم من مدحٍ وثناءٍ في محكم التنزيل الإلهيّ المبارك وذلك لأنّ موضوع كتابنا الأساسي يفرض علينا أن لا نسهب كثيراً في الكلام عن كلّ ما من شأنه أن يبعدنا عن الفكرة الأساسيّة والموضوع الرئيسي لهذا الكتاب.

ولكن يكفي أن نقول إنّ آية المودّة **﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى...﴾** وهي الآية رقم (٢٣) من سورة الشورى، وإنّ آية التطهير **﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾** وهي الآية (٣٣) من سورة الأحزاب، هما آيتان قرآنيتان واضحتان من حيث نزولهما على آل بيت المصطفى عليهم السلام بحيث إنّ كلّ المفسّرين والرواة المسلمين، على مختلف أطيافهم ومشاربهم قد أجمعوا على نزولهما في أهل بيت محمد عليهم السلام حصراً.

ولو انتقلنا الآن من دائرة القرآن الكريم إلى دائرةٍ أخرى، وهي دائرة الحديث النبويّ الشريف، لنرى كيف كان الرسول المصطفى ﷺ ينظر إلى أهل البيت عليهم السلام وكيف كان يراهم بنور بصيرته وبصفاء سريرته، فإنّنا سنقع أيضاً على الكثير من الأحاديث النبويّة الهامّة التي تتداولها كتب المسلمين جيلاً إثر جيل، وستبقى، بلا

(١) سورة آل عمران: الآية ٦١.

(٢) الإمام مسلم، صحيح مسلم ج٧، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده . مصر، راجع ج٧ ص١٢٠. ١٢١.

ريب، كذلك طالما أنّ المسلمين يسمعون الأذانَ والصلاة على محمد وآل محمد خمس مرّات في كلّ يوم.

وعلى سبيل المثال، روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي هريرة أنّه قال: نظر النبيّ صلّى الله عليه (وآله) وسلّم إلى عليّ والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، فقال: «أنا حربٌ لمن حاربكم وسلمٌ لمن سالمكم»(١).

أمّا الحافظ أبو جعفر أحمد بن عبد الله الشهير بـ (المحبّ الطبري) فقد روى في كتابه (الرياض النضرة) عن أبي بكر أنّه قال: رأيت رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلّم خيَّم خيمةً وهو مُتكئ على قوس عربيّة، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فقال: «معشر المسلمين أنا سلمٌ لمن سالم أهل الخيمة، حربٌ لمن حاربهم، وليٌّ لمن والاهم، لا يحبّهم إلا سعيد الجدّ، طيّب المولد، ولا يبغضهم إلا شقيّ الجدّ، رديء الولادة»(٢).

وقد روى الحاكم النيسابوري أيضاً في كتابه (مستدرك الصحيحين) عن زيد بن أرقم أنّه قال: لمّا رجع رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلم من حجّة الوداع ونزل غدير خم أمرَ بدوحاتٍ فقال: «كأنّي قد دُعيتُ فأجبت، إنّي قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»(٣).

وربما كان الحديث النبويّ الشريف الذي سنورده الآن هو الحديث الأكثر شهرةً في كتب المسلمين عموماً، إنّه حديث الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذي يصوّر فيه أهل

---

(١) راجع مسند الإمام أحمد بن حنبل ج٢ ص٤٤٢، طبع المطبعة الميمنيّة بمصر، ١٣١٣هـ.

(٢) المحبّ الطبري، الرياض النضرة ج٢ ص١٩٩، مطبعة الاتحاد المصري. الطبعة الأولى.

(٣) الحاكم النيسابوري، مستدرك الصحيحين ج٣ ص١٠٩، مصدر سابق.

بيته عليهم السلام بصورة باب حطّة وبسفينة نوح، فقد جاء في الكثير من كتب المسلمين السنّة أنّ الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، الذي لا ينطق عن الهوى، أنّه قال: «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق»(١)، وأنّه صلى الله عليه وآله قال في موضعٍ آخر: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق، وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل من دخله غُفِرَ له»(٢).

ولا شكّ في أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قد استفاض في بيان مكانة أهل البيت عليهم السلام للمسلمين وكان صلى الله عليه وآله دائم التذكير بضرورة التمسّك بهم وبموالاتهم واتّباع نهجهم ولو بخوض اللجج وسفك المُهج وذلك لأنّهم هم عليهم السلام في نهاية المطاف وجه الرحمن وترجمان القرآن.

وانطلاقاً من هذه النقطة الهامّة والأساسيّة نرى لِزاماً علينا أن نذكر المزيد من الأحاديث النبويّة الشريفة التي وردت في كتب إخواننا السنّة والتي كان لها أبلغ الأثر في نفوس عموم المسلمين من جهةٍ وفي نفوس وعقول الكثير من المفكّرين

---

(١) راجع على سبيل المثال، لا الحصر، ما جاء في:
أ. الحاكم النيسابوري، مستدرك الصحيحين ج٢ ص٣٤٣، مصدر سابق.
ب. الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء ج٤ ص٣٠٦، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٥١هـ.
جـ. الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج١٢ ص١٩، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٩هـ.
د. الحافظ أبو جعفر أحمد بن عبد الله (المحبّ الطبري)، ذخائر العقبى ص٢٠، مكتبة القدسي. القاهرة، ١٣٥٤هـ.
هـ. الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، كنوز الحقائق ص١٣٧، مكتبة الزهراء. القاهرة ط١، ١٩٨٥م.

(٢) الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ج٩ ص١٦٨، مكتبة القدسي. القاهرة، ١٣٥٢هـ.

المسيحيين وغير المسيحيّين من جهةٍ أخرى.

ولكن قبل أن نورد المزيد من الأحاديث النبويّة الشريفة المتعلّقة بفضائل أهل البيت عليهم السلام وبسموّ مكانتهم، ينبغي أن أشير إلى أنّ الاستزادة من هذه الأحاديث النبوية الشريفة عن أهل البيت عليهم السلام عموماً ليست خروجاً عن موضوع بحثنا الأساسيّ والمتمثّل بالحديث عن الإمام الحسين عليه السلام وعن ثورته المباركة، وإنّما هي جزءٌ هامٌّ من موضوع بحثنا وذلك لأنَّ أهل البيت عليهم السلام ذوو جوهرٍ واحدٍ ومعدنٍ واحد، وبالتالي فإنّ الكلام عنهم عليهم السلام هو بنفس الوقت كلامٌ عن كلّ فردٍ منهم، والكلام عن كلّ فردٍ منهم هو، بالضرورة أيضاً، كلامٌ عنهم بالإجمال وذلك بسبب التوحّد في الجوهر والتعدّد في المظهر.

ولا ريب في أنّ الشاعر المسيحيّ المعاصر (خليل فرحات) كان محقّاً في قصيدته المطوّلة (في محراب عليّ) عندما وصف أهل البيت عليهم السلام بأنّهم أكثر رقّةٍ وشفافيّة من النّور ذاته لأنّهم هُم في مجملهم يمثّلون خلاصة اللطف النورانيّ الإلهيّ، وها هو يقول معلناً ذلك بكلّ صدقٍ وإيمانٍ ومؤكّداً على حقيقة توحّدهم في الجوهر وتعدّدهم في المظهر:

محالُ عبور الشمس جسرُ شروقهم   وهم يعبرون الضوء من غير ما جسر
يذوبون في الأنوار حتّى كأنّهم   خلاصة لطف الله في خالص الأجْرِ[1]

وعلى كلّ حالٍ، وحتّى لا نطيل المقدّمات على قارئنا الكريم، دعونا الآن

---

(١) خليل فرحات، في محراب علي (مطوّلة شعرية) وهي منشورة بالكامل تقريباً في مجلّة (الموسم) العدد السابع، صدر العدد في هولندا (١٩٩٠)، أمّا القصيدة الكاملة فمطبوعة بشكلٍ مستقلّ وتحمل نفس العنوان أيضاً مع مقدّمة طيّبة بقلم الأديب والشاعر اللبناني الراحل نجيب جمال الدين، راجع البيتين السابقين في الصفحة ٢٧.

نستعرض باقةً من أحاديث النبيّ المصطفى حول حقيقة منزلة أهل بيته عليهم السلام المطهّرين من كلّ دنسٍ ورجس.

قال الصادق الأمين صلى الله عليه وآله: «من حفظني في أهل بيتي فقد اتّخذ عند الله عهداً»[1].

وقال صلى الله عليه وآله: «شفاعتي لأمّتي من أحبّ أهل بيتي وهم شيعتي»[2].

وقال صلى الله عليه وآله في موضعٍ آخر وعلى رؤوس الأشهاد: «من مات على حبّ آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات تائباً، ألا ومن ومات على حبّ آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حبّ آل محمد بشّره ملك الموت بالجنّة ثمّ منكر ونكير، ألا ومن مات على حبّ آل محمد يزفّ إلى الجنّة كما تزفّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حبّ آل محمد فُتِحَ له في قبره بابان إلى الجنّة، ألا ومن مات على حبّ آل محمد جعل الله قبره مزاراً لملائكة الرحمن، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات على السنّة والجماعة، ألا ومن مات على بُغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيسٌ من رحمة الله، ألا ومن مات على بُغضِ آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشمّ رائحة الجنّة»[3].

ومن الأحاديث النبويّة الهامّة التي يمكن أن نذكرها هنا، هو ذاك الحديث الذي وردَ أيضاً في العديد من كتب السنّة والذي يمتلك في ذاته دلالات معنويّة عميقة لا

(١) المحب الطبري، ذخائر العقبى ص١٨، مصدر سابق.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج٢ ص١٤٦، مصدر سابق.

(٣) راجع ما جاء في:

أ. الزمخشري، التفسير المسمّى بـ (الكشّاف)، مصدر سابق، راجع ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ في سورة الشورى.

ب. العلامة سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة ج١ ص٢٦، مؤسسة الأعلمي. بيروت.

يمكن لكلّ ذي لبٍّ أن يغضي عنها أو أن يتجاهلها أبداً، ويقول نصّ الحديث، كما جاء في كتب إخواننا السنّة: «من لم يعرف حقّ عترتي والأنصار، فهو لإحدى ثلاث: إمّا منافق، وإمّا لزَنية، وإمّا لغير طهر، يعني حملته أمُّه على غير طهر»[١].

ولا ريب في أنّ كلام الرسول صائبٌ تماماً في شأن مَن لم يعرف حقّ عترته وأنصاره، بل كيف لا يكون الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم صائباً في ذلك وهو القائل مخاطباً المسلمين في منطقة (الجحفة): «ألستُ أولى بكم من أنفسكم؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال:

«فإنّي سائلكم عن اثنين: عن القرآن، وعن عترتي»[٢].

وعندما يقول الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم هذا الكلام عن الكتاب وعن العترة، فإنّ هذا يعني أنّ الرسول يريد أن يقول للمسلمين على مرّ العصور والأجيال أنّ هناك علاقةً وطيدةً ورابطةً وثيقةً بين طرفي المعادلة الأكثر أهميّة في رسالة الإسلام.

فالطرف الأوّل من المعادلة هو القرآن الكريم، ذلك الكتاب السّماوي الخالد الذي ﴿لا يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرُونَ﴾[٣]، وبالطبع ليس المقصود هنا من كلمة (لا يمسّه) عملية اللمس الماديّ، فشتّان بين المسّ واللمس، فاللمس عملية احتكاك ماديّ، بينما المسّ عملية نفسيّة معنويّة كأنْ نقول: إنّ فلاناً من النّاس فيه مَسٌّ من الشيطان أو

(١) الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي، إحياء الميت بفضائل أهل البيت ص٤٥، منشورات معاونيّة العلاقات الدولية. طهران، ١٩٨٨م.

(٢) راجع ما جاء في:

أ. الحافظ جلال الدين السيوطي، إحياء الميّت بفضائل أهل البيت ص٦٢، مصدر سابق.

ب. الحافظ الهيثمي، مجمع الزوائد ج٥ ص١٩٥، مصدر سابق.

جـ. الحافظ أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء ج١ ص٦٤، مصدر سابق.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

الجنّ.

وبالتالي، فإنّ المقصود من الآية السابقة شيئان أساسيان، وهما: أولاً: لا يستطيع أحدٌ أن يمسّ معاني القرآن النبيلة وقِيَمه السّامية ما لم يكن ذلك المرء من أصحاب الطهارة الروحية والنقاوة النفسية بإقبالهم على الله وبمحبّتهم لرسوله وكتابه.

ثانياً، إنّ المقصود من الآية السابقة هو أنّ القرآن بذاته هو كتاب طاهر مطّهرٌ من كلّ نقصٍ وخطأ وعيب، فهو كتابٌ سماويّ كامل وخالد وقد صَدَرَ حقّاً عن إلهٍ حكيمٍ مطلق الكمال والجلال.

أمّا الطرف الثاني من المعادلة، فهو العترة الطاهرة، تلك العترة المباركة التي أخبرنا الله سبحانه وتعالى عنها بأنّه قد أذهب عنها الرّجس وطهّرها تطهيراً، وهذا يعني بدوره أنّ عترة النبيّ المصطفى ﷺ هم أيضاً، كالقرآن الكريم، مُبرَّؤون من كلّ نقصٍ وخطأ وعيب، فهم بالتالي يمثّلون الجانب العملي والحركي من القرآن الكريم.

وبما أنّ القرآن الكريم هو الكتاب الشامل لدراسة مفردات الحياة الدينية والحياة الدنيويّة، فإنّ عترة محمد المصطفى عليهم السلام هم رُسُل القرآن إلى الإنسان، وهم أيضاً صوت الرحمن بين خلقه، ولذلك، عندما نفتح ونقرأ الصفحة تلو الصفحة في كتاب أهل البيت الشريف عليهم السلام، فإنّ ذلك يعني أنّنا نقرأ صفحات الإيمان في كتاب الإسلام برحابته مُثُلاً وقِيَماً، وبسعته فكراً وعلماً، وبامتداده وعمقه نهجاً وسلوكاً واتّساع حياة.

فكلّ صفحةٍ نقرؤها عن أهل البيت عليهم السلام نقرأ فيها غايات المصطفى ﷺ السامية وأهدافه النبيلة، ونرى فيها تجلّيات العظمة وأطياف الأنوار العُلوية المتماهية في جوهرها ومعدنها مع أنوار الكتاب السماوي الأقدس المنفتح على مسرح الوجود بكلّ أبعاده ومتحوّلاته، وبكلّ انطلاقاته ومستجدّاته المادية والمعنوية، جسداً وروحاً.

ومع ذلك، قد يستغرب بعض القرّاء عندما تقع عيونهم على ما كتبه الأستاذ الأزهري (فكري أبو النصر) عن مكانة أهل بيت النبوّة عليهم السلام عند الباصرين من أهل السنّة، فالأستاذ (أبو النصر) أحد خرّيجي الأزهر الشريف، وكان يعمل محرّراً في جريدة الأهرام القاهريّة، وله عدّة مؤلفات فكرية مثل (من كفاحنا الفكري) وَ(ذكريات خالدة) وغيرهما.

وقد درس الأستاذ (أبو النصر) التاريخ الإسلامي دراسةً وافية وعميقة، ودرس بنفس الوقت الخلافات المذهبية بين العديد من المذاهب والطوائف الإسلاميّة ومرتكزات تلك الخلافات وأسبابها، ولكنّه أبى أن يقول إلا الحقّ بعد أن انتهى من تلك الدراسات والتحليلات، وكان من جملة ما قاله عن المكانة الحقيقية لأهل البيت النبويّ المطهّر كطهر القرآن:

(وإيمان الشيعة المطلق بأنّ الإمام عليّاً وآل البيت النبويّ الكريم كانوا أحقّ بها وأهلَها صلاحاً لأمر الإسلام والمسلمين إلى يوم الدّين، وهو ما يؤمن به ويتّفق معهم صفوة كبيرة من علماء السنّة كذلك.

... فأيُّ سنّيٍّ ينكر على آل البيت طهرهم وأحقّيتهم في الخلافة الدينية للمسلمين، أو ينكر تشيّعه لهم والاستضاءة بنورهم!!)[1].

نعم، قد يبدو هذا الكلام غريباً لأوّل وهلة، خاصةً أنّه كلامٌ صادرٌ عن قلم مفكّرٍ سنّي أزهري، ولكن سرعان ما ستتبدّد غيمة الغرابة تلك بعد أن نقرأ عشرات الكتب والمقالات المشابهة لما قاله الأستاذ (أبو النصر)، ولكنّ هذه المرّة من أقلام مفكّرين

---

(١) السيد مرتضى الرضوي، آراء المعاصرين حول آثار الإماميّة ص١٨٧، مطبوعات النجاح بالقاهرة، ط١، ١٩٧٩م.

ليسوا بالشيعة ولا حتّى بالسنّة، وإنّما من أقلام مسيحيّة أَبَتْ أن تنطق إلا بالحقّ، ورفضت أن تبوح إلا بالصدق.

وها هو المفكّر والأديب اللبناني (نصري سلهب)، وهو مفكّر مسيحيّ بارز، يرى أنّ أحد أهمّ أسباب تراجع العرب والمسلمين وتقهقرهم وتخلّفهم عن الركب الحضاريّ هو ابتعادهم عن أهل البيت عليهم السلام وعن مبادئهم وتعاليمهم، فالعرب والمسلمون الذين تنكّروا لأهل الحق في الماضي حيث قَبلوا أن يحكمهم ويتأمّر عليهم من هو ليس بالشخص الجدير باستلام زمام أمور المسلمين مُبعِداً أهل الخلافة الحقيقية تارةً بالسمِّ والنّار وتارةً أخرى بالسّيف والدّماء، هم العرب والمسلمون الذين فاتهم لاحقاً اللحاق بركب المستقبل الحضاري الذي تعيشه الكثير من الأمم الحالية دونهم، فالخوف على العرب والمسلمين، إذن، هو خوفٌ من الأمس على الغد.

وها هو الأستاذ (سلهب) يقول بكلّ صراحةٍ وجرأةٍ معبّراً عن ذلك:

(كلّما ذَكَرتُ (أمّةُ العرب) أنّ أولئك الذين جعلوا من أنفسهم أمراءَ مؤمنيها، خلفاءَ نبيّها، وارثي رسول ربّها، قد استباحوا الدّم الزكيّ العطر فغدروا بأهل البيت، أولاداً ورُضّعاً، نساءً وعُجّزاً، فتياتٍ وعُزّلاً.

كلّما ذكرتُ أنّ الغادرين، سافكي الدّماء، هادري الحياة، هُم منها عرب أقحاح، بَكَتْ وخافت من أمسها على غدِها)(١).

ويحقُّ لهذا المفكّر المسيحيّ أن يقول ذلك لأنّ الإنسان الذي يرى بنور بصيرته قبل أن يرى بنور عينيه سيرى أنّ الأمّة التي تخالف أهمّ وصايا رسولها السّماوي لن يكون مصيرها أفضل من مصير الأمم السابقة التي قامت بنفس الفعل وارتكبت نفس

(١) نصري سلهب، في خُطى عليّ ص١٧، دار الكتاب اللبناني. بيروت، ط١، ١٩٧٣م.

الأخطاء.

فالأمّة التي تدّعي أنها أمّة القرآن في الوقت الذي تخَلَّتْ فيه عن التمسّك بالطرف الثاني من وصيّة نبيّها الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم (القرآن والعترة)، هي أمّةٌ تعيش حالةً من حالتين اثنتين: إمّا حالة النّفاق الروحيّ وإمّا حالة الفِصام النفسيّ، وفي كِلتا الحالتين هي أمّةٌ جديرةٌ بالرثاء لمِا آل إليه أمرُها واستقرّت عليه حالتها.

ومهما يكن من أمرٍ، فَرُبَّ قائلٍ يقول لنا: قد عرفنا مكانة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم، وعرفنا أيضاً منزلتهم الرفيعة عند رسول ربّ العالمين صلى الله عليه وآله وسلم، فهل لنا أن نتعرَّف على مكانتهم من خلال ما وصفوا هم أنفسهم به؟!

أليس من العدل والحكمة أن نستمع إليهم وهم يصفون أنفسَهم ـ وهم العترة الصادقة في كلّ ما تقول ـ خاصةً وهُم المطهّرون من كلّ رجسٍ والمنزَّهون عن كلّ دنسٍ بشهادة القرآن الكريم؟!

نقول لكلّ من يسأل ذلك: إنّك محقٌّ في طلبك وصائبٌ في مرماك، وها نحن نلبّي لك مطلبك بكلّ سرورٍ وبرحابة صدر، وليكن أوّل قولٍ يمكن أن نستشهد به الآن على حقيقة منزلة أهل بيت النبوّة عليهم السلام هو قول أمير المؤمنين وسيّد البلغاء والمتكلمين وإمام المتألّهين علي بن أبي طالب عليه السلام.

يقول الإمام علي عليه السلام في كتاب (نهج البلاغة): «هُم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وصمتُهم عن حِكَم منطقهم، لا يخالفون الحقّ، ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحقّ إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانُه عن منبته، عَقَلوا الدّين عقلَ وعاية ورعاية، لا

عقل سماع ورواية، فإنّ رواة العلم كثيرٌ، ورعاتُه قليل»[١].

إنّهم عليهم السلام، إذن، حياة العلم وبقاؤه، وهم أيضاً موت الجهل وفناؤه، إنّهم عليهم السلام أهل الحقّ في منهج الصدق، وهم راية الرحمن ومدحرة الشيطان.

ولو انتقلنا من قول أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى قول ابنه الأكبر، الإمام الحسن الزكيّ عليه السلام فماذا يمكننا أن نقرأ في وصفه لأهل البيت النبويّ الكريم؟!

بالطبع، بإمكاننا أن نقرأ الكثير والكثير عن وصفه لآل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنّنا لن نطيل على القارئ الكريم وسنكتفي بذكر مقولةٍ واحدةٍ من مقولاته الكثيرة والهامّة، وسنعتمد في ذكر هذه المقولة على ما جاء في كتاب (مستدرك الصحيحين) للحاكم النيسابوري.

لقد ذكر الحاكم النيسابوري بسنده عن علي بن الحسين عليهما السلام، قال: خطب الحسن بن علي عليهما السلام على النّاس حين قُتِلَ علي عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه، فَسَاقَ الحديث إلى أن قال «أيّها النّاس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن النبيّ صلّى الله عليه (وآله) وسلّم، وأنا ابن الوصيّ، وأنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، وأنا ابن الدّاعي إلى الله بإذنه، أنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين كان جبريل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلمٍ، فقال تبارك وتعالى لنبيّه صلّى الله عليه (وآله) وسلّم ﴿**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**﴾[٢]، ﴿**وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً**﴾[١] فاقتراف الحسنة

---

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، شرح: محمد عبده، الدار الإسلامية . بيروت، ط١ ص١٩٩٢، ج٢ ص٣٩٨.

(٢) سورة الشورى: الآية٢٣.

مودّتنا أهل البيت»[٢].

أمّا ما جاء عن الإمام الحسين عليه السلام، الذي هو الموضوع المحوريّ في كتابنا هذا، بشأن وصفه لأهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة، فَسَنُرجِئ ذكره الآن إلى المكان الذي نراه مناسباً حيث أوضحَ فيه الإمام الحسين عليه السلام للمسلمين من هم أهل البيت عليهم السلام وما هي رسالتهم وما هي غاياتهم وأهدافهم.

وإذا كنّا قد تجاوزنا الآن ما قاله الإمام الحسين عليه السلام، فإنّنا بالطبع لن نتجاوز ما قاله ابنهُ الإمام علي زين العابدين عليه السلام بشأن الموضوع نفسه.

فالإمام زين العابدين عليه السلام شهدَ فاجعة كربلاء الدامية وشهد كيف كان الشّهداء من أهل البيت عليهم السلام ومن أنصارهم الكرام يتساقطون الواحد تلو الآخر كتساقط أوراق الخريف المنذرة بقدوم شتاء عاصفٍ ومظلمٍ لا يعرف للرحمة طريقاً ولا للشمس سبيلاً، إنّه شتاء الأعاصير وظلام الليالي الحالكة لا شتاء الخير والبركة، إنّه شتاء الجفاف واليباب والموت عطشاً!!

وللإمام زين العابدين عليه السلام العديد من الأقوال والخطب التي تتناول وصف أهل البيت عليهم السلام ووصف الأهداف والغايات السّامية التي سعوا لتحقيقها مع معرفتهم أنّ ذلك السّعي يمكن أن يكلّفهم كلّ غالٍ ورخيصٍ، ولكنّنا آثرنا أن نختار من كلّ تلك الخطب والأقوال تلك الخطبة المؤثّرة التي ألقاها عليه السلام على مسامع أهل الشّام بعد أن اقتيد أسيراً إلى دمشق مع مَن تبقّى من نسوة وأطفال كي يَمثُلوا بين يديّ يزيد اللعين.

وقد مثّلتْ تلك الخطبة البليغة الوجه الإعلامي الصادق للثورة الحسينية، إذْ إنّها

---

(١) سورة الشورى: الآية٢٣.

(٢) الحاكم النيسابوري، مستدرك الصحيحين، مصدر سابق، ج٣ ص١٧٢.

قد استطاعت أن تُبرز بشكلٍ واضحٍ وعلنيّ أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام واستطاعت بنفس الوقت أيضاً أن تزيل اللثام عن الوجه القبيح لغطرسة يزيد وكفره وإنهاء أضاليله وأباطيله التي أشاعها بين النّاس حول أنّ الحسين عليه السلام وأهله وأنصاره هم مجموعةٌ من ثوّار خوارج عصوا وخرجوا عن الجماعة وشقّوا عصا الطاعة فقُضيَ عليهم!!

وعلى كلّ حالٍ، ها هو الإمام زين العابدين وسيّد الساجدين عليه السلام يقف أمام أهل الشّام وأمام يزيد اللعين ويقول مخاطباً إيّاهم بعد أن حمد الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه:

«أيّها النّاس أُعطينا ستّاً وفُضّلنا بسبع، أُعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفُضّلنا بأنّ منّا النبي والصدّيق والطيّار وأسد الله وأسد رسوله وسبطا هذه الأمّة، أيّها النّاس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي، أيّها النّاس أنا ابن مكّة ومِنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمَلَ الركنَ بِأطراف الرِّدا، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، وخير من طاف وسعى، وحجَّ ولبّى، أنا ابن من حُمِلَ على البُراق وبلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى فكان من ربّه كقابَ قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السّماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليلُ ما أوحى، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله ببدر وحنين ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين ووارث النّبيين ويعسوب المسلمين ونور المجاهدين وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ومفرّق الأحزاب، أربطهم جاشاً وأمضاهم عزيمةً، ذاك أبو السبطين الحسن والحسين علي بن أبي طالب، أنا ابن فاطمة الزهراء وسيّدة النساء وابن خديجة الكبرى، أنا ابن المرمّل بالدماء، أنا ابن ذبيح

كربلاء، أنا ابن من بكى عليه الجنّ في الظلماء وناحت الطّيرُ في الهواء»[١].

وهذه باختصار صورة أهل البيت عليهم السلام بشكلها الموجز والصّادق كما نقلها لنا لسانُ وبيان أهل تلك الدّوحة النبويّة المباركة، تلك الدّوحة التي لا تنطق إلا بالصدق ولا تعكس إلا صورة وجه الحقّ بين الخلق.

ولِمَ لا يكون أهل البيت عليهم السلام كذلك؟!

بل كيف نستغرب ذلك، وهناك مئات الأحاديث التي نقرؤها في كتب السنّة والتي تدلّ على عظمة أهل البيت عليهم السلام وعلى أنّهم أنموذج الكمال الصادر عن ذي العزّة والجلال؟!

ألم يثبت لنا العلامة الكبير الشيخ سليمان القندوزي (الحنفي) في كتابه القَيِّم (ينابيع المودّة) حديث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بشأن هذه الحقيقة وذلك بقوله صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين: «معرفة آل محمد براءة من النّار، وحبُّ آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمانٌ من العذاب»[٢]؟!

ألم يأت الإمام محمد الباقر عليه السلام بعد عدّة سنين، ليشرح لنا ما قاله جدُّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بحديثٍ مُطوَّلٍ وصريحٍ لمن طلب منه أن يعلّمه شيئاً عن ماهيّة ومنزلة أهل البيت عليهم السلام قائلاً: «نحن جنبُ الله وصفوته وخيرته، ونحنُ مستودع مواريث الأنبياء، ونحن أمناء الله عزّ وجلّ. ونحن حجّة الله وأركان الإيمان ودعائم الإسلام، ونحن من رحمة الله على خلقه، وبنا يفتح وبنا يختم، ونحن الأئمّة الهداة والدعاة إلى الله، ونحن مصابيح الدجى ومنار الهدى، ونحن العلم المرفوع للحقّ، من تمسّك بنا

---

(١) كريم جبر الحسن، الإمام السجّاد عليه السلام، مؤسسة البلاغ. بيروت، ١٩٩٠م، ص٣٤.
(٢) العلامة الشيخ سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، مصدر سابق، ج١ ص٢٢.

لحَقَ ومن تأخَّر عنّا غرق، ونحن قادة الغرّ المحجلين، ونحن الطريق الواضح والصراط المستقيم إلى الله، ونحن من نعمة الله عزّ وجلّ على خلقه، ونحن معدن النبوّة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة، ونحن المنهاج والسراج لمن استضاء بنا، ونحن السبيل لمن اقتدى بنا، ونحن الأئمّة الهداةُ إلى الجنّة، وعُرى الإسلام، ونحن الجسور والقناطر مَنْ مضى عليها لحَقْ ومَن تخلّفَ عنها محُِقْ، ونحن السّنام الأعظم، وبنا يُنزل الله عزَّ وجلَّ الرحمة على عباده وبنا يُسقون الغيث، وبنا يُصرف عنكم العذاب، فمن عرفنا ونصَرنا وعرف حقَّنا وأخذ بأمرنا فهو منَّا وإلينا»[1]؟!

نعم، لقد أتى كلّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام بالكثير من الأحاديث القيّمة والمشابهة لهذا الحديث الذي أوردناه عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، وكما يلاحظ القارئ الكريم، فقد تعمّدنا أخذ حديث الإمام محمد الباقر عليه السلام من كتاب (ينابيع المودّة) للعلامة الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي (الحنفي) لنؤكّد على حقيقة أنّ هذه الأحاديث الهامّة والمتميّزة بشأن عُلوِّ منزلة أهل البيت عليهم السلام ومقامهم لا يقتصر وجودها على كتب المسلمين الشيعة، بل هي أحاديث لها مكانتها اللائقة حتّى في كتب السنّة أيضاً.

وهذا لا يعني أنّ مفعول هذه الأحاديث والحقائق المنبثقة عنها ستبقى حبيسةً ضمن إطار المنظومة الفكريّة الإسلامية، بل إنّها ـ بلا شكّ ـ ستتجاوز حدود الدائرة الفكرية الإسلامية حتّى تصل وتتصل بالدوائر الفكرية الأخرى من مسيحيّة وغير مسيحيّة.

وهنا يحضرني الحديث عن لقاء تلفزيوني نادر مع رجل من رجالات الفكر

(١) نفس المصدر السابق، ج١ ص٢١.

والسياسة في لبنان، وكان ذلك اللقاء التلفزيوني الرائع يتمحور حول ذكرى بيعة الغدير المباركة من جهةٍ وحول فاجعة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام من جهةٍ أخرى.

وقد تطرَّق ضيفُ الحوار، الأستاذ (رشاد بولس سلامة)، نائب رئيس حزب الكتائب المسيحي اللبناني إلى النقطة المهمّة التي كنّا نتحدّث عنها منذ قليل، إنّها مسألة الدوائر الفكرية وضرورة تجاوز الفكر الحرّ لكلّ حدود الأوطان والأديان والمذاهب، وقد أكّد الأستاذ (رشاد سلامة) على حقيقة أنّ فكر أهل بيت الرسول المصطفى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم هو فكر خلّاق ونهج إنسانيّ شاملٌ يصلح أن يكون دستوراً لكلّ جيلٍ من الأجيال.

وقد ذكر الأستاذ (رشاد) أيضاً كيف أنّ والده الأديب والشاعر (بولس سلامة) قد غاص في بحار علوم وآداب أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام، وكيف غاص أيضاً في تاريخهم وفي سيرتهم المباركة العَطِرة، ومن ثمّ كيف عكس تلك السيرة العطرة في مؤلّفاته القيّمة عنهم عليهم السلام، وبشكلٍ خاصٍّ في ملحمته الشعريّة الخالدة المسمّاة بـ (عيد الغدير) تيمُّناً وتباركاً بذلك اليوم التاريخي الأغرّ[1].

ولا أخفي على القارئ الكريم أنّني كنت مشدوداً - شأني في ذلك شأن كلّ مشاهدٍ لذاك الحوار الثمين - إلى كلّ كلمةٍ كان يقولها الأستاذ (رشاد سلامة) لدرجة أنّني شعرت في نهاية الحوار كأنّني كنت في حالة تنويمٍ مغناطيسي حقيقيّ أمام شاشة التلفاز.

---

(١) جرى الحوار مع المفكّر والسياسيّ المسيحي اللبناني (رشاد بولس سلامة) على قناة (المنار) اللبنانيّة بتاريخ ٢٢/٣/٢٠٠٠م، الموافق لـ ١٨/ ذي الحجة/ ١٤٢٠هـ وذلك بمناسبة عيد الغدير، وقد كان الحوار مليئاً بالمتعة والفائدة والصراحة التي تثلج الصدور.

وغالباً ما كنت أسأل نفسي هذا السؤال:

كيف يمكن لرجلٍ مسيحيٍّ أن يتكلّم بهذه الروح المفعمة بالحبّ والولاء عن أهل بيت رسولٍ لا تربطه بهم صلةٌ دينيّة روحيّة مباشرة؟!

والحقيقة تُقال، إنّ هذا السؤال لم يكن هو السؤال الوحيد واليتيم الذي كان يقرع بوّابة ذهني، بل كان هذا السؤال عبارة عن مفتاح للكثير من الأسئلة الأخرى التي لعبتْ دورَ التداعيات الفكرية الناتجة عن السؤال الرئيسي الأول.

وغالباً ما كان يهدأ بالي وتستريح أمواجُ فكري عندما أقول بعد طول تفكيرٍ وعمق تحليلٍ إنّ ما قاله الأستاذ (رشاد سلامة) شيء مدهش حقّاً ويأخذ بمجامع القلوب، خاصّةً وأنّ هذا الكلام يجري على لسان مُفكّرٍ مسيحيٍّ لم يعتنق الإسلام، ولكنْ أليسَ من الطبيعيّ أنْ تخفّ هذه الدهشة قليلاً عندما ندرك أنّ الأستاذ (رشاد سلامة) هو ابن المفكّر والأديب المسيحيّ الكبير (بولس سلامة) إذْ لم يكنْ الأستاذ رشاد ابنه بالدّم والجسد فحسبْ، بل كان ابنه أيضاً في الأدب والفكر.

ألم يتعلّم الأستاذ رشاد من أبيه أنّ العقل نافذة وأنّ الفكر شمس!!

ألم يتعلّم من أبيه أيضاً أنّ الحقّ والتاريخ مشاع للعالمَين؟!

ثمّ لماذا نندهش عندما يتحدّث الأستاذ رشاد سلامة بكلّ احترامٍ وتقديرٍ عن أهل البيت عليهم السلام عموماً ونحن نعرف أنّه ورث هذا الاحترام والتقدير عن أبيه الذي لم ينقطع لسانه يوماً عن مدح الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وآله عليهم السلام؟!

ألم يقل الأستاذ (بولس سلامة) عن عالميّة الفكر وعن عَظَمةِ رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم في مقدمة ملحمته الشعرية الرائعة (عيد الغدير):

(أجلْ، إنّي مسيحيٌّ ينظر من أفقٍ رحبٍ لا من كوّة ضيّقة، فيرى في غاندي الوثني

قدّيساً.

مسيحيٌّ يرى (الخلق كلّهم عيال الله) ويرى أنْ (لا فضل لعربيٍّ على عجمي إلا بالتقوى).

مسيحيٌّ ينحني أمام عظمة رجلٍ يهتف باسمه مئات الملايين من النّاس في مشارق الأرض ومغاربها خمساً كلّ يوم، رجلٌ ليس في مواليد حواء أعظم منه شأناً، وأبعد أثراً، وأخلد ذكراً، رجلٌ أطلّ من غياهب الجاهليّة فأطَلَّتْ معه دنيا أظلَّها بِلواءٍ مجيد، كُتِبَ عليه بأحرف من نوره لا إله إلا الله، الله أكبر!)[1].

نعم، لقد قال الأديب الشاعر (بولس سلامة) هذا الكلام الرقيق عن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، بل، لقد قال كلاماً كثيراً أعذب من هذا الكلام عن محمد وعن أهل بيته الكرام عليهم السلام ولم يَخَفْ في الحقّ لومة لائمٍ، وما كان ليخرج ذلك الكلام منه لولا صفاء بصيرته ونقاء سريرته، فمن المعروف عنه أنّه كان قارئاً بارعاً للتاريخ الإسلاميّ، ينهل من كلِّ المشارب ويتذوّق من كلّ أنواع العلوم والمعارف، حتّى إذا شعر أنّ عقله قد امتلأ منها أعطى الأوامر لذلك العقل أن يتسلَّح بالحجج والبراهين وأنْ يتدرَّع بقوّة المنطق وذلك من أجل أن يمارس كافّة صلاحياته في الحكم على القضيّة المطروحة على طاولة البحث والتحليل.

وبالطبع، ليس كلّ المفكّرين المسيحيين، وحتّى غير المسيحيين، على درجةٍ واحدةٍ من الدقّة في البحث والتحليل وفي استخلاص النتائج وبلوغ الأهداف والغايات، ولكن نستطيع أن نقول إنّ هناك اتفاقاً واضحاً على الكثير من الخطوط العريضة المتعلّقة بأهمّ المسائل الإسلاميّة وبأعقد القضايا التاريخية التي شهدتها

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، دار الكتاب اللبناني. بيروت، ١٩٨٦م، راجع المقدمة ص١٠.

حركة الرسالة الإسلاميّة في عصورها الأولى.

وبما أنّنا الآن في معرض الحديث عن منزلة أهل البيت عليهم السلام، وهو الحديث الذي يمثّل دورَ البوّابة الواسعة للدخول إلى عالم الإمام الحسين عليه السلام الذي هو ركنٌ هامٌّ من أركان أهل ذلك البيت النبويّ الطاهر الكريم عليه السلام، نستطيع أن نقول إنّ الفكر العالمي عموماً متّفقٌ على عنوان عريضٍ، وهذا العنوان العريض يمكن تلخيصه بالقول التالي:

إنّ دوام واستمرار رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا إنّما مردّه إلى ما قدّمه أهل بيته عليهم السلام من تضحيات.

وسنلاحظ الآن، كما لاحظنا في العديد من الشواهد السابقة، أنّ الإسلام الحقيقيّ الذي جاء به محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هو إسلام أهل بيته الأطهار عليهم السلام وأنّ الورثة الفعليين المستحقّين لحمل لواء الرسالة الإلهيّة بعد غياب ربّ البيت صلى الله عليه وآله وسلم هم أهل بيته ووعاء علمه ومحطُّ أسراره ومنازل أنواره عليهم السلام.

ولا ريب في أنّ هذه الحقيقة الثابتة عن مكانة أهل بيت المصطفى عليهم السلام هي التي دفعت بالكثير من أئمّة المذاهب الإسلاميّة، وبشكلٍ خاصٍّ الأئمّة الأربعة، إلى إثبات تلك الحقيقة وتدوينها في مؤلّفاتهم ونتاجاتهم الفكرية القيّمة، ولولا أنّني قد آليتُ على نفسي منذ البداية أن يكون الكلام عن الإمام الحسين وعن فاجعة كربلاء مقتصراً على الرؤية الفكرية حَصراً، لكنتُ قد أتيت بعشرات الشواهد والبراهين لأئمّةٍ ومفكّرين وأدباء وشعراء ينتمون إلى عصرٍ متقدّمٍ جدّاً على عصرنا الراهن بمساحات زمنيّة طويلة، ولكنّ طبيعة الكتاب والزاوية التي نظرنا من خلالها إلى فاجعة كربلاء هي التي فرضت علينا أن نستغني، ولو بشكلٍ جزئيٍّ، عن الكثير من الأمثلة والشواهد

الممتدّة في جذورها إلى أعماق التاريخ الإسلاميّ.

ولكنْ، حتّى لا يتّهمنا القارئ الكريم بالبخل والتقتير أو بالتجاوز الكليّ والكامل للتراث الفكري الماضي المتعلّق بأهل البيت عليهم السلام من جهة وبالإمام الحسين عليه السلام وما حلّ به وبأسرته وأصحابه في واقعة كربلاء من جهةٍ أخرى، سأكتفي بذكر بعض ما جاء عن الإمام (محمد بن إدريس الشافعي) (١٥٠ـ ٢٠٤هـ) عن مكانة أهل البيت عليهم السلام في ضميره ووجدانه، وسنُمسك عن ذكر ما قاله بخصوص الإمام الحسين عليه السلام وكربلاء إلى المكان المناسب في هذا الكتاب.

ولا أعتقد أنّني بحاجةٍ لتقديم الإمام الشافعي إلى القارئ، فهو إمامٌ وعلمٌ من أعلام الفكر الإسلاميّ، وهو أحد أئمّة المذاهب الإسلامية السنّية الأربعة الباقية حتّى يومنا هذا.

ولاريبَ في أنّ هذا الكلام معروفٌ عند الكثير من المسلمين في العالم قاطبةً، ولكنّ الشيء الذي قد لا يعرفه الكثير من المسلمين هو أنّ لهذا الإمام الفقيه ديواناً بديعاً من الشعر الوجداني الرقيق.

وما يهمّنا الآن من هذا الديوان الشعري الرقيق هو ذكر أهل البيت عليهم السلام فيه، أو بعبارةٍ أكثر وضوحاً: هل لأهل بيت النّبوة عليهم السلام مكانٌ في ديوانه؟!

وبالطبع لن نجيب نحن على ذلك السّؤال، بل سنترك الإمام الشافعي يجيبنا عنه بنفسه، وأعتقد أنّ الإمام الشافعي سيقول لنا بادئ ذي بدء: انظروا واصغوا جيداً إلى هذين البيتين الشعريين الهامّين في ديواني، لقد قلتُ في آل بيت رسولنا الكريم عليه السلام:

يـا آلَ بيـتِ رسـول الله حُـبُّكم ... فـرضٌ مـن الله في القـرآن أنزلَـهُ

يكفيكمُ من عظيم القدر أنّكم مَن لم يُصلِّ عليكم لا صلاةَ له(١)

ولا أظنّ أنّ هذين البيتين الشعريين للإمام الشافعي، وعلى الرغم من بلاغة تركيبهما وقوّة معناهما، بحاجةٍ للكثير من الجهد والعناء للوصول إلى المرامي والغايات التي أرادها الإمام الشافعي منهما.

ومن نافلة القول أنّ هذين البيتين الشعريين الرقيقين ليسا هما كلّ ما قاله الإمام الشافعي في أهل البيت عليهم السلام، ولكن لا بأس بذكر بعض الأبيات الشعريّة الأخرى حتّى نتأكّد من حقيقة أنّ مقام أهل بيت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عند الإمام الشافعي هو المقام الأقدس والأطهر، إنّه المقام الذي يمثّل بالنسبة للإسلام مقام القطب من الرحى ومقام الروح من الجسد.

وها هو يقول فيهم عليهم السلام أيضاً، في نفس الديوان:

آلُ النبيّ ذريعتي وهمو إليه وسيلتي

أرجو بهم أُعطى غداً بِيَدي اليمين صحيفتي(٢)

إذنْ، فأهل بيت النبيّ المصطفى عليهم السلام بالنسبة للإمام الشافعي هم الذريعة والوسيلة لدخول الجنان والفوز بثواب الرحمن، وعندما نقول إنّ أهل البيت عليهم السلام هم الذريعة والحجّة والوسيلة في عقلِ وضميرِ الإمام الشافعي، فإنّ هذا لا يعني أنّ هذه هي مكانتهم ومنزلتهم عند الإمام الشافعي فقط، بل إنّ هذه المكانة هي مكانتهم عند كلّ أئمّة المذاهب الإسلاميّة السنّية الأربعة، بل هي مكانتهم ومنزلتهم عند ملايين المسلمين السنّة في مشارق الأرض ومغاربها، وكيف لا تكون هذه مكانتهم عند

(١) الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الشافعي، تحقيق: صلاح الدين أبو الجهاد، مكتبة دار المستقبل، حلب، ط١/ ١٩٩٩م، ص٤٨.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٢.

المسلمين عموماً وقد أيقنوا أنّ الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قد أوصى قائلاً:

«الزموا مودّتنا أهل البيت، فإنّه مَن لقي الله تعالى، وهو يَوَدُّنا دخل الجنّة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عملٌ عمِله إلا بمعرفة حَقِّنا»(١)!!

ولذلك، فمن الطبيعي بالنسبة لكلّ مسلمٍ يريد أن يكون مشمولاً بشفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن يكون من أهل الجنّة الخالدين، أن يكون ملتزماً بمودّة أهل البيت عليهم السلام وأن يعرف حقّهم ويدرك مقامهم.

وعلينا أن نعلم هنا تحديداً أنّ المعرفة الحقيقيّة والكاملة لمقام أهل بيت النبوّة عليهم السلام ليست بالأمر اليسير ولا حتّى بالأمر الممكن تماماً، بل نستطيع أن نقول وبكلّ يقينٍ إنّ الخلاف الذي دار حول مقام النبوّة لم يبلغ أبداً تلك الدرجة من الخلاف بين المسلمين حول مقام الإمامة والولاية.

ولكنْ، وبالرغم من هذه الحقيقة الثابتة، فإنّنا نقول إنّ بذل المحبّة والمودّة لآل بيت محمد المصطفى عليهم السلام له أجرٌ عظيمٌ عند الله سبحانه وتعالى حتّى ولو لم يكن ذلك المحبّ لهم عليهم السلام عارفاً ومدركاً تمام المعرفة والإدراك لحقيقة مقامهم أو لمكانتهم ومنزلتهم.

وربّما يتساءل متسائلٌ ما قائلاً بعد التسليم بإمكانية الاقتراب من معرفتهم من قِبَلِ البعض:

وهل معرفتهم حِكْرٌ على شيعتهم وأتباعهم فقط، أمْ أنّ هناك مَنْ عَرف جليلَ مقامهم وعظيم منزلتهم وهو من غير أتباعهم وشيعتهم؟!

وربّما يتساءل نفسُ المتسائل قائلاً لنا أيضاً:

---

(١) الحافظ السيوطي الشافعي، إحياء الميّت بفضائل أهل البيت، مصدر سابق، ص٤٦.

إذا كان جوابكم لنا: (نعم، هناك من يعرف ويَعلم مقامهم عليهم السلام وهو مصنَّف من غير أتباعهم)، فإنّنا نطلب منكم، إذنْ، أن تعطونا ولو مثالاً واحداً للتأكيد على صحّة كلامكم لأنّنا نعتقد أنَّ هذا الطلب من حقِّنا، أليس كذلك؟!

ونحن بدورنا سنقول لذاك السائل: نعم، إنَّ ذلك الطلب من حقّك بكلّ تأكيد، وسنعملُ على إعطائك مثالاً على صحّة كلامنا الذي قد أسلفناه، وسيكونُ ذلك المثال من العصر المقارب لعصرنا نسبيّاً وليس من العصور البعيدة عنّا، وذلك لسببٍ واحدٍ فقط وهو أنّ كتابنا يتناول بالدرجة الأولى صورة الإمام الحسين عليه السلام وفاجعة كربلاء من وجهة نظر الضمير العالمي المعاصر وليس من جهة نظر الضمير العالميّ الشامل لكلّ العصور والأزمان وقد نوَّهنا إلى ذلك سابقاً.

وها نحن نقول بكلّ صراحةٍ وجرأةٍ لذلك السائل: نعم، هناك من يعرف مقام آل بيت النبوّة عليهم السلام على الرغم من أنهّم غير مُصَنّفين في زمرة أتباعهم، ونحبّ أن نؤكّد هنا، قبل إيراد المثال المطلوب، على نقطةٍ هامّةٍ جدّاً، وهذه النقطة يمكن تلخيصها بالقول إنّ التصنيفات والتسميات التي يطلقها النّاس على شخصٍ ما بحيث يصبح ذلك الشخص أسيراً لها لا تعود ذات قيمةٍ تُذكر إذا تحوّلت تلك التسميات والتصنيفات بداخله إلى ما يشبه الشمع المُذاب أمام وهج نور الحقيقة القائمة.

فَهل يُضيرُ فُلاناً من النّاس أن يقال عنه إنّه (مالكي) أو (حنفي) أو...الخ

إذا كان ذلك الفُلان من النّاس يعيش بداخله حالة الولاء التامّ لأهل البيت عليهم السلام؟!

وهل يتألَّم فلانٌ من النّاس أيضاً إذا رُميَ بالجهل أو بالانحراف عن الحقّ إذا كان ذلك الفلان قد جعل من عقله معقلاً للعلم ومن قلبه عرشاً للحقّ!!

أعتقد أنّ الإنسان الحكيم والعاقل لا يأبه للتصنيفات التي تُلحق به ـ مهما كان نوع تلك التصنيفات ـ إذا كان يعيش بداخله أجواءً مغايرة لها وبعيدةً عنها.

وعلى سبيل المثال، عندما يقولُ أحدُ المتصوّفة المشهورين مخاطباً (الحقَّ) سبحانه وتعالى بعد أن صنَّفه النّاسُ ووضعوه تحت عدّة تسميات وتصنيفات مختلفةٍ ومتباينة في اتّجاهها وطبيعتها:

أراني فيك ممسوساً ... من الشيطان بالنَّكدِ
وبالتشنيع من جاري ... وبالعصيان من وَلَدي
وأبرحُ ما أكابدهُ ... من الإخوان بالحَسَدِ
ولستُ بذاك مكترثاً ... فكيف؟ وأنت معتمدي[1]

فعندما يقول هذا المتصوّف الحكيم (المكزون السنجاري) هذا الكلامُ معبّراً عن عمق أحاسيسه وما لحق به من تعبٍ وألمٍ حتّى من أقرب النّاس إليه بعد أن تمَّ رميُهُ بصفاتٍ ونعوتٍ مختلفة من قِبَلِ النّاس، فإنّما أراد أن يقول لنا إنّ الألم أو التعب الذي لحق به لم يكن في حقيقته إلا شيئاً ظاهرياً فقط، بينما هو كمتصوّفٍ وكعارفٍ لا يكترث لكلّ ما يصفونه به أبداً وذلك لأنّ قلبه منشغلٌ عن كلّ تلك الأشياء ونعوتها، إنّه القلب الذي لا يُرضيه شيءٌ إلا أن يكون عرشاً للرحمن.

ولا أعتقدُ أنَّ (ابن عربي) يبتعد كثيراً عن الشّيء الذي قصدَهُ الأمير (المكزون السنجاري) بقوله السابق في مخاطبته للحقّ جلّ وعلا، وها هو ـ ابن عربي ـ يؤكّد أيضاً فكرة إمكانيّة تعدد الصفات والمسمّيات الظاهرية أمام ما يثبت عليه القلب الذي

(١) حامد حسن، المكزون السنجاري بين الإمارة والشعر والتصوّف والفلسفة، منشورات دار مجلّة الثقافة بدمشق، طبعة أولى، ١٩٧٢م، ج٢ ص٧.

هـو الأسـاس في كـلّ شيء، فعنـدما يكـون القلـب كبيراً، يمكـن لـه أن يتجـاوز كـلّ المسمّيات والتصنيفات وذلك من أجل هدفٍ واحدٍ هو (الحبّ) أو (الحقّ)، وبإمكاننا أن نسمعه الآن وهو يقول:

لقـد صـار قلبـي قـابلاً كـلّ صـورة — فمرعـى لغـزلان ودَيـر لرهبـانِ
وبيــت لأوثــان وكعبــة طــائف — وألــواح تــوراة ومصــحف قــرآنِ
أديـنُ بِـدين الحـبّ أنّـى توجّهـتْ — ركائبـه فالحـبّ دينـي وإيـماني(١)

فالقلـب الكبير، الـواعي والمسـتنير لا يـرضى أن يبقـى سـجيناً أو أسـيراً حقيقيّـاً لمجموعة من الألقاب والمسمّيات عـلى حسـاب الجـوهر والمضـمون، ولكـن بـنفس الوقت أيضاً، لا يجد ذلك القلب المستنير غضاضـةً في أن يُصـنَّفَ حاملُـه في أيّ زمـرةٍ طالما أنّ القلب ذاته متعلّقٌ بأستار الحقيقـة وراكـع في هيكـل الحـبّ، فارتفـاع أمـواج البحار لا يعكّر صفو القاع.

وهذا ما عبَّر عنه المفكّر والأديب المسيحيّ الأستاذ (بولس سـلامة) عنـدما أعلـن ولاءه للإمام عـلي عليه السلام، وهـو الشـاعر والأديـب المصـنَّف ضـمن زمـرة المسـيحيين، فالأستاذ (سلامة) لم يتخلّ بالتأكيـد عـن حبّـه للسـيد المسـيح أو لأمّـه السـيدة العـذراء (عليهما سلام الله)، ولكنّـه بـنفس الوقـت لم يغلـق قلبـه أمـام أنـوار الحقـائق السّـماوية والمعارف الإلهية، فما كان منه إلا أنْ أعلن أنّ الهويّة الخارجيّة لا تَعني الكثير، أو على الأقلّ، يمكـن أن تـذوب أمـام الهويـة الداخليّـة المبنيّـة عـلى التفكـير والدراسـة لا عـلى التقليد والوراثة كما هو الحـال عنـد الكثـيرين ممّـن يحملـون هويّـات روحيّـة خارجيّـة مختلفة أعطاهم إيّاها الآباء والأجداد.

(١) صهيب سعران، مقدمة في التصوّف، دار المعرفة. دمشق، ١٩٨٩م، ص٨٢.

فهل تحَولُ صفةُ (المسيحيّ) التي يحملها الأستاذ (سلامة) دون إعلان ولائه وحبّه القلبيّ الصادق للإمام علي عليه السلام الذي يمثّل أهل البيت عليهم السلام جميعاً؟!

بالطبع، كلا، إنّ ذلك لن يحول دون حدوث ولادة روحيّة جديدة تخلق مصالحةً حقيقيّةً بين العقل والقلب، وانطلاقاً من ذلك، فقد أعلن الأستاذ الأديب (سلامة) صوت الولاء الممزوج بصدق الوفاء قائلاً:

يا أمير الإسلام حسبيَ فخراً أنّني منك مالئ أصغريّا
جلجل الحقّ في (المسيحيّ) حتّى عُدَّ من فرط حبّه (عَلَويّا)
أنتَ ربّ العالمين إلهي فأَنِلْهُم حَنانَك الأبويّا
وأنلني ثواب ما سطّرت كفّي فهاج الدموع في مُقلتيّا
يا سماء اشهدي ويا أرض قرّي واخشعي، إنّني ذكرتُ عَليّا[1]

وبإمكاننا أن نلاحظ في البيت الشعري الثاني أنّ التصنيفات والمسمّيات الظاهرية لم تَعُدْ هي الغاية أو الهدف، بل تصبح الغاية الجوهريّة عند الأستاذ (سلامة) هي الولاء القلبيّ المشتمل على الحقيقة والحبّ والطاعة.

وبالطبع، فإنّ هذا الكلام صحيحٌ تماماً ولا ريبَ فيه، فما هي الفائدة أو المضرّة من أن يحمل إنسانٌ ما صفةً من الصفات أو أن يُدرَجَ في فئةٍ من الفئات وهو يعلم أنّه من الداخل بخلاف ذلك، ويكون مطمئنّاً أيضاً لِما هو عليه قلبه سواءٌ كان ذلك الاطمئنان ناتجاً عن حمل صفات داخليّة سلبيّةٍ أو إيجابيّةٍ؟!

فهل يضير الإنسان المؤمن أن يُرمى بالكفر من قبل بعض الحمقى أو أصحاب غايات السّوء في الوقت الذي يكون فيه قلبه مطمئنّاً بالإيمان وثابتاً عليه؟!

---

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق، ص٢١٢.

وبالمقابل، وإحقاقاً للحقّ، نقول ما هي الفائدة المرجوّة من صفةٍ يحملها إنسانٌ ما كصفة أنّه (مسلم) أو (شيعي) في الوقت الذي يكون باطن ذلك الإنسان، بل وأعمالهُ أيضاً مخالفةً تماماً لتعاليم الرسول المصطفى ﷺ ولمبادئ أهل بيته الأطهار عليهم السلام ؟!

وأعتقدُ الآن أنّ الفكرة المطلوبة قد وصلت بعد أن أسهبتُ قليلاً في الحديث عنها، ولكن ما أودُّ الحديث عنه الآن والعودة إليه من جديد هو ذلك الوعد الذي أعطيناه للقارئ الكريم بشأن معرفة مقام أهل بيت النبوّة عليهم السلام من قِبَلِ أناسٍ غير مُصنَّفين من أتباعهم بشكلٍ ظاهري، ومثالنا الذي سنتحدّثُ عنه الآن هو مثالٌ مدهشٌ اقتطفناه من حديقة فكر إخواننا المسلمين السنّة.

ومثالنا الآن هو الأديب والسياسيّ والشاعر (عبد الباقي العمري الموصلي الحنفي).

فالشاعر (العُمَري) واحدٌ من مشاهير شعراء القرن الثالث عشر الهجري وواحدٌ من أعلام الأدب والسياسة في القطر العراقيّ في العهد العثماني.

قلّةٌ من النّاس هم الذين يعرفون أنَّ لهذا الأديب والسياسيّ ديواناً شعريّاً بديعاً من العيار الثقيل حجماً ومضموناً، وقلّةٌ هم أيضاً أولئك الذين يعرفون العلاقة الروحيّة العميقة التي تربط بين هذا الشاعر المتحدّر من ذريّة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وبين آل بيت الرسول الكريم ﷺ.

وللحقيقة نقول: إنّ شعر عبد الباقي العمري الذي قاله في أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام هو شعرٌ أقرب إلى شعر التصوّف والعرفان منه إلى شعر الثناء والمديح.

وقد أكّد في أكثر من قصيدةٍ من قصائده المعرفيّة العميقة على أنّ نورهم عليهم السلام هو

نورٌ إلهيّ المصدر وذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى شاءَ منذ الأزل أن يخلق محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وعَليّاً عليه السلام من نورٍ واحدٍ، ومن هذا النّور الواحد المتّحد نشأ عنه النّور المشعّ لأهل البيت عموماً عليهم السلام والذي هو في حقيقته نورٌ من نور مُنوِّر الأنوار (عزّ وجلّ)، ولذلك، فالحقيقة الوجوديّة الوحيدة ـ بالنسبة لعبد الباقي العُمَري الحنفي ـ هي حقيقة وجود أهل البيت عليهم السلام، وما عدا ذلك فهو توهّمٌ وخيالٌ، وفي ذلك يقول موضّحاً هذه الفكرة:

إنَّ الوجود وإنْ تعدَّد ظاهراً ... ما فيه غيرُكمو لمن يتوسَّمُ

أو صَحَّ في الإمكان ثمَّة عالَمٌ ... وحياتكم ما فيه إلا أنتمو

أنتم حقيقة كلّ موجودٍ بَدا ... من كنز (كنتُ) وفيه أنتم كنتمو

فحقيقة الأعيان أنتم عينها ... وجميع ما في الكائنات توهَّمُ(١)

ولا أعتقد أنّني أبالغ إذا قلتُ إنَّ هذه الأبيات الشعريّة الأربعة تحتاجُ إلى الكثير من الصفحات من أجل شرحها وتوضيحها، وبشكلٍ خاصّ البيت الثالث الذي يشير الشاعر (العمري) من خلاله إلى العلاقة الوطيدة والرابطة الوثيقة بين حقيقة وجود أهل البيت عليهم السلام من جهةٍ وبين كلمة (كنتُ) الموضوعة ضمن قوسين والتي تشير إلى الحديث القدسيّ الشهير:

كنتُ كنزاً مخفيّاً... من جهةٍ أخرى.

إنّ مجرّد الخوض في هذه النقطة العرفانيّة الحسّاسة يتطلّب منّا الكثير من الوقت والجهد لإعطاء صورةٍ واضحة المعالم عن طبيعة وعمق تلك العلاقة النورانيّة

---

(١) عبد الباقي العمري، الترياق الفاروقي، دار النعمان ـ النجف الأشرف، ط٢/ ١٩٦٤م، ص١٣٦.

المميزة.

ولكنْ، بما أنّ موضوع كتابنا الذي هو بين أيدينا الآن ليس عن أهل البيت عليهم السلام عموماً، وليس أيضاً عن طبيعة تلك العلاقة العميقة بينهم عليهم السلام وبين الله سبحانه وتعالى، وإنّما هو حول حياة وثورة الإمام الحسين عليه السلام فقط، ولذلك لا داعي هنا للاستفاضة في الحديث عن مواضيع حساسة وعميقةٍ تستحقّ أن يُكتب عن كلّ واحدٍ منها العديد من الكتب والمؤلّفات، بل والدواوين الشعريّة العرفانيّة أيضاً.

ولكنْ، حتّى يكون حديثنا مترابطاً ومتماسكاً، وحتّى يكون هدفُنا واضحاً وبيِّناً، علينا أن نبيّن للقارئ الكريم، على الأقلّ، وجهاً واحداً من الوجوه التي تدعو النّاس عموماً إلى الوقوف في حالة عجزٍ شبه تامّ عن معرفة أهل بيت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حقّ معرفتهم، وتجعلهم يحارُون في فهم كُنْهِهم وإدراك حقيقتهم عليهم السلام.

وليكنْ هذا الوجه الذي سنتحدّث عنه باقتضابٍ شديدٍ الآن هو وجه العلاقة وطبيعتها بين آل البيت عليهم السلام من جهةٍ وبين بعض الرسل والأنبياء عليهم السلام من جهةٍ أخرى، وذلك من أجل التأكيد أيضاً على أنّ آل البيت عليهم السلام هم حَقّاً عماد الوجود وهم الرحمة التي يمكن أن تطال كلّ موجودٍ.

وحتّى لا نُثقل بحديثنا على القارئ الكريم، دعونا نقلّب صفحات كتاب (الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور) للإمام الحافظ (جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي الشافعي) كي نتعرّف على وجه العلاقة بين آل بيت محمد عليهم السلام من جهة وسيّدنا آدم عليه السلام، أبي الأنبياء والبشر جميعاً، من جهةٍ ثانيةٍ.

فقد جاء في الكتاب المذكور (للسيوطي الشافعي)، في ذيل تفسير قوله تعالى:

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١)، قال: وأخرج ابن النجار عن ابن عباس، قال: سألتُ رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلم عن الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتابَ عليه، قال: «سأل بحقّ محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبتَ عليَّ، فتابَ عليه»(٢).

وبالطبع، ليس الإمام السيوطي الشافعي هو الوحيد الذي ذكر هذه الحقيقة، بل بإمكاننا قراءة نفس الحقيقة المذكورة، ولكن باختلافات لفظيّة يسيرة، في كتاب (كنز العمال) لمؤلّفه (المتقي الهندي الحنفي) حيث ذكر نفس الحديث في الصفحة / ٢٣٤/ من الجزء الأول من كتابه المذكور، هذا بالإضافة إلى بعض الكتب الأخرى التي كتبها علماء سنّة مشهورون أوردوا فيها الحديث المتعلّق بتوبة الله سبحانه وتعالى على سيّدنا آدم عليه السلام بفضل وببركات أهل بيت محمد عليهم السلام ولكنّهم ذكروا ذلك الحديث بطرقٍ وأساليب شتّى وبأشكالٍ لفظيّة مختلفة لكنّها لا تمسُّ روح الحديث وجوهره ولا تشوّه غايته ومقصده.

ولو تركنا جانباً مسألة سيّدنا آدم عليه السلام والكلمات القدسيّة التي كانت السبب المباشر في توبة الله سبحانه وتعالى عليه، واتّجهنا في رحلتنا الفكريّة باتجاه من يأخذ بيدنا للوقوف على حقيقة كلمات سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، فهل سنجد أنَّ هناك اختلافاً أم تشابهاً بين كلمات سيّدنا آدم عليه السلام وكلمات سيّدنا إبراهيم عليه السلام ؟!

فمن المعروف تماماً أنّ هناك آية قرآنية كريمة تقول: ﴿وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي

(١) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٢) الإمام السيوطي الشافعي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، مصدر سابق، راجع ذيل الآية المذكورة.

الظَّالِمِينَ﴾[١]، ومن الواضح أيضاً أنّ هناك رابطةً وثيقةً بين سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ومفهوم الإمامة من جهة وبين عدّة كلمات إلهيّة تلقّاها إبراهيم عليه السلام من ربّه الرحيم الحكيم فكانت تلك الكلمات الإلهيّة مفتاح الرحمة وبوّابة النعمة عليه.

وهنا يحقّ لنا أن نتساءل قائلين:

ما هي حقيقة تلك الكلمات الإلهيّة الموحى بها إلى سيّدنا إبراهيم خليل الله عليه السلام، وما معنى (فَأتَمَهنّ) الواردة في الآية الكريمة؟!

ولا ريب في أنّه سؤالٌ يستحقّ التفكير فيه مليّاً، وإلا ما معنى أن نقرأ القرآن الكريم دون أن نغوص في أعماقه ونتدبّر معانيه؟!

وعلى كلّ حالٍ، ها هو المحدِّث الثقة والفقيه السَّند (المفضل بن عمر الجعفي) يوفّر علينا عناء البحث والتنقيب عن معنى الآية القرآنية الكريمة السابقة، ويدعونا لزيارة إمام أئمّة المسلمين، الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام لنستمع إليه بإمعان وهو يخبرنا عن معناها العميق والذي يتّفق بطريقةٍ أو بأخرى مع ما أخبرنا به، سابقاً، كلٌّ من الإمام (السيوطي الشافعي) والعلامة (المتقي الهندي الحنفي) بشأن توبة سيّدنا آدم عليه السلام.

وها هو الإمام الصادق عليه السلام يجيب عن معنى الآية القرآنية السابقة مُلَبّياً طلب تلميذه المقرّب (المفضل بن عمر) قائلاً: «هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، وهو أنّه قال: يا ربّ أسألك بحقّ محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت عليَّ، فتاب الله عليه إنّه هو التّواب الرحيم»، فقلتُ (والكلام هنا للمفضّل ابن عمر) له: يا بن رسول الله، فما يعني عزّ وجلّ بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؟ قال: «يعني فأتمهنّ

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

إلى القائم عليه السلام اثني عشر إماماً، تسعةٌ من ولد الحسين»[١].

وهذا الكلام الجليل الصادر عن الإمام الصادق عليه السلام لو قارنّاه مع كلام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بشأن توسُّل الأنبياء والرّسل عليهم السلام بمحمد وبآل بيته الكرام عليهم السلام، لَوَجدنا أنّ هناك تشابهاً كبيراً بينهما في الشّكل والمضمون، آخذين بالاعتبار أنّ للرسول الكريم أحاديث عديدة مشهورة حول هذه المسألة المعرفيّة الهامّة.

وربّما كان الحديث النبويّ الشريف الذي سنورده الآن هو واحد من أكثر الأحاديث النبويّة شهرةً حول موضوع بحثنا الآن، إنّه ذاك الحديث المتعلّق بقدوم أحد علماء اليهود على النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث دخل ذاك العالم اليهودي عليه وقام بين يديه يَحُدُّ النّظر إليه طويلاً، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم له: «يا يهوديّ، قُلْ لي ما حاجتك؟»، فقال اليهودي: أنتَ أفضل أم موسى بن عمران النبيّ الذي كلَّمه الله وأنزل عليه التوراة والعصا وفَلَقَ له البحر وأَظَلَّهُ الغمام؟

فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّهُ يُكرَه للعبد أن يزكّي نفسه، ولكنّي أقول إنّ آدم عليه السلام لمّا أصاب الخطيئة كانت توبته أنْ قال: اللهم إنّي أسألك بحقّ محمد وآل محمد لمّا غفرتَ لي، فغفرها الله له، وإنّ نوحاً عليه السلام لمّا ركب في السفينة وخاب الغرق قال: اللهمّ إنّي أسألك بحقّ محمد وآل محمد لمّا أنجيتني من الغرق، فنجّاه الله منه، وإنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أُلقيَ في النّار قال: اللهمّ إنّي أسألك بحقّ محمد وآل محمد لمّا أنجيتني منها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وإنّ موسى عليه السلام لمّا ألقى عصاه وأوجسَ في نفسه خيفةً قال: اللهمّ إنّي أسألك بحقّ محمد وآل محمد لمّا آمَنتَني، فقال الله جلَّ جلاله: لا تخف إنّك أنت الأعلى، يا يهوديّ إنَّ موسى لو أدركني ثمّ لم يؤمن بي

(١) ابن بابويه القمّي (الصدوق)، الخصال، مؤسسة الأعلمي. بيروت، ط١/ ١٩٩٠م، ص٢٠٥.

وبنبوّتي ما نفعه إيمانه شيئاً وما نفعته النبوّة، يا يهودي ومن ذُريّتي المهديّ إذا خرج نزل عيسى ابن مريم لنصرته فَقَدَّمه وصلّى خلفه»(١).

وقبل أن نرفع مسألة توسُّل الرسل والأنبياء عليهم السلام بآل بيت النبيّ المصطفى عليهم السلام عن طاولة البحث والتحقيق، لابدّ لنا من أن نذكر حديثاً آخر لا يقلّ أهميّةً من الأحاديث السابقة التي أوردناها عن هذه المسألة الهامّة، ولكن هذه المرّة لن يكون الحديث عن سيّدنا آدم أو إبراهيم أو نوح أو موسى (عليهم السّلام جميعاً)، وإنّما سيكون الحديث هذه المرّة عن نبيٍّ كريمٍ قاسى كثيراً وعانى طويلاً شأنه في ذلك شأن سيّدنا النبيّ الصابر أيوب عليه السلام.

إنَّ حديثنا الآن، وهو آخر حديثٍ نورده في هذا المجال، سيكون عن سيّدنا النبيّ الجليل يوسف عليه السلام وعن كيفيّة خلاصه من واحدٍ من أعظم الابتلاءات التي تعرَّض لها في حياته، تلك الحياة الحافلةُ بعددٍ غير قليلٍ من الاختبارات والمفاجآت القاسية.

وكلُّنا يعرف، بالطبع، قصّة سيّدنا يوسف عليه السلام مع إخوته وكيف ألقوه في غياهب الجبّ، وكيف جاء ذكر هذه الحادثة بتفاصيلها في القرآن الكريم حيث قال الله سبحانه وتعالى مخبراً عن ذلك: ﴿لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ * إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ * قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾(٢).

---

(١) ابن بابويه القمي (الصدوق)، الأمالي، مؤسسة الأعلمي. بيروت، ط٥/ ١٩٨٠م، ص١٨١.
(٢) سورة يوسف: الآية ٧. ١٠.

نعم، كلُّنا نعرف هذه القصّة، ونعرف أيضاً كيف التقطه بعض السيّارة وأخرجوه سليماً معافى، ولكن هل خطر في بالنا كيف اهتدى أولئك السيّارة إليه بعد اليوم الرابع من إلقائه في الجبّ المظلم والعميق؟!

وإذا كان البعضُ منّا يعرف أنّ الاهتداء إلى سيّدنا يوسف عليه السلام وإنقاذَه كان نتيجةً حتميّةً للدّعاء الذي كان سيّدنا يوسف عليه السلام يدعو به، وهو دعاءٌ خاصٌّ علّمه إيّاه جبرائيل عليه السلام من أجل الخلاص ممّا هو فيه، فإذا كان البعضُ يعرف هذا، فهل يعرف أيضاً ما هي طبيعة ذلك الدعاء الخاصّ لتفريج الهموم والمصائب، وهل يعرف ذلك البعض أيضاً بمن كان يتوسّل يوسف عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى وبمن كان يتوجّه إليه للخلاص ممّا هو فيه؟!

ربّما القلّة القليلة هي التي تعرف الإجابة على هذه التساؤلات التي يمكن أن تغزو عقل القارئ المثقّف أو الباحث المفكّر على حدٍّ سواء في حين أنَّ الأكثرية الغالبة لا تعرف شيئاً بخصوص الإجابة على تلك الأسئلة السابقة.

وحتّى لا نضيّع وقتَ القارئ الكريم، وحتّى نوفّر عليه جهد البحث والعناء عن تلك الإجابات الصحيحة المطلوبة، دعونا ندقّ الباب على الإمامة العلامة (أحمد بن محمد إبراهيم الثعلبي) صاحب كتاب قصص الأنبياء المعروف بكتاب (عرائس التيجان) فلعلّ الجواب الشافي والقول الكافي في جعبته.

وبالفعل، ها هو (الإمام الثعلبي)، وهو أحد علماء المسلمين السنّة، يفتح لنا بابه ويستجيب لما دعوناه إليه بكلّ رحابةِ صدر قائلاً عن خلاص سيّدنا يوسف عليه السلام من غياهب الجبّ وظلامه: (... فلمّا كان في اليوم الرابع أتاه جبريل عليه السلام وقال: يا غلام مَن طرحك في هذا الجبّ؟ قال: إخوتي لأبي، قال: وَلِمَ؟ قال: حسدوني على منزلتي

من أبي، قال: أتحبّ أن تخرج من هذا الجبّ؟ قال: نعم، قال: قل يا صانع كلّ مصنوع ويا جابر كلّ مكسور ويا حاضر كلّ ملأ ويا شاهد كلّ نجوى ويا قريباً غير بعيد ويا مؤنس كلّ وحيد ويا غالب غير مغلوب ويا عالم الغيوب ويا حيّاً لا يموت ويا مُحيي الموت لا إله إلا أنت سبحانك أسألك يا من له الحمد يا بديع السّماوات والأرض يا مالك الملك يا ذا الجلال والإكرام أسألك أن تصلّي على محمد وعلى آل محمد أن تجعل من أمري ومن ضيقي فرجاً ومخرجاً وترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب، فقالها يوسف فجعل الله تعالى له من الجبّ مخرجاً ومن كَيد إخوته فرجاً وآتاه مُلْكَ مصر من حيث لا يحتسب)[١].

ومن الجدير بالملاحظة هنا هو أنَّ سيدنا يوسف عليه السلام لم يبدأ بالمسألة والطلب إلا بعد أن سألَ الله سبحانه وتعالى أن يصلّي على محمد وعلى آل محمد عليهم السلام وكأنّي به قد سمع حديث أخيه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله القائل: «الدّعاء محجوبٌ حتّى يُصلّى على محمد وأهل بيته، اللهمّ صَلِّ على محمد وآله»[٢].

وهكذا نرى أنّ الرسل والأنبياء جميعاً عليهم السلام كانوا يتوسّلون إلى الله عزّ وجلّ بمحمد صلى الله عليه وآله، أوّل خلق الله وخاتم رسله عليهم السلام، وبآل بيته الأبرار الأطهار عليهم السلام أن يرحمهم ويرأف بهم وينجّيهم من شرور النوازل وأهوال المصائب، وما الأمثلة السابقة التي أوردناها عن الرّسل والأنبياء عليهم السلام إلا باقة وردٍ من حديقةٍ غنّاء وما هي إلا غيض من فيض.

ومهما تحدّثنا عن حقيقة أنَّ أهل بيت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله هم عماد الوجود

---

(١) الإمام أحمد بن محمد إبراهيم الثعلبي، قصص الأنبياء (عرائس التيجان)، المكتبة الشعبية. بيروت ص٦٧.

(٢) المتّقي الهندي الحنفي، كنز العمال، مصدر سابق، ج١ ص١٧٣.

وأساس رحمته، فإنّنا سنبقى ـ بلا شكّ ـ مقصّرين في إعطائهم كامل حقِّهم وفي إعطاء الصورة الحقيقيّة لخَصيصِ مكانتهم وعظيم منزلتهم واتّساع رحمتهم في عالمَيّ الغيب والشهود، وقد أجاد وأصاب المتصوّف التركيّ المعاصر الإمام (بديع الزمان سعيد النورسي) (١٢٩٢هـ ـ ١٣٧٩هـ) عندما تحدّث عن مكانة أهل البيت عليهم السلام ومبلغ رحمتهم المرتبطة بالتوسّل والدّعاء وذلك في كتابه النفيس المُسمّى (مجموعة اللمعات من كُلّيات رسائل النّور) حيث استفاض في شرحه العرفاني لمعنى (آية المودّة)، وكان من جملة ما قاله ذلك المتصوّف السنّي التركيّ عن أهل البيت المحمدي النورانيّ عليهم السلام وارتباطهم الوثيق والمتشعِّب بمعاني الدّعاء:

(إنّ الرسول الأكرم عليه الصّلاة والسّلام، رأى بنظره الأنيس للغيب، أنّ آل بيته سيصبح في حكم شجرةٍ نورانيّة بين عالم الإسلام، وأنّ الذين يؤدّون وظيفة الهداية والإرشاد في درس الكمالات الإنسانيّة في كلّ طبقات عالمَ الإسلام سيخرجون من آل البيت على الأكثرية المطلقة، وكَشَفَ أنّ دعاء الأمّة في حقّ الآل في التشهّد، وهو (اللهمّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنَّك حميدٌ مجيد) سيكون ذلك الدّعاء مقبولاً...)[1].

وبالطبع، ليس هذا هو كلّ ما قاله ذلك المتصوّف التركيّ المعاصر عن أهل بيت النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله الذين يمثّلون، بنظره، (شجرةً نورانيّةً) تتواصل بنورانيّتها الأبديّة مع الإنسان المؤمن في هذا الوجود بواسطة الدّعاء، فهُم عليهم السلام شجرةٌ نورانيّة مباركة تتقبّل الدّعاء من المؤمنين من جهة، وتكون سبباً مباشراً لاستجابة كلّ أنواع وألوان

(١) الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، مجموعة اللمعات من كُليّات رسائل النّور، ترجمه عن التركيّة: الملا محمد زاهد الملا زكردي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٥م، ص٣٢.

الدّعاء من جهةٍ أخرى.

إنّهم عليهم السلام الشجرة النورانيّة المباركة التي ترسل ضوء رحمتها في كلّ اتجاهٍ شرقاً وغرباً، فلا جهة أحقُّ برحمتها ونورها من جهةٍ أخرى إلا بمقدار معرفة تلك الجهة بها والتمسّك بأغصانها والتَّفيُّؤ بِظلِّها.

ولا ريب في أنّ لهذا المتصوّف التركي المعاصر كلاماً مميّزاً عن سيّدنا ومولانا الإمام الحسين عليه السلام والذي هو محور كتابنا الأساسي، ولكنّنا سَنُرجئ الكلام الوارد عن سيّدنا الحسين عليه السلام إلى الوقت المناسب وإلى المكان المناسب في هذا الكتاب.

وعلى كلّ حالٍ، إذا كان ذلك المتصوّف التركيّ السنّي يرى أنّ آل بيت النبيّ المصطفى عليهم السلام هم الشجرة النورانيّة الحقيقيّة التي دلَّ عليها النبيُّ الكريم صلى الله عليه وآله في بحر علم الغيب، فإنّ المفكّر والأديب اللبناني المسيحيّ (سليمان كتاني) يرى في كتابه الشيِّق (الإمام الحسين في حِلّة البرفير) أنّ أهل البيت عليهم السلام هم (الكلمة الإلهيّة في الرسالة التي هبطت بالحقّ)[1].

إنّهم عليهم السلام اليقظة في ضمير الأمّة، إنّهم عليهم السلام كلمات الله في كتاب الرسالة.

وقد يتبادر إلى ذهن القارئ أنَّ تلك العبارة الجميلة والعميقة التي قالها الأديب اللبناني الأستاذ (كتّاني) عن أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام إنّما هي مجرّد عبارة طارئة صدرت عن قلم مفكّر وأديبٍ مسيحيّ لا يعرف أساساً الكثير عن تاريخ الرسالة الإسلامية ولا عن أعلامها وكبار قادتها ومفكّريها، وبالتالي فإنّ تلك العبارة قد صدرت عن انفعال عاطفيّ أو عن قلمٍ يعمل على تغييب لغة العقل والمنطق.

(١) سليمان كتّاني، الإمام الحسين في حلّة البرفير، دار الكتاب الإسلاميّ. قم، ط١/ ١٩٩٠م، ص٦٢.

نعم، إنَّ هذه الفكرة قد تتبادر إلى ذهن القارئ الحصيف، وقد تتبادر إلى ذهنه أفكار أخرى مماثلة لا تقلُّ عنها أهميّة، ولكن باستطاعتنا أن نُطمئِن ذلك القارئ وأن نبعد عنه غيومه الفكريّة التي تحجب شمس الحقيقة عن عقله، بإمكاننا أن نقول له بكلّ وضوحٍ وبشكلٍ بسيطٍ ومباشر إنّ المفكّر والأديب المسيحي (سليمان كتّاني) ليس بالقارئ العادي ولا هو بالمُطّلع العابر على التاريخ الإسلاميّ عموماً، بل هو واحدٌ من المثقّفين المسيحيّين الذين أَثْروا المكتبة العربية بالكثير من النِّتاجات الفكرية وأغنوها بالعديد من المؤلفات الثقافية التي تُثبت لهم طولَ الباع في معرفة أدقّ التفاصيل في الحوادث الإسلاميّة المفصليّة ذات الأهميّة البالغة.

فكتاب (الإمام الحسين في حلّة البرفير) ليس هو الكتاب الوحيد للأستاذ (كتّاني)، وإنّما هو واحدٌ من سلسلة طويلةٍ من الكتب التي تتحدّث تارةً عن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم (محمد شاطئ وسحاب)، وتارةً عن أمير المؤمنين علي عليه السلام (الإمام علي نبراس ومتراس)، وتارةً عن الطاهرة المطهّرة، سيّدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء عليها السلام (فاطمة الزهراء وترٌ في غمد)، ونراه مرّةً أخرى يتحدّث عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام (الإمام الحسن الكوثر المهدور)، ولم يتوقّف قلمه عن الكتابة عند هذا الحدّ، بل راح يسطّر ملحمة فكرية رائعة عن شهيد كربلاء، الإمام الحسين عليه السلام، وهو الكتاب الذي ذكرناه سابقاً، واستمرَّ قلمه المسيحي الصادق بالفيض والعطاء، فَصَاغَ لنا تحفةً فنيّةً فكريّةً رائعةً أسماها (الإمام زين العابدين عنقود مُرصَّع)، ثمّ كتب أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام وعن الإمام الباقر عليه السلام دون كَللٍ أو مَللٍ، ولا يزال ذلك القلم النظيف يخط أروع الملاحم من صفحات مشرقة من تاريخ الإسلام إنها تلك الصفحات التي تتحدّث بكلّ فخرٍ واعتزازٍ عن مآثر وفضائل آل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهنا تحديداً، وقبل إقفال باب هذا الفصل، تحضرني مقارنةٌ بسيطةٌ بين مقولتين قصيرتين لمفكِّرين اثنين، أحدهما مفكّر ورجل دين مسلم، أمّا الآخر فهو أديبٌ ومفكّر مسيحيّ، والمقولتين اللتين سنقوم بذكرهما الآن هما مقولتان تدوران حول منزلة أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام عند المسلمين والمسيحيين على حَدٍّ سواء.

فالمقولة الأولى هي تلك المقولة الجميلة التي كتبها الأستاذ (محمد زكي إبراهيم) ذلك الأستاذ الذي تخرَّج من جامعة الأزهر الشريف في القاهرة، وراح يرفد الفكر العربيّ والإسلاميّ بالعديد من المؤلفات الأدبيّة والدينية، هذا بالإضافة إلى إصداره لمجلة (المسلم) مدّة خمسة وعشرين عاماً بانتظام.

يقول الأستاذ (إبراهيم): (إنّ الكتابة عن آل البيت عبادة يجب أن تؤدّى على وجهها، والتقلّبُ في ذكرياتهم حياة فوق الحياة، والانصراف إلى خدمة تاريخهم توفيق عزيز، والخلوص إلى التفكّر فيهم مَدَدٌ لا يُتاح، ولا ينبغي إلا لأهل الله)[1].

إذنْ، فمن أراد أن يستزيد من العبادة لله سبحانه وتعالى، فعليه أن يتفاعل مع تاريخ أهل البيت عليهم السلام عليه أن يكتب عن فضائلهم وأن يُحيي مآثرهم، وعليه أيضاً أن يعقد جلسات حوار ومناقشات بنّاءة وصريحةً مع عقله وفكره وأن يكون الجلوس للحوار مبنيّاً دائماً وأبداً على أسس منطقيّة وقواعد حياديّة وذلك بهدف الوصول إلى أقوى وأعمق الحقائق المعرفيّة المتعلّقة بهم عليهم السلام.

وإذا كان هذا هو رأي ذلك العلامة الأزهري السنّي (محمد زكي إبراهيم) بشأن أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام، فما هو رأي الباحث والمفكّر المسيحيّ (أنطون بارا) حول نفس الموضوع المتعلّق بآل بيت الرسول عليهم السلام؟!

(١) السيد مرتضى الرضوي، آراء المعاصرين حول آثار الإماميّة، مصدر سابق، ص٢٠.

وأعتقد أنّ الباحث والمفكّر المسيحيّ (أنطون بارا) غنيٌّ عن التعريف والتقديم، خاصّةً بعد أن حقّق كتابه النفيس (الحسين في الفكر المسيحيّ) شهرة واسعة المدى وقويّة الصدى، ويكفي أن نذكر أنّ سيادة المطران (برتلماوس عجمي) قد قال عن ذلك الكتاب معلّقاً: (ويظلُّ كتابُ ابننا الأديب أنطون بارا من أفضل الكتب التي قرأتها في هذا الصدد، إنْ من حيث اللغة، أو من حيث الأسلوب والمضمون، وأعتبره خطوةً جبّارةً في طريق الحوار بين أتباع الديانات السّماوية)[١].

وأمّا ما يتعلّق بالعبارة التي نريد أن نذكرها له الآن، فهي عبارةٌ قصيرةٌ في مَبناها عميقةٌ في معناها، إنّها قوله: (الفكر المسيحيّ العربي يقدّس آل البيت عليهم السلام كما المسلم)[٢].

نعم، إنّها عبارةٌ قصيرةٌ من مجموعة عبارات كثيرة قالها الأستاذ الأديب (بارا) في كتابه (الحسين في الفكر المسيحي المعاصر)، ولكنّني آثرتُ أن أذكر هذه العبارة تحديداً هنا دون سواها لِما لهذه العبارة من مدلولات عميقة تتعلّق بعمق الرابطة الروحية بين المفكّرين المسيحيّين العرب المُستنيرين من جهة وبين فكر ومآثر أهل البيت عليهم السلام من جهةٍ أخرى.

فالفكر المسيحيّ المستنير بنور الحقّ يتعشّق، بلا شكّ، أهل الحقّ عليهم السلام، فعندما يقول سيّدنا الإمام علي عليه السلام: «اعرفْ الحقّ، تعرفْ أهله»، وعندما يقول سيّدنا عيسى المسيح عليه السلام: «اطلبوا الحقّ، يحرّركم الحقّ»، فعندما يقول كلاهما عليهما السلام ذلك، معنى ذلك أنّ الحقّ يحرّر الإنسان من الكثير من القيود والأغلال، وأوّل هذه الأغلال

(١) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق، ص٣٥٨.
(٢) نفس المصدر السابق ص٢٥.

والقيود هو قيد التقوقع والانكماش داخل دائرة الدّين الواحد أو الفكر الواحد، فالحقّ دائماً وأبداً يحلّق عالياً فوق حواجز الأديان وفوق حدود القوميات والسياسات، والحقّ هو الذي يعطي الإنسان الباحث عنه هويته في حين أنّ الحقّ لا يكتسب هويته من أيّ إنسان.

فالفكر المستنير للعرب المسيحيين يقدّس أهل البيت عليهم السلام لأنّ فكرهم يسمو على التعصّب والتزمّت من جهةٍ، ولأنّ أهل البيت عليهم السلام هم أهل الحقّ من جهةٍ أخرى.

وبالتالي، فإنّ كلّ إنسان ـ سواء كان مسيحيّاً أم غير مسيحيّ ـ له فكره الخاصّ، وله أيضاً: قيمته المرتبطة بذلك الفكر، وتتجلّى قيمة الإنسان الحقيقيّة بمقدار الجهد المبذول للوصول إلى حِمى الحقّ والدخول في دائرته، فعظمة الإنسان تتجلّى بالفكر الباحث عن الحقّ وبالعمل الحثيث على ترجمة معانيه وإدراك مقاصده.

وبناءً على كلّ ما سبق، نستطيع القول إنّ عبارة الأديب الأستاذ (أنطون بارا) السابقة كانت عبارةً صادقةً في معانيها وصائبة في مراميها، وذلك لأنّ أهل البيت المحمدي عليهم السلام ـ بالنسبة للمفكّرين المسيحيين عموماً ـ هم مصباح الدّجى ومنارة الهدى وهم أهل الصدق وحِمى الحقّ.

وبالتالي، فإنّ أولئك المفكّرين والأدباء المسيحيين يمثّلون دور الفراشات اللطيفة التي تدور وتدور بلهفةٍ وشوق حول المصباح الإلهيّ العظيم، إنّهم العشّاق الذين يدورون حول حِمى الحقِّ، ومن دار حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

يُحدّثونكم عن الحسين عليه السلام

كان حديثنا السابق حديثاً موجزاً نوعاً ما عن أهل البيت عليهم السلام عموماً، وكان ذلك الحديث يتناول ذكرهم عليهم السلام من خلال رؤى إسلاميّة ومسيحيّة على حدٍّ سواء، ومن الطبيعيّ تماماً أن أكون مُقصِّراً في عرض كلّ وجهات النظر الإسلاميّة والمسيحيّة وحتّى الهندوسيّة وغيرها التي جاءت على لسان الكثير من الشخصيات الفكرية الهامّة والتي تتحدّث تارةً عن الرسالة الإسلاميّة ورسولها الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وتارةً أخرى عن أهل بيت ذلك الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذين يُعتَبرون الامتداد الروحي والفكري لرسالة رأس ذلك البيت النبويّ الشريف، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا يعني اعترافنا بالتقصير أنّنا سنقبل بالأمر الواقع وسَنَسْتكين له، بل على العكس من ذلك تماماً، فإنّنا سنبذل قصارى جهدنا لاستدراك ما فاتنا ولترميم كلّ الثغرات التي نرى أنّ من شأنها أنْ تخفّف من قيمة هذا العمل الفكريّ الذي يستحقّ كلّ الجهد والعناء.

وعلى كلّ حالٍ، نرى الآن أنّ الوقت قد حان فعلاً للدخول إلى عالم الإمام الحسين عليه السلام وإلى مملكته الروحية كي نتعرّف عليه عن قربٍ أكثر بعد أن عرفناه كفَردٍ من أفراد أهل البيت عليهم السلام الذين أذهبَ الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً.

فللإمام الحسين عليه السلام مكانةٌ عظيمةٌ ومنزلةٌ رفيعةٌ لا يرقى إليها أحدٌ إلا أبوه المرتضى الإمام علي عليه السلام وأمّه المطهّرة الزهراء فاطمة عليها السلام، وأخوه المجتبى الإمام

الحسن عليه السلام ومن ثمّ الأئمّة التسعة من صلب الحسين (عليهم السّلام جميعاً).

ولا أعتقد أنّ هناك من داعٍ إلى إعادة ما جاء في فضل الإمام الحسين عليه السلام كفردٍ من أفراد أهل البيت الشريف عليهم السلام، فقد ذكرنا في ما مضى أنّ القرآن العظيم الذي يمثّل الوثيقة الإلهيّة الأعلى منزلةً قد أفصح في العديد من آياته المحكمات عن مكانة الإمام الحسين عليه السلام باعتباره واحداً من أعضاء أسرة آل بيت الرسول المصطفى عليه السلام، وقد رأينا من خلال آية التطهير: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]، أنّ أهل البيت عليهم السلام عموماً، ومن بينهم الإمام الحسين عليه السلام الذي هو محور بحثنا الآن، هُم المبرّؤون من كلّ عيبٍ ونقصٍ ومن كلّ رجسٍ ونقيصةٍ.

وغنيٌّ عن القول أيضاً أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو أحد المقصودين بآية المباهلة التي تقول:

﴿...فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ﴾[2]، حيث أجمع كلّ المفسّرين، وعلى اختلاف مذاهبهم، أنّ المقصود بكلمة (أبناءنا) هم الحسن والحسين (عليهما الصّلاة والسّلام)، وبكلمة (نساءنا) السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين، وبكلمة (أنفسنا) الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي المرتضى عليه السلام، وفي هذا إشارة واضحةٌ وصريحةٌ إلى المكانة التي يشغلها أهل البيت عليهم السلام في الرسالة الإسلاميّة، تلك المكانة التي لا يستطيع أحدٌ أن يبلغها أو أن ينالها، وإلا لَكان الرسول الحكيم صلى الله عليه وآله وسلم قد أحضر جماعة غيرهم من أجل المباهلة.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦١.

أمّا ما يتعلّق بآية المودّة ﴿...قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾(١)، فهي الآية الكريمة التي ستبقى تنزف دماً ودموعاً على ما حلَّ بأهل بيت محمد عليهم السلام بعد أن تنكّر الكثير من المسلمين لمحمد صلى الله عليه وآله ولآل بيته عليهم السلام وتناسوا تلك الوصيّة الإلهيّة الخالدة في محكم تنزيله وبدّلوا المودّة والمحبّة والتوقير بالسيف والتّحريق والتهجير، وراحوا يلاحقون ويُرهبون كلَّ مَنْ أحبّهم ووالاهم ويُنكّلون بهم قتلاً وتشريداً، وقد صدق القائل:

إنّ اليهود بحبّها لنبيّها أَمِنَتْ مَعَرَّة دهرها الخوّانِ
وذووا الصليب بحبّ عيسى أصبحوا يمشون زَهْواً في قُرى نجرانِ
والمؤمنون بحبّ آل محمدٍ يُرْمَون في الآفاقِ بالنّيرانِ

وإذا كان الإمام الحسين عليه السلام هو دائماً أحد المشمولين بالذّكر ضمن تلك الآيات القرآنية الكريمة السابقة والتي تتحدّث بشكلٍ صريحٍ عن موقع آل البيت عليهم السلام من الرسالة الإسلاميّة وعن منزلتهم السّامية عند الله سبحانه وتعالى وعند خاتم رسله الكرام (عليهم سلام الله جميعاً)، فَلِم لا نتحدّث الآن، إذنْ، عن مكانة الإمام الحسين عليه السلام، بشكلٍ مفردٍ ومستقلّ، حتّى نتعرّف عليه عن قرب أكثر وحتّى نستوعب شيئاً من مزايا شخصيته الكريمة الحميدة التي أَبَتْ إلا أنْ تمثّل العمق الفكريّ والبُعدَ الروحيّ لشخصية الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، أوّل الخلق وخاتم الرّسل عليهم السلام.

دعونا الآن، أيّها القرّاء الكرام، ندخل سويّة، عبر بوابّة الزمن الغابر، إلى بيت سيّدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، دعونا نسأله عن مدى حبّه لسبطه الحسين عليه السلام، وعن المعاني الإسلاميّة والقِيَم الفكريّة والأخلاقيّة التي يمثّلها ذلك السبط

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

بالنسبة إليه ﷺ.

وها هو الرسول الكريم ﷺ، الكريم بعلومه الإلهيّة، وبآدابه النبويّة، وبأخلاقه الرساليّة، يجيب على سؤالنا بكلّ رحابة صدر قائلاً:

«حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً، حسينٌ سبطٌ من الأسباط»(١).

هذا هو الحديث الأوّل الذي تفضّل علينا به سيّدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ، ولكنْ، وقبل أن يفيض علينا ذلك الرسول الكريم ﷺ المزيد من الأحاديث النبويّة الشريفة المُفصحة عن مكانة الحسين عليه السلام عنده، وهو الرسول السماوي الأخير الممثّل لخلاصة الرسالات السّماوية السابقة، دعونا نقف قليلاً في رحاب الحديث الأوّل كي نشرح ونحلّل شيئاً من دلالاته ومعانيه.

أعتقد أنّ القسم الأوّل من الحديث النبويّ الشريف (حسين منّي) واضحٌ تماماً ولا يحتاج إلى الكثير من الدراسة والتحليل، ولكن لابأس بإلقاء بعض الأضواء على المعاني الروحيّة التي تكمن وراء العبارة اللفظيّة ذاتها.

نعم، لا أحد يشكّ أو يرتاب في أنّ الحسين عليه السلام هو أحد حفيديّ رسول الله ﷺ، وبالتالي، فالحسين عليه السلام هو حقّاً من النبيّ، أو بشكلٍ أوضح هو من ذريّة النبيّ ﷺ، ولا يخفى علينا حديث الرسول ﷺ المشهور: «ينقطع يوم القيامة كلّ سبب

---

(١) راجع على سبيل المثال:

أ . محمد بن عيسى الترمذي، صحيح الترمذي، مطبعة بولاق بمصر، ١٢٩٢هـ ج٢ ص٣٠٧.

ب . الحافظ النيسابوري، مستدرك الصحيحين، مصدر سابق ج٣ص١٧٧ مع اختلافٍ يسيرٍ.

ج . المتّقي الهندي الحنفي، كنز العمال، مصدر سابق ج٧ ص١٠٧، أورده باختلافٍ يسيرٍ.

ونسب، إلا سَبَبي ونَسبي»(١)، وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ وصريحةٌ على الوحدة الدمويّة الأبويّة بين الإمام الحسين عليه السلام وجدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قد اعتبر أنّ أبناء السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام هُم أبناؤه لأنّ ـ وكما رأينا في آية المباهلة ـ الإمام عليّاً عليه السلام ومحمداً صلى الله عليه وآله وسلم نفس واحدة حيث استخدم البيان الإلهيّ في تلك الآية الكريمة كلمة (أنفسنا) للدلالة على أنّهما عليهما السلام نفسٌ واحدة.

ولو أردنا أن نغوص أكثر في معاني عبارة (حسينٌ منّي) بحيث نقفُ على ما وراء المعنى الظاهري الواضح لتلك العبارة النبويّة، لرأينا أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يعني أنّ الإمام الحسين ليس مجرّد حفيد طاهر من ذُريّته المقدّسة والمطهّرة من كلّ رجسٍ، وإنّما يعني أشياء أخرى أيضاً تتجاوز في مضامينها حدود البُعد اللفظي الأُحاديّ المعنى.

فالرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يعني أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو منه دماً وروحاً وفكراً، بل هو منه نوراً ورسالة أيضاً، ولا يمكن أن تتّضح الصورة المطلوبة هنا ما لم ننتقل مباشرةً للحديث عن القسم الثاني من الحديث النبويّ السابق «وأنا من حسين».

كيف يمكن لصاحب الرسالة السّماوية الأخيرة صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون جزءاً أو بعضاً من حفيده؟

بل أيُّ عقلٍ سَيَقبل فكرة أنّ الجدّ هو المتحدّر من الحفيد في الوقت الذي يجب أن يكون فيه الحفيد هو المتحدّر فعليّاً من ذُريّة الجدّ؟!

وإذا قلنا، على سبيل التسليم، إنّ المقصود بتلك العبارة هو أنّ الحسين عليه السلام

---

(١) الحافظ السيوطي الشافعي، إحياء الميت بفضائل أهل البيت، مصدر سابق ص٥٥.

السبيلُ القويم والنهج المستقيم لمرحلة إسلام ما بعد محمد ﷺ، فكيف يمكن لنا أن نستوعب ذلك وأن نُسلّم به؟!

كلّ هذه التساؤلات يمكن أن تخطر على بالنا وعلى بال الكثيرين من المفكّرين والمسلمين وغير المسلمين ممّن استوقفتْهم تلك العبارة المميّزة من الحديث النبويّ الشريف.

وعلى سبيل المثال، لو سألنا الشيخ الأزهري الجليل (عبد الله العلايلي) عن معنى ذلك الحديث النبويّ الشريف الذي ذكرناه سابقاً، والذي ذَكَره هو شخصيّاً في أماكن متعدّدة في كتابه (الإمام الحسين)، فماذا سيكون جوابه؟!

إنّ جوابه هو ما يلي: (وفي هذا الحديث معنى لا أدري كيف أحدّده، ولكنْ يجمل بي أن أتعنّى في فهمه بما أمثّل معه لحن النبوّة في حروفها، هو لونٌ من البيان يُقصدُ به في كلام العرب إفادة الامتزاج والاتحاد، وكأنّما حَيَ ﷺ من الحسين في مظهرين: مظهر الرجل النبيّ، ومظهر الرجل المسلم، وله في المظهر الأول شكل منْ جاء من السّماء، وفي المظهر الثاني شكل مَن عاد إليها)[1].

هذه هي باختصارٍ شديد وجهة نظر العلامة الأزهري، الشيخ (عبد الله العلايلي) حول مفهوم ومعاني ذلك الحديث النبويّ الشريف بشأن الحسين عليه السلام، وخلاصة القول عند العلامة (العلايلي) هو أنّ الإمام الحسين عليه السلام يمثّل، بالنسبة لجدّه المصطفى ﷺ، بقيّة النبوّة وخلاصة الشخصيّة الإسلاميّة الكاملة.

وما يُعزّز وجهة النظر تلك، هو قوله في مكانٍ آخر في تفسيره لنفس الحديث النبويّ السابق: (جاء في أخبار الحسين أنّه كان صورة احتبكت ظلالها من أشكال جدّه

(١) الشيخ عبد الله العلايلي، الإمام الحسين، دار مكتبة التربية. بيروت ١٩٨٦، ص٦٨.

العظيم، فأفاض النبيُّ عليه شعاعة غامرة من حبّه وأشياء نفسه، لِيُتمَّ له أيضاً من وراء الصورة معناها.

فتكون حقيقتهُ من بعدُ كما كانت من قبلُ، إنسانيّةً ارتقت إلى نبوّة (أنا من حسين)، ونبوّةً هبطتْ إلى إنسانيّة (حسينٌ منّي)، فسلامٌ عليه يوم وُلِدَ...)[1].

حسناً، نعتقد أنّ الصورة باتت أكثر وضوحاً في التعبير عن وجهة نظر ذلك العلامة الجليل (عبد الله العلايلي).

ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ الكثير من الباحثين والمفكّرين المسلمين والمسيحيين قد تهيّبوا الخوض في شرح الحديث السابق، خاصّةً ذلك القسم الذي يقول فيه صلى الله عليه وآله وسلم: (وأنا من حسين)، ولذلك فقد اكتفوا بذكر الحديث كدلالةٍ على عظمة الحسين عليه السلام، ولم يتطرّقوا إلى فَكِّ رموزه وتحليل معانيه.

وقد يستغرب البعضُ منّا إذا عَلِمَ أنّ هناك بعضَ المفكّرين المسيحيين في الشرق والغرب قد عَمِلَ جاهداً على تحليل العلاقة الروحية الوثيقة التي تربط بين الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وحفيده الإمام الحسين عليه السلام، وذلك بالاعتماد على تفسير دلالات الحديث النبويّ السابق وعلى غيره من الأحاديث النبويّة الأخرى التي لا تُبيّن فضائل وعظمة الإمام الحسين عليه السلام فحسبْ، بل وتُبيّن فضائل ومآثر أبيه، الإمام علي المرتضى عليه السلام، وأمّه السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، قُرّة عين المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

ولو أردنا أن نأخذ مثالاً واحداً فقط على ما نقول، لَوقع اختيارنا على المستشرق الفرنسيّ الذائع الصيت (لويس ماسينيون ـ Louis massignon) (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢).

---

(١) نفس المصدر السابق ص٢٩٠.

وبالطبع، لم يأتِ اختيارنا للباحث والمستشرق الفرنسيّ (ماسينيون) عن عبث، وإنّما جاء هذا الاختيار نتيجة لعدّة عوامل ثقافيّة هامّة، ولابأس بذكر البعض منها هنا كي تكون المدخل المناسب لحديثه عن الإمام الحسين عليه السلام وعن أمّه وأبيه وجدّه (عليهم الصّلاة والسّلام جميعاً) وعن العلاقة المميّزة التي تربط الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بسبطه الإمام الحسين عليه السلام.

فالمستشرق (ماسينيون) عالمٌ بالإسلام، وكان له نفوذ بعيد المدى على الصورة التي نظر بها الغربيّون إلى الإسلام، وقد مهَّد الطريق للكنيسة الكاثوليكيّة للانفتاح على الإسلام ومبادئه على حسب ما ورد في (إعلان الفاتيكان ٢)، وقد شغل (ماسينيون) منصب كرسي علم الاجتماع الإسلاميّ في جامعة باريس، والجدير بالذكر أيضاً أنّ المستشرق الفرنسيّ (هنري كوربان) هو أحد تلامذته النجباء، ومن تلامذته أيضاً المفكّر المصري (عبد الرحمن بدوي)، والمفكّر (جورج مقدسي)، والشيخ (عبد الحليم محمود) شيخ الأزهر سابقاً، ومن أشهر أعماله كتاب (آلام الحلاج).

إذنْ، فالأستاذ (ماسينيون) ليس بالشخصية العادية التي تكتب عن الإسلام والمسلمين عن بُعدْ، بل هو واحدٌ من القلّة القليلة التي زارت وجابت الكثير من البلدان الإسلاميّة حتّى أنه، كما يقول عنه الباحث الروسيّ (أليكسي جوارفسكي) في كتابه (الإسلام والمسيحيّة)، دخل إلى القاهرة للدراسة في جامعة الأزهر، وقد عُيّن في شتاء ١٩١٢ ـ ١٩١٣ أستاذاً في جامعة القاهرة الجديدة، وقد أصبح في عام ١٩١٩ مديرَ (مجلّة العالم الإسلاميّ)، ولاحقاً مديراً لمجلّة (الدراسات الإسلاميّة))[1].

---

(١) أليكسي جارافسكي، الإسلام والمسيحيّة (عالم المعرفة) العدد (٢١٥)، ترجمة: الدكتور خلف محمد الجراد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. تشرين الثاني، ١٩٩٦، ص١١٠.

وعلى كلّ حالٍ، يرى الأستاذ (ماسينيون) في العديد من كتاباته ومقالاته أنّ الرسول الكريم محمداً صلى الله عليه وآله كان شديد الحبّ لابنته الطاهرة فاطمة عليها السلام حتّى أنّه كان يُلقّبها بـ (أمّ أبيها) إيماناً منه بأنّها - إلى جانب زوجها عليّ عليه السلام، ستحفظ مبادئ الإسلام الدينية والإنسانية من خلال ذُريّتها المقدّسة المتمثّلة بشكلها الأوضح في شخصية الإمام الحسين عليه السلام الذي سيأتي من نسله تسعة أئمّة أطهار عليهم السلام، وسيكون آخرهم الإمام المهدي (عج)[1].

وهنا، يؤكّد لنا الباحث الفرنسيّ المعاصر (جان موريون) أنّ (ماسينيون) كان مدركاً تماماً لمعنى قول الرسول صلى الله عليه وآله لابنته فاطمة أنّها (أمّ أبيها)، وقد شرح الأستاذ (موريون) وجهة نظر (ماسينيون) بقوله: (لقد لُقِّبت فاطمة تَحَبُّباً بأمّ أبيها، وهذا يدلّ على مدى حبّ الرسول لها، فهي التي سيستمرّ توارث الرسالة الإسلاميّة عبرها حتّى يوم الدّين)[2].

وبعد هذا الكلام، نرى أنّ الأستاذ (موريون) يستفيض في شرح وجهات نظر الأستاذ (ماسينيون) بشأن العلاقة الروحيّة العميقة بين الجدّ والابنة والحفيد عليهم السلام، فالإمام الحسين عليه السلام هو الإمام الذي سيحفظ تراث جدّه الروحي، وهو الذي سيدافع عن شريعته، بل هو الإمام الوحيد من ذُريّة علي وفاطمة عليهما السلام القادر والمؤهّل لإعطاء دفّة القيادة الإسلاميّة الروحيّة لتسعة أئمّة من ذريّته يجدّدون ويعمّقون مبادئ الإسلام الحنيف في نفوس المؤمنين، ومن هنا يسهل علينا أن نفهم قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «... وأنا من حسين»، على أساس أنّ روح رسالته السّماوية ستستمرّ حيّةً

---

(١) جان موريون، لويس ماسينيون، ترجمة: منى النجار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت، ١٩٨١، ص٨١.

(٢) نفس المصدر السابق ص٨٠.

من خلال حفيده الحسين الذي سَيُحيي معالمها وسيبقيها شعلةً متّقدةً من خلال الأئمّة التسعة من أبنائه، فحياته الرساليّة ستبقى حيّةً وستستمدّ بقاءها اللامحدود من خلال حياة حفيده القائمة على أساس الإيمان بالإمامة المتحدّرة أساساً من الإمام علي عليه السلام ومن زوجته فاطمة عليها السلام، ابنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و(أمّ أبيها).

وربّما بسبب كلّ هذه العوامل المذكورة أعلاه، فقد خصّ (ماسينيون) الفكر الإسلاميّ الشيعيّ بمكانة بارزة في أعماله، وخصَّ أهل البيت عليهم السلام عموماً وفاطمة الزهراء عليها السلام التي تحتلّ موقع المحور وسط علاقات القرابة الخمس (الأبوّة، الزواج، الأمومة، البنوّة، الأخوّة)، بمكانة مرموقةٍ في مؤلّفاته لدرجة أنّه أبرزَها بشكلٍ مستقلٍّ في أربعةٍ من بحوثه[1].

هذه باختصارٍ شديدٍ بعض التحليلات الهامّة للحديث النبويّ السابق، وقد تعمّدنا أن يكون التحليل الأوّل لعالمٍ إسلاميّ من الشرق، وهو العالم الأزهري (عبد الله العلايلي)، هي حين كان التحليل الثاني لمستشرق مسيحيّ من الغرب، وهو المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون).

وعلينا أن لا ننسى الآن أنّنا كنّا في زيارةٍ لسيّدنا الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لنتعرّف على مكانة الحسين عليه السلام عنده، وأنّنا كنّا بانتظار المزيد من أحاديثه النبويّة الشريفة.

وها هو صلى الله عليه وآله وسلم يفيض علينا من بركات بيانه قائلاً: «إنّ الحسن والحسين هما ريحانتاي»[2]، ولأنّه صلى الله عليه وآله وسلم رسول الخير والحقّ والفضيلة، ولأنّه أيضاً الرسول الأكرم،

---

(١) نفس المصدر السابق ص٨٠، ٨١.

(٢) راجع على سبيل المثال ما جاء في:

أ . محمد بن عيسى الترمذي، صحيح الترمذي، مصدر سابق ج٢ ص٣٠٦.

ب . الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المطبعة الميمنيّة بمصر، ١٣١٣هـ،

فهو لا ينتظر منّا أن نطلب منه المزيد عن مكانة الحسين عليه السلام عنده، بل هو صلى الله عليه وآله الذي يبادر إلى القول من جديد: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»(١).

وإذا كنّا نريد وداع رسول الله صلى الله عليه وآله وإنهاء رحلتنا إلى حضرته النبوية القدسيّة على أمل لقائه غداً يوم العطش الأكبر كي يكون شفيعاً لنا عند ربٍّ غفورٍ رحيم، فإنّنا نشعر بحرقة الوداع ولوعة الفراق، غير أنّ الأمل الأكبر سيكون في يقيننا أنّه صلى الله عليه وآله سَيَسقينا غداً وسوف يسقي كلّ محبٍّ له ولأهل بيته عليهم السلام من نهر الكوثر أيّاً كانت هويّة ذلك المحبّ المذهبيّة، أو حتّى الدينيّة أيضاً.

والحقيقة تُقال، فإنّنا مهما حاولنا إقناع أنفسنا بضرورة الاكتفاء بما قدّمناه من أحاديثٍ نبويّةٍ شريفةٍ عن منزلة الحسين عليه السلام الرفيعة في ضمير جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وفي فكره الرساليّ، فإنّ تلك القناعة قد لا تكون مُرضيةً لبعض القرّاء الكرام الذين يريدون دائماً المزيد من تلك الأحاديث الممتعة للروح وللفكر، وربّما يزيد ذلك النّوع من القرّاء المزيد من الأحاديث النبويّة لعدّة أسبابٍ جديرةٍ بالاهتمام، ولا نستبعد أن

ج٢ ص٨٥، ٩٣.

ج ـ الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصباني، حلية الأولياء، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٥١هـ، ج٥ ص٧٠.

د ـ الحافظ أحمد بن شعيب النسائي، خصائص مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام، مطبعة التقدّم العلمية بمصر ص٣٧.

(١) راجع على سبيل المثال:

أ ـ محمد بن عيسى الترمذي، صحيح الترمذي، مصدر سابق، ج٢ ص٣٠٦.

ب ـ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق، ج٣ ص٣ + ٦٢.

ج ـ الحافظ أبو بكر أحمد بن علي (الخطيب البغدادي)، تاريخ بغداد، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٩هـ، ج٩ ص٢٣١.

د ـ الحافظ أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، مصدر سابقٌ، ج٥ ص٧١.

هـ ـ الحافظ النسائي، خصائص مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام، مصدر سابق، ص٣٦.

يكون على رأس هذه الأسباب حبُّهم للاطلاع على الدراسات والتحليلات المعاصرة التي جادت بها أقلام الأدباء والمفكّرين المعاصرين، والتي جاءت بمثابة الدراسة المنطقية والتحليلات العقلانية لتلك الأحاديث النبويّة الشريفة التي قالها خاتمُ رسل الله ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان.

وها نحن سنكون كرماء، كما كان الرسول الأعظم ﷺ كريماً معنا، وسنورد المزيد من أحاديثه البهيجة والمميّزة حول سبطه الذي سَيُرَوّي شجرة الإسلام من دمائه الزكيّة.

فقد جاء في كتاب (مجمع الزوائد) للحافظ (نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي): عن يزيد بن أبي زياد قال: خرج النبيّ صلّى الله عليه (وآله) وسلّم من بيت عائشة، فمرَّ على بيت فاطمة سلام الله عليها، فسمع حسيناً يبكي فقال: «ألم تعلمي أنَّ بكاءه يؤذيني؟»[1].

نعم، إنّ بكاء الحسين عليه السلام يؤذي رسول الله ﷺ ويُثير الهموم والآلام في صدره الشريف، ولكنْ ألا يحقّ لنا أن نسألَ ـ على ضوء فهْمِنا لهذا الحديث النبويّ ـ رسول الإنسانيّة ﷺ قائلين:

إذا كان بكاء الحسين عليه السلام يؤذيك يا رسول الله ﷺ، وإذا كانت دموعه تُشعل الهموم والأحزان في قلبك النقيّ الطاهر، فما هو موقفك لو أبصرتَه ورأسه الشريف يقطر دماً؟!

وإذا كان بكاؤه يؤذيك ويؤلمك على الرغم من أنّه كان يبكي وهو بين ذراعيّ أمّه

(١) الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢هـ، ج٩ ص٢٠١.

فاطمة الزهراء عليها السلام، فما هو شعورك لو أبصرته مُرمَّلاً بدمائه، ممزّق الجثّة تحت حوافر الخيل؟!

ألم يسمع أولئك القتلة الفجرة بقولك المشهور الذي قلته على رؤوس الأشهاد: «من أحبّ الحسن والحسين فقد أحبَّني ومن أبغضهما فقد أبغضني»[1]؟!

وعلى كلّ حال، لا يسعنا أن نقول شيئاً إلا قولنا لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، وحسبُنا الله ونعم الوكيل.

ونعتقد الآن أنّه من الأفضل لنا أن نذكر هذا الحديث الهامّ الذي أخذناه من كتاب (تاريخ بغداد) لمؤلّفه الحافظ (الخطيب البغدادي)، وهو حديث مؤثّر جداً ومناسبٌ كي نختتم به حديثنا الآن عن منزلة الإمام الحسين عليه السلام في وجدان الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وفي ضميره النبويّ الكريم.

ولكن، بالطبع، ستكون لنا عودةٌ ثانيةٌ للتوقّف مع أحاديث النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم التي تتحدّث عن قضيّة خروج الإمام الحسين عليه السلام وعن استشهاده على رمال كربلاء الحارقة والمتعطّشة لدماء الشهداء الأبرار التي ستكون الوقود الإيماني الذي سيحفظ روح الإسلام والخير والحقّ والفضيلة حيّةً دائماً وأبداً في ضمائر كلّ الأحرار في العالم على مرّ الأعوام وتقادم الأزمان والعصور.

وها نحن نذكر الآن الحديث الأخير الذي يمكن أن نذكره هنا، فقد روى الخطيب البغدادي بسنده عن أبي العباس، قال: كنت عند النبيّ صلّى الله عليه (وآله) وسلّم، وعلى فخذه الأيسر ابنه إبراهيم (ابن ماريّة القبطيّة)، وعلى فخذه الأيمن الحسين بن علي عليهما السلام.

---

(١) العلامة الشيخ سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، مصدر سابق، ج٢ ص٤٦.

تارةً يقبّل هذا وتارةً يقبّل هذا، إذ هبط عليه جبريل عليه السلام بِوَحيٍ من ربّ العالمين، فلمّا سرى عنه قال: أتاني جبريل من ربي فقال لي: يا محمد إنّ ربك يقرأ عليك السّلام ويقول لك: لست أجمعهما لك، فَافْدِ أحدَهما بصاحبه، فنظر النبيّ صلّى الله عليه (وآله) وسلّم إلى إبراهيم فبكى، ونظر إلى الحسين عليه السلام فبكى، ثمّ قال: إنّ إبراهيم أمُّهُ أَمَةٌ ومتى مات لم يحزن عليه غيري، وأمّ الحسين فاطمة وأبوه عليّ ابن عمّي لحمي ودمي، ومتى مات حزنت ابنتي وحزن ابن عمّي وحزنت أنا عليه، وأنا أوثر حزني على حزنهما.

يا جبريل، تقبض إبراهيم، فديته بإبراهيم، قال: فَقُبِض بعد ثلاث، فكان النبيّ (صلّى الله عليه (وآله) وسلّم) إذا رأى الحسين عليه السلام مقبلاً قبّله وضمّه إلى صدره ورشفَ ثناياه، وقال: فديت من فديته بابني إبراهيم[1].

وهنا لا بُدَّ لنا من التوقّف قليلاً كي نأخذ قسطاً من الراحة بعد هذه الجولة الشيّقة في ربوع الفكر المحمديّ الرساليّ الخالد وفي مملكة معرفة الحسين عليه السلام، الإمام الشهيد وأبي الأئمّة الشهداء عليهم السلام.

وبطبيعة الحال، ما هذه الأحاديث النبويّة الشريفة التي أوردناها في معرض حديثنا عن الإمام الحسين عليه السلام إلا غيضٌ من فيض، وهي بمجملها - بالإضافة إلى الأحاديث النبويّة التي سنذكرها لاحقاً حول نبوءة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفته الغيبيّة باستشهاده عليه السلام - الأحاديثُ التي بنى عليها المفكّرون والأدباء المسلمون والمسيحيون وغيرهم وجهات نظرهم ودراساتهم عن شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام وعن ثورته الإيمانيّة الإنسانيّة المباركة.

(١) الحافظ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مصدر سابق، ج٢ ص٢٠٤.

وإذا كان المستشرق الفرنسيّ (لويس ماسينيون)، الذي أسلفنا ذكره، قد أعطى أهل البيت عليهم السلام عموماً مكانة مرموقةً في مؤلّفاته الاستشراقيّة، وبشكلٍ خاصٍّ تلك المكانة المميّزة للسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، أمّ الحسن والحسين عليهما السلام، والملقّبة بأمّ أبيها، فإنّ المفكّر الفرنسيّ المعاصر (يان ريشار) يؤكّد في كتابه (الإسلام الشيعيّ) على صحّة وجهة نظر أستاذه المستشرق (ماسينيون)، ويعتبر أنّ لأبناء السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، وتحديداً الإمام الحسين عليه السلام الدّور الفعّال في عمليّة استمرار النسل المحمديّ الحامل والمجدّد دوماً للديانة الإسلاميّة، تلك الديانة التي أثبتت قوّتها وجدارتها فعلاً يوم حادثة المباهلة حيث باهل الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وفد نجران، أو بالأصحّ كاد أن يباهلهم، بأغلى النّاس على قلبه وبأهل بيته عليهم السلام الذين يمثّلون صفوة رسالته الإلهيّة، بعليّ وفاطمة والحسن والحسين[1].

أمّا لو عُدنا ثانيةً إلى الشيخ الأزهري الجليل (عبد الله العلايلي) كي نقف على رأيه بشخصيّة الإمام الحسين عليه السلام بعد وضْعها تحت أضواء الأحاديث النبويّة الشريفة، فماذا سيكون رأيه؟!

في الحقيقة، يربط العلامة (العلايلي) بين الآية القرآنية التالية ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾[2] وبين شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام، إذْ إنّه يرى ـ على ضوء الآية القرآنية السابقة ـ أنّ كلّ شيءٍ قائمٌ بنور الله وحيٌّ به، وإنّما يتفاوت النّاس بمقدار ظهور شعاع الله فيهم، ومن هذه الفكرة ينبثق السؤال التالي:

إذا كان النّاس يتفاوتون بمقدار ظهور شعاع الله سبحانه وتعالى فيهم، فما هو

---

(١) يان ريشار، الإسلام الشيعي، ترجمة: حافظ الجمالي، دار عطيّة. بيروت، ١٩٩٦م، ص٤٧.
(٢) سورة النور: الآية٣٥.

موقع الإمام الحسين عليه السلام من هذا الكلام؟!

والجواب بكلّ بساطة - كما يراه العلامة العلايلي - هو أنّ الحسين عليه السلام، ليس غريباً أنْ يكون حيث نتحدّث عنه، فإنّ في إنسانيّته السّامية، تلتقي شعلةُ النبوّة المقدّسة بالفطرة المثاليّة، وتزدحم المعاني والصور، ورموز العالم المجهول، فهو روحٌ إلهيٌّ في طبيعة بشريّة)[1].

نعم، إنّ الإمام الحسين عليه السلام روحٌ إلهيٌّ في طبيعة بشريّة، ولكن لم يأت هذا الحكم من العلامة (العلايلي) من الفراغ، ولم يأت نتيجة ثورةٍ عاطفيّة بعيدةٍ عن روح المنطق وأسس العقل، بل إنّه الحكم المنطقيّ الصادر عن عقلٍ مستنيرٍ بضوء الحقائق وبنور الوقائع، فلا يسمح لتيّار العاطفة المجلجل أن يجرف معه ما بناه العقل من نتائج وأحكام.

ولا أريدُ هنا أن أسهب في الحديث عن وجهة نظر العلامة (العلايلي) حول طفولة الإمام الحسين عليه السلام وموقعه كَسِبْطٍ في قلب ووجدان جدّه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن أحبّ أن أذكر هنا حادثةً واحدةً فقط من الحوادث المشهورة عن طفولة الحسين عليه السلام، ومن ثمّ سأذكر تعليق العلامة (العلايلي) عليها وتحليله العقليّ لها.

نقل لنا العلامة (العلايلي) في الصفحة / ٢٨٢/ من كتابه (الإمام الحسين) القصّة التالية كما جاءت في الكثير من كتب التراث الإسلاميّ، فقال:

وعن شداد، قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إحدى صلاتي العشاء وهو حاملٌ حسيناً، فتقدّم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فوضعه، ثمّ كبّر للصلاة فأطال سجدة الصلاة، فرفعت رأسي فإذا الصبيّ على ظهره وهو ساجدٌ، فرجعت إلى سجودي فلمّا قضى الصلاة،

---

(١) العلامة عبد الله العلايلي، الإمام الحسين، مصدر سابق ص٨.

قيل: يا رسول الله إنّك سجدت بين ظهري صلاتك سجدةً أطلتَها حتّى ظننّا أنّه قد حدث أمرٌ أو أنّه يُوحى إليك، فقال: «كلّ ذلك لم يكن، ولكنْ ابني ارتحلني (أي امتطى ظهره صلى الله عليه وآله وسلم) فكرهتُ أن أعجله حتّى يقضي حاجته».

هذه هي القضيّة بتمامها كما نقلها لنا العلامة (العلايلي) في كتابه المذكور، وقد حظيت هذه القصّة تحديداً بالكثير من التأمّل والتفكّر في كتاب العلايلي، ولعلّ أبرز تحليل وأعمق معنى وصل إليه العلامة العلايلي في دراسته لأبعاد هذه الحادثة المتعلّقة بطفولة الإمام الحسين عليه السلام هو قوله:

(ارتحل الحسين عليه السلام ظهر جدّه العظيم وهو ساجدٌ في الصّلاة، وجاء في الحديث أنّ أقرب ما يكون المرء من ربّه وهو ساجد.

ومعنى هذا أنّ النبوّة الساجدة كانت معراجاً روحيّاً لهذا الطفل الذي استودع فيه النبيّ أسراره العظمى وإنسانيته العليا)[1].

فالحسين عليه السلام، إذن، كأبيه الإمام عليّ عليه السلام، مستودع أسرار النبوّة وخزّان علوم الرسالة السّماوية، ولهذا السبب كان الكثير من رجال الفكر والأدب ينظرون إلى زواج الإمام عليّ عليه السلام من ابنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المفضّلة فاطمة الزهراء عليها السلام على أنّه تزاوجٌ قائمٌ بالأساس على امتزاج النّور الإماميّ العلويّ مع النّور الرساليّ النبوّي المحمديّ والعودة بذلك النّور إلى حالته الأولى كما كان عليه قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى سيّدنا آدم عليه السلام بعدّة آلافٍ من السّنين الإلهيّة.

فالإمام الحسين عليه السلام، كأخيه الإمام الحسن عليه السلام، هما نتاج أنوار الإمامة وأنوار الرسالة، إنّهما عليهما السلام ابنا المرتضى عليه السلام والمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا لا يمكننا أن نعتبر

(١) نفس المصدر السابق ص٢٩٣.

قول العلامة (العلايلي) عن زواج عليّ عليه السلام من فاطمة بنت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلا قولاً صائباً وحكماً سديداً، إذْ إنّه قال:

اجتمعت في عليّ قابليّات لا حدّ لها...

واجتمعت في فاطمة إشراقات لا حدَّ لها...

فيوم علي وفاطمة، يومُ نَظَرِ النبوّة إلى نفسها في المرآة[1].

والآن، أيّها الأعزاء، دعونا ننتقل في رحلتنا هذه من عالم العلامة (العلايلي) إلى رحاب عالم مفكّرٍ آخر لا يقلّ أهميّة في فكره عن مستوى العلامة (العلايلي) الذي كنّا في ضيافته الفكريّة منذ قليل.

فالأستاذ (توفيق أبو علم) واحدٌ من أبرز الكتّاب السنّة المعاصرين الذين خاضوا غمار البحث في التاريخ الإسلاميّ وخرجوا نتيجة بحثهم بالعديد من الكتب الدينيّة والفكريّة الهامّة التي أغنتْ المكتبة العربيّة بمعلوماتها وبدقّة الملاحظات التي أَبْدَتها حيال الكثير من الوقائع الإسلاميّة والحوادث التاريخيّة المفصليّة الهامّة على امتداد فجر الرسالة الإسلاميّة.

ولا ريب في أنّ الأستاذ (أبو علم) كان مُتَبحّراً جداً في دراسة التاريخ الإسلاميّ وإلا لما خرج بالعديد من الكتب الإسلاميّة التي تتناول سيرة حياة أعلام المسلمين الذين كانوا هم بحقّ صورة الإسلام ومنهج الإيمان الذي رسمته الرسالة السّماوية لأبناء الأرض.

ويمكننا أن نذكر من مؤلّفات الأستاذ (أبو علم)، الذي كان يشغل منصب وكيل أول في وزارة العدل سابقاً، الكتب التالية والتي طُبعت مرّات عديدة نظراً لقيمتها

(١) نفس المصدر السابق ص٣٨٦.

الفكريّة والروحية:

(فاطمة الزهراء)، (علي بن أبي طالب)، (الحسن بن علي)، (الحسين بن علي)، (السيدة نفيسة)، وقد تُرجمت بعض هذه الكتب إلى اللغة الفارسيّة.

وأكثرُ ما يهمّنا الآن من هذه الكتب هو كتاب (الحسين بن علي)، كونه الكتاب الذي يتحدّث بشكلٍ مباشرٍ عن الإمام الحسين عليه السلام الذي هو محور بحثنا في الكتاب الذي هو بين أيدينا الآن.

وبلا شكٍّ، فقد تحدّث الأستاذ (أبو علم) عن طفولة الإمام الحسين عليه السلام في بداية كتابه، وقد أجاد في إيراد الشواهد التاريخية وفي التعليق عليها أيضاً، وقد ذكر من جملة ما ذكر عدّة حوادث تتعلّق بطفولة الإمام الحسين عليه السلام وبارتباطه الروحيّ بجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وما يهمّنا من هذه الحوادث الهامّة هي تلك الحادثة التي نقلها لنا الأستاذ (أبو علم) من بطون الكتب التراثيّة السنيّة المعتمدة والموثوقة عند أهل النقل من علماء المسلمين.

يقول الأستاذ (أبو علم) إنّه جاء في كتاب (تاريخ البلاذري) نقلاً عن محمد بن يزيد المبرّد النحوي بسنده، قال: انصرف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى منزل فاطمة فرآها قائمةً خلف بابها فقال: «ما بال حبيبتي ها هنا؟» فقالت: «إنّ ابنيك خرجا غدوة وقد غمّ عليّ خبرهما»، فمضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقفو آثارهما حتّى صار إلى كهف جبل فوجدهما نائمين وحيّةٌ مطوّقةٌ عند رأسيهما... ثمّ حمل الحسن على كتفه اليمنى والحسين على كتفه اليسرى، فنزل جبرائيل فأخذ الحسين، فكانا بعد ذلك يفتخران، فيقول الحسن:

«حَمَلني خير أهل الأرض»، ويقول الحسين: «حَمَلني خيرُ أهل السّماء»[١].

وفي نفس الصفحة التي ذكر فيها الأستاذ (أبو علم) هذه الحادثة المشهورة والمأخوذة من كتاب (تاريخ البلاذري)، نراه يسارع مباشرةً لذكر عدّة أبيات شعريّة تخلّد هذه الحادثة شعراً، فقد ذكر قول الشاعر (حسان بن ثابت):

فجاءَ وقد ركبا عاتِقَيه ... فَنِعمَ المطيّة والراكبان

ثمّ ذكر بعد هذا البيت الشعريّ، عدّة أبياتٍ شعريةٍ أخرى ولكن هذه المرّة للشاعر العبقريّ (السيّد الحِميَري)، وهي في مجملها أبياتٌ شعريّةٌ تصوّر الرسول الكريم ﷺ وهو يحمل حفيديه العزيزين عليهما السلام على كتفيه:

أتى حسناً والحسينَ الرسولُ ... وقد برزا ضحوةً يلعبان

فضمّهما وتفدّاهما ... وكانا لديه بذاك المكان

ومرّ وتحتهما عاتقا، ... فَنِعمَ المطيّة والراكبان

وللأستاذ (أبو علم) أسلوبه الخاصّ وطريقته المميّزة في عرض جوانب الشخصيّة التي يتحدّث عنها، فهو ينتهج أسلوب واحدةٍ من مدارس علم النّفس الحديثة التي تقول إنّ الإنسان، في محصّلة الأمر، هو ابن بيئته البيتيّة، وهو نتاج تربيته الأبويّة، وذلك لأنّ الإنسان يكتسب الكثير من الخصال والصفات في سلوك وثقافة أبويه ومن محيطه الأقرب.

وانطلاقاً من هذه الفكرة، يرى الأستاذ (أبو علم) أنّ التعريف بشخصيّة استثنائيّة رفيعةٍ كشخصيّة الإمام الحسين عليه السلام لا يُنظر إليها من ذاتها فحسب، وإنّما ينظرُ إليها أيضاً من خلال محيطها الأقرب، ومن خلال ثقافة وسلوك أفراد ذلك المحيط

(١) توفيق أبو علم، الحسين بن علي، دار المعارف بمصر، ط٢/١٩٨٢، ص٢٧.

الأقرب، وبشكلٍ أوضحٍ، من خلال أسرته.

ولذلك، يرى أنّ التعريف بالإمام الحسين عليه السلام يستلزم الكلام عن هويّة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم وعن جدّته (رض)، ويستلزم الكشف أيضاً عن هويّة أبيه عليه السلام وأمّه عليها السلام وأخيه عليه السلام أيضاً.

ولكن نحن لن نقوم بهذا العمل لأنّنا لو قمنا به، أو على الأقلّ، لو استعرضنا هويّة كلّ من مرّ ذكرهم عليهم السلام من محيطه الأقرب فسيطول بنا المقام كثيراً وسيكون في ذلك خروجٌ، بعض الشيء، عن الشخصيّة الأساسيّة والمحوريّة في كتابنا هذا.

ولذلك، سنختصر الكلام وسنقول مؤكّدين ما يراه الأستاذ (أبو علم) من أنّ معرفة أهل البيت عليهم السلام هي بابٌ من أبواب الجنّة، لأنّ حبّهم هو بحدّ ذاته الجنّة التي لا يرضى عنها المؤمن الحقيقيّ أيَّ بديلٍ أو مقابلٍ.

وسنوفّر الكلام على الأستاذ (أبو علم)، وسنورد الحديث النبويّ الشريف الذي ذكره في كتابه (الحسين ابن علي) والذي يختصر الحديث عن استعراض الهويّة المفصّلة عن جوِّ الإمام الحسين عليه السلام وعن محيطه الأقرب.

ونصّ الحديث المنقول عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه هو أنّه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آخذاً بيد الحسين بن علي وهو يقول: «أيّها النّاس هذا حسين بن علي فاعرفوه، فوالذي نفسي بيده لجدّ الحسين أكرم على الله من جَدّ يوسف بن يعقوب ـ هذا الحسين جدّه في الجنّة ـ وأبوه في الجنّة وأمّه في الجنّة وعمّه في الجنّة وعمّته في الجنّة، وخاله في الجنّة وخالته في الجنّة وأخوهُ في الجنّة وهو في الجنّة»[1].

ولا أظنّ، بعد ذلك، أنّنا بحاجةٍ للإجابة على السؤال التالي:

---

(١) نفس المصدر السابق ص٣٠.

إذا كان كلّ هؤلاء عليهم السلام: من محيطه الأقرب، هم سادة أهل الجنّة، فماذا تعني محبّتهم ومعرفتهم وموالاتهم؟! وما هو مصير من يسير على خطاهم وينهج نهجهم وسلوكهم مع الخالق ومع الخلائق؟!

ولا نطلب من القارئ الكريم، في إجابته على ذلك، إلا القليل من التّرويّ والمنطق والإنصاف، ومن ثمّ فَلْيكنْ جوابه ما يشاء.

وحتّى يكون القارئ أكثر عقلانيّة وإنصافاً في إطلاق حكمه وفي الإجابة على ما سبق من جهة، وحتّى لا يتّهمنا بالبخل والتقتير بإيراد المزيد من الأحاديث النبويّة الشريفة التي ذكرها الأستاذ توفيق أبو علم في مؤلّفاته العديدة عن أهل البيت عليهم السلام من جهةٍ ثانيةٍ، لا يَسَعُنا إلا أن نقول للقارئ: لكَ ما تريد، ولكنْ دعنا نقرأ سَويّةً وبِرويّةٍ هذا الحديث النبويّ الشريف الذي أورده الأستاذ (أبو علم)، هذه المرّة، في كتابه (الحسن بن علي)، ولنقف متأمّلين بعمقٍ ومتفكّرين بهدوءٍ وبتعقّلٍ كلّ عبارةٍ واردةٍ فيه.

ينقل لنا الأستاذ (أبو علم) عن علي بن الهلالي عن أبيه قوله:

دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وآله في الحالة التي قُبض فيها، فإذا فاطمة سلام الله عليها عند رأسه فَبَكَتْ حتّى ارتفع صوتها، فرفع صلى الله عليه وآله طرفه إليها، فقال: «حبيبتي فاطمة ما الذي يبكيك؟»، فقالت: «أخشى الضيعة من بعدك»، فقال: «يا حبيبتي أما علمت أنّ الله اطّلع على أهل الأرض اطّلاعةً فاختار منها أباك فبعثه برسالته، ثمّ اطّلع اطلاعةً فاختار منها بعلك وأوحى إليّ أنْ أنكحك إيّاه؟

يا فاطمة ونحن أهل بيت فقد أعطانا الله سبع خصال لم تعط أحداً قبلنا ولا تعط أحداً بعدنا، وأنا خاتم النّبيين وأكرمهم على الله عزّ وجلّ وأحبّ المخلوقين إلى الله عزّ وجلّ وأنا أبوك، ووصيّي خير الأوصياء وأحبّهم إلى الله عزّ وجلّ وهو بعلك، وشهيدنا

خير الشّهداء وأحبّهم إلى الله عزّ وجلّ وهو حمزة بن عبد المطلب عمّ أبيك وعمّ بعلك، ومنّا مَن له جناحان أخضران يطير بهما إلى الجنّة حيث يشاء مع الملائكة وهو ابن عمّ أبيك وأخو بعلك، ومنّا سِبطَا هذه الأمّة وهما ابناك الحسن والحسين وهما سيّدا شباب أهل الجنّة، وأبوهما ـ والذي بعثني بالحقّ ـ خيرٌ منهما، يا فاطمة والذي بعثني بالحقّ إنّ منهما مهديّ هذه الأمّة إذا صارت الدّنيا هرجاً ومرجاً، وتظاهرتْ الفتن وتقطّعت السبل وأغار بعضهم على بعض، فلا كبير يرحم صغيراً، ولا صغير يوقّر كبيراً، فيبعث الله عزّ وجلّ عند ذلك من يفتح حصون الضلالة وقلوباً غُلفاً يقوم بالدّين في آخر الزمان كما قمتُ به في أوّل الزمان، ويملأ الأرض عدلاً كما مُلِئت جوراً»[1].

وأقلّ ما يمكن أن يُقال عن المحيط الأقرب للإمام الحسين عليه السلام ـ بعد قراءة الحديث الذي ذكرناه ـ هو أنّ ذلك المحيط المتمثّل بالأسرة التي نشأ فيها الإمام الحسين عليه السلام هو محيط يدأب ويسعى لتحقيق وحدة هدفٍ كان أوّل من نادى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت راية لا إله إلا الله دائماً وأبداً، ولا ريبَ في أنّ ذلك الهدف أو القضيّة التي حمل لواء الدفاع عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما يصفها المفكّر المسيحيّ (سليمان كتّاني) ـ هي نفس القضيّة التي امتلأ بها وجود الإمام علي عليه السلام، وهي أيضاً ذات القضية التي حملتها وسارت بها الصدّيقة الزهراء عليها السلام إلى باحة المسجد، وهي ذاتها التي قَصَفَ بها الإمام الحسن عليه السلام حسامَه حقناً للدماء، وصَوناً لوحدة المسلمين، لتبقى هي القضيّة ذاتها يمشي بها الإمام الحسين عليه السلام من أرض مكّة إلى

(١) توفيق أبو علم، الحسن بن علي، دار المعارف بمصر، ط٢/ ١٩٩٠، ص٢٩.

رمال كربلاء بِجُبَّةٍ ما طاب له إلا أن يصبغها بدماء الوريد[١].

لقد كان محيط الإمام الحسين عليه السلام الأُسَريّ هو بحدّ ذاته المجتمع الإنسانيّ والإيمانيّ الأمثل، لقد حقّقتهُ الرسالة السّماوية إذْ بَنَتْهُ بيتاً كريماً تنزل فيه كي تخلد معه في القيمة المستمرّة، في وجود الإنسان واستمراريّته، فهي الرسالة السّماوية التي ستدافع عن ذلك البيت النبويّ، إذْ إنّها في ذلك ستدافع عن ذاتها وعن حقيقتها من خلال دفاعها عنه، ومن هنا كان البيت بيت الرسالة، أمّا أهلوه المُخصَّصون فهم المصطفون عنصراً أصيلاً للصيانة والتعهّد، حتّى تبقى الرسالة فاعلة فعلها المنشود إلى أن يعمّ الرشد سواد النّاس وتنجلي سُحُبُ الضلالة والظلام، وتتجذّر إنسانيّة الإنسان بداخله عن طريق العلم واليقين وعن طريق السعي والممارسة، تلك الممارسة التي تُنسيه مواطئ قدميه في أمسه المظلم والهزيل، وتنقذه وتنجيه من الانتكاس والردّة في يومه الجديد وفي مستقبله الممتدّ صعوداً إلى يوم الدّين[٢].

وليس هذا فحسبْ، بل يرى المفكّر والأديب المسيحيّ (كتّاني) أنّ لطفولة الإمام الحسين عليه السلام تعهداً متفرِّداً عن المثيل، وقد اشترك في ذلك التعهّد الممتاز: الجدّ والأب والأمّ بأسلوبٍ موحَّدٍ لا يدلّ ولا يشير إلا إلى وحدة الهدف الذي يجتمع عليه الثلاثة، فكان واحداً في اللون، وواحداً في النّوع، وواحداً في التوجيه، بل وواحداً أيضاً في ضمّ الأخوين الطاهرين إلى مشترك واحد دون أيّ فرقٍ أو تمييز، كأنّهما واحد في التّنشئة والتربية، وكان كلُّ واحد منهما المكملَ للآخر ليكونا حبكةً واحدةً في فتيلة سراج الرسالة السّماوية الأخيرة.

---

(١) سليمان كتاني، الإمام الحسين في حلّة البرفير، مصدر سابق ص٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص٢٧.

لقد كانا ـ الحسن والحسين عليهما السلام ـ فعلاً شخصين منفصلين جسدياً لكنّهما متّحدان بقوةٍ لا تقبل التفريق بينهما ضمن إطار الوحدة الفكريّة الروحيّة الخالصة، لقد جَمَعتهما تلك الوحدة إلى القصد الواحد، ليكونا نِتاجاً واحداً لذلك القصد الأكبر الذي جال في بالِ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو يزفّ إلى الإنسان رسالةً تجمعه من تيهه المشرّد إلى مجتمعه الموحّد[١].

إذنْ، لقد كان الإمام الحسين عليه السلام منذ البداية المرآة الصافية التي تعكس بصفائها ونقائها أفكار وأخلاقيات وسلوك جدّه الرسول المصطفى وأبيه الإمام المرتضى عليه السلام وأمّه البتول فاطمة الزهراء عليها السلام، فهو المرآة العاكسة لأنوار النبوّة والإمامة فكراً وممارسة، ولذلك فمن الطبيعيّ تماماً أن يعمل أعداء الإسلام الحقيقيّ على تحطيم تلك المرآة وتفتيتها، أو على الأقلّ، على نثر الغبار والرمال على وجهها الناصع بغية إطفاء نورها وإبطال مفعولها.

ويمكننا أن نعتبر كلام الأديب الراحل الدكتور (طه حسين) عن شخصيّة الإمام الحسين بمثابة التأكيد على ما قلناه، فالدكتور (طه حسين) الذي يتميّز بوجهات نظر خاصة وغريبة بعض الشيء حول بعض القضايا والأحداث الإسلامية الهامّة، يرى في كتابه (الفتنة الكبرى) أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان (كأبيه صارماً في الحقّ لا يحبّ الرّفق ولا الهوادة ولا التسامح فيما لا ينبغي التسامح فيه)[٢].

حقّاً، لقد كان الإمام الحسين عليه السلام كأبيه عليّ أمير المؤمنين عليه السلام تماماً، بل لقد كان أيضاً صورة صادقة عن شخصيّة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كلّ صفةٍ من صفاتها

---

(١) نفس المصدر السابق ص٧٩.

(٢) الدكتور طه حسين، الفتنة الكبرى، دار المعارف بمصر، ١٩٧٨، ج٢ ص١٩٥.

وفي كلّ سلوكٍ من سلوكيّاتها، فالحسين عليه السلام هو الصورة التي انطبعت فيها خطوط ومعالم جدّه العظيم محمد صلى الله عليه وآله لأنّه حَلَّ في بيئة النبوّة التي هي، حَقّاً، الإنسانية العليا في المظهر البشريّ، فكان بذلك أسمى رجل لأنّه أسمى طفل تربّى وترعرع في أسمى بيئة.

ويرى الكثير من أهل العلم والمعرفة، على مختلف مشاربهم ومذاهبهم، أنّ الجانب النورانيّ في شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام هو انعكاس واكتساب أيضاً من نورانيّة عالم النبوّة والإمامة.

فعندما يخبرنا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنّ إرادة الله سبحانه وتعالى قد قضت عليه أن يزوّج النّور بالنّور، أيّ علي عليه السلام من فاطمة عليها السلام، فهذا يعني أنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام المنحدرين منهما والمنصوص عليهم أصلاً هم أيضاً ورثة وحملة وأصحاب ونتاج تزاوج هذين النورين العظيمين الخالدين.

وبناءً على ذلك، يمكننا أن نعتبر ما قاله الإمام (بديع الزمان سعيد النورسي)، وهو أحد المتصوّفين الأتراك السنّة المعاصرين، بشأن علاقة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، بحفيديه الطاهرين الحسن والحسين عليهما السلام وبشأن علاقتهم النورانيّة هو عين الصواب حيث قال ذلك الإمام التركيّ المعاصر حرفيّاً:

(إنّ ما أظهره الرسول الأكرم عليه الصّلاة والسّلام من الشفقة الفائقة على العادة والاهتمام العظيم، إزاء الحسن والحسين (رض) في صبوتهما، ليس شفقة جِبليّةً ومحبّة ناشئة عن حس القرابة، بل ذلك، من حيث إنّ كُلاًّ منهما رأس حبل نوراني من حبال وظيفة النبوّة)[1].

---

(١) الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، مجموعة اللمعات من كُليات رسائل النّور، مصدر سابق

إذنْ، فالاهتمام العظيم الذي أظهره الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم تجاه ابنيه الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام لم يأتِ عن عبث، ولم يكن ناتجاً عن الرابطة الدمويّة وعن العلاقة العاطفية فحسب، بل كان ذلك الاهتمام العظيم والمميّز اهتماماً ناشئاً عن وحدة العلاقة النورانيّة بالدرجة الأولى، تلك العلاقة التي تربطهم بالله سبحانه وتعالى ارتباطاً وثيقاً ودقيقاً كارتباط شعاع الشمس بقرصها وربّما أكثر دقّةً من ذلك، وقد أصاب وأجاد الإمام محمد الباقر عليه السلام عندما أجاب على سؤالٍ سأله إيّاه جابر بن يزيد الجعفي، بقوله مجيباً عليه:

(يا جابر إنَّ لنا عند الله منزلةً ومكاناً رفيعاً، ولولا نحن لم يخلق الله أرضاً ولا سماء ولا جنّة ولا ناراً ولا شمساً ولا قمراً ولا بَرّاً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً ولا رطباً ولا يابساً ولا حلواً ولا مرّاً ولا ماءً ولا نباتاً ولا شجراً، اختَرَعنا الله من نور ذاته، لا يُقاسُ بنا بَشَر)[1].

ولا يسعنا إلا أن نقول، وبثقةٍ كاملةٍ، إنّ عبارة الإمام الباقر عليه السلام: «اختَرَعنا الله من نور ذاته» هي واحدةٌ من أكثر العبارات دقّةً في وصف العلاقة النورانيّة القديمة بين الله سبحانه وتعالى وأهل بيت رسوله عليهم السلام.

ولا ريب في أنّ عبارات وأحاديث من هذا النّوع، سواءً كانت للإمام محمد الباقر عليه السلام أم لغيره من أئمّة أهل البيت عليهم السلام هي أحاديثٌ عميقة المعاني وقد استمدّت عمقَ معانيها من الكثير من الأحاديث النبويّة الشريفة التي لم يبخل بها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم على عموم المسلمين في العديد من المواقف والمناسبات.

ص٣١.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، نشر دار الكتب الإسلامية. طهران، ١٣٨٨هـ، ج٢٦ ص١٢.

ويمكننا أن نوجز القول حول هذه النقطة بقولنا إنّ الكثير من الشعراء الكبار والمتصوّفة قد تناولوا تلك الأحاديث النبويّة الشريفة ودرسوها وحلّلوا معانيها ثمّ خَلَصوا بعد ذلك إلى العديد من النتائج التي تتّفق في معانيها مع مجمل معاني أحاديث الرسول المصطفى ﷺ حول طبيعة العلاقة النورانيّة وعمق ارتباطها بين الله وأهل البيت عليهم السلام.

وقد عَمَدَ أولئك الشعراء المتصوّفة إلى تدوين النتائج التي توصّلوا إليها في أبيات شعريّةٍ بالغةِ العذوبة والشفافية إيماناً منهم بأنّ تلك الحقائق التي توصّلوا إليها يجب أن تخُلَّدَ أبدَ الدّهر في دواوينهم ومؤلّفاتهم.

ويكفي أن نذكر على سبيل المثال أنّ المتصوّف والشاعر السنّي (عبد الغني النابلسي)، وهو متصوّف ليس بالبعيد عنّا زمنياً كثيراً، كان يرى أنّ آل بيت المصطفى عليهم السلام هم أساس الوجود إذْ إنّ نورهم المستمدّ من ذات نور الله سبحانه وتعالى هو نفس نور طه النبيّ ﷺ غير أنّ الرسول المصطفى ﷺ يمتاز عنهم بحمله لخاتم النبوّة، ويرى المتصوّف (النابلسي) أيضاً أنّ الإنسان البصير الذي يمعن التفكير في أساس هذا الكون وفي وجوده المستمدّ من أمر الله:

(كُن فيكون)، سيدرك بنور بصيرته أنّ نور النبيّ ﷺ ونور أهل بيته عليهم السلام، والذي هو بالأساس نورٌ واحدٌ، هما النّوران المُمسِكَان بدوام هذا الوجود، وهما المُمثِّلان الحقيقيّان للحكمة الإلهيّة السارية في هذا الكون.

وقد قال (النابلسي) عن ذلك مخُمِّساً في كتابه (ديوان الحقائق ومجموع الرقائق):

الكونُ قد أظهرَ لي بَسْطَهُ

في نور طه مثبت قِسطَهُ
والآلُ نورٌ أحكموا رَبْطَهُ
لـو شُـقَّ عـن قلبـي يُـرى وسْـطَهُ　　سـطران قـد خُطَّـا بـلا كاتـبِ
نوران في نورٍ لهم غائبِ
روحٌ وجسمٌ ذا بلا عائبِ
لا زال في قلب لنا تائبِ
العلـمُ والتوحيـدُ في جانـبِ　　وحـبّ آل البيـت في جانـبِ[1]

وسواء ذكر الشيخ (النابلسي) الإمام الحسين عليه السلام بالاسم الصريح أمْ لم يذكره، فالنتيجة واحدة دون أدنى شكّ، وذلك لأنّ الإمام الحسين عليه السلام هو أحد أقطاب أهل البيت المحمدي عليهم السلام الذين يمثّلون السفارة السماويّة الأخيرة على الأرض، وهُمْ عليهم السلام أيضاً مهبط وحي الله وبيت رسالته وأئمّة أمّته.

وقد صدقَ المفكّر والشاعر المسيحيّ الكبير (سعيد عقل) عندما وصفَهم أيضاً، فأجادَ الوصف بقوله عنهم في إحدى قصائده الرائعة:

وكانـت إمامـاتٌ وكانـت مطـارحٌ
محَـطُّ نـزول الله أو يقـربُ القـربُ
ففـي كـلّ أرضٍ بعـدُ بيـتٌ مُطَيَّـبٌ
على اسم الأُولى في الكُتْبِ ليس لهم شَطبُ[2]

---

(١) الشيخ عبد الغني النابلسي، ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، دار الجيل . بيروت، د.ت، ج١ ص٧٤.

(٢) سعيد عقل، الأعمال الكاملة، المجلد السادس (كما الأعمدة . الوثيقة التبادعية)، نوبليس . بيروت، ص٧١.

نعم، فلأهل البيت عليهم السلام ذكر مطيّب في كلّ مكان من الأرض، وفي كلّ زمان من الدّهر، بل لأهل البيت عليهم السلام ذكر لا يفنى واسم لا يُمحى في كلّ كتب السّماء وفي كلّ رسالات الأولين الغابرين.

وقد يستغرب بعضُ القرّاء الكرام هذا الكلام، وقد يعتبره البعض الآخر ضَرباً من الإثارة الفكريّة أو التشويق الروحيّ الممتزج بشيءٍ من التأويلات والترجيحات التي تتجاوز في بعض وجوهها الوقائعَ والحقائق.

نعم، ربّما يقول البعض ذلك، ولكن يمكننا أن نقول لذلك البعض إنّ الفصول اللاحقة من هذا الكتاب ستبيّن لنا أنّ هذا الكلام عن أهل البيت عليهم السلام وعن ورود ذِكرهم في الكتب والرسالات السّماوية السابقة ليس ضرباً من التأويل الشخصيّ أو التفسير المذهبيّ الخاصّ، بل هي ـ كما سنرى ـ حقائق ثابت ومؤكّدة، وقد عَمَدَ على تأكيدها وإثباتها، بالفعل، العديدُ من الشعراء والمفكّرين المسلمين والمسيحيين القدامى والمعاصرين، وليست تلك الأبيات الشعرية القليلة التي أوردناها منذ قليل للأديب والمفكّر المسيحيّ المعاصر (سعيد عقل) إلا مثالاً واحداً فقط من مجموعة أمثلة أخرى سنأتي على ذكرها في المكان المناسب في الفصول اللاحقة بإذن الله.

وحتّى لا نجنح مبتعدين كثيراً عن موضوع فصلنا هذا، دعونا نتوقّف الآن مع واحدٍ من أعظم الأدباء المصريين في العصر الحديث، إنّه الأديب الشاعر والكاتب (عبد الرحمن الشرقاوي) (١٩٢٠ـ ١٩٨٧).

ومن المعروف عن الأستاذ (الشرقاوي) أنّه كاتب وشاعر وروائيّ ومسرحيٌّ لامعٌ، وله بصمات فنيّة لا تمُحى في ساحة الفكر والأدب، ويمكن إيجاز الكلام عن أعماله الفكريّة وآثارها الأدبيّة بأنّها كانت أعمالاً تجسّد الدعوة إلى العدالة الاجتماعية

والحريّة والبحث عن المبادئ الفضيلة والقِيَم النبيلة، وكانت تلك المبادئ والقيم هي الهدف الأساسيّ المحرّك لنشاطه العامّ وللموضوع الذي لا يغيب أبداً عن باله في كلّ أعماله ومؤلّفاته التي خلّفها وراءه.

ومن أشهر آثاره: رواية (الأرض) وكتاب (عليّ إمام المتّقين) وَكتاب (محمد رسول الحريّة)، ومن أشهر مسرحيّاته: مسرحيّة (الفتى مهران)، ومسرحية (الحسين ثائراً، شهيداً)، وهذه المسرحيّة بالأساس هي عبارةٌ عن مسرحيّتين شعريّتين مطبوعتين في كتاب واحد، المسرحية الأولى تحمل عنوان (الحسين ثائراً)، أمّا المسرحيّة الثانية فتحمل عنوان (الحسين شهيداً)، وتمثّل هاتان المسرحيّتان الشعريّتان الصورة الحقيقيّة لشخصيّة الإمام الحسين عليه السلام كما أراد الأستاذ (الشرقاوي) أن ينقلها لنا.

وعلى الرغم من أنّنا قد خصّصنا فصلاً مستقلاً للكلام عن المسرح التراجيدي وتاريخه وعلاقة ذلك بفاجعة كربلاء في الأدب المسرحيّ العربيّ والعالميّ، إلا أنّنا نرى من المناسب هنا أن نتحدّث في هذا المكان عن بعض أبعاد شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام كما يراها الأستاذ (الشرقاوي) لكنْ دون أن نتعمّق في الكلام عن البُعد المسرحيّ أو التراجيدي في مسرحيّته.

نستطيع أن نقرأ بوضوح، ومنذ الصفحات الأولى في مسرحيّة (الحسين ثائراً)، صورة الإمام الحسين عليه السلام كما هي في الواقع وكما أراد أن ينقلها لنا بأمانة الأستاذ (الشرقاوي) أي أنّ الأستاذ (الشرقاوي) عَمَدَ إلى تصوير أبعاد شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام كما هي بالفعل ولكن بأسلوب أدبيٍّ شفّاف ليستطيع من خلاله أن يجذب القارئ إلى كلّ كلمةٍ أو عبارة تُقال في تلك المسرحيّة.

ويمكننا القول أنّ الانطباع الأوّل الذي يريده الأستاذ (الشرقاوي) أن يبقى في

عقولنا وقلوبنا عن شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام هو أنّه الوريث الشرعيّ لرسالة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ولمبادئ أبيه عليّ أمير المؤمنين عليه السلام.

فالإمام الحسين عليه السلام كما يصوّره (الشرقاوي)، لم يكن في يومٍ من الأيّام طالب دنيا ولم يكن طالب مالٍ ولا جاهٍ، وإنّما كان طالب إعادة بريق الرسالة ونورها إلى ما كانت عليه في زمن جدّه صلى الله عليه وآله وسلم، فالإمام الحسين عليه السلام كان مدركاً دائماً وأبداً أنّ طالب الدّنيا كالعطشان الذي يريد أن يرتوي من ماء البحر، فكلّما غَرفَ وشرب منه لم يزدَدْ إلا عطشاً وطلباً للمزيد من الماء للارتواء.

وهنا يصوّر الأستاذ (الشرقاوي) الإمام الحسين عليه السلام وهو يحاور (الوليدَ)، أمير المدينة، بشأن موقفه من الدّنيا والخوض في غمار مغرياتها قائلاً:

آه من بُعد السفر!

آه من طول طريقي وعظيم المورد!

إنّما عيشك في الدّنيا يسير!

كلّ أخطارِك يا دنيا حقير

إيه يا دنيا إليك الآن عنّي![1]

ولو تأمّلنا قليلاً في هذه العبارات القصيرة والمعبّرة التي جاءت على لسان شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام في تلك المسرحيّة المؤثّرة، فماذا عسانا أن نقول؟!

ألا يمكننا القول أنّ الأستاذ (الشرقاوي) قد تعمّد وضع هذه العبارات على لسان الإمام الحسين عليه السلام لكي يقول للقارئ أو للمشاهد ـ في حال القيام بتمثيل المسرحيّة

(١) عبد الرحمن الشرقاوي، الحسين ثائراً، شهيداً، دار العصر الحديث ـ بيروت، ط٢/١٩٨٥، ص٤٢.

ـ إنّ نهج الحسين عليه السلام في حياته هو نفس النهج الذي سلكه الأبُ عليه السلام ومن قبله الجدُّ صلى الله عليه وآله وسلم ؟!

ثمّ، ألا تذكّرنا هذه العبارات السابقة بالكثير من العبارات والأحاديث المشابهة التي جاءت تارةً على لسان الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلم وتارةً أخرى على لسان الإمام المبين عليه السلام ؟!

ألا يشبه مفهوم الحياة الدّنيا عند الإمام الحسين عليه السلام مفهومها عند جدّه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال عنها يوماً مخاطباً سلمان الفارسي (رض):

«إنّ أكثر النّاس شبعاً في الدّنيا أكثرهم جوعاً في الآخرة، يا سلمان! إنّما الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر»[1]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم عنها أيضاً في مكانٍ آخر: «أيّها النّاس هذه دار تَرَح لا دار فرح، ودار التواءٍ لا دار استواءٍ، فمن عرفها لم يفرح لرجاءٍ ولم يحزن لشقاءٍ»[2]؟!

ثم، ألا يشبه مفهوم الإمام الحسين عليه السلام والرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم للحياة الدّنيا مفهوم أمير المؤمنين علي عليه السلام لها عندما قال عنها في إحدى كلماته الخالدة:

«تَغُرُّ، وتَضرُّ، وتمرُّ، إنّ الله تعالى لم يَرْضَها ثواباً لأوليائه، ولا عقاباً لأعدائه، وإنّ أهل الدّنيا كَرَكْبٍ بَيْنَا هُمْ حَلُّوا إذْ صاحَ بهم سائقُهم فارتحلوا»[3]؟!

أليست كلُّ معاني الأحاديث والعبارات السابقة تصبُّ جميعها في معاني قول

---

(١) محمد رضا الأنصاري، مختارات من الأحاديث النبويّة، نشر معاونيّة العلاقات الدوليّة . طهران، ١٩٨٦، ص٤٨.

(٢) نفس المصدر السابق ص٤٨.

(٣) الإمام علي عليه السلام ، نهج البلاغة، شرح محمد عبده، الدار الإسلاميّة . بيروت، ط١/١٩٩٢، ج٤ ص٦٠١.

أمير المؤمنين علي عليه السلام الواردة في مَقُولته الشهيرة التي فَتَنَتْ أرباب اللغة والفكر بجمال مبناها وعمق معناها:

«ما أصفُ من دارٍ أوّلها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، مَن استغنى فيها فُتِنْ، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قَعِدَ عنها واتته، ومن أبصرَ بها بصَّرتْهُ، ومَنْ أبصرَ إليها أَعْمَتْهُ»[1]؟!

وغاية القول في ذلك هو أنّ الأستاذ (الشرقاوي) قد تعمّد وضع العديد من الأقوال والأحاديث الغنيّة بالإيمان والحكمة على لسان الإمام الحسين عليه السلام من أجل إيصال فكرة هامّةٍ جداً للقارئ، وتتلخّص تلك الفكرة الهامّة بالقول إنّ الحسين السبط عليه السلام هو وجه من وجوه الشخصيّة المحمديّة الرساليّة.

وبتعبيرٍ آكثر دقّة، إنّ الإمام الحسين عليه السلام هو النَّسغ المحمديّ المبارك الذي يجري بعنفوانٍ وحيويّةٍ في وريدِ الرسالة الإسلاميّة التي شاءها الله سبحانه وتعالى أن تكون الحبلَ الروحيّ الأخير الذي يصل ما بين رحاب السّماء وأبناء التراب.

وعلى كلّ حالٍ، لا أعتقد أنّ وجهات نظر الأستاذ (الشرقاوي) حول شخصية الإمام الحسين عليه السلام تختلف كثيراً عن وجهات نظر الأديب والشاعر المصري (عباس محمود العقاد) (١٨٨٩ـ ١٩٦٤): غير أنّ الأسلوب في عرض الأفكار والوقائع هو الذي كان يُميّز كُلاً منهما عن الآخر، فالأستاذ (الشرقاوي) كان يميل إلى تقديم الأفكار وعرضها بأسلوبٍ أدبيٍّ شاعريٍّ شفّاف يميل إلى السهولة والبساطة، في حين أنّ الأستاذ (العقاد) يميل إلى عرض أفكاره عن الإمام الحسين وعن تقديم واقعة كربلاء بأسلوبٍ أقرب ما يكون إلى عملية التدوين والتحليل البعيدة عن لغة المشاعر

(١) نفس المصدر السابق ج١ ص١٢٤.

والعواطف والأحاسيس المتفاعلة مع الحدث إلا بقدْرٍ يسيرٍ.

ولكن، وبالرغم من ذلك، فمن خلال تناول الأستاذ (العقّاد) شخصيّة أبي الشهداء الحسين عليه السلام في كتابه (أبو الشهداء الحسين بن علي) يصوّر لنا (العقّاد) مأساةً تاريخيّةً إنسانية عظيمة لا تكاد تجاريها مأساة أخرى في أسبابها ووقائعها ونتائجها وآثارها.

ومن أجل ذلك نجده ينفُذُ إلى جوهر الوقائع والتواريخ لتمحيص الحقيقة محاولاً الابتعاد عن الأهواء في دراسة حياة أبي الشهداء عليه السلام.

وحين يتناول الأستاذ (العقّاد) شخصية أبي الشهداء الحسين بن علي عليه السلام بالدراسة والتحليل، نراه يبدأ أوّل ما يبدأ بدراسة طبائع النّاس وكيف أنّ تلك الطبائع والأمزجة يتناوبُها مزاجان متقابلان متناقضان: مزاج يعمل عمله للأريحَيّة والنخوة والبحث عن الحقّ والفضيلة، ومزاج يعمل عمله من أجل المنفعة الخاصّة والغنيمة الشخصيّة ولو على حساب الحقّ والفضيلة[1].

ويرى الأستاذ (العقاد) من خلال كتابه المذكور أنَّ حياةَ الإمام الحسين عليه السلام عبارة عن صفحة، لا تماثلها صفحةٌ أخرى في توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكلّ منهما من أدواتٍ وجنودٍ للنجاح في كفاح الحياة سواءً نظرنا إلى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب.

وهنا تحديداً، لا يغيب عن ذهننا أن نذكّر القارئ الكريم بحقيقة أنّ الأستاذ (العقّاد) قد درس التاريخ الإسلاميّ العام وحاول أن يسبر أغواره ويستكشف خباياه

(١) عباس محمود العقاد، أبو الشهداء الحسين بن علي (كتاب الهلال)، العدد /٤/ دار الهلال. القاهرة عدد سبتمبر (أيلول)، ١٩٥١/ ص١١.

لكنّ النجاح لم يكن دائماً حليفه في تلك المحاولات الفكريّة الجادّة، ولذلك يمكننا القول أنّ الأستاذ (العقاد) كان أديباً ولم يكن باحثاً أو رجل دين كما يتصوّره البعض، بل كان واحداً من أبرز كُتّاب النهضة الأدبيّة، وأكثرهم ثقافةً وإبداعاً في المجال الأدبيّ، وقد ظلّ اسمه لامعاً في سماء الأدب مدّة نصف قرن تقريباً، أخرج خلالها (٨٣) كتاباً في أنواعٍ مختلفةٍ من الأدب الرفيع[١].

ولكن عدم نجاح الأستاذ (العقّاد) في الوصول إلى بعض النتائج المنطقيّة المتعلّقة بالعديد من القضايا والشخصيّات الإسلاميّة المطروحة ضمن سلسلة (العبقريات) التي كتبَها الأستاذ (العقاد) نفسُه وقدّمها للشباب المسلم كي يتّخذوا تلك العبقريات أسوةً وقدوةً حسنةً لهم، لا تخفّف من قيمة العقّاد ككاتبٍ حاول أن يُدلي بِدَلوِهِ في حقل الثقافة الإسلاميّة.

ومهما يكن من أمرٍ، فإنّ ما يهمّنا هنا هو موقف (العقّاد) أو رؤيته الخاصّة لطبيعة وشخصية الإمام الحسين عليه السلام، أو أبي الشهداء، كما يحلو للعقّاد أن يسمّيه.

فالأستاذ (العقّاد) يرى منذ بداية الكلام عن شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام وطبيعته، وتنشئته، بل يرى منذ الصفحات الأولى من كتابه (أبو الشهداء الحسين بن علي) أنّ صفات الإمام الحسين عليه السلام هي صفاتٌ نبويّة موروثة ومتجذّرة في ذاته النبيلة، وأنّ كلّ مَنْقَبَةٍ ومَحْمَدَةٍ من محامد خصاله ومكارم فِعاله إنّما مَرَدُّها إلى البيئة البيتيّة الصالحة وإلى التربة النبويّة الطاهرة التي استَنْبَتَتْ الغرسة الحسينيّة المباركة، تلك الغرسة الطيّبة التي ارتوت أيضاً بماء الفضائل العلويّة والمناقب الفاطميّة.

نعم، كلّ هذا واضحٌ تماماً عند الأستاذ (العقّاد)، ولكنّ العقّاد لا يريد أن يكتفي

---

(١) مجموعة من المؤلّفين، أعلام الأدب العربي الحديث، وزارة التربية . دمشق، ١٩٩٦، ص٥٥.

بقول ذلك، بل يريد أن يقول لِقُرّائه إنّ اللون الأبيض هو فعلاً أبيض ولا يستطيع أحدٌ أن ينكر ذلك، ولكنْ إذا أردنا أن نعرف شدّة ودرجةَ بياض هذا اللون فما علينا إلا أن نضع بجانبه نقيضَه، والمقصود بذلك اللون الأسود بلا شكّ.

والمعنى من هذا الكلام هو لو أنَّك تريد أن تعرف العَظَمة الحقيقية للإمام الحسين عليه السلام وللأهداف والمقاصد الإنسانيّة النبيلة التي جاهد من أجلها، فما عليك إلا أن تدرس وتحلّل شخصيّة وطبيعة وتربية ذلك الشخص الذي ناصَبَه العداء، وإذا أردت أن تعرف غايات وأهداف الحسين عليه السلام وأثرها على المجتمع الإسلاميّ والإنسانيّ، فما عليك إلا أن تقرأ وتدرك غايات ووسائل وأهداف أعداء الإمام الحسين عليه السلام وأثر ذلك على نفسيّة الأجيال اللاحقة في الساحتين الإسلاميّة والإنسانيّة، فالأشياء عموماً تزداد المعرفة بها من خلال معرفة نقائضها.

وعن هذه النقطة تحديداً، فقد تحدّث الأستاذ (سامح كريّم) في كتابه (إسلاميّات) عن التضادّ الواضح بين شخصية الإمام الحسين عليه السلام من جهة وشخصية يزيد بن معاوية من جهةٍ أخرى كما جاء وصف الشخصيّتين حسبما يراهما الأستاذ (العقّاد) في كتابه (أبو الشهداء).

وقد حاول الأستاذ (سامح كريّم) أن يكون متّزناً ومنطقيّاً قدر الإمكان في شرحه وتوضيحه للأفكار التي طرحها الأستاذ (العقّاد) من خلال كلامه عن النهضة الحسينيّة وفلسفتها في التاريخ الإسلاميّ.

وعن أسباب التنافس والخصومة بين الحسين عليه السلام، ويزيد بن معاوية، يقول الأستاذ (كريّم) موضّحاً وشارحاً وجهة نظر (العقّاد) بقوله: (يتبع هذا الفصل عن الخصمين موازنةٌ بينهما، فهناك اختلافٌ في النشأة بين الاثنين والنسب والمكانة

والصفات، والخُلُق، والشجاعة، وهي أمورٌ جدّ اختلف الاثنان فيها ممّا أدّى في النهاية إلى الخصومة، بل وأيّ شيءٍ آخر غير الخصومة كان مستغرباً بين الاثنين)(١).

إذنْ، فالشيء المُستغرب هو أنْ لا يكون هناك نزاع وخصومةٌ بين الإمام الحسين عليه السلام وخصمه اللدود يزيد ابن معاوية، أمّا الحالة السويّة فهي وجود ذلك النزاع المرير والصراع الدائم بين هاتين الشخصيّتين المتناقضتين في كلّ صفةٍ وهدف، وفي كلّ مخطّط وحركة وأثر.

ويتابع الأستاذ (كريّم) شرحه وتوضيحه لأفكار الأستاذ (العقّاد) بقوله:

(وبديهيٌّ جداً أن يكون ـ والخصومة قائمةٌ ـ أعوانٌ لكلّ خصمٍ... هم رجال المعسكرين، وبالطبع اختلافُ أنصار، فمنهم مَن هو طامعٌ في مالٍ أو مُستَميت في طمعه استماتة مَن يهدر الحرمات ولا يبالي بشيءٍ منها في سبيل الحطام، ولم يكن معه رجالٌ ذوي رأي إنّ العقّاد يصفهم وصفاً دقيقاً حين يقول في كلمة صغيرة: كان أعوان يزيد جَلادين وكلاب طِرادٍ في صَيدٍ كبير)(٢).

أمّا الآن، فدعونا أيها القرّاء الأعزّاء، نأخذ قسطاً من الرّاحة بعد هذه الجولة المثمرة في رحاب أفكار الأستاذ (عباس محمود العقاد) الذي قدّم لنا صورةً مشرقةً من صور حياة واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام في كتابه (أبو الشهداء الحسين بن علي)، ذلك الكتاب الذي أخذ طريقه إلى النّور منذ أكثر من خمسين عاماً ولا يزال يُطبع المرّة تلو المرّة، ولا يزال أيضاً مرجعاً أساسياً يرجع إليه الكثير من الباحثين والمفكّرين الذين يريدون أن يتحدّثوا أو أن يكتبوا عن فاجعة كربلاء أو عن فلسفة

(١) سامح كريّم، إسلاميّات، دار القلم ـ بيروت، ١٩٨٢، ص١٢٩.
(٢) نفس المصدر السابق ص١٢٠.

الشهادة من أجل قِيَمِ ومبادئ السّماء.

وعلى كلّ حال، فإنّ استراحتنا القصيرة الآن ستكون مع الأديب والمفكّر المسيحيّ الراحل (بولس سلامة) الذي نذر نفسه وجنّد قلمه للدفاع عن قضايا ومبادئ أهل البيت عليهم السلام مُسقطاً من حسبانه أيّ قيمةٍ لرضى زيدٍ أو لغضب عمر، وإنّما القيمة الحقيقيّة عنده هي قيمة الحقّ وحده في زمنٍ أغبر قلّ فيه الباحثون عنه.

فللإمام الحسين عليه السلام قيمة استثنائية في نسيج (سلامة) الفكريّ والشعريّ، ولذلك فقد خَصَّه، منذ بداياته الشعريّة، بالكثير من العناية والاهتمام، وقد كتب في وقتٍ مُبكّر نسبيّاً قصيدةً مطوّلةً تحت عنوان (علي والحسين) بيّن من خلالها أنّ الإمام عليّاً عليه السلام وابنه الإمام الحسين عليه السلام هما وجه الإسلام الرضيّ وقلبه النقيّ، ذاك الإسلام الذي أراده محمد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يبسط جناحيه على وجه البسيطة فيمنع عنها سُدَفَ الظلام ويرفعها إلى عالم الإشراق والأنوار.

وغنيٌّ عن تفصيلات القول أنّ الأستاذ (سلامة) قد ذكر في حديثه عن طفولة الإمام الحسين عليه السلام حادثة سابقة على حادثة ولادة وطفولة الحسين عليه السلام حيث اعتبر الأستاذ (سلامة) أنّ تلك الحادثة السابقة هي حادثة هامّةٌ جدّاً ويجب أن لا يغفل أحدٌ عن ذكرها أبداً نظراً لِما تحمل من مدلولات وإشارات روحيّة قويّة تصبّ كلّها في تيّار الحديث عن الإرادة الإلهيّة والحكمة السّماوية التي جعلت من الإمام الحسين عليه السلام، ومن قبله أخيه الإمام الحسن عليه السلام، الثمرة الطاهرة المطهّرة والتي تحمل وتجمع كلّ الصفات الرساليّة وكلّ المؤهّلات الإماميّة التي ورثها عن أبويه عليهما السلام.

فحادثة زواج الإمام علي عليه السلام من السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام هي الحادثة التي يجب أن نستذكرها دائماً في معرض حديثنا عن سيّد الشهداء، الإمام الحسين عليه السلام،

فزواج علي عليه السلام من فاطمة عليها السلام، ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يأت بقرارٍ محمديٍّ فحسب، بل أتى أيضاً بقرار سماويّ إلهيّ لا يقبل الطعن أو التبديل، وكلُّنا يعرف ويدرك عمق الحديث النبويّ المشهور والذي يؤكّد الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله من خلاله على أنّه لو لم يكن الإمام علي عليه السلام موجوداً في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله لما كان هناك أحد يمكن أن يكون الزوج الكفؤ لفاطمة الزهراء عليها السلام.

ولذلك، فَبعدَ أن يذكر الأستاذ الشاعر (بولس سلامة) حادثة الزواج المبارك، نراه ينتقل بعد ذلك للكلام عن ميلاد الإمام الحسن عليه السلام ومن بعده عن ميلاد أخيه الإمام الحسين عليه السلام الذي سيغيّر وجه التاريخ الإسلاميّ بعد أن أراد أعداء الإسلام أن يسيروا بالإسلام إلى الهاوية وذلك باتخاذه مطيّةً لهم للعودة إلى الحياة الجاهليّة، مع الأخذ بعين الاعتبار التأسيس لحياة سياسية جديدة قائمة على نظام المُلك العضوض وتوارث العرش الملكي ابناً عن أب وأباً عن جدّ ضاربين بمبادئ الإسلام عرض الحائط.

وعلى كلّ حالٍ، فإنّ أهمّ ما يميّز كلام الأستاذ (سلامة) عن ولادة الإمام الحسين عليه السلام هو الوضع النفسيّ لجدّه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، ذلك الجدّ الرحيم الذي اصطفاه الله رسولاً للعالمين، رسول محبّة وفضيلة وخير وإخاء.

فبقدر ما كان ذاك الجدُّ الرسول صلى الله عليه وآله مسروراً ومبتهجاً بولادة سبطه الحسين عليه السلام، بقدر ما كان فريسة للكثير من الهواجس والظنون التي بدأت تعصف برأسه حول مستقبل ذلك السبط وما ينتظره من هموم وآلام في مستقبله القريب.

وهنا، يريد أن يقول لنا الأستاذ (سلامة) إنّ الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله كان على علمٍ إلهيٍّ مسبق بكلّ ما سيحلّ بأهل بيته من كوارث ومصائب، بل وكان يدرك أيضاً

على يد مَنْ ستكون نهاية كلّ فردٍ من أفراد أهل بيته عليهم السلام الذين سيحملون راية الإسلام من بعده.

فعندما يصوّر لنا الأستاذ (سلامة) الحالة النفسيّة للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهو يحمل حفيده الحسين الطاهر عليه السلام بين يديه، وينظر بعينيه الحزينتين في عينيّ سبطه الصغير، فعندما يفعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا متأمّلاً وجه حفيده بحزنٍ يقطر له الفؤاد دماً، فإنّما يفعل ذلك لأنَّ عين السّماء جعلته يرى آفاق المستقبل وهو لا يزال يعيش في أحضان الزمن الحاضر.

ومهما يكن من أمر، فعندما يقول الأديب الشاعر (سلامة):

وَعَلَتْ جبهةَ النبيّ طيوفٌ كوشاح الغمامة الدكناء

لَمَحَ الغيبَ! يا لهول الليالي مُرعداتٍ بالنكبة الدهياء[1]

فعندما يقول الشاعر (سلامة) هذا، فهو يشير بذلك إلى النبوءة المستقبليّة التي قرأها الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلم في صفحات كتاب الغيب والتي لا تُكشف إلا لقلوب الأنبياء والأوصياء.

ولا أريد الاستفاضة هنا بهذا الشأن، بل سأرجئ الحديث في هذا الموضوع إلى صفحاتٍ لاحقةٍ من هذا الكتاب حيث نتحدّث فيها، وبشكلٍ مفصّل، عن مسألة نبوءة الرسل والأنبياء بفاجعة كربلاء.

وإذا كان الأديب الشاعر (بولس سلامة) قد ركّز في ملحمته الشعرية (عيد الغدير) على شخصية الإمام الحسين عليه السلام في مرحلة الثورة أكثر من تركيزه عليها في مرحلة ما قبل الثورة، فإنّ الأديب والمفكّر المسيحيّ (أنطون بارا) قد ركّز على

---

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق ص٦٦.

شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام في مختلف أطوارها ومراحلها وفي مختلف الأحداث والمتغيّرات الجوهريّة التي عايَشَتْها.

ومن أوائل الأسئلة التي يطرحها الأستاذ (بارا) على نفسه في مقدمة كتابه (الحسين في الفكر المسيحيّ): لمَ الحسين بالذات دون سائر أعلام الإسلام موضوعاً للكتاب؟!

فيأتي جوابه بسؤال مردود: (ولمَ لا يكون الحسين بالذات؟ أيكره أحدُنا الحقَّ ورافعي لوائه... ولمَ لا يحبُّ المؤمنُ، أيّاً كان دينه، مَن أحبَّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واعتبره بضعةً منه (حسين منّي) واعتبر نفسه جزءاً منه (وأنا من حسين؟!))[1].

ولا يكتفي الأستاذ (بارا) بهذه الأسئلة المردودة على سؤاله الأوّل، بل نراه يسارع إلى طرح المزيد والمزيد من ذلك النّوع من الأسئلة التي يحقّ لها أن تطرق باب فكرِ كلّ إنسانٍ باحث عن الحقيقة في هذا الزمن الأغبر الكئيب.

وها هي مجموعةٌ أخرى من الأسئلة تطرح نفسها عليه بقوّة وتصميم وكأنّها أسئلة تأبى الرحيل عن ساحته الفكريّة إلا بعد أن تصطحب معها أجوبتها الشافية بعد أن تحرّرها وتطلقها من قيود الفكر المحدود ومن براثن الثقافة المتقوقعة المنقوصة التي تدور وحيدةً في دائرة دينٍ ما أو مذهبٍ ما لا يقبل الانفتاح على بقيّة الأديان والمذاهب.

وها هي أسئلة ذلك المفكّر المسيحيّ الجديدة تطرح نفسها متسائلةً:

(أيرفض مطلقُ إنسانٍ - سيّما إذا كان مسيحيّاً - أن يكون ذلك المؤمن الذي ترقد في قلبه حرارةُ قتل الحسين التي لا تبرد أبداً... تيمّناً بقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ

---

(١) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق ص٥٣.

لقتل الحسين حرارةٌ في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»...؟ ومَن الذي لا يحبُّ مظلوماً كالمظلوم الحسين، ولا يجد في حبّه راحةً لضمير حيٍّ، وسعادة لفكرٍ أصيلٍ، ورضىً لقلبٍ ينزع بالإيمان)[1]؟!

وهنا، يجيب الأديب الباحث، الأستاذ (بارا) على مجمل تلك الأسئلة بقوله البسيط والواضح: (... فشخصيةٌ كالحسين اختصّت بشمائل النبوّة، لا يعثر المُطّلعُ في سِفر حياته على موقفٍ رخوٍ أو متخاذلٍ، فلا يملك إلا أن يُعجب به ويحبّه ويجد في الاستجابة لهذا الإعجاب، وهذا الحبّ، مودّة قلب، ومودّة قربى... ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾)[2].

وغنيٌّ عن القول أنّ هناك الكثير من العبارات والأقوال المهمّة والتي تجمع بين القوّة والجمال في كتاب (الحسين في الفكر المسيحيّ) للأستاذ الأديب (أنطون بارا) حول شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام وسيرة حياته العطرة، ولا ريبَ في أنّنا سنعود إلى تلك العبارات والأقوال للاستشهاد بها عند الضرورة، ولكن دعونا الآن - أيّها الأحبّاء - نتوقّف عند علم جديد من أعلام الفكر والأدب، دعونا نتوقّف عند أديب ومفكّر عملاق له بصماته الثقافيّة الواضحة على الساحتين الإسلاميّة والعالميّة، إنّه الأديب والفيلسوف (محمد إقبال).

يُعتبرُ الأديب والمفكّر (محمد إقبال ١٨٧٦ـ ١٩٣٨) أشهر الشعراء الفلاسفة والمفكّرين المسلمين في الهند، دعا إلى إنشاء الباكستان والاستقلال عن الهند تماماً.

واستطاع (إقبال) أن يوائم بين الشعر والسياسة، وإنْ بدا كلٌّ منهما على طَرفَيّ

(١) نفس المصدر السابق ص٥٤.
(٢) نفس المصدر السابق ص٥٤.

نقيض، وعلى كلّ حال، ففي كليّة الحكومة بمدينة (لاهور) التقى المفكّرُ (إقبال) بأستاذه الفيلسوف والمستشرق (توماس أرنولد) وهو مِن خبرة مَنْ درسوا الإسلام والتصوّف الإسلاميّ، وله مواقفٌ جليلةٌ في الدّفاع عنه وعن قِيَمه ومبادئه وعن رجاله ورموزه، ورحّب الأستاذ بميل تلميذه إلى الفلسفة، فكان له خير مرشدٍ ومعين، وقد دفعه طموحه العلميّ إلى الدراسة في أوروبا، وبالفعل، فقد حصل في إنكلترا على عدّة شهادات في الفلسفة وفي القانون، ونال من جامعة (ميونخ) الألمانيّة شهادة الدكتوراه في الفلسفة.

وقد تعمّق (إقبال) في دراسته للفكرين الهندي والإيرانيّ، ونال قسطاً عظيماً من كنوز التراثين الرومانيّ واليونانيّ قديمهما وحديثهما، ونهلَ قدراً كافياً من الثقافة الإنجليزية والألمانية والفرنسيّة والأمريكية، هذا بالإضافة إلى التراث الفكريّ والروحيّ الإسلاميّ والعربيّ، الذي صرف فيه (إقبال) معظم مجهوداته الفكرية[1].

وكان لأهل البيت عليهم السلام في مجهوده الفكريّ وفي تراثه الشعريّ مكانةٌ متميّزةٌ جداً لا تُدانيها مكانة أيّ شخصٍ آخر، وبالتالي، فقد كان للإمام الحسين عليه السلام المنزلة الرفيعة والمكانة السامية التي تجعل منه، كأبيه الإمام علي عليه السلام الإنسان الكامل في الإسلام، وربّما هذا هو السبب الذي جعل الفيلسوف (إقبال) يتعمّد ذِكرَ الإمام الحسين عليه السلام في كلّ دواوينه الشعريّة دون استثناء إيماناً منه بأنّ مستقبل الأمّة الإسلاميّة مرهونٌ بالسّير على خُطى الإمام عليّ عليه السلام وبالاتّباع الصادق لنهج ابنه الإمام الحسين عليه السلام قولاً وعملاً.

ويكفي أن نذكر هنا شيئاً بسيطاً نستدلّ من خلاله على مكانة الإمام الحسين عليه السلام

(١) نجيب الكيلاني، إقبال الشاعر الثائر، مؤسسة الرسالة. بيروت، ط٤/١٩٨٨، ص٣٥.

عند الفيلسوف الشاعر (محمد إقبال).

فمن المعروف عن الفيلسوف اليونانيّ القديم (ديوجين)، صاحب المصباح، أنّه كان يبحث بشكلٍ دؤوبٌ عن الحقيقة وعن الإنسان الحقيقيّ الكامل حتّى أعياه البحث واستسلم لليأس بعد طول البحث والعناء، وقد تناول هذه القصّة الشاعر الفارسيّ الكبير (جلال الدين الروميّ) في العديد من قصائده الشعريّة.

وكان من جملة ما قاله شعراً عن قصّة ديوجين، الملقّب في القصيدة بلقب (الشيخ):

قضى الشيخ ليله في الطواف بالمصباح حول المدينة

يقول: مللتُ الشيطانَ والوحشَ، الإنسانُ أملي

قالوا: لا يُعثر عليه فقد بحثنا نحن أيضاً

قال: هذا الذي لا يُعثر عليه أَمَلي

إذنْ، ليس للإنسان الكامل وجود عند الفيلسوف اليونانيّ (ديوجين)، بل بإمكاننا القول، بناءً على ما جاء عن لسان الشاعر المتصوف (جلال الدين الرومي) أيضاً، أنّ الكثير من النّاس يؤكّدون جازمين أنّ العثور على الإنسان الكامل شيءٌ مستحيلٌ.

وإذا كان هذا هو الرأي السائد عند عموم النّاس تقريباً، فما هو رأي شاعرنا وفيلسوفنا (محمد إقبال)؟!

في الواقع، لقد أبدى الفيلسوف (إقبال) رأيه حول الإنسان الكامل من خلال تعليقه على البيتين السابقين للإمام الصوفي الفارسي (جلال الدين الرومي)، حيث علّق على البيتين الشعريين السابقين بقوله رادّاً عليه بلغة الشعر أيضاً:

أنا أبحث عن السهم والرمح والخنجر والسيف

فـــلا تصـــاحبني لأنّ مســـلك (الحســـين) أَمَـــلي

قـــالوا: أغلـــقْ فمـــك ولا تـــبح بـــالأسرار

قلـــتُ: كـــلا، إنَّ صـــيحةَ تكبـــيري هـــي أَمَـــلي[1]

وكما نلاحظ هنا، فالبحث لدى الثلاثة (ديوجين) و(جلال الدين الرومي) و(محمد إقبال) عن الإنسان الكامل هو عبارةٌ عن عمليّة بحثٍ دؤوب، فقد بحث (ديوجين) عنه ليلاً ونهاراً حاملاً مصباح الزيت بيمينه وعكّازه بيساره يجوب طرقات المدينة وأزقّتها في الصيف والشتاء فَلَمْ يهتدِ إليه.

وجاء من بعده الشاعر المتصوّف (جلال الدين الرومي) يقتفي أثره باحثاً عن ضالته المنشودة ولكن سرعان ما استسلمت أشرعته لرياح اليأس، ولكنّه لم يلبث أن عاود الكرّة تلو الكرّة وثابر واجتهد وكافح إلى أن حقَّقَ بالفعل ما لم يستطع أن يحقّقه الفيلسوف اليونانيّ (ديوجين) وقد قارب في نهاية حياته أن يشير إلى بُغيته وهدفه بكلّ ثقةٍ واطمئنانٍ، وهذا ما يعني أنّه قد قطع شوطاً طويلاً في هذا المجال.

أمّا بالنسبة إلى الشاعر الفيلسوف (محمد إقبال)، فقد أشار إلى هدفه دون أيّ شكّ أو تردّد، فهو يقول لمن يؤثر الحياة الدّنيا على الاستشهاد في سبيل الحقّ والخير والفضيلة: لا، لا تصاحبني، فأنا لن أسمع نصيحتك، ولن أغلق فمي، ولن أمتنع عن البوح بالأسرار العميقة المتعلّقة بمن وجدت فيه الصورة الحيّة للكمال، بل إنّني سأتزوّد بالسهم والرمح والخنجر والسيف وبكلّ وسائل الحرب الأخرى من أجل الحقّ، فابتعد عنّي إنْ كنت تخاف النتائج، فإنّني أرى عظمة الفناء على حقيقتها في

(١) مجموعة من المفكّرين، نداء إقبال (وهو مجموعة المحاضرات التي أُلقيت في مؤتمر إقبال في دمشق عام ١٩٨٥) إصدار دار الفكر بدمشق، ١٩٨٦، ص١٨٢.

سبيل الحقّ، فالعظمة الحقيقيّة هي العظمة الحسينيّة وهي كمال الشرف الإنسانيّ"[1].

وربّ قائلٍ يقول هنا: نحن لا نعترض على هذا الكلام حول كمال الإمام الحسين عليه السلام، ولكنّنا وجدنا في العديد من دواوين الشاعر (إقبال) أمثلة أخرى عن حقيقة الكمال الإنسانيّ، فهناك الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهناك الإمام عليّ المرتضى عليه السلام، بل وهناك أيضاً سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام أيضاً، فهل هذا تناقض في كلامه وفي أحكامه؟!

والجوابُ على هذا التساؤل المنطقيّ يمكن أن نلخّصه بعدّة عبارات بسيطةٍ وواضحةٍ:

إنَّ الفيلسوف (إقبال) عندما يعتبر أنّ الإنسان الكامل هو الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلم أو عندما يعتبره هو الإمام علي عليه السلام أو الإمام الحسين عليه السلام أو حتّى عندما يعمد في أكثر من موضع في دواوينه الشعريّة وفي مؤلّفاته النثريّة إلى التأكيد على أنّ السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام هي سيّدة نساء العالمين وهي قدوة نساء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فعندما يؤكّد الفيلسوف (إقبال) على كلّ ذلك، فإنّما يفعل ذلك إيماناً منه بأنّهم جميعاً، بالإضافة إلى الإمام الحسن عليه السلام، يشكّلون وحدةً واحدةً كاملةً متكاملةً بحيث إنّ الكلام عن أيّ فردٍ منهم عليهم السلام هو في المحصّلة كلام عن بقيّة الأفراد دون استثناء.

وبالتالي، فإنّ كلامه عن الإنسان الكامل المتجسّد عمليّاً في الإمام علي عليه السلام أو في الإمام الحسين عليه السلام هو كلام عن الإنسان الكامل المتجسّد أيضاً في بقيّة أفراد أهل بيت النبوّة ومهبط الرسالة.

---

(١) نفس المصدر السابق ص١٨٣.

وعلى سبيل المثال، عندما يتحدّث الشاعر (إقبال) عن السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام في مؤلّفاته وفي دواوينه الشعريّة ويعتبرها صورةً صادقةً ونسخةً ثانيةً عن كمال وجلال أبيها الرسول المصطفى، وعندما يعتبرها مستحقّة بجدارة للقب الذي أطلقه عليها أبوها صلى الله عليه وآله وسلم (أمّ أبيها)، فهذا يعني بالنسبة إلى (إقبال) أنّ السيدة الزهراء عليها السلام قد ورثت الكمال عن أبيها صلى الله عليه وآله وسلم من جهةٍ، وقد قامت بتوريث تلك الصفات النبويّة الكمالية إلى أبنائها الأئمة عليهم السلام من جهةٍ ثانيةٍ.

ولهذا علينا أنْ لا نستغرب منه عمق وصدق إجلاله وتعظيمه للسيدة الزهراء عليها السلام التي هي بحقّ قدوة النساء وهديّة السماء، بل علينا أن لا نستغرب قوله فيها:

أنا لولا الشرعُ عن هذا نَهى   وإلى شَرعِ الرسول المنتهى
طفتُ حول القبر إجلالاً لها   ناشراً من سجَداتي حولها[1]

فالفيلسوف الشاعر يريد أن يسجد، جسداً وروحاً، للسيدة الزهراء فاطمة عليها السلام تعظيماً لها وإجلالاً لقدرها، لكنّه يعود ويتذكّر أنّ شريعة والدها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قد نَهَتْ عن السجود لغير الله سبحانه وتعالى.

وإذا كانت هذه هي الصورة التي رسمها الشاعر (إقبال) بكلّ أمانةٍ وصدقٍ للسيدة الزهراء عليها السلام، والدة الإمام الحسين عليه السلام الذي هو محور بحثنا في هذا الكتاب، فما هي الصورة التي رسمها نفسُ الشاعر لوالد الإمام الحسين عليه السلام، الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام؟!

قبل كلّ شيءٍ، نستطيع القول، ودون أيّ مبالغةٍ، أنّه لا يوجد ديوان شعريّ خطّته يمين الفيلسوف الشاعر (إقبال) إلا وكان للإمام علي عليه السلام نصيب وافر من الذكر فيه

---

(١) نفس المصدر السابق ص١١٥.

حيث جاء ذكره دائماً في تلك الدواوين بصورة الإمام الربّاني الكامل.

وعلى سبيل المثال، لا الحصر، عندما نقرأ في كتاب ديوان جناح جبريل) ما كتبه الشاعر (إقبال) عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، نستطيع أن نتبيّن حقيقة ما نقول، وعلى سبيل المثال، يعرّف الشاعر (إقبال) معاني الحبّ، فيقول:

الحبّ وحدة في الجبال والأودية حيناً،
الحبّ ضنى (بالغياب) حيناً وغبطة ووصال حيناً،
الحبّ يبعث الحياة في المحراب والمنبر حيناً،
الحبّ هو الوصيّ عليّ، فاتح خيبر، حيناً[1]

ومن أجل أن تبدو الصورة أكثر وضوحاً، علينا أن ندرك جيداً أنّ الشاعر (إقبال) يعتبر أنّ الحبّ الحقيقيّ، الذي يجسّده الإمام علي عليه السلام، هو الطريق القويم لمعرفة الذات، فبقدر ما يغمس طالبُ المعرفة جناحيه في بحر الحبّ والعشق الإلهيّ، بقدر ما يكون قادراً على معرفة ذاته ومدركاً للكثير من خفاياها وأسرارها.

وإذا كان الفيلسوف (إقبال) يطلق على طالب المعرفة المحلّق في سماء الكمال لقب (الإنسان الحرّ) و(الإنسان الجسور) و(القلندر) و(الإنسان المتجرّد) و(الدرويش) وإلى غير ما هنالك من الألقاب المشابهة، فإنّ النتيجة تبقى هي ذاتها، فحتّى يبلغ الدرويشُ هدفه المنشود، لابدّ من أنْ يتعمَّد أوّلاً بمياه العشق الإلهيّ، ولابدّ أيضاً من أن يملأ صدره وقلبه بعبير محبّة الإمام علي عليه السلام لدرجة أنّ كلّ مَن هو حوله يستطيع أن يستنشق عبق ذلك العطر السّماوي الخالد وهو يتفجّر من ذلك القلب الذي

(١) محمد إقبال، ديوان جناح جبريل، تعريب: عبد المعين ملّوحي، دار طلاس. دمشق، ١٩٨٧، ص٩٣.

امتلأ حبّاً بعلي عليه السلام.

وها هو يعبّر عن ذلك في كتابه (ديوان جناح جبريل) قائلاً:

(عندما يُلقِّن الحبُّ العبيدَ طقوس معرفة الذات،

تتكشّف لهم الأسرار الملكيّة!

....

هذا الدرويش خير من (دارا) ومن (الإسكندر)

في دَرْوَشَتِهِ نستنشق عبيرَ (أسد الله))

وقد قال الأستاذ (عبد المعين ملوّحي) الذي ترجم كتاب (ديوان جناح جبريل) إلى اللغة العربية، معلّقاً على تلك المقطوعة الشعريّة المذكورة أعلاه: (أسد الله هو لقب علي عليه السلام، وعلي عند إقبال صورة الرجل الكامل)[1].

وأخيراً نقول، إذا كانت هذه هي منزلة الإمام الحسين عليه السلام ومنزلة أبويه، الإمام المرتضى عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام عند الفيلسوف الشاعر (محمد إقبال)، فبماذا عسانا أن نختتم هذه المحطّة عنده في ما يتعلّق بمختصر القول المفيد عن علاقة الإمام الحسين عليه السلام بالعشق والحبّ الإلهيّ الذي يكثر (إقبال) من الحديث عنه في كلّ دواوينه وقصائده؟!

في الواقع، يرى الفيلسوف (إقبال) أنّ العلاقة بين الإمام الحسين عليه السلام والحبّ ليست بالعلاقة المعقّدة أو العلاقة العصيّة على الفهم والإدراك، فالحبُّ الإلهيّ، من حيث المبدأ، هو القوّة الخفيّة السارية في الكون وهو عماد الوجود، ولذلك، علينا نحن البشر أن نتفاعل مع هذا الوجود من خلال عمليّة تفعيل الحبّ بداخلنا في

(١) نفس المصدر السابق ص١٣٢.

علاقتنا مع ذاتنا وفي علاقتنا مع ذوات الآخرين وحتّى نصل صعوداً إلى علاقتنا مع الله سبحانه وتعالى والذي هو بذاته الرحمة والمحبّة.

فالنبيّ إبراهيم خليل الله عليه السلام، أبو الأنبياء، هو صورة صادقةٌ للحبّ، والحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، خاتم الأنبياء، هو صورةٌ صادقةٌ أخرى من صور الحبّ الإلهيّ الرفيع، أمّا الإمام الحسين عليه السلام فهو الإمام الشهيد الذي وقف بصلابة إيمانه مدافعاً عن الحقّ ومقدماً أغلى ما يملك من أجل هذا المفهوم العظيم والذي هو شخصيّاً عليه السلام يجسّدهُ ويمثّله خير تمثيل.

ويكفي أن نذكر هذه المقطوعة الشعرية القصيرة لنؤكّد على حقيقة ما أوردنا من شرح وتوضيحٍ لوجهة نظر الفيلسوف (إقبال) حول هذه النقطة المطروحة عن الإمام الحسين عليه السلام وتجليّات الحبّ فيه وفي غيره من الرسل والأنبياء يقول (إقبال):

الحبُّ هو السيّد الأوّل للعقلِ والقلبِ والنظر،

إذا غاب الحبّ، فالدّين والقانون مجمعُ الخرافات،

صدقُ إبراهيم هو الحبّ، صلابة الحسين في الحقّ هي الحبّ،

بدرٌ وحنين هما الحبّ في معركة البقاء(١)

هذا هو الإمام الحسين عليه السلام، وهذه هي صورته ومنزلته في فكر فيلسوف باكستان الأكبر وشاعرها الأعظم (محمد إقبال)، ولا ريب في أنّنا سنتعرّف في الفصول اللاحقة على المزيد من وجهات نظر الفيلسوف (إقبال) تجاه أهل البيت عموماً وتجاه الإمام الحسين عليه السلام على وجه الخصوص.

ولكن علينا أن نعرف الآن أنّ الفيلسوف (إقبال) قد هامَ حبّاً بمحمد المصطفى

---

(١) نفس المصدر السابق ص١٨٣.

ﷺ وبآل بيته عليهم السلام الغرّ الميامين لدرجةٍ يعجز القلم أو اللسان عن الإحاطة بذلك الحبّ الروحيّ العميق، وقد كان ذلك الحبّ، بالفعل، حبّاً منطلقاً من عمق المعرفة والإرادة والمعاناة، إنّه الحبّ الذي يبدأ بالإخلاص، وينتهي إلى الخلاص.

فالكثير من النّاس الذين نصادفهم في حياتنا اليوميّة قد ينطلقون في حبّهم لشيءٍ ما أو لشخصٍ ما من خلال الرؤية السطحيّة الخارجيّة دون الولوج إلى داخل الأشياء وحقائقها، إنّه حبّ القلب الأعمى الذي قد يتصدّع عند بزوغ أوّل شعاع من أشعّة الشمس الكاشفة لخفايا الأمور وحقائقها المُقَنَّعة بالأشكال الجاذبة والمظاهر الخادعة.

أمّا الحبّ الذي ينطلق من المعرفة والصدق والمعاناة بحيث تتفاعل مفردات ذلك الحبّ في ميزان العقل وفي أعماقه، بل وفي عمق النفس المطمئنة، وفي عمق الروح المنفعلة بالنّفخة الإلهيّة، فعندئذٍ سَيبقى ذلك الحبّ العظيم ثابتاً في القلب ثبات الجبال الراسيات على الأرض، وسيبقى ذلك الحبّ متّصلاً بالروح أيضاً اتّصال الكلمة بمعانيها أو كاتّصال غيوم الشتاء بالمحيط العظيم حيث في البداية نشأتْ منه، وإليه في النهاية تعود.

وبالطبع، فإنّ هذا الكلام لا ينطبق فقط على فيلسوف الباكستان وشاعرها الأعظم (محمد إقبال) الذي كنّا في ضيافته منذ قليل، بل إنّ هذا الكلام ينطبق أيضاً على كلّ صاحب فكرٍ نيّرٍ وصاحب كلّ قلبٍ عامرٍ بالصدق والحبّ والمعاناة في طلب الحقائق والإخلاص لها.

إنّ هذا الكلام ينطبق على كلّ من يحمل الهويّة الإنسانيّة الصادقة سواء كان حاملها مسلماً أم مسيحيّاً، أبيض أم أسود، عربياً أم أعجميّاً، فكلّ قلبٍ ينفتح على

الحبّ هو قلبٌ منفتحٌ على الله، والله بدوره ـ كما يقول عنه السيّد المسيح عليه السلام ـ محبّة، ومَن يثبتْ في المحبّة يثبت في الله، والله يثبتُ فيه[1].

ومن خير الأمثلة على من ثَبَتَ الحبُّ الصادق في قلبه وتمكّن من كلّ نفسٍ من أنفاسه، وذلك بعد عمق المعرفة وطول المعاناة، هو السياسيّ والأديب الشاعر (عبد المسيح الإنطاكي) المولود في إنطاكيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من أبوين مسيحيين.

ولكن، وقبل أن نتحدّث عن تمكّن الحبّ والولاء الصادقَين في قلب هذا الرجل المسيحيّ، لابدّ أن نعرّف القارئ عليه، ولو بسطورٍ قليلةٍ، حتّى يعلم أنّ هذا الرجل المسيحيّ لم يكن بالرجل العاديّ أبداً، بل كان حقّاً رجلاً استثنائياً في ميادين عديدة، ولكنّه للأسف لم يُقدّر حقّ قدره في زمننا الحاضر على الرغم من كلّ الخدمات الجليلة التي قدّمها للعروبة وللإسلام.

وُلد أديبنا (الأنطاكي) ـ كما ذكرنا ـ في إنطاكية، ولكنّه نشأ في مدينة حلب الشهباء، وأقام الأديب (الإنطاكي) العديد من العلاقات والصداقات مع العديد من العلماء والشعراء والسياسيين، وتربّى على أيدي البعض منهم وعلى رأسهم العلامة الكبير السيد (عبد الرحمن الكواكبي) صاحب كتابين شهيرين هما: (أمّ القرى) وكتاب (طبائع الاستبداد)، والأستاذ (الإنطاكي) هو أوّل من نادى بالقوميّة العربية وإنشاء دولة عربية واحدة ومستقلّة ذات سيادة كاملة منفصلة عن العثمانيين ومستقلّة عن الشرق والغرب.

ومن أجل هذا الهدف، راح الأستاذ (الإنطاكي) يوطّد علاقاته السياسية مع زعماء

---

(١) العهد الجديد (الإنجيل)، رسالة القدّيس يوحنّا الأولى ج٤ ص١٦.

العالم العربيّ من ملوك وسلاطين وشيوخ عشائر عرب، وقد تمكّن من زيارة معظمهم ونال الحظوة والاحترام عندهم، وأنشأ لهذا الغرض أيضاً مجلّته المعروفة باسم (الشذور) في مدينة حلب سنة (١٨٩٧ـ١٨٩٨) فحاربته الحكومة التركية تحت قيادة السلطان (عبد الحميد)، فما كان منه إلا الارتحال عن أرض وطنه الأمّ والهجرة إلى مصر فأنشأ فيها جريدته باسم (الشهباء) والتي أخذتْ لاحقاً اسم آخر هو (العمران)[1].

وبعد معارك سياسية طاحنة ومحاولات يائسة لتشكيل (ولايات عربية متحدة)، وبعد الحرب العالمية الثانية وما جرَّته على النّاس عموماً من ويلاتٍ ومآسٍ وفقرٍ شديدٍ، استقرَّ به المقام عند أحد الأمراء العرب في منطقة الخليج، وهناك بدأ تنظيم قصيدةٍ شعريةٍ مطوّلةٍ أسماها (القصيدة العلوية المباركة) وهي أوّل ملحمةٍ شعرية عربية هائية على الإطلاق، فبلغ عدد أبياتها خمسة آلاف وخمسمائة مئة وخمسة وتسعين بيتاً من الشعر العربي الأصيل، وقد صدرت الطبعة الأولى من هذه الملحمة الفريدة في مصر عام (١٩٢٠).

ولا يستطيع كلّ من يقرأ تلك الملحمة العلوية المباركة أن يخفي دهشته الشديدة إزاء تلك الفيض المتفجّر حبّاً لأهل البيت عليهم السلام عموماً من قِبَلِ رجلٍ مسيحيٍّ صادق جنَّد قلمه النظيف لإعادة كتابة التاريخ الإسلاميّ الحقيقيّ بأسلوبٍ شعريٍّ راقٍ موضّحاً من خلال تلك الملحمة الكثير من الوقائع الإسلاميّة التي شاءها البعض أن تكون غامضةً أو حتّى ـ في بعض الأحيان ـ موؤودةً تحت رمال التاريخ وغباره.

---

(١) عبد المسيح الإنطاكي، ملحمة الإمام علي عليه السلام أو (القصيدة العلوية المباركة)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت، ط٢/١٩٩١، راجع المقدّمة ص٦.

وعلى الرغم من أنّ تلك الملحمة تحملُ في عنوانها اسم علي عليه السلام إلا أنّها لم تكن في نهاية المطاف مقتصرةً على الكلام عن أمير المؤمنين علي عليه السلام من حيث السيرة والفضائل والمآثر، بل كانت ملحمةً شاملةً امتدّت في أعماقها حتّى مرحلة الحكم الأمويّ الدمويّ الجائر والممثّل أفضل تمثيلٍ بمعاوية وبابنه يزيد (لع).

وقد أفرد الأستاذ (الإنطاكي) في ملحمته تلك الكثيرَ من الأبيات الشعريّة الجريئة التي تصوّر وقائع فاجعة كربلاء من أَلِفها إلى يائها.

وبالطبع، فإنّنا سنقوم بذكر العديد من تلك الأبيات الشعريّة المؤثّرة عندما نتحدّث عن أحداث وتفاصيل تلك الفاجعة المروّعة التي ألمّتْ بالأمّة الإسلاميّة وبالهويّة الإنسانيّة على حَدٍّ سواء.

وهنا تحديداً، يمكننا أن نذكر ما قاله الأستاذ (الإنطاكي) عن الإمامين السيّدين (الحسن) و(الحسين) عليهما السلام نثراً لا شعراً بهدف توضيح وشرح بعض أبياته الشعريّة.

يقول المسيحي (الإنطاكي): (هما (أي الحسن والحسين عليهما السلام) فرعا الدوحة النبويّة المثمران، ونجما سماء الرسالة المحمدية المضيئان،وخير من أنجبت الآباء والأمّهات في بني الإنسان، هما سبطا رسول الله عليه وعليهما وعلى أبويهما الصلاة والسّلام)(١).

ويؤكّد الأستاذ (الإنطاكي) أنّ الإمامين الحسنين عليهما السلام هما الإمامان المُبرَّآن من كلّ عيبٍ وخطأٍ ونقصٍ، وهما عنصران أساسيان في آية (التطهير) الكريمة التي جاءَ بها الروح الأمين عن ربّ العالمين.

كما ويؤكّد الأستاذ (الإنطاكي) أيضاً على أنّ الإمامين الحسنين عليهما السلام هما حقّاً

(١) نفس المصدر السابق ص٦١٦.

ذريّة رسول الله ﷺ حتّى أنّه كان يدعوهما (وَلَديه)، وكان يدعوهما أيضاً (زهرة شباب أهل الجنّة)، وقد استشهد الأستاذ (الإنطاكي) بحديثين يدلان على أنّ ذريّة رسول الله ﷺ هما الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام، وأنّ تلك الذريّة ستستمرّ من خلالهما، وبشكلٍ خاصّ من خلال الإمام الحسين عليه السلام الذي سيحفظ رسالة جدّه العظيم ﷺ عبر ذريّته من الأئمّة الأطهار الأبرار الذين سيحفظون تراث جدّهم الروحيّ والإلهيّ من كلّ تزييف وتشويه إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض وما عليها.

فالحادثة الأولى التي يوردها الأستاذ (الإنطاكي) في ملحمته العلوية هي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يربأ أن يزجّ بالحسنين عليهما السلام بمهالك الحروب الضروس حرصاً على حياتهما الثمينة التي إذا أصابها مكروه انقطع نسل رسول الله ﷺ وانطفأت أنوار رسالته السّماوية التي شاءها الله سبحانه وتعالى أن تكون البلاغ السّماوي الأخير لأبناء آدم عليه السلام على وجه هذه الأرض.

وعن هذه الحادثة الأولى، يقول الأستاذ (الإنطاكي): (ومرّةً - في موقعة صفين - رأى سيّدنا أمير المؤمنين ابنه الحسن يتسرّع إلى القتال، فصاح بمن حوله: املكوا عنّي هذا الغلام لا يَهُدُّني، فإنّني أنفس بهذين (ويريد الحسن والحسين) على الموت، لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ)(١).

أمّا الحادثة المهمة الثانية التي ذكرها الأستاذ (الإنطاكي) في معرض حديثه عن منزلة الإمامين الحسنين عليهما السلام عند جدّهما رسول ربّ العالمين ﷺ فهي الحادثة التالية التي جرت مع محمد بن الحنفية (رض) ابن أمير المؤمنين عليه السلام ولكن من غير

---

(١) نفس المصدر السابق ص٦١٧.

السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، فقد قيل يوماً له: لمَ يغرّر بك أبوك في الحروب ولم يغرّر بالحسنين؟!

فقال: (لأنّهما عيناه وأنا يمينه، فهو يذبُّ عن عينيه بيمينه)(١)، وفي هذا تأكيدٌ على أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان يعتبر رسول الله صلى الله عليه وآله بمثابة عينيه وأنّ الحسن وأخيه الحسين عليه السلام هما الامتداد الطبيعي للبصيرة النبويّة التي يجب الحفاظ عليها وحمايتها وصونها من كلّ مكروه.

وقد رأينا في ما سبق من صفحاتٍ أنّ كلمة (أنفسنا) في آية المباهلة تعني أنّ محمداً صلى الله عليه وآله وعليّاً عليه السلام هما نفسٌ واحدةٌ، وبالتالي فإنّ عينيّ الإمام علي عليه السلام المُمثَّلين بالحسن والحسين عليهما السلام هما أيضاً عينا رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالتالي فإنّ دفاع الإمام علي عليه السلام عن عينيه هو دفاعٌ بالضرورة عن عينيّ رسول الله صلى الله عليه وآله الذي بيَّن لنا بدوره أنّ كلمة (أبناءنا) في نفس آية المباهلة أيضاً، إنّما تعني حفيديه العظيمين، الإمامين السيدين الحسن والحسين عليهما السلام ابنيّ علي وفاطمة عليهما السلام.

ولا أعتقد أنّنا بحاجةٍ للاستفاضة في الكلام حول وجهة نظر الأستاذ (الإنطاكي) بشأن مكانة الإمام الحسين عليه السلام، وأخيه الإمام الحسن عليه السلام أيضاً، عند جدّهما رسول الله محمد المصطفى صلى الله عليه وآله، لقد أفرد الأستاذ (الإنطاكي) العديد من الصفحات في ملحمته الغرّاء عن الفضائل والمآثر الخاصّة بالإمام الحسين عليه السلام بدءاً من طفولته في أحضان رسول الله صلى الله عليه وآله وانتهاء باستشهاده التراجيدي المفجع من أجل إحياء مبادئ جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله فوق رمال كربلاء.

وليس هذا الحال هو حال السياسي والأديب المسيحي (عبد المسيح الإنطاكي)

---

(١) نفس المصدر السابق ص٦١٧.

فقط، بل هناك الكثير من المفكّرين والأدباء المسيحيين وغير المسيحيين الذين تحدّثوا وكتبوا عن سيرة أبي الشهداء، الإمام الحسين عليه السلام، بكلّ صدقٍ ومحبّةٍ وأمانةٍ حتّى لَتَحسَبهم أنّهم من شيعته أو من خواصّ صحابته.

ولكن عندما نقول هذا الكلام ونؤكّده بكلّ ثقةٍ ويقينٍ من خلال العديد من الأدلّة والشواهد الحيّة، فإنّنا نأخذ بعين الاعتبار أنّ أولئك المفكّرين والأدباء عموماً لم تكن نتاجاتهم الفكريّة بسويّةٍ واحدةٍ ولم تكن النتائج المُستخلَصة من كتاباتهم عن فاجعة كربلاء بذات القيمة الفكريّة، بل كان هناك تفاوتٌ ملموسٌ في الرؤية وفي النتائج بين أولئك الأدباء والمفكّرين وإنْ كان الجميع متّفقين على أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو شهيد الحقّ والخير والفضيلة، وأنّ أعداءه يمثّلون حقّاً جيش الباطل والشرّ والرذيلة.

وربّما يعود التفاوت في الرؤى بين الأدباء والمفكّرين إلى الزاوية التي ينظر كلُّ واحدٍ منهم من خلالها إلى شخصيّة الإمام الحسين، هذا من جهةٍ، أمّا من جهةٍ ثانيةٍ، فهناك أيضاً تفاوتٌ وتباينٌ في أسلوب عرض الأحداث وتوصيف الأمور المفصليّة الهامّة التي قامت عليها أحداث الفاجعة الأليمة.

وعلى سبيل المثال، هناك العديد من الأدباء الذين خاضوا غِمار الكتابة عن سيرة حياة الإمام الحسين عليه السلام وعن خصاله ومآثره بأسلوبٍ أدبيٍّ روائيٍّ شيّقٍ وجذّابٍ يجعل القارئ معه مُستعجلاً في التهام السطر تلو الآخر، والصفحة تلو الأخرى بغية الوصول إلى نتيجة تلك الرّواية التاريخيّة المؤثّرة، ولكنْ، هنا، يمكننا أن نطرح السؤال التالي:

أليست هذه الطريقة في عرض الأفكار وفي تقديم الأحاث وتوصيفها هي طريقةٌ جذّابةٌ حقّاً وشيّقةٌ لكنّها محفوفةٌ بالمخاطر ومصحوبةٌ بالمحاذير؟!

نحن لا نشكّ في أنّها طريقةٌ سهلةٌ لِنَقْلِ الأفكار من المؤلّف إلى القارئ، ولكن ألا يمكن أن يكون هناك تقصيرٌ في وصف الشخصيّات، وتقصيرٌ في عرض المبادئ والقِيَم التي يؤمن بها الأشخاص الحقيقيون في الرواية؟!

ثمّ، ألنْ تكون القيمة الأدبية للرواية التاريخية على حساب قيمتها الفكريّة وعلى حساب التصوير الواقعي لقيمة وحقيقة أبطالها؟!

وحتّى لا نطيل النقاش حول هذه النقطة، دعونا نزور الأديب والمؤرّخ المسيحي (جرجي زيدان) (١٨٦١ـ ١٩١٤) والذي له باعٌ طويلٌ في كتابة الروايات التاريخية، وبشكلٍ خاصٍّ الروايات التاريخية المتعلّقة بتاريخ الإسلام وأحداثه الهامّة.

فمن المعروف لكلّ مُطّلعٍ أنّ هناك رواية للأديب المؤرّخ (زيدان) تحمل عنواناً يناسب موضوع كتابنا الذي هو الآن بين أيدينا، فعنوان الرواية هو (غادة كربلاء)، ولا يخفى على القارئ اللبيب ما لهذا العنوان من دلالات ومؤشّرات، فكلمة (كربلاء) وحدها كافيةٌ لإعطاء القارئ إشارةً واضحةً إلى أنّ هذه الرواية التاريخيّة ستعطيه فكرةً كافيةً ومفصّلةً عن كلّ ما حدث في تلك الواقعة من الآلام والفجائع والمآسي التي تفوق حدود الوصف والتعبير، وربّما سيتخيّل القارئ أيضاً أنّ تلك الرواية ستلقي بالكثير من أضوائها على شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام وعلى علاقته ومكانته من جَدّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وعلى الأسباب المباشرة وغير المباشرة لثورته ضدّ معسكر الظلم والضلال والطغيان، وباختصارٍ شديدٍ، ربّما يتبادر إلى ذهن القارئ أنّ تلك الرواية التاريخيّة للأستاذ (زيدان) عن فاجعة كربلاء سوف تعطيه صوراً مفصّلة عن شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام بدءاً من الولادة وانتهاءً بالشهادة.

ولكنْ هل هذا هو فعلاً ما استطاعت أن تقدّمه تلك الرواية؟

والجواب بكلّ بساطة ووضوح هو أنّ تلك الرواية استطاعت فقط أن تقدّم لنا جزءاً بسيطاً من حياة الإمام الحسين عليه السلام ومن سيرته المتجذّرة في عمق الرسالة الإسلاميّة، إنّه الجزء المتعلّق فقط بمسرح الفاجعة وبالأحداث الدّامية التي شهدتها رمال كربلاء.

وبالطبع، فإنّنا عندما نقول هذا الكلام عن رواية (غادة كربلاء) للأديب والمؤرّخ المسيحيّ (جرجي زيدان) فإنّنا لا نقصد الانتقاص من القيمة الأدبية والفكريّة لتلك الرواية ولا لغيرها من الروايات التي أصدرها ضمن سلسلة (روايات تاريخ الإسلام)، كما وأنّنا لا نقصد الإساءة إلى المؤلّف نفسه أو إلى النّيل من إنتاجه الفكريّ وجهده الثقافيّ الذي قدّمه خدمةً للقارئ العربي، بل على العكس من ذلك تماماً، كلّ ما أردنا أن نقوله هنا هو أنّ الرواية التاريخيّة عموماً تبقى عاجزةً عن إعطاء الشخصيّات الرئيسة حقوقها من تسليط الأضواء عليها ومن إعطائها أيضاً حقوقها من الوصف الحقيقيّ الذي يجب أن يكون بمثابة المرآة الواقعيّة لها.

فشخصيّة الإمام الحسين عليه السلام في رواية (غادة كربلاء) لا تبرز بشكلها الفعّال إلا في النصف الأخير من الرواية عموماً، أمّا في النصف الأول منها، فإنّنا بالكاد نقرأ شيئاً عنه عليه السلام وعن طفولته وعن مكانته في القرآن وعن منزلته من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، بل بإمكاننا القول أنّ أكثر ما أراد أن يركّز عليه الأديب والمؤرّخ (زيدان) في تلك الرواية هي شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام المؤمنة بحقّها والقادرة على إثبات شجاعتها التي لا مثيل لها تحت وطأة أيّ ضغطٍ أو ظرفٍ مهما كان قاسياً أو عصيباً[١].

فالمعسكر المعادي للإمام الحسين عليه السلام ـ كما يصفه المؤرّخ (زيدان) ـ هو

(١) جرجي زيدان، غادة كربلاء، منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت، د.ت ص١٥١.

معسكر الشرّ والباطل وهو أيضاً المعسكر المرتكز في أيديولوجيّته الفكريّة على أسسٍ ثابتةٍ من العصبيّة القبليّة والنزعة الجاهليّة.

وعلى الرغم من اتّصاف معسكر يزيد اللعين بهذه الصفات الذميمة، إلا أنَّ كبار قادة جيشه كانوا يدركون حقيقة الإمام الحسين عليه السلام وكانوا يعرفون تمام المعرفة أنّ الحقّ كلّ الحقّ مع الإمام الحسين عليه السلام ومع الأهداف التي نذر حياته من أجلها، ولكنّها الدّنيا التي تغرّ وتضرّ فتجعل المرء الضعيف يقف مع الباطل من أجل حطامها وسَقْطِ متاعها.

وقد استشهد المؤرّخ (زيدان) بالعديد من العبارات والجُمل التي قالها أعداء الإمام الحسين عليه السلام أنفسهم عنه وعن حقيقة شخصيته والتي تؤكّد أنّهم حينما ناصبوه العداء، كانوا عارفين بأنَّ وِزْرَهم وذنبهم عند الله عظيم لا يُغتفَر.

ولا أريد أن أستفيض هنا في الحديث عن بداية أحداث الفاجعة، ولا أريد أن أستبق الأحداث، فالكلام عن مسرح الفاجعة قادمٌ لا ريب، ولكنَّ الحديث عنه سيأتي في مكانه اللائق والمناسب في هذا المكان، ولكنْ لا بأس في أنْ أورد شاهداً واحداً هنا عمّا قلته منذ قليل عن معرفة أعداء الإمام الحسين عليه السلام به وعن إدراكهم لعظيم منزلته وعلوِّ مقامه الشريف عند الله ورسوله صلى الله عليه وآله.

فعندما يتحدّث الأديب والمؤرّخ (زيدان) عن محاولة أخذ البيعة بقوّة السيف ليزيد من الإمام الحسين عليه السلام، نراه يلجأ إلى تصوير ذلك الحدث بطريقةٍ مباشرةٍ حيث يتمّ الحديث الأساسيّ بين شخصيّتين متميّزتين بعدائهما التاريخيّ لأهل البيت عليهم السلام عموماً، وللإمام الحسين عليه السلام خصوصاً.

فالشخصيّة الأولى هي (مروان بن الحكم)، أمّا الشخصيّة الثانية فهي (الوليد بن

عقبة بن أبي سفيان)، ابن عمٍّ يزيد وعامله على المدينة.

فعندما يرفض الإمام الحسين عليه السلام مبايعة يزيد الفاسق خليفةً على رقاب المسلمين غير آبهٍ بتهديدهما له بالقتل وبالتنكيل به، وعندما يغادر مجلسهما دون أن يعتريه أيُّ شعورٍ بالخوف من ترهيبهما له بسفك دمه وإهدار حياته، يطلب مروان بن الحكم من الوليد بن عقبة أن يسرع في اغتيال صوت الحقّ عند الحسين عليه السلام عن طريق اغتياله هو شخصيّاً، فيجيبه الوليد بن عقبة قائلاً ـ كما جاء في رواية جرجي زيدان ـ:

(والله يا مروان ما أحبّ أن يكون لي ما طلعت عنه الشّمس وغربت عنه منْ مال الدّنيا ومُلْكها، وأنْ أقتل حسيناً أنْ قال لا أبايع، والله إنّي لا أظنّ امرءاً يُحاسبُ بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة)[1].

فيُجيبهُ مروان بن الحكم قائلاً: (قد أصبت).

هذه، باختصارٍ، صورة الإمام الحسين عليه السلام كما جاءت في النصف الأوّل من رواية (غادة كربلاء) التاريخيّة، ولكنْ، وعلى الرغم من الغياب الواضح لتصوير جوانب وخصائص عديدة في شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام، إلا أنّ مؤلّف الرواية (جرجي زيدان) استطاع أن يختصر الكلام عن الإمام الحسين عليه السلام مع الإبقاء على فكرةٍ هامّةٍ أراد تصويرها ونقلها للقارئ، إنّها الفكرة القائمة على تصوير وتأكيد أنّ الإمام الحسين عليه السلام الذي هو سبط الرسول الإلهي الأخير صلى الله عليه وآله، وابن الوصيّ علي المرتضى عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، هو في، محصّلة الأمر، الوجه الحقيقيّ الصادق للإسلام، وهو صرخة الضمير الإنسانيّ الشريف في وجه الظلم والجبروت والطغيان.

(١) نفس المصدر السابق ص١٥١.

فالإمام الحسين عليه السلام كما يؤكّد الأستاذ (زيدان) من خلال حوار شخصيّاته في الرواية، هو حرمة عظيمة من حرمات الله العليّ العظيم.

وربّما ما قلناه عن المؤرّخ والأديب المسيحيّ (جرجي زيدان) يصدق أيضاً على الأديب الروائي الشهير (إميل حبشي الأشقر)، ذلك الأديب الروائي اللبناني الذي أثرى المكتبة العربية بالعديد من الأعمال الروائية المثيرة التي تعبق برائحة الماضي البعيد من التاريخين العربيّ والإسلاميّ.

ولا ريب في أنّ الرواية الأكثر أهميّةً بالنسبة إلينا في معرض حديثنا الآن هي روايته (فاجعة كربلاء) والتي تُعتبر الرواية المتمّمة لرواية أخرى سابقة عليها هي رواية (خيانة وغدر)، والروايتان ـ بالطبع ـ هما روايتان تاريخيّتان من سلسلة روائيّة مطوّلة كانت تصدر تحت عنوان (روايات الليالي في تاريخ العرب والإسلام).

وعلى الرغم من الخطأ الذي وقع فيه الأديب (حبشي الأشقر) وهو استقاء أحداث رواياته التاريخية المتعلّقة بالإسلام من مصادر واحدة معيّنة ذات صبغة إسلاميّة محدّدة، وهو نفس الخطأ الذي وقع فيه أيضاً الأديب والمؤرّخ (جرجي زيدان)، إلا أنَّ أحداث روايته (فاجعة كربلاء) جاءت مصوّرة للعديد من الحقائق والأحداث التي جرت فعلاً في تلك الحقبة السوداء من تاريخ المسلمين.

نعم، إنّ الأديب (الأشقر) لم يتطرّق إلى ذِكر الإمام الحسين عليه السلام من خلال الكلام عنه في مرحلة الطفولة والصّبا، وربّما لم يكن باستطاعته أن يُبيّن للقارئ طبيعة المنزلة التي يحتلّها الإمام الحسين عليه السلام في ضمير جدّه صلى الله عليه وآله وسلم ووجدانه، وماذا كان يمثّل بالنسبة إليه في ما يتعلّق باستمرار رسالته الإسلاميّة السّماوية من خلاله ومن خلال الأئمّة الأطهار عليهم السلام من ذُرّيته، نعم، إنّ الأديب (الأشقر) لم يذكر ذلك بشكلٍ

واضحٍ وصريح، ولكنّه لم يدّخر جهداً في إبراز العديد من الحقائق الثابتة والمؤكّدة عن الإمام الحسين عليه السلام وتقديمها للقارئ على أنّها بالفعل من المُسلَّمات القائمة والثوابت الأساسيّة التي تعترف بمصداقيتها كلّ الأطياف والمذاهب الإسلاميّة، بل وحتّى العديد من العقول المسيحيّة المستضيئة بنور الفكر من شمس الثقافة والمعرفة.

وعلى كلّ حالٍ، فإنّ الأستاذ الأديب (الأشقر) يرى، على ما يبدو، أنّ خير وسيلةٍ لتعريف القارئ بالإمام الحسين عليه السلام هي تقديمه إليه من خلال الاعتماد على خطبه وكلماته التي كان يعرّف النّاس على نفسه من خلالها، وبشكلٍ خاصٍّ تلك الخطب التي كان يلقيها على مسامع الجيوش المدجّجة بالسّلاح في ساحة كربلاء قبل الاشتباك والالتحام مع جيشه الصغير الذي لا يتجاوز بالكاد السبعين شخصاً ما بين رجلٍ وامرأة وشيخ وطفل رضيع.

وهنا يمكننا القول أنّ الأفكار التي أراد الأستاذ (الأشقر) إيصالها إلى القارئ هي أنّ جيش الإمام الحسين عليه السلام ـ هذا إذا جاز لنا أنْ نسمّيه جيشاً ـ هو جيش الإيمان والنّور، في حين أنّ جيش يزيد ورجاله هو جيش الكفر والضلال[1].

وما أراد أن يقوله الأديب (الأشقر) للقارئ أيضاً من خلال الصفحات الأولى من الرواية هو أنّ الإمام الحسين عليه السلام الابنُ الأخير للرسول الأخير صلى الله عليه وآله على وجه الأرض، وهو، بالفعل كما قال جدّه صلى الله عليه وآله عنه وعن أخيه، «سيّدا شباب أهل الجنّة وقرّة عين أهل السنّة»[2].

أمّا بالنسبة لبقيّة الأفكار والصفات التي أراد الأستاذ (الأشقر) إيصالها إلى القارئ

---

(١) إميل حبشي الأشقر، فاجعة كربلاء، دار الأندلس. بيروت، ١٩٦٥، ص٩.

(٢) نفس المصدر السابق ص١١.

عن شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام كالجرأة والشجاعة وعمق الإيمان بالله ومدى الاقتداء برسوله صلى الله عليه وآله، والنبل والحلم والتضحية والفداء، فكلّ هذه الصفات لا داعي للوقوف عندها من أجل شرحها والتأكيد عليها وذلك لأنّ كلّ هذه الصفات هي صفات ثابتةٌ للإمام الحسين عليه السلام عند المُوالي والمخالف، وعند كلّ المفكّرين والأدباء المسلمين والمسيحيّين على حَدٍّ سواء، بل وسنلاحظ لاحقاً اتّساع دائرة الاعتراف والإقرار بذلك لتشمل أيضاً البعضَ من مفكّري أبناء الطائفة الهندوسيّة الذين تحدّثوا وكتبوا عن الإسلام وعن رجاله العظام، كالإمام الحسين عليه السلام مثلاً، بكلّ جرأةٍ ومحبّةٍ وتبجيلٍ واحترام.

أمّا الآن، وقد قاربنا على الانتهاء من هذا الفصل من كتابنا، دعونا أيّها الأعزّاء نتابع جولتنا السّريعة والمختصرة من أجل التعرّف على ما قاله بقيّة المفكّرين المعاصرين حول الخطوط العامّة والمعالم الرئيسيّة لشخصيّة سيّدنا ومولانا الإمام الحسين عليه السلام.

وعندما نقول إنّ جولتنا السّريعة والمختصرة القادمة ستكون مع بقيّة الأدباء والمفكّرين المعاصرين، فإنّ هذا لا يعني أنَّ مَنْ سنذكرهم الآن هم كلُّ ما في جعبتنا من رجال فكرٍ وأدبٍ ممّن أَدْلوا بِدلائهم في ميدان الحديث عن الإمام الحسين عليه السلام قتيل العَبرة وضمير العترة، بل إنّ ذلك يعني أنّ مَنْ سنذكرهم الآن هم أصحاب الباع الأطول في الكتابة عن سيّد الشهداء، أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولذلك، فَهُم الآن الأجدرُ بالذّكر من غيرهم من المفكّرين والأدباء في هذا المكان.

وستكون جولتنا السريعة الآن مع الكاتب المصري، الأستاذ (عبد الحميد جودة السحّار) صاحب عشرات الكتب والروايات والمجموعات القصصيّة القصيرة، ويُعَدُّ

الأستاذ (السحار) واحداً من أهمّ الذين كتبوا عن أهل بيت النبيّ المصطفى عليهم السلام وعن سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام.

ولو استعرضنا، بإيجازٍ سريعٍ، صورة الإمام الحسين عليه السلام في كتابه المخصّص لهذا الغرض والذي يحمل عنوان (حياة الحسين)، لوجدنا عدّة نقاط هامّة يمكن تلخيصها بما يلي:

أوّلاً - إنَّ أهل البيت عليهم السلام عموماً، والحسين عليه السلام منهم بلا شكّ، هم أهل العصمة الإلهيّة المباركة(١).

ثانياً - إنّ مجرّد دموع الحسين عليه السلام تؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتؤلمه في أعماق نفسه وروحه(٢).

وفي هذه النقطة استثارةٌ لذهن القارئ كي يجيب على السؤال التالي، وهو سؤالٌ كُنّا قد طرحناه سابقاً:

إذا كانت دموع الحسين عليه السلام تؤلم قلبَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتدميه حزناً، فما هو حاله صلى الله عليه وآله وسلم لو رأى دماء سبطه المظلوم الغريب الظمآن مسفوحةً فوق رمال كربلاء اللاهبة؟!

ثالثاً - إنَّ الكرم والجود، بما في ذلك الجود بالنّفس من أجل الحقّ، وإنّ الجرأة والإقدام والشجاعة التي يتحلّى بها الإمام الحسين عليه السلام هي كلّها صفاتٌ نبويّةٌ رساليّةٌ عظيمةٌ أورثه إيّاها جدّه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم(٣).

رابعاً - لا يستطيع أيُّ شخصٍ كان أنْ يجحد أو أنْ ينكر أنّ الإمام الحسين عليه السلام

(١) عبد الحميد جودة السحّار، حياة الحسين، مكتبة مصر - القاهرة، ط٢/١٩٧٧، ص١١.
(٢) نفس المصدر السابق ص١١.
(٣) نفس المصدر السابق ص١٣.

هو بحقّ، كما وصفه جدّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على رؤوس الأشهاد من الأصحاب، سيّدُ شباب أهل الجنّة يوم القيامة والحساب(١).

هذه هي باختصارٍ شديد المعالم الرئيسيّة لشخصيّة الإمام الحسين عليه السلام كما رسمها الأستاذ (جودة السحّار) في كتابه القيّم (حياة الحسين)، وبالطبع، ليس هذا هو كلّ شيء عن الإطار العام لمزايا وخصائص الحسين عليه السلام، بل هناك الكثير ممّا يمكن أن يُقال عنه ولكن ليس من الحكمة أن نذكر كلّ شيءٍ هنا، بل سنترك ذلك للحديث عنه عند التكلّم عن أسباب الثورة الكربلائيّة وعن أحداثها الدّامية.

ولكن لا يغيب عن ذهننا هنا أن نقول إنّ كتاب (حياة الحسين) يتكامل في معلوماته مع المعلومات الواردة في كتاب آخر للكاتب الأستاذ (جودة السحّار) وهو الكتاب الذي يحمل عنوان (أهل بيت النبيّ)، فكلاهما كتابان يتناولان سيرة أهل بيت النبوّة عليهم السلام من حيث إنّهم هم أهل النبوّة ومهبط الوحي ومعدن الرسالة وأنّ الإمام الحسين عليه السلام من أصحاب الكساء وهو الإمام الطاهر المطهّر من كلّ رجسٍ(٢).

وقد أكّد الأستاذ (جودة السحّار) في كتابه المذكور على عدّة نقاط تتطابق بشكل حرفيٍّ مع ما هو موجود في كتابه (حياة الحسين)، وما تأكيده على تلك المعلومات إلا ليثبت للقارئ أنّ ما كتبه عن الإمام الحسين عليه السلام هو عين الصواب وجوهر الحقيقة.

ونستطيع أن نلاحظ منذ الصفحات الأولى لكتاب (أهل بيت النبيّ) أنّ الكاتب الأستاذ (جودة السحّار) يريد أن يشدّد الاهتمام على نقطة محوريّة هامّة من ضمن مجموعة نقاط هامّة أخرى أوردها في كتابه، وتتجلّى هذه النقطة بالتأكيد المستمرّ على

---

(١) نفس المصدر السابق ص٨٩.

(٢) عبد الحميد جودة السحّار، أهل بيت النبيّ، دار مصر للطباعة. القاهرة، د.ت، ص٢٥٩.

أنّ ذريّة الإمام علي عليه السلام والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام هي ذاتها ذريّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالتالي، فإنّ النتيجة المنطقيّة التي يريد الأستاذ (جودة السحّار) أنْ يتوصّل إليها القارئ هي أنّ أذى العترة الطاهرة عليهم السلام هو في حقيقته أذى لرسول الله صلى الله عليه وآله وأنّ أذى رسول الله صلى الله عليه وآله هو في محصّلة الأمر أذًى لله سبحانه وتعالى من خلال الانتقاص من ثَقلَيه العظيمين، كتابه الكريم وعترته الطاهرة عليهم السلام.

ويكفي أن نذكر هنا حادثةً واحدةً من مجموعة حوادث ذَكَرها الأستاذ (جودة السحّار) لإثبات أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله كان يرى في الإمامين السيدين الجليلين الحسن والحسين عليهما السلام ذريّته الرساليّة المقدّسة والمحفوظة في نسل علي سيّد الأوصياء عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام سيّدة النّساء، فهي ذُريّته المتّصلة به صلى الله عليه وآله بالدّم والفكر والروح والنّور.

وها هو الأستاذ (السحّار) يروي لنا: (وقف رسول الله في مسجده يخطب، وبينا هو يعظ المسلمين، جاء الحسن والحسين (وهما طفلان) وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فلم يتمالك رسول الله نفسه، بل نزل إليهما وأخذهما وعاد إلى المنبر وهو يضمّهما إليه، ثمّ وضعهما في حجره وقال: «صدق الله! إنّما أموالكم وأولادكم فتنةٌ»)[1].

ولا ريب في أنّ من حقّ الأستاذ (جودة السحّار) أن يركّز على تلك النقطة التي أراد أن يلفت انتباه القارئ إليها، بل وإلى غيرها من النقاط الهامّة الأخرى المبثوثة في صفحات كتابه (أهل بيت النبيّ)، فالكتابة عن أهل البيت عليهم السلام عبادة، والدفاع عن قضاياهم ومبادئهم جهاد، وذكر فضائلهم رحمة، وموالاتهم مغفرةٌ وعتقٌ من النّار.

---

(١) نفس المصدر السابق ص١٢.

وأعتقد أنّه من المُسلَّم به تماماً أنّ كلّ من ذكرناهم في هذا الفصل من مفكّرين وأدباء وشعراء سواء كانوا من المسلمين أو من المسيحيّين قد قرأوا الكثير عن أهل البيت عليهم السلام وعن فضائلهم ومآثرهم العمليّة والروحيّة وإلا لمَا كتبوا عنهم بتلك الطريقة الشفّافة التي تفيض حبّاً واحتراماً وولاءً.

فماذا عساه المفكّر أو الأديب المسلم السنّي، أو حتّى المسيحيّ الذي نفض غبارَ التعصّب عن عينيه، أن يقول عندما يقرأ الكثير من الأحاديث النبويّة الهامّة التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله في كتب السنّة والشيعة معاً حول عَظَمة آل بيته الذين هُم مستودع سرّه؟!

فعلى سبيل المثال، لا الحصر، ذكر (الخوارزمي) الحنفي، المتوفّى عام /٥٦٨هـ/ في كتابه (مقتل الحسين) هذا الحديث الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده لا تفارق روحُ جسدَ صاحبها حتّى يأكل من ثمر الجنّة أو من شجر الزقّوم، وحتّى يرى مَلك الموت، وَيراني ويرى عَليّاً وفاطمة والحسن والحسين، فإنْ كان يحبّنا، قلتُ: يا ملك الموت ارفق به، فإنّه كان يحبّني وأهلَ بيتي، وإنْ كان يبغضني ويبغض أهلَ بيتي، قلتُ: يا ملك الموت شدِّد عليه، فإنّه كان يبغضني ويبغض أهل بيتي، لا يحبّنا إلا مؤمن ولا يبغضنا إلا منافق شَقيٌّ»[1].

وماذا يمكن لذاك المفكّر أن يقول أيضاً عندما يقرأ ما جاء في كتاب (ينابيع المودّة) للعلامة الكبير (الشيخ سليمان ابن الشيخ إبراهيم القندوزي الحنفي) حيث ذكر هذا الشيخ الجليل حديثاً مطوّلاً لأمير المؤمنين علي عليه السلام بعد أن سُئِلَ عن تفسير

(١) أبو المؤيّد الموفق بن أحمد المكّي أخطب خوارزم الحنفي، مقتل الحسين، منشورات مكتبة المفيد. قمّ المقدسة، د.ت، راجع الجزء الأول ص١٠٩.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى الأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيماهُمْ﴾[١]، فأجاب عليه السلام: «نحن الأعراف ونحن نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذين لا يُعرف الله عزّ وجلّ إلا بسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف يوقفنا الله عزّ وجلّ يوم القيامة على الصّراط، لا يدخل الجنّة إلا مَن عرفنا وعرفناه ولا يدخل النّار إلا من أنكرنا وأنكرناه، إنّ الله تبارك وتعالى لو شاء لَعَرَّفَ النّاس نفسه ولكنْ جَعلَنا أبوابه وصراطه وسبيله ووجهه الذي يتوجّه منه إليه، فَمَن عَدَلَ عن ولايتنا أو فضّل علينا غيرنا فإنّهم عن الصراط لَناكبون...»؟![٢]

فلا ريب في أنّ هذا المفكّر المسيحيّ أو ذاك الأديب المسلم قد قرأ الكثير من هذه الأحاديث الرائعة عن أهل البيت عليهم السلام في كتب السنّة وفي مؤلّفاتهم الفكريّة وفي دواوينهم الشعرية التراثية، وهذا ما جعلهم يسارعون إلى إلقاء عباءة التعصّب عن كاهلهم ومن ثمّ تجنيد أقلامهم النظيفة للذّود عن أهل بيت آخر رسول في مشارق الأرض ومغاربها إذْ لا رسول بعده إلى يوم الدّين.

ولذلك أقول إنّه إذا كان المفكّر المسيحي (أنطون بارا) محقّاً في مقولته التي أسلفنا ذكرها في الفصل السابق، والتي تنصّ على أنّ الفكر المسيحيّ العربي يقدّس أهل البيت عليهم السلام ويجلّهم، فإنّ الراهب المسيحيّ الفرنسيّ (لويس غارديه) أيضاً محقٌّ في مقولته عن أهل بيت النبيّ عليهم السلام وموقف السنّة منهم حيث اعتبر (غارديه) أنّ السنّيين يمجّدون ويجلّون هم أيضاً أسرةَ النبيّ عليهم السلام وأنّ السنّيين أنفسهم كانوا متعاطفين مع الشيعة ضدّ الحكم الأمويّ البغيض[٣].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٦.

(٢) العلامة الشيخ سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، مصدر سابق، ج١ ص١٠١.

(٣) لويس غارديه، أهل الإسلام، ترجمة: صلاح الدين برمدا، وزارة الثقافة ـ دمشق، ١٩٨١،

ولا داعي، بالطبع، لأنْ نسرد عشرات الأحاديث النبويّة الشريفة وغيرَها من الأحاديث التي تنصّ على علوّ مكانة آل بيت الرسول المصطفى عليهم السلام وسموّ منزلتهم في الأرض وفي السّماء، ولكن ما أردنا قوله هنا هو أنَّ هذا النّوع من الأحاديث الثابتة والمتّفق عليها عند جميع الأطياف الإسلاميّة هو أحد الأسباب المباشرة التي جعلت هذا الكمّ الكبير من الأدباء والشعراء والمفكّرين المسيحيين المُستنيرين ومن رجال السنّة يشمّرون عن سواعدهم للدفاع عن أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام وللانتصار لقضاياهم التي جاهدوا من أجلها بأنفسهم وأموالهم باذلين بذلك أغلى ما يملكون.

ومن البديهيّ أيضاً أن نقول إنّ الأحاديث النبويّة الشريفة المختصّة بذكر الإمام الحسين عليه السلام ومكانته من جدّه صلى الله عليه وآله ومن جوهر رسالته السّماوية الأخيرة، هذا بالإضافة إلى الأحاديث النبويّة الأخرى التي تخرق حجاب الغيب لِتَتَنبّأ بمصير ذلك الإمام العظيم ولتخبر المسلمين وقتذاك بالنهاية المفجعة التي سيلقاها ذلك السبط المظلوم على ضفاف الفرات الحزين، إنّ كلّ هذه الأحاديث لعبت أيضاً دورها الفعّال في استثارة العواطف وفي تنبيه كلّ العقول النيّرة إلى ضرورة الدفاع عن أهل الحقّ وإلى إبراز فضائلهم، وإلى ضرورة إدانة أهل الباطل وإظهار رذائلهم، فكان نتيجة ذلك هذا الكمّ الكبير من الأقلام الحرّة والنزيهة التي جاءت من مختلف الأديان والمذاهب كي تصدع بالحقّ وتنطق بالصدق وترفع أصواتها عاليةً لنصرة سيّد شباب أهل الجنّة الذي قال عنه جدّه رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى:

«الجنّة والحورُ العين من نور ولدي الحسين، ونور ولدي الحسين من نور الله»

ص٢١٦.

وولدي الحسين أفضل من الجنّة والحور العين»[١].

ولربّما من أكثر الأحاديث قوّةً وتأثيراً على مَن كتب عن الإمام الحسين عليه السلام وعن نهضته وثورته المباركة، هو ذاك الحديث النبويّ الشريف الذي وردَ بطرق متقاربةٍ في الكثير من المصادر والمراجع الإسلاميّة الهامّة، سواء الشيعيّة أو السنيّة، وهو الحديث النبويّ الذي يلخّص لنا ما يمثّله الإمام الحسين عليه السلام بالنسبة إلى جدّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

وها هو (الخوارزمي) المُلقّب بـ (أخطب خوارزم) الحنفيّ المذهب ينقل لنا ذلك الحديث النبويّ الشريف بصيغته الصحيحة والكاملة، فيروي لنا الحديث المرفوع إلى سلمان الفارسيّ (المحمدي) بقوله:

(دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا الحسين على فخذه وهو يقبّل عينيه ويلثم فاه، ويقول: «إنّك سيّد ابن سيّد أبو سادة، إنّك إمامٌ ابن إمام أبو أئمّة، إنّك حجّةٌ ابن حجّة أبو حجج تسعةٍ من صلبك، تاسعهم قائمهم»)[٢].

فما من كلمةٍ قالها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث إلا ولها أعمق الدلالات على المنزلة العظيمة التي يحتلّها الإمام الحسين عليه السلام في قلب جدّه، وما من كلمةٍ في هذا الحديث أيضا إلا ولها، بنفس الوقت، أوضح الدلائل وأبلغ الإشارات على الدور المنتظر المنُوط بالإمام الحسين عليه السلام أبي الأئمّة الأبرار الأطهار عليهم السلام الذين سيستمرّون في حمل راية الإسلام ولواء الإيمان إلى أن يأتي تاسعهم عليه السلام في نهاية الزّمان فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما تكون قد مُلئت ظلماً وجوراً،

(١) العلامة ميرزا جواد الملكي التبريزي، السير إلى الله، ترجمة وشرح السيد ياسين الموسوي، دار التعارف للمطبوعات. بيروت، ١٩٩٠، ص٨٤.

(٢) أخطب خوارزم الحنفي، مقتل الحسين، مصدر سابق ج١ ص١٤٦.

فهؤلاء الأئمّة التسعة عليهم السلام الذين أشار إليهم جدّهم الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله والذين يمثّلون عبقَ الرسالة وروحها الحيّة ونبضها الدّائم الممتدّ إلى آخر الزمان، ولو كره الكافرون، هم كُلّهم من الإمام الذي سيقدّم نفسه قرباناً على ضفاف الفرات من أجل شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، إنّه القربان الإلهيّ المقتول ظلماً بسيف أعداء الدّين، إنّه وارث رسالة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، إنّه الإمام الحسين.

وأنا أعرف الآن أنّ الكثير من القرّاء يطلبون المزيد والمزيد من ذكر الأحاديث التي تُظهر عظمة الحسين عليه السلام ومقامه السامي الرفيع، ولا ريب في أنّ لهم الحقّ في ذلك، ولكن سنعمد إلى ذكر تلك الأحاديث المطلوبة في مكانها المناسب من هذا الكتاب، أمّا الآن، دعونا نزور أحد المفكّرين المصريين الأفذاذ الذين تميّزوا بآرائهم الجريئة والصريحة حول المبادئ الأساسيّة والخطوط العامّة العريضة التي تتمحور حولها شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام وحول أسباب ونتائج ثورته الحسينيّة التي حفظت للإسلام ماء وجهه بعدما أراد أعداؤه وأعداء أبيه عليه السلام وجدّه صلى الله عليه وآله أن يُريقوه عَبَثاً غير آبهين بدينٍ ولا بشريعةٍ ولا حتّى بإلهٍ جبّارٍ شديدِ العقاب ينصب الميزان غداً ليوم الحساب.

وحتى لا نطيل المقدّمات، دعونا نعرّفكم، أيها الأعزاء، على محطّة مُمَيَّزة من محطّاتنا الفكرية الهامة، إنه الأستاذ الأزهري والباحث المصري (خالد محمد خالد) صاحب المؤلفات الفكرية والإسلامية التي تُعدُّ بالعشرات، والتي لا يَزال يُعاد طبعها المرّة تلو المرّة حتى يومنا هذا نظراً لقيمتها الفكرية العالية.

ومن أهم آثاره: (عشرة أيام في حياة الرسول صلى الله عليه وآله)، (الوصايا العشر)، (كما تحدّث القرآن)، (في رحاب علي عليه السلام)، (أفكاره في القمّة)، (أبناء الرسول في

كربلاء)، هذا بالإضافة إلى الكثير من الكتب الإسلاميّة والمؤلّفات الفكريّة الأخرى التي تتّصف بروح الإنصاف والموضوعيّة في نهج البحث وفي عمليّة استخلاص النتائج المترتّبة عليه.

وما يهمّنا من كلّ كتبه الآن هو كتابه (أبناء الرسول في كربلاء)، ذلك الكتاب الذي أخذ طريقه إلى النّور في طبعته الأولى عام / ١٩٦٨/ وأعيدت طباعته مرّات عديدة.

وبإمكاننا أن نلاحظ، وبشكلٍ بارزٍ تماماً، كيف أنّ الأستاذ (خالد) قد استطاع بكلّ براعةٍ أن ينتقل بقارئه من فكرة إلى أخرى بأسلوبٍ منطقيٍّ متدرّج يجعله قادراً على تكوين مجموعة أفكار جوهريّة وحسّاسة جداً عن الجوّ الأسريّ الذي تربّى ونشأ فيه الإمام الحسين عليه السلام.

ولو أخذنا مثالاً واحداً على طبيعة تلك الأفكار الهامّة التي طرحها الأستاذ (خالد) في سياق الكلام عن أسرة الإمام الحسين عليه السلام التي ترعرع وشبَّ في أحضانها إلى أن بلغ مرحلة الشباب، فسيكون مثالنا المأخوذ هو ما جاء في تعليق الأستاذ (خالد) على معنى قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿...**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾[1]، حيث قال معلّقاً على ذلك:

(فالربّانية وحدُها هي التي تُضفي على العظمة الإنسانية رداء الصدق، والإخلاص، والنُّسك، وهي التي تجعل من التضحيات رُشداً ورضواناً...

ولقد كانت القدوة التي تركها (علي وفاطمة)، والتي سيتركها بَنوهما (الحسن والحسين) من بعدهما رائعة الاتّساق مع هذه الغاية الفريدة، وذلك المستوى

(١) سورة آل عمران: الآية ٧٩.

البعيد)[١].

إذنْ، فالإمام الحسين عليه السلام إمامٌ ربّانيٌّ في تربيته وفي نشأته وفي سلوكيّاته وفي غاياته، إنّه سليلُ أسرة القرآن وابنُ مدرسة الرحمن.

وإذا كان الإمام قد نشأ هذه النشأة الرّبانيّة العظيمة في أحضان أسرة نبويّة طاهرة مطهّرة، كما جاء في النصّ الإلهيّ الأقدس، فكيف نتوقّع أن تكون علاقة ذلك الإمام بالحقّ والفضيلة وبالدستور الإلهيّ الخالد؟!

إنّ الجواب على هذا السؤال ليس بالأمر الصعب أو العسير بالنسبة إلينا وإلى الأستاذ الأزهري (خالد)، بل على العكس من ذلك تماماً، فالإمام الحسين عليه السلام كان أكثر التصاقاً بالله وبكتابه من التصاق الجنين بأمّه، وكان أكثر ارتباطاً بجدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وبأبويه، المرتضى عليه السلام والزهراء عليها السلام، وبمبادئهم جميعاً من ارتباطِ معنى الكلمة بالكلمة أو هويّة الشيء بالشيء.

وبالنسبة للأستاذ (خالد)، فإنّ (للحسين طبيعة جيّاشة ثائرة، يربطها بالحقّ ولاءٌ وثيقٌ وعجيبٌ، وتستمدّ من فضائل الدّين العالية ومن تراث حَسَبهِ العريق زاداً لا يفنى من الصمود والمثابرة)[٢].

وعندما يقول الأستاذ (خالد)، وهو العالِم السنّي الأزهري، إنّ الإمام الحسين عليه السلام يستمدّ الكثير من الفضائل والمناقب والخصال عن طريق ارتباطه الوثيق بشريعة السّماء من جهة، وعن طريق الأخذ بتراث حسبه العريق من جهةٍ أخرى، فإنَّ هذا لا يعني أنّ الإمام الحسين عليه السلام يعتمد في تثبيت مكانته ومنزلته على مجرّد الانتماء إلى

(١) خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مطبوعات دار الشعب. القاهرة، ط١/١٩٦٨، ص١٩.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٠٢.

الرسول ﷺ عن طريق الرابطة الدمويّة فحسب، بل إنّ الإمام الحسين عليه السلام يعتمد على عدّة عوامل أخرى أيضاً، وما الانتساب إلى الرسول الأكرم ﷺ بالرابطة الدّموية إلا أحد تلك العوامل العديدة التي أشار إليها الأستاذ (خالد) في صفحات متفرّقة من كتابه (أبناء الرسول في كربلاء)، ذلك الكتاب المميّز بأسلوبٍ طرحه للأفكار وبالنتائج المستخلَصة على ضوء ذلك الطرح والبحث العميقين.

وعلى ما يبدو، إنَّ هناك الكثير ممّن كتبوا عن الإمام الحسين عليه السلام، سواءٌ من المسلمين أو من المسيحيين، قد اعتمدوا في تأكيدهم على عظيم مقام الحسين وعلى رفعة مكانته ومنزلته على العديد من الآيات القرآنية كآية (التطهير) وآية (المباهلة) وعلى غيرهما من الآيات القرآنية الأخرى التي تُظهر خصيص مكانة أهل البيت عليهم السلام عموماً.

وقد اعتمدوا من جهةٍ أخرى على عشرات الأحاديث النبويّة الشريفة التي جاءت بمثابة الشرح والدّعم لتلك الآيات القرآنية السابقة.

ولعلّ من أكثر الأحاديث النبويّة الشريفة رواجاً في كتب السنّة المتقدّمين هو ذلك الحديث النبويّ الشريف الذي سنذكره الآن، وهو أحد الأحاديث الهامّة التي يستشهد به ويعتمد عليه الكثير من الأدباء والمفكّرين المعاصرين من سنّةٍ وشيعةٍ ومسيحيين.

وهذا هو نصّ الحديث النبوي الشريف كما ورد حرفيّاً في كتاب (ينابيع المودّة) للعلامة الكبير الشيخ (سليمان القندوزي الحنفي)، وكما ورد أيضاً في غيره من كتب السنّة القدماء ولكن باختلافاتٍ يسيرةٍ جدّاً.

يقول العلامة (القندوزي الحنفي): (وعن ربيعة السعدي، قال: أتيتُ حذيفة رضي الله عنه، فسألتهُ عن أشياء، فقال: اسمع منّي وَعِهْ، وبلّغ النّاس أنّي رأيت رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم وسمعتهُ بأذني وقد جاء الحسين بن علي رضي الله عنهما على المنبر فجعله على منكبيه ثمّ قال:

«أيّها النّاس هذا الحسين خير النّاس جدّاً وجدّةً، جدّه رسول الله سيّد ولد آدم، وجدّته خديجة سابقة إلى الإيمان من كلّ الأمّة، وهذا الحسين خير النّاس خالاً وخالةً، خاله القاسم وعبد الله وإبراهيم، وخالته زينب ورقيّة وأمّ كلثوم، وهذا الحسين خير النّاس عَمّاً وعمّةً، عمّه حمزة وجعفر وعقيل، وعمّته أمّ هانئ، وهذا الحسين خير النّاس أباً وأمّاً وأخاً وأختاً، أبوه علي وأمّه فاطمة وأخوه الحسن وأخته زينب ورقيّة»، ثمّ وضعه عن منكبه فأجلسه في جنبه، فقال: «أيّها النّاس هذا الحسين جدّه في الجنّة وجدّته في الجنّة وأخواله في الجنّة وخالاته في الجنّة وأعمامه في الجنّة وعمّاته في الجنّة وأبوه في الجنّة وأمّه في الجنّة وأخوه في الجنّة وأختاه في الجنّة وهو في الجنّة»، ثمّ قال: «يا أيّها النّاس إنّه لم يُعط أحدٌ من ذريّة الأنبياء الماضين ما أُعطيَ الحسين بن علي خلا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، يا أيّها النّاس إنّ الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذريّته فلا تذهبنَّ بكم الأباطيل»[1].

ويحقّ ـ بالطبع ـ لكلّ قارئٍ، بل ولكلّ أديبٍ أو باحثٍ أن يُولي هذا الحديث النبويّ الشريف أهميّةً بالغةً ومكانةً مرموقةً في ميدانه الفكريّ وفي مجال بحثه وتأليفه نظراً لِما يقدّمه هذا الحديث لنا من فكرةٍ شاملةٍ عن الجوّ الأسريّ المقدّس الذي نشأ فيه سيّد الشهداء، أبو عبد الله الحسين عليه السلام.

وكما سنلاحظ، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام هو المحور في هذا الحديث النبويّ الشريف، وهو السبط الوحيد، كما يقول عنه جدُّه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي

(١) العلامة الشيخ سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، مصدر سابق ج٢ ص١٠٢.

أُعطي ما لم يُعط أحدٌ غيره من ذريّة الأنبياء ما عدا سيّدنا يوسف بن يعقوب عليه السلام.

وقد استدلّ العالم الأزهري المصري الأستاذ (عبد اللطيف المشتهري) ـ وهو مبعوث الأزهر بسوريا في فترة الستينيّات من القرن الماضي ـ على تلك العظمة الحسينيّة من خلال العديد من الأحاديث النبويّة، بل ومن خلال الكثير من الحوادث والوقائع التي وقعت في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، شخصيّاً، أحدَ أقطابها.

ومن جملة الحوادث التي ذكرها الأستاذ (المشتهري) عن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، والتي استدلّ من خلالها على عظمة الحسين في نفس ووجدان جدّه خاتم رسل الله صلى الله عليه وآله وسلم هي تلك الحادثة الشهيرة التي ذكرها في كتابه (سيّد الشباب الإمام الشهيد الحسين عليه السلام):

دخل الحسين المسجد ورسول الله يخطب، فداس (الحسين عليه السلام) في ثوبٍ كان عليه فسقط وبكى، فنزل النبيّ ليتلقّاه، فلمّا رآه النّاس سعوا إلى الحسين يتعاطونه ويعطيه بعضهم بعضاً حتّى تسلّمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: «والذي نفسي بيده ما دَرَيتُ أنّي نزلت عن منبري»[1].

حقّاً إنّها حادثةٌ عظيمةٌ أنْ يقطع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصفوةُ رسله في خلقه خطبته وينزل عن منبره من أجل سبطه الطفل الصغير!!

بلى والله إنّها لعظيمةٌ، وإنّ دلالتها لأعظمُ!!

وعلى كلّ حالٍ، فقد علّق العلامة الأزهري على تلك الحادثة قائلاً:

---

(١) عبد اللطيف المشتهري، سيد الشباب الإمام الشهيد الحسين، طبع اللاذقية، ط٢/١٣٧٩هـ، ص١٢.

«إيهٍ يا حسين، أيّةُ منزلةٍ لك في قلب صفوة الله من خلقه حتّى يَدَعَ خطبته ومنبره ويتلقّاك من بين النّاس ليعود بك قرير العين؟!»[١].

نعم، أيّها الإمام العظيم، يا بن الإمام الأعظم

نعم، إنّ لك منزلةً في قلب صفوة الله من خلقه ورسله

لا تخطر على قلب بشرٍ، ولا تناله الفِكَر

وإنّ لك شأناً، وأيُّ شأنٍ، في رسالة السّماء إلى أهل الأرض

لا يبلغه المؤمنون ولا الملائكة المقرّبون

وكيفَ لا تكون أنت كذلك

وأنت ابن سيّد النّبيين، وابن خير الوصيّين

وابن سيّدة نساء العالمين؟!

وكيفَ لا تكون كذلك

وأنت أحد سيّديّ شباب أهل الجنّة

وأحد الريحانتين

والوارث لعلوم الوحي الأمين؟!

وبعدَ كلّ هذا، ألا يحقُّ لجدّك الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول على رؤوس الأشهاد: «حسينٌ منّي وأنا من حسين»؟!

إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السّمع وهو شهيد.

---

(١) نفس المصدر السابق ص١٢.

فاجعة كربلاء ومأساة السقيفة

ربّما يستغرب القارئ الكريم أن أكتب هنا فصلاً مستقلاً تحت عنوان (فاجعة كربلاء ومأساة السقيفة) وربّما يتساءل البعض أيضاً ما علاقة فاجعة كربلاء وأحداثها الدّامية بما سبقها من أحداث واختلافات و(فلتات) في سقيفة بني ساعدة!!

نعم، ربّما يتساءل أيّ قارئ عن ذلك، بل ربّما يتساءل عن أشياء أخرى أكثر من ذلك، ومهما كانت الأسئلة التي يمكن أن يطرحها القارئ ومهما كان حجمها وعمقها، فهي، بلا ريب، أسئلة مُباحة وغير محظورة ولها ما يبرّرها أيضاً.

ولكنْ، وقبل أن ندخل في الحديث عن العلاقة الوطيدة بين أحداث واقعة كربلاء وأحداث سقيفة بني ساعدة، دعونا نؤكّد أوّلاً على نقطةٍ غايةٍ في الأهميّة وفي الجديّة نظراً لما يراه البعض فيها من ضرورة تبيانٍ وتوضيح.

وتتلخّص هذه النقطة الهامّة بقولنا الاستفهاميّ:

هل الشريعة الإسلاميّة ديانة دمٍ وعنفٍ؟

وإذا كان الجواب (نعم)، فما هي أسسه وعوامله، وما هي الشواهد الدّالة عليه في كتاب الله العزيز وفي سنّة نبيّه الكريم ﷺ؟

أمّا إذا كان الجواب (لا)، إنّ الإسلام في جوهره وفي تعاليمه السّماوية وفي إرشاداته النبويّة يقف موقف النقيض من العنف ومن سفك الدّماء البريئة، فمن أين، إذنْ، وفَدَتْ علينا هذه الظاهرة السلبيّة الخطيرة والتي تمتدّ بجذورها إلى أعماق

التاريخ الإسلاميّ الطويل؟!

وبطبيعة الحال، لا يحقّ لنا نحن أن نجيب على هذه التساؤلات الضرورية والتي يمكن أن تكون المدخل الطبيعي والمَعْبَر المنطقي للكلام عن ما حدث في ساحة كربلاء.

بل إنّنا سنترك أمر الإجابة عن هذه الأسئلة لمجموعةٍ من المفكّرين والباحثين الكبار ممّن ينتمون إلى غير الدائرة الإسلاميّة سواءٌ كانوا من المسيحيين أم من غير المسيحيين.

ولكنْ، وقبل أن نستعرض وجهات نظر وآراء أولئك المفكّرين، علينا أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّنا سنوجز الكلام في هذا الموضوع وسنعمد إلى ذكر أسماء بعض الشخصيّات الهامّة، وذلك لسببٍ واحدٍ فقط وهو عدم الرغبة بالخروج عن جوهر كتابنا الأساسيّ المتمحور حول واقعة كربلاء وأثر تلك الفاجعة في الضمير العالمي الحديث.

وعلى كلّ حالٍ، وحتّى لا نطيل المقدمات ولا نضيّع الوقت، دعونا الآن نستعرض بعض تلك الآراء والمواقف، ولتكن محطّتنا الأولى مع المستشرق الفرنسيّ (لويس ماسينيون) الذي أسلفنا الكلام عنه والتعريف به في الفصل السابق من هذا الكتاب.

قبل كلّ شيء، يرى (ماسينيون) أنّ الإسلام دينٌ له حصّته ونصيبه من الخطّة التي وضعها الله لهداية البشر، ويرى (ماسينيون) أيضاً أنّ الإسلام شريعةٌ إنسانيّةٌ تحترم آراء الأفراد والجماعات وتقدّس جوهر الديانات السّماوية الأخرى، ويؤكّد (ماسينيون) مُضيفاً على ذلك بقوله: (بما أنّ الإسلام لا يفصل الشؤون الروحية عن الشؤون

الزمنية، فإنّ الواجب الأساسي المفروض على المؤمنين هو التوحيد والشهادة العلنيّة الدالّة على العزم الراسخ على الإخلاص لعبادة الله الواحد، بكلمةٍ أخرى، يمكن القول إنّ الشخص الإنسانيّ يشكّل في الإسلام شهادة يؤدّيها كلُّ فردٍ وحده ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾[١]، والإخلاص لهذه الشهادة هو الذي يحدّد قيمة الشخص الإنسانيّ أمام الله)[٢].

إذنْ، فالشخص (الإنساني) في الإسلام هو القادر على تحديد هويّته أمام الله، فبقدر ما يكون ذلك الشخص قادراً على الإخلاص لله من خلال النّطق بالشهادة الكاملة والعمل بشروطها وفق المستويين العمودي والأفقي - أي (الإلهي) مع الله ورسوله، و(الإنسانيّ) مع الإنسان بشكلٍ عامٍّ - بقدر ما يكون قادراً على تحقيق قيمته الإنسانيّة أمام خالقه.

وقد ذهب (ماسينيون) إلى حدّ القول (إنّ الإسلام جاء بمنزلة ضمير لليهوديّة والمسيحيّة)[٣]، أي أنّ الرسالة الإسلاميّة هي الضمير الإنسانيّ الحيّ لبقيّة الرسائل التي جاءت بها الرسل والأنبياء عليهم السلام.

أمّا المؤرّخ البريطاني (أرنولد توينبي) (ARNOLD TOYNBEE) (١٨٨٩ - ١٩٧٥) الذي فسّر التاريخ على أساس مبدأ التحدّي والاستجابة، فقد شهد الإسلامّ بأنّه دين الإنسانيّة السمحاء، وأنّه أكثر العقائد الدينيّة في العالم اتّفاقاً مع المنطق وأشدّها صراحةً في الإيمان بمبدأ الوحدانية الجليل وأعظمها وضوحاً في إدراك

---

(١) سورة الأنعام: الآية١٦٤.

(٢) جان موريون، لويس ماسينيون، ترجمة: منى النجّار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت، ط١ / ١٩٨١، ص٥٦.

(٣) أليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحيّة، مصدر سابق ص١٢٥.

الاستشراق الإلهي وتسامي الذات الإلهية[١].

ولا يختلـف رأي المستشرق المعـروف (مـونتغمري واط) (M.WATT)، المولود عام (١٩٠٩)، كثيراً عن رأي سابقه المؤرّخ (توينبي) حول الطبيعة الروحيّة والنزعة الإنسانيّة في جوهر العقيدة الإسلاميّة التي جاء بها الرسول محمد ﷺ.

وقد رأى هذا المستشرق (واط) أنّ الرسالة الإسلاميّة هي أكمل الرسالات السّماوية روحيّاً وإنسانيّاً، حتّى أنّ المجمع المسكوني الفاتيكاني المنعقد عام / ١٩٦٥/ قد اعترف بمآثر الإسلام العظيمة في نشر الكثير من القِيَمِ والحقائق[٢].

ويرى المستشرق (واط) أيضاً أنَّ كلّ دينٍ يترك للدّين الذي يليه أنْ يكمل ما فيه من نقصٍ، أمّا الإسلام فهو خاتم الأديان، ولذلك كان لا بدّ من اشتماله على كلّ فضائل الديانات السابقة من مكارم الخصال ومحامد الصفات والنّفحات الإنسانيّة الشفّافة التي تسمو بالإنسان إلى عوالم الطهر والنقاء، فالعقيدة الإسلاميّة تصلح أصولاً أن تستمدّ منها البشريّة كلّ القوانين التي تُسيّر حياتها، إنّها القانون الإنساني[٣].

ويرى المستشرق الفرنسيّ المعاصر (روجيه غارودي) في كتابه (ما يَعِدُ به الإسلام) أنّ المتصوّفة (العمليّين) في الإسلام هم الأقدر على نقل مضمون رسالة الإسلام إلى كلّ مَنْ هو خارج دائرة الإسلام، فالمتصوّف رمزٌ للتسامح ونبراس للقيم الإنسانيّة النبيلة، وبالتالي فإنّ الإنسان الكامل في الإسلام هو الإنسانيّة ذاتها في شمولها وتاريخها وتنوّع أجناسها وثقافاتها، فالإنسان الكامل الذي يجسّد الحبّ

(١) أنور الجندي، الإسلام والحضارة، دار الاعتصام. القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٢٥.
(٢) مونتغمري واط، أثر الحضارة العربيّة الإسلاميّة على أوروبا، ترجمة: جابر أبي جابر، وزارة الثقافة. دمشق، ١٩٨١، ص١٢.
(٣) أنور الجندي، الإسلام والحضارة، مصدر سابق ص٢٤٢.

والملحمة الإنسانيّة بكامل أبعادها هو الرسول المصطفى محمد ﷺ صاحب الحقيقة المحمديّة[١].

ويرى (غارودي) أيضاً في كتاباته المتمحورة حول معاني الإسلام الحنيف أنّ العقيدة الإسلاميّة هي أبعد العقائد عن العنف وعن الإكراه والجبر، بل على العكس من ذلك تماماً، فالمسلم يحترم جميع الأديان السّماوية السابقة ويقدّسها، وفوق ذلك أيضاً، فالإسلام اشترط لصحّة إسلام المسلم الإيمان بجميع الرسل والأنبياء[٢].

وهذا يعني أنّ المبادئ النظريّة للعقيدة الإسلامية تستوجب من المسلم أن يكون غاية في المحبة والتسامح والحفاظ على رابطة الأخوّة الإنسانيّة، وقد استشهد على ذلك بقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله الكريم: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٣].

ولو توقّفنا قليلاً عند الأديب والفيلسوف الإيرلندي (جورج برنارد شو) (G.B.SHAW) (١٨٥٦ـ ١٩٥٠) وسألناه عن رأيه بصاحب الرسالة الإسلاميّة، فماذا سيكون واجبه؟!

إنّ جوابه، وبكلّ بساطة ووضوح، سيكون هو التالي:

(إنّ محمداً يجب أنْ يُدعى منقذ البشرية... إنّ محمداً هو أكمل البشر في

(١) روجيه غارودي، ما يَعِدُ به الإسلام، ترجمة: قصي أتاسي وميشيل واكيم، طبع دار الوثبة. دمشق، د.ت، ص١٧٣.

(٢) روجيه غارودي، الإسلام دين المستقبل، ترجمة: عبد المجيد بارودي، دار الإيمان. بيروت. ودمشق، د.ت ص٣٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٦.

الغابرين والحاضرين، ولا يُتصوّر وجود مثله في الآتين)[١].

وإذا كان محمد ﷺ هو المنقذ للبشريّة ـ كما يقول عنه الفيلسوف (برناردشو) ـ أليس يعني هذا أنّ رسالة منقذ البشرية هي رسالة الخير والحقّ والفضيلة، ألا يعني هذا أنّها رسالة المحبّة والتسامح والغفران، ونبذ العنف ورفض الجبر والإكراه ومصادرة الأفكار واغتيال العقول والحريّات؟!

ثمّ ألا يتّفق هذا الرأي من الفيلسوف الإيرلندي (برناردشو) مع رأي المفكّر السياسيّ والأمير الألماني (بسمارك) (BISMARCK) (١٨١٥ـ١٨٩٨) موحّد الأمّة الألمانيّة ورَجُلها الفولاذي في القرن التاسع عشر، حيث يقول مخاطباً رسول الإنسانيّة والرحمة المُهداة إلى أهل الأرض:

(يا محمد، إنّني متأثّر جدّاً من أنْ لم أكن معاصراً لك... إنّ البشريّة رأتْ قدوةً ممتازةً مثلك، مرّةً واحدة، ولن ترى ذلك مرّةً أخرى، فبناءً على ذلك، إنّي أعظّمك بكمال الاحترام راكعاً في حضورك المعنوي)[٢].

ولو أخذنا عبارة واحدة فقط من عبارات الأديب والفيلسوف الألماني العظيم (يوهان غوته) (J.W.GOETHE) (١٧٤٩ـ ١٨٣٢) لَوَجدنا عمق حبّه وتقديره لرسالة الرسول المصطفى ﷺ المنطويّة في أساسها وفي عمق أهدافها على غايات نبيلة تعجز الألسن عن وصفها، وها هو يقول عنها بعد أن قرأها ودرسها جيداً على مدى عدّة عقود من الزمان:

---

(١) تامر مير مصطفى، بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار، الغدير . بيروت، ط١/١٩٩٨، ص١٢٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٢٧.

(إذا كان الإسلام معناه التسليم لله، فعلى الإسلام نحيا ونموت جميعاً)[١].

أمّا عن أثر هذا الدّين الحنيف على الإنسان، فيقول (غوته) أيضاً:

(إنّ دين محمد كلّه إخلاص، ودين اجتماع وأخلاق ورعاية لبني الإنسان)[٢].

ولو خرجنا قليلاً عن محيط الدائرة المسيحيّة المتفهّمة لحقيقة الرسالة الإسلاميّة وأهدافها السّامية ودخلنا في إطار الدائرة الفكريّة للطائفة الهندوسيّة كي نتعرّف على وجهة نظر أهمّ أعلامها وأبرز رجالها في العصر الحديث في ما يتعلّق بأهداف الرسالة الإسلاميّة وبمعطياتها الفكريّة وعلاقة ذلك بالنزعة الإنسانيّة وبمسألة احترام (الآخر) ونبذ العنف وإراقة الدّماء، فيمكننا أن نقرأ الكثير عن تلك النقاط الهامّة وكما قد وردت في كتابات العديد من المفكّرين المعاصرين من أبناء الديانة الهندوسيّة.

وعلى سبيل المثال، فقد تحدّث الصحافي والمفكّر الهنديّ (ج.ن. راغهافان) في كتابه (تقديم الهند) عن الإسلام وعن الرسالة السّماوية الإنسانيّة التي نزلت وحياً على الرسول المصطفى ﷺ.

ويُعتبر هذا المفكّر الهنديّ المعاصر (ج.ن.راغهافان) واحداً من أبرز المفكّرين الهنود في مجال البحث والدراسة والعناية بالتراث الروحيّ والفكريّ للهند.

ويكفي أن نقول إنّ السيّد (راغهافان) قد شغل العديد من المناصب الفكريّة في الهند وقد استقرّ به المقام أخيراً في رئاسة تحرير مجلّة (قراءات من الهند) الصادرة من قبل المجلس الهنديّ للعلاقات الثقافيّة.

ويرى هذا المفكّر الهنديّ أنّ الديانات الكبرى التي تحكم العالم كلّها تمجّد الله

---

(١) يوهان غوته، الديوان الشرقيّ للمؤلّف الغربيّ، ترجمة: الدكتور عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر. بيروت،١٩٨٠، ص٣٧.

(٢) العلامة خليل ياسين، محمد عند علماء الغرب، مؤسسة الوفاء. بيروت، ١٩٨٣، ص٩٨.

وتقدّسه، وكلُّها أيضاً تنادي بالمحبّة والتسامح ورفض العنف ونبذ كلّ الصفات الذميمة التي تتنافى مع الفطرة الإنسانيّة السليمة المودعة في التركيبة النفسيّة للإنسان بشكلٍ عام.

ويرى هذا المفكّر الهنديّ أيضاً أنّ الإسلام، كدينٍ سماويٍّ متكامل، يمتلك القدرة في ذاته على نشر الخير والفضيلة في صفوف مُعتنقيه، بل وله القدرة أيضاً على جعل معتنقيه قادرين على التعايش بسلامٍ مع مُعتنقي الديانات الأخرى حتّى ولو لم تكن تلك الديانات ذات مصدر سماويّ.

ويرى السيّد (راغهافان) أنّ خير دليلٍ على مصداقيّة هذه الفكرة هو اللجوء إلى الدراسات المقارنة التي تربط بين التصوّف الإسلاميّ من جهة وبين التصوّف الهندوسيّ بكافة طوائفه من جهة ثانية.

ومن هنا يرى (راغهافان) أنّ ظهور الحركات التوفيقيّة الهندوسيّ في الهند والتي تنادي بالتآخي والتقارب مع المسلمين وغيرهم ما هي إلا الدليل الواضح على أنّ الإسلام في جوهره الذاتيّ، والمُمثَّل خير تمثيلٍ بالتيّار الصوفيّ العملي، هو دين رحمةٍ ومحبّةٍ وفضيلة وسلام[1].

وإذا كانت هذه هي وجهة نظر المفكّر الهنديّ البارز (ج.ن. راغهافان) بشأن إنسانيّة الإسلام، فإنّ وجهة نظر الزعيم الهندي الراحل (جواهر لال نهرو) (J.NEHRU) (١٨٨٩ـ ١٩٦٤) لا تختلف كثيراً عن رأي المفكّر (راغهافان) حول نفس النقطة المطروحة بشأن جوهر الرسالة الإسلاميّة التي تحترم إنسانيّة الإنسان أيّاً

(١) ج.ن.راغهافان، تقديم الهند، تعريب: عبد الحقّ بن شجاعت علي، إصدار المجلس الهنديّ للعلاقات الثقافيّة. نيودلهي، ط٣/١٩٨٣/ ص٥٥. ٥٩.

كان دينه أو مذهبه.

ومن الجدير ذكره هو أنّ الزعيم (نهرو) قد شغل منصب رئاسة وزراء الهند (١٩٤٧ـ ١٩٦٤)، ولذلك فهو يُعتبر أحد أهمّ بناة الهند الحديثة، ولهذا الزعيم الراحل عدّة مؤلّفات هامّة في التاريخ والسياسة والثقافة العامّة.

ومن جملة ما يقوله هذا المفكّر الهندي العظيم في كتابه (لمحاتٌ من تاريخ العالم) ويؤكّد عليه في العديد من الصفحات هو أنّ الرسول المصطفى ﷺ قد رحل عن هذا العالم وابتعد عنه جسمياً ولكنّ تعاليمه السّماوية السّامية لم ترحل معه بل بقيت حيّةً في صفوف أتباعه ومحُبّيه الذين يتّقدون غيرةً وحماساً إلى نشر الفضيلة بين النّاس[1].

إذنْ، فالفضيلة بكلّ معانيها وأبعادها هي الغاية الأسمى في رسالة محمد ﷺ السّماوية إلى أهل الأرض، ولا ريب في أنّ الديانة التي تجعل من نشر الفضيلة غايتها الأسمى، هي ديانةٌ غايةٌ في الإنسانيّة وفي التسامح وفي نبذ العنف والتفرقة بين الاخوّة في الهويّة الإنسانيّة.

وبما أنّنا في سياق الكلام عن الرؤية الهندوسيّة للإسلام كشريعة سماويّة يعتنقها ملايين البشر في مشارق الأرض ومغاربها، فلا يجوز لنا أن نتجاوز أبرز رجلٍ هندوسيّ وزعيم هندي العصر الحديث، إنّه الزعيم الكبير (المهاتما غاندي) (GANDHI) (١٨٦٩ـ١٩٤٨م).

ومن المعروف عن هذا الزعيم الكبير هو أنّه زعيمٌ سياسيّ وروحيّ للهند، نادى

(١) عبد الرزاق كيلو، النبيّ محمد ﷺ في عيون هؤلاء، جريدة الوحدة . اللاذقية بتاريخ ٩/٢/٢٠٠٦.

باللاعنف واتّخذ المقاومة السلميّة شعاراً له، وعَمِلَ جاهداً على استقلال الأمّة الهنديّة عن الاستعمار الإنكليزي وقد نجح في ذلك نجاحاً رائعاً لا يزال صداه يهزّ ضمائر الثائرين في كلّ أصقاع العالم.

ومهما حاولنا أن نختصر في الكلام عن مدى تأثير الرسالة الإسلاميّة وكتابها الأقدس، القرآن الكريم، على البُنية الفكريّة (للمهاتما غاندي)، فإنّنا نجد أنفسنا في حاجةٍ دائمةٍ لإلقاء المزيد من الأضواء على عمق التفاعل بين هذا الزعيم الهندوسيّ وبين رسالة الإسلام.

ولكن، اختصاراً للوقت ومنعاً للإسهاب والإطالة، يمكننا أن نوجز الكلام بالقول إنّ هذا الزعيم الروحيّ والسياسيّ الهندي لم يكن يحترم ديانته الهنديّة الخاصّة أكثر من بقيّة الأديان الأخرى بما في ذلك الديانة الإسلاميّة، وقد ذكر عالم الاجتماع الإنكليزيّ (لويس فيشر) في كتابه (غاندي الثائر القديس) أنّ (المهاتما غاندي): (لم يكن يؤمن أنّ ديانة البوذا هي وحدها كلمة الله، فهو لا يرى ما يمنع عقلاً من أن يكون الإنجيل والتوراة والقرآن كلام الله كذلك... فهو بهذا بعيدٌ عن التعصّب الذميم الذي يُمليه على أصحابه ضِيقُ الأفق)[1].

ولذلك، فالإسلام ـ بالنسبة للزعيم (غاندي) ـ هو دين التعايش والسلام، دين الحبّ والانعتاق من الأنانية الآثمة، نعم، إنّه ـ غاندي ـ يؤمن أنّ كلّ الأديان السّماوية تدعو إلى ذلك وتحاول جاهدةً نشر تلك المفاهيم النبيلة بين أتباعها، لكنّه كان دائماً يسعى إلى التقرّب من المفكّرين المسلمين بالدرجة الأولى بهدف إقامة أوثق

---

(١) لويس فيشر، غاندي الثائر القدّيس، ترجمة: صوفي عبد الله، سلسلة كتاب الهلال، العدد ٨، القاهرة، ١٩٥٢، ص٥٢.

العلاقات الفكريّة معهم والاستزادة من علوم القرآن الكريم الذي قرأه (غاندي) في حياته مرّات ومرّات إلى أن بلغت درجة احترامه له أن وقف في اليوم الذي تُوفيِّتْ فيه زوجته (كاستور باي) على جثمان زوجته المسجّى أمامه وراح يقرأ عليه آيات من الذكر الحكيم وبعض الأدعية من الكتب الأخرى[١].

أمّا عن موقف هذا الزعيم العظيم من شخصية الإمام الحسين عليه السلام، فَحدِّثْ ولا حَرَج، غير أنّنا لن نفصح عن ذلك الموقف المميّز للزعيم (غاندي) إلا في المكان المناسب في الصفحات القادمة من هذا الكتاب، ولكن يكفي أن نقول هنا إنّ الإمام الحسين عليه السلام بالنسبة للزعيم الكبير (غاندي) كان دائماً وأبداً رمزَ الحياة القرآنية الكريمة، وقدوة الأخلاق الإنسانيّة وقِيَمها، ومقياس الحقّ[٢].

وهكذا نرى أنّ الإسلام السّماوي الذي جاء به الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى بني الإنسان ما هو في جوهره إلا رسالة أخوّة ومحبّة وتوحيد وسلام، فالرسالة الإسلاميّة لا تدعو في حقيقتها إلى العنف ولا إلى سفك الدّماء بين بني البشر، وإنّما هي رسالةٌ نبيلةٌ تدعو ـ كما لاحظنا في ما قاله المفّسرون والأدباء المسيحيّون والهندوس ـ إلى صقل إنسانيّة الإنسان وإلى نشر الخير والفضيلة بين أفراد الأسرة الآدميّة على الأرض.

وهنا لنا أن نتساءل قائلين:

إذا كان الأمر هو حقّاً كما ذكرنا وكما ذكر وأكّد عليه الأدباء والمفكّرون المسيحيّون وغيرهم، فمن أين جاءت، إذن، ظاهرة الإسلام الدموي العنيف؟!

ربّما يبدو الجواب على هذا السؤال في الوهلة الأولى عسيراً بعض الشيء، وربّما

(١) نفس المصدر السابق ص٢١٠.

(٢) عبد الله عدنان المنتفكي، الثورة الحسينيّة في الفكر العالمي، مجلة الثقافة الإسلاميّة، العدد (٥٠)، إصدار المستشارية الثقافية الإيرانيّة بدمشق، تموز ـ آب، ١٩٩٣، ص٤٤.

يرى البعض الآخر أيضاً أنّ الجواب الشافي على هذا السؤال ليس صعباً فحسب بل إنّه مستحيل تمام الاستحالة ولا يمكن الإجابة عليه بأيِّ حالٍ من الأحوال.

ولكن نقول إنّ هناك جماعة من المفكرين والباحثين المسلمين وغير المسلمين لهم وجهة نظر مختلفة عن وجهات النظر السابقة، وهم يؤكّدون على حقيقة أنّ بإمكانهم أن يقدّموا لنا المبرّرات الكافية والمسوّغات المُقنِعة التي كان لها الدّور الأبرز في جعلهم يتبنّون وجهة نظرهم المختلفة هذه، بل هم يؤكّدون أيضاً على أنّ الأمر لا يتوقّف عند هذا الحدّ فحسب، بل إنّه يتجاوزه إلى حقيقة أخرى وهي أنّ الجواب على السؤال المطروح هو جوابٌ سهلٌ وفي غاية البساطة، وبالتالي، ما على الذي يريد الوصول إلى الجواب المطلوب إلا أنْ يُعمِلَ عقله بشكلٍ جيّد وجدّيّ، وأنْ يعود بذاكرته للوراء إلى اللحظات الأولى بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى من أجل أنْ يعرف ماذا حدث بالتفصيل، ومن أجل أن يدرك أيضاً أنّ ما حدث بُعَيدَ وفاة الرسول ﷺ قد ترك آثاراً عميقةً ودائمةً في مجرى تاريخ المسلمين وعلى امتداد تاريخ الرسالة إلى يومنا هذا.

إذنْ، دعونا الآن نمتطي صهوة الزمن ونعود وراءً إلى اللحظات العصيبة الأولى التي تَلَتْ وفاة الرسول الكريم ﷺ لنرى ماذا حدث وقتذاك وماذا ترتّبَ على ذلك من أمورٍ ومتغيّرات كان لها الدّور الأبرز في تغيير وتشويه أهمّ وأنبل المفاهيم الإسلاميّة التي جاء بها الرسول الكريم ﷺ ونادى بها القرآن الكريم.

ومن الضروري أن نفكّر هنا أنّ الكتاب الذي سنعتمد عليه بالدرجة الأولى لقراءة الأحداث التي أعقبت غياب الرسول المصطفى ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى هو كتاب (الإمامة والسياسة) والمعروف أيضاً باسم كتاب تاريخ الخلفاء للإمام الفقيه أبي

محمد عبد الله بن مسلم قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ).

ولكنْ هذا لا يعني أنّنا سنقتصر في دراستنا لحادثة سقيفة بني ساعدة على كتاب (الإمامة والسياسة) فقط، بل سنعتمد أيضاً على كتب ومراجع أخرى تناولت تلك الحادثة بشيءٍ من التفصيل والتوضيح.

وعلى كلّ حال، ها نحن ننقل ما ذكره (ابن قتيبة الدينوري) في كتابه (الإمامة والسياسة) حول حادثة السقيفة وما جرى فيها من القول.

يقول (الدينوري) في الحديث مرفوعاً إلى عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري أنّه قال:

(إنّ النبيّ عليه الصّلاة والسّلام لمّا قبض، اجتمعت الأنصار رضي الله عنهم إلى سعد بن عبادة، فقالوا له: إنّ رسول الله ﷺ قد قبض، فقال سعد لابنه قيس رضي الله عنهما: إنّي لا أستطيع أن أسمع النّاس كلاماً لمرضي، ولكنْ تَلَقّ مني قولي فأسمعهم، فكان سعد يتكلّم، ويحفظ ابنه رضي الله عنهما قوله، فيرفع صوته لكي يسمع قومه، فكان ممّا قال رضي الله عنه، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: يا معشر الأنصار إنّ لكم سابقةٌ في الدّين وفضيلةٌ في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إنّ رسول الله ﷺ لبث في قومه بضع عشرة سنة، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأوثان.

فما آمن به من قومه إلا قليل، والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ﷺ، ولا يعرفوا دينه، ولا يدفعوا عن أنفسهم، حتّى أراد الله تعالى لكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة، وخَصّكم بالنعمة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ﷺ، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز لدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدَّ النّاس على من تخلّفَ عنه منكم، وأثقله على عدوّكم من غيركم، حتّى استقاموا لِأَمرِ الله تعالى طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيدَ

المقادة صاغراً داحراً حتّى أثخن الله تعالى لنبيّه بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفّاه الله تعالى وهو راضٍ عنكم قرير العين، فشدّوا أيديكم بهذا الأمر، فإنّكم أحقّ النّاس وأولاهم به.

فأجابوه جميعاً: أنْ قد وفقتَ في الرأي وأصبت في القول، ولن نعدوَ ما رأيتَ توليتك هذا الأمر، فأنت مقنع ولصالح المؤمنين رضا، قال فأتى الخبر إلى أبي بكر رضي الله عنه، ففزع أشدّ الفزع، وقام معه عمرَ رضي الله عنهما، فخرجا مسرعين إلى سقيفة بني ساعدة، فَلَقيا أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فانطلقوا رضي الله عنهم جميعاً، حتّى دخلوا سقيفة بني ساعدة، وفيها رجالٌ من الأشراف، ومعهم سعد بن عبادة رضي الله عنه، فأراد عمر رضي الله عنه أن يبدأ بالكلام، وقال: خشيتُ أن يقصّر أبو بكر رضي الله عنه عن بعض الكلام، فلمّا تيسّر عمر للكلام، تجهّز أبو بكر رضي الله عنه وقال له: على رسلك، فستُكفى الكلام، فتشهّد أبو بكر رضي الله عنه، وانتصب له الناس، فقال: إنّ الله جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، فدعا إلى الإسلام، فأخذ الله تعالى بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه، فكنّا معشر المهاجرين أوّل النّاس إسلاماً، والنّاس لنا فيه تبع، ونحن عشيرة رسول الله ﷺ، ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة، وأنتم أيضاً والله الذين آووا ونصروا، وأنتم وزراؤنا في الدين، ووزراء رسول الله ﷺ، وأنتم إخواننا في كتاب الله تعالى وشركاؤنا في دين الله عزّ وجلّ، وفيما كنّا فيه من سرّاء وضرّاء، والله ما كنّا في خير قطّ إلا كنتم معنا فيه، فأنتم أحبّ النّاس إلينا، وأكرمهم علينا، وأحقّ النّاس بالرضا بقضاء الله تعالى، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ ولمِا ساق لكم ولإخوانكم المهاجرين رضي الله عنهم، وهم أحقُّ النّاس فلا تحسدوهم، وأنتم

المؤثّرون على أنفسهم حين الخصاصة، والله ما زلتم مؤثّرين إخوانكم من المهاجرين وأنتم أحقّ النّاس ألا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم وأبعد أن لا تحسدوا إخوانكم على خيرٍ ساقه الله تعالى إليهم، وإنّما أدعوكُم إلى أبي عبيدة أو عمر، وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر، وكلاهما له أهلٌ.

فقال عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهما: ما ينبغي لأحدٍ من النّاس أن يكون فوقك يا أبا بكر، أنت صاحب الغار ثاني اثنين، وأمرك رسول الله ﷺ بالصلاة فأنت أحقّ النّاس بهذا الأمر.

فقال الأنصار: والله ما نحسدكم على خيرٍ ساقه الله إليكم، وإنّا لكما وصفتَ يا أبا بكر والحمد لله، ولا أحد من خلق الله تعالى أحبّ إلينا منكم، ولا أرضى عندنا ولا أيمن ولكنّا نشفق ممّا بعد اليوم، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منّا ولا منكم، فلو جعلتم اليوم رجلاً منّا ورجلاً منكم بايعنا ورضينا، على أنّه إذا هلك اخترنا آخر من الأنصار فإذا هلك اخترنا آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت هذه الأمّة، كان ذلك أجدر أن يعدل في أمّة محمد ﷺ وأن يكون بعضنا يتبع بعضاً، فيشفق القرشيّ أن يزيغ فيقبض عليه الأنصاري، ويشفق أن يزيغ الأنصاري فيقبض عليه القرشي.

فقام أبو بكر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: إنّ الله تعالى بعث محمداً ﷺ رسولاً إلى خلقه وشهيداً على أمّته ليعبدوا الله ويوحّدوه وهُم إذْ ذاك يعبدون آلهة شتّى، يزعمون أنّها لهم شافعة، وعليهم بالغة نافعة، وإنّما كانت حجارة منحوتة، وخشباً منجورة (أي صَنَعها النجّار)، فاقرؤوا إنْ شئتم ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾(١)، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ

(١) سورة الأنبياء: الآية٩٨.

الله﴾[١]، وقالوا: ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلَى الله زُلْفى﴾[٢] فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخصَّ الله تعالى المهاجرين الأوّلين رضي الله عنهم بتصديقه، والإيمان به، والمواساة له والصّبر معه على الشدّة من قومهم، وإذلالهم وتكذيبهم إيّاهم وكلّ النّاس مخالف عليهم، زارٍ (غائب) لهم، فلم يستوحشوا لقلّة عددهم وإزراء النّاس بهم واجتماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله في الأرض، وأول من من بالله تعالى ورسوله ﷺ، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ النّاس بالأمر من بعده لا ينازعهم فيه إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم ولا النعمة العظيمة لهم في الإسلام، رضيكم الله تعالى أنصاراً لدينه ولرسوله، وجعل إليكم مهاجرته، فليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نقتات (أي لا نستأثر) دونكم بمشورةٍ، ولا تنقضي دونكم الأمور.

فقام الحباب بن المنذر بن زيد بن حزام رضي الله عنه، فقال: يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أيديكم، فإنّما النّاس في فيئكم وَظلالكم، ولن يجير مجيرٌ على خلافكم، ولن يصدر النّاس إلا عن رأيكم، أنتم أهل العزّ والثرو وأولو العدد والنجدة، وإنّما ينظر النّاس ما تصنعون، فلا تختلفوا، فيفسد عليكم رأيكم وتقطع أموركم، أنتم أهل الإيواء والنصرة، وإليكم كانت الهجرة، ولكم في السّابقين الأولين مثل ما لهم، وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم، والله ما عبدوا الله علانيةً إلا في بلادكم، ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم، فأنتم أعظم النّاس نصيباً في هذا الأمر، وإن أبى القوم، فمنّا أمير ومنهم أمير.

---

(١) سورة يونس: الآية١٨.

(٢) سورة الزمر: الآية٣.

فقام عمر رضي الله عنه، فقال: هيهات لا يجتمع سيفان في غمدٍ واحدٍ، إنّه والله لا يرضى العرب أن تؤمّركم ونبيّها من غيركم، ولكن العرب لا ينبغي أن تولّي هذا الأمر إلا من كانت النبوّة فيهم، وأولو الأمر منهم، لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجّة الظاهرة والسلطان المبين، من ينازعنا سلطان محمد وميراثه، ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مُدلٍ بباطلٍ أو متجانبٍ لإثم أو متورّط في هلكة.

فقام الحباب بن منذر رضي الله عنه، فقال: يا معشر الأنصار، املكوا على أيكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإنْ أبوا عليكم ما سألتم فاجلوهم عن بلادكم، وتولّوا هذا الأمر عليهم، فأنتم والله أولى بهذا الأمر منهم، فإنّه دانَ لهذا الأمر ما لم يكن يدين له بأسيافنا، أمّا والله إنْ شئتم لنُعيدَنّها جذعة (أي حَرباً قويّة)، والله لا يردّ عليّ أحدٌ ما أقول إلا حطّمت أنفه بالسيف.

قال عمر بن الخطاب: فلمّا كان الحباب هو الذي يجيبني، لم يكن لي معه كلام لأنّه كان بيني وبينه منازعةٌ في حياة رسول الله ﷺ، فنهاني عنه، فحلفت أنْ لا أكلّمه كلمةً تسؤوه أبداً.

ثمّ قام أبو عبيدة، فقال: يا معشر الأنصار، أنتم أوّل من نصر وآوى، فلا تكونوا أوّل من يبدّل ويغيّر.

وإنّ بشيراً (بشير بن سعد) لمّا رأى ما اتّفق عليه قومه من تأمير سعد بن عبادة، قام حسداً لسعد، وكان بشير من سادات الخزرج، فقال: يا معشر الأنصار، أما والله لئن كنّا أولي الفضيلة في جهاد المشركين، والسابقة في الدّين، ما أردنا إن شاء الله غير رضا ربّنا، وطاعة نبيّنا، والكرم لأنفسنا، وما ينبغي أن نستطيل بذلك على النّاس، ولا نبتغي به عوضاً من الدّنيا فإنّ الله تعالى ولي النعمة والمنّة علينا بذلك.

ثمّ إنّ محمداً رسول الله ﷺ رجلٌ من قريش، وقومه أحقّ بميراثه، وتولّي سلطانه، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتّقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم.

ثمّ إنّ أبا بكر قام على الأنصار، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثمّ دعاهم إلى الجماعة، ونهاهم عن الفرقة، وقال: إنّي ناصحٌ لكم في أحد هذين الرجلين: أبي عبيدة بن الجراح، أو عمر، فبايعوا من شئتم منهما، فقال عمر: معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا، أنت أحقّنا بهذا الأمر، وأقدمنا صحبةً لرسول الله ﷺ، وأفضل منّا في المال، وأنت أفضل المهاجرين وثاني اثنين، وخليفته على الصّلاة، والصلاة أفضل أركان دين الإسلام، فمن ذا ينبغي أن يتقدّمك، ويتولّى هذا الأمر عليك؟ ابسط يدك أبايعك.

فلمّا ذهبا يبايعانه سبَقهما إليه بشير الأنصاري فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد، عُقَّك عُقاق (أي مخالفتك لنا أمرٌ صعبٌ ومرّ)، ما اضطرّك إلى ما صنعت؟ حسدك ابن عمك على الإمارة؟

قال: لا والله، ولكنّي كرهت أن أنازع قوماً حقّاً لهم، فلمّا رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وهو من سادات الخزرج، وما دعوا إليه المهاجرين من قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، وقال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير: لئن ولّيتموها سعداً عليكم مرّةً واحدةً، لا زالت لهم بذلك عليكم الفضيلة، ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر رضي الله عنه، فقاموا إليه فبايعوه، فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه، فأخذه، فبادروا إليه فأخذوا سيفه منه، فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتّى فرغوا من البيعة، فقال: فعلتموها يا معشر الأنصار، أما والله لكأنّي

بأبنائكم على أبواب أبنائهم، قد وقفوا يسألونهم بأكفّهم ولا يسقون الماء.

قال أبو بكر: أمنّا تخاف يا حباب؟

قال: ليس منك أخاف، ولكن ممّن يجيء بعدك، قال أبو بكر: فإذا كان ذلك كذلك، فالأمر إليك وإلى أصحابك، ليس لنا عليكم طاعةٌ، قال الحباب: هيهات يا أبا بكر، إذا ذهبت أنا وأنت، جاءنا بعدك من يسومنا الضيم.

فقال سعد بن عبادة: أما والله لو أنّ لي ما أقدر به على النهوض، لسمعتم منّي في أقطارها زئيراً يخرجك أنت وأصحابك، ولألحقتك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع، خاملاً غير عزيز، فبايعه النّاس جميعاً، حتّى كادوا يطئوون سعداً.

قال سعد: قتلتموني، فقيل: اقتلوه، قتله الله، فقال سعد: احملوني من هذا المكان، فحملوه فأدخلوه داره وترك أياماً، ثمّ بعث إليه أبو بكر (رض): أن اقبل فبايع، فقد بايع النّاس، وبايع قومك، فقال: أما والله حتّى أرميكم بكلّ سهمٍ في كنانتي من نبل، وأخضب منكم سناني ورمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بمن معي من أهلي وعشيرتي، ولا والله لو أنّ الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتّى أُعرَضَ على ربّي، وأعلم حسابي)[1].

هذا ما أوردهُ حرفيّاً الإمام الفقيه أبو محمد عبد الله بن مسلم (ابن قتيبة الدينوري) في كتابه المعروف (الإمامة والسياسة) حول مسألة البيعة المزعومة في سقيفة بني ساعدة والتي تخلّلها الكثير من المشاحنات وحتّى الاشتباكات بين مختلف الأطراف والأحزاب.

وهنا تحديداً، وقبل أن نكمل ما جاء في نفس الكتاب، وفي غيره من الكتب

(١) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، د.ت ج١ ص١٧.

المعتبرة، حول تداعيات تلك البيعة الشوهاء المشؤومة، نجد أنّ من حقّنا ومن حقّ كلّ قارئٍ أن يطرح عدّة أسئلةٍ هامّةٍ على ضوء ما ورد في أحداث تلك البيعة التي ذكرناها منذ قليل.

ولعلّ أولى هذه الأسئلة التي طرحت نفسها بقوّةٍ على عقول الكثير من المفكّرين والباحثين هي:

لماذا فزع أبو بكر وعمر أشدّ الفزع ـ كما يقول الدينوري ـ عندما بلغهما أنّ معظم النّاس قد بايعوا سعد بن عبادة عن قناعةٍ ورضا قائلين له بعد خطبته القصيرة: أنْ قد وفقتَ في الرأي، وأصبتَ في القول، ولن نعدو ما رأيتَ تَوليَتَكَ هذا الأمر، فأنت مقنع ولصالح المؤمنين رضا؟!

والسؤال الثاني الذي يطرح نفسه وبقوّةٍ: من أين حصل أبو بكر على الحقّ الذي يخوّله ترشيح أبي عبيدة ابن الجراح وعمر بن الخطاب على أن يكون أحدهما خليفةً على المسلمين؟! وبأيّ حقٍّ حَصَرَ الترشيح بين هاتين الشخصيّتين فقط؟!

أمّا السؤال الثالث، والذي لا يقلّ أهميةً عن الأسئلة السابقة، فهو: لو افترضنا أنّ الرسول الكريم ﷺ لم يُوصِ بالخلافة لأحد من بعده ولم يستخلف أحداً من أتباعه على المسلمين، فلماذا، إذنْ، رفض أبو بكر وعمر العرضَ المنطقيّ الذي تقدّم به الأنصار قائلين: فلو جعلتم اليوم رجلاً منّا ورجلاً منكم بايعنا ورضينا على أنّه إذا هلك اخترنا واحداً من الأنصار فإذا هلك اخترنا آخر من المهاجرين؟!

وليس هذا فحسب، بل لماذا كان جواب أبو بكر على هذا الاقتراح: نحن الأمراء وأنتم الوزراء؟!

وعلينا أن لا يغيب عن أذهاننا أنّه لمّا قام الحباب بن المنذر قائلاً: منّا أمير ومنكم

أمير، رفض عمر بن الخطاب هذا العرض بكلّ قوّةٍ وعنفٍ قائلاً: هيهات لا يجتمع سيفان في غمدٍ واحد، إنّه والله لا يرضى العربُ أن تؤمّركم ونبيُّها من غيركم.

فمن أين جاء عمر بن الخطاب بهذه الفتوى العجيبة؟! وأين موقع هذا الكلام من حديث المصطفى ﷺ المشهور: لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلا بالتّقوى؟!

ولو تركنا ما قاله ابن الخطاب جانباً، وتوقّفنا قليلاً مع ما قاله أبو بكر مخاطباً الأنصار بقوله لهم: فَهُم - أي المهاجرين - أوّل من عبَد الله في الأرض، وأوّل من آمن بالله تعالى ورسوله ﷺ، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ النّاس بالأمر من بعده لا ينازعهم فيه إلا ظالم.

فلو فكّر كلُّ باحثٍ في هذا الكلام الذي قاله أبو بكر للأنصار، وباحتجاجه عليهم بقوله إنّ الخلافة هي حقّ للمهاجرين لأنّهم هم أولياؤه وعشيرته، وبالتالي فهم أحقّ النّاس بهذا الأمر من بعد رسول الله ﷺ لا ينازعهم فيه إلا ظالم.

فلو فكّر أيُّ باحثٍ في هذا الكلام قليلاً، ومن ثمّ سأل أبا بكر قائلاً:

كيف فضّلت المهاجرين على الأنصار، وكيف قبلتَ أن يكون المهاجرون هم أولياء رسول الله ﷺ وعشيرته والأقرب إليه، والأحقّ بأمر الخلافة من غيرهم، ولم تقبل أن يكون أهل بيت النبيّ ﷺ الحقيقيّون، وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام، هم أولياء الرسول المصطفى ﷺ وعشيرته المقرّبة، وهم الأحقّ بهذا الأمر العظيم حيث، بالفعل، لا ينازعهم أحدٌ فيه إلا ظالم؟!

ويمكن لذلك الباحث السّائل أن يقف ويسأل أبا بكرٍ مجدّداً، وبكلّ جرأةٍ وثبات:

ثمّ ما قولك يا أبا بكر في حديث رسول الله ﷺ - الذي ذكرته لاحقاً كتبُ السنّة -

والذي يقول فيه: «من قاتل علياً على الخلافة فاقتلوه كائناً من كان»[1]؟!

وآخر ما يمكن أن يسأله أيُّ باحثٍ عن الحقيقة: ما هذه الخلافة التي يدّعي البعض أنّها انعقدت بين المسلمين بطريقة الشورى في حين أنّ كبار الصحابة الأجلّاء وكلّ أهل بيت النبيّ عليهم السلام الذين هم فعلاً أهله وقرابته وعشيرته كانوا خارج دائرة الشورى ومُغيّبين عنها عمداً؟!

فما أصدق القائل مخاطباً أبا بكر:

فإنْ كنتَ بالشورى ملكتَ أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غُيَّبُ؟!

وإنْ كنتَ بالقُربى حججتَ خصيمَهم فغيرُك أولى بالنبيّ وأقربُ!!

ومهما يكن من أمرٍ، دعونا نعود ثانيةً إلى كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري كي نتعرّف على موقف سيّدنا أمير المؤمنين علي عليه السلام من تلك البيعة الرخيصة التي حدثت في سقيفة بني ساعدة والتي دارت رحاها على المسلمين عموماً منذ ذلك اليوم وحتّى يومنا هذا.

ولكنْ، وقبل أن نكمل الكلام عن موقف الإمام علي عليه السلام من تلك البيعة الغريبة الشوهاء، نرى ضرورة لفت انتباه القارئ الكريم إلى أنّ الكاتب الإسلاميّ (ابن قرناس) يرى في كتابه المطبوع حديثاً في ألمانيا، والذي يحمل عنواناً برّاقاً، (سنّة

---

(١) أ . الحافظ زين الدين المناوي الشافعي، كنوز الحقائق، مكتبة الزهراء . القاهرة، ١٩٨٥، ص١٥٠.

ب . الحافظ ابن المغازلي الشافعي، مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، المكتبة الإسلاميّة . طهران، ١٣٩٤هـ، وقد أورد ابن المغازلي نصّ الحديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بالشكل التالي:

«من ناصب علياً الخلافة بعدي فهو كافرٌ، وقد حارب الله ورسوله، ومن شكّ في عليّ فهو كافر» راجع الصفحة ٤٦ من الكتاب المذكور.

الأوّلين)، يرى هذا الكاتب المشهور بعدائه لأهل البيت عليهم السلام، ولِكلّ أتباعهم، أنّ أبا بكر وعمر بن الخطاب قد زوّرا الكلام على النّاس عند بيعة السقيفة، حتّى أنّ عمر بن الخطاب نفسه ـ كما يقول (ابن قرناس) ـ قد أضمر في نفسه تزوير الكلام من أجل أن يجعل النّاس يقبلون بيعة أبي بكر ويعتبرونها شرعيّةً، غير أنّ أبا بكر استطاع أن ينفذ إلى أعماق عمر، وقال كلّ ما كان قد أضمره عمر في نفسه من تزوير[1].

أمّا موقف الإمام علي عليه السلام من تلك البيعة، فهو ـ كما ذكره الدينوري ـ بقوله: (ثم إنّ علياً كرّم الله وجهه أُتِيَ به إلى أبي بكر وهو يقول: «أنا عبد الله وأخو رسوله»، فقيل له: بايعْ أبا بكر، فقال: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وتأخذونه منّا أهل البيت غصباً، ألستم زعمتم للأنصار أنّكم أولى بهذا الأمر منهم لمّا كان محمد منكم، فأعطوكم المقادة، وسلّموا إليكم الإمارة؟

وأنا أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، نحن أولى برسول الله حيّاً وميّتاً، فأنصفونا إنْ كنتم تؤمنون وإلا فبوؤوا بالظلم وأنتم تعلمون».

فقال له عمر: إنّك لست متروكاً حتّى تبايع، فقال له عليّ: «احلبْ حَلْباً لك شطره، واشدد له اليوم أمرَه يردده عليك غداً»، (أي افعلْ فعلاً يكون لك منه نصيب، فأنت تبايعه اليوم ليبايعك هو غداً)... فقال أبو عبيدة بن الجرّاح لعلي كرّم الله وجهه: يا بن عمّ إنّك حديث السنّ وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم، ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك، وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به، فسلّم لأبي بكر هذا الأمر، فإنّك إنْ تعش ويطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليق وبه

(١) ابن قرناس، سنّة الأوّلين، طبع دار الجمَل ـ ألمانيا، ط١/٢٠٠٦، ص٤٣٧.

حقيق، في فضلك ودينك، وعلمك وفهمك، وسابقتك ونسبك وصهرك.

فقال علي كرّم الله وجهه: «الله، الله يا معشر المهاجرين، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في النّاس وحقّه، فوالله يا معشر المهاجرين، لنحن أحقّ النّاس به لأنّا أهل البيت ونحن أحقّ بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بِسنن رسول الله، المضّطلع بأمر الرعيّة، المدافع عنهم الأمور السّيئة، القاسم بينهم بالسويّة، والله إنّه لَفينا، فلا تتّبعوا الهوى فتضلّوا عن سبيل الله، فتزدادوا من الحقّ بُعداً».

فقال بشير بن سعد الأنصاري: لو كان هذا الكلام سَمعَتهُ الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان.

قال: وخرج عليٌّ كرّم الله وجهه يحمل فاطمة بنت رسول الله ﷺ على دابّةٍ ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ولو أنَّ زوجك وابن عمّك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عَدَلنا به، فيقول علي كرّم الله وجهه:

«أفكنتُ أدع رسول الله ﷺ، في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع النّاس سلطانه؟»، فقالت فاطمة: «ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم»(١).

هذا بالتّمام والكمال ما أورده ابن قتيبة الدينوري عن مأساة سقيفة بني ساعدة وما دار فيها من سِجالات ومن تحالفات واتفاقات تصبُّ جميعها في مجرى التيّار المناهض لأهل البيت عليهم السلام ولحقِّ أمير المؤمنين علي عليه السلام بالخلافة والولاية.

---

(١) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، مصدرٌ سابقٌ، ج١ ص١٩.

وعلى الرغم من أنّ (الدينوري) قد أغفل ـ عن عمد أو عن غير عمد ـ العديد من السِّجالات الكلامية بين مختلف الأطراف، وبشكلٍ خاصٍّ بعض العبارات التي قالها الإمام علي عليه السلام في معرض احتجاجاته على أولئك الذين نازعوه حقّه في الخلافة وسلبوه إيّاه تحت ذرائع شتّى وحججٍ واهيةٍ متنوّعةٍ، إلا أنّنا يمكننا اعتبار ما جاء في كتابه (الإمامة والسياسة) هو الأقرب للحقيقة ممّا جاء في العديد من الكتب الأخرى التي حاولت إخفاء حتّى أبسط الحقائق ممّا أدّى بها إلى الوقوع في تناقضات مذهلة واختلافات غريبة لا تدلّ في جوهرها إلا على شيءٍ واحدٍ، وهو الرغبة الدفينة في إخفاء الحقيقة بأيّ شكلٍ كان ومهما كانت النتائج.

وهنا، على وجه التحديد، يجدر بنا التوقّف عند تلك البيعة التي جاء وصفُها لاحقاً على لسان الخليفة الثاني بأنّها كانت (فلتةً من فلتات الجاهليّة) حتّى نرى ما هي أبعادها السياسيّة وتداعياتها الاجتماعية والدينيّة كما يراها أصحاب الفكر والأدب في العصر الحديث، وحتّى نرى أيضاً أثر هذه الحادثة المؤسفة جدّاً على المقدّمات المبدئيّة التي قادت جماعةً من القتلة المرتزقين إلى ارتكاب مجزرة كربلاء الرهيبة والتي لم يكن القصد من ارتكابها التخلّص من أهل البيت عليهم السلام فحسب، بل كان الهدف الأساسيّ أيضاً اغتيال القرآن الكريم وتصفية الإسلام ذاته معتمدين في ذلك على الإرث الدمويّ العنيف الذي بدأ أوّل ما بدأ فعليّاً لحظة انتقال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الملأ الأعلى، ومن ثمّ القيام بعمليّة التفاف من قِبلِ بعض كبار الصحابة على مبدأ الاستخلاف والولاية، والتمويه على المسلمين بأنّ ما فعلوه هو التطبيق العمليّ لمبدأ الشورى في الإسلام، وهذا بالضبط ما يراه الكثير من المفكّرين والمستشرقين في كتاباتهم عن تاريخ المسلمين.

ومهما يكن من أمر، دعونا الآن نستعرض آراء ووجهات نظر بعض المفكّرين في الشرق، والمستشرقين في الغرب كي نرى ونتعرّف على الآثار السلبيّة التي خلّفتها وراءها حادثة السقيفة التي فات عليها ما يقارب أربعة عشر قرناً من الزمان ولا نزال نعاني من تداعياتها حتّى عصرنا الحاضر.

ودعونا نبدأ أوّلاً مع الأديب والمفكّر اللبناني (سليمان كتاني)، ذلك المفكّر المسيحيّ الذي نذر قلمه وفكره لكشف اللثام عن الكثير من القضايا التاريخية العربية والإسلاميّة التي تهمّ كلّ فردٍ عربيٍّ غيور على سلامة تاريخه ونقاوة ماضيه وأصالته.

يرى هذا المفكّر الباحث عن الحقائق أنّ مسألة استخلاف عليّ عليه السلام على المسلمين هي مسألة بديهيّة تماماً لا ينكرها إلا جاهل أو متعصّب، أمّا المسألة الأخرى التي لا يمكن لأيّ شخصٍ أن ينكرها أيضاً هي مسألة تمثيل مسرحيّة مُدبّرة أطلّت بفصولها البغيضة من سقيفة بني ساعدة متحدّيةً بذلك كلّ وصايا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأوامره.

وها هو الأستاذ (كتّاني) يحلّل الحدث الجلل قائلاً: (إنّ الاجتماع الذي حصل في السقيفة ـ وجثمان النبيّ لا يزال فاتراً ـ كان أكبر دليلٍ على اليقظة السريعة للميول المكبوتة المجمّدة تحت ضغط الهالة القدسيّة التي كانت تشعّ من جبين المسجّى الصامت الذي كان على قيد الحياة منذ ساعة، لقد وجدت تلك الميول ـ في هذه اللحظة التاريخية الواجمة ـ مُتنفّساً لها فعبّرت عن روحٍ قبليّةٍ جاهليّةٍ لم تتمكّن حتّى الرسالة من وأدها)[1].

---

(١) سليمان كتاني، فاطمة الزهراء وتر في غمد (مجموعة محمد شاطئ وسحاب)، دار المرتضى بيوت ١٩٩٠ ص٥٧٤.

ولهذا كان يرى الأستاذ (كتاني)، وهو المفكّر المتعمّق في دراسة التاريخ الإسلاميّ، أنّ الحوار الذي قام بعد موت النبيّ لم يكن حواراً حقيقيّاً ولم تكن له أيّة علاقة بمبدأ الشورى التي يتستّر بها البعض، فالمجتمعون في السقيفة لم يستدرجوا المجتمع إلى أيّ حوارٍ، بل لم يستدرجوا حتّى أولي الأمر منهم، لقد تحاوروا فيما بينهم ولم يستدعوا الطرف الآخر أبداً من أجل استكمال ما عقدوا الأمر على مناقشته.

وهنا يتساءل الأستاذ (كتاني) قائلاً:

ثمّ إنّ المجتمعين ـ أيُّ شيءٍ دعاهم إلى الاجتماع؟ هل هو استلام الحكم أم هو الحرص منهم على الرسالة ـ عن طريق استلام الحكم؟

فإن يكن الأول، فلقد توصّلوا إلى الغاية، ولا لزوم إلى حوار... وإن يكن الثاني ـ كما هو الادّعاء ـ فلماذا الخوف من استدعاء رجل (أي عليّ عليه السلام) سلّمه زمام الرسالة من برأ الرسالة؟[1]

وبسبب حجم مأساة هذه الحادثة التي لا يزال المسلمون، حتّى يومنا هذا، يعانون الكثير من آثارها ومخُلّفاتها، فقد احتلّتْ العديدَ من الصفحات في مؤلّفات الأستاذ (كتاني) الفكريّة، ويكفي أن نقول، من خلال قراءتنا المتأنّية لكتابه المعروف (الإمام الحسن عليه السلام الكوثر المهدور)، أنّه اعتبر أنّ ما حدث في سقيفة بني ساعدة عبارة عن عمليّة تعيين مباشر وليست عمليّة مبايعة فعليّة وشرعيّة، وباختصارٍ شديدٍ، لقد كانت تلك البيعة ـ هذا إذا جازَ لنا أن نُسمّيها بيعة ـ خاتمة شؤوم لبيعات لاحقة قائمة على القهر والغدر وعلى هدر الدّماء[2].

---

(١) نفس المصدر السابق ص٥٧٨.

(٢) سليمان كتاني، الإمام الحسن الكوثر المهدور (مجموعة محمد)، دار المرتضى . بيروت، ١٩٩٠، ص٦٨٤.

وبطبيعة الحال، فإنّه لا يمكننا أن نستفيض في شرح موقف الأستاذ المفكّر (سليمان الكتاني) بشأن مأساة السقيفة وذلك لسببٍ بسيطٍ وهو أنّه ما من كتابٍ كتبه الأستاذ (كتاني) عن الإسلام إلا وتناول فيه وقائع تلك الحادثة المؤسفة وأبعادها المختلفة بنفس الأسلوب وبنفس الموقف، ولذلك ليس هناك من ضرورة لتكرار وجهات نظره المتماثلة والواردة في كلّ مؤلّفاته.

ولذلك، دعونا الآن أيّها الأحبّة، نتعرّف على موقف رجل آخر من رجال الفكر والمعرفة، دعونا نتعرّف على موقف الأديب والمفكّر المسيحيّ (أنطون بارا) الذي سبق وأنْ عرّفنا به، وبمؤلّفاته، وبمكانته الفكريّة في فصلٍ سابقٍ من هذا الكتاب.

فمن أهمّ النقاط الحسّاسة التي يمكن أن نذكرها هنا هي تلك النقطة التي يركّز عليها الأستاذ (بارا) في بداية حديثه عن البيعة الناقصة في سقيفة بني ساعدة، ويمكننا أن نوجز الكلام عن تلك النقطة بالقول إنّ الأستاذ (بارا) يرى أنّ ما حدث في فاجعة كربلاء هو الثمرة الطبيعيّة لِما حدث في يوم السقيفة.

فما فعله يزيد بن معاوية بالإمام الحسين عليه السلام لم يمكن في حقيقته إلا المرآة العاكسة لِما فعله (الخلفاء) الأوائل بالإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام، فيزيد (لع) لم يفعل كلّ ما فعله إلا اقتداءً بسياسة الآباء والأجداد وما فعلوه مع أهل بيت النبوّة عليهم السلام[1].

وقد أضاف الأستاذ (بارا) على ذلك قائلاً: (وقد جاءت وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله لتكشف عن استمراريّة تمكّن روح القبليّة بين المسلمين، إذْ لم تمضِ ساعات على وفاة الرسول الأعظم، حتّى بدأت المداولات هنا وهناك بمعزلٍ عن جموع أمّة الإسلام

(١) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحي، مصدر سابق ص١٩٧.

العريضة... وكان عامل الذهول الذي أصاب المسلمين بوفاة النبيّ ﷺ، قد جعلهم يتناسون عهد النبيّ إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام)[١].

وعلى الرغم من أنّ المفكّر المسيحيّ المصري الدكتور (نظمي لوقا) كان رأياً خجولاً حول أحداث السقيفة وحول المآسي الكثيرة التي نتجت عنها، إلا أنّ ذلك الخجل الواضح في الرأي الصريح لم يمنعه من التأكيد على أنّ بيعة أبي بكر لم تكن في حقيقتها سوى (فلتة) من فلتات الجاهليّة ـ كما عبّر عنها عمر ـ ولم يمنعه ذلك أيضاً من اعتبار تلك البيعة حَدَثاً جسيماً ويوماً عاصفاً في تاريخ الإسلام[٢].

إذنْ، فإنّ رأي الدكتور (نظمي لوقا) هو حقّاً رأي خجولٌ قياساً برأي الأديب والمفكّر (أنطون بارا)، ولكنْ، وبالرغم من ذلك كلّه، فإنّه لم يجد حرجاً في شرح مقولة أبي بكر المعروفة، والتي قالها بعد استلامه مقاليد الخلافة: (... ألا وإنّ لي شيطاناً يعتريني! فإذا أتاني فاجتنبوني)، فقد علّق الدكتور (لوقا) عليها قائلاً:

(وما من شكٍّ في أنّ التعبير بهذا اليسر الشديد عن حدّة الطبع بأنّها شيطانٌ يعتريه يدلّنا على أمرين: أنّها حدّةٌ معهودةٌ فيه لا يستغرب عارفوه أمرها، فهي عندهم مفروغ منها، وأنّها شديدة شدّة بالغةً لها تأويلاً أو تشبيهاً إلا مسّ الشيطان، ذلك أنّها تتجاوز كلّ حدٍّ)[٣].

وهنا يمكن أن تتبادر إلى الذهن مجموعةٌ من الأسئلة الملحّة التي تبحث عن أجوبةٍ شافيةٍ كافيةٍ، ومن هذه الأسئلة الملحّة قولنا:

---

(١) نفس المصدر السابق ص١٩٧.

(٢) د. نظمي لوقا، أبو بكر (سلسلة كتاب الهلال)، العدد ٢٤٢، دار الهلال ـ القاهرة، عدد مارس (آذار)، ١٩٧١، ص١٥٤.

(٣) نفس المصدر السابق ص٤٨.

(كيف يمكن لمن لديه (شيطان) يعتريه ويسيطر عليه بين الحين والآخر أن يكون هو حقّاً خليفة الرسول الكريم ﷺ الذي وصفه خالقُه في محكم تنزيله بأنّه على خُلُقٍ عظيم

ثمّ كيف يمكن لأيّ عقلٍ سليمٍ أن يقبل فكرة أن كلّ المسلمين قد قَبِلوا ذاك الذي فيه حدّة طبع، لدرجة تشبيهها بِمَسٍّ من الشيطان، وتفضيلهم إيّاه على ذاك الإمام الذي هو أحد الأقطاب الهامّة في الآية القرآنية الكريمة التي تؤكّد على أنّه عليه السلام أحد الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا؟!

إنّها أسئلةٌ طبيعيةٌ ومنطقيّةٌ يمكن أن تقتحم أذهان الكثير من أولئك الذين يريدون أن يقرأوا ماضيهم ويتفهّموه بروحٍ موضوعيّة وحياديّة، بل وأن يتعرّفوا أيضاً على شيءٍ من الأسباب المباشرة للمأساة التي يعيشها الإسلام المعاصر بعد أن تمّ تفريغه من محتواه الروحيّ وتشويه رسالته الإنسانيّة بعد أعوامٍ قليلةٍ من ولادته.

وعلى كلّ حالٍ، فإنّ هناك الكثير من المفكّرين المعاصرين يعتقدون أنّ مسألة تحوّل الإسلام من إسلام الرسالة الإنسانيّة والكلمة الطيّبة إلى إسلام الدّماء المسفوحة والكرامة المهدورة قد بدأت فعليّاً يوم السقيفة، وما تلك الحوادث الدمائيّة المفجعة التي شهدتها السّاحة الإسلاميّة لاحقاً إلا الثمرة الطبيعية الناضجة للغرسة الأولى التي غرسها بعض (الصحابة) في تربة السقيفة إثر وفاة الرسول الكريم ﷺ بساعاتٍ قليلةٍ.

وهنا يمكننا الوقوف مع واحدٍ من أبرز الكتّاب الإسلاميين المعاصرين في مصر، إنّه المفكّر الإسلاميّ المصريّ (خليل عبد الكريم) صاحب المؤلّفات الإسلاميّة المتعدّدة والتي حاول من خلالها أن يقيّم الأحداث الإسلاميّة الأولى التي قام بها الصحابة، لكنّه لم يفلح في تقييمه لها حيث كان من المفترض لذلك التقييم أن يكون

منطقيّاً وموضوعيّاً تماماً، لا أن يكون التقييم تقييماً استثنائياً يجعل من بعض الصحابة أشخاصاً فوق مستوى التقييم وفوق كلّ الاعتبارات والموازين.

ولكنْ، وبالرغم من كلّ ذلك كلّه، يرى الأستاذ (عبد الكريم) أنّ سياسة قتل المعارضين بالسيف والنّار التي نراها على السّاحة الإسلاميّة في عصرنا الحاضر إنّما هي سياسةٌ تعود في أصولها وجذورها إلى سنّة عمر ابن الخطاب، تلك السنّة التي لا يزال يدفع المسلمون ضريبتها منذ ذلك الوقت وحتّى اليوم(١).

ولم يكتفِ الأستاذ (عبد الكريم) بذكر تجاوزات عمر بن الخطاب للأحكام القرآنية وللسنّة النبويّة بشأن التكفير والقتل وتعطيل بعض الحدود في كتابه (قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية)، بل إنه عاد وذكر العديد من تلك التجاوزات الخطيرة في أماكن عديدة في كتابه الأكثر شهرة (شَدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة)، حتّى أنّه تطرّق في الجزء الثاني من هذا الكتاب إلى حادثة السقيفة وإلى حقيقة أنّ عمر بن الخطاب لجأ في حواره مع المعارضة إلى أسلوب القمع والإرهاب بدلاً من الحوار والإقناع لدرجة أنّه أمر بتصفية سعد بن عبادة جسديّاً حيث قال صائحاً: (اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً)(٢)، وهو أسلوبٌ ترفضه شريعة محمد ﷺ جملةً وتفصيلاً.

والحقُّ يقال: فإنّ رأي المفكّر الإسلاميّ المعاصر (أحمد عباس صالح)، وهو أيضاً مفكّر سنّي، لا يختلف كثيراً عن موقف الأستاذ المفكّر (خليل عبد الكريم) من حيث تقييم واقعة السقيفة وتداعياتها الاجتماعية والسياسية على أمّة المسلمين.

(١) خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزيّة، سينا للنشر . القاهرة، ١٩٩٣، ص١٠.

(٢) خليل عبد الكريم، شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة (السفر الثاني)، سينا للنشر . القاهرة، ط١/ ١٩٩٧، ص٨٥.

يرى الأستاذ (صالح) في كتابه (اليمين واليسار في الإسلام) أنّ الإمام عليّاً عليه السلام هو، في الحقيقة، صورة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله الصادقة التي تعكس جميع فضائله الحميدة وكلّ خصاله الجليلة، وهو الرأس الأساسيّ الذي يمثّل اليسار الثوريّ في الإسلام بعد الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله، ويؤكّد الأستاذ (صالح) أيضاً على أنّ الإمام عليّاً عليه السلام وصحبه كانوا إلى جوار النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله يبكونه ويعدّون العدّة لدفنه بالطريقة اللائقة به، في حين اندفع عمر بأبي بكر - وجثّة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لم تبرد بعد - إلى السقيفة لِيَبُتُّوا في مسألة من سيخلف الرسول صلى الله عليه وآله[1].

ولا يرى الأستاذ (صالح) أيّ حرجٍ في القول إنّ حزب اليمين من المسلمين، ذلك الحزب الذي يضمّ الأرستقراطيين، وأصحاب الجاه الماديّ، وذوي النزعات الاستغلاليّة، وأهل المآرب الشخصيّة والمصالح الخاصّة كانوا من مؤيّدي بيعة أبي بكر التي دفعه إليها صاحبه عمر بن الخطاب، بينما كانت غالبيّة المسلمين مع الاتجاه اليساريّ الذي يمثّله علي وأصحابه، وأضاف الأستاذ (صالح) مُعلّلاً ذلك بقوله: (إنّ جماهير المسلمين العريضة كانت مع هذا الاتجاه (أي مع علي عليه السلام) لأنّ النبيّ نفسه كان زعيمه وواضع مبادئه الأساسيّة، وأيّ اتجاهٍ مضادّ كان سيُقابل بالعنف، وكان سيقضي عليه في المهد.

ولذلك جاءت خلافة أبي بكر فرصةً ليستجمع فيها اليمين قواه ويرتّب للوثوب على الحكم بعد أن قضى النبيّ الذي لم يجرؤ أحدٌ في حياته أن ينحرف بالدعوة إلى اتجاهٍ غير اتجاهها)[2].

---

(١) أحمد عباس صالح، اليمين واليسار في الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت، ط٢/ ١٩٧٣، ص٥٨.

(٢) نفس المصدر السابق ص٥٩.

وغنيٌّ عن الاستفاضة في الشرح والتوضيح، إنّ معنى كلام الأستاذ (صالح) هو أنّ الطريقة التي جاء بها أبو بكر إلى الحكم هي الطريقة التي مهّدت للآخرين سُبُلَ الالتفاف والانقضاض على الإسلام الذي نادى به النبيّ ﷺ وآزرهُ عليه عليّ عليه السلام.

ويمكننا القول إنّ أوضح وأقوى عبارةٍ قالها الأستاذ (صالح) حول هذه المسألة هو أنّ اليمين لم يكن هو الوحيد الذي يخشى اليسار الذي يمثّله الإمام علي عليه السلام الخليفة الحقيقيّ للرسول ﷺ، بل إنّ عمر وأبا بكر (جماعة الوسط) أيضاً كانوا يخافون من الإمام علي عليه السلام، الممثّل الفعليّ للتعاليم التي جاء بها الرسول محمد ﷺ، ولذلك (حين حضرت الوفاة أبا بكر الصديق كان أهمّ ما حرص عليه هو أن تتمّ البيعة لعمر بن الخطاب، وكانت وصايته للجميع بذلك)[1] بهدف منع الإمام علي عليه السلام من استلام زمام الخلافة وعدم السماح له بتطبيق ما أراد محمد ﷺ القيام به بين المسلمين.

وأنا شخصيّاً أعتبر أنّ كلّ ما قاله أولئك المفكّرون الذين أسلفنا ذكرهم حول مأساة السقيفة مجرّد قبسٍ من نور الحقيقة قياساً بما قاله المفكّر المصريّ الكبير (عبد الفتاح عبد المقصود)، ذلك المفكّر المبدع الذي رفض أن يكتفي بأخذ مجرّد قبسٍ بسيطٍ من وهج الحقيقة، بل أراد أن يأخذ الحقيقة كلّها كما هي في بطون كتب التاريخ والسِّيَر، نعم، لقد أراد الأستاذ (عبد المقصود) أن يقدّم الحقيقة للقارئ بكلّ أبعادها وتَبِعاتها، بكلّ حلاوتها ومرارتها، ولكن ليس بأسلوب تاريخيٍّ جامد لا يعرف المرونة، بل بأسلوبٍ حيويّ مثيرٍ، وهو أقرب للأدب منه للتاريخ وإنْ كان التاريخ هو مادّته الأساسيّة والجوهريّة.

(١) نفس المصدر السابق ص٦٠.

ويكفي أن نقول إنّ كتاب الأستاذ (عبد الفتاح عبد المقصود)، وهو كتابه الأكثر شهرةً بين جميع مؤلّفاته، والذي يحمل عنوان (الإمام علي بن أبي طالب)، يُعدُّ مفخرةً فكريّةً حقيقيّةً لذلك المؤلّف السنّي الكبير.

وغنيٌّ عن الإسهاب في القول إنّ ذلك الكاتب المتميّز قد وضع خلاصة فكره عن حقيقة أهل البيت عليهم السلام في ذلك الكتاب المذكور والذي يتكوّن من تسعة أجزاءٍ غايةً في الترابط والتكامل، ولا يكاد القارئ يمسك بالجزء الأوّل ويبدأ بقراءته حتّى يشعر برغبةٍ عارمةٍ تدفعه قُدُماً لقراءة بقيّة الأجزاء جزءاً تلو الآخر دون الشعور بالتعب أو المَلل.

ولا ريب في أنّ مسألة السقيفة قد شغلت حيّزاً لا بأس به من الكتاب المذكور، وقد حاول الأستاذ (عبد المقصود) أن يكون منطقيّاً وموضوعيّاً قدر الإمكان في حديثه عن تلك الواقعة الأليمة.

ونستطيع القول أنّه كان مقبولاً جدّاً في موضوعيّته وفي كيفيّة عرضه وتقييمه لتلك الحادثة وللأحداث المأساويّة الأخرى التي جاءت لاحقاً بمثابة النتائج الطبيعيّة لها.

وممّا يلفت النظر حقّاً، هو أنّ الأستاذ (عبد المقصود) قد أعطى الصديقة البتول فاطمة الزهراء عليها السلام دوراً عظيماً في مسألة الدّفاع عن مبدأ الخلافة أو الإمامة التي أرادها الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين علي عليه السلام دون غيره من بقيّة الأصحاب.

وبالنسبة لمن يعرف السيّدة الزهراء فاطمة عليها السلام جيّداً، لن يكون مستغرباً من الوصف الذي صوّرها به الأستاذ (عبد المقصود) وهي تدافع عن وصيّة أبيها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وعن حقّ زوجها المرتضى عليه السلام، وبالفعل، فقد أجاد الأستاذ (عبد

المقصود) عندما أتى على وصف جزءٍ من شخصيّتها الكاملة المتكاملة بقوله في الجزء الأوّل من كتابه واصفاً إيّاها عليها السلام وهي تدافع عن كلمة الحقّ الجريحة بعد أحداث السقيفة: (لعبت فاطمة دورها وهي شديدة الإيمان بأنّه لِزامٌ عليها أن تفعل، وأنْ تدعو، وأنْ تكافح غير وانيةٍ، ووقفت إلى جوار زوجها المظلوم تنضح عنه باللسان وليس لها عدّةٌ سواه... فكأنّها بفعلها ارتدّت (خديجةً أخرى)، لا يقعدها خذلان القوم زوجها عن الكفاح، بل راحت ترسم نفسها بلون الماضي لتبدو صورة بارزة الظلال والأضواء، واضحة المعالم، نابضةً بالحياة، عاشت فيها الأمّ في الفتاة)[1].

نعم، إنّ هذا الكلام صحيحٌ كلّه بلا أدنى ريب، بل يمكننا القول إنّه عين الحقيقة، ففاطمة الزهراء عليها السلام هي حقّاً خديجة الكبرى (عليها سلام الله) قلباً وقولاً، فكراً وعملاً، بل كيف لا تكون فاطمة صورة عن أمّها خديجة عليها السلام إذا كانت هي ذاتها عليها السلام صورةً عن أبيها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ؟!

فعندما تكون فاطمة عليها السلام هي ـ كما وصفها أبوها صلى الله عليه وآله وسلم ـ (أمّ أبيها)، فكيف لا تعيش الأمّ في جوهر الفتاة أيضاً؟!

وعلى كلّ حالٍ، إنّ موقف السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام من أحداث السقيفة التي قادت لاحقاً إلى حدوث الكثير من التجاوزات والاعتداءات السافرة على نصوص القرآن الكريم، وإلى حدوث الكثير من الاقتتالات والمجازر بين المسلمين، ولعلّ أشهرها وأكثرها عنفاً ودمويّةً مجزرة كربلاء التي تمّ فيها اقتلاع ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) عبد الفتاح عبد المقصود، الإمام علي بن أبي طالب، مكتبة العرفان . بيروت، د.ت ج١ ص١٨١.

وإلقائه عطشاناً ومرمّلاً بدمائه الطاهرة فوق رمال كربلاء، إنّ موقفها عليها السلام من أحداث السقيفة، ومعرفتها اليقينيّة بما ستؤول إليه الأحوال بعد أن نكث الكثير من المسلمين ببيعتهم لزوجها عليّ عليه السلام، لَهو موقف يستحقّ التوقّف عنده طويلاً، ولكن لن نقوم الآن بذلك لأنّ ذلك سيجعلنا ـ بلا ريب ـ في موقف الخروج عن جوهر كتابنا الأساسيّ المتمحور حول أحداث كربلاء وتداعياتها على المستويين الإسلاميّ والإنسانيّ.

ولكنّ ذلك لا يمنعنا من القول إنّ الأستاذ (عبد المقصود) لم يُخْفِ وجهة نظره الخاصّة عن القارئ عندما اعتبر أنّ ما حدث في السقيفة هو عبارةٌ عن حركةٍ سياسيةٍ انتهازيةٍ أخجلت كلّ المسلمين الذين تجاهلوا بيعة علي عليه السلام وحقيقة مكانته في سِفْرِ الرسالة الإسلاميّة إلى جانب ابن عمّه الرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أبرز الأستاذ (عبد المقصود) هذه الحقائق عندما ذكر الحوار الهامّ جداً الذي دار بين السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وبين المسلمين الذين أَسِفوا وأبدوا ندمهم على ما كان منهم من تفريطٍ واضحٍ بحقِّ الإمام علي عليه السلام.

فعندما سألتْهم عليها السلام عن تفريطهم بحقّ الإمام الوصيّ عليه السلام، كانوا يجيبونها خافضي الرؤوس، كاسفين:

(يا بنت رسول الله... قد مضت بيعتنا للرجل).

وتجيبهم هي مستنكرةً فعلتهم وتناسيهم لحقّه في الولاية:

«أَفَتَدعون تراثَ رسول الله يخرج من داره إلى غير داره؟!».

فلا يجدون لهذا الاستنكار ردّاً سوى الأسف على ما سلف منهم، والاعتذار عنه:

(يا بنت رسول الله... لو أنّ زوجك سبق إلينا قبل أبي بكر لَمَا عدلنا به).

فيقول علي عليه السلام:

«أفكنتُ أدع رسول الله في بيته لم أدفنه، ثمّ أخرج أنازع النّاس سلطانه؟!».

وهنا تحديداً، يعلّق الأستاذ (عبد المقصود) على هذا الحوار وعلى ما قاله الإمام علي عليه السلام بقوله:

(ولكنّها (أي مقولة علي عليه السلام السابقة) حجّةٌ لا تغني في حساب السياسة النهازة (الانتهازيّة) العادية وإنْ أغنت في حساب الأخلاق القويمة الصافية....

وإنّ فاطمة لَتُعبّر عن هذا في أوجز بيان فتجيب القوم وهي تنهض عنهم نافضةً يدها من تأييدهم المأمول:

«ما صنع والله أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له... وقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه»[1].

إذنْ، ما حدث في السقيفة ما هو في حقيقته ـ كما عبّر عنه الأستاذ (عبد المقصود) ـ إلا عملية سياسية انتهازيّة جائرة لا يمكن للإمام علي عليه السلام أن يهبط إلى مستوى من خطّط لها ونفّذها وجنى ثمارها ضارباً بمصلحة المسلمين وبوصايا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم عرض الحائط.

أمّا ما يتعلّق باغتيال سعد بن عبادة، فقد سخر الأستاذ (عبد المقصود) من أولئك البسطاء الذين يصدّقون إشاعة أنّ الجنّ قد قتلته ليلاً، بل رجّح الأستاذ (عبد المقصود) فكرة أنّ الذي قَتَل سعد بن عبادة، المعارض البارز لخلافة أبي بكر، هو خالد بن الوليد.

وكانت حجّة الأستاذ (عبد المقصود) على ذلك هي عدم القدرة، بالفعل، على تبرئة خالد بن الوليد من أعمال كهذه، وذلك لأنّ تاريخه الأسود السابق يشهد عليه

(١) نفس المصدر السابق ج١ ص١٨٢.

بذلك، وبأنّه (لم يكن بالنقيّ الصفحة كلّ النقاء من العدوان)[١]، مع الأخذ بعين الاعتبار أيضاً أنّ خالداً كانت له أهدافه الخاصّة، وكان من المقرّبين من أبي بكر في الوقت الذي كان فيه معادياً لكلّ من يأبى مبايعته خليفةً على المسلمين.

ولا يمكنني هنا أن أتجاهل أو أتجاوز ما جاء في كتاب (تاريخ الإسلام) للدكتور (حسن إبراهيم حسن) بشأن تلك البيعة السقيمة والتي حاول الدكتور (حسن) أن يدافع عنها ويبرّر حدوثها بشتّى السبل والوسائل المنطقيّة وغير المنطقيّة.

وعلى الرغم من دفاعه المستميت عن تلك البيعة الباطلة، إلا أنّه لم يجد بدّاً من الاعتراف بعدم كمالها ونضوجها، وهذا ما يعني عدم صحّتها، وذلك عندما قال صاغراً: (وتُسمّى بيعة السقيفة بالبيعة الخاصّة لأنّه لم يبايعها إلا نفرٌ قليلٌ من المسلمين هم الذين حضروا السقيفة)[٢].

وهذا ما يؤكّد كذب زعم أولئك النّفر من الكتّاب والمؤلّفين الذين يزعمون أنّ كلّ المسلمين قد أجمعوا وقتها على بيعة أبي بكر خليفةً عليهم قبل أن ينفضّ المجلس، وأنّ أمرهم كان شورى بينهم جميعاً.

فقد تمّ تفريغ مبدأ الشورى من محتواه الأساسيّ تماماً، وحوّلوه إلى لعبةٍ سياسيةٍ، وإلى واجهةٍ عريضةٍ تخفي وراءها الكثير من المصالح الخاصّة والمنافع الشخصيّة المتبادلة.

ولعلّ الباحث والصحافي (نبيل فياض) هو واحدٌ من أكثر الباحثين جرأةً وإقداماً على طرح مسألة السقيفة وعلى ما خلّفته من آثارٍ سلبيّةٍ كثيرةٍ على عموم الأمّة

(١) نفس المصدر السابق ج١ ص١٥٣.
(٢) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط٧/١٩٦٤، ج١ ص٢٠٥.

الإسلاميّة.

ويكفي أن نقول إنّ الأستاذ (فياض) يعتبر أنّ سقوط العرب والمسلمين من التاريخ، بل خروجهم الخالي منه، إنّما هو النتيجة الحتميّة لما حدث بدايةً في السقيفة من صراعٍ واقتتالٍ، ذلك الاقتتال الذي انتهى بتنصيب أبي بكر زعيماً على جثّة سعد بن عبادة وعلى اغتيال حقوق أهل البيت عليهم السلام، هذا بالإضافة إلى المحاولة الجادّة من قِبلِ عمر وأبي بكر وخالد بن الوليد لِأخذ البيعة من الإمام علي عليه السلام بالقوّة والترهيب ولو أدّى الأمر إلى قتله وقتل زوجته فاطمة الزهراء عليها السلام وإحراق البيت على مَن فيهِ[1].

فالممارسات الخاطئة والمؤسفة التي قام بها كبار الصحابة، والتي ذكر الأستاذ (فياض) معظَمها في كتابه (يوم انحدر الجمل من السقيفة)، هي حقّاً المفتاح المناسب لعمليّة إخراجنا الراهن من التاريخ والعيش على هامشه روحيّاً وفكريّاً.

فما معنى أن تصدر الأوامر بإحراق بيت النبوّة على مَن فيه؟!

أليست تلك محاولةً جديّةً لإطفاء نور الله؟!

أليس هذا العمل المؤلم، بالإضافة إلى بقيّة الأعمال والتجاوزات الأخرى الواضحة التي قام بها الصحابة الأوائل ومن حذا حذوهم لاحقاً ممّن تسمّوا بالخلفاء، هي أحدُ أهمّ المبرّرات الرئيسيّة التي اتّخذها يزيد بن معاوية (لع) درعاً وستاراً له في عمليّة إبادة أهل بيت النبوّة والتخلّص منهم نهائيّاً وعلى رأسهم سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وريحانته، وأحد سيّدي شباب أهل الجنّة، سيّد الشهداء، الإمام الحسين عليه السلام؟!

ألا يحقّ للقارئ أو للباحث الحيادي، وبشكلٍ خاصٍّ من غير المسلمين، أنْ يرى في شخص يزيد بن معاوية (لع) التلميذ النجيب الذي تتلمذ فكراً وممارسةً على أيدي

---

(١) نبيل فياض، يوم انحدر الجمل من السقيفة، منشورات، EXACT ليماسول، ص٣٤.

من سبقه من (أولي الأمر) من المسلمين؟

ألا يحقّ لكلّ ذي بصيرةٍ أن يرى في ما قام به يزيد اللعين بحقّ الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء هو الامتداد الطبيعيّ لِما قام به الأوائل في مأساة السقيفة؟!

وعلى كلّ حالٍ، فإنّ إدراك حجم الكارثة التي لحقت بالإسلام والمسلمين من جرّاء ما حدث في السقيفة ليس حكراً على الباحثين والمفكّرين المسلمين، بل إنّ ذلك الإدراك قد تعدّاهم إلى غيرهم من المسيحيين أيضاً في الشرق والغرب.

وعلى سبيل المثال، لا الحصر، يرى المفكّر اللبناني المسيحيّ (نصري سلهب) في كتابه (في خُطى علي) أنّ المسلمين قد دفعوا، ولا يزالون يدفعون ثمن خطئهم نتيجة انحرافهم عن وصايا رسولهم صلى الله عليه وآله بشأن ولاية الإمام علي عليه السلام عليهم.

واعتبر الأستاذ (سلهب) أنّ ما قام به الشيخان في السقيفة خطأ عظيم وجسيم، وإنّ ما قاما به سويّةً ما هو إلا عصيانٌ واضحٌ لأوامر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله الذي لم يحترما وصيّته في حياته ولا بعد مماته[1].

وبما أنّ كتاب ذلك المفكّر المسيحيّ عن الإمام علي عليه السلام وسيرة حياته، فمن الطبيعي أن لا يذكر الأحداث الدامية والفجائع المريرة التي حدثت بعده، ولاسيّما ما حدث لابنه الإمام الحسين عليه السلام على رمال كربلاء، ولكنَّ الأستاذ (سلهب) تحدّث عن مأساةٍ أخرى لا تقلّ أهميةً ـ بنظره ـ عن بقيّة الكوارث التي جاءت لاحقاً بعد رحيل الإمام علي عليه السلام.

فالحادثة التي رأى فيها الأستاذ (سلهب) الاستمرار المدروس لِما وقع في السقيفة، والتي نراها نحن فاجعةً حقيقيّةً لا تقلّ مكانةً وأهميّةً عن ما حَدثَ في كربلاء،

(١) نصري سلهب، في خطى عليّ عليه السلام، دار الكتاب اللبناني. بيروت، ١٩٧٣، ص٩٢.

هي تلك المحاولة الجادّة من قِبَل بعض صحابة الرسول ﷺ لإحراق بيت النبوّة، بيت علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وإجبار الإمام علي عليه السلام على التنازل عن حقّه ومبايعة أبي بكر خليفةً على المسلمين.

وقد أكّد الأستاذ (سلهب) على ذلك بقوله: (ولقد بلغ بهما ـ أي بعمرو وأبي بكر ـ الخطأ حدّاً جعلهما يلجآن إلى العنف والتهديد ليحملا عليّاً على مبايعة أبي بكر، ولقد اقتحم عمر، برفقة بعض أنصاره، منزل ربيب الرسول وهدّده بالقتل وبحرق المنزل، إنْ هو لم يبايع)[1].

وهذا، من حقّ الأستاذ (سلهب) أنْ يتساءل هو وغيره من الباحثين والمفكّرين بل وحتّى من القُرّاء أيضاً:

أليسَ الشروع في إحراق بيت الرسول ﷺ بمن فيه من آله عليهم السلام، الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله الكريم بأنّهم مطهّرون من كلّ رجسٍ، بمثابة وبمكانة الشروع بقتل الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء؟!

أليست النيّة الدفينة والمُبيّتة لإحراق البيت الشريف الذي يضمّ عليّاً وفاطمة والحسنين عليهم السلام، أولئك الذين بَاهلَ الرسول الكريم ﷺ بهم أهل نجران، أو كادَ أن يباهل بهم، أليست النيّة لإحراقهم تعادل نيّة يزيد اللعين في اجتثاث جذور ريحانة الرسول الكريم ﷺ وإطفاء نور الله؟!

من حقّنا، ومن حقّ الجميع أيضاً، أن يتساءلوا وأن يجيبوا على تلك الأسئلة بالطريقة التي يرونها منطقيّة وموضوعيّةً وبعيدةً عن روح العصبيّة والمذهبيّة.

ولا ريب في أنّ كلّ من سيجيب على هذه الأسئلة وعلى غيرها من بقيّة

(١) نفس المصدر السابق ص١٠٠.

التساؤلات والاستفسارات بالطريقة المنطقية والموضوعية المطلوبة، سيجد نفسه، وبشكلٍ تلقائي، يقف في صفّ الإمام علي عليه السلام وابنه الإمام الحسين عليه السلام، ذلك الصفّ الذي يمثّل دائماً وأبداً صرخةَ المظلوم الثائر في وجه الظالم، وصوتَ الحقّ الهادر في الضمير النائم.

وبهذا، يكون التشيّع، كما يقول عنه الأديب والمفكّر المسيحيّ (جورج جرداق)، هو (مَوئلٌ يلوذ به كلّ مضطهدٍ ومحرومٍ، وينضوي تحت لوائه كلُّ ثائرٍ في سبيل الحقّ المهدور)[1].

وغنيٌّ عن القول إنّ رأي الأستاذ (نصري سلهب) والأستاذ (جورج جرداق) هما رأيان ومثالان من عشرات الأمثلة لآراء ووجهات نظر الأدباء والمفكّرين المسيحيين الذين أدركوا بعقولهم المنفتحة المستنيرة، مثلما أدرك الكثيرُ من المستنيرين السنّة أيضاً، أنّ يوم السقيفة هو اليوم الذي غُرست فيه شُجيرة الفتنة لتتحوّل بعد ذلك إلى شجرةٍ كبيرةٍ تمدّ أغصانها وفروعها الأخطبوطيّة في كلّ مكان ولتحمل، لاحقاً، عن جدارة بِذرةً مخيفةً كان قد تنبّأ بمستقبلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، سابقاً قبل رحيله، إنّها الشجرة الأمويّة التي سَتُلقي بظلالها الكثيفة الخانقة على نفوس المسلمين.

وبطبيعة الحال، لا يمكننا أن نغفل موقف الأديب والشاعر المسيحيّ (بولس سلامة) من السقيفة وأهوالها، إنّه اجتماع السقيفة الذي أثار كوامن النّفوس وأظهرها على حقيقتها، وأظهر موقعها الحقيقيّ من الإيمان بوصايا محمد، الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) جورج جرداق، الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة، منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت، ١٩٧٠، ج٥ ص١٨٦.

وها هو يعطينا وجهة نظره تجاه تلك المأساة المؤسفة، والتي أدّت لاحقاً إلى حدوث سلسلةٍ متواليةٍ من المآسي الأخرى، وعلى رأسها مأساة الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته الكرام البررة على شاطئ الفرات الحزين.

فلنستمع إليه، إذن، وهو يقول:

وتَوالتْ تحت السقيفة أحداث أثارت كوامناً وميولا
وانجلتْ عن ضياع حقِّ وليٍّ كان إلا عن حزنه مشغولا
وتوالت مبايعاتٌ ثلاثٌ طمستْ نور حقّه المأمولا
أوّل النّاس رتبةً وولاءً كان أحرى بالطيّبات الأولى[1]

هذه هي، باختصارٍ شديدٍ، وجهة نظر الأديب الشاعر (بولس سلامة) تجاه أحداث السقيفة، تلك السقيفة التي أثارت ـ كما يقول الأستاذ (سلامة) ـ الكوامن والميول الخفيّة، والتي تعود بجذورها إلى عصر الجاهليّة، فكشفَتها على حقيقتها وأخرجتها من تحت الرماد جمراتٍ متّقدةٍ تحرق صحائفَ الحاضر وآمال المستقبل.

وليس هذا الرأي هو رأي الأديب المسيحيّ (بولس سلامة) فقط، بل هو رأي الكثير من المفكّرين والأدباء المسيحيين أيضاً.

فالمفكّر السياسيّ والأديب (عبد المسيح الإنطاكي) أدلى بِدلوِه أيضاً في مسألة الكارثة، بل الكوارث، التي حلّت بالمسلمين نتيجة مخالفة وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله وتجاوزها كُليّاً والوصول معها إلى ضرب عرض الحائط بها وذلك من خلال اجتماع الشورى المزعوم يوم السقيفة المشؤوم.

ويمكننا أن نوجز موقف الأديب (الإنطاكي) بشأن تلك المسألة من خلال

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق ص١١٨.

الاستشهاد المباشر بقوله الواضح والصريح في كتابه (ملحمة الإمام علي عليه السلام):

(وظلّ النّاس يلغطون ببيعة أبي بكر وينتقدونها سرّاً وجهراً حتّى اضطرّ عمر أن يصعد المنبر في مسجد المدينة ويقول: (فلا يغرّنَّ امرأً أن يقول إنّ بيعة أبي بكر كانت فَلتةً، فلقد كانت كذلك ولكنّ الله وقى شرّها)، وكان قد سبق له أن قال على إثر بيعة أبي بكر (إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتةً وقى الله شرّها فمن عاد إلى مثلها قاتلوه)، وذاع هذا القول عنه وتداوله النّاس وفي قوله هذا كفايةٌ لقوم ينصفون)[1].

وهنا، نرى من الحقّ لكلّ واحدٍ منّا أن يعلّق على قول عمر بن الخطاب متسائلاً:

إذا كان أبو بكر هو الخليفة حقّاً، فمن الذي أعطاك الحقّ في أن تسنّ شريعة القتل لكلّ من يكرّر تلك البيعة (الفلتة)؟!

وإذا كنتَ ـ والسؤال موجّهٌ إلى (الخليفة) الثاني ـ مصمّماً على قولك (فَمن عاد إلى مثلها قاتِلوه)، فما قولك بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي تتداوله كتب السنّة، والذي يقول صلى الله عليه وآله فيه عن كلّ من تسوّل له نفسه أن يغتصب الخلافة من الإمام علي عليه السلام:

«من ناصبَ عليّاً الخلافة بعدي فهو كافرٌ، وقد حارب الله ورسوله، ومن شكّ في عليّ فهو كافرٌ»؟![2]

وقوله صلى الله عليه وآله أيضاً: «مَن قاتل عليّاً على الخلافة فاقتلوه كائناً مَن كان»؟![3]

ومن هنا تبرز القيمة الحقيقيّة للسّؤال الذي يمكن أن يطرحه صاحبُ كلّ عقلٍ

---

(١) عبد المسيح الإنطاكي، ملحمة الإمام علي عليه السلام، مصدر سابق ص٢٣٩.

(٢) الحافظ الخطيب ابن المغازلي الشافعي، مناقب عليّ بن أبي طالب عليه السلام، مصدر سابق ص٤٦.

(٣) الحافظ الفقيه زين الدين المناوي الشافعي، كنوز الحقائق، مصدر سابق ص١٥٠.

منفتحٍ على شمس الحقيقة:

إذا كان الأمر كذلك، وبناءً على ما قاله الرسول الكريم ﷺ وأوصى به في الحديثَين السابقين، فَمن هو، إذنْ، الذي يجب أنْ يُعيد حساباته بشأن قَتْلِ مَن يكرّر عمل تلك (الفَلتة)؟!

إنّ هذا السؤال، كما أعتقد أنا شخصياً، يمكن أن يقرع أبواب فكر الكثير من الباحثين والمثقّفين المسلمين وغير المسلمين في محاولة جادّة للوقوف على الجواب الشافي والذي يبدو بالفعل ليس بالأمر الغامض أو العسير.

وعلى كلّ حالٍ، وكما عوّدنا قُرّاءنا الكرام في كُتبنا السابقة، فإنّنا لن نتفوّه بجوابنا الخاصّ على السؤال السابق المطروح، بل سنترك الجوابَ حقّاً محفوظاً ومَصوناً لكلّ قارئٍ وباحثٍ، غير أنّ كلّ ما يمكن أن نقوله الآن بهذا الصّدد هو قول الفيلسوف العظيم (أفلوطين): (مَن يملك القدرة على رؤية الحقيقة فإنّه لا يتّجه إلى ظلّها أبداً).

ولو تركنا الآن جانباً كلّ ما قاله المفكّرون والباحثون المسيحيّون في الشرق عن تداعيات بيعة السقيفة وكيف أنّها قادت، لاحقاً، المسلمين إلى الدّخول في متاهات الصراع الدّموي والنزاع الأيديولوجي القائم عند بعض الأطراف، وهي في الغالب الأطراف السلطويّة، على تحقيق هويّتها الفكريّة ومآربها النفعيّة من خلال التخلّص من كلّ الخصوم عن طريق اللجوء العَلَنيّ إلى سياسة سفك الدّماء وكَمِّ الأفواه وشراء بعض الضمائر الضعيفة، فلو تركنا هذا جانباً واتّجهنا إلى الغرب، إلى العالم المعروف باسم الاستشراق، لنرى ونتعرّف على بعض وجهات النظر الغربيّة الاستشراقيّة، فماذا يمكننا أن نقرأ عن محور بحثنا الآن؟

في الواقع، يمكننا أن نقرأ الكثير من الأشياء، ولكنْ ضيق المساحة المخصصّة

لهذه المسألة لا يسمح لنا بالمُضيّ قُدُماً في عمليّة إيراد كلّ ما قيل من قِبَلِ كلّ المستشرقين عن تلك النقطة الحسّاسة والتي يعتبرها الكثيرون أنّها النقطة التي حَرَفَتْ رسالة المسلمين مئة وثمانين درجة عن اتجاهها الصحيح الذي كان يريده الرسول المصطفى ﷺ.

وعلى سبيل المثال، تحدّث المستشرق الدكتور (دوايت رونلدسن)، وهو مستشرق يحمل شهادة دكتوراه في اللاهوت وشهادة دكتوراه أخرى في الفلسفة، وقد زار الكثير من البلدان الإسلاميّة وعلى رأسها العراق وإيران حتّى أنّه بقي في إيران ما يقارب ست عشرة سنة درس فيها العديد من الأديان والمذاهب والعادات والتقاليد، إذنْ، فقد تحدّث هذا المستشرق عن أحداث إسلاميّة على غايةٍ من الأهميّة والخطورة، وكان من جملة ما تحدّث عنه (رونلدسن) قضيّة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء.

ومبادئ أهل البيت عليهم السلام وعلاقتهم الروحيّة بجوهر الرسالة الإسلاميّة، وتحدّث أيضاً عن مساوئ الحكّام الأمويين الذين اتّخذوا من الدّين سلعة وستاراً لإخفاء عدائهم الباطنيّ لمحمد ولأهل بيته الكرام عليهم السلام من جهة، ولإشباع ميولهم وشهواتهم وتحقيق مطامعهم الدّونيّة والدنيويّة من جهةٍ أخرى.

ولكنْ ما يهمّنا في هذا الفصل هو حديثه عن مسألة السقيفة وآثارها العميقة الممتدّة على طول التاريخ الإسلاميّ التي تلاها.

يرى (رونلدسن) أنّ مسألة السقيفة والنزاع الدمويّ الذي حدث فيها يعود إلى أسباب سابقة تتزامن مع اللحظات الأخيرة من حياة الرسول الكريم محمد ﷺ.

فالرسول الكريم ﷺ أوصى، في أكثر من مناسبة، بالخلافة من بعده الإمام علي

عليه السلام، ولكنْ كلّ تلك الوصايا كانت عبارةً عن وصايا شفهيّة يمكن أن ينساها النّاس بعد فترةٍ من الزمان، أو حتّى يمكن أن ينكروها وأن يتلاعبوا بمضمونها بحيث يحرّفوه عن معناه الأصليّ، ولذلك كان لابدّ من تتويج تلك الوصايا أو البيعات الشفهيّة ببيعة كتابيّة لا يمكن لأحد أن يتلاعب بها أو أن يتنكّر لها، ومن هنا جاءت إرادة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بتدوين تلك الوصيّة قبيل رحيله بلحظات قليلة.

ومن هنا، فإنّ استشهاد المستشرق (رونلدسن) بما جاء في صحيح مسلم وصحيح البخاري لم يأتِ عن عبث، خاصةً وأنّ المسألة تتعلّق بإرادة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله حول تدوين وصيّته الأخيرة التي لن يضلّ المسلمون من بعدها أبداً.

أمّا نصّ الحديث الهامّ الذي نقله (رونلدسن) عن صَحيحيّ مسلم والبخاري فهو أنّ الرسول صلى الله عليه وآله لمّا دَنَتْ وفاته كان عنده في البيت عدّة رجال بينهم عمر بن الخطاب، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «ايتوني بدواةٍ وصحيفةٍ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً»، فقال عمر: (إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله)[1].

وبعد أن يورد (رونلدسن) هذا الحديث المعبّر صراحةً عن رغبة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في أن يكتب وصيّته الأخيرة وهو على فراش الموت، وهي الوصيّة التي لن تجعل المسلمين بعدها يقتتلون أو يضلّون أبداً، وبعد أن يورد أيضاً ردّ عمر بن الخطاب على رغبة الرسول صلى الله عليه وآله بمعارضته الواضحة لكتابة تلك الوصيّة التي لن يضلّ المسلمون لو تمسّكوا بها، بل وبالإيحاء لمن هم حوله بأنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قد بدأ يهذي بالفعل لأنّ الوجع قد غلبه، وبالتالي فليس هناكَ أدنى ضرورة أو حتّى

(١) دوايت رونلدسن، عقيدة الشيعة، ترجمة: عبد المطلب الأمين، مؤسسة المفيد . بيروت، ط١/ ١٩٩٠، ص٢٨.

أهميّة للاستجابة لرغبة الرسول ﷺ الأخيرة، إذنْ، فبعد إيراد (رونلدسن) هذين الحديثين، الحديث الأوّل رغبة الرسول بكتابة الوصيّة، والحديث الثاني معارضة عمر بن الخطاب لإرادة الرسول ﷺ واتّهامه بالهَذَيان، يمكن لكلّ قارئٍ لبيبٍ أن يلاحظ بفطنته أنّ (رونلدسن) يتوقّف عند حديث ثالث لايقلُّ في دلالته أهميّةً عن الحديثين السابقين وإنْ كان لم يعمد إلى شرحه وتوضيحه بالشكل المطلوب.

وعلى كلّ حالٍ، فإنّ نصّ الحديث الثالث الذي أورده المستشرق (رونلدسن) هو قوله:

وروى عبد الله أنّ ابن عباس كان يقول: (إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم)[1].

وغنيٌّ عن الإسهاب في القول إنّ ابن عباس لم يكن ليقول: (إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة...) إلا بعد أن عايش بالفعل الكثير من المآسي والمصائب التي عَصَفَتْ بالمسلمين وقتذاك نتيجة لمنع عمر بن الخطاب وجماعته الرسول الكريم ﷺ من كتابة وصيّته الأخيرة والتي كان من المفترض لها، لو أنّهم أخذوا بها واحترموها، أن تجعل منهم، بالفعل، خير أمّةٍ أُخرجت للنّاس.

ولا يغيب عن ذهننا هنا موقف المستشرق الفرنسيّ المعاصر (يان ريشار) من الأحداث الجسام التي قادت المسلمين إلى أنهار الدّم بعد التجاوزات الواضحة التي لم يتمّ من خلالها احترام وصايا الرسول المصطفى محمد ﷺ.

فالمستشرق (ريشار) تحدّث بشكل مطوّلٍ وعلى اتّساع صفحاتٍ كثيرةٍ عن مأساة أهل البيت، وعلى رأسهم الإمام الحسين عليه السلام، في واقعة كربلاء وما لاقوه من آلام

(١) نفس المصدر السابق ص٢٩.

الغربة والوحدة والجوع والعطش ولظى الصيف وظلم السيف.

نعم، لقد تحدّث الأستاذ (ريشار) عن كلّ ذلك، وعن غير ذلك أيضاً، في كتابه الذي يحمل عنوان (الإسلام الشيعيّ)، ولكنّه قبل أن يتحدّث عن تلك المأساة الخالدة وعن غيرها من المآسي التي تعرّض لها المسلمون المؤمنون عموماً، وأهل البيت عليهم السلام خصوصاً، نلاحظ أنّ الأستاذ (ريشار) لم يغفل عن ذكر البيعات المشبوهة ولم يغفل أيضاً عن التلميح الواضح إلى مسألة التآمر على الإمام علي عليه السلام وإبعاده عن الخلافة التي هي ـ كما يقول (ريشار) ـ من حقّه واستحقاقاته باعتباره هو الخليفة المعيَّن أساساً من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ولا يختلف رأي المستشرق (يان ريشار) كثيراً عن رأي المستشرقَين المعاصرَين (دومينيك وجانين سورديل) بشأن المآسي المروّعة التي نشبت بين المسلمين نتيجة إقصاء الإمام علي عليه السلام عن حقّه المشروع في خلافة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقبل كلّ شيء، يرى هذان المستشرقان أنّ استيلاء أبي بكر على منصب الخلافة إنّما هو استيلاءٌ غير مبرّر، بل إنّ استيلاءه على مقاليد الحكم جاء نتيجة مجادلات ومناقشات مطوّلة ومكائد ومناورات أدانها التقليد الدينيّ اللاحق[2].

ويعزو هذان المستشرقان أيضاً أهمّ أسباب الشقاق بين المسلمين في ذلك العصر إلى إبعاد الإمام علي عليه السلام عن حقّه[3].

وهنا علينا أن نعرف أيضاً أنّ الأستاذ الباحث (ريمون بلوخ) الذي عَرض على

---

(١) يان ريشار، الإسلام الشيعيّ، مصدر سابق ص٣٥.

(٢) دومينيك وجانين سورديل، الحضارة الإسلاميّة في عصرها الذهبيّ، ترجمة: حسني زينه، دار الحقيقة. بيروت، ط١/ ١٩٨٠، ص٣١.

(٣) نفس المصدر السابق ص٣٢.

المستشرقَين (سورديل) كتابة كتاب شامل عن الإسلام في العصر الوسيط، والذي هو أيضاً وضع المقدّمة المناسبة لذلك الكتاب الذي حمل عنوان (الحضارة الإسلاميّة في عصرها الذهبيّ)، كان له رأيٌ حاسمٌ وصريحٌ بشأن المؤامرات التي حِيكت وراء أستار السقيفة والتي كانت تحمل في أحشائها بذور الانشقاق والارتداد، ولذلك، فإنّ الأستاذ (بلوخ) يقول، حرفيّاً، في المقدّمة التي وضعها للكتاب المذكور سابقاً إنّ (أوائل الفتوحات وتنافس الصحابة بعد وفاة محمد، تبدو لي مرسومةً بعمق ووضح نادرين)[1].

وبالفعل، فإنّ صاحب كلّ بصيرةٍ خبيرةٍ سيدرك على الفور أنّ كلّ شيءٍ كان مُدبّراً ومحُاكاً جيّداً منذ البداية، وما على الممثِّلين إلا أن يتقنوا لعب أدوارهم على مسرح السقيفة كي يوهموا المشاهدين البسطاء أنّ يدَ القدر هي التي تتصرّف بحكمةٍ منها كي تحفظ وحدة المسلمين، وكي تحفظ المسلمين أنفسهم أيضاً من أيّ (فَلتةٍ) ثانيةً يمكن أن تحدث لاحقاً في صفوفهم التي تصدّعت وحدتها بشكلٍ فعليٍّ منذ المشهد الأوّل من مسرحيّة البيعة في سقيفة بني ساعدة.

وعلى ما يبدو، فإنّ المستشرق الألماني المعاصر (جرهارد كونسلمان) صاحب كتاب (سطوع نجم الشيعة)، الذي تحدّث مطوّلاً عن موقعة كربلاء بالاعتماد على النّظر إليها من زوايا فكريّة متنوّعة، كان له وجهة نظر خاصّة تنمّ عن مقدرته في دراسة الأحداث وتحليلها ومن ثمّ الخروج بنتائج محدّدة وواضحة تستطيع أن تقنع القارئ أنّ ما حدث في كربلاء للإمام الحسين عليه السلام ومن كان معه من الأهل والأصحاب في ظلّ حكومة يزيد بن معاوية، وأنّ ما حدث لعموم المسلمين في ظلّ بقيّة الحكومات

(١) نفس المصدر السابق، راجع المقدّمة بقلم ريمون بلوخ ص٧.

الأمويّة المتلاحقة، ومن بعدها الحكومات العباسيّة أيضاً، هو شيءٌ طبيعيٌّ تماماً قياساً بالتجاوزات الخطيرة والقاتلة التي حدثت في عهد الخلافة (الراشدة).

فالمستشرق (كونسلمان) تحدّث عن الإمام الحسين عليه السلام وعن مبادئه وأخلاقه، وعن الأهداف النبيلة التي خرج من أجلها إلى كربلاء، ولكنّه بنفس الوقت أيضاً، استفاض في الحديث عن الانقسام الأوّل الذي عَصَفَ بالمسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويمكننا أن نلاحظ في العديد من صفحات كتابه (سطوع نجم الشيعة) أنّ هذا المستشرق يلقي باللائمة، بطريقةٍ أو بأخرى، على رجال السقيفة وأبطالها بطريقةٍ تجعل القارئ اللبيب يتساءل بينه وبين نفسه قائلاً:

كيف يلقي الكثيرُ من المسلمين باللوم على معاوية فقط عند خروجه عن طاعة الإمام علي عليه السلام ومحاولته الجديّة انتزاع الخلافة منه بالقوّة، ولا يلوم أولئك المسلمون أيضاً من سَنَّ لمعاوية سنّة الخروج على صاحب الحقّ ولو كان في ذلك مخالفة صريحة لوصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!

ولماذا يلوم المسلمون عموماً معاويةَ على عدم اعتماده مبدأ الشورى في تولية الخليفة من بعده ـ هذا إذا اعتبرناه خليفة أساساً ـ ممّا دفعه إلى تسليم ابنه يزيد مقاليد الحكم، ولا يلوم المسلمون أبا بكر الذي سلَّم مقاليد الحكم لصاحبه عمر بن الخطاب دون أَنْ يَعمدَ فعليّاً إلى عقد مجلس شورى يضمّ أهل الحلّ والعقد؟!

فلماذا دائماً نلقي باللوم على الأذناب لا على الرؤوس، أم أنّنا لا نستطيع أن نقترب من الرؤوس أساساً لأنّ تلك الرؤوس قد اكتسبت، بحكم الزمان وقوّة السلطان، هالةً من القداسة والتنزيه لدرجة يحظّر معها الاقتراب والدراسة أو الإشارة إليها بالتقصير والخطأ عند ثبوت ذلك؟!

وعلى أيّ حالٍ، فإنّ القارئ الفَطِن يمكن أن يسأل نفسه أكثر من هذا، سواءٌ قَرأَ كتاب المستشرق (كونسلمان) أم قرأ غيره من كتب المستشرقين والباحثين في الشرق والغرب، تلك الكتب التي تتناول ـ ولو بالقليل من الصدق والإنصاف ـ ذِكرَ الأحداث المفصليّة الهامّة في فجر الرسالة الإسلاميّة.

وحتّى لا يفوتنا ذِكرَ بعض ما جاء في (سطوع نجم الشيعة) للمستشرق (كونسلمان)، يجدر بنا أوّلاً أن نقول إنّ للأستاذ (كونسلمان) تعليقاً لافتاً للنظر حول حديث الرسول الكريم ﷺ المشهور في مؤلّفات السنّة والذي يقول ﷺ فيه ـ كما أورده هو حرفيّاً ـ: «أيّها المؤمنون، إنْ قضيت (متُّ)، فسيبقى القرآن، كلام الله وآل بيتي»(١).

وربّما كان يقصد (كونسلمان) بهذا الحديث الذي أورده، أو بالأصحّ أوردَ معناه، هو الحديث النبويّ الشريف الذي تتداوله كتب السنّة عموماً والذي نصُّه الصحيح هو قوله ﷺ: «إنّي مقبوضٌ، وإنّي قد تركت فيكم الثقلين: كتاب الله، وأهل بيتي، وإنّكم لن تضلّوا بعدهما»(٢).

والمهمّ، هو أنّ (كونسلمان) قد حلّل مغزى هذا الحديث بطريقة ذكيّة بعد أن رَبَطه بعدّة أحاديث أخرى تُبيّن المكانة الخاصّة التي يحتلّها أهل البيت عليهم السلام في عمق الرسالة الإسلاميّة.

وقد علّق (كونسلمان) على الحديث الماضي المتعلّق بالقرآن وبأهل البيت عليهم السلام

---

(١) جرهارد كونسلمان، سطوع نجم الشيعة، ترجمة: محمد أبو رحمة، مكتبة مدبولي ـ القاهرة، ١٩٩٢، ص١٧.

(٢) الحافظ السيوطي الشافعي، إحياء الميت بفضائل أهل البيت، نشر معاونيّة العلاقات الدوليّة ـ طهران، ١٩٨٨، ص٥٠.

بقوله:

«إنّ كليهما ينبغي أن يظلّا في أسمى مكانة، القرآن الذي أعلن مشيئة الله، وأفراد عائلة النبيّ، ومن هذا يُفترَض أنّ محمداً ﷺ تنبّأ بإمكانيّة التهديد الذي سيتعرّض له آلُ بيته بعد موته»[١].

وبالفعل، إنّ هذا التحليل لا يبتعد عن الصواب أبداً، وقد ذكر (كونسلمان) بعد ذلك التحليل جملةً من الأحداث التي لاقاها أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ مباشرةً.

وكان من جملة الأحداث التي ذكرها (كونسلمان) والتي تخدم محور بحثنا الآن هو الهجوم المسلّح على بيت فاطمة الزهراء عليها السلام، سيّدة نساء العالمين، بعد رفض الإمام علي عليه السلام ما حدث في سقيفة بني ساعدة، وكان من نتيجة ذلك الهجوم الذي قاده عمر وصاحبه أبو بكر ـ كما ورد في كتاب (كونسلمان) ـ هو صَدْم فاطمة الزهراء عليها السلام بالباب ممّا أدّى إلى جرحها، ومن ثمّ قام واحدٌ من رجال عمر بضربها حتّى أجهضت من حملها في الشهر السادس[٢].

أمّا عن النتائج اللاحقة التي جاءت نتيجةً لعدم تلبية رغبة الرسول الكريم ﷺ بكتابة وصيّته الأخيرة من جهة، وللاجتماع المشوّه الذي حدث في السقيفة وكان من نتائجه إبعاد الإمام علي عليه السلام من جهةٍ أخرى، هو أنّ الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا الإمام علي عليه السلام لم يكونوا خلفاء للرسول ﷺ بالمعنى الصحيح للكلمة، ولم يستطيعوا أن يمثّلوا روح الإسلام وجوهر رسالته.

---

(١) جرهارد كونسلمان، سطوع نجم الشيعة، مصدر سابق، ص١٧.

(٢) نفس المصدر السابق ص٣٧.

وإذا لم يكن الخلفاء الثلاثة خلفاء حقيقيّين للرسول الكريم ﷺ، فماذا كانوا إذنْ؟!

وحتّى لا نَتَقوّل على الأستاذ (كونسلمان) ما لم يَقُله، دعونا نورد ما قاله بشكله الحرفيّ الدقيق.

يقول (كونسلمان): (فأثناء خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، أخذ خليفة رسول الله ﷺ يصير بسرعة حاكماً دنيوياً ـ أي مَلِكاً)[1].

ونعتقد من الواضح تماماً كيف يمكن للملك، مثل كسرى أو قيصر، أن يحكم بين الرعيّة في الوقت الذي وضع نفسه فيه موضع الحاكم أو الخليفة لرسول سماويٍّ معصوم من الزّلل والخطأ.

وحتّى لا يتّهمنا القارئ العزيز بإغفال نقطةٍ هامّةٍ من نقاط بحثنا المطروح الآن، ألا وهي مظلوميّة الإمام الحسين عليه السلام وموقع حادثة كربلاء في فكر المستشرق الألمانيّ (كونسلمان)، نقول له! إنّنا لم ننسَ ولم نغفل ذكر تلك الحادثة وآثارها على المسلمين عموماً، وحتّى على غير المسلمين أيضاً، بل كلّ ما نستطيع أن نقوله الآن هنا هو أنّ (كونسلمان) ـ وكما هو واضحٌ في كتابه ـ قد أشار في العديد من صفحات كتابه إلى التجاوزات التي قام بها الخلفاء، واحداً تلو الآخر، بدءاً بالسقيفة ومروراً بفاجعة كربلاء وامتداداً إلى عددٍ لا ينتهي من التجاوزات الفاضحة التي قام بها الخلفاء الأمويّون ومن بعدهم الخلفاء العباسيّون أيضاً.

ولا يمكن لأيّ قارئٍ ـ بطبيعة الحال ـ بعد أن يقرأ ما كتبه (كونسلمان) وغيره من الباحثين في الشرق والغرب عن مسيرة الحركة الإسلاميّة منذ الأيّام الأخيرة للرسول

(١) نفس المصدر السابق ص٤٩.

الكريم ﷺ وحتّى ما بعد فاجعة كربلاء، إلا أن يلاحظ وبوضوحٍ تامٍّ أنّ اجتماع السقيفة هو الذي خنق رسالة محمد ﷺ وأجهض السيّدة الزهراء عليها السلام وسفك دماء الإمام الحسين عليه السلام.

وللحقّ أقول - ودائماً قول الحقّ لا يروق للبعض - إنّ كلّ الباحثين والمفكّرين المسيحيين في هذا الشرق، بالإضافة إلى الكثير من المستشرقين في الغرب، قد كتبوا ودرسوا وحلّلوا ما حدث في مأساة كربلاء بطريقةٍ أكثر عقلانيّة وأكثر إنصافاً من بعض المسلمين الذين شاركوا أيضاً في الكتابة عن عمليّة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وعن أبعاد وآثار مسألة خروجه واستشهاده مع أهل بيته الأطهار عليهم السلام فوق رمال كربلاء.

ومَا المستشرقين والمسيحيين العرب الذين ورد ذكرهم في هذا الفصل من كتابنا إلا أمثلة قليلة من مجموع أمثلة كثيرةٍ تدلّ في مجملها على قدرتها الفكريّة في كيفيّة التعامل والتفاعل مع الأحداث، ومن ثمّ القدرة على الخروج من تلك الأحداث الخطيرة والهامّة بنتائج مقبولةٍ هي أقرب للعقل والمنطق منها إلى الانفعال والعاطفة.

وما أريد أن أذكره الآن، وفي هذا المكان تحديداً، هو أنّني لا أبرّئ ساحة كلّ المستشرقين من الاتّهام بالتحامل على الإسلام رسالةً ورسولاً، بل على العكس، فهناك العديد من المستشرقين قد تعمّدوا قلبَ الحقائق وتشويهها لغايات سلبيّة متعدّدة سواء كانت تلك الغايات ناتجة عن أهداف استعماريّة شموليّة أو عن أهداف دينيّة تعصبيّة.

وبالتالي، فإذا كان المستشرقون عموماً قد تناولوا بعض القضايا والحوادث الإسلاميّة المفصليّة بروح الحياد والموضوعيّة، فإنّ هذا لا يعني أنّ هناك البعض منهم

لم يحاول أن يضع السمّ في الدسم في محاولة مدروسةٍ للنّيل من شخصيّةٍ ما أو للتقليل من حادثةٍ ما أو للتشويش على فكرةٍ ما.

وإذا كان الأمر كذلك في عالم الاستشراق، فإنّه ليس كذلك في عالم الفكر والثقافة المسيحيّة في الشرق.

فالمفكّرون المسيحيّون في الشرق يكتبون عن الإسلام ورجاله وأحداثه التاريخيّة الهامّة بروح الانفتاح على عوالم الصدق والإنصاف، وبدافع الانعتاق من ظلمة الغايات والإجحاف، فإظهار الحقائق هو الهدف الأسمى لكلّ مفكّرٍ أو باحثٍ أو أديبٍ مسيحيّ في الشرق.

وحتّى أكون أكثر موضوعيّةً وصدقاً في حديثي هذا، أقول إنّني لا أدّعي أنّني قد قرأت كلّ ما كتبه المفكّرون والأدباء المسيحيّون في الشرق عن الرسالة الإسلاميّة وعن رسولها ﷺ ورجالها وأحداثها، ولكنّني أقول الحقّ بأنّني قد قرأت الكمّ الأعظم ممّا كتبه أولئك المفكّرون والأدباء عن الإسلام، وقد قمت بعد ذلك بدراسة وتحليل كلّ تلك الأعمال الفكريّة والأدبيّة التي قرأتها، وكان من نتيجة ذلك أن خرجتُ بالعديد من المقالات والأبحاث والكتب التي من شأنها أن تبرز الدّور الإيجابي للمفكّرين والأدباء المسيحيين في الشرق في كشف اللثام عن الكثير من الحوادث الإسلاميّة التي عصفت بالأمّة في المراحل الأولى من عهد الرسالة النبويّة الشريفة وإظهارها على حقيقتها دون تعاطف مع طرف على حساب الطرف الآخر، وإنّما إظهار الحادثة وتوضيحها كما حدثت بالفعل.

وقد بيّنت في ما كتبتُ أيضاً كيف أنّ أولئك المفكّرين والأدباء قد لعبوا دوراً حيويّاً هامّاً في توضيح الأهداف الإنسانيّة النبيلة للرسالة الإسلاميّة، وكيف أنّهم -

بالرغم من أنّهم مسيحيّون - لا يتّفقون في العديد من النقاط مع المستشرقين المسيحيين في الغرب، وبشكلٍ خاصٍّ تلك النقاط التي تتناول مسألة الوحي، والمصدر السّماوي للقرآن، وبراءة الإسلام الحقيقيّ من العنف والدّم، وإلى غير ما هنالك من نقاطٍ هامّةٍ وحساسّةٍ تبقى محلّ خلافٍ ونزاعٍ بين المسيحيين في الشرق والمستشرقين من جهة، وبين المستشرقين أنفسهم من جهةٍ أخرى.

وعلى كلّ حالٍ، فإنّ الشيء الذي أريد أن أقوله الآن، مع التأكيد عليه دائماً وأبداً، هو أنّ أهل الفكر والثقافة والأدب، وأقصد بذلك الفكر المسيحيّ في عالمنا الشرقيّ، كانوا يعرفون على أيّ الحروف يجب أن توضع النقاط، وكانوا يدركون تماماً أنّ الإسلام برسالته الإنسانيّة النبيلة ما كان له أن يُتَرجَم إلى أرض الواقع إلا من خلال أهل بيت صاحب الرسالة ﷺ، فأهل البيت عليهم السلام، عند الكثير من المفكّرين المسيحيين في الشرق، هم خيوط النّور الإلهيّ الذي يربط قلوب وبصائر أهل الإيمان في الأرض ببوّابات قدس الأقداس في مملكة السّماء، فَهُمْ عليهم السلام: «الطيبون الأوائل، والمعاينون الأوائل، والمعانون الأوائل، والمعنيّون الأوائل»[1].

أوْ هُم عليهم السلام - باختصارٍ شديدٍ - كما وصفهم الأديب والشاعر المسيحيّ المبدع (بولس سلامة) بقوله مخاطباً إيّاهم على أساس أنّهم هم عليهم السلام مشارق الأنوار الإلهيّة التي تكرّم الله سبحانه وتعالى بإظهارهم بين خلقه لإجلاء الظلمات عنهم:

يا شروق الأنوار في غيهب الأزمان ظلّي على العصور مشاعلْ
أهلَ بيتِ الرسول ما زال منكم نحو عرش الرحمن حبل واصلْ[2]

---

(١) سليمان كتّاني، الإمام زين العابدين عنقود مرصّع، دار الروضة، بيروت، ١٩٩٣، ص٦٢.

(٢) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق، البيت الأول ص١٠١ والثاني ص١٠٥.

ولذلك، لنا الجرأة على القول إنّ أولئك المفكّرين المسيحيين في الشرق، بالإضافة إلى الكثير من مُفكّري وأدباء إخواننا السنّة أيضاً، قد أبلوا البلاء الحسن في الحديث عن أهل البيت عليهم السلام عموماً وعن سيّدنا الإمام الحسين عليه السلام خصوصاً، وكان لهم موقفٌ جريءٌ لافتٌ للنظر عندما تحدّثوا عن العلاقة الوثيقة التي تربط بين أحداث السقيفة من جهةٍ ووقائع مأساة كربلاء الدّامية من جهةٍ أخرى.

إنّهم رجال فكرٍ آمنوا بشرف الكلمة وبنُبل الأمانة فحملوا أقلامهم النظيفة وراحوا يسطّرون الحقيقة تلوَ الحقيقة لا لشيءٍ ولا لمكسبٍ، فلا الشيء الدنيويّ يغريهم، ولا المكسب الماديّ يغويهم، بل أرادوا فقط أن يكونوا جنود الحقيقة وفرسانها، لقد أدركوا الحقيقة وعاشوا بمستواها، وأيقنوا أيضاً أنّ الذي يتعمّد أن يزرع غِراس الريح فلن يحصد إلا العواصف والزوابع.

نعم، إنّ العبارة الواردة في (كتاب العقائد) للهندوس والتي تقول: (واحدٌ من آلاف البشر قد يجاهد في سبيل الحقيقة)[1]، هي عبارةٌ صحيحةٌ تماماً، ولكنْ علينا أن ندرك أنّ مقام هذا (الواحد) المجاهد من أجل الحقيقة هو بمثابة شمعة في غرفةٍ كبيرةٍ، تتحدّى وتتغلّب بنورها الضعيف الواهن على ظلمة الليل البهيم، وعلينا أن ندرك أيضاً أنّ الحقيقة التي ننشدها ونبحث عنها هي قبسٌ من الحقّ، وما (الحقّ) إلا هو عزّ وجلّ.

وما أجمل أن ننهي هذا الفصل بقول الشاعر عن العلاقة الوطيدة بين مأساة السقيفة وفاجعة كربلاء:

رزيّةُ الخميس لا تَمحي ... آثارها حتّى يقوم الحسابُ
وحِيلَ بين المصطفى عُنوةً ... وبين أن يُكتبَ ذاك الكتابُ

---

(١) سامي شيّا، أقوال مأثورة، دار النّهار. بيروت، ١٩٨١، ص١٥٠.

لـولا خمـيس الشـؤم مـا وُجِّهـتْ   في كـربلاء نحـو الحسـين الحـرابُ(١)

إنّها أبيات ثلاثة تلخّص لنا ما جاء من أقوال وشواهد لكبار المفكّرين والأدباء في هذا الفصل حول مقدّمات الفاجعة وبذورها.

وبقي علينا أن نقول إنّنا في هذا الفصل لم نقصد الإساءة ـ لا سمحَ الله ـ لأيّ شخصٍ من كبار الصحابة، ولم يكن هدفنا التشهير أو التجريح بمشاعر أيٍّ من إخواننا السنّة على الإطلاق، والدّليل على ذلك هو أنّني استشهدت في هذا البحث بالكثير من آراء علمائهم ومُفكّريهم من أصحاب العقول الراجحة والآراء السّديدة.

ومن جهةٍ أخرى، فعندما أذكر ما فعله فلانٌ أو فلانٌ، فأنا لا أقصد تقييمه أبداً، وإنّما أقصدُ تقييم الفعل الذي بَدَرَ منه، فأنا أقيّم أحداثاً لا أشخاصاً.

ولذلك، أرجو من القارئ الكريم ـ خاصّةً إذا كان من إخواننا السنّة ـ أن يعذرني في تقييمي للأحداث الحساسّة، فالحقيقة هي الشيء الوحيد الذي يجب أن يكون فوق أيّ اعتبار، وعلينا أن ندرك دائماً وأبداً أنّ الرجال يُعرَفون بالحقّ وليس الحقّ يُعرَفُ بالرّجال.

(١) السيد حسين الصدر، لغة الطفوف، مجلّة (الموسم) العدد/١٢/ مصدر سابق ص٤٢٠.

عصر الإمام الحسين عليه السلام

إنّ الكلام عن عصر الإمام الحسين عليه السلام هو كلامٌ عن المجتمع الإسلاميّ الذي هيَّأه معاوية لابنه يزيد، إنّه كلامٌ عن المجتمع الذي صاغه معاوية وفق رؤيته الأمويّة الخاصّة والبعيدة كلّ البعد عن الرؤية الإلهيّة المتجليّة في قرآنه الحكيم وفي سنّة نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذا أردنا أن نتكلّم عن مجتمعٍ ما، فربّما كان بالإمكان تخيّل صورة ذلك المجتمع من خلال معرفة صفات وخصائص الشخص المسؤول والحاكم لذلك المجتمع، وقد حدّثنا التاريخ، قديماً وحديثاً، أنّ الحاكم العادل والصالح يستطيع أن يؤسّس لحياةٍ كريمةٍ في المجتمع الذي يحكمه بحيث يرتقي بأفراد مجتمعه، من خلال عدله وصلاحه، إلى مستوى لائقٍ من الإنسانيّة والحضارة الراقية التي من المحتمل جدّاً أن تفتقر إليها بقيّة المجتمعات التي يحكمها حكّام طغاة عتاة لا يعرفون شيئاً من فنون الحكم والقيادة إلا فنّ الحكم بالسيف والنّار.

نعم، ربّما يأتي حاكمٌ نزيهٌ وعادلٌ يريد أن يعمّ العدل والسّلام والصلاح كلّ أرجاء دولته ولكنّه لا يفلح في ذلك على الرغم من شدّة نزاهته ومبلغ عدله وصلاحه، فما السرّ في ذلك؟!

الجواب، وبكلّ بساطة، أخطاء الرجال والأجداد يدفع ثمنها الأبناء والأحفاد.

فالحاكم الجيّد هو حاكمٌ جيّدٌ بذاته ولكن قد لا يستطيع أن يحكم مجتمعه

الملوّث بالطريقة التي يريدها، إذن، المشكلة هي أساساً في المجتمع الذي بات ملوّثاً من جهةٍ وفي الحاكم السابق الذي لعب دور العامل الملوّث من جهةٍ ثانيةٍ.

فالقِيَم السلبيّة والمفاهيم الخاطئة والممارسات الملتوية التي فَرَضها وأقرّها الحاكم السيئ السابق وجعلها مرتبطةً بحركة المواطن وبتفاعله مع المجتمع لدرجة أنّه بات يمارس الأخطاء وكأنّها أعمالٌ مشروعةٌ ومُبرّرةٌ، شأنها في ذلك شأن اكتساب لقمة الخبز اليوميّة، إنّ كلّ ذلك يجعل من الحاكم اللاحق، وإنْ كان صالحاً وعادلاً، يواجه الكثير من المتاعب والمشاكل في عمليّة إدارة دفّة الحكم، وفي عمليّة إعادة القيم الإيجابيّة المُغيَّبة لأخذ دورها من جديد في ساحات العمل وفي إعادة استنباتها في عقول وضمائر الأفراد والجماعات بعد أن يتمّ اقتلاع القِيم والمفاهيم السلبيّة السابقة من تلك الضمائر والعقول، فالمزارع النبيه لا يُلقي بِبذاره في أرضٍ مليئةٍ بالأشواك إلا بعد أن يقتلعها وينظّف التربة منها ومن بقيّة الأعشاب الضارّة الأخرى.

إنّ هذا الكلام يصدق بشكلٍ كبيرٍ على وضع مجتمعٍ كان محكوماً سابقاً من قِبَلِ حاكمٍ سلبيٍّ سيئٍ لفترةٍ مديدةٍ من الوقت إلى أن شاءت الظروف أن تأتي بحاكم آخر لكنّه حاكم صالح وإيجابيّ ومناقض للحاكم السابق في الميدان الحضاريّ والإنساني وفي ميزان الصفات الشخصيّة والمزايا الذاتيّة.

وإذا كان هذا هو حال المجتمع الذي يتعاقب عليه حاكمان متناقضان ما بين السّلب والإيجاب، فما هو حال المجتمع الذي تتعاقب عليه جماعةٌ من الحكّام الذين يسجدون صباحاً ومساءً لكرسيّ الحكم ويقيمون صلواتهم للدينار والدّرهم، يتّخذون من مساجدهم أوكار فتنٍ، ومن قصورهم دُورَ فسادٍ وبغاء، ومن بطانتهم أهل سوء واستعلاء، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، قلوبهم عامرةٌ إلا من الإيمان،

وعقولهم منقادةٌ لحبائل الشيطان، وليس عندهم غريبٌ كالقرآن، المؤمن بينهم غريبٌ، والفاسق عندهم قريبٌ، مَن ذَكَّرهَم بما فيهم ظلموه ومنعوه، ومَن مَدحَهم بما ليس فيهم أعطوه وَوصلوه؟!

ولا أعتقد أنّني جانبتُ الصواب أو ابتعدتُ عن الحقيقة القاسية عندما قصدتُ بكلامي هذا بني أميّة عموماً ومعاويةَ وابنَه يزيد اللعين خصوصاً.

فالعالم الإسلاميّ ابتُلي بالكثير من حكّام السّوء ممّن اتّخذوا لقب (الخليفة) ستاراً لهم يتحكّمون بالبلاد والعباد كيفما يشاؤون باسم الدّين وباسم الإسلام، بل باسم (خليفة) رسول الله صلى الله عليه وآله، في الوقت الذي أعلن فيه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله نفسُه براءَته العلنيّة منهم ومن أتباعهم وأصحابهم إلى يوم الدّين.

ولذلك، نرى لِزاماً علينا أن نقدّم للقارئ الكريم بعضاً من الأحاديث النبويّة الشريفة التي تُبيّن لنا موقف الرسول الكريم صلى الله عليه وآله من معاوية بن أبي سفيان، ذلك الحاكم الأمويّ الدّاهية الذي أوصل المجتمع الإسلاميّ لاحقاً إلى حالةٍ من الجفاف الروحيّ واليباب العقائدي وذلك بعد أن قام بحملةٍ إعلاميّةٍ تضليليّةٍ دهياء أفرغ من خلالها الإسلامَ من كلّ مضامينه الجوهريّة وحوّله إلى مجرّد قناعٍ يتستّر به ويخفي وراءه الكثير من الدسائس والمؤامرات، لقد حوّله إلى مجرّد جسدٍ مفتقدٍ إلى العقل والروح وإلى الكثير من المضامين الإنسانيّة.

إذنْ، دعونا الآن نتعرّف على شخصيّة معاوية كما يراها رسول الله صلى الله عليه وآله، ولننتقل بعد ذلك إلى صورة المجتمع الإسلاميّ الذي هيّأه معاوية إلى ابنه يزيد من أجل إحكام السّيطرة على المجتمع بكافة أطيافه، وبشكلٍ خاصٍّ على الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته، وأتباعه، ممّن ثَبتَوا على ولاية أهل بيت النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله وذلك من خلال

الالتزام بتعاليم الرسول الكريم ﷺ ووصاياه المتعلّقة بضرورة التمسّك بالثقلين العظيمين: القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام الذين لا يُقاس بهم أحدٌ من الخلائق ولا يحيط بمعرفتهم أحدٌ من أهل الحقائق.

وعلى كلّ حالٍ، وحتّى لا نُسهب كثيراً في الكلام، دعونا أيّها الأحبّة نستعرض طائفةً صغيرةً من الأحاديث الواردة بشأن معاوية الذي مهّد طريق لابنه يزيد قاتل الإمام الحسين عليه السلام وهاتك حرمات المسلمين.

جاء في كتاب (ميزان الاعتدال) للحافظ شمس الدين بن محمد بن أحمد المعروف بالذهبي قوله: عن أبي برزة قال: كنّا مع النبيّ ﷺ، فسمع صوت غناء فإذا عمرو (بن العاص) ومعاوية يتغنّيان، فقال: «اركسهما في الفتنة رَكساً ودعّهما إلى النّار دَعّاً»(١).

وجاء أيضاً في كتاب (كنز العمال) للمتقي الهندي، وأصلُ هذا الكتاب هو (جمع الجوامع) للحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي المشهور، فقام المتّقي الهندي بتبويبه على نهج الكتب الفقهية وسمّاه بكتاب (كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال)، وقد جاء فيه:

عن شدّاد بن أوس أنّه دخل على معاوية وهو جالسٌ، وعمرو بن العاص على فراشه، فجلس شداد بينهما، وقال: هل تدريان ما يجلسني بينكما؟ إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتموهما جميعاً ففرّقوا بينهما، فوالله ما اجتمعا إلا على غدرة»، فأحببتُ أن أفرّق بينكما(٢).

---

(١) الحافظ شمس الدين بن محمد المعروف بالذهبي، ميزان الاعتدال، مطبعة السعادة . مصر، طبع ١٣٢٥هـ، ج٣ ص٢١١.

(٢) المتقي الهندي الحنفي، كنز العمال، مطبعة دائرة المعارف النظاميّة . حيدر آباد . دكن،

ويكفي أن نذكر أيضاً القول المشهور للرسول الكريم ﷺ، وهو حديثٌ ثابتٌ في الكثير من كتب السنّة، يقول ﷺ فيه مخاطباً عموم المسلمين:

«إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»[1].

ومن خلال مضمون هذا الحديث النبويّ تحديداً، ومن خلال الأحاديث السابقة التي ذكرناها قبله، والأحاديث النبويّة الأخرى التي سنذكرها لاحقاً، نستطيع أن نتخيّل عمق المأساة التي عصفت بالمجتمع الإسلاميّ عقب اغتصاب معاوية لكرسيّ الخلافة واجترائه على منبر رسول الله ﷺ.

فالأعمال السوداء التي قام بها معاوية خلال فترة حكمه والرذائل التي أشاعها في صفوف النّاس وروّج لها، والفتن التي استَنْبَتَها في عقول النّاس، كلّ ذلك أدّى بالمجتمع الإسلاميّ إلى فقدان تماسكه الروحيّ والاجتماعيّ، وإلى اتّخاذ الدّين وسيلة رخيصة لتحقيق غايات شخصيّة ومصالح دنيويّة تتعارض في الكثير من جوانبها مع المبادئ الإلهيّة والتعاليم النبويّة النبيلة.

فمجرّد قول الرسول الكريم ﷺ، وهو الرسول الإلهيّ الذي لا ينطق عن الهوى: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»، هو أكبر وأوضح دليلٍ على أنّ المجتمع

١٣١٢هـ، ج٦ ص٨٨.

(١) راجع على سبيل المثال ما جاء في:

أ. الحافظ الذهبي، ميزان الاعتدال، مصدر سابق ج٢ ص١٧ + ج٢ ص١٢٩.

ب. الحافظ المنادي والشافعي، كنوز الحقائق، مصدر سابق، ص١٥.

ج. الحافظ شهاب الدين العسقلاني المعروف بـ (ابن حجر)، تهذيب التهذيب، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظاميّة. حيدر آباد. دكن، ١٣٢٥هـ، ج٥ ص١١٠.

د. السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر العلوي، النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية، طبع دار الثقافة. قم، ١٤١٢هـ، ص٥٨ + ص٢٦١.

الإسلاميّ سيكون في الدرك الأسفل، روحيّاً واجتماعيّاً، في حال قَبِلَ المجتمع بوجود خليفةٍ أو حاكمٍ عليه كمعاوية أو حتّى غيره من أمثاله ونظرائه.

ومن أجل أن ندرك حجم الكارثة التي حلّت بالصفّ الإسلاميّ نتيجة الفتن التي زرعها معاوية بين صفوف المسلمين عموماً، يمكننا أن نذكر عدّة أحاديث أخرى قالها الرسول المصطفى ﷺ بحقّ معاوية منطلقاً في ذلك من قوّة بصيرته في قراءة الأحداث المستقبليّة، ومن نفاذ حدسه الثاقب لأعماق الشخصيّات التي عاصرته ﷺ وعاشت معه عن قرب، فاستطاع بذلك أن يدرسها ويحلّلها ويستخلص النتائج الدقيقة التي ستظهر لاحقاً وبشكلٍ واضحٍ وجليٍّ على صفحات كتاب المستقبل.

فعندما يقول الرسول الكريم ﷺ على رؤوس الأشهاد، بعد معرفته العميقة ودراسته الدقيقة لشخصيّة معاوية وأفعاله: «إنّ معاوية في تابوت من نارٍ في أسفل دركٍ منها، ينادي يا حنّان يا منّان، الآن وقد عصيتُ قَبلُ وكنتُ من المفسدين»[1].

فعندما يقول الرسول ﷺ ذلك، بإمكاننا أن ندرك أنّ الإسلام قد انحرف عن مساره المرسوم له بشكلٍ مخيفٍ جدّاً وبشكلٍ مختلفٍ كليّاً، فالإسلام لم يعد ذلك النهج العمليّ الذي أراد للإنسان أن يكون متحرّراً من كلّ أنواع العبوديّة ومُنعَتِقاً من كلّ أصناف التبعيّة إلا التّبعيّة لرسول الله ﷺ والعبوديّة لله وحده فقط، لقد أصبح وجه الإسلام مشوّهاً عمداً وبفعل فاعل، بدأت عمليّة التشويه في وقتٍ مبكّرٍ جدّاً واستمرّتْ بقوّةٍ إلى ما بعد ذلك، وبلغت ذروتها عند معاوية في عصر الدولة الأمويّة.

إنّ هذه الأجواء هي صورةٌ موجزةٌ ومختصرةٌ جدّاً عن الصورة الشاملة للأجواء

---

(١) السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر العلويّ، النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية، مصدر سابق ص٢٦٢.

التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام وعاصرها بكلّ تفاصيلها المؤلمة، بل يمكننا أن نضيف أيضاً أنّ الإمام الحسين عليه السلام كا على معرفةٍ كاملةٍ بأنّ معاوية قد تجاوز في غيّه وضلاله كلّ حدٍّ وخرج في جهله وجاهليّته وجهره بالعداء للإسلام من كلّ سنّةٍ نبويّة شريفة ودخل في كلّ بدعةٍ جاهليّةٍ ذميمةٍ، ناهيك عن أنّه، وكما هو معروفٌ للجميع، قد ناصب هو وأبوه الإسلام العداء ولم يدّخرا جهداً في محاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتنفير النّاس منه ومن رسالته حتّى أنّ الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قد رأى يوماً أبا سفيان مقبلاً على حمار ومعاوية يقود به ويزيد ابنه يسوق به، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «لعن الله القائدَ والراكبَ والسائقَ»[1].

ويكفي معاوية خزياً في تلك الفترة أنّه قاتل أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام دون أيّ وجه حقّ مع معرفته الكاملة أنّ عليّاً عليه السلام وقومه هم آية الجنّة، وأنّه هو وقومه هم آية النّار، وذلك حسب نصّ حديثٍ نبويٍّ شريف يعرفه العامّة والخاصّة على حدٍّ سواء.

فقد أورد الحافظ نور الدّين علي بن أبي بكر الهيثمي في كتابه (مجمع الزوائد) ما جاء عن عمرو بن حمق الخزاعي حيث قال: بَعثَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سريّةً (إلى أن قال) ثمّ هاجرتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فَبينا أنا عنده ذات يومٍ قال لي: «يا عمرو هل لك أن أُريك آية الجنّة تأكل الطعام وتشرب الشراب وتمشي في الأسواق؟».

قلت: بلى، بأبي أنت، قال: هذا وقومه وأشار بيده إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وقال لي: «يا عمرو هل لك أن أُريك آية النّار تأكل الطعام وتشرب الشّراب وتمشي في الأسواق؟».

قلت: بلى بأبي أنت، قال: هذا وقومه آية النّار، وأشار إلى معاوية.

---

(١) نفس المصدر السابق ص٢٦١.

فلمّا وقعت الفتنة ذكرتُ قول رسول الله ﷺ: فَفَررتُ من آية النّار إلى آية الجنّة...[١]

إذنْ، فالمجتمع الإسلاميّ في ذلك الوقت الذي كان فيه معاوية حاكماً ومتحكّماً برقاب المسلمين كان مجتمعاً يسير القهقرى باتّجاه الجاهليّة البغيضة التي حاربها الله ورسوله ﷺ، ولم تكن صورة شخصية معاوية في تلك الفترة السوداء من تاريخ الإسلام إلا التجسيد الواقعي والأمثل لشخصيّته ولنواياه السلبيّة التي عجز عن تحقيقها قُبيلَ دخوله الإسلام وتظاهره باعتناقه.

وحتّى تتّضح الصورة أكثر في ما يتعلّق بالعصر الذي كان الإمام الحسين عليه السلام شاهداً حيّاً عليه، علينا أن نعرف أنّ معاوية قد أباح المحارم لمن ارتكبها ومنع الحقوق أهلها، ثمّ إنّه عَمَدَ إلى قتل خيار صحابة رسول الله ﷺ والتابعين وأهل الفضل والديانة مثل عمرو بن الحمق الخزاعي وحجر بن عدي الكندي.

وغنيٌّ عن القول قتله لعمار بن ياسر (رض) في عهد سيّدنا علي عليه السلام، وممّا استحقّ به اللعنة من الله ورسوله ﷺ ادّعاؤه زياد بن سميّة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ادْعُوهُمْ لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ الله﴾[٢]، والرسول الكريم ﷺ يقول: «ملعون من ادّعى إلى غير أبيه»، هذا بالإضافة إلى تأكيده ﷺ على ناحية شرعيّة أخلاقيّة هامّةٍ هي أنّ «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، فخالف بذلك معاويةُ حكمَ الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه الكريم ﷺ جهاراً وجعل الولد لغير الفراش والعاهر لا يضرّه عهره.

وباختصارٍ شديدٍ، لقد قام معاوية بكلّ ما من شأنه أن يمهّد الطريق أمام ابنه يزيد

(١) الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، عنيَ بنشرها صاحب مكتبة القدس حسام الدين القدسي. مصر، ١٣٥٢هـ، ج٩ ص٤٠٥.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥.

اللعين عند مجيئه وإعطائه مقاليد الحكم للتحكّم برقاب العباد ومصالح البلاد.

وقد صدق (الحسن البصري) عندما لخّص لنا الخطوط العامّة لسياسة معاوية السفيانية والتي أرادها من بعده نهجاً ودستوراً لابنه يزيد ولكلّ من يأتي بعده من حكّام أمويّن لا يعرفون عن الإسلام غير الاسم ومن القرآن غير الرسم.

يقول الحسن البصري: (أربع خصالٍ كنّ في معاوية، ولو لم يكنْ فيه إلا واحدةٌ منهنّ لكانت موبقةً: انتزاؤه على هذه الأمّة بالسيف حتّى ابتزّها أمرها بغير مشورةٍ منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنه يزيد، سكّيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادّعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، وقتله حجر بن عدي وأصحابه، فيا ويله من حجرٍ ومن أصحابِ حجر»[1].

نعم، إنّ هذه الموبقات الأربع، بل الأربعين، لأنّ كلّ واحدةٍ منها تتفرّع على ما لا يقلّ عن عشر موبقاتٍ أخرى، هي الخطوط العامّة والملامح الأساسيّة لسياسة معاوية في صفوف المسلمين وفي تعامله مع مبادئ وقِيَم الرسالة الإسلاميّة.

وفي الحقيقة، لقد كان معاوية يدرك ما يفعل تماماً، فالشيء الذي كان يخطّط له ويقوم به كان عبارة عن عملية وضع منهاج كامل ومتكامل في كيفيّة هدم الإسلام من الدّاخل، وما على الخلفاء الأمويين الذين سيأتون بعده وبعد ابنه اللعين يزيد إلا أن يتمثّلوا ويستوعبوا منهاج تلك المدرسة القائم على استبدال سياسة الكلمة الطيّبة بالسيف الظالم، والقيم الإسلامية بالعادات الجاهليّة، والسنّة النبويّة بالبدع الأمويّة.

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة. القاهرة، ط١/ ١٩٥٩، راجع ج٢ ص٢٦٢.

ولذلك فنحن لا نستغرب من كيفية نظر الكثير من المفكّرين المسلمين السنّة والباحثين المسيحيين، سواء كانوا مستشرقين أم غير مستشرقين، إلى طبيعة الحكومات الأمويّة التي تعاقبت على الساحة الإسلاميّة.

فالكثير من أولئك المفكّرين والباحثين لا يرون في الدولة الأمويّة دولة عدلٍ قائمةٍ على أساس دينيّ متين، بل هي مجرّد إمبراطوريّة عربية اتّخذ حكّامُها وقادتُها الدّينَ ستاراً لتحقيق منافع شخصيّة ومكاسب ذاتيّة على المستويين الدّاخلي والخارجي.

أمّا في ما يتعلّق بالميدان الروحي تحديداً، فالكلّ قد أجمع ـ خاصّةً بعد أن قرأوا عن الحسين واستشهاده في كربلاء في سبيل الحقّ ـ على أنّ الحكومات الأمويّة عموماً، وحكومة معاوية ومن بعده حكومة ابنه يزيد خصوصاً، كانت حكومات دنيويّة بحتةً وليس لها أدنى علاقةٍ برسالة الرسول محمد ﷺ وهذا ما كان يدفع بهم دوماً إلى التخلّص من كلّ مَن كان يدعوهم للعودة إلى الدّين القويم.

وحتّى ندرك حجم المأساة التي خلّفها معاوية على العالم الإسلاميّ من خلال وضعه لمنهاج مدرسته الخاصّة في الحكم والذي ورّثهُ لاحقاً لابنه يزيد وللخلفاء من بعده، وحتّى ندرك أيضاً حجم المسؤولية الملقاة على عاتق الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة مدرسة معاوية الهدّامة للإسلام ولِقِيَمه ومبادئه، علينا أن نورد بعض الشهادات الدامغة حول طبيعة الدولة الأمويّة التي تأسّست على انتهاك الحقوق، وعلى سفك الدّماء، والأهمّ من ذلك، على تشويه رسالة الله الأخيرة وتحويلها ـ عمليّاً ـ من رسالة سماويّة سامية إلى مجرّد تعاليم سطحيّة جوفاء يتلاعب بها الخليفة الأمويّ كيفما يشاء ويطبّقها كيفما يريد.

وعلى كلّ حالٍ ها نحن نقدّم مجموعةً صغيرةً من الآراء بالدولة الأمويّة التي سارت، من خلال حكّامها، على النهج الذي وضعه لها معاوية وإنْ لم يكن هو الأوّل والوحيد الذي وضع أسس وقواعد ذلك النهج المنحرف والسقيم.

يرى المفكّر الفرنسيّ (روجيه غارودي) أنّ مجيء الأمويين إلى السلطة وتركيز اهتمامهم على السياسة فقط دون المغزى الدينيّ هو (طعنة قاتلة في صميم الإسلام)[١].

ويضيف (غارودي) في كتابه (ما يَعِدُ به الإسلام) قائلاً إنّ الحكم الأمويّ كان حكماً بعيداً عن الجوهر الدينيّ ومتنكّراً له من حيث مبدأ (الأمّة الإسلاميّة)، بل لم يكن في حقيقته أكثر من حكم أمويّ متعصّب[٢].

أمّا المستشرق الألمانيّ (يوليوس ڤلهاوزن) فيرى في كتابه (تاريخ الدولة العربيّة) أنّ الأمويين كانوا منذ البداية أخطر أعداء النبيّ محمد (عليه وآله السّلام) وأنّهم لم يعتنقوا الإسلام إلا في السّاعة الأخيرة مُكرَهين ولكنّهم عرفوا بعد ذلك كيف يجنونَ لأنفسهم ثمرة انتصاره وسيادته، وذلك من طريق استغلال ضعف عثمان أوّلاً، ومن طريق المهارة في استغلال مقتله بعد ذلك[٣].

ويتابع المستشرق (ڤلهاوزن) مؤكّداً على حقيقة أنّ أصل الأمويين لا يجعلهم أهلاً لقيادة الأمّة المحمديّة، فَهُمْ كانوا مغتصبين للخلافة عن طريق القوّة الخاصّة التي

(١) روجيه غارودي، ما يَعِدُ به الإسلام، مصدر سابق ص٧٠.

(٢) نفس المصدر السابق ص٧٢.

(٣) يوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة: الدكتور محمد هادي أبو ريدة، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر في إدارة الثقافة العامّة. القاهرة، ١٩٦٨، ص٥٩.

كانوا يمتلكونها، قوّة أهل الشّام، ولكن قوّتهم تلك لم تستطع أن تصير حقّاً شرعيّاً"[١].

ولا يختلف رأي المستشرق والفلكيّ الفرنسيّ (جان جاك سيديو) (Sedillot) (١٧٧٧ـ ١٨٣٢م) كثيراً عن رأي المستشرق الألمانيّ (ڤلهاوزن)، فقد درس (سيديو) تاريخ العرب والحضارة الإسلاميّة، كما أنّه درس تاريخ العلوم الفلكيّة عند العرب.

وقد اشتهر هذا المستشرق بكتابه المعروف بـ (تاريخ العرب) الذي تُرجم من قبل العديد من المترجمين وقد طُبع مرّاتٍ عديدةٍ نظراً لثراء معلوماته ولقيمته الفكريّة العالية، وما يهمّنا في كتابه المذكور هو رؤيته للحكام الأمويين الذين تربّعوا على عرش الخلافة.

يرى العلامة (سيديو) أنّ عصر معاوية هو عصر الفتن والمصائب وسفك الدّماء والهلع الذي زرعه معاوية وأعوانهُ في قلوب المسلمين[٢].

ويرى العلامة (سيديو) أيضاً أنّ حكّام بني أميّة قد استغنوا بالسياسة عن الدّين الإسلاميّ وتجاوزوا في تعاملاتهم الحدود الشرعيّة وأعرضوا عن إحياء أمر القرآن حتّى بلغ الأمر بالخلفاء الأمويين أنفسهم أنّهم أصبحوا قدوةً لغيرهم في تجاوز الدّين ومخالفته[٣].

ولا يختلف رأي العلامة (سيديو) عن رأي المستشرق (دومينيك سورديل) (الإسلام في القرون الوسطى) على الإطلاق، بل على العكس من ذلك تماماً، فهناك تشابهٌ كبيرٌ في وجهات النّظر حتّى أنّها تبلغ أحياناً درجة التطابق التامّ.

---

(١) نفس المصدر السابق ص٦٠.

(٢) العلامة سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ترجمة المرحوم محمد أفندي بن أحمد عبد الرزاق (وآخرون)، دار الآثار . بيروت، ط٢/ ١٤٠٠هـ، ص٩٠.

(٣) نفس المصدر السابق ص٩١.

فعلى المستوى العقائدي، يرى (سورديل) أنّ خلفاء بني أميّة كانوا يحملون النّاس على الاعتقاد بمبدأ الجبريّة أو المشيئة الإلهيّة المطلقة التي لا تترك أيَّ هامشٍ لمشيئة الإنسان وإرادته، وتفسير ذلك عند (سورديل) هو أنّ التقليل من مسؤولية الفرد يعني أيضاً التقليل من مسؤولية الخليفة، وبالتالي عدم محاسبته من قبل رعيَّتِهِ[١].

هذا بالإضافة إلى أنّ (سورديل) يرى أنّ نظام الحكم الأمويّ، وخاصّةً الخلفاء منهم، كانوا دائماً متَّهمين بالكفر حيث يُؤخذ عليهم التعلّق بالحكم والسياسة والتخلّي الكامل عن مقتضيات الرسالة القرآنية[٢].

وقبل أن نكمل إيراد بقيّة الشواهد الاستشراقيّة عن الحكومات الأمويّة التي خطّط لسياستها معاوية وتلامذته المقرّبون، لابدّ لي من لفت انتباه القارئ الكريم إلى نقطةٍ على درجةٍ كبيرةٍ من الأهميّة والخطورة، وهذه النقطة الهامّة تتجلّى بقولنا إنّ استشهادنا بهذه الأقوال للمستشرقين لا يعني لنا أنّ كلّ هؤلاء المستشرقين كانوا حياديّن ومنصفين في تقييمهم للرسالة الإسلاميّة وللأحداث المفصليّة الهامّة التي حدثت على امتداد تاريخها، بل إنّ معظم من دخَلَ دائرة الاستشراق لم يستطع أن ينجو من العصبيّة أو من عدم النضوج في إطلاق الأحكام النهائيّة على شخصيّةٍ ما أو حادثةٍ ما.

أمّا القلّة القليلة من أولئك المستشرقين فهي التي استطاعت، وبعد جهدٍ جهيد، أن تنجو بنفسها من التلوّث بأقذار العصبيّة، وأن تنتهج نهجاً سليماً في الوصول إلى النتائج المنطقيّة الصائبة.

---

(١) دومينيك سورديل، الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة: علي المقلّد، دار التنوير. بيروت، ١٩٨٣، ص٩٠.

(٢) نفس المصدر السابق ص٩٠.

وعلى كلّ حالٍ، فقد ناقشتُ هذه النقطة الحسّاسة في كتابٍ سابقٍ لي يحمل عنوان (الإسلام والغرب بين حوار الحروف وصِدام السيوف)، حيث تمّت المناقشة والدراسة بشكلٍ مفصّلٍ ودقيقٍ[١]، وكان من نتائج تلك الدراسة هو أنّه حتّى أولئك المستشرقون المتعصّبون الذين كتبوا عن الإسلام ورسوله ﷺ ورسالته بطريقةٍ تعصّبيّةٍ واضحةٍ، فقد فشلوا في إخفاء وتبرير الأعمال المخزية والجرائم السوداء البشعة التي ارتكبها الحكّام الأمويون بحقّ الرسالة الإسلاميّة وبحقّ أهلها من المسلمين.

ولئن كان المستشرق الفرنسيّ (بول كازانوفا) (١٨٦١ـ ١٩٢٦) يُعدُّ واحداً من المفكّرين والمستشرقين القلائل الموصوفين بالاعتدال والحيادية في طروحاتهم الفكريّة وفي دراساتهم الأكاديميّة، فقد كان له أثرٌ واضحٌ في العديد من الأبحاث الهامّة عن الإسلام، بالإضافة إلى أنّه كان ـ سابقاً ـ أستاذاً لمادّة أصول اللغة العربيّة في الجامعة المصريّة.

وباختصارٍ شديدٍ، فقد أجاد المستشرق (كازانوفا) في وصفه للخلفاء الأمويّين عندما قال عنهم بكلّ جرأةٍ وصراحةٍ: (كانت نفسيّة الأمويين على الإطلاق مركّبةً على الطمع في الغِنى إلى حدِّ البشَم (أي التّخمة المفرطة)، وحبّ الفتح بقصد النَّهب، والحرص على التَّسوُّدِ للتمتّع بملذّات الدّنيا)[٢].

وهنا تحديداً، سأتوقّف قليلاً مع عبارة المستشرق (كازانوفا) عن طبيعة الحكّام

---

(١) راجي أنور هيفا، الإسلام والغرب بين حوار الحروف وصِدام السيوف، طبع دار العلوم ـ بيروت، ط١/٢٠٠٤م، راجع الفصل الثّاني، ص٥٧ حتّى ص١٠٣.

(٢) جورج جرداق، الإمام علي عليه السلام صوت العدالة الإنسانيّة، ج٤ (علي وعصره)، منشورات دار ومكتبة الحياة ـ بيروت، ١٩٧٠، ص٤٧.

الأمويين المركّبة على (حبّ الفتح بقصد النّهب)، وأقول تعليقاً على هذه العبارة التي أطلقها قلمٌ مسيحيّ من الغرب، إنّ هذه العبارة صحيحةٌ بنسبةٍ عاليةٍ جدّاً.

فالحكّام الأمويّون لم يكن عندهم هاجس نشر الدّين أساساً، بل كان هاجسهم الأوّل هو إيجاد ضحايا جُدُد من العباد والبلاد بقصد استعبادهم ونهب ثرواتهم وخيراتهم، وأذكر تماماً كم كانت هذه الحقائق التي أكتبها الآن تهزّ كيان الكثير من أصدقائي المسلمين السنّة وكم كانت تُدهِشُ أيضاً أصدقائي من المسيحيّين الذين كانت دهشتهم تزداد أكثر فأكثر، هُم والأخوة من السنّة، عندما كنتُ أعمدُ إلى كتب التاريخ المعتَبرة، كتاريخ الأمم والملوك للطبري أو تاريخ الخلفاء للحافظ السيوطي الشافعي أو الإمامة والسياسة للدينوري وإلى غيرها من كتب الحديث والتراجم وأستخرج لهم فضائح الحكّام الأمويّين من بين صفحاتها ممّا لا يدع مجالاً للشكّ بصدق ما جاء فيها بحقّهم من ذكرٍ للمآسي والفظائع التي ارتكبوها بحقّ الرسالة الإسلاميّة ومبادئها من جهةٍ، وبحقّ المسلمين عموماً من جهةٍ أخرى، ولذلك فمن الطبيعي تماماً أن يقول المفكّر السوريّ المعاصر (سليمان الخش) في كتابه (الفتح العربيّ الإسلاميّ): (إنّ الحكّام الأمويّين الظالمين، هُم وعمّالهم، لا يمثّلون إرادة الله في العدل، بل هم ظلّ الشيطان وأعداء الرحمن لأنّهم يأمرون بالشرّ، ويرتكبون الظلم)[1].

وبالطبع، فإنّ هذا القول من الأديب والمفكّر السوريّ الأستاذ (الخش) لم يأتِ من فراغ ولم يأتِ من باب التّجنّي على الحكّام الأمويّين أبداً.

---

(١) سليمان الخش، الفتح العربيّ الإسلاميّ، دار رياض نجيب الريّس للكتب والنشر . لندن، ط١/١٩٩٤، ص١٨٩.

بل على العكس من ذلك تماماً، فالأستاذ (الخش) (١٩٢٦ـ ١٩٩١) كان دارساً جيّداً للتاريخين العربيّ والإسلاميّ، هذا بالإضافة إلى عمله الأساسيّ كأستاذٍ محاضرٍ في آداب اللغة العربيّة في جامعة دمشق، وقد شغل عدّة مناصب وزاريّة هامّة حيث عُيّن وزيراً للثقافة ثمّ للإعلام ثمّ للتربية، وقد مكّنته تلك المناصب الوزاريّة من الاطّلاع على الكثير من القضايا الثقافية والتراثية الهامّة، ولعلّ هذا هو أحد أهمّ الأسباب التي دفعته للكتابة عن تاريخ العرب والمسلمين بهدف كشف النقاب عن الكثير من الحقائق الخطيرة المدفونة تحت رمال التاريخ.

ونعود ثانيةً ونقول إنّ الأستاذ (الخش)، وهو بالطبع ليس شيعيّاً، قد تحدّث بإسهاب عن الحكم الأمويّ الفاسد، والذي كان من نتائج حكّامه الأوائل استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في الشهر الحرام على بطاح كربلاء، ولم يكتفِ الأستاذ (الخش) بذكر مساوئ ومثالب تلك الدولة الجائرة، بل راح يشير إلى نقطةٍ على غايةٍ من الأهميّة والخطورة وعلى درجةٍ كبيرةٍ من الدقّة والصحّة، إنّها النقطة التي تُسمّى بالفتح الإسلاميّ في العصر الأمويّ.

وعن هذه النقطة الحسّاسة، فقد كتب الأستاذ (الخش) تحت عنوان (المجاهدون يُدينون التوسّع الإمبراطوريّ العربيّ) ما يلي:

(عاش الكثيرون من الكُماة (أي المحاربين) العرب الذين انزلقت أقدامهم في جيوش التوسّع طلباً للرزق أو الثراء، ثمّ اكتشفوا أنفسهم وقد خانوا مبادئ الإخاء العالميّ الذي وعَدَ به الإسلام، فانكفأوا على أنفسهم يلومونها، وطَفِقوا يراجعون تلك الخطوات التي خَطوها بعيداً عن القضايا الكبرى للإنسان العربيّ)[1].

(١) نفس المصدر السابق ص١٣٠.

إذن، ليس هناك في الإمبراطوريّة الأمويّة شيءٌ يُدعى الفتح الإسلاميّ لنشر نور الرسالة الإسلاميّة، بل هناك شيءٌ واضحٌ يتعلّق بطبيعة الحروب التي خاضتها تلك الإمبراطوريّة الشرسة، إنّه التوسّع بحدِّ السّيف تحت غطاءٍ إسلاميّ بهدف خَلقِ حركةٍ استعماريّة تمدّ أذرعَها الأخطبوطيّة إلى كلّ مكانٍ من الأمكنة في العالم الرحيب المثقّل بالخيرات والثروات والفتيات الكواعب الحِسان.

وغنيٌّ عن القول إنّ هذا الرأي الجريء والصائب الذي باحَ به المفكّر الأستاذ (الخش) ليس بالرأي الجريء الوحيد على ساحة الفكر، فهناك الكثير والكثير جدّاً من رجال البحث والفكر والأدب ممّن صرّحوا، وبكلّ جرأةٍ وقوّةٍ، بمواقفهم وآرائهم حول طبيعة الحكم الأمويّ الغاشم الذي أذلّ المسلمين في الدّاخل واستباح حرمات النّاس في الخارج تحت عناوين شتّى وبشعاراتٍ مختلفةٍ، مثل (الجهاد في سبيل الله) و(الفتح الإسلاميّ) و(نشر الرسالة الإسلاميّة) وإلى غير ما هنالك من شعارات وعناوين مترهّلة في شكلها ومعانيها على جسد وطبيعة الحكومات الأمويّة.

وبطبيعة الحال، ليس بإمكاننا أن نذكر كلّ أولئك الكثيرين الذين أَدْلوا بآرائهم الصريحة وبوجهات نظرهم الجريئة بخصوص أهل الشجرة الملعونة في القرآن، تلك الشجرة التي حاولت جاهدةً أن تمدَّ أغصانها شرقاً وغرباً لِفَرض ظلالها المظلمة المرعبة على كلّ مَن تَطَالُه تلك الأغصان الشيطانيّة الخانقة.

ولكنْ، للتأكيد فقط، يكفي أن نذكر من ذلك الكَمِّ الهائل من المفكّرين الذين يتّفقون في الرأي مع رأي المفكّر السوريّ (سليمان الخشّ) المفكّر والعلامة المصريّ (محمد الغزالي) صاحب عشرات المؤلّفات في ميدان الفكر والدّين والسياسة والاقتصاد والفلسفة الإسلاميّة.

فالأستاذ (الغزالي)، وإنْ تعدّدت الميادين التي كَتَب فيها، إلا أنّه يبقى قبل كلّ شيءٍ مفكّراً إسلامياً بارزاً في الزمن المعاصر حيث اصطبغت كلُّ مؤلّفاته الفكريّة بالصبغة الإسلاميّة الواضحة وهذا ما جعل منه ومن مؤلّفاته مرجعاً هامّاً وأساسيّاً لكلّ الذين يريدون أن يدرسوا الإسلام وعلاقته بالحياة من خلال رؤية إسلاميّة معاصرة.

وحتّى لا نبتعد كثيراً عن محور النقطة المطروحة الآن، نقول إنّ الأستاذ (الغزالي) قد كرّس معظم وقته وجهده لدراسة الإسلام ومسيرته التاريخيّة والروحيّة، ودرس بإمعانٍ ورويّة الحروب الإسلاميّة الداخليّة والفتن المحلّية التي مزّقت صفوف المسلمين وشتّت شملهم وأزهقت أرواح الآلاف منهم.

وقد درس أيضاً تفاصيل ما حدث مع الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء والأسباب التي دَعتْه عليه السلام للخروج والهجرة مع أهل بيته عليهم السلام وأصحابه المخلصين إلى أرض الشهادة والخلود.

ولم يقصّر الأستاذ (الغزالي) في دراسة كلّ الحروب الداخليّة التي سبقت واقعة كربلاء، وربّما استوقفته حرب صفّين بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية أكثر من غيرها من بقيّة الحروب، ولذلك فعندما طُلِبَ منه رأيه في ما حدث في صفّين بين جيش الإمام علي عليه السلام وجيش معاوية، أجاب مقسماً بالله العظيم إنّه يحبّ عليّاً عليه السلام كثيراً ويودّ لو كان له شرف الاستشهاد بين يديه في صفّين[١].

أمّا عن موقفه من الإمام الحسين عليه السلام وما حدث معه في كربلاء فسنأتي على ذكره في المكان المناسب.

ونعود للتأكيد ثانيةً على أنّ الأستاذ (الغزالي) واحدٌ من بين الكثيرين الذين رأوا

---

(١) محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، مكتبة الأمل . الكويت، ١٩٦٧، ص٣٣٦.

في الحكومات الأمويّة رمزاً للإمبراطوريّة التوسعيّة التي وضعت الدّنيا أمام عينيها وألقت بالآخرة وراء ظهرها.

ومن هنا يتساءل الأستاذ (الغزالي) عن أهداف العرب الأمويّين من غزو العالم، وعن سبب فشلهم في حمل لواء الإسلام كما يدّعون.

وها هو يقول متسائلاً:

ماذا صنع العرب (الأمويّون) في الأندلس؟!

ويجيب هو مباشرةً على هذا السؤال بقوله:

فشل هؤلاء في إقناع الجماهير المشدوهة أنّ محمداً رحمةٌ للعالمين!!

فشلوا في استثارة أشواق الأمم الضخمة إلى قبول الإسلام عن حماسٍ ورغبة!

كانت أجهزة الدعاية الإسلاميّة القائمة على البصر والعلم قد تعطّلت في ظلّ ولاةٍ جَوَرة، وملوك فَسَقَة، فانحسر الإسلام عن الأندلس، بعدما أفسد الترفُ الخاصةَ والعامّة، وبعدما أُنشئت فيها بُحيرات من المِسكِ على شطآنها أَوْحالٌ من العنبر[1].

إذنْ، وباختصارٍ شديدٍ، يرى الأستاذ (الغزالي) أنّ العرب الأمويّين قد نقلوا معهم الفساد الاجتماعيّ والتردّي الدينيّ إلى العديد من بقاع الأرض وعلى رأسها بلادُ الأندلس، وهذا ما جعل أهلَ الأندلس وغيرَهم يُشكّكون بصدق الرسالة الإسلاميّة من جهةٍ، وبصدق أنّ محمداً صلى الله عليه وآله هو فعلاً رسول الرحمة للإنسانيّة جمعاء من جهةٍ أخرى.

وربّ قائلٍ يقول مستنكراً أو مستفسراً:

ولكن ما دَخْل هذه الأحداث المتأخّرة بعصر الإمام الحسين عليه السلام؟!

(١) محمد الغزالي، نظرات في القرآن، دار الكتب الحديثة. القاهرة، ط٣/١٩٦٢، ص٢٢٨.

فهو لم يعاصر إلا شطراً يسيراً منها، فلماذا نأتي على ذكرها؟!

ويمكننا الإجابة على أسئلةٍ كهذه بقولنا: نعم، إنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يعاصر من الحكّام الأمويين إلا القلّة القليلة جداً، ولكن هذا لا يمنع من ضرورة إعطاء صورةٍ متكاملةٍ عن طبيعة الحكم الأمويّ العام الذي عاش الإمام الحسين عليه السلام الجزء الأخير من حياته الشريفة فيه إلى أن استشهد في ظلّ ذلك الحكم الجائر.

فالإمام الحسين عليه السلام شَهِد من الحروب أقواها، وعاصر من الفتن أدهاها وعانى من المصائب أقساها، وكان عليه السلام يدرك في قرارة نفسه، وبالاعتماد على اخبار جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله بما ستؤول الأمورُ إليه بعده، أنّ بني أميّة سيملكون الأمر بيدٍ من حديدٍ وسيحكمون المسلمين بسيفٍ من نارٍ لا يعرف العدل ولا الرحمة.

ولذلك، فالإمام الحسين عليه السلام عاش، بالفعل، هاجس الخوف والقلق ممّا سَيُقدِم عليه الأمويّون لاحقاً من أجل إطفاء نور الله وإسقاط راية محمد صلى الله عليه وآله.

فالإمام الحسين عليه السلام لم يعش هاجس الخوف والقلق على ذاته ونفسه أبداً، وإلا لمَا خرج بقوةٍ وشجاعةٍ وإيمان إلى ساحة كربلاء، ولكنّ خوف الإمام الحسين عليه السلام وقلقه كان على مصير رسالة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله من بعده، ولذلك فعندما نقوم نحنُ الآن بإعطاء صورةٍ متكاملةٍ لطبيعة الحكم الأمويّ عموماً، فإنّنا نقصد من وراء ذلك تأكيد صدق الهواجس التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام وأحسَّ بها يقيناً قبل حدوثها على مدى عقودٍ عديدةٍ.

ومن أجل أن نعيش بُعداً هامّاً من أبعاد عصر الإمام الحسين عليه السلام، علينا أن نتوقّف مع حدثٍ هام تعمّدنا إرجاء الكلام عنه سابقاً، ونرى الآن أنّ الوقت قد حان فعلاً للكلام عنه هنا بالتحديد، إنّه صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية ومعاهدة

التعايش السلميّ بين المعسكرين.

فمن المعروف للجميع أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد شهد ما آلتْ إليه أمور المسلمين قُبيلَ استشهاد الإمام علي عليه السلام نتيجة خروج معاوية عن طاعة الإمام وإحداث شَرخٍ عريضٍ في صفوف المسلمين واستغلاله حادثة مقتل قريبه عثمان بن عفّان الذي شارك هو شخصياً في تسريع عمليّة مقتله والتخلّص منه كي يصفو له الجوّ بعد ذلك من أجل تنفيذ مخطّطاته الخاصّة التي وضعها هو والمقرّبون منه كعمرو بن العاص وغيره ممّن كان لهم باعٌ طويلٌ في محاربة الرسالة والرسول صلى الله عليه وآله قبل إظهار إسلامهم.

لقد أدرك الإمام الحسين عليه السلام ـ شأنه في ذلك شأن أخيه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ـ أنّ الإسلام بات على مرمى من حجرٍ من الدّخول في دائرة التّيه والضياع والوقوع فريسةً سهلةً ولقمةً سائغةً في فم الرّوم وسواهم من الأعداء الخارجيّين المتحفّزين في كلّ لحظةٍ للوثوب على الأمّة الإسلاميّة الصغيرة والحديثة الولادة قياساً بالإمبراطوريّات والممالك الأخرى القويّة والعريقة المحيطة بها.

نعم، لقد أدرك الإمامان السيّدان الحسن والحسين عليهما السلام هذه الحقيقة المرّة والتي لا سبيل إلى تجاهلها أو الإغضاء عنها إلا بمجابهتها وجهاً لوجه وذلك عن طريق دراستها وتحليلها ومن ثمّ استخلاص النتائج المترتّبة عليها، وبالتالي وجوب القيام بالتصرّف المطلوب بغية الوصول إلى أيّ هدفٍ من شأنه أن يحفظ الرسالة السّماوية الجديدة، وأن يقلّص الهوّة بين المسلمين في الدّاخل ولفت أنظارهم إلى عَدوّهم المتربّص بهم شرّاً في الخارج.

وكان من الطبيعيّ أن يكون القرار الحاسم والخطير بشأن تلك المسألة في يد

الإمام الأكبر، الإمام الحسين عليه السلام الذي كان ـ كما تصفه كتب المسلمين عموماً ـ أشبه النّاس بجدّه النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله خَلقاً وخُلُقاً.

ولمّا كان الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله قد بعثه الله سبحانه وتعالى رحمةً للعالمين، كان من الطبيعيّ ومن المنطقيّ تماماً أن يحذو حفيدهُ الإمام الحسن عليه السلام حذوَه في طلب الرحمة والرفق والسّلام والمحبّة للجميع من مسلمين وحتّى غير مسلمين طالما أنّهم لا يناصبون الحقّ العداء الدّامي ولا يتربّصون بهم دوائر السّوء.

وبما أنّ الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله قد صرّح في أكثر من مناسبةٍ قائلاً عن حفيده الإمام الحسن عليه السلام: «إنّ ابني هذا سيّدٌ ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1].

فقد كان من الطبيعي تماماً أن يقبل الإمام الحسن عليه السلام الصلح الذي عرضه عليه معاوية مع التحفّظ الكامل على بعض بنود الصلح المكتوبة بوجود الشهود من كِلا الطرفين المتنازعين.

ولا ريب أيضاً في أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان له رأيه في بنود ذلك الصلح،

---

(١) راجع على سبيل المثال، لا الحصر، ما جاء في الكتب التالية:

أ ـ العلامة سبط ابن الجوزي الحنفي، تذكرة الخواص، منشورات الشريف الرضيّ ـ قمّ، ١٤١٨، ص١٧٧.

ب ـ العلامة كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي، مطالب السّؤول، مؤسسة البلاغ ـ بيروت، ١٩٩٩، ص٢٢٧.

ج ـ العلامة ابن الصّباغ المالكي، الفصول المهمّة، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، د.ت، ص١٥٣.

د ـ الشيخ مؤمن الشبلنجي الشافعي، نور الأبصار، دار الفكر ـ بيروت، د.ت، ص١٣٣.

هـ ـ الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي، تاريخ الخلفاء، دار الفكر ـ بيروت، د.ت، ص١٧٦.

و ـ محمد رضا (المصري)، الحسن والحسين، المكتبة العصرية ـ صيدا، ط١/٢٠٠٤م، ص٣٥.

وكان له بنفس الوقت حضوره الشخصيّ الذي يمثّل دورَ الإمام الشاهد الذي سيذكّر المسلمين لاحقاً أنّ أخاه الإمام الحسن عليه السلام لم يقبل الصلح إلا لقلّة ناصريه الحقيقيّين من جهةٍ، وليُبيّنَ لهم أيضاً أنّ معاوية رجل غَدرٍ ومكرٍ لا يقيم للعهود أيّ وزنٍ ولا يقيم للدّين ومواثيقه أيّ اعتبار، أمّا الشيء الآخر والذي لا يقلّ أهميةً عمّا سبق هو إرادة الحسين عليه السلام الواضحة في النزول عند رغبة أخيه الإمام الحسن عليه السلام بعقد الصلح مع معاوية ـ بعد التأكّد من رغبة العدد الأكبر من الأتباع في الإعراض عن المواجهة المباشرة والميل الواضح إلى المهادنة ـ ليذكّرهم لاحقاً أنّ للصلح زمان وللثورة زمان، ولا معنى للثورة ما لم يكن هناك ما يبرّر القيام بها من أسباب وظروف ورياح زمنيّة مؤاتية وبعد الاستنفاد الكامل لكلّ الوسائل والسُّبل السلميّة في كيفية التعامل مع جوهر المشكلة وأسباب النزاع.

ومن أجل أن تبدو الصورة أكثر وضوحاً في ما يتعلّق بصلح الإمام الحسن عليه السلام المُبرَم مع معاوية، والذي كان الإمام الحسين عليه السلام شاهداً حَيّاً وحَيويّاً على أسباب وظروف انعقاده وعلى بنوده وشروطه، ومن ثمّ على مصيره ونتائجه اللاحقة، نرى من الواجب علينا أن نذكر الآن أهمّ بنود هذا الصلح كما سَجّلته كتب التاريخ عند كلّ الأطراف، وخاصّةً السنيّة، مع الأخذ بعين الاعتبار وجود بعض الاختلافات اليسيرة بين الكتب والمراجع المعتَبرة.

ونحن بدورنا، بإمكاننا الآن أن ننسّق ونختصر صورة مواد ذلك الصلح ونوردها بالشكل التالي:

١ـ تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله وبسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبسيرة الخلفاء الصالحين.

٢ـ أن يكون الأمر للإمام الحسن عليه السلام من بعده، فإذا حدث له مكروهٌ فيكون الأمر لأخيه الحسين عليه السلام.

٣ـ ليس لمعاوية الحقّ في أن يعهد بالأمر إلى أحدٍ من بعده.

٤ـ أن يتوقّف عن سَبِّ أمير المؤمنين علي عليه السلام والقنوت عليه بالصّلاة، وأن لا يذكر عليّاً إلا بخير.

٥ـ على معاوية أن يحمل إلى الحسين عليه السلام ألفي ألف درهم لتوزيعها على فقراء الشيعة، وأن يفرّق معاوية الأموال في أولاد من قُتِل مع أمير المؤمنين علي عليه السلام يوم الجمل، وأولاد من قُتِل معه بصفين أيضاً.

٦ـ على معاوية أن يجعل النّاس آمنين حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وأن يؤمن الأسود والأحمر، وأن لا يتّبع أحداً بما قد مضى، ولا يأخذ النّاس بالهفوات، وأن يعطي أصحابَ علي عليه السلام الأمان حيث كانوا، وأن لا ينال أحداً من شيعة علي عليه السلام بمكروه، وأن يكونوا آمنين جميعاً على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأولادهم، وأن لا يتعقّب عليهم شيئاً ولا يتعرّض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلىٰ كلّ ذي حقٍّ حقّه.

وعلى معاوية أيضاً أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحدٍ من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله غائلة، سرّاً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أُفق من الآفاق[1].

---

(١) راجع ما جاء في الكتب التالية، مع ضرورة ملاحظة أنّ البعض منها قد اقتصر على ذكر بعض البنود فقط في حين أنّ البعض الآخر حاول أن يذكر معظم البنود أو أهمّها:

أ ـ العلامة الشيخ مؤمن الشبلنجي الشافعي، نور الأبصار، مصدر سابق، ص١٣٣.

ب ـ العلامة كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي، مطالب السؤول، مصدر سابق، ص٢٤٠.

هذه هي، بإيجازٍ، بنود الصّلح بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية والتي عَمِلَ من خلالها الإمام الحسن المجتبى عليه السلام على حقن دماء المسلمين كما كان قد تنبّأ له جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بذلك قُبيل رحيله إلى الملأ الأعلى بوقتٍ ليس بالقصير.

وهذا الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية هو صفحةٌ هامّةٌ من الصفحات التي قرأها الإمام الحسين عليه السلام بإمعانٍ وحلّلها بِرويّةٍ وإتقانٍ، ومن ثمّ استخلص النتائج المنبثقة عنها واحتفظ بتلك النتائج الهامّة المستخلصة إلى حين وجوب إظهارها وشرحها وتبيانها إلى عموم المسلمين في الوقت المناسب.

ولعلّ من أهمّ النتائج السّريعة التي استخلصها المسلمون عموماً ودون انتظار شرحها من الإمام الحسن عليه السلام أو أخيه الإمام الحسين عليه السلام هي حقيقة أنّ معاوية لا يمكن أن يكون إلا أحد أهمّ الأغصان في الشجرة الملعونة في القرآن.

فمعاوية الذي أعطى الإمام الحسن عليه السلام العهود والمواثيق وأغلظ له الوعود بالوفاء له بها لم يلبث إلا سويعاتٍ قليلةٍ على وعوده وعقوده التي استشهد اللهَ عليها حتّى انقلب على عقبيه ونكَصَ مرتدّاً عن كلّ ميثاقٍ غليظٍ وراح يهدم في بناء الإسلام حجراً وراء حجر وكأنّه نسي أنّ أولَ بندٍ من بنود صلحه مع الإمام الحسن المجتبى

ج . الإمام العلامة ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمّة، مصدر سابق، ص١٦٣.

د . العلامة سبط ابن الجوزي الحنفي، تذكرة الخواص، مصدر سابق، ص١٨٠.

هـ . العلامة سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، مصدر سابق، ج٢ ص١١٧.

و . العلامة غريغوريوس الملَطي المعروف بـ (ابن العبري)، مختصر تاريخ الدّول، طبع مؤسسة نشر منابع الثقافة الإسلامية . مدينة قمّ، د.ت، ص١٠٨.

ز . محمد رضا، الحسن والحسين، مصدر سابق ص٤٨.

ح . أسعد وحيد القاسم (الفلسطينيّ)، حقيقة الشيعة الإثني عشريّة، طبع ونشر رابطة أهل البيت عليهم السلام الإسلاميّة العالميّة . لندن، ط١ / ١٩٩١، ص٧٥.

ط . محمد جواد فضل الله، صلح الإمام الحسن، دار المثقّف المسلم . قم، د.ت، ص١٣٠.

عليه السلام هو أن يعمل في الرعيَّةِ بكتابِ الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

إذنْ، كانت هذه الحادثة المشهورة إحدى الصفحات الهامّة التي عاصرها الإمام الحسين عليه السلام وعايشها عن قرب واستمدّ منها دروساً عظيمةً في كيفيّة التعامل معها كلّ أنواع أعداء الرسالة في المستقبل القريب.

فالرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم تنبّأ لحفيده الإمام الحسن عليه السلام بأنّه سيكون السيّد العظيم الذي سيحقن بأخلاقهِ وحكمتهِ وحلمهِ دماء المسلمين، وقد حَدَث بالفعل ما تنبّأ به الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وكأنّه كان يقرأ كتاب الغيب وهو بين يديه الكريمتين.

وهنا لنا أن نتساءل قائلين: نعم، لقد صدق الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بشأن ما سيحدث مع أوّل ريحانتَيه العطرتين بشأن حقن دماء المسلمين، ولكن ما هو موقفه صلى الله عليه وآله وسلم ممّا سيحدث لثاني ريحانتيه عندما يرفض المسلمون الذين حُقِنت دماؤهم بفضل أخيه عليه السلام أن يحقنوا دَمه الزكيّ ودم عياله وأهل بيته وأصحابه المخلصين المدافعين عن أحد سيّدي شباب أهل الجنّة؟!

أيُّ تناقضٍ عجيبٍ هذا!!

الإمام الحسن عليه السلام يخطّط لحقن دماء المسلمين، والمسلمون من وراء قادتهم ينساقون لسفكّ دماء أخيه الإمام الحسين عليه السلام؟!

أيُّ مفارقةٍ غريبةٍ تلك!!

المسلمون يرفعون أصواتهم بالصّلاة والسّلام على محمد وأهل بيت محمد خمس مرّات في اليوم، ومن ثمّ يعودون فيرفعون أياديهم بالسّيوف والرّماح ليوقعوها على رقاب أولاد وأحفاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته، وهم يرجون ـ بعد ذلك ـ شفاعته؟!

فلا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

جذور الثورة ودوافع النهضة

تحدّثنا في الفصل السابق من هذا الكتاب عن نقطتين أساسيّتين وهما: عصر الإمام الحسين عليه السلام والأحداث الهامّة التي شَهِدها كلّها حيث كان عليه السلام الشاهد الفعّال في معايشتها وفي التعامل مع تَبِعاتها لاحقاً، أمّا النقطة الثانية التي تحدّثنا عنها أيضاً هي التعريف الموجز بالشجرة الملعونة التي ما برحت تناصب الإسلامَ والرسول صلى الله عليه وآله وسلم العداء والبغضاء منذ انبلاج الخيوط الأولى لأشعة الرسالة وحتّى اندثار دولتهم التي أُسِّست على الغدر والخيانة وعلى أمل إعادة الحياة إلى الروح الوثنيّة والقِيم الجاهليّة في المجتمع الجديد.

وغنيٌّ عن القول إنّ هذا الفصل جزءٌ لا يتجزّأ عن الفصل السابق، بل يمكننا القول إنّ هذا الفصل هو الامتداد الفكريّ الطبيعيّ للفصل السابق بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر أبداً.

ولذلك، وقبل أن ندخل في دراسة وتحليل جذور الثورة الحسينيّة ودوافع تلك النهضة المباركة التي لا تزال تداعب ضمائر الأحرار وقادة الثورات الكبرى في العالم حتّى وقتنا الراهن، علينا أن نُذكِّر ثانيةً بحقيقة أنّ معاوية بن أبي سفيان الذي تكلّمنا عن بعض موبقاته في الفصل الماضي، كان يمثّل وبجدارةٍ الطعنة القاتلة التي استقرّت في صدر الإسلام.

لقد كان الشيخ الأزهري، العلامة (محمود أبو ريّة) على حقّ حين اختصر الكلام

عن معاوية في كتابه (شيخ المضيرة أبو هريرة) وأثرِهِ على غير المسلمين من أوروبيّين وغير أوروبيين بقوله إنّ أحد كبار علماء الألمان في الآستانة قال يوماً لبعض المسلمين ـ وفيهم أحد شرفاء مكّة المكرّمة:

إنّه ينبغي لنا أن نقيم تمثالاً من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا في عاصمتنا برلين، فقيل له: لماذا؟ قال: لأنّه هو الذي حوّل نظام الحكم الإسلاميّ عن قاعدته الديمقراطيّة إلى عصبيّةٍ، ولولا لذلك لَعَمَّ الإسلامُ العالمَ كلّه، وإذنْ لُكنّا نحن الألمان وسائر شعوب أوروبا عرباً مسلمين)[1].

ولا ريبَ في أنّ هذا الكلام صحيحٌ تماماً، فمعاوية، وغيره ممّن لقّبوا أنفسَهم بالخلفاء، كان لهم الدّور الأبرز في إبعاد النّاس عن الإسلام، بل وفي تنفيرهم من المسلمين عموماً.

فالإسلام من حيثُ إنّه رسالةٌ سماويّةٌ أخيرةٌ موجّهةٌ بواسطة نبيّ مرسَل إلى عموم أهل الأرض لم يكن بالنسبة إلى معاوية وأمثاله أكثر من ستار عريض يخفون وراءه كلّ ما يكنّون من مطامع شخصيّة ورغبات ذاتيّة دنيويّة لا تمتُّ للدّين الإسلاميّ بأدنى صلة، ويكفي أن نذكر على سبيل المثال أنّ المستشرق (هنري ماسيه) المعروف بِتَشنُّجِهِ تجاه العديد من المسائل الإسلامية، لم يَرَ حرجاً في ذكر تلك الحقيقة الواضحة عن طبيعة الحكّام الأمويين عموماً، فقد قال الأستاذ (ماسيه) بالحرف الواحد في كتابه الذي يحمل عنوان (الإسلام) ما يلي:

(إنّ الأمويين رأوا أنّ اعتناق الإسلام يُنقص مدخول الضرائب فوضعوا العوائقَ

---

(١) محمود أبو ريّة، شيخ المضيرة أبو هريرة، دار المعارف بمصر. القاهرة، ط٣/ ١٩٦٩، ص١٨٥.

أمام اعتناق الإسلام، وكان عمّالهم يعاملون هذه الشعوب (غير العربيّة)، التي هي وارثة لمدنيّات قديمة يسرُّها تذكُّرها، كطبقةٍ أدنى، ويضغطون عليها ويسيئون معاملتها)[١].

إذنْ، أن تدفع لهم حفنةً من المال أفضل عندهم من أن تصبح أخاً لهم في الإسلام.

ويبدو أنّ قَدَرَ أهل البيت عليهم السلام، الحَمَلة الحقيقيين لرسالة الله في أرضه، أنْ يكونوا دائماً هدفاً مباشراً لعداوة أهل البيت الأمويّ، ذلك البيت الذي لم يؤمن أفرادُه بالإسلام إلا خوفاً أو طمعاً، ولم يدّخروا جهداً في محاولاتهم إعادة النّاس إلى ما كانوا عليه في عصر الجاهليّة من الوثنيّة والعصبيّة والروح الأعرابيّة التي تتعارض مع المبادئ الإسلاميّة والقِيَم المحمديّة في الكثير من جوانبها وغاياتها.

وقد صَدَقَ شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء (أبو العلاء المعرّي) عندما وصف تلك العداوة الدائمة بين الحقّ والباطل، الخير والشرّ، بقوله:

عبدُ شمس قد أضرمتْ لبني هاشم حرباً يشيب فيها الوليدُ
فابنُ حربٍ للمصطفى، وابنُ هندٍ لعليٍّ، وللحسين يزيدُ[٢]

إذنْ، العداوة بين هذين البيتين قائمةً دائماً وأبداً، بيتٌ يريد أهلهُ أن يحملوا بشائر النّور إلى العالمَين ليهدي الإنسان إلى سراج الحقّ والخير والفضيلة، وبيتْ ثان يريد أهلُه أن يُطفئوا ذلك النّور بأفواههم ليعودوا بالإنسان إلى كهوف الظلم والظلام والرذيلة.

---

(١) هنري ماسيه، الإسلام، ترجمة: بهيج شعبان، منشورات عويدات. بيروت، ١٩٦٠، ص٧٣.

(٢) آية الله محمد حسين فضل الله، حديث عاشوراء، دار الملاك . بيروت، ط١/ ١٩٩٧، ص٢١٦.

نعم، إنّ كلّ الخلفاء الأمويين عموماً، ومعاوية وابنه يزيد خصوصاً، قد رفعوا شعارات إسلاميّة برّاقة وحاولوا دائبين إيهام المسلمين أنّهم يعملون بكلّ تقوى وإخلاص لتحقيق تلك الشعارات والعناوين العريضة التي من شأنها أن تضفي عليهم شرعيّة لقب (الخليفة) وتبعد عنهم بنفس الوقت لقب (الملك) أو حتّى (الإمبراطور).

وبالطبع، لم يكتفوا بذلك بل راحوا يغدقون الأموال الطائلة لأصحاب الأقلام المأجورة والضمائر المهجورة كي يشوّهوا معالمَ الرسالة وسيرةَ الرسول ﷺ وذلك بهدف تبرير ما يقومون هم به من أفعال دنيئةٍ وآثامٍ رديئةٍ يترفّع عن ارتكابها حتّى الإنسان العاديّ من عموم المسلمين.

لقد أوحى (خلفاء) بني أميّة ـ من خلال مؤرّخيهم ورُواتهم ـ أنّ النبيّ الكريم ﷺ غير معصومٍ حتّى عن الكبائر، بل يمكن له أحياناً أن ينسى آيات من القرآن، ويمكن له أن يظلم في القضاء بحجّة أنّ بعض النّاس يكونون أقوى في حجّتهم من البعض الآخر ولو كانت تلك الحجة مكذوبة.

ويمكن للرسول ﷺ أن يعيش طويلاً مع مَلذَّاتِه حتّى أنّه لا يصبر على عدم مجامعة أزواجه، فيباشر البعضَ منهنّ وهُنَّ حائضات.

والأدهى من ذلك أنّ الرسول ﷺ كان يشرب الخمر أحياناً دون حرج مع معرفته المسبقة به أنّه خمرٌ ومسكر، ولذلك، ما على القارئ الكريم، إذا أراد أن يتأكّد من ورود هذه الصفات الذميمة التي أُلصِقت بالنبيّ المصطفى ﷺ زوراً وبهتاناً، إلا أن يعود إلى قراءة (صِحَاح) المسلمين ليرى ذلك بأمّ عينه وخصوصاً تلك الأحاديث الكثيرة الزائفة التي وردت على لسان شيخ المنافقين (أبي هريرة)، ذلك الراوي الكاذب الذي نهاه عمر بن الخطاب عن رواية الحديث، وعزلَه عن ولاية البحرين

لعدم أمانته، بل وقام أيضاً بِجَلده بقسوةٍ حتّى أدمى ظهره[1].

وربّ قائلٍ يسأل هنا مستفسراً عن سبب إلصاق هذه التّهم الباطلة بالرسول الكريم ﷺ، وما الحكمة في ذلك.

ويكون الجواب، وبكلّ بساطةٍ، أنّهم كانوا يلصقون تلك الافتراءات الباطلة والتّهم المُشينة بصورة الرسول المصطفى ﷺ ليكون ذلك مخرجاً منطقيّاً لهم من الأفعال السوداء التي كانوا يمارسونها على مسمعٍ ومرأى من عامّة المسلمين.

هذا من جهةٍ، أمّا من جهةٍ ثانية، فقد غرسوا في أذهان النّاس فكرة (الجبريّة) في الأفعال.

فالخليفة ـ وفق تلك النظرية الدخيلة على الفكر الإسلاميّ السليم ـ سيتمكّن من قتل كلّ معارضيه وتصفيتهم لأنّ الإرادة الإلهيّة أجبرته على ذلك، والخليفة أيضاً سيكون قادراً ـ وفقاً لنفس النظريّة السابقة ـ على ارتكاب كلّ ما تطيب له نفسه من آثام وموبقات دون أن يحاسبه أحدٌ وذلك لسببين جوهريّن وهما: أوّلاً، إنّ الرسول الكريم ﷺ ذاته كان ـ وفق مرويّاتهم الملفّقة ـ معرّضاً لارتكاب كلّ أنواع الأخطاء والمعاصي، وبالتالي فمن الطبيعي أن يخطئ الخليفة كما أخطأ الرسول.

ثانياً، إذا كانت الإرادة الإلهيّة تقتضي إجبارَ العبد على فعل المعاصي، فلا يجوز لأحدٍ من الخلائق أن يعترض على ما يقوم به الخليفة من جرائم وآثام حتّى ولو كانت تلك الجرائم بحقّ الإسلام ذاته.

وهكذا كان الخليفة أو الحاكم منهم يريد إسلاماً خاصّاً على شاكلته وعلى مقتضيات احتياجاته ومتطلّباته، فقد أصبح الإسلام بالنسبة إليهم أشبه ما يكون بقطعةٍ

---

(١) محمود أبو ريّة، شيخ المضيرة أبو هريرة، مصدر سابق ص١٠٥.

من القماش يقوم الخليفة بقصّها وتفصيلها وفقاً للشكل الذي يريدهُ وتبعاً للمقاس المطلوب.

فهو ربُّ الرعيّة في النّهار، لكنّه، بنفس الوقت، هو ربّ الغانيات في الليل، وهو الذي يخطب بالمسلمين في أيام الجمعة ويقول لهم محذّراً من الظلم ومذكّراً إيّاهم بالحديث النبويّ الشريف الذي يقول فيه رسولُ الرحمة النبيّ المصطفى ﷺ إنّ امرأةً دخلتَ النّار في هرّةٍ حبستها، فما أطعمتْها وما تركتْها تأكل من خُشَاش (أي حشرات) الأرض.

نعم، هو يحذّر المسلمين في خطبِ الجمعة من ظلم الهرّة وربّما أدنى من ذلك، لكنّه يحضّ المسلمين في نفس الخطب على وجوب قتل أهل بيت محمد عليهم السلام وإراقة دمائهم ودماء أتباعهم أينما وُجِدوا!!

إنّهم يرفعون أصواتهم بالصّلاة على محمد خمس مرّاتٍ في اليوم، وبعد الصّلاة يتقرّبون إلى الله بتقتيل أبناء وذريّة ذلك الرسول الذي كانوا منذ قليل يرفعون أصواتهم بالصّلاة عليه!!

وعلى أيّ حالٍ، ومن أجل عدم الخروج عن محور بحثنا، دعونا الآن نبحث في الأسباب التي دعت الإمام الحسين عليه السلام للقيام بثورته، أو بالأصحّ، بنهضته في مواجهة ومقارعة رؤوس الإمبراطوريّة الأمويّة مع معرفته المسبقة بالثمن الباهظ الذي سيدفعه لقاء ذلك.

وقبل كلّ شيءٍ، دعونا نقف قليلاً مع كلمات قليلة ومعبّرة قالها المفكّر والدكتور السوريّ (شبلي شميّل) (١٨٥٣ـ ١٩١٧) عن مفهوم الثورة وضروراتها.

يقول الدكتور (شميّل): (إنّ المجتمع لا بدّ له في بعض الأحوال من ثورةٍ تخلّصه

من خطر الهلاك، ويلزم أن تكون الثورة صادرةٌ عن استعدادٍ باطنٍ كأنّها اتّفاقٌ خفيٌّ بين أعضائه، موافقة لأمياله، أي أن تكون عبارة عن صوت الشعب لكي تكون قانونيّة وإلا انقلبتْ شَرّاً عليه)[1].

ويرى هذا الدكتور و(الفيلسوف) ـ كما جاء وصفه في العديد من المراجع والموسوعات ـ أنّ الثورة يجب أن يُكتب لها النصر بطريقةٍ أو بأخرى وإلا فإنّها ستذهب جهودها أدراج الرياح وتتحوّل إلى رمادٍ في مهبّ العواصف وعلى كثبان الرّمال.

ولا ريبَ في أنّ هذا الكلام لا يخلو من الصدق والصحّة وإنْ كان لدينا بعض التحفّظات على تحليل تفاصيل بعض العبارات، فالثورة حركة، والحركة حياة، والحياة نقيض الموت والهلاك، وبالتالي فإنّ الثورة أو النهضة هي اختلاجات حياةٍ جديدة في جسدٍ أنهكه السقم.

أو لِنَقُلْ: إنّها جنينٌ متمرّدٌ على رحمٍ بدا وكأنّه أُصيب بالعقم أو السقم.

وهنا علينا أن نؤكّد على مسألةٍ هامّةٍ جدّاً عند البحث عن جذور وأسباب النهضة الحسينيّة، علينا أن نؤكّد مراراً على حقيقة أنّ الإمام الحسين عليه السلام وأتباعه المخلصين لم يختاروا ولم يفضّلوا السيف على الكلمة، بل على العكس من ذلك تماماً، فالنهضة الحسينيّة كانت في حقيقتها وفي جوهرها حركة ممانعة قائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوّة الكلمة لا بقوّة السيف.

فالإمام الحسين عليه السلام لم يخترْ الحرب بدايةً لإحياء دين جدّه الرسول المصطفى

(١) محمد زكي عبد القادر، الحرية والكرامة الإنسانيّة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٥٩، ص٧٤.

ﷺ، بل نهض كما نهض جدّه ﷺ من قبله يدعو النّاس إلى إصلاح المجتمع بالكلمة الطيّبة ويدعوهم إلى الدّين السّماويّ الجديد والأخير بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولو قرأنا بإمعانٍ ورويّةٍ رسالة الإمام الحسين عليه السلام إلى أخيه محمد بن علي المعروف بابن الحنفيّة، وذلك قبل خروجه بأهله وأصحابه إلى كربلاء، لَأدركنا أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد جعل الأفضليّة في الحوار مع الآخر لسلطة الكلمة أوّلاً، أمّا اللجوء للحوار بالسّيوف فهو الحالة الاضطراريّة التي قد يجبره الطرفُ الآخر إلى اللجوء إليها والعمل بها.

وكما وعدنا القارئ في الفصل الأوّل، ها نحن نعود لوصيّة الحسين عليه السلام مرّةً أخرى من أجل شرحها وتوضيحها هنا، وننقلها ثانيةً بكلّ أمانةٍ كما جاءت في كتاب (مقتل الحسين) لمؤلّفه السنّي المعروف (أبي المؤيّد الموفّق بن أحمد المكي المعروف بأخطب خوارزم الحنفي) ـ ويقول نصّ الرسالة الذي تعترف به كلّ المراجع الإسلاميّة والتاريخيّة المعتَبرة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد بن علي المعروف بابن الحنفية، إنّ الحسين بن علي يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله جاء بالحقّ من عند الحقّ، وأنّ الجنّة والنّار حقٌّ، وأنّ السّاعة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنّ الله يبعث مَن في القبور، إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت أطلب الإصلاح في أمّة جدّي محمد ﷺ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي محمد، وسيرة أبي علي بن أبي طالب وسيرة

الخلفاء الراشدين فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومَنْ رَدَّ عَليَّ هذا صبرت حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ ويحكم بيني وبينهم وهو خير الحاكمين، هذه وصيّتي إليك يا أخي وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وإليه أنيب والسّلام عليك وعلى من اتّبع الهدى ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم)[1].

إذنْ، هذا هو مجمل نصّ الرسالة الموجّهة من الإمام الحسين عليه السلام إلى أخيه محمد بن علي المعروف بابن الحنفيّة، وهي رسالةٌ قصيرةٌ ومعبّرةٌ جداً، ولها دلالات واضحة تدلّ على أنّ الهدفَ الأوّل للإمام الحسين عليه السلام من ثورته النهضوية هو ـ كما قال ـ «أطلب الإصلاح في أمّة جدّي محمد صلى الله عليه وآله، أريد أنْ آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر...»، وهذا يعني بشكل بديهي تماماً أنّ الحوار الذي كان يريده الإمام الحسين عليه السلام مع خصمه هو الحوار النابع من جذور الكلمة الطيّبة والحجّة البرهانيّة الناضجة والقادرة على إقناع الطرف الآخر دون الحاجةِ للجوء إلى منطق القوّة أو إلى المبدأ القائل إنّ القوّة هي الحقّ.

فالحقّ في فلسفة النهضة الحسينيّة هو القوّة وليس العكس، ولذلك فإنّ الحقّ يكتسب قوّةً ذاتيّةً من كونه المبدأ الذي يقف موقف النقيض ممّا هو باطل ولأنّ الحقّ عند الإمام الحسين عليه السلام هو القوّة، فإنّ هذه القوّة يجب أن تنطلق أوّلاً من قاعدة الكلمة والحوار، من قاعدة العقل والمنطق، من قاعدة الحجج والبراهين، لا من قاعدة الفوضى والانفعالات، أو من قاعدة التعصّب والتّعنتْ، أو حتّى من منطلق اللجوء في حسم الخلافات والنزاعات إلى سلطة السيف والنّار.

فلو تدبّرنا قليلاً قول الإمام الحسين عليه السلام في الرسالة السابقة «ومن ردَّ عليّ هذا

(١) أخطب خوارزم الحنفي، مقتل الحسين، مصدر سابق ج١ ص١٨٩.

أصبرُ حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين»، نرى أنّه عليه السلام لا يريد لأصحابه ولمن كان معه من أهل بيته أن يكونوا هم البادئين بالقتال لأنّه عليه السلام لا يريد بالأساس أن يتحرّك في حواره مع المعسكر الآخر من خطّ العنف والحوار بلغة الدّماء، بل يريد قبل كلّ شيءٍ أن يسير وفق نهج الرفق واللين الذي رسمه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لسياسته الأخلاقيّة في تعامله مع الآخرين.

واعتماداً على ذلك، يمكن أن نعتبر أنّ الإمام الحسين لم يخرج محارباً بمعنى أنّ هدفَه الأساسيّ كان الحرب والاقتتال، بل خرج مصلحاً، وثائراً لتغيير وجه الواقع الذي لم يعد يعكس الصورة التي أرادها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم له.

فهو عليه السلام، إذنْ، داعيةً للحقّ وطالب للإصلاح في مجتمع أراد له القائمون عليه أن يبتعد عن كلّ ما من شأنه أن يعيده إلى تطبيق المبادئ وإظهار القيم التي نادى بها رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وابن عمّه الإمام علي عليه السلام منذ الخيوط الأولى لفجر الرسالة.

وهنا أريد أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى نقطةٍ هامّةٍ وردت في رسالة الإمام الحسين عليه السلام إلى أخيه محمد ابن الحنفيّة والتي ذكرناها سابقاً وتتعلّق هذه النقطة بقول الإمام الحسين عليه السلام: «... وأسير بسيرة جدّي محمد وسيرة أبي علي بن أبي طالب وسيرة الخلفاء الراشدين».

فالإمام الحسين عليه السلام بالاعتماد على الكثير من المراجع والمصادر السنيّة المتقدّمة والمتأخّرة، لم يقل هذه العبارة كما هي، بل وردت في معظم المصادر والمراجع دون عبارة (وسيرة الخلفاء الراشدين)، ولكنّني تعمّدت أن أذكر هذه العبارة كما وردت حرفيّاً ضمن الرسالة التي أخذتها من كتاب مقتل الحسين لمؤلّفه (أخطب خوارزم الحنفي) للتأكيد على أنّ الرّواة في زمن الحكومات الأمويّة المتعاقبة كانت

تسعى جاهدةً لوضع السمّ في الدّسم، ومن ثـمّ لتضليل الرأي الشعبيّ العامّ ولتشويه الحقائق حتّى تغدو، مع مرور الزمن، تلك الحقائق أكاذيب، وتتحوّل الأكاذيب في مؤلّفاتهم إلى حقائق.

وبالطبع، لا أقصد هنا الإساءة إلى (أخطب خوارزم الحنفي)، فهو من رجال الفكر الدينيّ الذين يتميّزون بمكانةٍ لائقةٍ حتّى عند الشيعة، ولكن ما قصدت قوله هو أنّ السياسة الفكريّة والإعلاميّة الأمويّة كانت ذات نهجٍ سياسي إعلاميّ واضح يقوم على مبدأ: اكذبْ الآن واستمرْ في الكذب حتّى تصدقك الأجيال القادمة.

وعلى كلّ حال، لو أردنا أن نتعمّق أكثر في تحليل تلك الرسالة السابقة التي وجّهها الإمام الحسين عليه السلام إلى أخيه محمد بن الحنفية عليه السلام لَعَرفنا وأدركنا أن الإمام الحسين عليه السلام لم يخرج لمقابلة أعداء الإسلام إلا وهو مسلّحٌ بالإيمان الكامل وبقوّة الكلمة الطيّبة التي يمكن أن تثمر سلاماً وخيراً ومحبّةً بين الجميع.

ولذلك، فعندما يقول الإمام الحسين عليه السلام: «لم أخرج أشراً»، فإنّه يعني بذلك أنّه لم يخرج طلباً للشرّ، ولا لزرع الشقاق بين صفوف المسلمين، ولكنّه خرج بقوّة الإيمان الكامل لتذكير المسلمين عموماً بثوابت دينهم وبأُسُسِ وأخلاقيّات عقيدتهم ورسالتهم.

فخروج الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء هو خروج محمد صلى الله عليه وآله ذاته، ولكن هذه المرّة من خلال حفيده الحسين عليه السلام إلى أمّة المسلمين ليذكّرهم من جديد بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[1]، قاصداً بذلك الابتعاد عن العنف من جهةٍ، وإيجاد الضمان المبدئي لقيامه بواجبه الشرعيّ، كإمامٍ

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

مفترض الطاعة، بتذكير المسلمين بواجباتهم الشرعيّة وبضرورة العودة إلى دائرة الحقّ والالتزام بوصايا الرسول الكريم ﷺ وبِقيَمه ومبادئه السّماويّة السامية من جهةٍ أخرى.

وعندما يؤكّد الإمام الحسين على قوله «لم أخرج أَشِراً» بقوله: «ولا بطراً»، فإنّ أبسط ما يمكن أن يُفهَم من هذه العبارة هو أنّه عليه السلام لم يخرج طلباً للاستعلاء ولا للغطرسة أو للتحكّم والتسلّط على الآخرين، بل إنّ أوّل هدف من أهداف خروجه العديدة هو التصدّي لاستعلاء الآخرين ولإيقاف تغطرسهم وتحكّمهم في رقاب النّاس وفي مصائرهم وسائر أحوالهم.

وكما أنّ الرسول المصطفى ﷺ عاش من جديد في نهضة حفيده الإمام الحسين عليه السلام، كذلك معاوية قد عاش من جديد أيضاً، هو ومَن وَالاه، في نهج ابنه يزيد قاتل أبناء الأنبياء.

وقد رأينا في الفصل السابق من هذا الكتاب كيف أنّ معاوية وأمثاله من المقرّبين منه قد أرادوا بكلّ ما أوتوا من قوّة وبأسٍ أن يطفئوا نورَ الله بأفواههم وأن يخنقوا الإسلام وهو ما زال فَتيّاً وذلك من خلال تفريغه التامّ من كامل محتواه الروحيّ ومن كلّ قِيَمِه الإنسانيّة وتعاليمه الرساليّة، وقد رأينا في الفصل السابق كيف أنّ معاوية قد تربّع على عرش المُلْك بعد أن افترش الأرض دماءً وعظامَ جماجمٍ ضارباً بتعاليم الإسلام عرض الحائط.

وربّما كان الأديب والشاعر المسيحيّ (بولس سلامة) من أكثر الأدباء والشعراء توفيقاً في وصفه لمعاوية وللطريقة التي جاء بها يتحكّم من خلالها في رقاب المسلمين، وها هو يقول في ملحمته الغرّاء (عيد الغدير) مُعبّراً عن ذلك:

إنَّ مُلْكاً يُشادُ من دمع ثكلى ودماء الشيوخ والفتيانِ
هو صَرحٌ أوهى من الكِذْب أُسّاً فجذور الفناء في البنيانِ
بَسَمَ الحظّ يا معاويَ فاجلسْ فوق عرش من المآثم قانِ[١]

ثمّ يتابع الأستاذ (سلامة) وصفه الصائب والدقيق للنهج الذي رسمه معاوية لكلّ عمّاله وولاته على الأمصار والبلدان قائلاً:

إنّ عمّالك الطغاة نمورٌ مرهفات النّيوب للرعيانِ
فاستطالتْ على الرعيّة إجراماً ونَهْباً مُنَوَّع الألوانِ
اتخذوا خلقك المزيَّف نهجاً إنَّ كلّ المقال في العنوانِ

ففي زمن معاوية انتشرت الرذائل بكلّ أنواعها وتفشَّت النقائص بكلّ أصنافها، حتّى أنّ المؤمن بات يخاف من إظهار إيمانه وحبّه لأهل بيت رسول الله ﷺ وكأنّه يجني إثماً عظيماً أو كأنّه يرتكب ما لا كفّارة له أبداً.

ولذلك، فعندما يقول الإمام الحسين عليه السلام إنّه قد خرج إلى كربلاء من أجل (طلب الإصلاح) في أمّة جدّه رسول الله ﷺ، علينا أن ندرك أنّ الإصلاح هو لغة الأنبياء والرسل والأوصياء، بل هو أيضاً لغةُ المصلحين والمرشدين الروحيين عبر مختلف العصور.

فالإصلاح هو إعادة الاعتبار إلى عمليّة إرشاد المجتمع وتوجيهه إلى الفضيلة والحقّ والخير والسعادة، وإلى كلّ قِيمةٍ من القِيَمِ الإنسانيّة النبيلة التي من شأنها أن تصقل الجانب الإيجابيّ الخيّر في كلّ إنسان.

وليس هذا فحسب، بل إنّ الإصلاح أيضاً هو عمليّة ثوريّة ذاتيّة تقوم بنفس الوقت

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق ص١٩٤.

بالوقوف والتصدّي لكلّ قوى الجهل والظلام، ومجابهة شتّى وجوه الشرّ والظلم والفساد.

ولو أردنا أن نتوقّف قليلاً مع مبدأ الإصلاح الذي اعتمده الإمام الحسين عليه السلام في نهضته، وعَرَضْنا ذلك المبدأ على ميزان القرآن الكريم، فماذا عَسانا أن نرى ونستنتج؟!

لا ريب في أنّ الحصول على الجواب المطلوب ليس بالشيء العسير أو حتّى الصعب، ولكن دعونا الآن نستعرض سويّةً بعض الآيات القرآنيّة المباركة التي تتحدّث عن الإصلاح والمصلحين في المجتمع ومن ثمّ ننتقل إلى الجواب المطلوب.

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله الحكيم: ﴿**فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾[1]، ويقول سبحانه في مكانٍ آخر أيضاً: ﴿**فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[2]، ويمكننا أن نقرأ أيضاً عن الأنبياء المصلحين قوله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿**وَقالَ مُوسى لأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[3].

إذنْ، فالإصلاح رسالة النبيّ والرسول والوصيّ، وهو أيضاً مسؤولية فرديّة يمكن أن تقع على عاتق كلّ فرد من أفراد المجتمع، فالرسول الكريم صلى الله عليه وآله أخبرنا في أكثر من موضع وفي أكثر من مناسبةٍ أنّه على كلّ واحدٍ منّا إذا رأى منكراً في مجتمعه أن يغيّره بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، وإن عجز عن ذلك فعليه أن يستنكره بقلبه وذاك أضعف الإيمان.

(١) سورة الشورى: الآية ٤٠.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٥.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

ومن هنا كانت انطلاقة الإمام الحسين عليه السلام في نهضته انطلاقةً قرآنيةً صادقةً لا تشوبها شائبةٌ ولا تعيبها عائبةٌ، فالنهوض كان منطلقاً أساسيّاً من أجل تطبيق أحكام الله بين عباده والعودة بأولئك العباد إلى جادّة الحقّ والالتزام بمبادئ السّماء التي تنصّ أساساً على عدم اتّباع ولاة السّوء وأئمّة أهل النّار، بل تنصُّ على مجُابهتهم والتصدّي لهم، وعلى استنكار أفعالهم وسوء أعمالهم وعلى العمل الدؤوب من أجل اجتثاث الفساد من جذوره ومن ثمّ الانكفاء على غرس مفاهيم الإصلاح في تربة ذلك المجتمع الذي تمّ تلويثه وتلويث بيئته العامّة بشتّى أنواع الشرور والفساد.

وربّ قائلٍ يقول:

لقد عرفنا، من خلال ما سبق، الكثير عن شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام وعن مكانته من الرسالة الإسلاميّة ومن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، أوّل خلقه وخاتم رسله عليهما السلام، وعرفنا، بنفس الوقت، الكثير والكثير عن معاوية بن أبي سفيان وعن سوء سيرته وسريرته كما جاء في الكثير من كتب المسلمين الأوائل على مختلف مشاربهم ومذاهبهم، بل وحتّى في دواوين وكتب مَن هُمْ مِن غير المسلمين أيضاً، نعم، لقد عرفنا كلّ هذا، ولكن حتّى الآن لم نعرف الكثير عن شخصيّة يزيد بن معاوية الذي كان هو المرتكب الفعليّ لفاجعة كربلاء بحقّ الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه، بل وبحقّ الله والإسلام والقرآن أيضاً.

هنا، يمكننا أن نقول لكلّ من يقول ذلك إنّك على حقّ في ما تقول وتطلب، ولكن يمكننا أن نعطيك الصورة المتكاملة عن شخصيّة يزيد (لع) من خلال هذا الفصل والفصول التي تليه من هذا الكتاب، فَلنصبرْ إذنْ حتّى نكمل تحليل وصيّة الإمام الحسين عليه السلام.

فلَو حَلَّلنا قول الإمام الحسين عليه السلام: «أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»، لأدركنا وعرفنا العديد من السمات التي تتّصف بها شخصيّة يزيد بن معاوية سليل الغدر والمكر.

فيزيد عبارةٌ عن نسخة طبق الأصل عن والده معاوية في كلّ صفاته ونعوته، وربّما فاق الابنُ أباه في بعض الصفات، ولذلك فعبارة الإمام الحسين عليه السلام التي توضّح هدفه الأساسيّ في الإصلاح القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لها الكثير من الدلالات على شخصيّة معاوية وابنه يزيد السّائر على نهجه وخطاه.

وليس هناك من حجّة على ما نقول أقوى من تلك الوصيّة الشهيرة التي أوصى معاوية ابنَه يزيد بالعمل بها بعد أن يستتبّ الأمرُ له من بعده.

ولا حاجة لنا إلى ذكر كلّ تلك الوصيّة السوداء الشائنة، ولكن لا بأس بذكر مقدّمتها فقط وذلك لأنّ المقدّمة تفصح بحدٍّ ذاتها عن بقيّة مضمون الوصيّة من حيث الروح والمحتوى العامّ.

يقول معاوية في مقدّمتها: (يا بنيّ إنّي كفيتك الرحلة والترحال، ووطأتُ لك الأشياء، وذلّلتُ لك الأعداء، وأخضعتُ لك أعناقَ العرب)[1]، وقد علّق الأستاذ الباحث (أنطون بارا) على هذه الوصيّة الخرقاء بقوله، في كتابه (الحسين في الفكر المسيحيّ)، إنّها: (وصيّة مغرورة متراخية تقطر لؤماً ولا أخلاقية قدّمها طاغية مريض لابنٍ فاسقٍ يُنبّئه فيها بصفاقةٍ ما بعدها صفاقة، بأنّه ذَلّل له الأعداء، وأخضع له أعناق العرب)[2].

(١) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق ص١٥٠.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٥١.

وهذا يعني أيضاً أنّ معاوية لم يدخل الإسلام حبّاً بالإسلام ولا إيماناً منه بالرسالة أو الرسول ﷺ، ولم يكن سبباً مباشراً في اقتتال المسلمين في ما بينهم نتيجةً لمبدأ أو لقيمة أخلاقية يعتقدها ويدافع عنها، بل إنّ دخوله الإسلام وقتاله لأهل الإسلام كان نابعاً من مصالح شخصيّة ومطامع ذاتيّة لا تمتّ إلى الإسلام ورسالته بأدنى صلة، وما المقدّمة التي أوردناها نقلاً عن وصيّته إلا الدّليل الأقوى على أنّه كان يحاول جاهداً أن يعود بالأمور إلى عصر الجاهليّة وأن يوطّد أركان الحكم والملك لأهله من بني أميّة منفّذاً بذلك وصيّة أبيه، أبي سفيان، المعروفة للجميع.

أمّا سياسة معاوية العامّة مع المسلمين، وهي السياسة التي أراد معاوية من ابنه يزيد أن ينتهجها في حياته مع الرعيّة، فيمكن التعرّف عليها بشكلٍ واضحٍ من خلال قراءة وصيّته التي أوصى بها قائده بسر بن أرطأة حين وجّهه إلى الحجاز واليمن، حيث أمرَه فيها قائلاً: (سِرْ حتّى تمرّ بالمدينة فاطردْ النّاس، وأَخِفْ مَن مررتَ به، وانهبْ أموال كلّ من أصبتَ له مالاً ممّن لم يكن دخل في طاعتنا... وأرهبْ النّاسَ عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شرداً)[1].

وغنيٌّ عن القول إنّ يزيد كان، بالفعل، ولداً مطيعاً لوصايا أبيه معاوية اللاأخلاقيّة ولآدابه الجاهليّة اللاإسلاميّة، وربّما بإمكاننا القول إنّ يزيد الابن قد تفوّق على أبيه في العديد من المواقف من ناحية تغييب الضمير واغتيال المشاعر والأحاسيس ووأدِ الخير والعدل والفضيلة.

ولذلك، يمكننا القول الآن أنّه إذا كان الهدف الأوّل من الثورة الحسينيّة هو

---

(١) ابن ابي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ج٢ ص٧.

النهضة الإصلاحيّة القائمة على مبدأ الحوار واللاعنف في مواجهة (الآخر)، فإنّ الهدف الثاني، بلا ريب، هو التأكيد على أنّ الحاكم أو الخليفة يجب أن يكون قدوة المجتمع في الأخلاق والفضائل والخصال الحميدة العامّة بحيث يكون هو الحصن المنيع والدرع الصلب الذي يحمي قِيَم المجتمع وآدابه، ويصون جملة المبادئ والتعاليم التي حملتها رسالة السّماء إلى أهل الأرض.

ومن هذه النقطة بالتحديد، يمكن لكلّ واحدٍ منّا أن يسأل السّؤال التالي:

أين موقع يزيد من هذا الكلام المتعلق بخصال وصفات الحاكم أو الخليفة؟ وربما قادنا هذا السؤال المطروح إلى أسئلةٍ عديدةٍ أخرى لا تقلّ أهميّةً عن السؤال الأوّل، ولذلك، فإنّ أوّل ما يمكن أن نقدّمه للقارئ في هذا المجال هو إعطاؤه الصورة المتكاملة عن شخصيّة يزيد وسلوكيّاتها كما وردت في الكثير من كتب المسلمين والمسيحيين على حدٍّ سواء، أمّا ما يتعلّق بالإجابة عن السؤال الذي طرحناه منذ قليل وقدّرنا أن يسأله أيُّ قارئٍ أيضاً، فسنترك الإجابة عليه للقارئ الكريم بعد أن يقرأ بعضَ ما جاء في وصف يزيد بن معاوية، حفيد أبي سفيان.

وعلى كلّ حالٍ، والتزاماً منّي بعنوان الكتاب الذي هو بين أيدينا الآن والذي يدلّ على دراسة فاجعة كربلاء من وجهة نظر الضمير العالمي (الحديث) فقط، فسوف نقتصر في تحليلنا لشخصيّة يزيد على ما يقوله رجال الفكر والأدب في العصر الحديث، أمّا ما يقوله عنه القدماء فهذا ممّا لا يسعنا ذكره هنا بشكله المناسب وذلك لضيق المقام من جهة، ولضيق الوقت من جهةٍ ثانية.

ولذلك دعونا الآن نبدأ رحلتنا في التعرّف على شخصيّة يزيد وموقعها من الأخلاق الإسلاميّة والآداب المحمدية، مع الأديب والمفكّر اللبناني الأزهري (عبد

الله العلايلي) صاحب كتاب (الإمام الحسين) الذي بلغت شهرته الآفاق الإسلاميّة، بل وطرقتْ أبواب الكثير من المفكّرين والأدباء المسيحيين حتّى قال فيه المفكّر والأديب المسيحيّ (كرم قنصل): (كتاب واحد فحسب قرأته، فوجدت فيه ضالّتي في فَهمِ شخصيّة الحسين وثورته، ألا وهو كتاب (الإمام الحسين) للشيخ العلامة عبد الله العلايلي)[١].

وفي كتاب (الإمام الحسين) يقول الشيخ العلامة (العلايلي) واصفاً شخصيّة يزيد بالاعتماد على أوثق المصادر التاريخيّة لأهل السنّة:

(وبالجملة، كان (يزيد) موفر الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنّساء وكلاب الصيد حتّى كان يلبسها الأساور من الذهب والجِلال المنسوجة منه ويهب لكلّ كلب عبداً يخدمه، وساس الدولة سياسة مشتقّةً من شهوات نفسه، وكانت ولايته ثلاث سنين وستّة أشهر، ففي السنّة الأولى قتل الحسين بن علي، وفي السنة الثانية نَهبَ المدينة وأباحها ثلاثة أيام ثمّ قتل فيها سبعمائة من المهاجرين والأنصار ولم يبق بدريٌّ بعد ذلك، وقتل عشرة آلاف من الموالي والعرب والتابعين، وافتضاض ألف عذراء)[٢].

فأين، إذنْ، موقع يزيد من أخلاقيات الرسالة ومن آداب صاحب الرسالة ﷺ؟!

بل أين أخلاق يزيد - في حال وجودها - من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام؟!

ومن هنا، رأى العلامة (العلايلي) أنّ (الحسين عليه السلام لم يخرج على إمامٍ وإنّما

---

(١) راجع:
أ - ما جاء في مقالة للأستاذ كرم قنصل في مجلة (الكلمة) السورية عدد (١٤) لعام ١٩٧٩.
ب - أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق ص٣٦٥.
(٢) عبد الله العلايلي، الإمام الحسين، دار مكتبة التربية - بيروت، ١٩٨٦، ص٣٤٦.

خرج على عَادٍ فرض نفسه فرضاً أو فرضه أبوه بدون ارعواء)[١] مع معرفة معاوية الكاملة أنّ ابنه يزيد كائنٌ بشريٌّ مجرّد من كلّ الأخلاق والصفات التي تؤهّله ليكون إنساناً مسلماً قبل أن يكون خليفةً على المسلمين.

أمّا المفكّر والأديب (عباس محمود العقاد) (١٨٨٩ـ ١٩٦٤) صاحب المؤلّفات الفكريّة والأدبيّة التي بلغت (٨٣) كتاباً في أنواع مختلفة من الثقافة الرفيعة، فقد كانت له صولة قويّة في رحاب كربلاء حيث ألّف كتاباً خاصّاً عن سيّد الشهداء عليه السلام وقد أسماه (أبو الشهداء الحسين بن علي)، ويُعتبر من أهمّ الكتب التي تتناول دوافع الثورة الحسينيّة.

ويرى الأستاذ (العقاد) في كتابه (أبو الشهداء) أنّ المقارنة بين الإمام الحسين عليه السلام وبين يزيد هي مقارنة غير جائزة أساساً وذلك لفقدان التكافؤ بين الطرفين.

ويؤكّد (العقاد) ذلك بقوله: (... الموقف الحاسم بينهما موقف الأريحيّة الصّراح في مواجهة المنفعة الصراح، وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طَرَفَيه وأبعد غايتيه، فانتصر الحسين بأشرف ما في النّفس الإنسانيّة من غيرة على الحقّ وكراهةٍ للنّفاق والمداراة، وانتصر يزيد بأرذل ما في النّفس الإنسانيّة من جشع ومَرَاء وخنوع لصغار المتع والأهواء)[٢].

وللتأكيد على سوء خلق يزيد الذي استباح كلّ الحرمات في الإسلام، يتابع الأستاذ (العقّاد) وصفه ليزيد قائلاً: (... من كان كَلَفُه بالشعر الفصيح مُغرياً له بمعاشرة الشعراء والندماء في مجالس الشراب، وكان وَلَعُه بالصيد شاغلاً يحجبه عن

(١) نفس المصدر السابق ص٣٤٤.

(٢) عباس محمود العقاد، أبو الشهداء الحسين بن علي، مصدر سابق ص١٦.

شواغل الملك والسياسة، وكانت رياضتُه للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرّادين والفهّادين، فكان له قرد يدعوه (أبا قيس) يُلبسه الحرير ويطرّز لباسه بالذهب والفضّة ويحضره مجالس الشراب...)(١).

ولعلّ أبلغ ما نقله (العقّاد) لنا عن يزيد هو القول المشهور لعبد الله بن حنظلة: (والله ما خرجنا على يزيد حتّى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السّماء، إنّه رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة، والله لو لم يكن معي أحدٌ من النّاس لأبليتُ الله فيه بلاءً حسناً)(٢).

ويبدو أنّ موقف العلامة الشيخ (محمد عبده) (١٨٤٩ـ ١٩٠٥) جاء أكثر جرأةً وقوّةً من موقف الأديب المفكّر (العقّاد) وربّما من مواقف الكثير من الأدباء والمفكّرين الآخرين الذين أدلوا بِدِلائهم في بحر الحديث عن أسباب نهضة الإمام الحسين عليه السلام والعوامل التي دفعت به بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ للخروج إلى أرض كربلاء.

وقبل أن نذكر موقف الإمام العلامة (محمد عبده) من مسألة خروج الإمام الحسين عليه السلام على يزيد، لابدّ لنا من تذكير القارئ بالموقع الفكريّ والدينيّ الذي كان يشغله هذا العلامة المصري البارز.

فالعلامة (عبده) كان واحداً من أبرز المصلحين الدينيّين في عصر النهضة الذي حاول فيه العرب أن يقلّدوا الغرب في إصلاحاتهم ونهضتهم، وكان العلامة (عبده) ـ إلى جانب صديقه السيد جمال الدين الأفغاني الأسترابادي ـ من أبرز الذين نادوا

(١) نفس المصدر السابق ص٦٠.
(٢) نفس المصدر السابق ص٦٠.

بتجديد الدّين وتَنْقِيَتِهِ من كلّ الشوائب التي علقت به على مرّ السنين والعصور.

وقد تولّى العلامة (عبده) الإفتاء في الديار المصرية عدّة سنوات، وله العديد من الآثار الفكريّة ومن أشهرها شرح كتاب نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام، وله رسالةٌ وجيزةٌ كان قد وجّهها في (١٨) نيسان عام (١٩٠٤) إلى الأديب الروسيّ الكبير (ليو تولستوي) (١٨٢٨ـ ١٩١٠) عندما ثارت ضدّه وضدّ تعاليمه الكنيسة الروسيّة وحكمت عليه بـ (الحرمان)، وهي رسالةٌ موجزةٌ ومؤثّرةٌ حيث يصف العلامة (عبده) فيها الأديبَ الروسيّ الكبير بالحكِيم الجليل لأنّه ثار على الدّين التقليديّ ومزّقَ حجب الأعراف البالية التي لا تقبلها الفطرة السليمة ولا العقول النيّرة البصيرة، ومن جملة ما جاء فيها، قوله مخاطباً (تولستوي): (فكَما كنتَ بقولك هادياً للعقول، كنتَ بعملك حاثّاً للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي به الضالّون، كان مثالُك في العمل إماماً يقتدي به المسترشدون، وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء، كان مَدَداً من عنايته للفقراء)[1].

إذنْ، فالعلامة الإمام (محمد عبده) كان له سعة اطّلاع على الحركات الدينيّة والتيّارات الفكريّة التي كانت تتصارع من أجل شقِّ طريقها الآمن إلى الوجود، ومن هنا تبرز أهميّة وجهة نظر العلامة (عبده) في تقييمه لمسألة خروج الإمام الحسين عليه السلام بمبادئه وقِيَمِهِ على مبادئ يزيدَ ـ في حال وجودها ـ وعلى أسلوبه في إدارة العبادِ والبلاد.

وربّما لأنّ العلامة (عبده) كان واحداً من أبرز أعلام النهضة والإصلاح، فقد كان الأقدر على دراسة وتحليل وتقييم نهضة الإمام الحسين عليه السلام في زمنٍ قلّتْ فيه القِيم

(١) محمد عبده، مختارات، إعداد ونشر وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م، ص١٨٩.

ونضبت فيه الضمائر الحيّة والوفاء بالذّمم، ومن هذه النقطة، فقد أطلق العلامة (عبده) حكمه قائلاً في (تفسير المنار): (إذا وُجِد في الدّنيا حكومة عادلة تقيم الشرع، وحكومة جائرة تعطّله، وَجبَ على كلّ مسلمٍ نصر الأُولى... ومن هذا الباب خروج الإمام الحسين سبط الرسول ﷺ على إمام الجور والبغي، الذي وَليَ أمر المسلمين بالقوّة والمنكر، يزيد بن معاوية خذله الله وخذل من انتصر له)[1].

ولا ريب في أنّ العلامة الإمام (محمد عبده) وغيره من أعلام الفكر والدّين والأدب المعاصرين الذين كتبوا عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام وعن نهضته الإصلاحيّة الشاملة قد قرأوا الكثير عنها وعن آراء الكثير من الأعلام المتقدّمين الأوائل الذين كتبوا بغزارةٍ في هذا المجال آخذين بعين الاعتبار ضرورة إعطاء القارئ لكتبهم ومؤلّفاتهم الصورة الكاملة والمتكاملة عن شخصيّة يزيد وسياسته وممارساته السوداء، والتي كان لها الدّور الأبرز في عمليّة خروج الإمام الحسين عليه السلام لإحياء دين جدّه الرسول المصطفى ﷺ.

فمّما لا شكّ فيه أنّ العلامة (عبده) وغيره قد اطّلعوا على ما جاء في الكثير من الكتب الإسلاميّة المتقدّمة بشأن شخصيّة يزيد وسوء فعاله، وعلى سبيل المثال، يقول (الهيثمي) في كتابه (الصواعق المحرقة): «إنّ الإمام أحمد بن حنبل لمّا سأله ابنُه عبد الله عن لعن يزيد، قال: كيف لا يُلعن من لعنه الله في كتابه؟! فقال عبد الله: قرأتُ كتابَ الله عزّ وجلّ فلم أجد فيه لعن يزيد، فقال الإمام أحمد: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ * أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ

(١) العلامة السيد جواد القزويني، يزيد في محكمة التاريخ، مطبعة أمير . قم، ط١/ ١٩٩٩، ص١٠٠.

الله﴾(١) صدق الله العليّ العظيم، وَلَدي، أيُّ فسادٍ وأيّ قطيعةٍ أشدّ ممّا فعله يزيد، ولمّا قال له ولده: إنّ قوماً ينسبوننا إلى تولّي يزيد؟ قال: يا بُنيَّ، وهل يتولّى يزيدَ أحدٌ يؤمن بالله؟!)(٢).

فلا شكّ في أنّ العلامة الشيخ (محمد عبده) قد قرأ هو وغيرُه هذا الحديث الهامّ عن موقف الإمام أحمد ابن حنبل من يزيد ومن أفعاله العامّة وسلوكيّاته الخاصّة التي اكتسب قسماً كبيراً منها عن طريق التربية البَيتيّة الفاسدة التي غرسها فيه والده معاوية حرصاً منه على أن يتابع ابنهُ يزيد تنفيذ المخطّط الجهنّميّ المرسوم من قِبَلِهِ هو شخصياً بحيث يكون ابنه يزيد، بعد تعيينه حاكماً على المسلمين، الضربة القاضية التي تقصم ظهر كلّ من بقي على الإسلام من المؤمنين الحقيقيّين.

وعلى الرغم من ضيق المقام وقِصر الوقت، إلا أنّنا نجد من الضروريّ أن نذكر شيئاً إضافيّاً عن أفعال يزيد وعن سلوكه الذي يعكس فساد طينتهِ وسوء سريرته التي تثبت وبالدليل القاطع أنّه لم يكن مسلماً على الإطلاق، بل كان مجرّد رجل أعرابيٍّ وثنيٍّ جاهليٍّ لم يعرف من الإسلام إلا الاسم ومن القرآن إلا الرسم.

ففي حديثٍ نبويٍّ شريف رواه (مسلم)، وذكره الحافظ (جلال الدين السيوطي الشافعي) في كتابه (تاريخ الخلفاء)، يقول فيه: قال الرسول ﷺ: «مَن أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين»(٣).

وبالطبع، فإنّ الحافظ (السيوطي الشافعي) قد ذكر هذا الحديث النبويّ الشريف في معرض حديثه عن قبائح يزيد وسوء أفعاله وكيف أنّه هجم على مدينة رسول الله

(١) سورة محمد: الآية٢٢-٢٣.
(٢) نفس المصدر السابق ص٩٥.
(٣) الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق ص١٩٥.

ﷺ وقتل فيها خلقاً كثيراً من الصحابة ومن غيرهم، وكيف أنّه نَهبَ المدينة وافتضّ فيها بكارة ألف فتاة عذراء غير آبهٍ بحديث رسول الله ﷺ ولا بتعاليم رسالته السماويّة.

ويتابع (السيوطي) حديثه عن يزيد وفعائله السوداء، مستشهداً بما جاء في كتب الإمام (الذهبي) وغيره من الأعلام، ومؤكّداً على حقيقة أنّ يزيد لم يكتفِ بما فعله بمدينة رسول الله ﷺ، بل راح يحشد الجيوش الجرّارة لتوجيهها إلى مكّة، وكيف أنّه ـ لعنه الله ـ قد رمى الكعبة المشرّفة بالمنجنيق وحرق أستارها وسقفها[1] مع معرفته الأكيدة بعظيم مكانتها وسموّ قداستها عند عموم المسلمين.

ولا أعتقد أنّ هناك حاجة لإيراد المزيد من ذكر الفظائع المشينة التي ارتكبها يزيد بحقّ الرسالة وأهل الرسالة أيضاً، ولا أرى أنّ هناك من حاجةٍ إضافية، بنفس الوقت، كي نذكر المزيد من أسماء الكتب والمراجع المتقدّمة زمنيّاً والتي تذكر وتؤكّد بالحجج والبراهين وبالدلائل القاطعة على أنّ يزيد لم يكن أكثر من شيطانٍ في هيئةٍ بشريّةٍ.

فالكتب التاريخيّة العامّة، سواءٌ منها الإسلاميّة أم غير الإسلاميّة، لم يجد مؤلّفوها حرَجاً في ذكر الكثير والكثير من مساوئ يزيد وأبيه معاوية، بل ومن ذكر مساوئ وفضائح عموم الحكّام الأمويين الذين اتّخذوا الإسلام مطيّة لهم ولكلّ من يصفّق لهم مؤيّداً لحكمهم ومبرِّراً لظلمهم.

وحتّى لا نستطرد كثيراً في حديثنا، دعونا نعود إلى شخصيّة يزيد وإلى بعض التعليقات الفكريّة الهامّة عليها، تلك التعليقات والتحليلات المهمّة التي رأت أنّ

(١) نفس المصدر السابق ص١٩٥.

مجرّد وجود شخصية إجرامية كشخصية يزيد تتربّع على كرسيّ الحكم وتتحكّم بمصير العباد والبلاد هو وحده كفيلٌ بإعلان الثورة عليه وإسقاطه بكافّة الوسائل الممكنة.

وممّا يمكن أن نذكره الآن هنا، هو موقف الأديب والمفكّر المصري الدكتور (طه حسين) (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) من طبيعة حكومة يزيد والموقف الذي يجب اتّخاذه تجاهها، ولكن قبل أن نذكر المآخذ التي سجّلها الدكتور (طه حسين) على شخصيّة يزيد وحكومته السوداء، علينا أن نتذكّر سويةً أنّ الدكتور (طه حسين) لم يكن مجرّد رجل أدبٍ فقط كما يظنّ البعض، بل كان أيضاً ناقداً ومفكّراً عربياً تناول في مؤلّفاته المتعدّدة الكثير من القضايا والمسائل الفكريّة والثقافيّة المتنوّعة.

وبسبب ثقافته العامّة وسعة اطّلاعه الفكريّ وإتقانه للعديد من اللغات عُيِّن أستاذاً في الجامعة المصريّة، فعميداً لكليّة الآداب، ثمّ اختير وزيراً للمعارف سنة (١٩٥٠)، وقد كان يدعو باستمرار إلى حريّة البحث والتحليل، واعتبر أنّ العقل هو الأداة الأساس للمعرفة، كما أنّه دعا ـ وهذا هو الأهمّ ـ إلى دراسة تاريخنا وتراثنا في ضوء منهجٍ علميٍّ متسلّح بالمنطق وبعيدٍ عن التعصّب والتشنّج.

فالدكتور (طه حسين) يرى، قبل كلّ شيءٍ، أنّ (أمور المسلمين قد صارت أيام معاوية وابنه يزيد إلى شَرِّ ما كان يمكن أن تصير إليه)[1]، والدليل على ذلك هو المخطّط الآثم الذي سارع يزيد بن معاوية إلى تنفيذه على أرض الواقع بعد أن كان حلماً يدغدغ خيال أبيه معاوية من قبل.

ويذكر الدكتور (طه حسين) لنا كيف أن يزيد قد جهّز جيشاً عظيماً بإمرة (مسلم

---

(١) الدكتور طه حسين، الفتنة الكبرى، مصدر سابق ج٢ ص٢٤٥.

بن عقبة المرّي) لغزو مدينة رسول الله ﷺ، وكيف أنّه أوصى (مسلماً) إذا انتصر على عدوّه في المدينة أن يبيحها ثلاثاً لأهل الشّام يصنعون بأهلها ما يشاؤون وينهبون من أموالهم ومتاعهم كلّ ما يحبّون ويرغبون، وبعد ذلك، ينتقل الدكتور (طه حسين) إلى تصوير نتائج المعركة الدّامية التي أمر بها يزيد، فيقول: (وقُتِلَ منهم (أي من أهل المدينة) في الموقعة خَلق كثير.

ثمّ أباح المدينة ثلاثاً لجنده فقتلوا ونهبوا، واستباحوا من محارم النّاس ما عَصَمَ الله، ثمّ أخذ مَن بقي من أهل المدينة بالبيعة، لا على كتاب الله وسنّة رسوله كما تعوّد المسلمون أن يبايعوا، ولكن على أنّهم خَوَلٌ ليزيد، فمن أبى منهم هذه البيعة المنكرة أمَرَ به فَضُرِبت عنقُه)[1].

وهنا يمكن أن يتبادر إلى ذهن كلّ واحد منّا، بما في ذلك ذهن الدكتور (طه حسين)، السؤال التالي:

ألا يكفي أن يكون أخذُ البيعة بالقوّة من أهل المدينة على أنّهم خَوَل ليزيد الطاغية سبباً كافياً للثورة على ذلك الحاكم المفتِقر إلى أبسط المقوّمات الأخلاقيّة والإنسانيّة؟!

بل ألا يذكّرنا ما فعله يزيد بالمدينة المنوّرة وبمكة المكرمة بالحديث الجوهري الهام الذي نقله لنا (الطبري) في (تاريخه) عن الإمام الحسين عليه السلام والذي يقول فيه: إنّ رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحُرَمِ الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فَلَم يغيّر عليه بفعل ولا

(١) نفس المصدر السابق ج٢ ص٢٤٧.

قول، كان حَقّاً على الله أن يُدخله مُدخَله)[1]؟!

ومن هذا الحديث النبويّ الشريف نستنتج، وبوضحٍ كاملٍ، أنَّ سبط الرسول الكريم عليه السلام كان قد خرج على يزيد بهدف التغيير قولاً وعملاً في النهج الذي كانت تسلكه الحكومة اليزيدية في الأمّة الإسلاميّة، ذلك النهج اللاأخلاقيّ القائم على مخالفة سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جهةٍ، وعلى العمل بالإثم والعدوان من جهةٍ أخرى.

ولذلك نرى أنّ هناك الكثير من المستشرقين وغيرهم من رجال الفكر والأدب في الشرق والغرب قد رأوا أنّ يزيد قد تجاوز كلّ المعايير الأخلاقية في غطرسته وفي ضلاله وكفره ممّا قاد النّاس عموماً، بعد عمليّة إحراقه للكعبة المقدّسة، إلى رمي بني أميّة بالكفر كما يقول المستشرق (كلود كاهَن)[2].

وليس هذا الرأي هو رأي المستشرق (كلود كاهَن) فقط، بل هو رأي كلّ المستشرقين تقريباً على الرغم من تحامل وتجنّي الغالبيّة العظمى منهم على الإسلام وعلى رموزه الطاهرة النقيّة.

فَلِلمستشرق (دوايت رونلدسن) رأيٌ لا يختلف كثيراً عن رأي (كلود كاهَن) حول طبيعة يزيد وحول حقيقة أفعاله المخزية بحقّ المسلمين والمقدّسات الإسلاميّة.

وبإمكاننا أن نقرأ الكثير عن تلك الأفعال المخزية في كتاب المستشرق (رونلدسن) (عقيدة الشيعة) والذي يصف فيه تلك الفعائل السوداء بعد أن يوردها في كتابه المذكور معتمداً في ذلك على أوثق المصادر التاريخيّة الإسلاميّة السنيّة.

فقد كتب (رونلدسن) عدّة صفحاتٍ عن تلك الأفعال التي تعكس بصدق صورة

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق ج٥ ص٤٠٣.

(٢) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلاميّة، ترجمة: الدكتور بدر الدين القاسم، دار الحقيقة. بيروت، ١٩٧٢، ص٤٣.

يزيد وشخصيّته المشوّهة نفسيّاً وروحيّاً، لقد كتب عن إحراق يزيد للكعبة وعن استباحة مدينة رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، وعن أخذ البيعة من النّاس ليزيد على أنّهم عَبيدٌ له[1] وخدم له في دولته، وقد وصف (رونلدسن) مجمل هذه الأفعال التي قام بها يزيد، والتي تلعب دور المرآة العاكسة لصورة شخصيّته الباطنيّة، بأنّها أفعال شائنة[2].

أمّا المستشرق الهولنديّ (راينهارت دوزي) (١٨٢٠-١٨٨٣) صاحب المؤلّفات العديدة عن الإسلام، وبشكلٍ خاصٍّ عن الأندلس وعلاقتها بالإسلام، يرى أنّ الوصول إلى معرفة شخصيّة يزيد يتمّ عن طريق معرفة أعوانه وعمّاله على البلدان، فمن خلال الحاشية تستطيع التعرّف على شخصيّة الحاكم لأنّه هو المسؤول عنها أوّلاً وأخيراً.

ولذلك، فهو يصف لنا شخصيّة (مسلم بن عقبة) الذي استباح المدينة المنوّرة ثلاثة أيام أمام جنده بأمرٍ مباشرٍ من سيّده يزيد قائلاً: (ربّما لا يكون هناك أحدٌ يمثّل العصر القديم والروح الوثنيّة كما يمثّلها مسلم بن عقبة، فلم يكن فيه أقلّ ظلٍّ للعقيدة الإسلاميّة، ولا كان يقدّس شيئاً ممّا يقدّسه المسلمون، ولذلك كان أشدّ إيماناً بالخرافات الوثنيّة)[3].

ثمّ ينتقل (دوزي) بعد ذلك لإعطائنا خلاصة وجهة نظره تجاه يزيد وتجاه التيّار الذي يمثّله يزيد بشكلٍ مباشرٍ.

يقول (دوزي) متابعاً: (وكان يزيد بوصفه أنّه كان ممثّل الأرستقراطيّة القديمة في مكّة، قد ثأر لمقتل عثمان وللهزيمة التي ألحقها بجدّه أبي سفيان أهلُ المدينة تحت

(١) دوايت رونالدسن، عقيدة الشيعة، مصدر سابق ص١١٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص١١٦.

(٣) يوليوس ڤلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، مصدر سابق ص١٥٥.

راية محمد ﷺ، وكان ردُّ الفعل من جانب الوثنيين ضدّ الفكرة الإسلاميّة قاسياً لا هوادة فيه، ولم يُشفَ الأنصار قطّ من هذه الضربة... وظلّت مدينتهم، بعد أن كادت تخرب، مأوى للكلاب حيناً من الدّهر... وكان الأمويّون ينتهزون كلّ فرصةٍ لكي يُشْعِروهم ببغضهم واحتقارهم لهم، لكي يضايقوهم ويجعلوا حياتهم مريرةً)[1].

ومن خلال هذه الجمل القليلة والمعبّرة نستطيع أن نستخلص وجهة نظر المستشرق (دوزي) تجاه التيّار الفكريّ الذي كان يترأسّه يزيد.

فيزيد الأرستقراطيّ، بالنسبة لِـ (دوزي)، كان رمزاً للتيّار الوثنيّ الذي ما برح يحاول الانقلاب على التيّار الإسلاميّ الذي يمثّله محمد ﷺ وأنصاره المخلصون، ولذلك، فإنَّ يزيد لم يدّخر جهداً خلال فترة حكمه القصيرة في أن يغتال كلّ من يريد أن يحمل راية الإسلام الحقيقيّ بدءاً بالإمام الحسين عليه السلام وانتهاءً بالمخلصين من الأنصار الذين بذلوا كلّ ثمينٍ ورخيصٍ في سبيل نصرة محمد ﷺ وإعلاء شأن رسالته السّماويّة الخالدة.

وعلى ما يبدو، فإنّ هناك تطابقاً غير طبيعيّ بين رؤية المستشرق (دوزي) ورؤية المستشرق (موللر) حول إمكانيّة التعرّف على شخصيّة يزيد المريضة روحيّاً من خلال التعرّف على كبار قادته وعمّاله، فها هو ـ موللر ـ يقول عن مسلم بن عقبة الذي كان يمثّل دور الذراع الأيمن ليزيد في عملية استباحة المدينة: (كان في نفس مسلم بن عقبة على الإسلام، خصوصاً على المسلمين الأوّلين، من الحقدِ ما كان في نفس شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين)[2].

---

(١) نفس المصدر السابق ص١٥٨.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٥٦.

أمّا المستشرق (ڤان ڤلوتن) (١٨٦٦ـ ١٩٠٣)، الهولنديّ الأصل، فلم يركّز وصفه على شخصيّة يزيد، بل اعتبر في وصفه العامّ أنّ كلّ حاكم أمويّ هو صورة طبق الأصل عن بقيّة الحكّام.

وباختصارٍ شديدٍ، يرى (ڤلوتن) في كتابه (أبحاثٌ في السيطرة العربيّة) أنّ الحكّام الأمويين عموماً، وحتّى صغار موظّفيهم، لم يكونوا أكثر من مجموعة من اللصوص الذين لم يكن عندهم أيُّ شاغلٍ أكثر من الاغتناء على حساب بيت مال المسلمين، وهذا ما دفع بصغار الموظفين عندهم للاقتداء برؤسائهم وحكّامهم والتفوّق عليهم وذلك باستلاب ما يقع في أيديهم من أموال الدولة[1].

وأعتقد أنّه من الأفضل لنا أن نتوقّف، ولو بشكلٍ مؤقّت، عن ذكر المزيد من أقوال المستشرقين الغربيين حول شخصيّة يزيد واهتزازها الروحيّ والنفسيّ، ودعونا الآن ننتقل إلى رحاب الشعر في الشرق كي نرى ونقرأ سويّةً ما قاله شعراؤنا المعاصرون في يزيد بن معاوية قاتل أبناء الأنبياء عليهم السلام.

ولتكنْ محطّتنا الأولى مع الأديب والشاعر المسيحيّ اللبنانيّ (بولس سلامة) الذي سبق وتحدّثنا عنه في صفحاتٍ سابقةٍ من هذا الكتاب بشكلٍ موجزٍ بعض الشيء.

يقول الشاعر (سلامة) في كتابه (عيد الغدير) مصوّراً مجلسَ يزيد الفاسق:

رافعَ الصوت داعياً للفَلاحِ ... اخفضْ الصوتَ في أذان الصباحِ
وترفَّقْ بصاحب العرشِ ... مشغولاً عن الله بالقيان المِلاحِ
ألف (الله أكبر) لا تساوي ... بين كفَّيّ يزيد نهلةَ راحِ

(١) ڤان ڤلوتن، أبحاث في السيطرة العربيّة، ترجمة الدكتور إبراهيم بيضون، وهذا الكتاب ملحق بكتاب الدولة الأمويّة والمعارضة، تأليف المترجم نفسه، طبع المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر ـ بيروت، ١٩٨٥، ص٨٩.

فَسَليبُ النّهى صريع الغواني نَذَرَ العمرَ للغرام السِّفاحِ(١)

وبرأيي الشخصيّ أنّ هذه الأبيات الشعريّة القليلة هي أصدق ما قيل في تصوير شخصيّة يزيد المنغمسة في الملذّات والمحرّمات حتّى الثمالة، وبالفعل، فإنّ ألف نداء لتوحيد الله كنداء الأذان (الله أكبر) لا يعني روحيّاً أيّ شيءٍ ليزيد، بل على العكس من ذلك، فكأسٌ واحدٌ من الخمر المعتّق يشربه من كفّ غانيةٍ فاتنةٍ عاهرةٍ تتلوّى بين أحضانه كالأفعى الرقطاء أفضل عنده من الدعوة للصلاة لله والامتثال لأوامره ونواهيه.

ولو انتقلنا الآن من كتاب (عيد الغدير) للشاعر العملاق (بولس سلامة) إلى (ملحمة الحسين) لشاعرٍ مسيحيٍّ آخر هو الأديب اللبنانيّ المعاصر (جورج شكور)، فماذا عسانا نجد في جعبته من لآلئ الشعر العربيّ الأصيل، تلك اللآلئ الثمينة والجميلة التي ما برحت تستمدّ بريقها من وهج العشق الحسينيّ النبيل الذي يسكن القلوب التي تشرع نوافذها الشّفافة النقيّة لابنةِ النّهار؟!

في الحقيقة، ومن خلال كلام الأستاذ الأديب (شكور) وحديثه العامّ عن ملحمة كربلاء، يمكننا أن نلاحظ بوضوح أنّه يترفّع في حديثه الشعريّ عن ذكر فعائل يزيد وقبائحه لأنّ يزيد والكلام عنه وعن فظائعه لن يزيده انحطاطاً في عيون النّاس وذلك لسببٍ واحدٍ وهو أنّ يزيد هو الانحطاط ذاته، بل كاد أن يكون هو الشرّ المطلق عينه.

وانطلاقاً من ذلك، فإنّ الأديب الشاعر (شكور) يختصر الكلام عن يزيد، ونراه يسارع إلى التركيز على عمليّة المحاولة الفاشلة لانتزاع اعترافٍ رسميٍّ من الإمام الحسين عليه السلام يقرُّ بشرعيّة خلافة يزيد الخليع على المسلمين، فمعاوية ويزيد يريدان انتزاع اعتراف واضح وصريح من الإمام الحسين عليه السلام أمام المسلمين ينصُّ على أنّ

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق ص٢٠٤. ٢٠٥.

يزيد هو الرجل المؤهّل وهو الخليفة الشرعيّ المستحقّ لقيادة الأمّة الإسلاميّة.

ولذلك، فأوّل ما يتناوله الأديب (شكور) في قصيدته المطوّلة (ملحمة الحسين) هو وصف الإمام الحسين عليه السلام، لا وصف يزيد الفاسق، وبعد ذلك ينطلق إلى وصف موقف الإمام الحسين عليه السلام من محاولة انتزاع الاعتراف الرسميّ منه بولاية يزيد على المسلمين.

يقول الأستاذ (شكور) مستفسراً استفسار العارف عن مكانة الإمام الحسين عليه السلام:

أَمَا (الحسين) ربيبٌ للنبيّ، أمَا ... له في فؤاد الجَدِّ إيثارُ؟
سمّاه ريحانةَ الشبّانِ، حاليةً ... على الجنان، شذا الريحان معطارُ
وقبَّل الثغرَ يحبو روحه نسماً ... كما تَفاوحُ في الأسحار أزهارُ
أَمَا (الحسين) وريثٌ (للعليِّ) فَتى ... الفتيان، مَنْ نَهجُه في السرِّ أسرارُ؟[1]

وبعد أن يذكر الأستاذ (شكور) باقةً من فضائل الإمام الحسين عليه السلام، سليل النبوّة ومعدن الرسالة، فإنّه يتحرّك للكلام عن المبدأ الأخلاقيّ الذي يكافح الإمام الحسين عليه السلام من أجله ضدّ ضغمة حاكمة مجرّدةٍ من كلّ قيمةٍ أخلاقيّةٍ ومن كلّ فضيلةٍ إنسانيّةٍ.

وهنا يركّز الأستاذ (شكور) على ردّ فعل الإمام الحسين عليه السلام من مسألة الاعتراف بولاية يزيد وبمبايعته خليفةً على العباد والبلاد.

فمن المعروف للجميع أنّ الإمام الحسين عليه السلام قال بعد أن هدّده رجال يزيد

(١) جورج شكّور، ملحمة الحسين، طبعة مصوّرة وموزّعة من قبل المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلاميّة بدمشق، ٢٠٠٢م، ص١، وقد طبعت تلك القصيدة المطوّلة بشكل كتابٍ مستقلٍّ في بيروت وهو يحمل نفس عنوان القصيدة.

بالقتل إنْ لم يبايعه: «إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فَتَح الله وبنا خَتَمَ، ويزيد رجلٌ فاسقٌ شارب خمر، قاتل نفس، معلن بالفسق، فمثلي لا يبايع لمثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أيُّنا أحقُّ بالخلافة والبيعة»[1].

لقد استرعى هذا الموقف الرجولي انتباهَ الأستاذ الشاعر (شكّور) ممّا دفعه لتصويره شعراً بقوله:

هذا (يزيد) دَعيُّ الحكمِ ينذرهُ ... وهل يبايعُ بالأحكام فُجَّارُ؟!
ردَّ (الحسينُ) بـ (لا) كالسيف صارمة ... وسيّدُ الحقّ بـ (اللاءات) زَأّارُ
: سمعتُ جدّي رسول الله حرَّمها ... فلا خلافة في (سفيان) تُشتارُ
المبدأُ الحرُّ سرٌّ لا أُدنِّسُهُ ... مقدَّسٌ، وحُماةُ السرِّ أحرارُ[2]

ولَئِنْ صوَّر هذا الشاعر المسيحيّ موقف الإمام الحسين عليه السلام بهذه الصورة الثورية الملتهبة، فإنّ الشيخ الأزهري (عبد الله العلايلي) قد علَّق على نفس الموقف الصادر من الإمام الحسين عليه السلام، في ردّه الواضح على عدم إعطاء البيعة ليزيد، بقوله في كتابه (الإمام الحسين): (هذه الكلمات المعدودة (التي قالها الإمام الحسين عليه السلام والتي ذكرناها قبل قليل) تحوي برنامجاً خطيراً ودستوراً عمليّاً واسعاً، ويمكننا أن نسمّيه (ناموس الثورة)، والحقُّ أنَّ فيه المبادئ العالية لإعلان الثورة)[3].

وكما ذكرنا سابقاً في العديد من الصفحات السابقة، فإنّ أحد أهمّ دوافع النهضة

---

(١) أ . الخوارزمي الحنفي، مقتل الحسين، مصدر سابق، ج١ ص١٨٤.
ب . عبد الله العلايلي، الإمام الحسين، مصدر سابق، ص٩٢.
(٢) جورج شكّور، ملحمة الحسين، مصدر سابق، ص١.
(٣) عبد الله العلايلي، الإمام الحسين، مصدر سابق، ص٩٢.

الحسينيّة وأحد أهمّ أهدافها المباشرة هو تحقيق وإحياء مبدأ القيمة الأخلاقية في المجتمع الإسلاميّ الحديث الولادة، نسبيّاً، والذي تعرَّض لعدّة نكسات متتابعة نتيجة الابتعاد المتعمّد عن النهج الرساليّ القويم الذي رسمه الرسول المصطفى ﷺ لمجتمع الإنسانيّة عموماً.

وعندما نقول ونؤكّد على أنّ أحد الأهداف الأساسيّة للثورة الحسينيّة هو إحياء القيم الأخلاقيّة الرفيعة التي نادت بها رسالة السّماء الأخيرة، فإنَّ هذا لا يعني أنّ يزيد هو الوحيد الذي خرق تلك القِيم وشوَّهها واستعاض عن المحامد بالمفاسد، ولا يعني هذا أيضاً أنّ يزيد هو أوّل من سعى لاغتيال صوت الله في ضمير الإنسان، بل إنّ المسألة أعقد من ذلك بكثير.

فيزيد الخليع لم يكن إلا صورةً واحدةً من مجموعة صور لشخصيّات عديدة سبقته وكانت مثالاً في الكفر والفسوق والعصيان على الرغم من تظاهرها بالإسلام وبالتمسّك به بطريقةٍ تُضحك الثكالى والأيتام.

وعلى ما يبدو، فإنَّ هذه الحقيقة، لم تغب عن ذهن الكثير من المفكّرين والباحثين في مشارق الأرض ومغاربها، فهناك خللٌ واضحٌ في جسد الأمّة الإسلاميّة يهدّدها بالفناء والهلاك، ولابدّ من ثائرٍ مؤمنٍ يثور ويغضب لرسالة السّماء، ويقوم وينهض لإصلاح الخلل الذي راح يزداد اتّساعاً في جسد الأمّة حتّى بات أشبه ما يكون بِتورُّمٍ سرطانيٍّ ينتشر في شتّى أعضاء الجسد ممّا ينذر باقتراب الكارثة وبداية الفناء.

إذنْ، فالدافع الأخلاقيّ في النهضة الحسينيّة دافعٌ لا يُستهان به، بل هو ـ على أقلّ تقدير ـ الدافع الأكثر أهميّة وصاحب الأولويّة في عمليّة الخروج على الحاكم الجائر والفاسد يزيد وعلى حكومته، تلك الحكومة الغاشمة التي أبت أن تسير إلا على النهج

الذي رسمه معاوية وزبانيتُه الرجيمة للقضاء على النّور الإلهيّ الممثّل خير تمثيل بمحمد المصطفى ﷺ وبأهل بيته الكرام عليهم السلام الذين عبّر عنهم الإمام الحسين عليه السلام أفضل تعبير بوصفهم قائلاً: (نحن سفينة النجاة وعين الحياة والمعاني التي أشرقت من حضرة الأزل، ولم تزل، والأنوار التي بسرِّها ظهر الوجود وبها عُرِفَ العابدُ من المعبود، والشجرة الإلهيّة التي منها انفجرت ينابيع الفيض والجود)[١].

وعلى كلّ حال، لو أردنا أن ننتقل الآن إلى دافعٍ آخر من دوافع نهضة الإمام الحسين عليه السلام، فيمكننا القول - وبكلّ جرأةٍ - إنّ هناك دافعاً اقتصاديّاً واضحاً لتلك النهضة غفل عنه الكثير من الدارسين والباحثين عن عمدٍ أو ربّما عن غير عمد.

فمن خلال أقوال الإمام الحسين عليه السلام وخطبه الموجّهة لعموم المسلمين، ومن خلال تلك المراسلات والمواجهات الكلاميّة المباشرة بين الإمام الحسين عليه السلام من جهةٍ ومعاوية وابنه يزيد من جهةٍ أخرى، نستطيع أن نتبيّن بشكلٍ قاطعٍ أنّ للإمام الحسين عليه السلام رؤية خاصّة بشأن وضع المسلمين العامّ في ظلّ حكومة معاوية وفي ظلّ الحكومة المرتقَبة التي سيتسلّمها يزيد بالوراثة عن أبيه بعد وفاته.

فكلّ أقوال الإمام الحسين عليه السلام وكلّ رسائله تشير إلى أنّه كان يستنفر العقول ويستحثّ القلوب ويشحذ الهمم والنّفوس لنفض وإزالة غبار الجهل بالواقع عن كاهل الأمّة الإسلاميّة.

فالمستوى العامّ للمسلمين، كأمّةٍ إسلاميّةٍ حديثة الولادة نسبيّاً، دون المستوى المطلوب في مواجهة كافّة تيارات الانحراف العاتية التي أشاعها معاوية في جسد

---

(١) الشيخ كاظم حمد الإحسائي النجفي، السفينة السائرة في فضائل العترة الطاهرة، مؤسسة الهادي - بيروت، ١٩٩٩، ص٦٢.

الأمّة، وتعتبر هذه الحالة حالة مَرضيّة خطيرةٌ جدّاً ظهرت بشكلها المخيف من خلال الميل إلى السكون والتثاقل والانجذاب نحو المصالح الخاصّة وغياب الشعور بالمسؤوليّة الجماعيّة عن المسرح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وقد أخذت تلك الظاهرة الخطيرة بالتّبلور عن طريق تكديس الأموال الطائلة في أيدي القيادات العليا والسلطات المتنفّذة في المجتمع الإسلاميّ بشكلٍ يبعث على الدهشة والاستغراب.

وإذا كان أصحاب السلطة وأرباب الحكم في الأمّة قد استغلّوا نفوذهم وسلطتهم القاهرة لجمع المال وتكديس الثروات ومضاعفة العوائد والأرباح، فإنّ شرائح الأمّة عامّة قد عانت الأمرّين من سوء تلك السياسة التي انعكست على اقتصاد عموم الطبقات والفئات بشكلٍ سيءٍ للغاية ممّا جعل الكثير من المسلمين يعيشون في مجتمعهم وكأنّهم عبيدٌ يعملون في خدمة أسيادهم.

وغنيٌّ عن القول وعن التفصيل فيه أنّ معظم أولئك الفقراء الذين كانوا يُعامَلون معاملة العبيد والإِماء هم أتباع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم المخلصون.

وعلى سبيل المثال، يرى الدكتور المصري (حامد حفني داود)، الرئيس الأسبق لقسم الأدب العربيّ بجامعة عين شمس، وصاحب المؤلّفات العديدة في الأدب والفكر، أنّ أعداء الإمام علي والإمام الحسين عليهما السلام هم أعداء محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأعداء أهل البيت عليهم السلام والرسالة الإسلاميّة بكلّ ما فيها من قِيَمٍ ومبادئ إنسانيّةٍ سامية.

ولذلك، فلا مانع في نظرهم ـ كما يقول الدكتور (داود) ـ من اصطناع الكذب والخيانة والرشوة وقتل النّفس التي حرّم الله إلا بالحقّ ليصلوا إلى دنياهم بالطريق غير

المشروع[١].

وما من شكّ في أنّ كلّ هذه الأعمال الدنيئة كانت تُنفّذ بحقّ أتباع أهل البيت عليهم السلام ومحبّيهم وذلك بغية إضعافهم ماديّاً واقتصاديّاً ممّا يدفعهم ـ برأي معاوية ويزيد وأتباعهما ـ إلى التخلّي عن ولاية أهل البيت عليهم السلام والدّفاع عن حقوقهم وعن مبادئهم الرساليّة، وبالتالي يدفعهم ذلك أيضاً للانضمام لاحقاً إلى زمرة الطغيان بعد أن يكونوا قد وصلوا حقّاً إلى حدود الترجمة العمليّة لمقولة (كاد الفقر أن يكون كفراً).

وعلى الرغم من أنَّ رأي الدكتور المصريّ المسيحيّ (نظمي لوقا) يبدو رأياً بسيطاً بعض الشيء بالمقارنة مع رأي الدكتور (داود)، إلا أنّ ذلك لم يمنع الدكتور (لوقا) من الاعتراف العلنيّ والواضح بأنّ أهل بيت النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كانوا على الدّوام ضحايا الظلم والجور من قِبَلِ أعدائهم حتّى أنّهم أُوذوا كثيراً بسبب قيامهم بأعباء الرسالة التي جاء بها رسول الإنسانيّة صلى الله عليه وآله وسلم، فقد (أُوذوا في أرزاقهم، وفي أعمالهم، وفي أشخاصهم، وتعرّضوا لما تعرّض له من التهلكة أكثر من مرّة)[٢].

وإذا كان الكاتب الفرنسيّ (جان دولابرويير) (J.de Bruyere) (١٦٤٥ـ ١٦٩٦) يقول: (لا وطن مع الظلم)[٣]، فإنَّ أمير المؤمنين علي عليه السلام قال قبل ألف وأربعمائة عام تقريباً: «الفقر في الوطن غربة»[٤]، وبالفعل، هذا ما أراد معاوية وابنه

---

(١) السيد مرتضى الرضوي، آراء المعاصرين حول آثار الإمامية، مصدر سابق، ص٩٧.

(٢) الدكتور نظمي لوقا، محمد الرسالة والرسول، الشركة العربية للطباعة ـ القاهرة، ١٩٥٩، ص١٠٩.

(٣) جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٢ يحمل عنوان (بين عليّ والثورة الفرنسيّة)، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت، ١٩٧٠، ج٢ ص١٣٢.

(٤) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، الدار الإسلامة ـ بيروت، ١٩٩٢، ج٤ ص٥٣١.

يزيد تحقيقه في المجتمع الإسلاميّ وذلك عن طريق إحداث خلل اقتصادي كبير بين أبناء المجتمع الواحد، فللذين يتعامُون عن انتهاك السلطة للمحرّمات كلّ الامتيازات الاقتصاديّة والتسهيلات الماليّة في ظلّ حياة ماديّةٍ مريحةٍ مقابل مباركتهم لما يقوم به الحاكم ورجاله المقرّبون من تجاوزات علنيّة للشريعة السّماوية وانتهاكات وحشيّة لأبسط حقوق الكرامة الإنسانيّة، فللمواطن، في هذه الحالة، الحقّ في أن يعيش بسلام على أرضه، يأكل ويشرب وينام ويدعو للحاكم بطول العمر والتوفيق وبالنصر على أعدائه المشاغبين!!

أمّا بالنسبة لأولئك الذين لا يقبلون بالباطل ولا يسكتون على المظالم التي تقع على نسبةٍ لا يستهان بها من أبناء المجتمع، فأولئك ليس لهم أدنى حقّ في التمتّع بأبسط متطلّبات الحياة.

وعلى هذه الفئة أن تختار، وبشكلٍ واضحٍ وحاسمٍ، بين أن تكون موالية للسلطة، مساندةً لها، ساكتةً عن جرائمها، وبين أن تكون في الطرف الآخر من المعادلة، ثائرةً على السلطة، معاديةً لسياستها، فاضحةً لجرائمها.

ومن البديهيّ تماماً أن يكون نصيب كلّ من يقف في الطرفِ الآخر المناوئ لسلطة التجويع والترهيب والقتل والتشريد، وفي أفضل الحالات التضييق عليه وعلى عياله حتّى يدرك في قرارة نفسه أنّه ليس هناك شعور بالمُواطنةِ ولا إحساس بالإنسانيّة مع الظلم، وبالتالي سيدرك أيضاً أنّ الحقّ مع أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما أكّد قائلاً إنّ الفقر في الوطن غربة، فالغربة الحقيقيّة هي غربة الذات لا غربة الجغرافيا والمكان.

فسياسة الحكّام (الخلفاء) الذين حكموا الأمّة كانت في مجملها سياسات جائرة تستمدّ وجودها من سطوة السيف وتحافظ على استمرار ذلك الوجود من ظلام الفكر

الخارج من كهوف ومغاور علماء وفقهاء السّوء الذين يأكلون من مائدة الحاكم ويضربون بسيفه ويسارعون إلى إصدار الفتاوى التي تخدم عرش الحاكم وتثبّت له دعائم الكرسيّ فوق أشلاء الفقراء والمساكين والذين لم يرتضوا أن تكون الشمس سجينةً وراء القضبان في زنزانة (الخليفة) القابع في مخدعه مع جواريه وغلمانه يناقشون واقع الأمّة ومشاكلها على صوت مغنيّة مغناجٍ لعوبٍ وعلى وقع نَقْرِ كؤوس الخمر بعضها ببعض بين أَكُفِّ القائمين على أمر الأمّة!!

إذن، لقد أدرك الإمام الحسين عليه السلام أنّ السلطة الأمويّة الجائرة قد ربطت القوّة الاقتصاديّة وثروات الأمّة بالفساد السياسيّ والانحلال الأخلاقيّ والدينيّ، فالمناصب تُشتَرى وتُباع دون إقامة أيّ وزنٍ للمؤهّلات والكفاءات، والانحلال الأخلاقي في المجتمع ضرورة سياسيّة لإلهاء الشعب عن كلّ ما تقوم به السلطة من خرقٍ للقيم والمبادئ، فعلى السلطة تخدير أكبر شريحة من المجتمع عن طريق تشجيع ارتكاب المحرّمات وارتكاب الفواحش من خلال غضّ الطرف عن مرتكبيها وتسهيل السُّبلِ لهم لنشرها أفقيّاً في شتّى أرجاء البلاد ممّا يسهّل للحكومة لاحقاً أمر قيادتهم وتوجيههم وإسكات أفواههم بعد أن تكون قد اشترتهم بقليلٍ من المال وبتسهيل الانحلال.

فالإمام الحسين عليه السلام استطاع أن يفكّك رموز شيفرة السياسة الأمويّة بأدقّ تفاصيلها، فالقوّة الاقتصادية طريقة ناجحة لشراء النفوس المريضة وجذبها إلى مستنقع الموالاة للسلطة، والقوّة الاقتصاديّة ورقة قويّة أيضاً وَرِهانٌ ناجحٌ في كثيرٍ من الأحيان في إثارة الشقاق والفتن في صفوف المعارَضة، خاصةً إذا كان ذلك مسبوقاً بزراعة الجواسيس وناقلي الأخبار ومروّجي الإشاعات الكاذبة بين الصفوف.

وهنا تحديداً، تحضرني فكرة مفيدة قالها الفيلسوف والمفكّر اللبناني (أمين الريحاني) (١٨٧٦ـ ١٩٤٠) والتي تدلّ على أنّ السلطة الأموية التي كان يمثّلها وقتذاك معاوية، ومن بعده ابنه يزيد، كانت حقّاً سلطة ظلم وظلام، وكان الإمام الحسين عليه السلام جديراً بالثورة عليها واقتلاعها من جذورها.

يرى هذا المفكّر اللبناني المسيحيّ، والذي هو أحد أهمّ أقطاب الإصلاح والتجديد وصاحب المؤلّفات الفكرية الثقافيّة الغزيرة، أنّ زيادة (الخراج) والثروات في خزانة الخليفة أو الحاكم ليست مقياساً دقيقاً لسلامة الدولة وصحّتها، والسبب في ذلك هو أنّه يجب علينا أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي:

كيف كان يُصرف ذلك الخراج؟

ويجيب الفيلسوف المسيحيّ (الريحاني) على هذا السؤال بتأكيده في كتابه (النكبات) على أنّ الخلفاء الأمويين، ولاحقاً العباسيين، كانوا يأخذون الخراج لأنفسهم ولأهلهم ومحظيّاتهم وعبيدهم والمقرّبين منهم، أمّا بالنسبة لمعاوية بن أبي سفيان (فبيت المال في نظرهِ إنّما هو لشراء الأنصار)(١).

وبما أنّ الشيء يُذكر، وبما أنّنا أيضاً في معرض الحديث عن الدافع الاقتصاديّ الهامّ لثورة الإمام الحسين عليه السلام على الحكومة الأمويّة اللاشرعيّة التي اتّخذت بيتَ مال المسلمين وسيلة لتعزيز كرسيّ المُلك ولشراء النّفوس وقتل الضمائر وإشاعة الفساد في حِمى الإسلام، فإنّني لا أنسى تلك العبارات القويّة التي سمعتها من الكاتب السوريّ (عبد البديع محجازي) خلال لقاء طويل جرى بيننا عند أحد الأصدقاء في مدينة اللاذقية في يوم من أيام ربيع عام / ٢٠٠٥/ .

---

(١) جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانيّة، مصدر سابق، ج٢ ص١٧٣.

فالأستاذ (محجازي) كاتب ومفكّر من مدينة اللاذقيّة، وهو أحد إخواننا السنّة، وقد سُرِرتُ بالتعرّف عليه عن قرب عن طريق أحد الأصدقاء من أصحاب المكتبات.

وعلى الرغم من أنّ ذاك اللقاء كان اللقاء الأوّل بيننا، إلا أنّه كان حقّاً لقاءً مميّزاً جداً نظراً لِما حمَلَ من معطيات فكريّة وقِيَم ثقافيّة ناضجة تأبى الانغلاق على ذاتها في مواجهة الحقائق والوقائع.

والجانب الذي يهمّنا الآن من جوانب الحديث المطوّل الذي دار بيننا على نارٍ هادئةٍ بعيدةٍ عن الانفعال وعن لغة الهيجان والعاطفة هو ذلك الجانب المتعلّق بالسلطة الأمويّة وبمعاوية ويزيد من جهة، وبالإمام علي عليه السلام وبالإمام الحسين عليه السلام من جهة ثانية، فقد أكّد الأستاذ (محجازي) في حديثه على أنّ الإمام عليّاً عليه السلام هو ضمير الإسلام الحيّ، وأنّ الإمام الحسين عليه السلام هو صورة الإمام علي عليه السلام وصورة جدّه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك فإنّ ثورة الحسين عليه السلام هي استمرار وديمومة لثورة الإمام علي عليه السلام الذي أبى ورفض إلا أن يبقى الإسلام إنسانيّاً كما أراده نبيُّ الرحمة محمد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن أجل أن يؤكّد لي عمق الصدق في كلّ كلمةٍ كان يقولها، فقد أهداني نسخة جديدةً من كتابه القيّم (المساواة والاشتراكيّة في الإسلام)، وبالفعل، فبعد أن قرأت ذلك الكتاب قراءةً مترويّةً وجدت أنّه كاتب يحاول جاهداً أن يكون عقلانيّاً ومنطقيّاً في كلّ موضوع يطرحه على بساط البحث، هذا بالإضافة إلى ابتعاده الواضح عن العصبيّة المذهبيّة وعن التحيّز المقيت.

وعلى سبيل المثال، فمعاوية بالنسبة إليه عبارةٌ عن رجل خارج عن روح

الإسلام، بل أوّل الخارجين عن روح الإسلام[١]، وهو واحدٌ من أولئك الذين يكنزون الذهبَ والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله، ولهذا كان هو وأسياده وأصحابه على عداوة دائمة مع الصحابيّ الجليل الصادق أبي ذرّ الغفاري (رض) الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت القفراء أصدق لهجةً من أبي ذرّ»[٢].

وليس هذا فحسب، بل يرى الأستاذ (محجازي) أنّ الإمام عليّاً عليه السلام خليفة ثوري لا يقبل أنصاف الحلول في التعامل مع مبادئ الإسلام وثوابته، فهو عليه السلام ثوري بأقواله وأفعاله وبمواقفه التي لا تزال تهزّ عروش الحكّام المسلمين ليلاً ونهاراً حتّى يومنا هذا، تدعوهم للقيام بواجباتهم نحو الله ونحو الأمّة كما قام هو بواجبه على أكمل وجه.

وقد عبّر الأستاذ (محجازي) عن موقف الإمام علي عليه السلام من السلطة الأمويّة الحاكمة المستأثرة بالمال وباقتصاد الأمّة وبثرواتها ومغانمها بقوله:

(ولمّا آلت إليه (إلى الإمام علي عليه السلام) إمرةُ المسلمين بعد تحكُّم العصبيّة الأمويّة بدين الله باسم عثمان وكان لهذه العصبية من الجرأة على دين الله وعلى حقوق المسلمين ما سُرِقَ معها الكثير من أموال المسلمين،... أعاد الأموال التي سرقها الأمويّون جميعاً ولم يدع من المسروقات شيئاً إلا وأعاده حتّى الذين تزوّجوا بالأموال المسروقة فقد ردّ زواجهم)[٣].

ومن هنا كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام استكمالاً طبيعيّاً وامتداداً منطقيّاً لثورة

---

(١) عبد البديع محجازي، المساواة والاشتراكية في الإسلام، مطبعة الإرشاد . اللاذقية، ٢٠٠٥، ص٦٧.

(٢) نفس المصدر السابق ص٦٧ في هامشها.

(٣) نفس المصدر السابق ص٩٦.

الإمام علي عليه السلام على الجاهليّة الجديدة التي أطلّت برأسها من جديد وبأشكالٍ مختلفةٍ فَور وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، فما من يومٍ مَرَّ على الإمام علي عليه السلام دون مشاكل وفتن وهموم، وما من ليلٍ مرَّ عليه دون قلقٍ وسهادٍ وأحزان، فالإسلام، على حداثة ولادته، قد دخل دائرة الخطر وقد بلغ ذلك الخطر حدَّه الأقصى عندما تولّى معاوية كرسيّ الخلافة في الشام ضارباً بمبادئ الإسلام وأخلاقه عرض الحائط.

ولم يكن الحال عند الإمام الحسين عليه السلام بأفضل من الحال عند الإمام علي عليه السلام في زمنه، فيزيد خرّيج مدرسة معاوية فضلاً عن أنّه ابنه ومعاوية ـ كما يصفه المفكّر المسيحيّ (نصري سلهب) ـ كان تلميذ الشيطان الذي راح يعيث في الأرض فساداً[1]، ولذلك كان من الواجب الشرعيّ على الإمام الحسين أن يواجه الطاغيتين معاوية ويزيد بكلّ الوسائل الممكنة وأن يستكمل إزكاء نار الثورة ضدّ الوثنيّة الجديدة التي تتمثّل بعبادة كرسيّ الحكم مع ما يرافقها من طقوس الظلم والفساد وتقديم الدين والقِيَم والمبادئ أضحيات وقرابين من أجل شهوة السلطة واستمرار الحكم الأمويّ البغيض.

ولم تغب هذه الحقيقة المؤكّدة عن الكثير من أرباب الفكر والثقافة في الشرق والغرب، فالنهضة الحسينيّة نهضةٌ عريقةٌ تمتدّ بجذورها إلى الأفكار الثوريّة الإصلاحيّة التي عَمِلَ الإمام علي عليه السلام على تطبيقها وترجمتها على أرض الواقع طوال حياته، ومن هنا يرى الباحث الفرنسيّ (يان ريشار) أنَّ كِلا الإمامين، علي عليه السلام والحسين عليه السلام، كانا ثورة لا تنطفئ جذوتها في وجه الظلم والعنف لدى الأمويين

(١) نصري سلهب، في خطى علي، مصدر سابق ص٥٤.

الذين كانوا يتنكّرون لكلّ القِيَمِ الإنسانيّة والمبادئ الأخلاقيّة للرسالة الإسلاميّة[١].

ولا يبتعد رأيُّ هذا المستشرق الفرنسيّ المعاصر عن رأي المفكّر اللبنانيّ المسيحيّ (سليمان كتاني) كثيراً، بل إنَّ هناك الكثير من التقارب والتوافق بين وجهات النظر حول وحدة الأهداف العامّة التي نهض أهل البيت عليهم السلام جميعاً لتحقيقها بشكلٍ جماعيّ تارةً وبشكلٍ فَرديٍّ تارةً أخرى.

وعلى سبيل التوضيح، يرى الأستاذ (كتاني): (إنّ أهل البيت هم الوصيّة المقصودة لتناول الإرث الذي هو رسالة ملفوفة بملحمة حقيقيّة ما شهدت الأرض نظيرها من الملاحم)[٢].

ويرى أيضاً، من خلال استدراكه لهذه العبارة التي ذكرناها الآن، أنّ الحسن والحسين عليهما السلام هما سليلا نور النّبوة وألَق الإمامة، ولذلك كانا دائماً الأمل الحيُّ في إكمال ما انعقدت عليه أهداف الرسالة التي جاء بها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وآزره في تبليغها الوصيّ عليه السلام.

ومن هنا نستطيع أن نفهم قول الأستاذ (كتاني) عن مهمة الإمام الحسين عليه السلام وأهدافه، إلى جانب أهداف أخيه الإمام الحسن عليه السلام، على أنَّ هناك وحدةً في الأهداف الرساليّة لأنّ هناك، بالأساس، وحدة في الأنوار النبويّة الإماميّة، وهذا ما قصده ذلك المفكّر المسيحيّ اللبنانيّ بقوله في كتابه الثمين (الإمام الحسين في حلّة البرفير) عن الحسن والحسين عليهما السلام: (ما كانا يشربان إلا كوثراً صرفاً سيكون به تحقيق الميراث، وتحقيق الوصيّة، وتحقيق الإمامة، وتحقيق الوعد الذي تعيش به رسالة ما

(١) يان ريشار، الإسلام الشيعيّ، مصدر سابق ص٢٦٤.

(٢) سليمان كتاني، الإمام الحسين في حلّة البرفير، مصدر سابق ص٢٨.

انفكّت ملحمةً يلتحم بها إسلام الأرض بين يديّ ربّها الرحمن الرحيم)[١].

لقد تبيّن جليّاً للإمام الحسين عليه السلام أنّ المبادئ المنهجيّة التي آمن بها أمير المؤمنين علي عليه السلام إنّما هي كلّها جواهر من صلب الرسالة التي قدّمها جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله للمجتمع الإنسانيّ عامةً هديّةً سماويّةً وبركةً إلهيّةً تتجاوز الأجناس والأعراق وتتخطّى حدود الجغرافيا وعتبات التاريخ، فهي رسالة السّماء للإنسان، نعم، إنّها دعوة الله لمن يريد أن يكون جديراً بحمل كلمة (إنسان).

ولو أردنا أن نفارق الأديب والمفكّر اللبناني المسيحيّ (سليمان كتّاني) على أمل العودة إليه في الوقت المناسب، واتّجهنا في رحلتنا هذه إلى عالم المفكّر والمؤرّخ المعروف عالميّاً (فيليب حتّي) (Philip Hitti) (١٨٨٦ـ ١٩٧٨)، فماذا عسانا نجد في جعبته من وجهات نظر عن نهضة الإمام الحسين عليه السلام الإنسانيّة وثورته الإصلاحيّة؟!

قبل أيّ شيءٍ، نقول إنّ المؤرّخ (فيليب حتّي) مؤرّخ ومفكّر لبنانيّ مشهور، عَلّم في الكثير من الجامعات الأمريكيّة لفتراتٍ طويلةٍ حتّى بات عَلَماً بارزاً في ميدان التأريخ، له العديد من المؤلّفات باللغتين العربيّة والإنكليزيّة، منها: (تاريخ العرب)، (تاريخ سورية)، (تاريخ لبنان)، بالإضافة إلى الكثير من الأبحاث التاريخيّة الأخرى.

يرى هذا المفكّر والمؤرّخ المسيحيّ في كتابه الشهير (History of The Arabs) أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يسير بخطى ثابتة على نفس النهج الذي سار عليه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله والإمام المرتضى عليه السلام، فالأهداف واحدةٌ والغاية النهائيّة أيضاً واحدةٌ.

(١) نفس المصدر السابق ص٢٨.

وليس هذا فحسب، بل إنّ عموم المسلمين، وليس الشيعة فقط، كانوا في حالة تفاعل وتعاطف مع أهل بيت النبيّ ﷺ وبشكلٍ خاصٍّ مع الإمام علي عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام، وقد أكّد الأستاذ (حتّي) على ذلك بقوله في الكتاب المذكور أعلاه: (إنّ القلوب المليئة بالتقوى تجاه ذريّة النبيّ ﷺ جعلتهم مركزاً للتعاطف العامّ معهم، وقد انضمّ إلى معسكرهم الكثير من النّاس الذين لم يكونوا راضين سياسيّاً واقتصاديّاً أو حتّى اجتماعيّاً عن الدّور الذي يلعبه بنو أميّة)[١].

وبالتالي، فإنّ مجمل هذه الأسباب قد لعبت دوراً حاسماً في الثورة والوقوف بثباتٍ وإيمان أمام الطغيان الأمويّ الذي كان يشكّل، بحقٍّ، آفةَ الإسلام وعلّته.

ومن الممكن هنا أن يتبادر إلى ذهن كلّ واحدٍ منّا السؤال المنطقيّ التالي:

هل كانت حياة الإمام الحسين عليه السلام، أو حتّى حياة أمير المؤمنين علي عليه السلام، رهناً للصدام والتصدّي لبني أميّة ولطغيانهم وعتوّهم في الأرض؟!

أو بتعبيرٍ آخر أيضاً، هل كان هدف الحسين عليه السلام من الخروج إلى أرض كربلاء هو عبارةٌ عن وجهٍ آخر لجهاد الإمام علي عليه السلام ضدّ الحكم الأمويّ المستبدّ واللاشرعي؟!

في الحقيقة، إنّ أسئلةً من هذا النّوع هي في المحصّلة أسئلةٌ منطقيّةٌ وعقلانيّةٌ، بل وربّما هي أسئلةٌ جوهريّةٌ تنطوي على الكثير من الوعي الفكريّ والنضج الثقافيّ، ولذلك، فمن الواجب على الجواب أن يرتقي إلى مستوى السؤال المطروح.

فالإمام الحسين عليه السلام شأنه شأن الإمام علي عليه السلام، لم يكرّس نفسَه ولم يسخّر قدراته الروحيّة والفكريّة لمواجهة الباطل الأمويّ فحسب، بل كان في كلّ حركةٍ من

(١) Philip Hitti History of The Arabs Macmillan Newyork ١٩٥٨ p.٢٨٢.

حركاته وفي كلّ لحظةٍ من لحظاته شمعةً يزداد نورها تألّقاً كلّما ازداد ذوبانها في محراب الدفاع والذّود عن شرف الرسالة السّماويّة والكلمة الإلهيّة ضدّ كلّ أنواع الكفر والطغيان والباطل سواء كان ذلك الانحراف والباطل من مصدرٍ أمويّ أم من مصدرٍ آخر لا يمتُّ إلى الأمويين بأيّ صلة.

فللحقّ وجهٌ واحدٌ وللباطل وجوهٌ عديدة، ولذلك كان الإمام عليه السلام هو وجه الحقّ الذي يجب عليه دائماً وأبداً أن يصارع وجوه الباطل ويصرعها مهما تعدّدت وتباينت تلك الوجوه الباطلة والتي يحاول البعض منها ارتداء قناع الحقّ ولو إلى حين.

فلا ريب في أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو تلميذ أمير المؤمنين علي عليه السلام في مدرسة الحقّ والخير والفضيلة، ولذلك فمن الطبيعيّ تماماً أن يحذو الإمام الحسين عليه السلام حذوَه في السّير على الصراط المستقيم الذي يستوحش الكثير من النّاس السير عليه لصعوبته ولقلّة سالكيه.

فالإمام علي عليه السلام، الملهم الأوّل للثورات ضدّ الباطل عبر كلّ العصور، قد أجبر الكثيرَ من أعدائه على الاعتراف بفضله وبِقِيَمه ومبادئه الإنسانيّة النبيلة، وقد أجبرهم أيضاً على الإقرار بأنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام وكلّ الثورات اللاحقة كانت تستمدّ ضياءها من سراج ثورته (العَلوية المحمديّة) التي ابتدأت منذ ما يقارب أربعة عشر قرناً ولا يزال لهيبها متّقداً بعنفوان الحقّ في صدور الأحرار في العالم.

ويكفي أن أذكر هنا مثالاً واحداً أو ربّما مثالين على أنّ المدرسة التي تخرّج منها الإمام الحسين عليه السلام ـ ونقصد بذلك مدرسة الإمام علي عليه السلام ـ قد فرضت نفسها حتّى على الفكر اليهوديّ المعاصر.

فمثالنا الآن هو المفكّر اليهوديّ المعاصر الدكتور (إسرائيل ولفنسون)، ذلك

المفكّر الذي استفاض في مؤلّفاته الفكريّة المتنوّعة عن علاقة اليهود في الجزيرة العربيّة بالإسلام، وربّما كان أشهر كتاب له في هذا المجال هو كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام) والذي تُرجم إلى اللغة العربيّة ولغاتٍ أخرى أيضاً.

ويَرى هذا المفكّر، وعلى الرغم من أنّه يهوديّ حتّى العظم، أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان مثالاً للرجل الثائر في سبيل الإيمان بما دعته إليه السّماء، فعليّ عليه السلام هو السند الأوّل والأخير لابن عمّه الرسول محمد صلى الله عليه وآله عند الملمّات والخطوب، ولذلك فقد كان الإمام علي عليه السلام هو الثورة الحقيقيّة في مواجهة كلّ أنواع المصاعب التي كانت تعترض طريق الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله في عمليّة تبليغ رسالته بين عموم القبائل والعشائر.

وهنا يُورد هذا المفكّر اليهوديّ (ولفنسون) الدور الجوهريّ الهامّ الذي قام به الإمام علي عليه السلام في غزوة خيبر الشهيرة، تلك الغزوة التي لا يزال ذكر أمير المؤمنين علي عليه السلام فيها يبعث الرعب والحقد في قلوب اليهود إلى يومنا هذا.

ويذكر الدكتور (ولفنسون) دور الإمام علي عليه السلام في الدّفاع عن رسالة الإسلام وتجلّي هذا الدفاع في الدور المتميّز الذي قام به في عمليّة الفتح المبين لذلك الحصن اليهوديّ المنيع والعَصيّ على كلّ المهاجمين الغزاة.

فالإمام علي عليه السلام تسلّم قيادة الجيش بأمر مباشرٍ من ابن عمّه محمد صلى الله عليه وآله بعد أن فشل كبار الصحابة في تحقيق أيّ نصرٍ ولو كان نصراً معنويّاً بسيطاً.

وهنا يصوّر هذا المفكّر اليهوديّ الإمامَ عليّاً عليه السلام وهو يشنّ هجومه الساحق على ذلك الحصن المنيع ويكتسحه اكتساحاً بطوليّاً باهراً غير مبالٍ بالأخطار المحدقة

به من كلّ جانب إيماناً منه بأنّه يستبسل من أجل الحقّ والرسالة في مواجهة كلّ ما من شأنه أن يسيء إلى الرسالة أو إلى صاحبها ﷺ.

ويختتم ذلك المفكّر اليهوديّ حديثه عن تلك المواجهة الدامية بين إمام المسلمين، الإمام علي عليه السلام، وبين كبار محاربيّ اليهود المتحصّنين في حصن خيبر بتأكيده ـ من خلال اعتماده على كتاب (تاريخ الخميس) ـ أنّ الإمام عليّاً عليه السلام استطاع أن يقتلع باب حصن خيبر بقوّة إعجازيةٍ تثير الدهشة والاستغراب حتّى أنّه قد اجتمع سبعون رجلاً محارباً ليحرّكوا ذلك الباب من مكانه بعد أن اقتلعه الإمام علي عليه السلام بيده المباركة وتترّس به فما استطاعوا بجمعهم أن يحرّكوه من مكانه الذي ألقاه فيه علي عليه السلام[1].

إذنْ، ومن خلال ما ذكره هذا المفكّر اليهوديّ المعاصر، نستطيع أن نخرج بنتيجة هامّةٍ جدّاً على الرغم من بساطتها ووضوحها، وتتجلّى هذه النتيجة بالقول إنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان يمثّل الوجه الثوريّ في الإسلام ضدّ كلّ الجبهات المناوئة والمعلِنة عَداءَها وكيدها لرسالة السّماء، سواءً كانت تلك الجبهات أمويّةً أم وثنيّةً أم يهوديّة أم غير ذلك.

فالإمام علي عليه السلام، الذي هو معلّم الإمام الحسين عليه السلام ودليله إلى رسالة جدّه الرسول المصطفى ﷺ، لم يكن مشروعه الثوريّ، كما يتوهّم البعض من أنصاف المثقّفين، مقتصراً على مقارعة الباطل الأمويّ والإطاحة بذلك البيت الملعون في القرآن، بل كان مشروعه، الذي ورّثه لاحقاً للإمام الحسين عليه السلام، أكبر وأشمل من

---

(١) د. إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، طبع دار النافذة ـ القاهرة، ط١/٢٠٠٦، ص١٩٤.

ذلك بكثير.

لقد كان مشروعه التغييريّ عبارةٌ عن حركة ديناميكيّة دائمةٌ لا تعرف حدوداً للتغيير المستمرّ نحو قِيَم السّماء وتعاليم آخر الأنبياء ﷺ، ولذلك، فعندما يقول الرسول الصادق الأمين ﷺ مخاطباً أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام على مسمع من النّاس: «أنت الصدّيق الأكبر وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحقّ والباطل»[1]، فإنّ هذا يعني أنّ حجر الأساس في مشروع عليّ عليه السلام الثوريّ هو أنّ صاحب ذلك المشروع هو الفاروق الحقيقيّ القادر على معرفة الحقّ والباطل من جهة، وهو القادر أيضاً على مجابهة الباطل بقوّة الحقّ من جهةٍ أخرى.

فالمدرسة الثوريّة العَلَويّة التي تخرّج منها الإمام الحسين عليه السلام هي تلك المدرسة التي تنادي بالنهوض والثورة الدائمين في كلّ زمانٍ ومكانٍ وعلى أكثر من مستوى وبُعْدٍ، فهناك الثورة والنهوض على المستوى العموديّ، وهناك أيضاً الثورة والنهوض على المستوى الأفقي.

ونحن، بطبيعة الحال، لا نريد أن نتشعّب في حديثنا كثيراً حول فلسفة هذين المستويين من الحركة الثورية النهضوية في فكر أهل البيت عليهم السلام عموماً، ولكن بإمكاننا أن نختصر الكلام ونقول إنّ الثورة (العلوية ـ الحسينية) العموديّة هي تلك الثورة الحيّة التي تبدأ من الثورة على الذاتِ نفسها لتخليصها من (النفس المسوّلة) و(النفس الأمّارة بالسّوء) ومن شتّى الأصنام والأوثان الداخليّة، والتي ينتهي بها المطاف إلى حالة التألُّهِ من حيث التأدّبِ بآداب الله سبحانه وتعالى والامتثال لكلّ أوامره والانتهاء عن كلّ نواهيه.

(١) العلامة سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، مصدر سابق ج١ ص٦١.

وفي هذا المستوى العمودي من الثورة على الذات والنهوض بها إلى مستوى الآداب الإلهيّة السامية يصل صاحب هذا المستوى من الثورة إلى المرتبة الكماليّة العالية التي وصفها الله سبحانه وتعالى في حديثه القدسيّ المقدّس قائلاً: (يا بنَ آدم، أنا غنيٌّ لا أفتقر أطعني فيما أمرتُك أجعلك غنيّاً لا تفتقر، يا بنَ آدم، أنا حيٌّ لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلكَ حيّاً لا تموت، أنا أقول للشيء كُنْ فيكون أطعني فيما أمرتك تقول للشيء كُنْ فيكون)(١).

أمّا المستوى الثاني، أو لِنَقُلْ البُعْد الثاني من الثورة، فهو البُعد الأفقيّ الممتد من داخل الذات إلى خارجها ليتّصل بكلّ مفردةٍ من مفردات الوجود المحيطة بتلك الذات الفاعلة والمنفعلة بآنٍ معاً، فالثورة النهضوية، بهذا المفهوم، هي حركةٌ إيجابيّةٌ فاعلةٌ في المجتمع، نعم، ربّما لا يُكتَب لكلّ الثورات ولكلّ الحركات النهضويّة النصر أو النجاح في مساعيها، ولكن هذا لا يعني أن يقف الإنسان الذي هو، عمليّاً، خليفة الخالق في الخليقة مكتوف اليدين مُستكين النّفس مكبل الأحاسيس والمشاعر تجاه أيّة ظاهرة سلبيّة في المجتمع مهما كان نوعها وعيارها.

فالامتداد الأفقي للثورات الإنسانيّة يجعلنا نراجع تاريخ المصلحين والأنبياء عليهم السلام على مرِّ العصور حتّى نتعرّف على علاقتهم بواقعهم ومجتمعاتهم التي يعيشون فيها.

فما هي حقيقة تاريخ المصلحين والأنبياء؟

هل تاريخهم تاريخ الخوف والهلع من السقوط في مهاوي الابتلاء والنكبات؟

هل تاريخهم تاريخ الجزع والتخوّف من دخول السجون والمعتقلات ومن ثمّ

(١) الشهيد السيد حسن الشيرازي، كلمة الله، دار الصادق. بيروت، ١٩٦٩، ص١٤٠.

التعذيب، وربّما أحياناً الموت تحت سياط الجلاد والسجّان؟!

هل هذا هو تاريخهم الحقيقيّ، أم أنّ التاريخ الحقيقيّ لأولئك المصلحين كان تاريخ التخلّص من الخوف والتحرّر من عقدة الابتلاء التي تكمن لهم في كلّ حركةٍ يقومون بها وهم في طريقهم إلى تحقيق التغيير المنشود؟!

فتاريخهم كان بالفعل تاريخ سجون بلا خوف، وتعذيب بلا جَزع، وإقدام بلا إحجام، وكفاح بلا هوادة، وضحايا على طريق الشهادة.

فالله جَلّ جلاله يقول في محكم تنزيله الحكيم: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ...﴾[1]، وَ(الربّي) هو المنتسب إلى (الربّ) أي إلى الله سبحانه وتعالى، وبالتالي، فإنّ الربّيَّ هو الرجل المنتسب فكراً وعملاً إلى السّماء، وهو الناهض والثائر دوماً من أجل سيادة مبادئ السّماء، فهو ثائرٌ في سبيل الحقّ والعدل والخير والفضيلة وفي سبيل تحقيق إنسانيّة الإنسان وصون كرامته، إنّه الثائر أيضاً في سبيل فَكِّ حبال الذلّ عن رقاب المعذّبين والمستضعفين، إنّه الثائر الناهض في وجه فراعنة كلّ العصور وطغاة كلّ الدهور حيث لا يعترف لهيب الثورة في صدره بحواجز التاريخ ولا حدود الجغرافيا، ولا حتّى بالألوان والأجناس والأعراق، فثورته ثورةٌ شاملةٌ ضدّ كلّ الانحرافات والمخاطر التي تهدّد الهويّة الإنسانيّة في جذورها وأعماقها، وبالتالي، فالثورة رَصدٌ ومواجهة مع صور الباطل والطغيان أينما بَانَتْ وَوقتَما كانتْ.

أمّا المثال الثاني عن الرؤية اليهوديّة المعاصرة للمدرسة العَلَوية الثورية فقد أخذناه من أحد مؤلّفات المفكّر اليهوديّ الشهير (ليوبولد فايس) (Leopold Weiss) النمساويّ الأصل.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.

وعن هذا المفكّر اليهوديّ الخطير الشأن يقول الباحث الأستاذ (محمد شاكر عضيمة) في كتابه الجريء (كنتُ مفتّشاً في المملكة العربيّة السعوديّة): (هو سليل الحاخاميّة، أعدَّهُ والدُه ليكون حاخاماً لحفظ التراث الربّاني للعائلة التي احتفظت به أجيالاً، ولكن (إحدى الجهات) ساقته إلى السعوديّة وجعلته مسلماً)[1].

ويذكر الأستاذ (عضيمة) أيضاً كيف أنّ ذلك اليهوديّ الخطير قد تظاهر باعتناق الإسلام وكيف بدَّل اسمه من (ليوبولد فايس) إلى (محمد أسد) وكيف استطاع بدهائه وبمكر روحه اليهوديّة أن يصل إلى أعلى المناصب الإسلاميّة بتوجيهات من بعض الجهات المسؤولة في المملكة السعوديّة حتّى أنّه تسلّم المناصب التالية وهو لا يزال يهوديّاً في صميمه حتّى العظم:

١ـ تولّى إصدار مجلّة (عرفات) الإسلاميّة في باكستان.

٢ـ تولّى رئاسة معهد الدراسات الإسلاميّة في لاهور.

٣ـ تولّى دائرة إحياء الإسلام في باكستان.

٤ـ عَمِلَ كمندوب لباكستان في هيئة الأمم المتحدة.

وممّا يدلّ، بالفعل، على مكره وعلى عبقريّته بنفس الوقت هو أنّه ـ كما يقول عنه الأستاذ (عضيمة) ـ كان يعرف عن الإسلام أضعاف ما يعرفه أيّ شيخ في السعوديّة، وكان، بالإضافة إلى ذلك، يتكلّم اللغات التالية: العبرية والآرامية والعربية والألمانيّة والإنكليزيّة والبولونيّة والفرنسيّة[2].

إذنْ، إنَّ هذا المفكّر اليهوديّ كان على درايةٍ كافيةٍ بكلّ التاريخ الإسلاميّ وبكلّ

(١) محمد شاكر عضيمة، كنت مفتّشاً في المملكة العربيّة السعودية، مطبعة الكشّاف ـ اللاذقية، طبعة أولى، ١٩٦٩، ص٢٣١.

(٢) نفس المصدر السابق ص٢٣١.

رموزه وأعلامه، ولذلك فقد عرف كيف يمكن وضع السمّ في الدسم، والذي يقرأ مؤلّفاته المتعدّدة سيدرك هذه الحقيقة بلا أدنى شكٍّ أو رَيب.

ولكنْ، وعلى الرغم من كلّ ذلك، لم يستطع ذلك اليهوديّ المتظاهر بالإسلام أن يحجب بعض الحقائق المتعلّقة بالروح الثوريّة عند أهل البيت عليهم السلام، ولكن يكفي أن نذكر من كلّ هذا تأكيدَه على أنّ العصر الذهبيّ للإسلام بدأ بالتراجع بعد عمليّة اغتيال الإمام علي عليه السلام.

فالإمام علي عليه السلام، بنظر ذلك اليهوديّ المتعصّب، هو حقّاً (شهيد)[1] الإسلام، وباستشهاد ذلك الإمام عليه السلام دفاعاً عن المبادئ والقِيَم الرساليّة بدأ الإسلام بالتراجع والابتعاد عن الرّوح الإسلاميّة التي جاء بها الرسول محمد صلى الله عليه وآله والتي هي في جوهرها روح الثورة والتغيير.

وهكذا نرى أنّه حتّى الفكر اليهوديّ المعاصر لم يستطع أصحابه إخفاء إعجابهم الواضح بشخصيّة الإمام علي عليه السلام وبالمبادئ والأهداف التي كان يدافع عنها طوال حياته دون كَلَلٍ أو ملل، وهو أيضاً إعجاب وتقدير للشخصيّة الإنسانيّة الملهمة للكثير من النهضات والثورات العالميّة وعلى رأسها ثورة ابنه الإمام الحسين عليه السلام.

وليس الفكر المسيحيّ المعاصر ببعيدٍ عن الرؤية اليهوديّة السابقة في ما يتعلّق بالروح الثوريّة عند أمير المؤمنين علي عليه السلام، تلك الرّوح التي غرست في ضمير الإمام الحسين عليه السلام ثورةَ كربلاء، بل والعديد من الثورات اللاحقة الأخرى في شتّى بقاع الأرض طلباً للعدالة والحقّ ورفضاً للبغي والظلم، وها هو أحد المفكّرين

---

(١) ليوبولد فايس (محمد أسد)، منهاج الإسلام في الحكم، ترجمة: منصور ماضي، دار العلم للملايين. بيروت، ١٩٥٧، ص٦٤.

المسيحيين المعاصرين يعبّر عن هذه الفكرة ذاتها بقوله وتأكيده على أنّ اسم الإمام علي عليه السلام قد أصبح مبعثَ أملٍ لكلّ مغصوب، وصيحةً تتردّد على لسان كلّ مظلوم، وحصناً يفزع إليه كلّ من ضاقت عليه الحال والحياة، ويتابع ذلك المفكّر المسيحيّ قوله: (فما من طالبِ إنصافٍ في هذا التاريخ إلا اسمُ عليّ ملاذهُ، وما من غاضبٍ على ظالم إلا واسم عليّ درعه، وما من ساخط على رشوة أو فساد أو جور إلا وله من عليٍّ وتراثه حافزٌ على الثورة)[1].

إذنْ، لا يختلف اثنان في أنّ أهداف الإمام الحسين عليه السلام في ثورته وفي نهضته الكربلائيّة هي نفس الأهداف العَلَويّة المستوحاة بشكلٍ مباشرٍ من الرسالة الإسلاميّة التي جاء بها الرسول المصطفى خير البريّة صلى الله عليه وآله وسلم.

فالمنطلق واحد والمبدأ واحد، ولا ريب في أنَّ الهدف أيضاً واحد، وليس هذا الأمر بخافٍ على أحدٍ، بل على العكس تماماً، إنّ كلّ صاحب بصيرة يدرك دونما أدنى شكّ أنّ الإمام الحسين عليه السلام، من خلال ثورته على كلّ مظاهر الخلل في الأمّة، قد استكمل وترجم عمليّاً النهج الذي رسمه أمير المؤمنين علي عليه السلام لصون وحفظ تعاليم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعدما عمل العاملون جاهدين على محْوِ معالمها وطمس مبادئها غير آبهين بتحذير النذير ولا بخلجات الضمير.

فالإمام الحسين عليه السلام ـ كما يقول عنه المفكّر الفرنسيّ الشهير (روجيه غارودي) ـ قد قدّم كلّ ما يملك من أجل أسمى مفهومَين في الوجود، الحقّ والإيمان[2]، وبهذا يكون الإمام الحسين عليه السلام قد استكمل بالفعل ما أراد أمير المؤمنين علي عليه السلام

(١) جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانيّة، مصدر سابق ج٥ ص١٨٦.

(٢) روجيه غارودي، الإسلام دين المستقبل، مصدر سابق ص٤٨.

تحقيقه على أكمل وجه ولو من خلال الأئمّة الأطهار عليهم السلام من بعده، سواءً من الإمام الحسين عليه السلام أم من غيره لأنّ الجميع، في المحصّلة، ينشدون نفس الأهداف والغايات على حدٍّ سواء.

وهنا تحديداً أريد أن أتوقّف قليلاً مع نقطةٍ هامّةٍ أخرى تتعلّق بدواعي وأسباب خروج الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء، وعلى ما يبدو فإنّ هذه النقطة أيضاً قد أغفل ذكرها كلّ الباحثين في مسألة النهضة الحسينية وأسباب الثورة على حكومة يزيد.

فهناك سببٌ جوهريّ لا يقلّ أهميةً عن كلّ الأسباب والدواعي التي ذكرناها في هذا الفصل من الكتاب، إنّه السبب المتعلّق بالتفريط العَلَنيّ والمتعمّد بالكرامة وبالأرض.

فالحاكم الذي يقبل التفريط بالأرض إنّما هو حاكم بائعٌ للكرامة والعرض، وهذا ما حدث بالضبط مع يزيد ومع أبيه معاوية من قبله ومع غيره من بعض الخلفاء الأمويّين من بعده.

فمعاوية شخصيّة معروفة بمكرها ودهائها، بل وبقذارتها على كافّة المستويات الدينيّة والدنيويّة، ولذلك ليس هناك من داعٍ لنعيد الآن فتح ملفّات ذلك الحاكم الذي كان يحكم دائماً بعكس حكم الله في العباد والبلاد.

ولكنّ الشيء الذي قد لا يعرفه الكثير من القرّاء عن معاوية هو أنّه كان صاحب مخطّطٍ خطيرٍ يقوم على المتاجرة بكلّ شيءٍ مقدّسٍ وغير مقدّسٍ من أجل الحفاظ على كرسيّ الحكم دون حدوث أيّ شغبٍ أو اضطراب.

وعلى ما يبدو، فإنّ ابنه يزيد كان بارّاً بتعاليم والده وبنهجه في التعامل مع الأحداث والوقائع منطلقاً في ذلك من ضرورة الحفاظ على مقاليد الحكم والتشبّث

بكلّ ما أُوتيَ من قوّةٍ وسلطان بكرسيّ الحكم المطلق القادر على أن يختصر شخصيّة الأمّة بشخصه وأن يكثّف مساحة تلك الأمّة أيضاً إلى حدود مساحة كرسيّه المنتصب عالياً على جماجم المظلومين وأشلاء البؤساء والمستضعفين.

فيزيد الذي ورث منصب (الإمبراطور) من أبيه معاوية الذي ذلّل له الكثير من الصعاب وأزال له من طريقه العديد من العوائق الخطيرة التي كان من الممكن لها أن تعيق وصوله إلى كرسيّ الحكم، بدا وكأنّه، منذ الأشهر الأولى لحكمه، لا يمتُّ إلى الإسلام بأدنى صلة ولا يرتبط بمبادئه وقِيَمِهِ بأوهى رباط، وهذا شيءٌ لا ندّعي معرفتنا به دون سِوانا من الدارسين والباحثين، ولكن ربّما كان هناك أشياءٌ أخرى أعمق من الانحطاط الأخلاقيّ والتردّي الدينيّ الذي ورثه يزيد عن أبيه معاوية.

فمسألة المعاهدات التي كان يعقدها معاوية مع أعداء الإسلام الذين كانوا يتربصّون الدوائر بالأمّة الإسلاميّة عموماً، كانت معاهدات جائرةٌ بحقّ الإسلام والمسلمين، ولم يكن عند معاوية أيُّ مبرّرٍ لعقد مثل تلك المعاهدات إلا توفير الأمن والاستقرار لكرسيّه الخاصّ وليس للبلاد التي يحكمها.

وتذكر كتب التاريخ السياسيّ أنّ معاوية قد رسم سياسة عقد المعاهدات الجائرة مع الأعداء على حساب المسلمين عند الشعور بأنّ هناك خطراً ما يتهدّد الكرسيّ الذي يتربّع عليه، وتذكر تلك الكتب التاريخيّة أيضاً أنّ ابنه يزيد وبعض الحكّام الأمويين قد ساروا على نهجه واقتفوا أثره في عقد معاهدات مخزية مشابهة للمعاهدات التي أبرمها معاوية مع أعداء إسلام الرسالة والرسول ﷺ.

ولعلّ أبشع تلك المعاهدات الجائرة وغير المتكافئة هي تلك المعاهدة التي عقدها معاوية ـ بمحض اختياره وإرادته ـ مع الأمير البيزنطي (كونستانس الثاني) في

عام / ٣٩هـ/ ، فدفع معاوية ـ بموجبها ووفقاً لمستلزماتها ـ الجزية المطلوبة لذلك الأمير البيزنطي المذكور[1].

إذنْ، إنَّ هذا (الخليفة) الذي استعدى على الإسلام وعلى رسوله ﷺ لم يكتفِ بضرب المسلمين بعضهم ببعض بشتّى الوسائل والطرق، والقيام بمختلف المؤامرات الدنيئة للمحافظة على سلطانه وعرشه، بل راح يحالف أعداء الإسلام علانيةً على حساب المصلحة الإسلاميّة العليا.

وقد نَهَجَ ابنُه يزيد نفس النهج الذي اختطّه له أبوه معاوية، فراح يزيد يتاجر بمبادئ الأمّة وبشرف الرسالة وبكرامة الضمير الإنسانيّ، هذا بالإضافة إلى عَقْدِهِ عدّة معاهدات مع أعداء الإسلام شبيهةً بتلك المعاهدات التي عقدها أبوه معاوية مع الأمير (كونستانس الثاني) ومع غيره من الأمراء الأعداء.

ولذلك، فمن الطبيعيّ أن ينتبه الإمام الحسين عليه السلام إلى تلك الظاهرة الخطيرة التي باتت تهدّد الإسلام ذاته في نقطتين:

النقطة الأولى تتمثّل في الامتداد الجغرافيّ للإسلام الذي بات مهدّداً بفعل عقد معاهدات جائرة يقوم بها الحاكم من أجل مصالح شخصيّة ومكاسب ذاتيّة.

والنقطة الثانية تتمثّل في إضعاف ثقة المسلمين بأنفسهم من خلال معرفتهم بأنّ (الخليفة) ضعيفٌ وذليلٌ، مع وجود دليلٍ على ذلك وهو أنّ الخليفة يدفع الجزية للآخرين صاغراً وذليلاً بعد أن كان الآخرون هم الذين يعيشون بأمانٍ واطمئنانٍ بين ظهرانيّ المسلمين مقابل دفعهم مبلغاً بسيطاً من المال مقابل ذلك العيش الهادئ، هذا

(١) د. نوري جعفر، الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام، مطبوعات النجاح ـ القاهرة، ١٩٧٨، ص٨٧.

بالإضافة إلى إسقاطِ واجب حَمْلِهِم للسلاح وقتالهم في صفوف المسلمين في حال نشوب حَربٍ بين المسلمين وأعدائهم.

لقد أدرك الإمام الحسين عليه السلام أنّ تعاليم معاوية سوف تسري كالنَّسغِ في أوعية الشجرة الأمويّة، وسيأتي حكّام من بعده يسيرون على نهجه في سياسة المبادئ اللاأخلاقيّة وسيفرّطون بحقوق الأمّة مثلما فَعلَ هو بحقوق الأمّة وبحقوق الرسالة.

وقد صدق حدسُ الإمام الحسين عليه السلام بشأن ذلك وحَدَثَ ما كان يتوقّعه تماماً، فقد سار لاحقاً عبد الملك بن مروان على منهاج معاوية وحذا حذوه عندما عقد معاهدةً جائرةً وغير متكافئةٍ مع الأمير البيزنطي (جوستنيان الثاني) في عام / ٧٠هـ/ فدفع الجزية صاغراً للبيزنطيين وتنازل لهم عن كلٍّ من أرمينيا وقبرص[١].

إذنْ، فظاهرة التغيُّر الجغرافي ـ السياسي (الجيوبوليتيك) كانت ظاهرةً جديدةً وخطيرةً تُنذر بتداعيات أخرى أشدّ خطورةً على الواقع الإسلاميّ وقتذاك، فالإسلام، كرسالةٍ وكنهجٍ عامٍ في الحياة، لا يخوّل الخليفة أو الحاكم التصرّف في حقوق الأمّة كيفما يشاء، ولا يعطيه الحقّ في التفريط بأيّ شبرٍ من البلاد الإسلاميّة أو بأيّ شيءٍ آخر من أجل الحفاظ على كرسيّ الحكم أو من أجل تحقيق أي مكسبٍ شخصيٍّ آخر.

فعندما يفرّط الخليفة بكرامة الأمّة أو بمستحقّاتها، فإنّ أوّل ما يعنيه هذا التصرُّفُ هو أنّ ذاك الخليفة ليس هو بالخليفة الحقيقيّ بل هو مجرّد حاكم قد استولى على كرسيّ الخلافة بغير حقٍّ وقد تطاول على منصب (الخلافة) دون أيّ وجه من وجوه الاستحقاقات الشرعيّة المتعارف عليها.

ومن الطبيعيّ تماماً ـ عندئذٍ ـ أن يقوم ذلك الحاكم الفاسد، الذي اغتصب الخلافة

(١) نفس المصدر السابق ص٨٨.

من أهلها وألَّبَ النّاس على الخليفة الحقيقيّ بقوّة السيف تارةً وببريق الدنانير تارةً أخرى، بممارسة كلّ أنواع الفساد والطغيان في الأمّة وسلاحُهُ في ذلك سيفٌ بيمينه ودينارٌ بيساره وجيش إعلامي ضخم من المحدّثين والرّواة الكَذَبة الذين يلعبون دور البوّاقين له، المهلّلين لمآثره الجوفاء والمصفّقين لجرائمه النكراء، والجاهدين دون كَلَلٍ أو مَللٍ لإقناع العامّة من النّاس أنّ ذلك الحاكم هو الخليفة الفعليّ الذي اختاره الله عزّ وجلّ ونصَّبه خليفةً عليهم، وبالتالي ليس لديهم الحقّ في الاعتراض على أفعاله وتصرّفاته لأنّها أفعالٌ وتصرّفات مُوحى بها إليه من الإله الذي شاء وأبى إلا أن يجعله خليفةً عليهم لا يُسأل عمّا يفعل بهم وهم يُسألون!!

وأمام هذه الحقيقة المرّة، كان لابدّ للإمام الحسين عليه السلام من أن يخرج ويذكّر ويحذّر، بل ـ وإنْ اقتضى الأمر ـ أن يضحّي بأثمن ما يملك من أجل إعادة الحقّ إلى نصابه واستئصال الباطل من مَنبته.

وقد أصاب الأستاذ الباحث (أحمد عباس صالح) عندما تحدّث عن هذه المسألة الهامّة والجوهريّة، مسألة الخروج وتقديم الفدية العظيمة التي تتناسب في عظمتها مع عظمة الهدف المطلوب، فأشارَ معبّراً عن ذلك بقوله:

(ولكنّ الحسين كان يعلم أنّه لابدّ من فديةٍ ضخمةٍ، فدية تتوهّج بالدّم، وكان هو الوحيد الذي يملك أن يتقدّم كفديةٍ تهزّ الضمير شبه الميّت في قلب الأمّة)[1].

ولو توقّفنا هنا قليلاً مع الأستاذ (صالح) لنسأله سؤالاً واحداً حول مقولته السابقة التي أوردناها للتوّ، وقلنا له:

لماذا اعتبرتَ أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو الفدية الضخمة، وأنّه هو عليه السلام الوحيد

---

(١) أحمد عباس صالح، اليمين واليسار في الإسلام، مصدر سابق ص١٦٢.

القادر على أن يتقدّم كفديةٍ تتوهّج دماً لتهزّ الضمير شبه الميّت في قلب الأمّة؟!

فلو سألناه هذا السؤال، فسيأتي جوابه واضحاً ومكثّفاً في عمق المعاني من خلال قوله: (إنّه رجلٌ يمثّل الثورة المثلى للإسلام)[1].

إذنْ، وبالاعتماد على ما سبق، نستطيع أن نقول إنّ الإمام الحسين عليه السلام هو ضمير الإسلام الحيّ وهو الصوت الإلهيّ الباقي في صدور تلك الثلّة من المؤمنين والمؤمنات الذين خرجوا معه لإعادة الإسلام الرساليّ إلى عالم الحياة والنّور بعد أن استبدّ به الطغاة والبغاة محاولين جاهدين سحبه إلى عالم الظلام والفناء حيث لا أذان يُرفَع ولا توحيد يُسمَع.

وليس هذا فحسب، بل لو أنّنا أجرينا مقارنةً بسيطةً وسريعةً بين ما قاله هذا الباحث المسلم السنّي (أحمد عباس صالح) وبين ما قاله أحد أبرز الأدباء والباحثين المسيحيين المعاصرين حول طلب الإمام الحسين عليه السلام للحقّ وارتباطه به لدرجة التماهي معه، فماذا يمكننا أن نجد؟!

بالطبعْ، لن أكون أنا من يجري المقارنة، فأنا أفضّل أن أبقى على الحياد، ولكنّ الشخص الذي سيقوم بإجراء المقارنة هو القارئ نفسه والذي من المفترض له أن يخرج بِغلالٍ وفيرةٍ من بيادر الحصاد.

لقد ذكرنا منذ قليلٍ ما قاله الأستاذ الباحث (أحمد عباس صالح) عن فدية الإسلام الدامية وعن الصورة المثلى لذلك الدّين السماويّ العظيم، ولذلك لا داعي لتكرار ما ذَكرنا من عبارات وشواهد، وبالتالي، فسنذكر الآن ما قاله ذلك الباحث المسيحيّ العبقريّ عن نفس النقطة التي عالجها الأستاذ (أحمد عباس صالح).

(١) نفس المصدر السابق ص١٦٣.

يقول ذلك الباحث المسيحيّ تحت عنوان (إنّه هنا الحسين):

(إنّ العقل وحده عند الحسين هو الذي اكتشف الحقيقة التي تتغلّف بها القضايا الكبيرة في الوجود ـ ولقد اكتشف أنّ الحقّ هو الذي يبني القضيّة وأنّ القضيّة التي هي الحقّ، لا يكون عمرها بالسّاعات، بل إنّها الأبقى من الدّهر... وجد نفسَه أمام حقيقة الإدراك بأنّه مُنتدب لتعهّد الحقّ، وسيقوم بحقيقة التعهّد ـ فإمّا يكون له الظهور، وإما يكون له بروز العنفوان الذي يبني الإنسان ـ لا للذلّ ـ بل للحياة.

أمّا الأمّة التي هي من بُنيةِ جدّه، فهي التي تبقى أبداً تنظر إليه ـ ولو بعد ألف حينٍ ـ بأنّه العنفوان الذي: إذْ ما تُفتِّشُ عنه الأمّةُ تجده في حقيقة ذاتها ـ وذلك هو جوهر الإنسان الذي بذل له جدُّه وأبوه عَرَقَ العمر!!)[1].

لن أعلّق على كلام هذا الباحث المسيحيّ ولو بكلمةٍ واحدةٍ، بل سأترك أمرَ التعليق والمقارنة ـ كما ذكرتُ منذ قليل ـ للقارئ الكريم عسى أن يخرج بما لم نحط به علماً.

وعلى كلّ حالٍ، مهما حاولنا أن نبحث ونخوض بعمقٍ وقوّةٍ في دراسة دواعي وأسباب النهضة الحسينيّة، فسنبقى عاجزين تماماً عن الإحاطة بها كُليّاً، فهي ثورة نهضويّة لا كالثورات الأخرى التي عرفها مسرح الحياة الإنسانيّة، فكربلاء ثورة أهل السّماء على طغاة أهل الأرض، بل هي في حقيقتها وجوهرها ثورة القرآن على أتباع الشيطان.

ولذلك، مهما كَتَبنا ومهما أَتَينا بالكثير من الآراء ووجهات النظر لكبار رجال الفكر والأدب والدّين، من مختلف الأديان والمذاهب، حول دوافع خروج الإمام

---

(١) سليمان كتاني، الإمام الحسين في حلّة البرفير، مصدر سابق ص٨٣.

الحسين عليه السلام إلى أرض كربلاء، فسنبقى ضمن دائرة العجز عن بلوغ المرام ولو طال بنا المقام، ولكنْ، وعلى الرغم من كلّ ذلك، نرى أنّه من الواجب علينا أن نستمرّ في إيراد المزيد من وجهات النظر والآراء الجديدة وذلك بهدف إعطاء صورة تقريبيّة واضحة المعالم والخطوط عن طبيعة تلك الثورة التي لم يخمد لهيبُها حتّى الآن.

وعلى سبيل المثال، يرى الأستاذ (محمد رضا) في كتابه (الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة) أنّ خروج الحسين إلى كربلاء هو عين الحقّ والحكمة، ويرى الأستاذ (رضا) أيضاً، وهو مسلم سنّيّ، أنّ الإمام الحسين عليه السلام: (إنّما قام مجاهداً لتغيير الأحكام التي كانت تجري على خلاف أوامر الله سبحانه وسنّة رسوله، فإنّ الحكّام كما قال (الحسين عليه السلام): لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وهو أحقّ من غيره بوضع الأمور في نصابها وإقامة العدل، وقد روي أنّ الفساد والمجون وإباحة المحرّمات ظهرت في المدينة، دار هجرة الرسول عليه الصّلاة والسّلام، وامتدّت إلى غيرها من البلدان، فإذا لم يكن الحسين هو الذي يغار على الدين، فمن ذا الذي يغار عليه؟!)[1].

وبالفعل، فقد صدق الأستاذ (رضا) في قوله متسائلاً:

إذا لم يكن الحسين عليه السلام هو الذي يغار على الدين، فمن ذا الذي يغار عليه؟!

ولعلّ هذا القول الاستفساريّ من قِبل الأستاذ (رضا)، وهو عارفٌ بالجواب الأكيد، يقابله قولٌ آخرٌ للأستاذ الأزهريّ (خالد محمد خالد) في كتابه (أبناء الرسول في كربلاء) حيث قال ملخّصاً أحدَ أهمّ الأسباب لإشراق شمس الثورة الحسينيّة في

---

(١) محمد رضا، الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، المكتبة العصرية ـ صيدا، ط١/ ٢٠٠٤، ص١٣٢.

ليل الأمّة:

(وإذا كانت الطبول تدقّ في دمشق معلنةً قيام خلافة كاذبةٍ لحفيد أبي سفيان، فلابدّ أن يجد الإسلامُ مَن يدفع عنه الكارثة...

ولابدّ أن يجدَ المسلمون مَن يَدْرَأُ عنهم الطوفان...)[1].

ولو أردنا أن نواصل رحلتنا في سبر أغوار الثورة الحسينيّة المباركة وأسبابها الكثيرة المباشرة، فسيطول بنا المقام بلا أدنى شكّ، ولكنَّ ذلك لا يمنعنا من الاستمرار في عمليّة استكشاف المزيد من الآراء والأفكار الصادرة عن أرباب الفكر والمعرفة، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة الإيجاز والاختصار خوفاً من أن يتسلّل الملل إلى نفوس قُرّائنا الأعزاء.

ولذلك، فسنحاول جاهدين إيجاز ما جاء في أحد الكتب الهامّة عن سيرة وثورة ريحانة النبيّ ﷺ، الإمام الحسين عليه السلام، وهو كتابٌ طُبع منذ عدّة عقود في مصر.

فالكتاب يحمل عنوان (الثائر الأوّل في الإسلام) لمؤلفه العالم الأزهريّ المعروف (محمد عبد الباقي سرور) صاحب العديد من الكتب والمؤلّفات الإسلاميّة، فقد ذكر الأستاذ (سرور) في كتابه المذكور وجهة نظره الخاصّة حول دواعي خروج الإمام الحسين عليه السلام لإسقاط حكومة يزيد الأمويّ اللاشرعيّة، بالإضافة إلى ذكره الأسباب الوجيهة التي دعت الإمام الحسين عليه السلام إلى عدم مبايعة يزيد مهما كان الثمن ومهما بلغت التضحيات، تلك التضحيات العظيمة التي سيقدّمها الإمام الحسين عليه السلام والتي ستكون بمثابة الضريبة الكبرى التي سيدفعها سيّد الشهداء مقابل كلمة (لا) للذلّ والعبوديّة والطغيان.

---

(١) خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق ص١٠٢.

وها هو الأستاذ الأزهري (سرور) يقول حرفيّاً:

(فلو بايع الحسينُ يزيدَ الفاسق المستهتر، والذي أباح الخمر والزنى، وحَطَّ بكرامة الخلافة إلى مجالسة الغانيات وعقد حلقات الشرب في مجلس الحكم، والذي ألبسَ الكلابَ والقرودَ جلاجل من ذهب، ومئات الألوف من المسلمين صرعى الجوع والحرمان، فلو بايع الحسينُ عليه السلام يزيد أنْ يكون خليفةً لرسول الله صلى الله عليه وآله على هذا الوضع لكانت فُتيا من الحسين بإباحة هذا للمسلمين، وكان سكوته هذا أيضاً على هذا رضى، والرضى عن ارتكاب المنكرات ولو بالسكوت إثم وجريمة في حكم الشريعة الإسلاميّة)[1].

ولم يكتفِ الأستاذ (سرور) بهذا القول الصائب، بل راح يحاول تفسير كلّ فكرةٍ بشكلٍ مستقلٍ، ولذلك فقد أضاف قائلاً: إنّ الحسين عليه السلام بوضعه الراهن في عهد يزيد هو الشخصيّة الأولى المسؤولة في الجزيرة العربية بل في البلاد الإسلاميّة كافّةً عن حماية التراث الإسلاميّ لمكانتهِ في المسلمين ولقرابته من رسول ربّ العالمين،ولكونه بعد موت كبار المسلمين أعظم المسلمين في ذلك الوقت علماً وزهداً وحَسَباً ومكانة.

فعلى هذا الوضع أحسّ بالمسؤولية تناديه وتطلبه لإيقاف المنكرات عند حدودها، ولاسيّما أنّ الذي يرتكب هذه المنكرات ويشجّع عليها هو الجالس في مقعد رسول الله صلى الله عليه وآله، هذا أوّلاً، وثانياً: أنّه عليه السلام جاءته المبايعات بالخلافة من جزيرة العرب وجاءه ثلاثون ألفاً من الخطابات من ثلاثين ألفاً من العراقيين من سكان البصرة والكوفة يطلبون فيها منه الشخوص لمشاركتهم في محاربة العربيد يزيد بن معاوية،

(١) محمد عبد الباقي سرور، الثائر الأول في الإسلام، طبع القاهرة. مصر، ص٧٩.

وألحَّوا في تكرار هذه الخطابات، حتّى قال رئيسهم عبد الله بن أبي الحصين الأزدي): يا حسين سَنَشكوك إلى الله تعالى يوم القيامة إذا لم تُلَبِّ طَلَبنا وتقوم لنجدة الإسلام، وكيف والحسين ذو حميّةٍ دينيّةٍ ونخوةٍ إسلاميّةٍ، والمفاسد تترى أمام عينيه، كيف لا يقوم بتلبية النّداء!!

وبالطبع، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام لا يستطيع أن يقاوم تلبية نداء إغاثة الرسالة وإنقاذ ما تبقّى من نور الله في صدور المؤمنين، فهو ابن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو وليّهم، ونحن نعلم أنّ المؤمن أخو المؤمن لأمّه وأبيه، فأبوه النّور وأمّه الرحمة، وبالتالي، كيف لا يستجيب الإمام الحسين عليه السلام لنداء الرسالة، وكيف لا يكون غيوراً على إخوانه المؤمنين؟!

وعلى الرغم من أنّنا قاربنا الانتهاء من دراسة هذا الفصل الهامّ من كتابنا، وهو الفصل المتعلّق بأسباب ودواعي النهضة الحسينيّة المظفّرة، إلا أنّنا لا نزال نملك في جعبتنا الكثير والكثير من الآراء والتقييمات المتفاوتة في القيمة حول أسباب الخروج وإطلاق شرارة الثورة في وجه يزيد الذي لم يدّخر جهداً في تكبيل الشّمس بآلاف القيود والزّج بها في زنزانة قصره الذي هيّأه له أبوه ولِتبقى الرعيّة حيّةً في ظلامٍ حالكٍ لا يعرف ليلُه للنّور وللصباح طريقا.

وقد بقي علينا أنْ نذكر هنا أنّ هناك بعض الدارسين لأسباب الثورة لم يسيروا في دراستهم على نفس الخطّ أو النهج الذي سار عليه عموم الأدباء والمفكّرين، بل كان لهم نهج خاص في دراسة وتحليل أسباب النهوض والخروج إلى ساحات كربلاء لمواجهة حكومة وجيوش الظلام الذي يمثّل الامتداد الطبيعيّ لنهج معاوية.

فهناك من الأدباء والمفكّرين مَن رأى أنّ خير وسيلةٍ لفهم الدوافع الحقيقيّة لثورة

الإمام الحسين عليه السلام هي دراسة وتحليل الرسائل العديدة المتبادلة بينه وبين يزيد أو معاوية، فمن خلال الرسائل وتحليل ما ورد فيها يستطيع الدارس أن يحلّل شخصيَّةَ كاتبها من جهةٍ، ويستطيع أن يدرس بعمق الدوافع الأساسيّة التي دعته لكتابتها أو لاتخاذ أيّ موقف إجرائيّ مبنيّ على ما ورد فيها من جهةٍ أخرى.

ومن هؤلاء المفكّرين الذين نَهجوا هذا النهج في دراسة الأسباب المباشرة للثورة الحسينيّة الكاتب المصري (توفيق أبو علم) صاحب المؤلّفات العديدة من أعلام أهل البيت عليهم السلام، فالأستاذ (أبو علم) يرى أنّه من خلال دراسة وتحليل الرسائل المتبادلة بين الإمام الحسين عليه السلام من جهة وأعدائه من جهةٍ أخرى، يمكننا الوصول إلى معرفة الكثير من الوقائع والحقائق، ليس على مستوى معرفة دوافع الثورة فحسب، بل أيضاً على مستوى معرفة كوامن النّفوس وغاياتِ أصحابها سواءً كانت تلك الكوامن والغايات المنعكسة في الرسائل سلبيّة أم إيجابيّة.

وبالفعل، فقد ذكر الأستاذ (أبو علم) رسالتين هامّتين متبادلتين بين الإمام الحسين عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان تعكسان الكثير من الحقائق وتبيّنان المزيد من العوامل النفسيّة والدوافع الذاتيّة التي كان يتّصفُ بها كلّ طرف من الطرفين المتعارضين.

ولو لم يذكر الأستاذ (أبو علم) إلا رسالة الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية لَكَانَ ذلك كافياً من أجل إعطاء الصورة المتكاملة عن الأهداف والمساعي التي يسعى لتحقيقها كلّ منهما، هذا بالإضافة إلى إعطاء الإطار العامّ والخطوط العريضة لِما تتّصف به كلّ شخصيّةٍ منهما بشكلٍ متناقضٍ كليّاً مع الشخصيّة الأخرى، علماً أنّ هذه الرسالة تمثّل تأكيد رفض الإمام الحسين ليزيد ولمعاوية الذي عزم على استخلافه.

وها نحن نذكر تلك الرسالة التي ردّ بها الإمام الحسين عليه السلام على مزاعم معاوية، وهي الرسالة التي أوردها الأستاذ (أبو علم) في كتابه (الحسين بن علي) بسبب أهميّتها وأهميّة الحقائق الواردة فيها من جهة، وبسبب إمكانيّة استخلاص الكثير من الصفات التي تتعلّق بالمرسِل وبالمرسَل إليه من جهةٍ ثانيةٍ.

يقول الأستاذ (أبو علم): فلما وصل الكتاب (أي رسالة معاوية) إلى الإمام الحسين (رضي الله عنه)، كَتَبَ إليه الحسينُ:

«أمّا بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنّه انتهت إليك عنّي أمورٌ أنت لي عنها راغبٌ وأنا بغيرها عندك جديرٌ، فإنّ الحسنات لا يهدى لها ولا يسدّد إليها إلا الله تعالى، وأمّا ما ذكرتَ أنّه رقيَ إليك عنّي، فإنّه إنّما رقاه إليك الملاقون المشّاؤون بالنميم، المفرّقون بين الجمع، وكَذِبَ الغاوون، ما أردتُ لك حرباً ولا عليك خلافاً، وإنّي لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن الإعذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين الملحدين حزبِ الظّلمة وأولياء الشياطين.

ألستَ القاتل حجر بن عدي أخا كندة وأصحابه المصلّين العابدين الذين كانوا ينكرون الظّلم ويستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون في الله لومة لائم، ثمّ قتلتَهم ظلماً وعدواناً من بعدما أعطيتهم الأيمان المغلّظة والمواثيق المؤكّدة لا تأخذهم بِحَدثٍ كان بينك وبينهم جرأةٌ على الله واستخفافاً بعهده؟

أَوَلستَ قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله العبد الصالح الذي أَبْلَتهُ العبادة فنحل جسمه واصفرّ لونه فقتلتَهُ بعدما أَمّنته وأعطيتَه من العهود ما لو فهمته العِصم لنزلتْ من رؤوس الجبال؟ أَوَلستَ المدّعي زياد بن سميّة المولود على فراش

عبيد من ثقيف فزعمتَ أنّه ابن أبيك، وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، فتركتَ سنّةَ رسول الله ﷺ تعمّداً وتبعتَ هواك بغير هدى من الله، ثمّ سلَّطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم ويصلبهم على جذوع النّخل كأنَّكَ لستَ من هذه الأمّة وليسوا منك؟ أَولستَ صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سميّة أنّهم على دين عليّ، فكتبتَ إليه أنْ اقتل كلّ مَن كان على دين عليّ، فَقَتَلهمْ ومثَّل بهم بأمرك، ودين عليّ هو دين ابن عمّه ﷺ الذي كان يضرب عليه أباك ويضربك، وبه جلستَ مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك بِخَتْمِ الرحلتين رحلة الشتاء والصيف، وقُلتَ فيما قلتَ (أي في إحدى رسائل معاوية للحسين عليه السلام): (انظر لنفسك ولدينك ولأمّة محمد، واتّقِ شقّ عصا هذه الأمّة، وإن تردّهم إلى فتنة)، وإنّي لا أعلم فتنةً أعظم على هذه الأمّة من ولايتك عليها ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمّة محمد ﷺ أفضل من أن أجاهدكَ، فإنْ فعلتُ فإنّه قربة إلى الله وإنْ تركتُه فإنّي أستغفر الله لديني وأسأله توفيقَه لإرشاد أمري، وقلتَ فيما قلتَ: (إنْ أنكرتك تنكرني وإنْ أكِدْكَ فكدني ما بدا لكَ)، فإنّي أرجو ألا يضرّني كيدُكَ وألا يكون على أحدٍ أضرَّ منه على نفسك لأنّك قد ركبتَ جهلك وتحرَّصتَ على نقض عهدك ولَعَمري ما وفيتَ بشرط، ولقد نقضتَ عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتَهم بعد الصلح والإيمان والعهود والمواثيق، فَقَتلتَهم من غير أن يكونوا قاتلوا وقَتَلوا، ولم تفعل ذلك بهم إلا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقَّنا فقتلتَهم مخافة أمرٍ، لعلّك لو لم تقتلهم مُتَّ قبل أن يفعلوا أو ماتوا قبل أن يدركوا، فابشرْ يا معاوية بالقصاص واستيقنْ بالحساب، واعلمْ أنّ لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وليس الله بِنَاسٍ لأخذكَ بالظنّة وقتلك أولياءه على التّهم ونَفيكَ

أولياءه من دُورِهم إلى دار الغربة، وأَخْذِكَ للنّاس ببيعة ابنك غلام حَدَث يشرب الشراب ويلعب بالكلاب، ما أراكَ إلا قد خسرت نفسك، وبَتَرْتَ دينك وغششتَ رعيَّتك، وأخربتَ أمانتك، وسمعتَ مقالة السَّفيه الجاهل وأخَفْتَ الورِعَ التّقيّ، والسّلام)[1].

وغنيٌّ عن القول والتفصيل في الشرح أنّ هذه الرسالة البليغة والمفصَّلة من الإمام الحسين عليه السلام وردت في الكثير من المصادر والمراجع الإسلاميّة المتقدّمة والمعتبرة عند الفريقين، بل وقد وردت أيضاً في العديد من المراجع اللاحقة عند المسلمين والمسيحيين على حدٍّ سواء أيضاً.

وأنا شخصيّاً أؤيّد فكرة أنّ الرسائل والمكاتبات هي إحدى الطرق والوسائل الهامّة في إعطاء ورسم صورة واضحة المعالم عن طبيعة الشخص المرسِل من جهة وطبيعة الشخص المرسَل إليه من جهةٍ ثانية، فالرسالة سفير المرسل، وهي لسانه الناطق لِما ينطوي عليه الفكر والقلب، وهي بنفس الوقت دليلُ المرسل وعينُه وعونُه في معرفة الكثير عن مكنونات الطرف الآخر لها.

وبالطبع، لا نريد أن ندخل في ميدان التحليل النفسيّ ولا أن نخوض في مجال البحث عن الارتباط الوثيق بين الإنسان وأقواله وأفعاله وآثاره، سواءً كانت تلك الآثار منطوقة أم مكتوبة أم حتّى مرسومةً، فكُلّ ما نقوله أو نكتبه أو نقوم بعمله له آثار ودلالات واضحةٌ تدلّ على بُنيتنا الفكريّة ودوافعنا النفسيّة، وبالتالي له مؤشّرات واضحةٌ تدلّ على طبيعة شخصيّتنا وعلى الحاجات والمبادئ والدوافع التي تحرّكنا

(١) توفيق أبو علم، الحسين بن علي (سلسلة أهل البيت)، دار المعارف بمصر، ط٢/١٩٨٢، ص٩١.

ضمن خطٍّ مسيرة الحياة.

وعلى كلّ حال، ومن باب لَفْتِ النّظر فقط، نقول إنّ الباحث المسيحيّ الأستاذ (أنطون بارا) قد أورد الرسالة السابقة أيضاً، والتي قد ذكرناها منذ قليل، وقد علّق على تلك الرسالة الحسينيّة في كتابه (الحسين في الفكر المسيحيّ) تعليقاً يليق بمحتوى الرسالة وبالحقائق التي تتضمّنها.

ولكنّه، بنفس الوقت، اختصر الكلام عن إيضاح الفرق بين الشخصيَّتين أو الطبيعتين الحسينيّة واليزيديّة ـ تلك الشخصيّة التي ورثت الكثير من صفات معاوية المعادية للإسلام ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أورد الأستاذ (بارا) بيتين من الشعر القويّ المعبّر، أكّد من خلالهما على أنّ خروج الإمام الحسين عليه السلام على يزيد، ومن قبله على معاوية، لم يكن إلا من أجل إعادة النّبض إلى جسد الإسلام بعد أنْ نفث فيه يزيد كلَّ سمومه بناءً على أوامر ومخطّطات والده معاوية، فيزيد الذي تظاهر بالإسلام، كأبيه من قبل، لم يتجاوز إسلامه حدودَ شَفَتيه ولسانه، ولو كان الأمر عكس ذلك لمَا حمل يزيد سيف البغي للفتك بأهل الرسالة وأنوارها!!

وها هو الأستاذ (بارا) يحدّثنا عن يزيد الفاتِك برسالة التوحيد:

لَئِنْ جَرَتْ لفظةُ التوحيد في فمه ... فَسَيفهُ بسوى التوحيد ما فَتِكا
قد أصبح الدين منه يشتكي سَقماً ... وما إلى أحدٍ غير الحسين شَكَا[1]

إذنْ، بدأت رسالة السّماء تلفظ أنفاسها الأخيرة على يَدِ يزيد الذي أظهر الإسلامَ بلسانه وناصَبه العداء والحقد بقلبه وبجوارحه حتّى لكأنَّ هناك عداوةً قديمةً بينهما

(١) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحي، مصدر سابق ص٢٢٣.

تمتدّ إلى عقودٍ مضت من السّنين.

ولكنّ السؤال الذي يفرض نفسه علينا الآن هو السؤال التالي:

لماذا يُحمِّل معظمُ المسلمين يزيدَ مسؤوليّة كلّ ما حدث على الساحة الإسلاميّة من مصائب ونكبات؟

وهل يزيد إلا مجرّد تلميذٍ تعمّدَ حفظ الدّروس التي تلقّاها عن آبائه وعن أساتذته الذين سبقوه زمنيّاً في اعتلاء كرسيّ الخلافة واغتصابها مجتهدين في قطع شرايين الإسلام بهدفِ فصله عن معانيه السّماوية وعن جوهر تعاليمه الإلهيّة؟! فلماذا نلوم التلميذ ولا نلوم الأستاذ ومَنْ وضعَ المناهج والخطط؟!

سنترك أمر الإجابة على هذه الأسئلة لمن يريد أن يجعل من عقله سراجاً عند الإجابة عليها وعلى غيرها من الأسئلة الهامّة التي تحاول أن تشقَّ طريقها إلى النّور.

ومهما يكن من أمرٍ، ومهما تعدّدت الأسباب في نهوض الإمام الحسين عليه السلام وإعلان رفضه الكامل للباطل بكلّ صِيَغه وأشكاله، فقد صَدقَ الكاتب والباحث المغربيّ المعاصر (أحمد بوعود) عندما قال في حديثه عن دواعي التغيير في ثورة الحسين عليه السلام الخالدة: (لا بدّ من التغيير، ولن يغيّر إلا مَن كان في مستوى المهمّةِ، ورعاً وعلماً وتشبُّثاً بالسنّة، وقُرباً من النبوّة، فاختار القدرُ الإلهيّ الإمامَ الحسين بن علي عليه السلام ليغيّر)[1].

والحقيقة، فإنّني لا أعلم لماذا تذكّرني هذه المقولة التي أوردتُها الآن للأستاذ الباحث (أحمد بوعود) بمقولةٍ أخرى مميّزة للشاعر والأديب العالميّ (أدونيس) الذي

---

(١) أحمد بوعود، دواعي التغيير في قومة الحسين، مجلة النور، العدد ١٠٧ نيسان ٢٠٠، إصدار دار النّور للنشر. لندن، ص٧٩.

سنقدّم تعريفاً موجزاً عنه في المكان المناسب في هذا الكتاب، ويقول (أدونيس) فيها: (وبديهيٌّ أنّ سياسة النبوّة كانت تأسيساً لحياةٍ جديدةٍ ونظامٍ جديد، وأنّ سياسة الإمامة، أو الولاية، اهتداء سياسة النبوّة، أو هي إيّاها، استلهاماً لا مطابقةً، ذلك أنّ لكلّ إمامة أو ولاية عصراً خاصّاً، وأنّ لكلّ عصرٍ مشكلاته الخاصّة، هكذا تكمن أهميّة سياسة الإمامة، بل مشروعيّتها في مدى طاقتها على الاجتهاد لاستيعاب تغيّر الأحوال، وتجدّد الوقائع بِهَدي سياسة النبوّة)[1].

وربّما أنّ القاسم المشترك بين هاتين المقولتين هو أنّ الإمام الحسين عليه السلام الذي ورث مشروعيّة النهوض والإصلاح عن جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وأبيه المرتضى عليه السلام كان هو، بالفعل، الإمام الذي اختارته إرادة السّماء ـ بالاعتماد على ما يمتلك من خصائص ومقوّمات ـ ليكون المثال الواقعيّ والرمز الحيّ المعبّر عن الأهميّة الحقيقيّة لمعنى الإمامة والولاية في الإسلام، تلك الإمامة السّائرة على خطّ النبوّة وهديها، والقادرة على الاجتهاد والتجديد وفقاً لكلّ عصرٍ وما يعاني من مستجدّات ومشكلات خاصّة سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات.

وفي نهاية مطافنا هذا في ربوع دوافع الثورة الحسينيّة ومُقوّماتها، نرى أنّه قد آن الأوان لنختم كلامنا وننهي حديثنا في هذا الموضوع، خاصةً ونحن ندرك تمام الإدراك أنّ الكلام في هذا المجال يطول ويطول مع كلّ ما فيه من عنفوان الرجولة وكرامة القِيَم ونُبل المبادئ وأحزان السّماء على ما أصاب صَفوة الخلق بين أهل

---

(١) راجع هذا القول لأدونيس في:

أ ـ د. صادق جلال العظم، الاستشراق والاستشراق معكوساً، دار الحداثة ـ بيروت، ١٩٨١، ص٤٢.

ب ـ مجلّة (مواقف) العدد رقم ٣٤، شتاء عام ١٩٧٩، راجع المقولة في الصفحة ١٥٨.

الأرض.

وليس لنا أن نقول الآن أيَّ شيءٍ، أو أن نضيف أيَّ شيءٍ على ما أسلفنا ذكره غير قولنا الحاليّ الذي نؤكّد من خلاله على صدق وصواب قول القائل العارف عن حقيقة الإمام الحسين عليه السلام: (إنّ نور الإله ومرآة تجلّي الحقّ ونور الهدى نور الحسين لا سواه، وسرُّ الولاء ولؤلؤ الحقّ المتوهّج ومَظْهرَ الواهب المعطي إنّما هو الحسين، ولقد كان سرّ الهويّة الذي تجلّى هو الضوء الساطع لنور الحسين)[1].

نعم، هذا هو الحسين عليه السلام، بل هذا قبسٌ ضئيلٌ من وهج ضيائه العظيم.

إنّه الإمام الحسين عليه السلام الذي أحرق فراشة الرّوح في حرم العشق الإلهيّ حُبّاً وشوقاً للوصول إلى سراج الذات الذي لا يعرف الظلام أبداً.

(١) آية الله السيد محمد الحسيني الطهراني، لَمعات الحسين عليه السلام، طبع دمشق ٢٠٠٢م، ص٥٣.

نُبوءة أهل البيت عليهم السلام بفاجعة كربلاء

لا ريب في أنّ عنوان هذا الفصل الجديد يبدو غريباً ومثيراً بآنٍ واحد، ولاريب أيضاً في أنّ الخوض في هذا الموضوع يحتاج إلى الكثير من الأقوال والشواهد التي تدعم الحديث عن حقيقة التنبّؤ بفاجعة كربلاء الدّامية التي اهتزّ لها عرش الرحمن استنكاراً لوحشيّة الإنسان.

ولكن قبل الدخول في جوهر بحثنا هذا، هناك بعض النقاط المتفرّقة علينا أن نستعرضها سويّةً بهدوء كي تكون مدخلاً مناسباً لنا للدخول إلى عالم النُّبوءات وإلى الحديث عن غوامض المستقبل وأسراره الضبابيّة الغامضة.

كلُّنا يعلم أنّ العلم في الآونة الأخيرة، وبالتحديد منذ منتصف القرن العشرين تقريباً، أصبح عرضةً للتجاذب بين مسألتين هامّتين هما (المادّة) و(الروح) أو ما يسمّيه البعض بـ (الفكر) بدلاً من كلمة الروح التي لا تروق لهم بسبب غموض معانيها.

وعلى الرغم من أنّ الغلبة كانت راجحةً لصالح المادّة، أو على الأقلّ لمن كان ينادي بأسبقيّة وأهميّة المادّة على حساب الطرف الآخر، إلا أنّ العلم مؤخّراً بدأ وبشكلٍ جدّيٍّ بدراسة الكثير من الظواهر الروحية وبتحليل الكثير أيضاً من القدرات الخفيّة الخارقة عند الإنسان، تلك القدرات الهائلة التي لا يمكن للمادة أن تكون هي السبب الأساسيّ والجوهري في وجودها وإطلاقها.

وسأذكر الآن عدّة أقوال هامّة لبعض العلماء تتعلّق بقوى الروح وبتفوّقها على

المادّة من حيث القدرات ومن حيث تجاوز الزمان والمكان والقفز فوقهما وإمكانيّة قراءة سطور المستقبل وتفكيك رموزه وإشاراته.

يرى الباحث والعالم (آرثر كوجبتون)، الحائز على جائزة نوبل في العلوم الذريّة والرئيس السابق للمجمع العلمي الأميركي، أنّ الروح تبقى حيّةً بعد فناء الجسد المادّي للإنسان، ويقول العالم (كوجبتون) بالحرف الواحد: (فَلَو أنّي أوقدتُ شمعةً ثمّ أطفأتها على الفور بنفخةٍ من فمي فإنّي لا أكون قد أبَدْتُ ضوءَها، إنّك لن ترى هذا الضوء بعينك الفيزيقيّة، ولكنّ لهب هذه الشمعة الضئيل يظلّ مجُنَّحاً في الفضاء لمدى سنين ضوئيّة لا نهاية لها، فإذا كنتُ لا أستطيع أن أَبيدَ ضوء شمعة أوقدتُها أنا بنفسي ثمّ أطفأتُها، فكم يكون سخيفاً أن نظنّ أنّ شخصيّة الإنسان تنعدم وتبيد بسبب ذلك الموت الفيزيقي)[1].

وبعد هذا الكلام الجميل عن علاقة الشخصيّة الإنسانيّة بالمادة والروح، ينتقل العالم (كوجبتون) للكلام عن قوّة الرّوح وما تحمله من أفكار وقِيَم تنتقل معها وتنقّيها من العلائق والشوائب حتّى تغدو جوهراً نقيّاً صافياً لا يخضع للقوانين الفيزيائيّة الأرضيّة ولا تتأثّر بما يتأثّر به الجسد المادّي من الارتباط والوقوع تحت تأثير عامليّ الزمان والمكان.

وبالطبع، فإنّ هذا الكلام أوّل ما يعنيه هو أنّ الروح يمكن أن يتكشّف لها الكثير من الحقائق والمعارف بقدر ابتعادها عن عالم المادّة وقيودها.

ولا يختلف هذا الكلام من العالمِ (آرثر كوجبتون) عن زميله العالمِ البيولوجيّ

(١) عبد الحميد الجوهري، الشفاء بالتنويم المغناطيسي والطاقة الروحيّة، نشر: إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٨، ص١٣٩.

(ألفريد راسل والاس) صاحب نظرية خاصّة بالتطوّر، وهي نظرية مكمّلة لنظريّة التطوّر التي أعلنها العالِم (لامارك)، وقد حاول (والاس) التوفيق بين نظرية التطوّر وبين كشوفاته الروحيّة، مؤكّداً على حقيقة أنّ من يتأمّل في وجود جسد أثيري للإنسان يتبيّن له ناموس التطور والارتقاء، خاصّةً وأنّ هذا الجسد الأثيري الراقي يحمل عقلَ الإنسان ذاته.

وبما أنّ الجسد الأثيري أرقى من الجسد العاديّ الرهين في سجن المادّة، فهو الجسد الأقدر على التحرّر من سلطة الزمن عليه، وبالتالي تكون له القدرة على التنقّل في بعض الظروف بين الأعماق المختلفة للزمان.

وممّا يؤكّد هذه الرؤية حديثاً هو علم الباراسيكيولوجي الذي بدأ يحظى باهتمام عظيم في معاهد وجامعات الغرب.

فهناك نظرية جديدة هامّة تسمّى نظرية (الجلاء البصري) أو (الاستشفاف)، وبالطبع، لا يسعنا الآن أن نشرح الأسس التي تقوم عليها هذه النظريّة الهامّة، ولكن يمكننا أن نقول إنّ هناك نوعين من الجلاء البصري: الجلاء البصري البسيط أو القريب، والجلاء البصري البعيد.

وما يهمّنا هنا الآن هو الجلاء البعيد، وهذا النّوع من الجلاء البصري هو حالة يمكن للشخص الموهوب أن يرى من خلالها الأشياء البعيدة عن متناول النظر العادي، ويتمّ ذلك عن طريق استخدام ذلك الشخص لمِا يسمّى بالتلسكوب الأثيري، وهو بالطبع تلسكوب افتراضيّ، وتختلف قوّته من شخصٍ لآخر، وتقوم الفكرة الأساسيّة على أنّ الإنسان يكوّن تياراً فكريّاً أثيريّاً وذلك باستخدام قوّته الحيوية، وهذا التيار يسهّل مرور الذّبذبات الأثيريّة مهما كانت ضوئيّة أو صوتيّة أو حتّى فكريّة،

وبعبارةٍ أكثر وضوحاً، فإنّ الشخص الوسيط من خلال تكوينه هذا التيّار، فإنّه يرفع من ذبذبته حتّى توافق ذبذبة الشيء المطلوب الاتصال به.

ولكن تبدو هذه العمليّة أكثر تعقيداً من العمليّة الأخرى التي تُعرف باسم (الطرح الروحي)، وهي قدرة الشخص الوسيط على طرح جسمه الأثيري إلى المكان المطلوب رؤيته، فيراه كما هو ثمّ يعود بالأخبار المطلوبة مخترقاً كلّ الحواجز.

والجلاء البصري موهبةٌ معروفةٌ منذ القدم، وهي موهبةٌ فطريّةٌ يمكن لها أن تنمو وتتعاظم بالتعبّد والطاعة وصقل النّفس، وأحياناً باعتزال النّاس أيضاً.

ويرى العلم الحديث، بعد ظهور نظرية النسبيّة لصاحبها (ألبرت أينشتاين)، أنّه بالإمكان القول إنّ جميع الحوادث المستقبليّة موجودةٌ في مكانٍ ما في الكون، ولكن لم تصبح بعد في حيّز الواقع الحاضر، وكما أنّ هناك في الهندسة مسافات سالبة وأخرى موجبة، فكذلك الزمن، فنحن نقول الآن هناك (ماضٍ) و(مستقبل)، وهكذا توجد أيضاً حوادث (شفوية) لم تُترجَم بعد، وحوادث (فعليّة) أخذت نصيبها من الواقع الفعليّ على مسرح الوجود.

وهنا يأتي دور الأفراد الموهوبين في عمليّة الجلاء البصري البعيد، حيث يكونون قادرين على استجلاء الكثير من الحقائق والأحداث (النظريّة) التي ستأخذ طريقها إلى الواقع ولو طال بها الزمان في وصولها إلينا.

وعلينا أنْ لا نغفل عن أنّ تعبير الجلاء البصري هو تعبيرٌ عامٌّ، فهناك الجلاء السمعيّ والجلاء الشمّي وغير ذلك أيضاً، وخير مثالٍ على الجلاء الشمّي، هو ما ورد في قصّة سيّدنا يوسف عليه السلام في القرآن الكريم، حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا

فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾[1]، وهذا يعني أنّ والد يوسف عليه السلام وصل إلى حالة الجلاء الشمّي، فعرف ابنَه يوسف وعرف أنّه كان موجوداً على الرغم من أنّه ـ كما نعلم كلُّنا ـ كان كفيفَ البصر من البكاء عليه.

ومن هنا يمكننا الدّخول إلى جوهر بحثنا الحاليّ، مع إمكانيّة العودة إلى الكلام عن الظواهر والقدرات الروحيّة الخارقة والاستشهاد ببعض الحوادث منها، ودراستها على ضوء علم (الباراسيكيولوجي) الحديث.

وأول ما يمكن لنا أن نقوله الآن هو طرح السّؤال التالي على أنفسنا:

إذا كان الإنسان العاديّ، الموهوب روحيّاً، والبعيد عن عالم النبوّة والاصطفاء من الله، قادراً على قراءة العديد من الحوادث المستقبليّة واستجلائها عن بُعد، فكيف الحال، إذنْ، عند الرسل والأنبياء عليهم السلام الذين اختصّوا بعلم النبوّة وأسرارها، وهم الأقرب روحاً ونوراً إلى نور الله سبحانه وتعالى؟!

ولذلك، من الطبيعيّ جداً أن يتحدّث الأنبياء والرسل عليهم السلام عن علوم الغيب وأن يُشيروا بطريقة التصريح أو التلميح إلى العديد من الحوادث الغيبيّة الهامّة التي ستحدث لاحقاً على أرض الواقع والتي ستكون بمثابة الترجمة الحرفيّة الصادقة لِما أَشار إليه هذا الرسول أو ذاك النبيّ.

وانطلاقاً من هذه المقدّمات المتعلّقة بمضمون بحثنا، دعونا الآن نخطو الخطوات الأولى باتّجاه بوّابة علم غيب الأنبياء السابقين عليهم السلام كي نقرأ سويّةً ما جاء على ألسنتهم الناطقة وفي كتبهم الصادقة من أحاديث وأقوال وأدعية تتعلّق بمأساة كربلاء، وفجيعة محمد وعلي وفاطمة عليهم السلام بابنهم الحسين عليه السلام، سيّد الشهداء

(١) سورة يوسف: الآية ٩٤.

وأمثولة التضحية والفداء.

وأوّل ما سنبدأ به الآن، هو ذكر أهل البيت عليهم السلام عموماً في كتاب التوراة ومعرفة كبار أحبار اليهود في زمن الرسول صلى الله عليه وآله بذلك، وكتمانهم تلك المعرفة إمّا كرهاً بالرسالة الجديدة أو خوفاً من بطش اليهود وكيدهم لهم في حالِ إذاعة تلك الأسرار الخطيرة المتسرّبة من عمق كتبهم وتفاسيرهم العميقة لها.

فمن المعروف أنّ الإمام علياً عليه السلام قام بمعجزةٍ عظيمةٍ أدهشت الألباب يوم قام بفتح حصن خيبر المنيع، وقد قال عبد الله بن عمرو بن العاص في ذلك: ما عجبنا من فتح الله خيبر على يديّ عليّ، ولكن عجبنا من قلعه الباب ورَميه خلفه، أربعين ذراعاً، ولقد تكلّفَ حمله أربعون رجلاً فما أطاقوه.

وعندما سُئِل أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك، أجاب:

«والله ما قلعت باب خيبر ورميتُ به خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوّة جسديّةٍ ولا حركة غذائية، لكنّي أُيِّدتُ بقوةٍ ملكوتيّة ونفسٍ بنور ربّها مضيئة»[1]، وقال عليه السلام أيضاً في مناسبةٍ أخرى عن نفس الحادثة: «والله ما قلعتُ باب خيبر بقوّةٍ جسمانيّة ولكن بقوّةٍ إلهيّةٍ»[2]، أي بِمَدَدٍ إلهيٍّ مباشر.

والمهمّ في الأمر، هو ما رواه عبد الله بن أبي أوفى وغيرُه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه لمّا تمّ فتح حصن خيبر، قالوا له: إنّ بها حبراً قد مضى له من العمر مئة سنة وعنده علم التوراة، فأُحضِرَ بين يديه، وقال صلى الله عليه وآله له: « أصدقني بصورة ذكري في التوراة وإلاّ ضربتُ عنقك». قال: فانهملت عيناه بالدموع وقال له: إنْ صَدَقْتُكَ قتلني قومي وإن

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي، مؤسسة الأعلمي. بيروت، ١٩٨٠، ص٤١٥.

(٢) آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي، أجوبة المسائل العَلَوية، مؤسسة المجتبى، بيروت، ٢٠٠٣، ص٢٦٠.

كَذَبْتُكَ قَتَلْتني. قال ﷺ له: «قُلْ وأنت في أمان الله وأماني»، قال له الحبر: أريد الخلوة بك، قال ﷺ له: «أصدقني بصورة ذكري في التوراة وإلا ضربتُ عنقك»، قال: فانهملت عيناه بالدّموع وقال له: إنْ صَدَقْتُكَ قتلني قومني، وإن كَذَبْتُكَ قَتَلْتني، قال ﷺ له: «قُلْ وأنت في أمان الله وأماني». قال له الحبر: أريد الخلوة بك، قال ﷺ له: «أريد أن تقول جهراً»، قال: إنّ في سفرٍ من أسفار التوراة اسمك ونعتك وأتباعك، وأنّك تخرج من جبل فاران ويُنادى بك باسمك على كلّ منبر، فرأيت في علامتك بين كتفيك خاتماً تُختَمُ به النبوّة، أي لا نبيَّ بعدك، ومن ولدك أحد عشر سبطاً يخرجون من ابن عمِّك واسمه عليّ ويبلغ ملكك المشرق والمغرب وتفتح خيبر وتقلع بابها ثمّ يعبر الجيش على الكفّ والزند فإنْ كان فيك هذه الصفات آمنتُ بك وأسلمتُ على يديك.

قال رسول الله ﷺ: «أيّها الحبر، أمّا الشامة فهي لي، وأمّا العلامة فهي لناصري علي بن أبي طالب»، قال: فالتفتَ إليه الحبر وإلى عليّ عليه السلام وقال: أنت قاتل مرحب الأعظم؟!

قال علي عليه السلام: «بل الأحقر، بل جدلتهُ بقوّة الله وحوله، وأنا معبر الجيش على زندي وكفّي»، فعند ذلك قال: مدّ يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وأنّك معجزةٌ، وأنّه يخرج منك أحد عشر نقيباً، فاكتب لي عهداً لقومي فإنّهم كنقباء بني إسرائيل أبناء داود عليه السلام، فكتب له عهداً بذلك[1].

وبالطبع، فإنّ هذه المسألة لا تتوقّف عند حدود التوراة اليهوديّة، بل إنّها تتجاوزه إلى حدود الوصول إلى كتاب الإنجيل ذاته، أو ما يُعرف باسم العهد الجديد.

---

(١) نفس المصدر السابق ص٢٦٠.

وليس من الغريب أبداً أن نقرأ عن الكثير من الأدباء والمفكّرين والباحثين المسيحيين أنّهم كتبوا واستفاضوا في الكتابة عن مآثر الرسالة الإسلاميّة وعن فضائل وخصال الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وليس هذا فحسب، بل هناك العديد منهم أيضاً راح يقرأ الإنجيل برويّةٍ مرّةً تلو أخرى، وراح يغوص أيضاً في بحرٍ من المخطوطات والرسائل المسيحيّة الغنوصية العميقة بغية الوصول إلى حقائق معرفيّة جديدة تتجاوز كلّ حدود المعارف المسيحيّة الكلاسيكيّة التي تتبنّاها مختلف النّظم الكَنَسيّة اليوم.

وبالطبع، لا يمكننا أن نورد هنا كلّ أسماء أولئك المفكّرين والأدباء المسيحيين الذين تجاوزوا حدود المعرفة التقليديّة، فلا الوقت ولا عنوان كتابنا يسمحان لنا بذلك، بل ربّما سيكون هذا الموضوع هدفاً لنا في كتابة كتاب مستقلٍّ لاحقاً عن هذا الغرض الجديد والمثير.

ولكن يكفي أن نذكر هنا، الآن، عدّة آراء ومواقف للبعض من أولئك الرجال الذين اغتسلوا برحيق المعرفة وشربوا من كؤوس النُّور.

ولذلك، دعونا الآن نشارك المفكّر والباحث (أنطون بارا) في شرب الكأس الأول من كؤوس النّور في محراب البيت المعمور.

يقول الأستاذ (بارا) عن تبشير عيسى المسيح عليه السلام بمجيء أخيه محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من بعده: (ما من نبيٍّ إلا وتنبّأ مبشّراً بقدوم نبيّ بعده، وما من شهيدٍ إلا وتنبّأ أيضاً بالشهيد الذي سَيَليه، ولم يكن عيسى عليه السلام ليشذَّ عن هذه الحكمة الإلهيّة، لا تغافلاً عن تبشير النّاس بقدوم النبيّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا كُرهاً لهذا التبشير أو هذا القدوم، حاشا لله، وعيسى رسول المحبّة والسّلام، والمبشِّر بالحبّ حتّى للأعداء

والمبغضين، فكيف إذا كان الأمر يتعلّق بنبيٍّ بعده، خَتَمَ الله به الأنبياء، وبرسالته الديانات)[(١)]؟!

إذنْ، يرى الأستاذ (بارا) أنّ يسوع عيسى المسيح عليه السلام قد تنبّأ بمجيء الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لإكمال الرسالات برسالته ولختم الأنبياء بنبوّته.

ولكنّ الأمر لا يتوقّف عند الأستاذ (بارا) على هذا المستوى من المعرفة اليقينيّة، بل إنّه يتجاوزه إلى أعمق من ذلك بكثير، ولذلك فإنّ وقوفنا في واحة الأستاذ (بارا) الفكريّة سيطول قليلاً، وسنعود إلى تلك الواحة الغنيّة حيناً بعد حين كلّما دعتنا الحاجة إلى ذلك.

ومن الأفكار الجريئة والمسائل الحسّاسة التي تناولها الأستاذ (بارا) في معرض حديثه عن مكانة كربلاء وعن الفاجعة التي حدثت فوق رمالها الحزينة، نراه يؤكّد دائماً على أنّ لتلك الفاجعة الإنسانيّة الدامية مكانة عظيمة في قلوب كلّ الأنبياء عليهم السلام الذين سبقوا مجيء خاتم الرسل محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد كتب الأستاذ (بارا) تحت عنوان (المسيح... هل تنبّأ بالحسين...؟) قائلاً: (لقد لَعنَ المسيحُ قاتلي الحسين وأمرَ بني إسرائيل بلعنهم، وقال (أي المسيح): مَنْ أدرك أيامه فليقاتل معه، فإنّه كالشهيد مع الأنبياء مقبلاً غير مدبر، وكأنّي أنظر إلى بقعته، وما من نبيٍّ إلا وزارها، وقال إنّكِ لَبقعةٌ كثيرة الخير، فيك يُدفَن القمرُ الزاهر)[(٢)]، وبالطبع، فإنّنا سنتوقّف لاحقاً لشرح هذا الحديث في فصل (الحسينُ وارث الأنبياء).

(١) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق ص٣١.

(٢) نفس المصدر السابق ص٢٩٥.

وبالفعل، ففي هذا الإيراد ثلاث نقاط على درجةٍ عاليةٍ من الدلالة والأهميّة، وهذه النقاط الهامّة المتجليّة في معاني هذا الحديث العيسوي هي:

١ـ لَعْنُ السيد المسيح عليه السلام لكلّ من شارك في جريمة قتل الإمام الحسين عليه السلام، وأمْرُه لبني إسرائيل بلعنهم جميعاً.

٢ـ الحثّ على القتال معه والدّفاع عنه، مع بيان أنّ الاستشهاد والموت بين يديه عليه السلام هو كالاستشهاد بين أيدي الأنبياء تماماً.

٣ـ التأكيد بقوّة على زيارة كلّ الأنبياء عليهم السلام لأرض كربلاء، مسرح الفاجعة، والجزم التامّ على أنّه (ما من نَبيٍّ) إلا وقد زارها نتيجةً لمعرفته السابقة بما سيحدث عليها من فواجع وهموم وآلام وسفك مخيف لدماء أبناء خير الأنبياء والأوصياء.

وليس هذا فحسب، بل بإمكاننا أنْ نلاحظ عمق إيمان الأستاذ (بارا) بمسألة تنبّؤ كلّ الرسل والأنبياء بفاجعة كربلاء، بل وزيارتهم لها ومجيئهم إليها من مناطق مختلفةٍ من أرض الرسالات لإقامة مراسم العزاء عليها وللبكاء فوق رمالها الحارقة مواساةً للرسول الكريم صلى الله عليه وآله على ما سيحلّ بحفيده الحسين وأهل بيته عليهم السلام من بعده.

وقد ردَّ هذا المفكّر المسيحيّ على المشكّكين الذين رفضوا فكرة أنْ يكون السيد المسيح عليه السلام قد غادر أرض فلسطين إلى كربلاء أو إلى أيّة منطقةٍ أخرى، قائلاً:

(هؤلاء فَاتَهُمْ تلك الفترة الغامضة منذ يفاعة عيسى حتّى سنّه العشرين، إذْ لَمْ تذكر التواريخ، ولا حتّى الإنجيل المقدّس، أين أمضى عيسى طفولته وبعضاً من سِنيِّ شبابه المبكّر... إذْ هناك روايات تتحدّث عن سفره إلى (التِّبت) لِنَهلِ الحكمة والطبّ الروحيّ، وثمّة روايةٌ أخرى تحدَّثت عن تنقّله في كلّ بقاع الأرض لاختيار المواطن

المناسبة لبعث ديانته ونشرها بعد نزولها عليه في فلسطين)[١].

وهنا أريد أن أذكر شيئاً هامّاً جدّاً يتعلّق بالكتاب المقدّس، وتحديداً بكتاب العهد القديم ـ كتاب اليهود ـ ولذلك سنتوقّف قليلاً مع مراثي ونبوءات نبيّ الله (إرميا) عليه السلام التي هي الركن الأساسيّ الآن في الحديث عن التنبّؤ بأحداث الفاجعة.

والحقيقة، ما كنتُ أريد أن أناقش ما ورد في كتاب اليهود (العهد القديم) عن فاجعة كربلاء في هذا المكان من الكتاب، ولكن رأيتُ أن أذكر تلك المعلومات الهامّة الآن نظراً للمقارنة التي أحببت أن أجريها بين ما قاله الأستاذ (بارا)، ذلك المفكّر والباحث المسيحيّ، وبين ما قاله الأستاذ الباحث (تامر مير مصطفى) ذلك الباحث المتخصّص بدراسة الأديان المقارنة، وصاحب سلسلة (دراسات مقارنة في التوراة والإنجيل).

فعندما نفتح الكتاب المقدّس ونقرأ في العهد القديم، يصادفنا ما يُعرف بعنوان (مراثي إرميا)، فما هو الشيء الذي يستوقفنا في هذه المراثي؟! وماذا يمكننا أن نقرأ فيها؟!

أوّل ما يمكننا أن نقرأ فيها، وتحديداً في بداية الإصحاح السادس والأربعين، أنّ هناك صراعاً مريراً بين المصريين والبابليين، ولكن سرعان ما نقرأ أشياء غريبة وغامضة، بل ومُتناقضة مع ما يقول به التاريخ والمختصّون بالأبحاث التاريخيّة.

بل، وفوق هذا أيضاً، يمكن لبعض الباحثين والمتخصّصين بالدراسات الدينيّة المقارنة أن يروا فيها إشارات ودلالات على حدثٍ هامٍّ لم يحدث زمن (إرميا)، غير أنّه في طريقه إلى الحدوث في المستقبل اللاحق، ولكن مع الإقرار بعدم القدرة على

---

(١) نفس المصدر السابق ص٩١.

تحديد ذلك الزمن المستقبليّ الذي لم ترد عنه أيّة إشارة زمنيّة محدّدة في الإصحاح السادس والأربعين.

ولكن بفضل المقارنات الكثيرة التي أجراها أولئك الباحثون، وبفضل الرجوع إلى الكثير من المراجع التاريخيّة والكتب الدينيّة الخاصّة التي لم تتناولها أيدي التحريف والتزوير، فقد استطاعوا الوصول إلى العديد من الحقائق المدهشة المتعلّقة بأحداث مستقبليّة لاحقة للزمن الذي وُجِدَ فيه أنبياء بني إسرائيل.

وذلك، دعونا الآن نورد ما جاء حرفيّاً في كتاب العهد القديم، في الإصحاح السادس والأربعين من مراثي (إرميا)، وبعد ذلك سنأتي بما قاله التحليل الدينيّ المقارن عن ذلك الإصحاح وعن علاقته بفاجعة كربلاء على شطّ الفرات، وعن المُنتقِم لاحقاً من القَتَلة.

فقد جاء في (إرميا ٤٦) ما يلي: (أعدّوا المجنّ والترس وتقدّموا للحرب، أسرجوا الخيل واصعدوا أيّها الفرسان وانتصبوا بالخُوَذ، اصقلوا الرّماح، البَسوا الدروع، لماذا أراهم مرتعبين ومدبرين إلى الوراء وقد تحطّمت أبطالهم وفرّوا هاربين ولم يلتفتوا بالخوف حَوالَيهم يقول الربّ: الخفيف لا ينوصُ والبطل لا ينجو، في الشمال بجانب نهر الفرات عثروا وسقطوا، مَنْ هذا الصاعدُ كالنِّيل كأنهارٍ تتلاطم أمواهُها... اصعدي أيّتها الخيلُ وهيجي أيّتها المركبات ولتخرج الأبطال... فهذا اليومُ للسيد ربِّ الجنود يوم نقمةٍ للانتقام من مُبغضيه فيأكل السيفُ ويشبع ويرتوي من دمهم لأنّ للسيّد الربّ ذبيحةً في أرض الشمال عند نهر الفرات)[1].

(١) الكتاب المقدّس ـ العهد القديم ـ راجع مراثي (إرميا)، الإصحاح السادس والأربعين، إصدار دار الكتاب المقدّس في العالم العربي ـ بيروت، ١٩٨٢، ص١١٥٠.

هذا ما ورد في مراثي إرميا عليه السلام في كتاب العهد القديم، ولأخذ العلم فقط، فإنّ إرميا عليه السلام كان نبياً من كبار أنبياء بني إسرائيل الذي عاش نحو (٦٥٠ ـ ٥٨٥ق.م) وهو النبيّ المعروف باسم النبيّ البكّاء، لكثرة بكائه، وكان هذا النبيّ الحكيم واحداً من الأنبياء الذين تنبّؤوا بملحمة أهل البيت عليهم السلام في كربلاء، وبِقَتْلِ الإمام الحسين عليه السلام ذبحاً على رمالها قرب شَطِّ الفرات، كما أنّه تنبّأ أيضاً بقيامة الإمام المهدي المنتظر عليه السلام من أجل الانتقام له، وما الأحداث التي ورد ذكرها في (إرميا ٤٦) إلا الوصف الطبيعيّ للأحداث التي ستجري لاحقاً على يَدِ الإمام المهديّ عليه السلام انتقاماً إلهيّاً من الطغاة الذين قتلوا الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه، ومن أولئك الذين هم من ذريّاتهم الذين رضوا بمقتله ومقتل أهل بيته عليهم السلام ولم يستنكروا أبداً ما قام به آباؤهم وأجدادهم من ظلمٍ وقتلٍ لأهل بيت آخر الأنبياء عليهم السلام.

ولو دخلنا الآن، بشيءٍ من التفصيل، إلى ما أَفْضَت إليه الدراسات المقارنة بشأن ما أوردناه عن النبيّ (إرميا) عليه السلام، فماذا يمكننا أن نجد فيها؟

إنّه، وقبل كلّ شيءٍ، وصف مثيرٌ لحرب مهلكة يتنبّأ بوقوعها نبيّ الله إرميا عليه السلام حيث سيقوم الله سبحانه وتعالى بالانتقام فيها من أعدائه انتقاماً شديداً ومُخيفاً، ولو تساءَلنا عن السبب الذي سيقود السّماء إلى ذلك الانتقام الإلهيّ الرهيب، فماذا سيكون الجواب؟!

الجواب الواضح هو ما قاله نبيُّ الله إرميا عليه السلام: «لأنّ للسيّد ربّ الجنود (أي الله) ذبيحةً في أرض الشمال عند نهر الفرات».

وفي الحقيقة، لم يتّفق بعد علماءُ أهل الكتاب ومفسّرو العهد القديم حول معاني هذه المرثية والنبوءة، فمنهم من افترض أنّها نبوءة بغزو مصر من قبل جيوش (نبوخذ

نصر) ملك بابل، ولكن معظم علماء أهل الكتاب قالوا بأنّ النبوءة - نبوءة إرميا - قد قيلت بعد اجتياح نبوخذ نصر لمصر، وبذلك بطل الادّعاء الأوّل[1].

والبعض الآخر من علماء أهل الكتاب ومفسّروه رأوا أنّ هذه النبوءة التي جاءت على شكل مرثية، إنّما جاءت بخصوص خروج فرعون مصر لتحرير مدينة القدس، أو ما كانت تُعرف قديماً باسم (أورشليم) من أيدي المحاربين البابليّين، وبحسب هذا الافتراض، يكون الله قد انتقم من الجيوش البابليّة على أيدي الجيوش المصريّة.

ولكنّ الدراسات التاريخيّة والوثائق القديمة كلُّها تقول بعكس ذلك، فالنّصر الحاسم كان في تلك المعركة الضروس لصالح الجيوش البابليّة، في حين أنّ الخسائر الجمَّة والهزيمة والدّمار كان من نصيب الجيش المصريّ وفرعونه.

وتبعاً لذلك، فقد ثبت عدم صحّة تلك التأويلات المختلفة التي تتعلّق بتفسير نبوءة النبيّ إرميا عليه السلام عن الحرب والذبيحة الإلهيّة والانتقام السماويّ الرهيب.

غير أنّ الدراسات القائمة على ربط الوثائق بالوقائع، والتحليلات المقارنة بين الأديان ونبوءات رُسُلها وأنبيائها تدلّ على نقطتين هامّتين أشارت إليهما نبوءة نبيِّ الله إرميا عليه السلام، وهما:

النقطة الأولى: إنَّ هناك وليّاً عظيماً لله سبحانه وتعالى، ويحظى عنده بمكانٍ جليلٍ ومقامٍ رفيعٍ قد تمَّ قتله ذبحاً من قِبل أعداء الله على جانب شطِّ نهر الفرات في العراق.

النقطة الثانية: إنّ الله، المنتقم الجبّار، سينتقم انتقاماً رهيباً لذبيحته المقتولة ظلماً بواسطة وليٍّ ثانٍ من أوليائه، مؤيَّدٍ من قِبَلِه مباشرةً بحيث يهبُّ للانتقام من أعداء الله

(١) تامر مير مصطفى، بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار (سلسلة دراسات مقارنة في التوراة والإنجيل)، الكتاب رقم (١)، الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ط١/١٩٩٨، ص٢٣٩.

الظالمين والقاتلين للوليّ الأوّل بغير وجه حقّ، وستكون انطلاقةُ الوليّ الثاني المُنتقِم كانطلاقة نهرٍ هادر لايترك في طريقه شيئاً على الإطلاق طَلَباً للثأر من الكفّار الذين شاركوا وقتها في الجريمة أو رَضوا لاحقاً بها عند سماعهم بأخبارها ممّا يجعلهم قد شاركوا بالفعل في جريمة (ذبيحة الربّ عند نهر الفرات).

ومن المعروف تماماً، وكما تؤكّد الدراسات الدينية المقارنة، أنّه لم يُذكَر في الكتب المقدّسة عند كلٍّ من اليهود والنصارى، ولا حتّى في أيّ كتابٍ من كتب التاريخ التي رصدتْ تاريخ بلاد الرافدين أنَّ هناك نبيّاً من أنبياء الله أو وليّاً من أوليائه قد تمَّ قَتْلُه ذبحاً على شاطئ نهر الفرات في العراق غير سبط رسول الله المصطفى ﷺ وريحانته وسيّد شباب أهل الجنّة الإمام الحسين بن علي المرتضى عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام[1].

وهكذا نرى أنّه بالنظر إلى عظمة الإمام الحسين عليه السلام وسموّ مكانته الرفيعة عند الله سبحانه وتعالى وعند أهل سمائه جميعاً، ونظراً لعظمة فاجعة كربلاء التي لم تشهد ساحة البشريّة لها مثيلاً أبداً، فقد رثاه نبيُّ الله إرميا عليه السلام وبكى لمصابه وسمّاه قبل حوالي اثني عشر قرناً من استشهاده بـ (ذبيحة الربّ عند نهر الفرات).

وبالعودة إلى واحة الأستاذ (أنطون بارا) الفكريّة، نستطيع أن نقرأ وبوضوح وجهة نظره، كَمُفكّر وباحث، حول نبوءة نبيّ الله إرميا عليه السلام.

فالأستاذ (بارا) يرى أنّ الأحداث الواردة في الإصحاح السادس والأربعين من مراثي إرميا غريبة وضبابيّة إذْ ليس هناك من إطارٍ واحد يجمع تلك الأجزاء المبعثرة من تلك المعلومات الواردة في الإصحاح المذكور، ولذلك يرى أنّه من الممكن تماماً

(١) نفس المصدر السابق ص٢٤٠.

أن يكون نبيّ الله إرميا عليه السلام قد أشار بالفعل إلى فاجعة عالميّة تهزّ الضمير الإنسانيّ وسيكون مسرح أحداثها أرض كربلاء قرب نهر الفرات[١].

ولم يكتفِ ذلك الباحث المسيحيّ بذلك، بل راح يدرس الأعماق الروحيّة ويستلهم الدروس والعِبَر من تلك الفاجعة التي فاقت بفظاعتها أيّة فاجعةٍ أخرى حَلَّتْ بالساحة الإنسانيّة، فَوَجَد، بعد طول دراسةٍ وبحثٍ، أنّ كربلاء كانت عبارة عن حادثة مكتوبة في الكتب الإلهيّة السابقة.

وها هو يؤكّد هذا الكلام بقوله: (وثورة الحسين عليه السلام ليست وليدة ساعتها، بل هي في سفر الوصايا الإلهيّة، نُقِشت عليه قبل نزول الرسالة المحمديّة، وعِلْمُ ذلك عند ربِّ الأكوان وباعث الرسالات، إذ كان يعلم تعالى بما ستتعرّض له هذه الرسالة من اهتزازٍ بعد نزولها على محمد صلى الله عليه وآله، فهيّأ لها الحسين قبل أن يكون)[٢].

وحتّى يؤكّد الأستاذ (بارا) صدق أقواله ودقّة رؤيته للمسألة المطروحة راح يستشهد بالعديد من أقوال الإمام الحسين عليه السلام التي تؤيّد الفكرة القائلة بأنّ الحسين عليه السلام كان يعلم مسبقاً بخروجه وبمقتله في كربلاء على يد أظلم وأكفر النّاس أجمعين.

ومن جملة تلك الأقوال التي تمّ الاستشهاد بها، قول الإمام الحسين عليه السلام لعبد الله بن جعفر: «إنّي رأيت رسول الله في المنام وأمرني بأمرٍ أنا ماضٍ له».

وقوله أيضاً لمن كان معه في بطن العقبة: «ما أراني إلا مقتولاً، فإنّي رأيت في المنام كلاباً تنهشني، وأشدُّها عليَّ كلبٌ أبقع».

(١) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق ص٣١٦.
(٢) نفس المصدر السابق ص٩٦.

وقوله عليه السلام في مرّةٍ أخرى وهو في مكّة حينما عَقَد العزم على السّفر منها إلى العراق:

«كأنّي بأوصالي هذه تقطّعها عسلان (أي ذئاب) الفَلوات بين النواويس وكربلاء، فَيملأْنَ منّي أكراشاً جُوفاً وأجربةً سُغباً، لا محيصَ عن يومٍ خُطَّ بالقلم».

غير أنّ أكثر الأقوال تأثيراً في النّفوس وأقواها حجّةً في تأكيد معرفة الإمام الحسين عليه السلام بالمصير المرير الذي ينتظرهُ هو وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه الغرّ الميامين، هو ذلك القول المؤثّر الذي أورده الأستاذ (بارا) في الصفحة (٩٣) من كتابه (الحسين في الفكر المسيحيّ) حيث يقف الإمام الحسين عليه السلام مخاطباً السيّدة أمّ سلمة (رض) مخبراً إيّاها بنهايته المحتومة في حال عدم نجاح مساعيه السلميّة في عمليّة الإصلاح وإرجاع الحقّ إلى نصابه، وها هو يُعلِمُ أمّ سلمة (رض) بذلك قبل خروجه إلى كربلاء قائلاً:

«إنّي أعلم اليوم الذي أُقتل فيه والسّاعة التي أُقتلُ فيها، وأعلم من يُقتل من أهل بيتي وأصحابي، أتظنّين أنّك علمتِ ما لم أعلمه...؟ وهل من الموت بدّ؟ فإنْ لم أذهب اليوم ذهبتُ غداً».

وبرأيي الشخصيّ إنّ هذا الكلام المباشر من الإمام الحسين عليه السلام إلى أمّ سلمة (رض) له دلالات كثيرة وخطيرة.

فالدلالة الأولى هي معرفة الإمام الحسين عليه السلام المسبقة بعدم قبول الطرف الآخر لأيّ مسعى من مساعيه الدّاعية إلى الإصلاح في أمّة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والدلالة الثانية هي أيضاً معرفة الإمام المسبقة بأنّ الرفض من المعسكر الآخر لن يكون رفضاً سلميّاً لمطالبه الإصلاحيّة وحسب، بل إنّ الرفض المبدئيّ سيكون معزّزاً

بقوّةٍ عسكرية تسحق كلّ من يقف في طريقها بحيث لا يجرؤ أحد بعد الإمام الحسين عليه السلام على طلب الإصلاح أو ما شابه ذلك بين المسلمين، فمجرّد الإشارة إلى الخطأ هو خطأٌ لا يُغْتفَر.

والدلالة الثالثة هي ثبوت أنّ يزيد وجماعته سيكون همّهم الأكبر هو القضاء على الإمام الحسين عليه السلام ذاته إذْ أن مكانته من الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم لن تشفع له بشيءٍ عندهم، وبالتالي، فإنَّ الردع العسكريّ الأمويّ لن يتوقّف حتّى يظفروا برأس الحسين عليه السلام.

والدلالة الرابعة هي قدرة الإمام الحسين عليه السلام على الكشف والاستبصار الغيبيّ عن طريق مؤهلاته الذاتيّة من جهة، وعن طريق إخبار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم له من جهةٍ أخرى، وفي هذا مصداقٌ لقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله العزيز ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾[1].

أمّا الدلالة الخامسة والأخيرة، فتتجلّى في قوله لأمّ سلمة (رض): «أتظنين أنّكِ علمتِ ما لم أعلمه؟»، ففي هذا القول من الإمام الحسين عليه السلام دلالةٌ أكيدةٌ على أنّ أمّ سلمة (رض) كانت تعلم أيضاً بما سيحدث في كربلاء.

ومن هذه الدلالة الأخيرة، يبرز السّؤال التالي:

كيف عرفت أمّ سلمة (رض) بذلك، ومن هو الذي أخبرها بأحداث الفاجعة واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام؟!

ويأتي الجواب المطلوب ردّاً على هذا السّؤال من خلال العودة إلى كتب السنّة المتقدّمة زمنيّاً، بل والمعاصرة أيضاً، فهناك يكمن الجواب الشافي.

---

(١) سورة الجنّ: الآيتان ٢٦. ٢٧.

فقد جاء في كتاب (مقتل الحسين) لمؤلّفه الموفّق بن أحمد المكّي الحنفي مذهباً، والمعروف بلقب (أخطب خوارزم) والمعروف أيضاً، اختصاراً، بـ (الخوارزمي) أنَّ مَلاكاً من ملائكة الفراديس جاء إلى النبيّ وقال له: يا حبيب الله تقتتل على هذه الأرض فرقتان من أمّتك، إحداهما ظالمةٌ متعدّيةٌ فاسقةٌ تقتل فرخك الحسين ابن ابنتك بأرض كرب وبلاء، وهذه التربة عندك.

وناوله قبضةً من أرض كربلاء وقال له: تكون هذه التربة عندك حتّى ترى علامة ذلك، ثمّ حمل ذلك المَلَكُ من تربة الحسين في بعض أجنحته فلم يبقَ مَلَكٌ في سماء الدّنيا إلا شَمَّ تلك التربة وصار لها عنده أثر وخبر. وقال (راوي الحديث): ثمّ أخذ النبيّ تلك القبضة التي أتاها بها المَلَك فجعل يشمّها ويبكي ويقول في بكائه: «اللهم لا تُبارك في قاتل ولدي، واصْلِه نار جهنَّم»، ثمّ دفع تلك القبضة إلى أمّ سلمة وأخبرها بقتل الحسين بشاطئ الفرات، وقال ﷺ: «يا أمّ سلمة، خذي هذه التربة إليك فإنّها إذا تغيّرت وتحوّلت دماً عبيطاً فعند ذلك يُقتل ولدي الحسين».

فلمّا أتى على الحسين من ولادته سنةٌ كاملةٌ هبط على رسول الله اثنا عشر مَلَكاً... قَدْ نشروا أجنحتهم وهم يقولون: يا محمد سينزل بولدك الحسين ما نزل بهابيل من قابيل، وسيُعطى مثل أجر هابيل، ويحمل على قاتله مثل وزر قابيل، قال ولم يبق في السّماء مَلَكٌ إلا ونزل على النبيّ يُعزّيه بالحسين ويخبره بثواب ما يُعطى ويعرض عليه تربته، والنبيُّ يقول: «اللهمّ اخذل من خَذَله، واقتل من قَتَله ولا تمتّعهُ بما طَلَبه»[1].

إذنْ، هذا هو نصّ الحديث الذي نقله لنا (أخطب خوارزم) الحنفيّ مذهباً بطرق متعدّدة وبأسانيد مختلفة، وكلُّها تدلُّ على نفس الجوهر والمضمون.

---

(١) أخطب خوارزم الحنفي، مقتل الحسين، مصدر سابق ج١ ص١٦٣.

ولكنْ، رُبَّ قائلٍ يقول: نعم، نحن لا ننكر أنَّ ذلك الخوارزمي الحنفيّ قد أورد أكثر من عشرين حديثاً في كتابه (مقتل الحسين) عن إخبار الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بمصرع سبطه الحسين عليه السلام على بطاح كربلاء، ولكن هل هذا يكفي للاطمئنان إلى صحّة هذه الأحاديث دون الرجوع إلى غير الكتاب المذكور من المراجع والمصادر المعتَبَرة؟!

هنا، يمكننا أن نقول لذلك المتسائل: نعم، إنَّك على حقّ في ما تقول، ولذلك سنوفّر عليك عناء البحث في العديد من الكتب والمراجع القديمة عن الموضوع المطلوب، وبالتالي، سَنُحيلُكَ إلى كتاب معاصر قد اعتمد في توثيق معلوماته المقتَبَسة على العديد من المصادر القديمة المشهورة، وبإمكانك العودة إلى هذا الكتاب، فهو معروف ومُعتَمَد، ومن اليسير الحصول عليه بسبب طباعته المتكرّرة باستمرار.

فالكتاب يحمل عنوان (السيدة زينب) للباحثة الإسلاميّة الدكتورة (عائشة عبد الرحمن) المعروفة بلقب (بنت الشاطئ)، تلك الباحثة التي كتبت الكثير من الكتب في المجالات الفكريّة المختلفة، غير أنَّ شهرتها الأوسع جاءت نتيجة كتاباتها في الميدان الفكريّ الإسلاميّ القائم على معرفة الكثير من الحقائق عن طريق دراسة التراجم والأعلام.

وحتّى لا نطيل الحديث كثيراً، نقول إنّ الدكتورة (بنت الشاطئ) أكّدت في كتابها الذي ذكرناه منذ قليل أنّ حديث قارورة أمّ سلمة (رض) هو حديث صحيح، وأنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قد أُخبِرَ، بالفعل، عن طريق جبريل عليه السلام أنَّ حفيده الحسين عليه السلام سيواجه الموت مع آل بيته في كربلاء دون رحمةٍ من أعدائه.

وها هي الدكتورة تقول في كتابها المذكور: (ففي سنن ابن حنبل ج١ ص٥٨ أنّ

جبريل أخبر محمداً ﷺ بمصرع الحسين وآل بيته في كربلاء)[١].

ولم تكتفِ تلك الباحثة بالأخذ عن (سنن ابن حنبل)، بل تجاوزته في أَخْذِ تلك المعلومات إلى مصدر آخر له قيمته التاريخيّة أيضاً.

وها هي أيضاً تذكرهُ في معرض حديثها قائلةً: (وينقل ابنُ الأثير في (الكامل) أنّ الرسول أعطى زوجَه أمّ سلمة تراباً حمله له أمين الوحي من التربة التي سَيُراق فوقها دمُ الحسين، وقال لها ﷺ: «إذا صار هذا التراب دماً فقد قُتِلَ الحسين»، وأنّ أمّ سلمة حفظت ذلك التراب في قارورةٍ عندها، فلمّا قُتِلَ الحسين صار التراب دماً، فعلمتْ أنَّ الحسين قُتِلَ، وأذاعتْ في النّاس النبأ)[٢].

ولو تركنا الآن موضوع قارورة أمّ سلمة (رض) جانباً، واستعرضنا سويّةً الأحاديث النبويّة الشريفة الواردة في الكثير من المؤلّفات الفكريّة والتاريخيّة وفي الدواوين الشعريّة أيضاً، والتي تتمحور كلّها حول تنبّؤ الرسول الكريم ﷺ بمقتل حفيده السبط الحسين عليه السلام، فماذا يمكننا أن نجد في تلك المؤلّفات الفكريّة المعاصرة؟!

في الحقيقة، يمكننا أن نجد الشيء الكثير في تلك المؤلّفات والدواوين، ولذلك دعونا نحلّق سويّةً في فضاءات الأستاذ (توفيق أبو علم) الفكريّة كي نرى ما تحتوي تلك الفضاءات من مَشاهد وحقائق مأخوذةٌ من عمقِ التاريخ وفجرِ الرسالة.

وأوّل ما يمكننا أن نصادفه في فضاء كتابه (الحسن بن علي) قَولَه المباشر والواضح عن الأحداث الأليمة والفواجع الجسيمة التي تنبّأ بها الرسول المصطفى

(١) الدكتورة عائشة عبد الرحمن، السيدة زينب، دار الكتاب العربيّ. بيروت، ١٩٨٥، ص٢٩.
(٢) نفس المصدر السابق ص٢٩.

صلى الله عليه وآله وسلم لأهل بيته الكرام، وعن النهايات الدَّامية التي سَيُلاقونها من بعده.

وقد كتب الأستاذ (أبو علم) تحت عنوان (الرسول والحسن والحسين) ما يلي:

(كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يخاطب الحسن والحسين فيقول: «اللهمّ أذهِبْ عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً»، ويقول: «أنا حربٌ لمن حاربتم وسلمٌ لمن سالمتم»، ويبتهل قائلاً: «اللهمّ أحِبْ مَن أحبَّهم وابغضْ مَن أبغضهم، ووالِ مَن والاهم وعادِ مَن عاداهم، وَأعِنْ مَن أعانهم، واجعلهم مطهرين من كلّ دنسٍ، معصومين من كلّ ذنبٍ»، ويحقّ للرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يتأثّر بما يعرفه عن الطوايا والنوايا نحو آله فيبكيهم أحياء لأنّه بصفاء نفسه قد انكشف له الغطاء عن أمور صَدَقها الوحي، فأجاز لنفسه أن يبكي وقد أقبل عليه الحسن وأن يقول: «إليَّ إليَّ يا بنيّ» ـ ثمّ يُدنيه ويُجلسه على فخذه ويعدّد ما ينزل بآله من البلاء والتقتيل والتشريد والتنكيل)[1].

وغنيٌّ عن القول أنّ الأستاذ (أبو علم) لم يقتصر في ذكره لأحاديث الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عن فجائع أهل بيته عليهم السلام وآلامهم على كتاب (الحسن بن علي)، بل إنّه أورد العديد من هذه الأحاديث النبويّة في معظم كتبه، وبشكلٍ خاصٍّ في كتابه (الحسين بن علي) الذي يَعتَبر بمثابة الكتاب المُكمِّل للكتاب السابق (الحسن بن علي).

ومن خلال قراءتنا للصفحات الأولى من كتابه (الحسين بن علي)، نشعر أنّنا أمام كاتبٍ نبيلٍ يحاول ـ قدر إمكانيّاته ـ أن ينقل للقارئ الكثير من الحقائق والوقائع عن تاريخ أهل بيت النبوّة ومهبط الرسالة عليهم السلام، وعلى ما يبدو، فإنَّ عمله السابق، وكيل أوّل في وزارة العدل، جعل منه رجلاً باحثاً عن الحقِّ، مُعْتَنِقاً للصدق، طالباً للعدل في

---

(١) توفيق أبو علم، الحسن بن علي، مصدر سابق ص٢٥.

إطلاق كلّ الأحكام التي يصدرها على المواضيع المطروحة للبحث والنقاش.

وحتّى لا نسهب كثيراً في دراسة أعماله الفكريّة وتحليلها، دعونا نلقي نظرة سريعة على نبوءات الرسول الكريم ﷺ حول مصائب أهل بيته عليهم السلام من بعده: تلك النبوءات التي كان ﷺ يتفوّه بها أمام النّاس دون خوفٍ أو وَجلٍ لأنّه كان يدرك تمام الإدراك أنّ الأمّة لن تحترم وصاياه ولن تتمسّك، من بعده، بالثقلين أبداً.

وهذا هو ابن عبّاس يخبرنا قائلاً في حديث مطوَّلٍ له، نقله لنا الأستاذ (أبو علم) في كتابه (الحسين بن علي):

(كان رسول الله ﷺ جالساً إذْ أقبل الحسن عليه السلام، فلمّا رآه بكى، وقال: إليَّ إليَّ، فأجلسه على فخذه اليمنى، ثمّ أقبل الحسين عليه السلام، فلمّا رآه بكى، وقال مثل ذلك، فأجلسه على فخذه اليسرى، ثمّ أقبلتْ فاطمة عليها السلام، فرآها فبكى وقال مثل ذلك وأجلسها بين يديه، ثمّ أقبل عليّ عليه السلام فرآه فبكى وقال مثل ذلك فأجلسه إلى جانبه الأيمن، فقال له أصحابه: يا رسول الله ما ترى واحداً من هؤلاء إلا بكيت؟

فقال: «ما على وجه الأرض نسمةٌ أحبُّ إليَّ منهم، وإنّما بكيتُ لما يحلُّ بهم من بعدي وذكرتُ ما يُصنع بهذا ولدي الحسين، كأنّي به وقد استجار بِحَرَمي وقبري فلا يجُار، ويرتحل إلى أرض مقتله ومصرعه أرض كربلاء، تنصره عصابةٌ من المسلمين، أولئك سادات شهداء أمّتي يوم القيامة، فكأنّي أنظر إليه وقد رُميَ بسهمٍ فَخَرَّ عن فرسه صريعاً ثمّ يُذبحُ الكبشُ مظلوماً»، ثمّ انتحب وبكى وأبكى مَنْ حوله وارتفعتْ أصواتهم بالضجيج، ثمّ قام ﷺ وهو يقول: «اللهمّ إنّي أشكو إليك ما يلقى أهل بيتي بَعدي»[1].

---

(١) توفيق أبو علم، الحسين بن علي، مصدر سابق ص٢٨.

وليس هذا فحسب، بل إنّ الأستاذ (أبو علم) قد ذكر في كتابه حديثاً آخر لا يقلّ أهميّةً عن الحديث الأوّل حول إخبار الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم عن إراقة دم الحسين عليه السلام ظلماً وعدواناً.

وبإمكان القارئ وهو يقرأ الحديث الثاني الذي سنذكره الآن أن يتخيّل الصورة الدراماتيكيّة المأساويّة للسيّدة البتول فاطمة الزهراء عليها السلام وهي تشكو للإله العظيم ما حلَّ بأبنائها الأطهار من بعدها.

وهذا هو نصّ الحديث الشريف كما أورده الأستاذ (أبو علم): (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تحُشَر ابنتي فاطمة يوم القيامة ومعها ثيابٌ مصبوغةٌ بدم، فتتعلّق بقائمة من قوائم العرش، فتقول: يا عدل يا جبّار احكمْ بيني وبين قاتل ولدي»، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فيَحكم الله لابنتي وربِّ الكعبة»[1].

ولاريب في أنّ هذه الأحاديث النبويّة الشريفة المتحدِّثة عن أحداث ملحمة كربلاء لم تأتِ من فراغ، ومن الواضح أيضاً أنّ هذه الأحاديث التي ذكرها الأستاذ (أبو علم) لم يكن مصدرها كتب المسلمين الشيعة، بل إنّه قد أخذها عن العديد من كتب السنّة الهامّة، تلك الكتب التي تَلقى الكثير من الاحترام والتقدير في صفوفهم.

وكما أوضحنا سابقاً كيف أنّ الباحثة والمفكّرة الدكتورة (عائشة عبد الرحمن) قد استعانت بالكثير من المصادر والمراجع السنيّة في معرض حديثها عن نبوءة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بآلام وفجائع كربلاء، فإنّنا نوضّح الآن أيضاً أنّ الكلام نفسه ينطبق على الأستاذ الباحث (توفيق أبو علم) وعلى غيره من جهابذة الفكر من السنّة والمسيحيين وغيرهم.

(١) نفس المصدر السابق ص٢٩.

فلا رَيب أبداً في أنّ الأستاذ (أبو علم)، وغيرُه أيضاً، قد قرأوا ما جاء في كتاب (نور الأبصار) للعلامة الشيخ (مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجي)، الشافعيّ مَذهباً، حول معرفة الرسول ﷺ المسبقة باستشهاد سبطه الحسين عليه السلام على يَدِ أعداء الإسلام، حيث روى (الشبلنجي) الحديث نقلاً عن (البَغوي) بسندٍ مرفوعٍ إلى أمّ سلمة (رض) أنّها قالت: (كان جبريل عليه السلام عند النبيّ ﷺ، والحسين معي، فغفلتُ عنه فَذهب إلى النبيّ ﷺ فأخذه النبيّ ﷺ وجعله على فخذه، فقال له جبريل عليه السلام: أتحبُّهُ يا محمد؟ قال: «نعم»، قال: إنَّ أمَّتك ستقتله، وإنْ شئتَ لأريتك تربة الأرض التي يُقتل بها، ثمّ بسط جناحيه إلى الأرض وأراه أرضاً يُقال لها كربلاء، تربة حمراء بِطَفِّ العراق)[1].

ولاشكّ في أنَّ أولئك المفكّرين والباحثين قد قرأوا بأنفسهم الحديث الهامّ الذي دار بين أمّ سلمة (رض) والحسين عليه السلام حول إخبار الرسول ﷺ إيّاهما بالحدث الجَلل الدّامي الذي سيُلاقيه الحسين وأهل بيته الأطهار عليهم السلام على يد عصابة الشيطان، فلاشكّ في أنّهم قد قرأوا ذلك الحوار الهامّ في العديد من كتب السنّة ومؤلّفاتهم الأخرى حتّى أنّ المفكّرين والباحثين الشيعة راحوا يستشهدون في كتبهم ومؤلّفاتهم عن نبوءة الرسول ﷺ بكربلاء وأهوالها من خلال ما جاء من أحاديث عديدة في أيّ كتب إخوانهم السنّة المتقدّمين والمعاصرين.

ويكفي أن نقول إنَّ العلامة (جمال الدين محمد بن يوسف الزرندي)، الحنفي مذهباً، ذكر في كتابه القيِّم (نَظم دُرَرِ السمطين) أكثر من عشرة أحاديث متنوّعة عن إخبار الرسول ﷺ بملحمة كربلاء وأهوالها التي تنتظر أهل بيته عليهم السلام بعد رحيله

(١) الشيخ مؤمن الشبلنجي الشافعي، نور الأبصار، دار الفكر . بيروت/ د.ت ص١٣٩.

صلى الله عليه وآله وسلم.

وحتّى لا يتّهمنا أحدٌ ما بالتقصير في ذكر المزيد من الأحاديث حول هذه المسألة المتعلّقة بقراءة غيب الأحداث وخرق حُجُبِ أستارها، دعونا نقدّم إليكم حديثاً واحداً من الأحاديث العديدة التي أوردها العلامة (الزرندي) الحنفي في كتابه المذكور سابقاً.

ونصُّ الحديث الذي سنذكره الآن ليس للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّما هو لابن عباس، غير أنّ هذا الحديث يعكس بصورة فعليّة المعرفة المسبقة بحدوث الفاجعة وذلك عن طريق إخبار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عمومَ النّاس بها.

وها هو نصّ الحديث الذي يقول عنه (الزرندي) الحنفي أنّه أخذه عن كتاب (مُسند الإمام أحمد بن حنبل):

(قال ابن عباس: رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرى النائم نصف النّهار وهو قائمٌ أشعث أغبر، بيده قارورةٌ فيها دمٌ يلتقطه أو يتتبّع فيه شيئاً، فقلتُ: بأبي أنتَ وأمّي يا رسول الله، ما هذا؟!

قال: «دم الحسين وأصحابه ولم أزل أتتبّعه منذ اليوم»[1].

وأضاف العلامة (الزرندي) الحنفي معلّقاً على هذا الحديث الذي أخذه عن (مُسند الإمام أحمد بن حنبل)، بقوله إنَّ هناك رواية أخرى عن نفس الرؤيا التي رآها ابن عباس، وهي (أنَّ ابن عباس كان في قايلةٍ له (أي قيلولةٍ)، فانتبهَ من قايلته وهو يسترجع (ما رآه) ففزع أهله، فقالوا: ما شأنك، ما لَكَ؟!

(١) جمال الدّين محمد الزرندي الحنفي، نظم دُرر السمطين، مكتبة نينوى الحديثة . طهران/ د.ت ص٢١٨.

قال: رأيت النبيَّ ﷺ وهو يتناول من الأرض شيئاً، فقلت: بأبي وأمّي يا رسول الله ﷺ ما هذا الذي تصنع؟ قال: «دم الحسين أرفعه إلى السّماء»[1].

وبالطبع، فإنَّ هذه الرؤيا التي شاهدها ابن عباس، والتي ذكرها الإمام أحمد بن حنبل في (مُسنده)، لم تكن في حقيقتها إلا مجرّد صدى أو تثبيت لِواقعةٍ نفسيّةٍ معيّنةٍ انتقلت من ساحة الوعي والشعور إلى ساحة اللاوعي واللاشعور فتجسَّدت بشكل رؤيا صادقة نتجت عن حدثٍ مسبقٍ سمعه ابنُ عباس نفسُه من الرسول ﷺ، الأمين، والصادق في كلّ ما يفعله وما يقول ويُخبر.

وما يؤكّد أنّ الرسول الكريم ﷺ لم يجعل خبر كربلاء سرّاً وحكراً على بعض المقرَّبين منه، هو أنَّ الكثير من الأصحاب ومن عموم النّاس كانوا يتناقلون أخبار تلك الفاجعة المرتقَبة، تارةً باستنكار وتارةً باستغراب.

فقد روى، على سبيل المثال فقط، الشيخ (عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي)، وهو من العلماء السنّة المعاصرين، أحاديث عديدةً تؤكّد حقيقة شيوع خبر فاجعة كربلاء بين عموم النّاس قبل حدوثها.

فقد روى الشيخ (حسونة الدمشقي) في كتابه (الحسين حفيداً وشهيداً) حديثاً مرفوعاً إلى (العريان بن الهيثم) قال فيه: (كان أبي يتبدّى، فَينزل قريباً من الموضع الذي كان فيه معركة الحسين، فكُنّا لا نبدو إلا وجدنا رجلاً من بني أسد هناك، فقال له: إنّي أراك ملازماً هذا المكان، فقال: بلغني أنَّ حسيناً يُقتل ها هنا، فأنا أخرج لَعلّي أصادفه فأُقتلُ معه.

فلمّا قُتِلَ الحسين، قال أبي: انطلقوا ننظر هل الأسديّ فيمن قُتِلَ، وأتينا المعركة

---

(١) نفس المصدر السابق ص٢١٨.

فَطَوَّفنا، فإذا الأسدي مقتول)[١].

وهنا علينا أن نلفت الانتباه إلى أنَّ هناك بعض المستشرقين الذين كبر عليهم أن يعتبروا الرسول محمداً صلى الله عليه وآله رسولاً سماويّاً وإنّما هو مجرّد مصلح اجتماعي لا أكثر من ذلك، رأوا أنّ تلك النبوءات من محمد صلى الله عليه وآله مجرّد وَهمٍ أو خيالٍ لا أساس له من الصحّة، في حين أنَّ المنصفين منهم اعتبروا ذلك من كرامات الرسول صلى الله عليه وآله، أو على الأقلّ، من قوّة بصيرته وشفافيّة نفسه النقيّة الطاهرة.

أمّا المؤرّخون المسلمون، فما يشكّ أكثرهم في أنّ تلك المرويّات كلّها صادقةٌ لا ريب فيها[٢]، وعلى ما يبدو، ليس الأقدمون وحدهم هم الذين نزّهوا تلك الروايات عن الريب والشكّ، بل إنَّ هناك من كُتَّاب العصر الحاضر مَن لا يقلّ عن المؤرّخين والكتّاب الأقدمين إيماناً بتلك الظِّلال الحزينة التي أحاطت بمولد (السيدة زينب) بنت علي وفاطمة (عليهم السّلام جميعاً).

فها هو الكاتب الهنديّ (محمد الحاج سالمين) المعروف بثقافتِهِ وبِسعةِ اطّلاعه يصف في الفصل الأوّل من كتابه النفيس (Sayyida Zeinab) (السيدة زينب) كيف تَمَّ استقبال ولادة السيدة زينب عليها السلام بالآهات الحارقة وبالدّموع والهموم بدل أن يتمَّ استقبالها بالحبور والفرح والسّرور.

ثمّ يتابع ذلك الكاتب الهنديّ (سالمين) نَقلَهُ لبعض الأحاديث والمرويّات عن النبوءة الحزينة، وينتقل بعد ذلك ليصوّر لنا النبيّ العظيم وقد انحنى على حفيدته زينب (روحي لها الفداء) يقبّلها بقلبٍ منكسرٍ حزين تعتصره اللوعةُ وتحرقه الحسرة، ويحنو

---

(١) الشيخ عرفان بن سليم العشا حسونة، الحسين حفيداً وشهيداً، المكتبة العصرية . بيروت وصيدا، ط١/٢٠٠٥، ص٦٨.

(٢) عائشة عبد الرحمن، تراجم سيّدات بيت النبوّة، دار الكتاب العربي . بيروت، د.ت ص٦٦٢.

عليها بعينين دافئتين دامعتين، عَالماً بتلك الأيّام والليالي السوداء التي تنتظرها وراء الحُجب[(١)].

ويمضي ذلك المفكّر الهندي الكبير متسائلاً:

(تُرى إلى أيّ مدى كان حزنه ﷺ حين رأى بظهر الغَيب تلك المذبحة الشنعاء التي تنتظر سبطَه الغالي! وكم اهتزَّ قلبُه الرقيق الحاني وهو يطالع في وجه الوليدة الحلوة (زينب عليها السلام) صورةَ المصير الفاجع المنتظَر؟!)[(٢)].

ولا أريد أن أخفي عليكم أيُّها الأحبّة القرّاء أمراً كنت قد قرّرتُ أن أُبقيه سرّاً بيني وبين نفسي، ولكنّ الصدور تضيق بالأسرار، ثمّ ما الفائدة من سرٍّ تحمله في صدرك إن كانت العيون تبوحُ به؟!

فأنا الآن أجلس وحيداً في غرفتي، ورياح الليل تصفع قامات شجر الصنوبر العالية فَتُسمِعك صوتاً شجيّاً أشبه بصوت النّواح على فراق حبيبٍ أو وداع قتيلٍ بريء.

أجلس وحيداً، أقرأ وأكتب، وأتخيّل محمداً وعليّاً وفاطمة عليهم السلام وقد أحاطوا بالوليدة الصغيرة الحلوة (زينب) عليها السلام يستقبلون ولادتها بالدّموع بدل الشّموع.

أتخيّل محمداً، رسول الله ﷺ، يقول هامساً، وهو ينظر تارةً إلى عليّ وفاطمة عليهما السلام، وتارةً إلى أحفاده عليهم السلام الصغار: ماذا سيحلّ بالثّقلين من بعدي؟!

ماذا سيحلّ بأخي عليّ الذي حُبُّه عنوان صحيفة المؤمن؟

ماذا سيحلّ ببضعتي فاطمة الزهراء التي يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها؟

وأتخيّله يقول في عمق نفسه متوجّهاً إلى الزهراء عليها السلام بكلّ جوارحه:

---

(١) نفس المصدر السابق ص٦٦٣.

(٢) نفس المصدر السابق ص٦٦٣.

آهٍ يا فاطمة، كم أنا سعيدٌ لأنّك ستكونين أوّل النّاس لحاقاً بي، فأنا في غاية السّعادة يا ابنتي لأنّك ستموتين وتلتحقين بي قريباً ولن تشاهدي أبناءَك وهم يُقتَلون الواحد تلو الآخر على يدِ شرار الأمّة، لا لشيءٍ ارتكبوه إلا لذنبٍ واحدٍ لا يُغتفَرُ بنظر أولئك القَتَلة، فَذَنْبُهم الوحيد أنّهم أبناء الرسالة.

نعم، أنا الآن أتخيّل هذا وأشياءَ أخرى غير هذا وأكثر عمقاً من هذان ولكن ما أريد قوله ـ والله يشهد عليَّ بذلك ـ أنّني الآن أكتبُ هذه السطور عن ولادة زينب عليها السلام، شقيقة الحسين عليه السلام وحاملة لواء نهضته من بعده، ودموعي تبلّل الورق الذي بين يديّ الآن.

نعم، أنا الآن أبكي ولا أخجلُ من البوح بهذا، فدموعي عزيزةٌ عليَّ كثيراً ولكنّها مبذولةٌ لمصائب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أنا أبكي، ولكنّني على يقينٍ ثابتٍ أنّ المكان الذي تجري عليه الدّموع اليوم لن تمسَّه النّارُ غداً.

وأنا أعرف الآن أنَّ البعض يمكن أن يتساءل قائلاً:

كيف ذَرفَ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الدموع السخيّة على الوليدة زينب عليها السلام لحظة ولادتها ولم يذرف الدّموع على أخيها الحسين عليه السلام صاحب الفاجعة الأول، لحظة ولادته، وهو الرسول العارف بمصير ذلك السبط الوليد؟!

نقول لكلّ من يتساءل عن ذلك: إنّك، بلا ريب، على حقٍّ في تساؤلك، ولكن لا تستعجل في حسم الأمور والحكم عليها سريعاً دون الإحاطة بالموضوع من كافّة أطرافه.

ولذلك دعنا، الآن، نقوم برحلةٍ قصيرةٍ سويّةً لنرى ما قام به الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ساعة ولادة حفيده الحسين عليه السلام، ولنتأكّد ـ بنفس الوقت ـ من أنَّ التاريخ قد بيَّن لنا أنَّ

هناك مجالس للعزاء أُقيمت على شهيد كربلاء الحسين بن علي عليه السلام، فقد أقام جدُّه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله العزاء عليه يوم ولادته بدلاً عن إقامة الأفراح وإعلان السّعادة والسرور.

وقد أُقيمَ أوّل مأتمٍ للحسين عليه السلام في أول ساعةٍ من ولادته، كما أخرج الحديث شيخُ السنّة الحافظ (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي)، فقال: أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد المفسّر،... عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: «حدّثتني أسماء بنت عميس، قالت: قَبَّلتُ جدَّتَك فاطمة عليها السلام (أي أشرفتُ عليها) بالحسن والحسين عليهما السلام... فلمّا كان بعد حَولٍ من مولد الحسن وَلَدت الحسين، فجاءني النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا أسماء هاتي ابني، فدفعتهُ إليه في خرقةٍ بيضاء، فأذّنَ في أُذنهِ اليمنى، وأقام في اليسرى، ثمّ وضعه في حجرهِ، وبكى صلى الله عليه وآله، قالت أسماء: فقلتُ: فداك أبي وأمّي، مِمَّ بكاؤك؟!

قال: على ابني هذا، قلتُ: إنّه وُلِدَ السّاعة؟! قال: يا أسماء، تقتله الفئة الباغية، لا أنالهم الله شفاعتي، ثمّ قال: يا أسماء، لا تخبري فاطمة بهذا الخبر، فإنّها قريبةُ عهدٍ بولادته»[1].

ولاشكّ في أنّ أوّل مأتمٍ للحسين عليه السلام كان يوم ولادته في دار جدّه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، أول خلق الله وخاتم رسله، وممّا لا شكَّ فيه أيضاً هو أنّنا لم نسمع قبل هذا على الإطلاق أنْ ينعقد لمولودٍ - غير ابن فاطمة الزهراء عليها السلام - مأتمٌ عوضاً عن إقامة حفلات الفرح والسّرور وتقبُّل التّهاني.

وبالفعل، لم يحدّثنا تاريخ الإنسانيّة العامّ، من زمن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء

(١) أخطب خوارزم الحنفي، مقتل الحسين، مصدر سابق ج١ ص٨٨.

محمد صلى الله عليه وآله وسلم، عن والدٍ تصله هديةٌ خاصّةٌ بمناسبة مولوده الجديد عبارةٌ عن حفنةٍ من تربة مَذبح ولده الحبيب!!

وهنا تجدر الإشارة إلى نقطةٍ مهمّةٍ حول مجيء جبريل الأمين عليه السلام بتربةٍ من أرض كربلاء إلى الجدِّ الذي سيُفجَعُ لاحقاً بحفيده عليها.

فجبريل الأمين عليه السلام لم يأت لزيارة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم محمّلاً بحفنةٍ من تراب كربلاء مرّةً واحدة فقط، بل إنّه جاءه أكثر من مرّةٍ حاملاً إليه قبضةً من تلك التربة التي تنتظر قدوم الحسين عليه السلام إليها لتضمّه إلى صدرها كي ينام بطمأنينةٍ وهدوءٍ كما كان ينام وهو طفلٌ على ذراع أمّه الزهراء عليها السلام.

وممّا يؤكّد مجيء جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من مرّةٍ حاملاً معه حفنةً من تراب كربلاء المقدّسة هو جملة الأحاديث المتواترة والواردة في الكثير من كتب إخواننا السنّة.

وعلى سبيل المثال، أخرج الحافظ (أبو القاسم الطبراني) في الجزء الثالث من كتابه (المعجم الكبير) لدى ترجمة الحسين عليه السلام ما يلي:

قال: (حدّثنا أحمد بن رشيد... عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: دخل الحسين بن علي (رض) على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يومئ إليه حتّى صعد على ظهرهِ وهو يلعب، فقال جبرائيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أتحبُّه يا رسول الله؟

قال: «يا جبرائيل، وما لي لا أحبّ ابني!».

قال: فإنّ أمّتك ستقتله من بعدك، فَمَدَّ جبرائيل عليه السلام يده فأتاه بتربة بيضاء، فقال: يا رسول الله، في هذه الأرض يُقتَل ابنُك هذا، يا محمّد واسمها (الطفّ)، فلمّا ذهب جبرائيل عليه السلام من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتربة في يده وهو يبكي، فقال: «يا عائشة، إنّ

جبرائيل أخبرني أنَّ الحسين عليه السلام مقتولٌ في أرض الطفّ، وأنَّ أمّتي سَتُفْتَنُ بعدي».

ثمّ خرج إلى أصحابه، وفيهم علي وأبو بكر وعمر وحذيفة وعمار وأبو ذر وهو يبكي، فقالوا: ما يُبكيك يا رسول الله؟!

فقال: «أخبرني جبرائيل أنَّ ابني الحسين عليه السلام يُقتَلُ بعدي بأرض الطفّ وجاءني بهذه التربة، وأخبرني أنَّ فيها مضجعه»[١].

وبالاعتماد على هذا الحديث وعلى غيره من الأحاديث الأخرى التي تفيض بها كتب المسلمين المتقدّمين عموماً، يمكننا القول إنَّ جبرائيل عليه السلام أخبر محمداً وعليّاً وفاطمة عليهم السلام بمصير ابنهم الحسين عليه السلام المأساويّ لحظة ولادته، وكانت تلك هي المرّة الأولى، ولكنّ ذلك لا يعني أنَّ جبرائيل عليه السلام لم يكرّر الحادثة والإعلان عن طريقة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، بل على العكس، فقد قام جبرائيل عليه السلام بجلب تراب من كربلاء إلى الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من مرّةٍ ولا نستبعد أن يكون الهدف من ذلك هو تذكير المسلمين الدائم بضرورة تحديد موقف كلّ واحدٍ منهم من الفتن المظلمة التي ستأتي بعد غياب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كقطع الليل الحالك، وبشكلٍ خاصٍّ الفتن الأمويّة التي ستحاول أن تطيح بالرسالة الإسلاميّة وبكلّ فردٍ من أفراد أهل البيت عليهم السلام وعلى رأسهم الإمام الحسين عليه السلام الذي أخبر عنه وعن ثورته رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بشكلٍ مسبقٍ.

إذنْ، في كلّ مرّةٍ كان جبرائيل عليه السلام يزور فيها محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حاملاً له حفنةً من تراب المذبح الكربلائي، كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يخبر أصحابه وكلَّ من هو حوله بمصير ابنه الحسين عليه السلام المحتوم من بعده عسى أن يدافع عنه كلُّ مَن يدركه، وبذلك تكون

(١) العلامة السيد جواد القزويني، يزيد في محكمة التاريخ، مصدر سابق ص١٢٢.

الحجّة قد قامت، بالفعل، على كلّ من سمع بتلك الأحاديث من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن كربلاء ولم يسع لنصرة الإمام الحسين عليه السلام في ساعة شدّته والوقوف معه في صَفِّه ضدَّ جيش الكفر والنفاق.

وما يعزّز ويؤكّد هذا الكلام، هو الكلام الذي رواه الكثير من الرواة الثقاة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد رُوي عن عبد الله بن يحيى أنّه قال: رحلنا مع الإمام علي عليه السلام إلى صفّين، فلمّا حاذى نينوى، نادى: «صَبراً أبا عبد الله» (يعني ابنه الحسين عليه السلام)، ثمّ قال عليه السلام (شارحاً سبب قوله ذاك): «دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعيناه تفيضان دموعاً، فقلتُ: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ما لِعَينك تفيض، أأغضبك أحد؟

قال: لا، بل كان عندي جبرائيل، فأخبرني أنَّ الحسين يُقتل بشاطئ الفرات، وهذه قبضةٌ من تربته أشَمَّنيها، فلم أملك عينيَّ أن فاضتا، واسم الأرض (كربلاء) بشطِّ الفرات التي يُقتل فيها، وكأنّي أنظر إليه وإلى مصرعه ومدفنه، وكأنّي أنظر إلى السبايا على أقتاب المطايا، ويُهدى رأسه إلى يزيد.

ثمّ صعد صلى الله عليه وآله وسلم المنبر مغموماً مهموماً، حزيناً كئيباً باكياً، وأصعد معه الحسن والحسين عليهما السلام، ووضع يده اليمنى على رأس الحسن واليسرى على رأس الحسين، وقال: اللهمّ إنّ محمداً عبدك ورسولك، وهذان (أي الحسن والحسين) أطائب عترتي وخيار أرومتي وأفضل ذريّتي ومن أخلفهما من أمّتي، وقد أخبرني جبرائيل أنَّ ولدي هذا (الحسن) مخذول مقتول بالسمّ، والآخر (الحسين) شهيدٌ مضرَّجٌ بالدّم، اللهمّ، فبارك له في قتله واجعله من سادات الشّهداء، اللهم، ولا تبارك في قاتله وخاذله، وأصلِهِ حرَّ نارك، واحشره في أسفل درك الجحيم»، (قال): فضجّ النّاس بالبكاء والعويل، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: أتبكونه ولا تنصرونه؟ اللهمّ، فكنْ أنت له وليّاً

وناصراً».

ثمّ رجع ﷺ وهو متغيّر اللون محمّر الوجه، فخطب خطبةً أخرى موجزةً وعيناه تهملان دموعاً، ثمّ قال: يا قوم إنّي مخُلّف فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي وأرومتي ومزاج مائي وثمرة فؤادي ومهجتي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، ألا وإنّي لا أسألكم في ذلك إلا ما أمرني ربّي (أسألكم المودّة في القربى) واحذروا أن تلقوني على الحوض غداً وقد آذيتم عترتي وقتلتم أهل بيتي وظلمتموهم»[1].

إذنْ، إقامة الحجّة على المسلمين هي الحجر الأساس في عمليّة تكرار زيارة جبرائيل عليه السلام لمحمد ﷺ وتذكيره بمصير سبطه الحسين عليه السلام ممّا يستدعي أن يقوم الرسول محمد ﷺ بدورٍ مماثلٍ وهو تذكير صحابته والمسلمين عموماً بضرورة نصرة أهل بيته عليهم السلام والوقوف معهم في شدائدهم ومصائبهم والقضاء على كلّ فتنةٍ من شأنها أن تطفئ أنوار رسالة الحقّ بين صفوف الخلق.

فهل كان المسلمون عند حسن ظنّ الرسول ﷺ بهم؟

وهل احترموا محمداً ﷺ وحفظوه جيداً في أهل بيته؟

والأهمّ من ذلك كلّه، هل استجاب المسلمون لوصيّة نبيّهم ﷺ في مسألة نصر الإمام الحسين عليه السلام والدّفاع عنه وعن حرمات أهله والوقوف بثبات وإيمان أمام الإعصار الأمويّ الحاقد؟!

أعتقد أنّ الحقائق والوقائع الموجودة في الصفحات القادمة من هذا الكتاب هي التي ستجيب بكلّ صراحةٍ ووضوحٍ على كلِّ تلك الأسئلة.

(١) لبيب بيضون، خُطب الإمام الحسين على طريق الشهادة، مطابع ابن زيدون . دمشق، ١٩٧٤، ص٥٣.

وقبل أن ندخل الآن في الأجواء الفكريّة المسيحيّة لنتعرّف على وجهات نظر العديد من المستشرقين والمفكّرين والأدباء المسيحيين حول نبوءات الرسول المصطفى ﷺ عن أحداث كربلاء، دعونا نجيب على سؤالٍ قد يطرحه أحدٌ ما علينا حول تنبّؤ أفراد أهل البيت المحمديّ عليهم السلام بما سيحدث للحسين وأهل بيته عليهم السلام بعد سنواتٍ في كربلاء وقرب شطّ الفرات.

فمن الممن أن يتساءل أيُّ واحدٍ منّا قائلاً:

حسناً، ها قد قرأنا العديد من الأحاديث النبويّة عن مسرح الفاجعة، ولكن هل هناك من أحاديث مشابهةٍ وردت عن ألسنةٍ أخرى غير لسان النبيّ الكريم ﷺ؟!

وسنترك الجواب على هذا السّؤال للمفكّر الأزهري البارز الأستاذ (خالد محمد خالد) لنرى ما سيقوله لنا في كتابه (أبناء الرسول في كربلاء).

يحدّثنا هذا الكاتب المتميّز عن عمق بصيرة الإمام علي عليه السلام التي لا تقلّ في صفائها ونقائها عن بصيرة أخيه وابن عمّه محمد الرسول الصادق الأمين ﷺ.

وها هو الأستاذ (خالد) يقول في الصفحات الأولى من كتابه المذكور:

(ولكأنّما كان الإمام علي يرى ببصيرته الثاقبة كلَّ ذلك المصير!!

فذات يومٍ أثناء مسيرة مع جيشه إلى صفّين، بلغ به السّير هذه الرقعة من الأرض، فتمهّلَ في سيره ثمّ وقف يتملّى مشهد الفضاء الرهيب، وسالت عَبَراته من مآقيه، واقترب منه أصحابه صامتين واجمين، لا يدرون ماذا أسال من مُقلتَيّ الأسد الدموع..!!

ثمّ سألهَم ويُمناه ممتدّةٌ صوب تلك الأرض التي تعلّقت بها عيناه:

ـ «ما اسم هذا المكان؟!».

قالوا: كربلاء.

قال: «هنا مَحَطُّ رِحالهم ومهراق دمائهم...!»[١].

وبعد هذا الكلام الذي أورده الأستاذ (خالد) عن لسان الإمام علي عليه السلام، يتابع الأستاذ (خالد) كلامه متسائلاً العديد من الأسئلة التي أخذت تتزاحم بكثرةٍ في ساحة فكره المتعطِّش إلى الحقيقة والمعرفة، فقال:

تُرى مَن كان يعني... ومَن كان يَنعَى...؟!

أكان يعني قُرَّة عينه الحسين ومَن كان معه من إخوةٍ له وأبناء...؟!

أكان يعني أولئك الأبطال الذين ستشهد هذه الأرض ذاتها استشهادهم الرهيب والمَهيب بعد عشرين عاماً لا غير من هذه النبوءة الصادقة...؟!

وبعد طرحه المباشر لهذه الأسئلة الساخنة، نراه يجيب عليها بنفسه مؤكّداً على حقيقة أنّ الإمام علياً عليه السلام لم يكن ينعى ابنه الحسين فحسب، وإنّما كان ينعى معه كلّ الشهداء الكربلائيين الذين سيسقطون مع الإمام الحسين عليه السلام فوق بطاح كربلاء.

أمّا عن كيفيّة معرفة الإمام علي عليه السلام لهذه الأحداث الغيبيّة، فيعلِّل الأستاذ (خالد) ذلك بقوله: (وحين يحتدم في البصائر النقيّة ولاؤها لحَقٍّ مقدّسٍ، أو لمبدأٍ جليل، فإنَّ هذا الاحتدام يتلقّى في لحظة إشراقٍ روحيٍّ مَدَداً من الرؤية غير منظور، يكشف الغيب ويجذب إلى دائرة الاستشراف أحداثَ الزمن البعيد، ولعلَّ شيئاً كهذا، حَدَثَ ذلك اليوم، فرأى الإمام التقيُّ النقيُّ بلاءَ أبنائه وحَفَدَتِهِ، رأى بلاءَهم العظيم في سبيل القضيّة التي حمل لواءَها، ورأى (مَحَطَّ رِحالهم، ومهراق دمائهم)[٢].

---

(١) خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق ص٣٥.

(٢) نفس المصدر السابق ص٣٦.

أمّا الأستاذ الكاتب (محمد رضا)، وهو أيضاً من علماء السنّة المعاصرين البارزين، فقد روى عن (الأصبغ) قوله: أَتينا مع علي فمررنا على قبر الحسين (قبل مقتله) فقال علي عليه السلام: «ها هنا مناخ ركائبهم، وها هنا موضع رحالهم، وها هنا مهراق دمائهم، فِتيةٌ من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

وقد فسَّر الأستاذ (رضا) معرفة الإمام علي عليه السلام بالغيب وقدرته على قراءة صفحاته المستقبليّة على أساس أنّ ذلك كلّه كرامة من كرامات عليّ عليه السلام أفاضها اللهُ عزَّ وجلَّ عليه لاستحقاقه لها، بالإضافة إلى تسخير البعض من ملائكة السّماء لخدمة آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في الأحاديث النبويّة الشريفة.

ونعتقد الآن أنَّ الوقت قد حان فعلاً للدّخول في عالم الفكر المسيحيّ لنستطلع معاً ما جاء في كتبهم ودواوينهم من رواياتٍ وأخبارٍ عن النبوءات بواقعة كربلاء المقدّسة.

وكما وَعدنا القرّاء الكرام سابقاً بالعودة إلى واحة المفكّر المسيحيّ (أنطون بارا) عند الضرورة، فها نحن الآن نَفي بوعدنا ونعود إليه ثانيةً بموجب الضرورة التي فرضت ذاتها الآن علينا.

وهنا تحديداً، يروق لنا أن نتوجّه بالسؤال التالي إليه، أو دعونا نقول نتوجّه بالأسئلة التالية إليه:

هل كان الإمام الحسين عليه السلام على معرفةٍ مسبقةٍ بنهايته المأساويّة الدَّامية؟ وكيف كان الحسين عليه السلام يستوحي مقتله؟

وإذا كان الإمام الحسين عليه السلام على درايةٍ كاملةٍ بما سَينتهي الأمر إليه، فلماذا

---

(١) محمد رضا، الإمام علي بن أبي طالب، دار الكتب العلمية. بيروت، د.ت ص١٨.

اصطحب معه أهلَه وعيالَه إلى أرض الكربِ والبلاء؟

وربّما كان لدينا أسئلة عديدة أخرى، لكنّنا سَنُرجئ طرحها إلى الزمان والمكان المناسبَين في هذا الفصل من الكتاب.

قبل كلّ شيءٍ، يرى الأستاذ (بارا) أنّ الحسين عليه السلام كان على اطّلاعٍ مُسبقٍ بما ينتظره من مصاعب وأهوال في نهضته لإجلاء الرمال والغبار عن وجه رسالة جدِّه المصطفى صلى الله عليه وآله بعد أن دَنَّستها الأيدي الأمويّة الجائرة.

ويرى أيضاً أنّ هناك الكثير من الشواهد التي تدلّ وتؤكّد على معرفته بتلك المأساة الدّامية التي تنتظره هو وأهل بيته عليهم السلام مع قلّة ناصريه والمدافعين عنه.

وقد أورد الأستاذ (بارا) خطبة مطوّلة للإمام الحسين عليه السلام ينعى بها نفسَه وأهلَ بيته عليهم السلام قبل خروجه من مكّة حيث وقف يخطب بما أُوحيَ إليه في قصّة استشهادِهِ حتّى لَكأنّه يقرأ قَدَرَهُ أمام ناظريه، فقال عليه السلام أمام حشدٍ من النّاس:

«الحمد لله وما شاء الله ولا قوّة إلا بالله وصلّى الله على رسوله، خُطَّ الموتُ على ولد آدم مخَطَّ القِلادة على جيد الفتاة، وما أولَهَني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيرٌ لي مصرعٌ أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلانُ الفلاة بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جُوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويُوفينا أجور الصابرين، لن تشذَّ عن رسول الله لحُمته بل هي مجموعة له في حضيرة القدس تقرُّ بهم عينُه وينجز بهم وعده، ألا ومَن كان فينا باذلاً مُهجتَه مُوطِناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحلٌ مُصبِحاً إنْ شاء الله تعالى»[1].

(١) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق ص١٠١.

وبالطبع، لا يغيب عن ذهن ذلك المفكّر المسيحيّ أن يعرض العديد من الصور المؤثّرة عن تفاصيل خروج أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام معه إلى أرض كربلاء، ولا يغيب عن ذهنه الوقّاد أيضاً أن يذكر لِقارئهِ وجهة نظره عن أسباب خروج أهل بيته عليهم السلام معه إلى ساحة الموت والشهادة من جهةٍ، وإلى حالة السَّبي والأسرِ من جهةٍ أخرى.

فالموت أو الشهادة في ساحة كربلاء نهاية حياة لكنَّه ليس نهاية إنسان، فالحياة الحقيقيّة للإنسان لا تُقاس بالأعوام والعقود، بل تُقاس بالمآثر الجليلة وبالفعائل الفضيلة والخصال النبيلة التي يُخلّفها ذلك الإنسان للإنسانيّة بعد رحيله وانتقاله من هذه الحياة إلى حياةٍ أخرى لا تنفد أيّامها وأعوامها.

والأسرُ والسَّبيُ في كربلاء له دوره أيضاً في أحداث تلك الفاجعة ذات الأثر الإنسانيّ العام، ولذلك يرى ذلك المفكّر المسيحيّ الذي كرَّس وقتاً طويلاً من حياته في دراسة سيرة أهل البيت عليهم السلام عموماً، وسيرة الإمام الحسين عليه السلام خصوصاً أنّ إخراج أهل البيت عليهم السلام إلى كربلاء له الكثير من المعاني والأهداف المكمّلة لأهداف نهضة الإمام الحسين عليه السلام ذاتها.

ومن هنا يرى الأستاذ (بارا) أنّ هناك حكمة إلهيّة في وقوع البعض من أفراد أهل البيت عليهم السلام المطهّرين من الرجس أسرى وسبايا بِيَدِ أعدائهم وأعداء دينهم، وعن تلك الحكمة الإلهيّة يقول: (وإنّها لحكمةٌ إلهيّةٌ أيضاً أن يُسارَ بالسبي إلى الكوفة ودمشق بهذا الشكل المهين على أقتاب الجِمال... فيرى النّاسُ في السبايا من الفجيعة، أكثر ممّا رأوا أو سمعوا في قتل الحسين، وهذا ما هَدَفَ له الشهيد بخروجه بالنّساء

والأطفال والرُّضّع ليكونوا شهوداً وألسنةً تنطق بمظلمته)[١].

ومن نافلة القول إنّ الاستشهادات والدلائل التي يذكرها المؤلِّفون والأدباء المسيحيون عن معرفة الإمام الحسين عليه السلام بمصيره من جهةٍ، وعن الحكمة من خروجه بأهله الأطهار عليهم السلام من جهةٍ أخرى، هي أحاديث وروايات قويّة وثابتة لها وجود وقيمة كبيرة في الفكر الإسلاميّ السنّي أيضاً، وهذا يعني أنّ أولئك المفكّرين والأدباء المسيحيين لم يتجاوزوا المؤلَّفات الإسلاميّة السنيّة في اعتمادهم على تلك الأحاديث والروايات المهمّة عن التنبّوء بما سيحلّ بعترة أهل بيت الرسول السّماوي الأخير صلى الله عليه وآله وسلم على وجه هذه الأرض.

وعلى سبيل المثال، فإنّ مسألة الحكمة من الخروج بأهل البيت عليهم السلام إلى كربلاء، تلك الحكمة التي ذكرها الأستاذ (بارا) هي في واقعها وأساسها حكمةٌ إلهيّةٌ أشار إليها الإمام الحسين عليه السلام نفسه قبل خروجه مباشرةً إلى كربلاء، ولم تبخل المراجع الإسلاميّة السنيّة المعاصرة بذكر ذلك نقلاً عن لسان الإمام الحسين عليه السلام.

ففي كتاب (الحسين بن علي) الذي ذكرناه في الصفحات السابقة، ينقل لنا مؤلّفه حواراً ثنائيّاً بين الإمام الحسين عليه السلام وأخيه من أبيه (محمد بن الحنفية) حول الخروج إلى أرض كربلاء، ولا يمكننا القول إلا أنّ ذلك الحوار يكشف لنا الكثير من الحقائق حول التكليف الإلهيّ للإمام الحسين عليه السلام بضرورة خروجه مع عموم أهل بيته عليهم السلام.

وبإمكان القارئ أن يستخلص هو شخصيّاً النتائج المترتّبة على نصِّ هذا الحوار الذي سنذكره الآن مباشرةً.

فأثناء تجمُّع القافلة وبدء المسير، يأتي محمد بن الحنفية (رض) إلى أخيه

(١) نفس المصدر السابق ص١٢٩.

الحسين عليه السلام مهرولاً، ويقف بين يديه مخاطباً:

ـ ألم تعدني النّظر فيما سألتك؟

فأجاب الحسين: «بلى».

فقال محمد: فما الذي حملك على الخروج عاجلاً؟

قال الحسين: «أتاني رسول الله بعدما فارقتك، وقال: يا حسين اخرج إلى العراق فإنّ الله شاء أن يراك قتيلاً مخضَّباً بدمائك».

فقال محمد متألماً باكياً: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فإذا علمت أنّك مقتولٌ فما معنى حملك هؤلاء النسوة والأطفال؟

قال الحسين عليه السلام: «ولقد قال لي جدّي: إنَّ الله عزّ وجلّ قد شاء أن يراهنَّ سبايا مُهتكات يُسَقْنَ في أسر الذلّ، وهنَّ أيضاً لا يفارقنني ما دمتُ حيّاً»[١].

وما ينطبق على هذا الحديث ينطبق على غيره أيضاً من بقيّة الأحاديث التي اعتمد عليها المفكّرون والأدباء المسيحيون واستشهدوا بها في كتبهم ودواوينهم من خلال الاعتماد المباشر على المراجع والمصادر الإسلاميّة السنيّة المتقدّمة والمعاصرة.

ومن جملة الأحاديث الهامّة الأخرى التي اعتمد عليها المفكّرون المسيحيّون في مؤلّفاتهم الفكريّة والأدبيّة هو ذلك الحديث البارز والمهمّ الذي ورد في كتاب (تاريخ الطبري) وفي غيره من المصادر المتقدّمة، والذي يأتي ذكره دائماً في المراجع السنيّة المعاصرة عند الحديث عن حادثة كربلاء والتهيّوء المسبق لها.

فالمراجع المعاصرة تنقل عن (الطبري)، وهو بدوره سنّي، قوله:

ورحل الحسين من قصر بني مقاتل، وبينما هم يسيرون إذْ سُمِعَ الحسين يقول:

---

(١) توفيق أبو علم، الحسين بن علي، مصدر سابق ص١١٨.

«إنّا لله وإنّا إليه راجعون والحمد لله ربّ العالمين»، وكرّره ـ فسأله عليٌّ الأكبر عن استرجاعه وقال له: «يا أبتِ جُعلتُ فداك، ممّ حمدتَ واسترجعت؟».

فقال الحسين وهو يزفر زفرةً طويلة: «يا بنيّ خفقت خفقة فَعَنَّ لي فارس على فرس وهو يقول: القوم يسيرون، والمنايا تسير إليهم، فعلمتُ أنّها نفسُنا نُعِيَتْ إلينا»[1].

وبالفعل، ما أنْ يصل الإمام الحسين عليه السلام بأهله الأطهار عليهم السلام وبصحبه الأخيار (رض) إلى أرض الكرب والابتلاء، حتّى يقف الإمام الحسين عليه السلام ويسأل عن اسم المنطقة التي وصل إليها، فيجيبه (زهير ابن القين):

ـ سِرْ راشداً ولا تسأل عن شيءٍ حتّى يأذن الله بالفرج، إنَّ هذه الأرض تُسمى الطَّفّ.

فقال الإمام الحسين عليه السلام: «وَهل لها اسمٌ غيره؟».

قال: تُعرف بكربلاء.

فدمعت عيناه وقال عليه السلام: «اللهمّ أعوذ بك من الكرب والبلاء، ها هنا محطّ ركابنا وسفك دمائنا ومحلّ قبورنا، بهذا حدَّثني جدّي رسول الله»[2].

فكلُّ هذه الأحاديث الهامّة والمتميّزة التي وردت في كتب إخواننا السنّة قديماً وحديثاً لعبت دوراً كبيراً في بَلوَرة الفكر المسيحيّ تجاه الكثير من المسائل الهامّة المتعلّقة بقضايا وشؤون أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام.

وبالعودة إلى الفكر المسيحيّ، بإمكاننا أن نلاحظ في كتاب (السياسة الإسلاميّة) للمستشرق الألماني (ماربين) أنّ هذا المستشرق قد أجاد تحليل ودراسة القضايا

---

(١) نفس المصدر السابق ص١٢٩.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٣٠.

الهامّة التي كانت تشغل فكر أهل البيت عليهم السلام، ورأى أيضاً أنّ الإمام الحسين عليه السلام، تحديداً، كان على معرفة مسبقةٍ باستشهاده من أجل نصرة الحقّ[١].

أمّا في ما يتعلّق بخروج الإمام الحسين عليه السلام بأهل بيته عليهم السلام لملاقاة آلاف المقاتلين من الجيش الأمويّ الباغي، فيقول عنه (ماربين):

(إنّ حركة الحسين في خروجه على يزيد إنّما كانت عزمة قلبٍ كبير عَزَّ عليه الإذعان وعَزَّ عليه النّصر العاجل، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته، ويحُيي به قضيّةً مخذولةً ليس لها بغير ذلك حياة)[٢].

وبالطبع، فالمقصود من كلام (ماربين) عن النّصر الآجل بعد موت الحسين عليه السلام، هو معرفة المسلمين لاحقاً أنَّ الحسين قد خرج بأهل بيت النبوّة ومهبط الرسالة من أجل إحياء الدّين وتخليصه من براثن الذئاب الأمويّة، في حين أنّ الأمويين ـ بفظائعهم التي سيرتكبونها بحقّ أهل البيت ـ سَتُثبت للعالم بأسره أنّهم أعداء محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأعداء الرسالة، وأنّهم أيضاً بِلا دينٍ ولا أخلاقٍ تردعهم عن ارتكاب أفظع المجازر بحقّ أهل بيت نبيّهم صلى الله عليه وآله وسلم الذي أوصى في أكثر من مناسبةٍ قائلاً ومُذكّراً:

ـ «النجوم أمانٌ لأهل السّماء، وأهل بيتي أمانٌ لأمّتي»[٣].

ـ «شفاعتي لأمّتي، مَن أحبَّ أهل بيتي»[٤].

ـ «اشتَدَّ غضب الله على مَن آذاني في عترتي»[٥].

---

(١) عبد الله العلايلي، الإمام الحسين، مصدر سابق ص٥٨.

(٢) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق ص٦٧.

(٣) الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي، إحياء الميت بفضائل أهل البيت، مصدر سابق ص٤٩.

(٤) نفس المصدر السابق ص٦١.

(٥) نفس المصدر السابق ص٦٥.

وإذا كان الفيلسوف والمستشرق الألماني (ماربين) قد علّل سبب خروج الإمام الحسين عليه السلام بأهله لمقابلة جيش يزيد اللعين، فإنّ المستشرق الإنكليزي المعروف (دوايت رونلدسن) قد أغفل في كتابه (عقيدة الشيعة) ذِكرَ خروج الإمام الحسين عليه السلام بأهله وعياله، لكنّه لم يغفل ذكر العديد من الروايات التي تقول إنّ الملائكة جاءت بتراب من بيت المقدس إلى كربلاء ليدفن فيها الإمام الحسين عليه السلام، وأنّهم هم شخصيّاً من هَيَّأ للحسين عليه السلام قبرَه قبل مقتله بألف عام[1].

وليس هناك من حاجةٍ للاستفاضة في القول إنّ العديد من المستشرقين لم يذكروا في مؤلّفاتهم ومصنَّفاتهم أيَّ شيءٍ عن النبوءات بحادثة كربلاء، ولا حتّى عن أسباب الخروج بالنساء والأطفال، وإنّما اكتفوا بوصف الفاجعة ذاتها مُركّزينَ على الأفعال الأمويّة السوداء بحقّ أهل البيت عليهم السلام، وخير مثالٍ على هذا النّوع من المستشرقين الذين نهجوا هذا النهج العلامة الفرنسي (سيديو) في كتابه الشَّيِّق (خلاصة تاريخ العرب)[2].

ولم يبتعد المستشرق الألماني المعاصر (جرهارد كونسلمان) في نهجه الفكريّ كثيراً عن نهج الأستاذ (سيديو)، لكنّه تميَّز عنه بالمرور سريعاً على مسألة معرفة الإمام الحسين عليه السلام المُسبقة بنهايته المؤثّرة على يَدِ جيش الطاغوت، وقد أورد الأستاذ (كونسلمان) تلك الحادثة عن معرفة الإمام الحسين عليه السلام بمصيره الأليم قائلاً: فيُروى أنّه (أي الحسين عليه السلام) رأى في منامه أنّ النبيّ قد ظهر له وقال: «في الليل ستكون عندنا في الجنّة، والانتقال من الحياة إلى الموت ليس مهمّاً، فالموت ينهي كلّ الآلام،

---

(١) دوايت رونلدسن، عقيدة الشيعة، مصدر سابق ص١٠٨.

(٢) العلامة سيديو، خلاصة تاريخ العرب، مصدر سابق ص٨٨.

وقد بشَّرتُك ذات يومٍ بالجنّة، كلمتي ستُعطيك ثقةً وسوف تقودك»[1]، وكان من نتيجة ذلك أنْ بكت النّساء وانتحبنَ لهذا الكلام.

وفي الحقيقة، فإنّ هذا المستشرق الألماني المعاصر لم يَنفِ ولم يستبعد قصّة الرؤيا التي شاهدها الإمام الحسين عليه السلام قُبيل استشهاده، وإنّما أوردها في كتابه (سطوع نجم الشيعة) كجزءٍ طبيعي من نسيج وسياق الفاجعة المرتَقَبة على أرض كربلاء.

فالحلم أو الرؤيا لها دورٌ أساسيٌّ في حياتنا اليوميّة، فما نشاهده في النّوم قد يكون مرتبطاً بخبرات الماضي البعيد، ولكن بنفس الوقت، قد يكون مرتبطاً بكشف غيب المستقبل سواءً بطريقة الاستبصار أم بطريقةٍ أخرى لم يكتشفها علم النّفس بعد.

وها هو الباحث النفسيّ المعاصر (جون كيهو) ينقل لنا في كتابه (العقل الباطن) مقولةً هامّةً لِعَالِمِ النّفس الشهير (كارل يونغ)، صاحب نظرية اللاوعي الاجتماعي، يقول فيها عن حقيقة الأحلام ما يلي:

(تُبيّن لكم الأحلام أين أنتم، والطريق الذي تسلكونه، وتفتح أمامكم صفحة قَدَرِكم المكتوب)[2].

ولو أردنا أن نقفز الآن فوق عالم الاستشراق من أجل الوصول إلى عالم الفكر المسيحيّ المعاصر في الشرق، فماذا عسانا نجد فيه من علوم ومعارف عن عوالم النبوءات والرؤى حول الخروج بالأهل والعيال إلى ساحة الشهادة المقدسة فوق الرمال التي تنتظر أن تُروى بدمائهم الطاهرة بدل أن تُروى من ماء الفرات؟!

---

(١) جرهارد كونسلمان، سطوع نجم الشيعة، مصدر سابق ص٥٧.

(٢) جون كيهو، العقل الباطن، ترجمة: د. مصطفى دليلة، دار الحوار. اللاذقية، ٢٠٠١، ص٧١.

قبل كلّ شيءٍ، يرى المفكّر والأديب المسيحيّ اللبناني (سليمان كتّاني) في كتابه (الإمام زين العابدين عنقود مرصّع) أنّ الغدر الدائم بأهل بيت النبيّ الكريم ﷺ سِمةٌ بارزةٌ عن البيت الأمويّ الذي ما برح يدبّر المكائد والدسائس والفتن للتخلّص الكامل والنهائي من كلّ أفراد البيت المحمديّ الرساليّ[1].

وعلى الرغم من كلّ تلك الفتن والمكائد الخسيسة التي حاكتها الأيادي الأمويّة الآثمة، فقد قرّر الإمام الحسين عليه السلام الخروج بأهله وعياله لإقامة الحجّة الإلهيّة البالغة، ليس على الأعداء فحسب، بل أيضاً على كلّ مسلمٍ سمع بخروجهم لطلب الحقّ وإنقاذ الرسالة ولم ينصرهم ويشدّ من أزرهم.

ويرى الأستاذ (كتاني) أيضاً أنّ إرادة الإمام الحسين عليه السلام جزءٌ لا يتجزّأ من إرادة الله سبحانه وتعالى، فالحسين عليه السلام كان محقّاً تماماً عندما عَبّرَ عن إرادة الله الحكيم الخبير بقوله لأخيه الحبيب محمد بن الحنفيّة عليه السلام قبل الخروج:

«أتاني منذ لحظةٍ رسولُ الله وقال لي: يا حسين اخرج، فإنّ الله قد شاء أن يراك قتيلا ـ وإنَّ الله قد شاء أن يرى نسائي سبايا»[2].

فالرؤيا، بشكلها الأشمل، وبمضمونها ومعناها الأعمق، تحمل في ذاتها ـ كما يقول عنها المفكّر والفيلسوف الفرنسيّ (روجيه غارودي) ـ بذورَ الثورة بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى، أي أنّها تغيير الإنسان بشكلٍ كاملٍ وشامل[3].

ولا ريب في أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يمتلك رؤيا غيبيّة شاملة المعاني ومتعدّدة الأبعاد، ولذلك فعندما يقول عليه السلام قُبيل خروجه بوقتٍ قصيرٍ: «رأيت رؤيا

---

(١) سليمان كتاني، الإمام زين العابدين عنقود مرصّع، مصدر سابق ص١٤٨.
(٢) سليمان كتاني، الإمام الحسين في حلّة البرفير، مصدر سابق ص١٥١.
(٣) روجيه غارودي، الإسلام دين المستقبل، مصدر سابق ص١٦٨.

فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وأُمِرتُ فيها بأمرٍ أنا ماضٍ له»[١]، فعندما يقول الإمام الحسين عليه السلام هذا الكلام، فهو لا يقصد مجرّد الرؤيا التي تأتي الإنسان في حالة النّوم فقط، بل يعني أيضاً تلك الرؤيا القلبيّة الإشراقيّة التي تتجلّى للنّفس الطاهرة النقيّة الجوهريّة بشكل صورٍ حيّةٍ مثلما تتجلّى الصور والحركات على صفحة المرآة الصقيلة والصافية.

وإذا كان الفكر المسيحيّ المعاصر قد رأى في الإمام علي عليه السلام صورة الإمام الجامعِ لصفات الرسل والأنبياء عليهم السلام، وأنّ الإرادة الكونيَّة ـ كما يقول المفكّر (جورج جرداق) ـ هي التي شاءت أن يكون الإمام علي عليه السلام شيئاً من ذات الرسول[٢]، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام، بالنسبة للكثير من المفكّرين والأدباء المسيحيين، هو الوارث أيضاً لكلّ صفات وخصال الإمام علي عليه السلام، وبالتالي هو أيضاً وريثٌ شرعيٌّ لكلّ رسولٍ ونبيٍّ ووصيّ.

وقد رأينا، سابقاً، كيف أنّ الأديب والشاعر المسيحيّ (جورج شكّور) قد عَبَّرَ خيرَ تعبيرٍ في ديوانه (ملحمة الحسين) عن الإرث الحسينيّ العظيم، بقوله:

أَمَا (الحسينُ) وريثٌ (للعليِّ) فَتَى ... الفتيانِ، مَنْ نَهجُهُ في السرِّ أَسرارُ؟

وها هو الآن يكمل حديثه الرقيق عن الإرث العظيم الذي ورثه الإمام الحسين عليه السلام عن جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله أيضاً، وكيف أنّ ذلك الجدَّ المبعوث برسالة السّماء قد تراءى له في المنام وقد أمره بالخروج إلى كربلاء سريعاً لأنَّ أهل السّماء قد اشتاقوا إلى لقائه القريب حالما يتحوّل إلى (ذبيحةٍ مظلومةٍ لله عند شطِّ الفرات)، حيث تكون

(١) محمد رضا، الحسن والحسين، سيّدا شباب أهل الجنّة، مصدر سابق ص١١٧.

(٢) جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانيّة، منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت، ١٩٧٠، ج١ ص٦٥.

دماؤه الطاهرة الزكيّة معراجه للقاء جدّه المصطفى ﷺ وأبيه المرتضى عليه السلام وأمّه البتول الزاهرة عليها السلام وأخيه المجتبى عليه السلام وكلُّ الأحبّة والأهل الذين رَفعتهم دماؤهم المبذولة وأنوارُ جواهرهم المصقولة إلى قدس الأقداس حيث لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت.

والآن، دعونا نستمع سويّةً إلى هذا الأديب المسيحيّ (جورج شكّور) وهو يقول:

سَار (الحسين) إلى تُرب النبيِّ تُقى مُستلهِماً سرَّه، للقَبر إسرارُ
صلّى مليّاً، فأغفى، رَاوَدَتْهُ رُؤًى أنْ جدَّه قال، ما في القول إضمارُ
إنّي أراك ذبيح (الطَّفِّ) مُنطَرِحاً في (كربلاءَ)، ومنك الدم فَوّارُ

وهنا ينتقل الشاعر إلى وصف الإرادتَين المتكاملتين في ضرورة طلب الشهادة من أجل إعلاء راية الحقّ والنّور فوق الدروب المرسومة بالدّماء صعوداً إلى ممالك السّماء ومَوَاطن الأنوار.

فالإرادة المحمديّة تخاطب الحسين عليه السلام بالقول (أَقْدِمْ، حسين)، فيأتي الردُّ من الإرادة الحسينيّة هادئاً مطمئناً بالقول (مشيناها خُطىً كُتِبتْ)، وهنا تجتمع الإرادتان لِتَتَوحّدا في ظلال الأمر الإلهيّ الذي شاء أن يقيم الحجَّة على الأمّة بعد أن يرى الإمام الحسين عليه السلام قتيلاً مُضرَّجاً بدمائه دون معينٍ ولا ناصرٍ من الأمّة التي ترجو شفاعة جدّه المصطفى ﷺ يوم الحساب، وها هو الأستاذ (شكّور) يتابعُ قائلاً عن دعوة الرسول ﷺ:

أَقْدِمْ، (حسينُ)، حبيبي، أهلُك اشتعلوا شوقاً إليك، غَدا للشوق أبصارُ
مَدارجُ الجنَّةِ العليا تَوَزَّعُها روحُ الشهيد، وَأبرارٌ وأطهارُ

قال (الحسينُ): (مَشيناها خُطًى كُتِبَتْ) إلى الجهـــاد، وإلا هَـــدَّنا العـــارُ[(١)]

لقد استطاع هذا الشاعر المُحلِّق أن يختصر قولَ الكثير من خلال هذه الأبيات الشعريّة القليلة، وهنا يكمن وجه من وجوه الإبداع في عمليّة الصناعة الشعرية حيث يمكن إعطاء الكثير من المعاني والصور في أقلِّ عددٍ ممكنٍ من الكلمات والتعابير.

ولا أعتقد أنَّ هناك مَن يختلف معنا في أنَّ هذا الكلام ينطبقُ أيضاً على الشاعر (بولس سلامة) الذي استطاع أن يبرهن لنا أنّ الشعر رسالةٌ وأنَّ الشاعر الحقيقيّ هو ذلك الإنسان الذي يتحوّل إلى رسول للفكر يحمله على أجنحة البيان والصور والموسيقى إلى عقول النّاس وأفئدتها.

وكما ذكرنا مِراراً، فإنّ شاعرنا (سلامة) ليس مجرّد شاعرٍ فحسب، بل هو أيضاً أديبٌ مبدعٌ تشهد له مؤلّفاتهُ بذلك، ولذلك، فعندما يحدّثنا هذا الأديب والشاعر عن أحداث كربلاء، فإنّنا نلاحظ بوضوحٍ كيف أنّه يقدّم مادتّه الفكريّة للقارئ بطريقتين ممتعتين: طريقة الرواية النثرية، وطريقة الرواية الشعرية.

ولذلك، فإنّ مسألة تنبّوء أهل البيت عليهم السلام بما سيحلّ بهم عموماً، وبالإمام الحسين عليه السلام خصوصاً، هي مسألة هامّةٌ جدّاً في فكر الأديب والشاعر (سلامة)، وبالتالي فهي تستحقّ أن تُنقَل إلى القارئ بالطريقتين اللتين أشرنا إليهما، الطريقة النثرية والأخرى الشعرية.

وها هو يحدّثنا نثراً عن تلك المسألة، فيقول بلسانٍ مليءٍ بالثقة والصدق واليقين، مُصَوِّراً وصول الإمام الحسين بأهله عليه السلام إلى أرض كربلاء:

---

(١) جورج شكور، ملحمة الحسين، طبع شركة ساب إنترناسيونال. بيروت، ط١/٢٠٠٣، ص١٥ + ١٦.

(فقال (أي الحسين عليه السلام): ما اسم هذه الأرض؟ فقيل: كربلاء، قال: هذا موضع كرب وبلاء، انزلوا، ها هنا محطّ ركابنا، وسفك دمائنا، وهنا محلّ قبورنا، بهذا حدَّثني جدّي رسول الله، فصرخت زينب أخت الحسين: واثكلاه!!

ينعى الحسين نفسَه، ليت الموت أَعدَمني الحياة، ماتت أمي فاطمة، وأبي، وأخي الحسن، ولم يبقَ غيرك يا خليفة الماضين وثمال الباقين... فقال الحسين: تَعَزّي يا أختاه بعزاء الله، فإنَّ سكّان السّماوات يفنون وأهل الأرض كلّهم يموتون.

ثمّ قال: يا أختاه، يا أمّ كلثوم، وأنت يا زينب، وأنت يا فاطمة، وأنت يا رباب، انظرنَ إذا أنا قُتِلتُ فلا تشقَّنَّ عليّ جيباً ولا تخمشنَ وجهاً ولا تَقُلْنَ هجراً)[١].

وكما ذكرنا منذ قليل، فإنّ الأديب (سلامة) لم يكتفِ بذكر النبوءة نثراً، بل راح يؤكّد للقارئ وقوعها وذلك من خلال إعادة صياغتها شعراً وتقديمها إليه بأسلوبٍ جديدٍ يدخل إلى العقول والقلوب ويتغلغل فيهما ويداعبهما مثلما تتغلغل وتداعبُ النّسيماتُ اللطيفة الناعمة أوراق شجر الغار والحور والسنديان.

إذنْ، دعونا الآن نستمع إليه وقد نقل لنا نفس الفكرة السابقة ولكن بأسلوبه الشعري المميَّز، وهو الآن يصوّر وصول الإمام الحسين عليه السلام إلى أرض كربلاء التي سَترتوي من دمه ودم أهل بيته عليهم السلام قريباً:

قال: ما هذه البقاع؟ فقالوا: ... كربلاء، فقال: وَيحَكِ دارا
ها هنا يشرب الثرى من دمانا ... ويُثيرُ الجمادَ دمعُ العذارى
بالمصير المحتوم أَنبأني جَدّي ... وهيهات أدفع الأقدارا[٢]

---

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق ص٢٥٠.
(٢) نفس المصدر السابق ص٢٥١.

إنّها الحكمة الإلهيّة التي تأبى أن تتكشَّف عنها كلّ الأستار والحجب حتّى يدرك الإنسانُ العاجزُ العمقَ الكامل والبُعدَ الحقيقيّ وراء تلك الحكمة التي جعلت الأقدار المقترنة بالأسباب تقود الإمام الحسين وأهله وعياله عليهم السلام إلى مذبح الحبّ الإلهيّ العظيم.

فيَا لله!! ما هذا الحبّ الإلهيّ الذي يقود المحبَّ إلى الذّبح؟!

أَليس هذا الحبّ أيضاً هو الذي قاد معظم الرسل والأنبياء والأوصياء والأولياء إلى نفس المصير؟!

ألم يكن سيّدنا إسماعيل عليه السلام قاب قوسين أو أدنى من حدِّ السّكين من أجل حُبِّ الله ومرضاته، وعدم الخروج عن إرادته وحكمته الخفيّة؟!

لقد صدق فيلسوف الباكستان وشاعرها الأعظم (محمد إقبال) عندما أوجز الكلام في ذلك شعراً، فقال:

في الكعبة العليا وقصّتها ... نَبَأٌ يفيض دماً على الحَجَرِ

بدأت بإسماعيل عِبْرَتُها ... ودَمُ الحسين نهاية العِبَرِ(١)

نعم، والله، فَدَمُ الحسين وأهل بيته عليهم السلام نهايةُ العِبَرِ وأَبْلَغُها وغايتُها.

بل، هل هناك عبرةٌ أعظم من أن يُقتل الإمامُ الحسين عليه السلام بسيوف أُناسٍ يمزّقون جسدَه الشريف إرباً إرباً ويرجون دخول الجنّة غداً على يَديّ جدِّه صلى الله عليه وآله يوم الحساب!!

(١) لبيب بيضون، خُطَب الإمام الحسين عليه السلام على طريق الشهادة، مصدر سابق ص٢٣١.

نبوءات الأنبياء عليهم السلام بفاجعة كربلاء

رأينا في الفصل السابق من هذا الكتاب كيف أنّ أهل البيت عليهم السلام قد تحدّثوا عن المآسي الدامية التي ستشهدها أرض كربلاء، وكيف أنّ تلك الأرض سترتوي من دماء الإمام الحسين عليه السلام ومن دماء نسائه وأطفاله عليهم السلام وأصحابه الكِرام الذين سيثبتون معه حتّى النهاية وكأنّهم أُسودٌ تدافع عن حرمة عرينها غير خائفين من بريق السيوف ولا وجلين من كثرة مشاهد الدّماء المتُماهية مع صوت صراخ أطفال الحسين عليه السلام، فلا يزيدهم ذلك إلا إيماناً بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يزيدهم إلا إصراراً على إثبات حقّ الحسين عليه السلام في الخروج من أجل طلب الحقّ في أمّة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وإعلان الثورة على شيطان وفرعون العصر يزيد بن معاوية، سليل شجرة الغدر والفجور.

أمّا الآن، فإنّنا سنتوقف مَليّاً عند الرسل والأنبياء عليهم السلام ونُبوءاتهم الإلهيّة التي أوحاها الله سبحانه وتعالى إليهم عن طريق وحيه الأمين جبرائيل عليه السلام الذي كان يخبر كلّ نبيٍّ ورسول بما سيحدث لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم ولِذُرّيّته الطاهرة المقدّسة من بعده، وكيف سيرتبط خلود ذكر تلك الذُّرّيّة بدموعهم المسكوبة وبدمائهم المسفوحة تحت رايات التوحيد الإلهيّة والمبادئ والقِيم الرساليّة السماويّة.

ولا ريب في أنّ مصير الإمام الحسين عليه السلام وما سيحلّ به وبأهل بيته من نساءٍ وأطفال كان هو المشهد الأكثر تأثيراً والأعمق أَلَماً وهمَاً في قلوب ونفوس أمناء رسائل السّماء إلى أهل الأرض.

وقبل أن ندخل في جوهر بحثنا الآن، علينا أن نذكر دائماً أنّ هناك الكثير، بل الكثير جدّاً، من المفكّرين والأدباء الذين ينتمون إلى أديانٍ أخرى غير الدّين الإسلاميّ، يحترمون ويُبجّلون أهل بيت النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله كثيراً حتّى أنّك لَتحسبهم من أتباعهم وأشياعهم المخلصين ومن جنودهم الصادقين الصابرين.

وربّما كان أهمّ عاملٍ من عامل محبّتهم لأهل البيت عليهم السلام وتعلّقهم بهم هو التعاطف الوجدانيّ الناتج عن الكوارث القاسية والأليمة التي أنشبتْ أظفارها الحادّة في وجوه أفراد تلك الذريّة الطاهرة التي لم يكن لديها أيُّ همٍّ إلا العمل على ترسيخ قِيَمِ الحقّ والخير والفضيلة في مملكة الإنسان التائه الذي كان يبحث عن واحةٍ ظليلةٍ يلتجئ إليها هَرباً من رمضاء القِيَمِ الجاهليّة والاعتقادات الوثنيّة الغريبة التي تتعارض مع طبيعة الفطرة السليمة.

فالإسلام الذي نادى به الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله، وأهلُ بيته الكرام عليهم السلام من بعده، هو الدّين القائم على تحرير الإنسان من عبوديته لكلّ شيءٍ إلا لله ذاته فقط، فبقدر ما يكون الإنسان مُستهلِكاً ذاتَه في خدمة سيّده الأوحد جلَّ وعلا، بقدر ما يكون حُرَّاً طليقاً من كلّ القيود والأصفاد التي تربطه بعبوديته للكثير من الأوثان والأصنام الدنيوية القادرة حقّاً على اجتذابه واستعباده بعد أن يسلّم زمام أموره إلى النّفس المسوّلة أو إلى شقيقتها النّفس الأمّارة بالسّوء.

فالشاعر والفيلسوف الألمانيّ الشهير (يوهان غوته) (١٧٤٩ـ ١٨٣٢م) أدرك هذه الحقيقة عن الإسلام، بل أدرك الكثير من الحقائق عن طبيعة الرسالة الإسلاميّة وعن الدّور العظيم الموكَل إلى أهل بيت النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله، فأهل البيت عموماً، وعلي وفاطمة عليهما السلام خصوصاً، هم الأيادي الطاهرة التي استلمت رسالة السّماء وحوّلتها إلى

عبير عطر يمتدّ بشذاه الزكيّ إلى كلّ النّاس في كلّ زمانٍ وكلّ مكانٍ.

وقد وضع هذا الشاعر الفيلسوف مسرحيةً شعريّةً على لسان علي وفاطمة عليهما السلام يُظهر فيها قوّة النبيّ الروحيّة وإيمانه العميق بالغيب، ويُظهر فيها أيضاً تفاعل كلّ الكائنات والموجودات معه ومع رسالته القادمة من عمق الأزل لتكون خاتمةً للرسالات السّماوية الأخرى التي سَبَقَتْها ومعراجاً للإنسان إلى مدارج الصفاء والكمال.

وقد اختمرت هذه الفكرة النَّيِّرة في ذهن (غوته) المتَّقدِ حبّاً وإعجاباً بمحمد خاتم الرسل والأنبياء عليهم السلام وبأهل بيته عليهم السلام الذين أكملوا ما بدأه من نشرٍ للمبادئ الإنسانيّة المُثلى، وأقدموا على بذل أغلى ما يملكونه من أجل تحقيق ذلك كلِّه.

وبالفعل، فقد وضع (غوته) مشروع تلك المسرحيّة الشعريّة، فبدأ روايته للأحداث بنشيد ينشده محمد صلى الله عليه وآله في الليل تحت قبّة السّماء المرصعة بالنجوم المتلألئة شاعراً بنفسه الشفّافة تسمو إلى عوالم السماء وحُجُب الغيب فيكاشف زوجته الطاهرة خديجة (رض) بذلك فتؤمن به حالاً، ثمّ في الفصل الثاني يُناصره الإمام علي عليه السلام بالدّعوة إثر إيمانه المباشر بها، ثمّ يناوئه الخصوم والأعداء فيضطّر إلى الرحيل والهجرة، وفي الفصل الثالث ينتصر محمد صلى الله عليه وآله ويطهّر الكعبة من كلّ الأوثان، وفي الفصل الرابع يتابع محمد المصطفى صلى الله عليه وآله نشر دعوته السّماوية، أمّا في الفصل الخامس فيبلغ فيه محمد صلى الله عليه وآله أوجَ الكمال وتتجلّى عظمته الروحيّة.

ولكن ـ وللأسف الشديد ـ بقيت هذه المسرحيّة الشعريّة عند حدود المشروع[1]، ولم تسعفه الظروف في تحقيق هذا المشروع المميَّز ممّا أدّى به إلى الوقوف عند

(١) جميل جبر، من الأدب الألماني، دار الريحاني للطباعة والنشر. بيروت، د.ت، ص١٧.

حدود وضع المقدمة والخطوط العريضة فقط.

وليس هذا بالغريب عن (غوته)، فمن المعروف عنه أنّه عَنيَ بالشرق والإسلام منذ صباه، فَتَغنّى بروائعه ولاسيّما اللغة العربيّة، وقد اهتمّ خصوصاً بشخصيّة النبيّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبأهل بيته الذين آزروه وبذلوا له يدَ العون في مختلف مراحل رسالته، وقد دافع أيضاً عن قداسة القرآن ووقف ضدّ الأقوال التي كان يردّدها بعض الغربيّين بشأن كتاب المسلمين[(١)].

وما أريدُ أن أقوله الآن، بعد هذا الحديث عن الفيلسوف والأديب الألماني (غوته)، هو أنَّ الدّارس والمحلِّل لمؤلفات هذا الأديب العملاق يستطيع أن يستخلص فكرةً هامةً جدّاً عن رؤيته للإسلام، فالذي يقرأ ما كتبه (غوته) أو ما كُتب عنه بشكلٍ دقيقٍ ومُفَصَّلٍ، مثلما فعلتْ الباحثة الألمانية المعاصرة (كاتارينا مومزن)، أستاذة الأدب الألمانيّ في جامعة استانفورد الأمريكية، سيخرج بنتيجةٍ هامّةٍ مَفَادها أنّ (غوته) يؤمن إيماناً حاسماً بأنّ الإسلام عميقٌ في وجوده وجوهره، فهو يمتدّ إلى ما قبل ظهور محمد صلى الله عليه وآله وسلم كرسول أرسلته إرادة السّماء محمَّلاً برسالة الإسلام، فالإسلام بالنسبة للفيلسوف (غوته) هو دين الإنسان المرافق لوجوده القديم على الأرض، ولذلك فهو ممتدٌّ في جذوره إلى عمق الوجود الإنسانيّ حتّى قبل ظهور النبيّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبالتالي، فإنّ (غوته) لا يتردّد في القول خلال مؤلّفاته العديدة: (إنّنا أجمعين نحيا ونموت مسلمين)[(٢)].

وبالطبع، فهو عندما يؤكّد في قوله (إنّنا أجمعين)، فهو لا يقصد بذلك الإنسان

---

(١) نفس المصدر السابق ص١٥.

(٢) كاتارينا مومزن، غوته والعالم العربيّ، ترجمة: الدكتور عدنان عباس علي، (سلسلة عالم المعرفة)، العدد ١٩٤، إصدار المجلس الوطني للثقافة. الكويت. شباط ١٩٩٥ ص١٧٧.

الألماني أو الإنسان الأوروبي، بل يقصد بذلك الإنسانَ عموماً في القديم والحاضر والمستقبل وفي شتّى بقاع الأرض طالما عند ذلك الإنسان بذورُ الإيمان بما جاء به الرسول المصطفى ﷺ بشكله الأكمل والأشمل.

وإذا كان هذا هو حال شاعر وفيلسوفٍ استطاع أن يكتشف شيئاً من عالميّة الإسلام وعن عمق وجوده الزمنيّ والروحي وهو مجرّد شاعرٍ وفيلسوفٍ مبدعٍ، لكنّه غير مؤيَّدٍ باستبصارٍ نبويٍّ، أو غير قادرٍ على كشف بعض حجب الغيب كالرسل، فما بال الرسل والأنبياء الذين استطاعوا أن يتحدّثوا عن الرسالة العالميّة للشريعة الإسلاميّة وعن إنسانيّة مبادئها وعن رموزها المقدّسة التي ستلاقي الكثير من الأهوال والمصائب في سبيل نشرها وجعلها الجناح الدافئ الذي يحتمي به كلّ المؤمنين والمستضعفين وطُلاب الحقيقة الخالدة أيّاً كان لونهم أو عرقهم أو وطنهم؟!

ومن هنا نستطيع الآن أن نبدأ رحلتنا مع حديث الرسل والأنبياء عليهم السلام عن أحد رموز الرسالة الإسلاميّة، ذلك الرمز الذي فجّر ثورةً روحيّةً حقيقيّةً في ضمير الإنسان والأديان.

دعونا الآن، إذنْ، نبدأ حديثنا عن الإمام الحسين عليه السلام وثورة كربلاء التي أبى الأعداء إلا أن يجعلوا منها نهراً من الدّماء يسير جنباً إلى جنب مع نهر الفرات.

ولنسأل أنفسنا هنا:

هل كان النبيّ آدم عليه السلام، أبو الأنبياء جميعاً عليهم السلام، على علم ومعرفةٍ بما سيحدث للإمام الحسين عليه السلام سبط آخر نبيٍّ من أنبياء الله؟!

وهل هناك من علاقةٍ قديمةٍ ذات طابعٍ نورانيٍّ بين آدم عليه السلام أوّل الأنبياء وبين أهل بيت آخر الأنبياء عليه السلام؟!

ثمّ، ما تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١)؟! وما هي حقيقة تلك الكلمات الإلهيّة؟!

في الحقيقة، إنَّ مفتاح الإجابة على كلّ هذه الأسئلة هو تفسير هذه الآية القرآنية الكريمة كما ورد في كتب العلماء من إخواننا السنّة، فالعلاقة المباشرة بين آدم عليه السلام والكلمات الإلهيّة التي كانت السبب الأكيد في توبة الله سبحانه وتعالى عليه هي بوابة العبور إلى جوهر بحثنا.

فقد جاء في كتاب (ينابيع المودّة) للعلامة الكبير الشيخ (سليمان القندوزي الحنفي)، وفي غيره من كتب السنّة المعتَبرة، أنّ الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد فسَّر الآية الكريمة المذكورة عن آدم عليه السلام بقوله أمام الملأ من النّاس:

«يا عباد الله، إنَّ آدم عليه السلام لمّا رأى النّور ساطعاً من صلبه إذْ كان الله تعالى نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره (ظهر آدم) رأى النّور ولم يتبيّن الأشباح، فقال: يا ربّ، ما هذه الأنوار؟

قال: أنوار أشباح نقلتُهم من أشرف بقاع العرش إلى ظهرك، ولذلك أَمرتُ الملائكة بالسجود لك إذْ كنت وعاءً لتلك الأشباح.

فقال آدم عليه السلام: يا ربّ، لو بَيّنتَها لي، فقال الله عزّ وجلّ: انظر يا آدم إلى ذروة العرش، فنظر آدم عليه السلام ووافع أنوار أشباحنا من ظهر آدم عليه السلام على ذروة العرش، فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا، فقال: ما هذه الأشباح يا ربّ؟ قال الله تعالى: يا آدم هذه الأشباح أشباح أفضل خلائقي وبريّاتي، هذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنا المحمود في أفعالي، شققتُ له اسماً من اسمي، وهذا علي، أنا العليّ العظيم، شققتُ له اسماً من

(١) سورة البقرة: الآية ٣٧.

اسمي، وهذه فاطمة وأنا فاطر السّماوات والأرض، فاطم أعدائي من رحمتي يوم فصل القضاء، وفاطم أوليائي ممّا يبيرهم ويشينهم، شققتُ لها اسماً من اسمي، وهذا الحسن وهذا الحسين وأنا المحسن المجمل ومنّي الإحسان شققتُ اسميهما من اسمي وهؤلاء خيار خلقي وكرائم بريّتي، بهم آخذُ وبهم أعطي، وبهم أعاقب وبهم أثيب، فتوسَّلْ بهم إليَّ يا آدم، وإذا دَهَتكَ داهيةٌ فاجعلهم شفعاؤك فإنّي آليت على نفسي قَسَماً لاحقاً لا أخيّب لهم آمِلاً ولا أردّ لهم سائلاً، فذلك حين صدرت منه الخطيئة دعا الله عزّ وجلّ فتاب عليه وغفرَ له»[١].

إذنْ، هناك معرفةٌ مسبقةٌ في عوالم الأنوار بين آدم عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام، وبالتالي، ليس من الغريب أن يعرف آدم عليه السلام الكثير عن أفراد ذلك البيت النبويّ المقدّس والذين يمثّلون تلك الكلمات الإلهيّة التي تلقّاها من ربّه فتابَ بها عليه.

وقد جاء في الأثر الصحيح في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ**...﴾[٢] أنّ آدم عليه السلام رأى ساق العرش وأسماء النبيّ والأئمّة عليهم السلام فلقّنه جبريلُ قُلْ: يا حميد بحقّ محمد، يا عالي بحقّ علي، يا فاطر بحقّ فاطمة، يا محسن بحقّ الحسن والحسين ومنك الإحسان.

فلمّا ذكر الحسينَ سالت دموعه وانخشع قلبه، وقال: يا أخي جبريل، في ذكر الخامس ينكسر قلبي وتسيل عبرتي؟!

قال جبريل: ولَدُكَ هذا يُصاب بمصيبة تصغر عندها المصائب، فقال: يا أخي، وما هي؟

(١) العلامة الشيخ سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، مصدر سابق ج١ ص٩٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ٣٧.

قال: يُقتَلُ عطشان غريباً وحيداً فريداً ليس له ناصرٌ ولا معينٌ، ولو تراه يا آدم وهو يقول: واعطشاه.. واقلّة ناصراه.. حتّى يحَول العطشُ بينه وبين السّماء كالدّخان، فلم يُجِبْهُ أحدٌ إلا بالسيوف، وشرب الحتوفِ، فيُذبَحُ ذبح الشاة من قفاه، وينهبَ رحلَه أعداؤه، وتُشهَّرُ رؤوسهم هو وأنصاره في البلدان ومعهم النسوان، كذلك سَبَقَ في علم الواحد المنّان، فَبكى آدم وجبريل بُكاءَ الثكلى[1].

هذا ما كان من شأن سيّدنا آدم عليه السلام وعلاقته بكلمات الرحمة والمغفرة،ومعرفته المُسبقة بما سيحدث للإمام الحسين عليه السلام على بطاح كربلاء، فَمَنْ مِنَ الأنبياء كان على اطّلاعٍ أيضاً على مصير سيّد الشهداء عليه السلام في كربلاء؟!

إنّه النبيّ نوح عليه السلام، نعم، لقد كان نوح عليه السلام من العارفين بأحداث ملحمة الخلود التي سيكون بطلها سبط النبيّ محمد صلى الله عليه وآله أوّل خلق الله وخاتم رسله.

ومن المعروف عن نبيّ الله نوح عليه السلام أنّه كان من أولي العزم من الرسل، وقد مكث في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، صابراً على أذاهم، صامداً أمام كفرهم وحماقاتهم، وما كانوا ليزدادوا على مرِّ الأيام إلا كفراً وعتوّاً، ولمّا رأى أنّ الله قد حقَّتْ كلمته، وقضى وحيُه أنّه لن يؤمن أحدٌ بعد، نفذ صبر نوح عليه السلام وتوسّل إلى الله أن لا يبقي على الأرض من كفّار قومه ديَّاراً.

فاستجاب الله دعاءَه وأوحى إليه أن يصنع الفلك العظيم، فسارع نوح واتّخذ مكاناً قصيّاً عن المدينة وبدأ العمل وسط سخرية القوم واستهزائهم، خاصةً وأنّ مكان صناعة تلك السفينة العظيمة كان بعيداً عن البحار والأنهار التي ستحملها على سطوح أمواجها فور الانتهاء من صنعها.

---

(١) توفيق فتح الله، عاشوراء وكلمات خالدة، انتشارات لاله كوير . يزدْ، ١٤٢١هـ، ص٦.

وبعد أن أوحى الله إلى نوح ما أوحى، تفتَّحت أبواب السّماء بالماء، وتفجّرت عيون الأرض، وبلغ السيل المخيف قمم الربى والجبال، وفي ذلك الحين كان نوح عليه السلام ومَن معه داخل السفينة في مأمنٍ من غضب الله وغضب الطبيعة.

ولمّا بلغ الشّوط غايته، وأصبح قوم نوح عليه السلام من الغابرين، أمسكتْ السّماء ماءها، وابتلعت الأرض ما تبقّى منه على وجهها، وكان لا بدّ قبل ذلك بقليلٍ أن ترسو سفينة نوحٍ في مكانٍ جديدٍ لتبدأ صفحةً جديدةً من صفحات الحياة على اليابسة، فما الذي حدث، وكيف استوت السفينة على جبل الجودي؟!

فالذي حدث وقتذاك هو أنَّ نوحاً عليه السلام لمّا ركب في السفينة طافت به الكثير من الأماكن والأصقاع، ولمَّا مرَّت به بكربلاء أخذتْه الأرض وخاف نوحٌ وقتها الغرقَ، فدعا ربَّه، وقال: إلهي، طفتُ جميع الدنيا وما أصابني فزعٌ مثل ما أصابني في هذه الأرض، فنزل جبرائيل عليه السلام وقال: يا نوح، في هذا الموضع يُقتَلُ الحسين عليه السلام سِبطُ محمد خاتم النّبيين وابن خاتم الأوصياء، فقال: ومن القاتل له يا جبرائيل؟

قال: قاتلهُ لعين أهل سبع سماوات وسبع أرضين، فلعنه نوح أربع مرَّات فَسارتْ السّفينةُ حتّى بلغت الجوديّ واستقرَّت عليه[1].

---

(١) يرجى الرجوع إلى:

أ. المصدر السابق نفسه ص٧.

ب. المنبر الحسيني، العدد الثاني، إصدار دار السيدة زينب الثقافية. بيروت، عدد آذار، ٢٠٠١، ص٢٨، وقد ورد في هذا المصدر أيضاً حديث ذو طابع رمزي يوحي لمن يَطّلع عليه أنّ لسفينة نوح عليه السلام معنىً مجازياً رمزياً بالإضافة إلى معناها الحقيقيّ والمباشر، فقد روى (أنس بن مالك) عن النبيّ صلى الله عليه وآله حديثاً مطوّلاً يرمز من خلاله إلى أنّ أهل البيت المطهّرين عليهم السلام هم أمان السفينة إذ لا أمان ولا سفينة دونهم، فهُم. تبعاً لتحليل رموز ذلك الحديث النبويّ الشريف. عينُ استمرار الحياة وهم سفينة النجاة، وجاء في نفس الحديث النبويّ الشريف أيضاً أنّ نبيّ الله نوحاً عليه السلام تعرّف على قصّة الحسين عليه السلام وملحمته الدّامية في

وعلينا أن ندرك هنا أنَّ للرّمز دوراً هامّاً في قصّة سفينة نبيّ الله نوح عليه السلام، وعلينا أيضاً أن نربط أحداث هذه القصّة القرآنيّة مع الحديث النبويّ الشريف الذي تتناوله كتب المسلمين عموماً، وحتّى كتب بعض المفكّرين والأدباء المسيحيين أيضاً، إنّه ذلك الحديث النبويّ المشهور الذي ردّده الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في أكثر من مناسبةٍ قائلاً: «مَثَلُ أهل بيتي مثل سفينة نوحٍ مَن ركب فيها نجا، ومَن تخلّفَ عنها غرق»(١).

وسنترك أمر الدراسة التحليليّة المفصّلة واستخلاص النتائج للقارئ اللبيب عساه أنْ يصل إلى شيءٍ من الأسرار الثمينة والكنوز الدفينة.

وقبل أن نورد الآن النبوءة التي تلقّاها سيّدنا إبراهيم خليل الله عليه السلام عن جبرائيل عليه السلام حول فجيعة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم بسبطه الحبيب الإمام الحسين عليه السلام، دعونا نتكلّم قليلاً عن هذا النبيّ العظيم عليه السلام.

وُلد النبيّ إبراهيم عليه السلام في بلدة فدام آرام في الدولة البابليّة(٢) زمن الملك الضّال

الوقت الذي كان يبني فيه سفينتَه قبل الطوفان وقبل أن تمرَّ فوق أرض كربلاء، وأنّ الذي أخبره بذلك هو جبرائيل عليه السلام، راجع المصدر المذكور أعلاه ص٢٧.

(١) راجع على سبيل المثال، لا الحصر، ما جاء في:

أ . الحافظ جلال الدين السيوطي (الشافعي)، إحياء الميت بفضائل أهل البيت، مصدر سابق ص٥١.

ب . العلامة الشيخ سليمان القندوزي (الحنفي)، ينابيع المودّة، مصدر سابق ج١ ص٢٦.

ج . الحافظ ابن المغازلي (الشافعي)، مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، مصدر سابق ص١٣٢.

د . الشيخ محمد بن علي الصبّان (الشافعي)، إسعاف الراغبين، دار الفكر . بيروت، د.ت، ص١٢٠.

وقد أوردنا الحديث المذكور أعلاه عن معنى سفينة نوح عليه السلام في أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في فصل سابق من هذا الكتاب وقد ذكرنا العديد من المصادر السنيّة الأخرى التي ذكرته، لذا يُرجى العودة إليه للاطلاع على المصادر الأخرى التي لم نكرّر ذكرها هنا.

(٢) محمد أحمد جاد المولى، قصص القرآن، دار الهجرة، ١٩٨٤، ص٣١.

نمرود بن كنعان بن كوش، وقد نصّب ذاك الملك نفسه إلهاً على النّاس ودعا الجميعَ إلى عبادته وتعظيمه.

أمّا إبراهيم عليه السلام فقد كان مشبع النّفس بالإيمان بربّه، وراجح العقل في دراسة الأمور والمسائل المصيريّة الهامّة، ولذلك فقد كان شديد الإيمان بما أوحيَ إليه، من بَعْثِ النّاس بعد موتهم، وحسابهم في حياةٍ أخرى بشكلٍ عادلٍ تماماً، وقد طلب الآية البيّنة من ربّه على البعث والنشور، فأعطاه الله عزّ وجلّ ما أراد.

ولم يبدأ إبراهيم بن تارخ عليه السلام دعوته مع قومه بِتَسْفيهِ معبوداتهم وتحقير آلهتهم، بل اتّبع معهم أسلوب الاستدراج المنطقيّ في الوصول إلى النتيجة المطلوبة، وكان ممّا فعله هو أنّه حطّم الأصنامَ التي يعبدها قومُه، وعندما اتّهموه بذلك العمل الذي هزَّ كيانهم الروحيّ، قال لهم ـ على سبيل تنبيههم من غفلتهم ـ: بل فَعَلَهُ كبيرُهم هذا فاسألوهم إنْ كانوا ينطقون!!

عندئذٍ، أدركوا في قرارة نفوسهم أنّهم خسروا المعركة الإيمانيّة معه، لكنّهم لم يستسلموا، فقرّروا معاقبته عقوبةً تتحدّث عنها كلّ الأجيال اللاحقة، وبعد مشاوراتٍ طويلةٍ وقع اختيارهم على إحراقه بنارٍ عظيمةٍ تلتهمه بثوانٍ قليلةٍ وينتهي أمره.

وراحوا يجمعون الحطب الكثير طوال أيام وليال، وجعلوا ذلك قرباناً لآلهتهم، ونذراً لإرضائهم، حتّى إنّ المرأة منهم كانت إذا مرضت نذرت قائلةً لتلك الآلهة الصمّاء:

إنْ عُوفِيت، لأجمعَنَّ حَطباً لحريق إبراهيم[1].

وبعد أن جمعوا أكداساً عظيمة من الحطب اللازم، أشعلوا النّار فيها، فاضّطرمتْ

(١) نفس المصدر السابق ص٤١.

وتأجَّجتْ وعَلا صوت لهيبها كصوت الرعد القاصف، وعندها، أُلقيَ إبراهيمُ في جحيم تلك النّار المستعرة التي لا يرحم لهيبُها بعضه بعضاً.

فماذا فعلت تلك النّار المستعرة بإبراهيم عليه السلام؟

لقد أحرقت منه قيوده، فصار حرّاً طليقاً، وأذهب الله منها حدَّتها وحرارتها، فصار لهيبها عليه برداً وسلاماً.

لاريب في أنَّ ما حدث آية كبرى وحجّة عظمى لا تقلّ عن آيات وحجج بقيّة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

وهنا، لنا أن نسأل مستفسرين: وهل كان إبراهيم عليه السلام على إطّلاع مُسَبق بمجيء رسول في آخر سلسلة الرسل والأنبياء يُدعى محمداً؟!

وهل كان على معرفةٍ أيضاً بملحمة سبطه الخالدة التي تدمي قلوب الملائكة وتهزّ ضمير الكون على مَرِّ العصور؟!

ويأتي الجواب واضحاً وصريحاً: نعم، لقد كان إبراهيم عليه السلام على اطّلاع مسبقٍ بمجيء رسول كريم يُدعى محمد صلى الله عليه وآله، شجرته خير الشجر، وعترته خير العِتَر.

وكيف لا يعرف إبراهيم عليه السلام بمجيء ذلك الرسول العظيم وهو النبيّ المعروف بلقبه المبارك (الخليل)، وهل يخفي الله سبحانه وتعالى عن خليله أمر مجيء الرسل والأنبياء عليهم السلام من بعده؟!

فهناك العديد من الرسل والأنبياء بعد إبراهيم عليه السلام ولا شكّ في أنّ الله سبحانه وتعالى قد أطلعه عليهم وعلى سيرتهم وأسرارهم وآثارهم.

وقد ورد عن أئمّة الحقّ عليهم السلام قولهم: «إنّما اتخذ الله عزّ وجلّ إبراهيمَ خليلاً،

لكثرة صلاته على محمد وأهل بيته صلوات الله عليهم»[١].

وقد جاء أيضاً عن الإمام علي الرضا عليه السلام أنّه قال: «لمّا أَمَر الله عزّ وجلّ إبراهيمَ عليه السلام أن يذبح الكبشَ الذي نزل عليه بَدَلاً من ابنه إسماعيل عليه السلام، تمنّى إبراهيم عليه السلام أن يكون قد ذبح ابنَه إسماعيل بيده وأنّه لم يُؤمَر بذبح الكبش مكانه ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذي يُذبح أعزُّ وِلْدِه عليه بيده فيستحقّ بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، فأوحى الله عزّ وجلّ:

- يا إبراهيم، مَن أحبّ خلقي إليك؟

فقال: يا ربِّ: ما خلقتَ خلقاً هو أحبُّ إليّ من حبيبك محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فأوحى الله إليه: أفهو أحبُّ إليك أم نفسك؟

قال: بل هو أحبُّ إليَّ من نفسي.

قال: فَوَلَدُهُ أحبّ إليك أم وَلَدُكَ؟

قال: بل وَلَدُهُ.

قال: فَذَبْحُ ولدِهِ ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك أو ذبح ولدك بيدك في طاعتي؟

قال: يا ربِّ ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي.

قال: يا إبراهيم، إنَّ طائفةً تزعم أنّها من أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ستقتل الحسينَ ابنَه من بعده ظلماً وعدواناً كما يُذبح الكبشُ ويستوجبون بذلك سخطي.

فجزع إبراهيم بذلك، وتوجَّع قلبه، وأقبل يبكي...»[٢].

---

(١) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، مؤسسة الأعلمي. بيروت، ط١/١٩٨٨، ج١ ص٤٩.
(٢) توفيق فتح الله، عاشوراء وكلمات خالدة، مصدر سابق ص٩.

وتأكيداً على ما جاء من قصّة وحي الله سبحانه وتعالى لسيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام بشأن فاجعة كربلاء ومصاب الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده على يَدِ طائفةٍ تزعم أنّها من أمّة جدّه محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فقد جاء في الروايات أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام مرّةً ثانيةً ـ عن طريق جبرائيل الأمين عليه السلام ـ أنّ كربلاء قادمةٌ لا محالة وأنّ (يزيد) اللعين هو الممثّل لتلك الطائفة التي تزعم أنّها من المسلمين.

فقد رُويَ أنّ إبراهيم عليه السلام مرَّ في أرض كربلاء وهو راكبٌ فرساً، فعَثَر به وسقط، وشجّ رأسه وسال دمه، فأخذ في الاستغفار...

وقال: «إلهي أيُّ شيءٍ حدثَ منّي؟».

فنزل إليه جبرائيل عليه السلام وقال: «يا إبراهيم، ما حدث منك ذنب، ولكن هنا يُقتَلُ سبطُ خاتم الأنبياء، وابن خاتم الأوصياء، فسال دمُك موافقةً لدمه»[١].

والحديث طويلٌ نسبيّاً، وقد اقتصرنا على موضع الحاجة منه فقط.

ومن الممكن هنا أن يتبادر إلى ذهن كلّ واحدٍ منّا التساؤل التالي:

ورد معنا في الصفحات السابقة من هذا الكتاب أنّ الكلمات الإلهيّة التي تاب الله سبحانه وتعالى بها على سيّدنا آدم عليه السلام هي أهل البيت عليهم السلام، وقد وردت هذه الحقيقة الخالدة في العديد من كتب إخواننا السنّة، والسؤال الآن هو:

هل هناك من علاقةٍ بين كلمات سيّدنا آدم عليه السلام وكلمات سيّدنا إبراهيم عليه السلام التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، في سورة البقرة: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي**

---

(١) راجع ما جاء في (المنبر الحسينيّ)، العدد الثاني، مصدر سابق ص٢٨.

الظَّالِمِينَ﴾[١]؟!

الجواب على هذا السؤال يمكننا الحصول عليه من العلامة (الحنفي) سليمان البلخيّ القندوزيّ الذي ذكر تفسير هذه الآية القرآنية الكريمة في كتابه المعروف (ينابيع المودّة): (هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، وهو أنّه قال: يا ربّ أسألك بحقّ محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبتَ عليَّ، فتاب الله عليه إنّه هو التوّاب الرحيم)، وأكمل (القندوزي الحنفي) هذا الحديث بالقول إنّ المفضّل سأل الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام عن معنى قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، فأجابه الإمام الصادق عليه السلام: «يعني أتمهنّ إلى القائم المهدي اثنا عشر إماماً، تسعة من ولد الحسين عليه السلام»[٢].

وقبل أن نكمل حديثنا عن رحلة الرسل والأنبياء في أحداث فاجعة كربلاء، أودّ أن أؤكّد على عدّة نقاط هامة كنتُ قَدْ ركّزتُ عليها كثيراً في كتابي السابق (الإمام علي عليه السلام في الفكر المسيحيّ المعاصر).

ومن جملة تلك النقاط التي أريد أن أؤكّد عليها الآن هي مسألة فَهْمِ حقيقة الموقع الروحيّ للرسالة الإسلامية بين بقيّة الأديان، فالإسلام ليس رسالة سماوية مبنيّة على فراغ، ولا هو رسالة سماويّة نزلت على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم كي يلغي كلّ القِيَم والآداب والمعارف الواردة في الرسائل الأخرى التي سبقت رسالته.

فالإسلام رسالة تصحيح لا رسالة هدمٍ وإلغاءٍ لكلّ القِيَمِ السابقة، ولذلك، عندما ذكرتُ في كتابي السابق أنّ الشريعة الإسلاميّة هي خاتمة وتاج بقيّة الشرائع والرسائل،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودّة، مصدر سابق ج١ ص٩٥.

فإنّما قصدتُ بذلك أنّ هذه الرسالة التي شبَّهتُها بالتاج الذي يوضع على الرأس إنّما هي ذات قدرةٍ تصحيحيّةٍ عالية الحيويّة والفعاليّة من حيث دقّة واستقامة ومجاراة تعاليمها للنّفس الإنسانيّة عموماً.

وما يؤكّد وجهة نظري هذه آراء وأقوال الكثير من المفسّرين والأدباء الذين لا ينتمون إلى العقيدة الإسلاميّة سواءً من المسيحيين أم من غيرهم.

وعلى سبيل المثال، يقول المفكّر المصريّ المسيحيّ، الدكتور (نظمي لوقا) في كتابه (محمد الرسالة والرسول): (لم يبق شكٌّ في أنّ رسالة الإسلام جاءت مناسبةً لطور البشريّة الطبيعيّ، جاءت رسالة الإسلام متلافية أوجه الغموض في العقيدة الإلهيّة وأوجه العسرِ والعَنَتِ وأوجه إغفال الدّنيا وفطرة البدن والروح في كيان واحد)[1].

ومن الواضح تماماً أنّ رأي المفكّر والأديب المسيحيّ اللبناني الأستاذ (سليمان كتّاني) لا يختلف في مضمونه أبداً عن رأي أخيه في المسيحيّة، الدكتور المسيحيّ المصريّ (نظمي لوقا).

فالأستاذ (كتّاني) يطرح على قارئه السؤال التالي:

مَن بإمكانه القول إنّ رسالة الإسلام صعبة الفهم وعصيّة المنال؟

وعلى ما يبدو، فإنّ الأستاذ (كتّاني) يريد أن يوفّر الوقت والجهد على قارئه، ولذلك فهو يختصر عليه الطريق بالقول مباشرة:

(أيُّ شيءٍ هي الرسالة غير التوحيد، غير نشر الخالق في المخلوق: عدلا: وحُبّاً، ونُبلاً، وشكراناً، ووفاءً، ووعداً بنعيم يستحقّه الصادقون، وإنذاراً بجحيمٍ يشوى بها

(١) د. نظمي لوقا، محمد الرسالة والرسول، مصدر سابق ص١٠٤.

المارقون؟! أليست الأرض في مجموع أممها هي التي تبني إنسانها بمثل هذه الشرائع التي يسمّيها النّاس مقدّسةً وهي ـ فعلاً ـ مقدّسةٌ في بناء مجتمع الإنسان؟!)[(١)].

ولكن ما يختلف فيه الأستاذ (كتاني) عن الدكتور (لوقا) في رؤيتهما الصائبة عن الإسلام هو أنّ الدكتور (لوقا) يتحدّث في العموميّات دون التركيز على الرموز الحقيقيّة الحيّة للرسالة الإسلاميّة، في حين أنّ الأستاذ (كتّاني) لا يجد أيَّ حرجٍ في ذكر تلك الرموز المقدّسة وفي إعطائها، ولو شيئاً، من حَقِّها الذي حاول بعض المسلمين أنفسهم مصادرة ذلك الحقّ ودفنه تحت رمال صحاريهم الفكريّة العقيمة.

وعلى سبيل المثال، عندما يتحدّث الأستاذ (كتاني) عن معاني رسالة الإسلام وعن أهدافها وغاياتها، وعن الأشخاص الذين شقّوا الطريق لها وحملوا راياتها بين النّاس، نراه يشير إليهم بالتصريح لا بالتلويح، وبالعبارة لا بمجرّد الإشارة، وها هو يربط هنا بين الرسالة وبين أحد أهمّ رموزها وحملة راياتها، فيقول: (تلك هي الرسالة في تركيزها الفلسفيّ وفي ميزانها الاجتماعيّ الرائع، وتلك هي التي نزلت نقشاً في وجدان الحسين، والتهبتْ بها مشاعره ـ أمّا الذي أنزلها نقشاً، وأجّجها لهَباً في أسلاك النفس، فهو ذاته الذي اقتنصها من بحبوحة الفيض، وخصَّ بها آل البيت ليكونوا ركيزة القيمومة، وعدّة الإمامة في مطلع الغد)[(٢)].

ومن النقاط المهمّة أيضاً، والتي أريد أن أتوسّع قليلاً في الحديث عنها قبل أن نعود إلى موضوعنا الأساسيّ في هذا الفصل، وهو حديث الرسل والأنبياء عليهم السلام عن ملحمة كربلاء، هي نقطة خروج الحسين عليه السلام بأهله إلى ساحة الوغى وميدان الموت

(١) سليمان كتاني، الإمام زين العابدين عنقود مُرصَّعٌ، مصدر سابق ص٥٩.
(٢) نفس المصدر السابق ص٦٠.

مع أرجحيّة معرفته بما سَتَؤول إليه الأمور في نهاية الرحلة المريرة.

هذه النقطة بالتحديد يجب أن تُعطى كامل أبعادها عند أيّ حديثٍ عن الإمام الحسين عليه السلام أو عن نهضته، وخروجه إلى أرض كربلاء.

وعلى الرغم من أنّنا ناقشنا هذه المسألة الهامّة في الفصل السابق من هذا الكتاب، إلا أنّ الضرورة ذاتها تفرض علينا التوسّع في الحديث عنها طالما أنَّ لدينا الكثير من الآراء ووجهات النظر لرجال فكرٍ وأدبٍ من مختلف الأديان والأطياف.

فالكاتب المصريّ (محسن محمد) تناول مسألة خروج الإمام الحسين عليه السلام بأهله إلى مَصَارعهم، وعَمَدَ إلى تحليل تلك المسألة بشكل موجز ودقيق، وقد لخّص النتيجة الهامّة التي توصّل إليها بالقول:

(عَزَّ عليه ـ على الحسين ـ النصر العاجل... وابتغى النصر الآجل بعد موته.. ليحيي بذلك قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة... وقد رفض الحسين إلا أن يصحب أهله ليُشهِدوا النّاسَ على ما يقترفه أعداؤه بما لا يبرّره دين ولا وازع من إنسانيّة، فلا تضيع قضيّة مع دمه المُراق في الصحراء)(١).

فما هي القضيّة التي حملها الحسين عليه السلام ودافع عنها طوال حياته؟

وما هي تلك القضية الجوهريّة التي جعلت الإمام الحسين عليه السلام يضحّي بكلّ ما يملك من غالٍ ونفيسٍ في سبيلها لدرجة أنّه أصبح هو وملحمته الحزينة الدّامية حديثاً مؤثراً ونبوءةً أليمةً في عالم الملائكة والرسل والأنبياء السابقين؟!

في الواقع، إنّ العقيدة النبيلة والقيمة الروحية السامية التي يحملها صاحبُها يمكن

---

(١) محمد جواد مغنية، الحسين وبطلة كربلاء، انتشارات الشريف الرضي ـ قُمّ، ١٤١٧هـ ص٢٦٥.

أن تصهره وتتماهى معه لدرجةٍ تجعله وحدةً متلاحمةً متكاملةً مع كلّ معاني السموّ والكمال.

والإمام الحسين عليه السلام، صاحبُ قِيَمٍ ومبادئ، وهذه القيم والمبادئ منصهرةٌ فيه ومُتماهيةٌ مع ذاته التي تمثّل الانعكاس الصادق والصافي لشخصيّة جدّه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ولشخصيّة أبيه أيضاً، الإمام علي المرتضى عليه السلام.

فالحسين عليه السلام من علي عليه السلام كشعاع الشّمس من قرصها، والحسين عليه السلام من جدّه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كمعنى الكلمة من حروفها[1].

ولذلك، فمن الطبيعيّ تماماً أن يكون الإمام الحسين عليه السلام هو الامتداد الفكريّ والروحيّ لنور الرسالة المحمديّة المؤيّدة بحقيقة القدرة العَلَويّة التي جاءت مع كلّ رسالةٍ وَرسولٍ سرّاً، ولكنّها جاءت مع رسالة محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم جهراً، وقد عُرِفتْ عند الأُمم والشعوب والأديان بأسماء مختلفة وألقاب شتّى.

ألم يقل الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه النبويّ الشريف:

«يا عليّ كنتَ مع كلّ نبيٍّ سرّاً ومعي جهراً»؟![2]

ألم يؤكّد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً على جوهر هذا الحديث عندما خاطب المسلمين وأخبرهم أنّ الروح الأمين جبرائيل عليه السلام قد نزل عليه وخاطبه قائلاً بلسانٍ عربي مبين:

«الحقُّ يقرئك السّلام ويقول لك: إنّي لم أبعث نَبيّاً قطّ إلا جعلتُ عليّاً معه سرّاً،

---

(١) هذه العبارة، وكلّ عبارةٍ أخرى تتحدّث عن الحقيقة (المحمدية . العلوية) وردت في هذا الكتاب، أخذناها من كتابي المخطوط (مقدّمة في معرفة أهل البيت عليهم السلام بالنورانيّة) الذي سيأخذ طريقه إلى النّور في الوقت المناسب إن شاء الله تعالى.

(٢) العلامة الشيخ أحمد محمد حيدر، الحَيرات، دار الشمال. طرابلس لبنان، ١٩٩١، ص١٧٨.

وجعلته معك جهراً»؟!(١)

ثم، ألم يذكر العلامة الكبير والحجّة المجاهد المرحوم (عبد الحسين أحمد الأميني النجفي) في كتابه الشهير (الغدير في الكتاب والسنّة والأدب) القصيدة المُذهبَّة للشاعر (أبي محمد العوني)، من أعلام القرن الهجري الرابع، والتي يذكر فيها الكثير من الأسماء والألقاب والصفات التي عُرِفَ بها أميرُ المؤمنين علي عليه السلام عند مختلف الأمم والأديان والشعوب(٢) ممّا يؤكّد على عَظَمةِ مكانته وعلى قِدَمِ وجودِهِ النورانيّ المُتماهي أساساً مع النّور المحمديّ، على هيئةِ نورٍ واحدٍ، وهو أوّل وأعظم خلق الله في عالم الأنوار؟!

ولذلك، فالإمام الحسين عليه السلام حمل لواء الدّفاع عن رسالة ذلك النّور الإلهيّ الخالد الذي شاءهُ الله سبحانه وتعالى أن يكون نوراً رساليّاً وحَبلاً إلهيّاً متيناً يصل الخلافة الآدمية على الأرض بأبواب الفردوس في السّماء.

فالإمام الحسين عليه السلام قَبِلَ، من خلال مسيرته الفدائيّة الدامية، أن يصافح السيوف بيده وقلبه، وأن يعانق الرماح بصدره ونحره، وقدّم القرابين تلو القرابين من أجل عقيدةِ أبيه عليه السلام وجدّه صلى الله عليه وآله، تلك العقيدة التي تُمثِّلُ في حقيقتها وجوهرها رسالةَ جميع الشرائع والأديان التي جاء بها ودعا إليها جميعُ الأنبياء المرسلين.

نعم، إنّ الكاتب والأديب المسيحيّ (نصري سلهب) يقول عن سيّد ومعلّم الشّهداء، الإمام علي عليه السلام: «... أمّا عليّ، فقد خلقه الله ليكون الشهيد، أبا الشهداء،

---

(١) الحافظ رجب البرسي، مشارق أنوار اليقين، مؤسسة الأعلمي. بيروت، ط١٠، د.ت ص٨٥.

(٢) العلامة عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، دار الكتب الإسلاميّة. طهران، ١٣٧٤هـ.ش، راجع القصيدة المُذهَّبة في الجزء الرابع من ص١٣١ حتّى ص١٣٧.

غاسلي الأرض من أرجاسها بدمائهم، فاتحين في السّماء أبواباً ليدخلها المؤمنون أفواجاً»[١]، نعم، إنَّ دماء معلِّم الشهداء علي عليه السلام قد غسلت الأرض من أرجاسها ونصبت للأرواح الطاهرة التقية معراج الخلاص ورسمتْ لها طريق الوصول إلى حظيرة القدس الإلهيّ.

وما كان للإمام الحسين عليه السلام إلا أن يسير على طريق معلّمه وقائده وأبيه وسيّده، أمير المؤمنين علي عليه السلام في تلوين صدر السّماء باللون الأحمر القاني إيذاناً منه بأنّ اللون الأحمر هو اللون الأكثر قدرةً على اختراق زُرقة السّماء، وأنّه هو أيضاً اللون الذي يشكّل الخطّ الأكثر استقامةً وقِصَراً في وصول الفراشة العاشقة المتعبة إلى حِمى مصباح العشق الإلهيّ ذي الشعلة الأزليّة الخالدة.

إنَّ هذه الحقائق عن معاني الرسالة الإسلاميّة وعن فلسفة أهل البيت عليهم السلام في فَهم الحياة بِطَرَفَيها الماديّ العمليّ والروحي المعنويّ هي التي دفعت بالكثير من أئمّة الفكر والثقافة إلى تقديم فروض الاحترام للإسلام الذي مثّلهُ أهل بيت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم خير تمثيل.

فالمَهاتما (غاندي) الذي عشق فلسفة الإمام الحسين عليه السلام في معنى السّلام والثورة ـ وهذا ما سنتحدّث عنه بإسهابٍ وتفصيلٍ في الفصل الأخير من هذا الكتاب ـ قدَّم فروض الاحترام والتقدير للإمام الحسين عليه السلام من جهة، وللينبوع الذي استقى منه الإمامُ الحسين عليه السلام مبادئه وقِيَمه من جهةٍ أخرى.

وها هو المفكّر الهنديّ الهندوسي (ج.ن. راغهافان) يقول عن المهاتما العظيم (غاندي): (وإنْ كان غاندي هندوسيّاً من أعمق أعماق وجوده، فهو لم يكن ممارساً

(١) نصري سلهب، في خُطى علي، مصدر سابق ص٣٨٢.

لعقيدةٍ أو طقوس أو تقاليد دينيّة معيّنة)[١].

فماذا يعني هذا الكلام؟

يعني هذا الكلام ـ وكما يقول، هذه المرّة ـ غاندي نفسُه ـ: (كلُّ الأديان عزيزةٌ عليَّ مثل هندوسيّتي، أنا أحترمُ العقائد الأخرى مثل احترامي لعقيدتي)[٢].

وبالفعل، فإنّ ذلك الزعيم الهندوسيّ الكبير كان يحترم العقائد والأديان، وكان يُظهِرُ احترامَه وتقديره للإسلام من خلال كتاباته ومن خلال خُطبِهِ وأقواله، هذا بالإضافة إلى أنَّ هناك العديد من المواقف العمليّة التي عاشها قد أثبتت حبّه واحترامه للرسالة الإسلاميّة بشكلٍ كبيرٍ وواضح.

ويكفي أن نذكر من هذه المواقف المشهودة أنّ (غاندي) عندما أودعوه السجن وبات أسيراً وراء القضبان، كان يُمضي وقته بقراءة كتاب (الجيتا) الهندوسيّ صباحاً، وكان يمضي فترة الظهر بقراءة آياتٍ عديدةٍ وسور من القرآن الكريم باللغة الإنكليزية[٣].

فهل كان ذلك الزعيم الهنديّ الهندوسيّ يقوم بذلك إلا من منطلق الاحترام والتقدير لرسالة الإسلام عموماً، وللإمام الحسين عليه السلام خصوصاً بعد أن رأى فيه المثل الأعلى بين المسلمين جميعاً؟!

فمعظم الذين درسوا سيرة حياة (غاندي) وقاموا بتحليلها بشكلٍ مفصّلٍ ودقيقٍ، معتمدين في ذلك على أحداث حياته وعلى أعماله وأقواله، توصّلوا إلى القول في نهاية دراستهم: (وهكذا تأثّر محرّر الهند بشخصيّة الإمام الحسين تأثُّراً حقيقيّاً، وعرفَ

(١) ج.ن راغهافان، تقديم الهند، مصدر سابق ص٨٦.
(٢) نفس المصدر السابق ص٨٦.
(٣) لويس فيشر، غاندي الثائر القدّيس، مصدر سابق ص٨١.

أنّ الإمام الحسين عليه السلام مدرسةُ الحياة الكريمة ورمز المسلم القرآني، وقدوة الأخلاق الإنسانيّة، وقِيَمها، ومقياس الحقّ)[1].

ولاريب في أنّ المهاتما (غاندي) كان محقّاً تماماً في اعتبار الإمام الحسين عليه السلام رمزَ المسلم القرآني، وقدوة الأخلاق، ومقياس الحقّ بين الخلق، فالإنسان المثقّف فكريّاً والمستنير روحيّاً، سواءً كان مسلماً أم مسيحيّاً أم هندوسيّاً أم حتّى غير ذلك، سيدرك بعقله وفي قرارة نفسه أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان حقّاً كذلك مثلما وصفه الزعيم الهندي (غاندي).

فالإمام الحسين عليه السلام، بإيمانه وأخلاقه ومبادئ نهضته، كان حجّةً عظيمةً لله على خلقه، ولذلك، فإنّ الله سبحانه وتعالى عَرَّف الرسل والأنبياء السابقين عليهم السلام بالحسين عليه السلام، وعرَّفهم أيضاً على ما سيحدث له قرب الفرات على رمال كربلاء.

ويمكننا أن نقف على هذه الحقيقة الثابتة من خلال بعض خطب الإمام الحسين عليه السلام التي قالها قُبيل استشهاده بزمن قصير.

فالإمام الحسين عليه السلام يردّ على من طلب منه عدم الخروج إلى كربلاء قائلاً:

«وإذا أقمتُ مكاني، فبماذا يُبتلى هذا الخلق المتعوس، وبماذا يُختَبرون، ومَنْ ذا يكون ساكن حفرتي بكربلاء، وقد اختارها الله يوم دحي الأرض وجَعْلِها معقلاً لشيعتنا، وتكون لهم أماناً في الدّنيا والآخرة؟!»[2].

ولذلك، فالعبارة التي ذكرها المستشرق الإنكليزي (دوايت رونلدسن)، والتي يقول عنها إنّها مكتوبةٌ على ضريح العباس عليه السلام في كربلاء، هي عبارةٌ ذات دلالةٍ

(١) عبد الله عدنان المنتفكي، الثورة الحسينيّة في الفكر العالميّ، مجلّة الثقافة الإسلاميّة، العدد (٥٠) إصدار المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق، عدد تموز وآب، ١٩٩٣، ص٤٤.

(٢) لبيب بيضون، خُطب الإمام الحسين عليه السلام على طريق الشهادة، مصدر سابق ص٧٥.

عميقةٍ على معرفة عالمَ الملأ الأعلى بأحداث الملحمة الحسينيّة الخالدة.

فالعبارة المنقوشة على الضريح تقول مخاطبةً كلّ زائرٍ لتلك البقعة المقدّسة: (لا تتبختر على هذه الأرض التي طالما عَفَّرَ بها الملائكة والملوك جباههم)[1].

وبالتالي، يمكننا القول إنّه مثلما أنّ الرسل عليهم السلام هُم حجج الله على خلقه من خلال رسالاتهم، فالإمام الحسين عليه السلام هو أيضاً حجّةٌ بليغةٌ لله على خلقه من خلال خروجه ونهضته وطلب الإصلاح في أمّة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن الدلائل القويّة على صحّة هذا الكلام، هو الحديث الهامّ الذي تناقلته كتب إخواننا السنّة عن جزاء من رأى الحسين عليه السلام في كربلاء ولم ينصره.

فقد روى الشيخ (عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي) في كتابه (الحسين (رض) حفيداً وشهيداً)، نقلاً عن (ابن عساكر الشافعي)، حديثاً هامّاً مرفوعاً إلى هرثمة بن سلمى، قال فيه: خرجنا مع علي في بعض غزوه فسار حتّى انتهى إلى كربلاء، فنزل إلى شجرةٍ فصلّى إليها (أي إلى جانبها)، فأخذ تربةً من الأرض فَشَمّها ثمّ قال: «وَاهاً لك تربة ليقتلنّ بك قوم يدخلون الجنّة بغير حساب».

قال: فَقَفَلنا من غزواتنا، وقُتِلَ عليٌّ، ونسيتُ الحديث، قال: وكنتُ في الجيش الذي ساروا إلى الحسين، فلمّا انتهيتُ إليه نظرتُ إلى الشجرة، فذكرتُ الحديث، فتقدّمتُ على فرسٍ لي، فقلتُ: أبشّرك يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحدّثتهُ الحديث، قال: معنا أو علينا؟ قلت: لا معك ولا عليك، تركتُ عيالاً و...

قال: أمّا لا، فَوَلِّ في الأرض، فوالذي نفس حسين بيده لا يشهد قَتْلَنا اليوم رجلٌ

(١) دوايت رونلدسن، عقيدة الشريعة، مصدر سابق، ص١١١.

إلا دخل جهنّم، قال: فانطلقت هارباً موليّاً في الأرض حتّى خَفيَ عليَّ مقتله[١].

ونحن، بالإضافة إلى صاحب كلّ عقلٍ سليمٍ ومنطقٍ قويمٍ، لا نشكّ طرفة عينٍ في صدق قول الإمام الحسين عليه السلام: «لا يشهد قَتْلنا اليوم رجلٌ إلا دخل جهنّم»، وذلك لأنّ السّاكت عن الحقّ شيطانٌ أخرس، ولأنّ لقاء الإمام الحسين عليه السلام بالجيوش الأمويّة الجرّارة التي أرسلها يزيد لقتاله، هو صورةٌ مُستَنْسَخةٌ عن لقاء الإمام علي عليه السلام مع عمرو بن ودّ العامري، ذلك اللقاء التاريخيّ الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله قولته المشهورة والتي يعترف بها المفكّرون والأدباء المسيحيّون مثلما يعترف بها المفكّرون والأدباء المسلمون.

إنّها العبارة النبويّة الخالدة التي تصف خروج الإمام علي عليه السلام إلى لقاء عمرو بن ودّ العامري: «بَرزَ الإيمان كلُّه إلى الشرك كلّه»[٢].

فالإمام الحسين عليه السلام، مَثَلُه مَثَلُ أبيه وجدّه صلى الله عليه وآله، إيمانٌ كلّه، وبالمقابل أيضاً، يزيد، مَثَلُه مثل أبيه وجدّه، شركٌ كلّه، ولذلك، فمن الطبيعيّ تماماً أن يدخل النّار كلُّ من شهد الإمام الحسين عليه السلام في محنته ولم ينصره على أهل الكفر والشرك.

والمتعمّقون في دراسة شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام وفي تحليل مبادئ وخطوات نهضته، يدركون أنّه استطاع بفضل إيمانه وصبره ومبادئ نهضته الإنسانيّة إقامةَ الحجّة الدامغة على أعدائه بشكلٍ يحُتّم عليهم دخول النّار ولقاء مصيرهم الأسود هناك.

فالإمام الحسين عليه السلام، حتّى في اللحظات الأخيرة قبل دخول ميدان القتال،

---

(١) الشيخ عرفان بن سليم حسونة الدمشقي، الحسين حفيداً وشهيداً، مصدر سابق ص٧٢.
(٢) نصري سلهب، في خطى علي، مصدر سابق ص١٢٩.

يقف أمام جموع جيوش الأعداء ويخاطبهم مُذكِّراً إيَّاهم بهويته وحقيقته عسى أن يعودوا إلى رشدهم وصوابهم وعسى أن ينجوا من إقامة الحجّة عليهم.

فها هو عليه السلام يقف في مواجهتهم رافعاً صوته بالقول الواضح المبين:

«أنشدكم الله هل تعرفونني؟».

قالوا: نعم، أنت ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسبطه.

فقال: «أنشدكم الله هل تعلمون أنّ جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله؟».

قالوا: اللهمّ، نعم.

قال: «أنشدكم الله هل تعلمون أنّ أبي علي بن أبي طالب عليه السلام؟».

قالوا: اللهمّ، نعم.

قال: «أنشدكم الله هل تعلمون أنّ أمّي فاطمة بنت رسول الله؟».

قالوا: اللهمّ، نعم.

قال: « أنشدكم الله هل تعلمون أنّ جدّتي خديجة بنت خويلد أوّل نساء هذه الأمّة إسلاماً؟».

قالوا: اللهمّ، نعم.

قال: «أنشدكم الله هل تعلمون أنّ حمزة سيّد الشّهداء عمُّ أبي؟».

قالوا: اللهمّ، نعم.

قال: «أنشدكم الله هل تعلمون أنّ جعفر الطيّار في الجنّة عمّي؟».

قالوا: اللهمّ، نعم.

قال: «أنشدكم الله هل تعلمون أنّ هذا سيف رسول الله أنا مُتَقَلِّدُه؟».

قالوا: اللهمّ، نعم.

قال: «أنشدكم الله هل تعلمون أنّ هذه عمامة رسول الله أنا لابسُها؟».

قالوا: اللهمّ، نعم.

قال: «أنشدكم الله هل تعلمون أنّ علياً كان أوّل القوم إسلاماً، وأعلمهم علماً، وأعظمهم حلماً، وأنّه وليُّ كلّ مؤمنٍ ومؤمنة؟».

قالوا: نعم.

قال: «فَبِمْ تستحلّون دمي وأبي الذائدُ عن الحوض يذود عنه رجالاً كما يُذادُ البعيرُ الصادر عن الماء، ولواء الحمد في يَدِ أبي يوم القيامة؟!».

قالوا: قد علمنا ذلك كلّه ونحن غير تاركيك حتّى تذوق الموت عطشاناً[1].

وبالفعل، وكما سنرى لاحقاً، فإنّهم لن يتركوه حتّى يُذيقوه الموت مِراراً ومراراً، وما الموت عطشاً إلا مِيتةً من الميتات التي تَفَتَّقتْ عنها العبقريّة الأمويّة.

ولسنا وحدنا الذين نقول ذلك عن بني أميّة، وحكوماتهم الجائرة، بل إنّ الكثير من المستشرقين يوافقوننا الرأي بشأن تلك المسألة التي باتت من البديهيّات عند الجميع.

فالمستشرق الإنكليزي (رينولد ألين نيكلسون) (R. Nicholson) (١٨٦٨ ـ ١٩٤٥)، ذلك المستشرق الذي أتقن اللغتين العربيّة والفارسيّة، وبرعَ في دراسة علم التصوّف الإسلاميّ، وكتب كتاب (متصوّفو الإسلام) و(تاريخ الآداب العربيّة) وترجم (المثنَوي) لجلال الدين الرومي، قد كان له وجهة نظر ثاقبة في فَهمِ حقيقة الحكّام الأمويين وفي فهم وتحليل الأسس التي قامت عليها إمبراطوريتهم الآثمة.

وها هو يشاطرنا الرأي بشأن بني أميّة قائلاً: (وكان الأمويّون في نظر الدين طغاة

(١) الشيخ عبد الزهراء الكعبي، الحسين قتيل العَبرة، دار الذخائر. قُمّ، ١٤١١هـ، ص٦٣.

مستبدّين لانتِهاكهم قوانين الإسلام وشرائعه، وامتهانهم لمُثُله العليا ووطئها بأقدامهم... وعلى هذا الأساس يحكم التاريخ، بحقٍّ، بإدانة الأمويين (في مصرع الحسين))[1].

وعندما يحدّثنا المفكّر الفرنسيّ المعاصر (جان موريون) عن رأي المستشرق الشهير (لويس ماسينيون) (L.Massignon)، الذي عرَّفْنا به سابقاً، حول حقيقة الحكومات الأمويّة المتعاقبة، نستطيع أن نقف على رأي الأستاذ (ماسينيون) بوضوحٍ لا لَبْسَ فيه.

فالمستشرق (ماسينيون) الذي أفنى سنوات طويلةً من نعمره في دراسة الإسلام وتاريخه، استطاع أن يتوصَّل إلى الكثير من الحقائق التي تحتاج إلى جرأةٍ في الإعلان.

فالمذهب الشيعيّ ازداد تألّقاً وثباتاً بسبب دم أولئك الشهداء من أهل البيت عليهم السلام، والمذهب الشيعيّ، بالنسبة لماسينيون، بريءٌ من التّهم القذرة التي يحاول البعض إلصاقها به للنّيل منه ومن حمَلَتِهِ، وليس هذا فحسب، بل إنّ (ماسينيون) قد أفرد مكاناً بارزاً للفكر الشيعيّ الذي ينتظر أتباعهُ مجيءَ الإمام المهديّ المنتظر (عج) الذي يحكم بالعدل وينتقمُ، بحقٍّ، لمجزرة كربلاء[2] وشهدائها الذين قضوا في سبيل الحقّ والخير والفضيلة.

فالإمام الحسين عليه السلام، الذي تنبّأتْ وتحدّثتْ كلّ الملائكة والأنبياء المرسلين عن ملحمته التراجيديّة الدّامية، كان يمثّل دور السفير إلى الجنّة، في حين أنّ يزيد بن معاوية كان، بالمقابل، يمثّل دور الشيطان الذي هو السفير إلى جهنّم.

(١) عبد الله العلايلي، الإمام الحسين، مصدر سابق ص٦٤.
(٢) جان موريون، لويس ماسينيون، مصدر سابق ص٧٣.

وعندما يكون الإمام الحسين عليه السلام السفير إلى الجنّة، ويزيد السفير إلى جهنّم، فما على المرء إلا أن يختارَ طريقه الخاصّ إلى إحدى السّفارتين المذكورتين.

وحتّى لا يتّهمنا أحدٌ من القرّاء بالابتعاد عن محور بحثنا المتعلّق بنبوءات الأنبياء والرسل عليهم السلام بملحمة الحسين وأهل بيته عليهم السلام، نرى من الواجب علينا الآن أن نعود مباشرةً إلى محور البحث الأساسيّ وأن نكمل الحديث عن بقيّة الرسل والأنبياء وما عرفوه عن تلك الملحمة الإنسانيّة الخالدة.

فالنبيّ موسى عليه السلام واحدٌ من أنبياء بني إسرائيل، وهو واحدٌ من أولي العزم من الرسل، وقد بعثه الله في بني إسرائيل بعد أن تمادى فرعون مصر في غيِّهِ، وعلا في الأرض وسفك الكثير من دماء الأبرياء، ودعا النّاس إلى عبادته والسجود له(١).

وفي أحد الأيّام، يذهب أحد الكهّان إلى فرعون ويقول له محذّراً: يولد مولودٌ في بني إسرائيل يذهب مُلككَ على يده.

ويجنّ جنون فرعون، ويأمر شرطته أن يذبحوا كلّ مولودٍ يولد في بني إسرائيل، فَذُبِحَ ألوفٌ من الأطفال أمام عيون آبائهم وأمّهاتهم، وكان اليوم الذي يولد فيه مولودٌ في بني إسرائيل يوم تعزية ورثاء ويومَ حزن وبلاء.

وأراد الله أن يقع ما كان فرعون يخافه ويحذره، فولد موسى بن عمران على رغم فرعون وجنوده، ولكنّ الله سبحانه وتعالى أوحى إلى أمّ موسى أن تضعه في صندوق وتُلقيه في النّيل وبعد فترةٍ يصل الصندوق إلى قرب قصر الفرعون، فتأخذه زوجة الفرعون وتربيّه حتّى يصبح شاباً، وتشاء الأقدار أن يقتل موسى أحد المصريين عن غير قصد، فيهرب بروحه إلى أرض مدين، وهناك يتزوّج موسى من إحدى بنات

(١) أبو الحسن الندوي، قصص النبيين، مؤسسة الرسالة. بيروت، ط/٢٠، ١٩٩٦، ص١٤٤.

شعيب، وبعد أن يقضي الأجل، يسير موسى بأهله خارج مدين وسط البرد والظلام، وعندما أراد موسى عليه السلام أن يلتمس لأهله ناراً، بدأت معه قصّة الوحي والرسالة، وبدأ معه التكليف العملي القائم على إنذار فرعون وإيقافه عند حدّه، وبعد أنْ كان ما كان من قصّة موسى عليه السلام مع سَحَرة فِرعون وإيمانهم بدعوته وبدء الصراع بين موسى وفرعون ما نتَجَ عنه من هرب موسى عليه السلام بأتباعه ووصولهم إلى شاطئ البحر الأحمر، ولحاق فرعون به وغرقه مع جنوده وانتهاء أمرهم للأبد، تبدأ مشاكل موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام مع بني إسرائيل أنفسهم.

وبسبب خذلانهم لموسى ولأخيه موسى عليه السلام وعدم الاستجابة لهما بدخول مدينة (أريحا)لإخراج الحثيين والكنعانيين منها، فإنّ الله يبتليهم بالتِّيهِ في الصحراء أربعين عاماً، ولا يخفى على القارئ المطّلع أنّ هناك الكثير من القصص عن موسى وبني إسرائيل، وقد ذكر القرآن الكريم قصصاً عديدةً من سيرة حياته عليه السلام، كقصّته مع الخضر عليه السلام، وقصّته مع بقرة بني إسرائيل، وقصّته مع قارون، وقصّته مع عَبَدةِ العجل من بني إسرائيل، وإلى غير ما هنالك من القصص والأحاديث.

ويكفي أن نقول إنّ العلاقة الروحيّة الإيمانيّة بين موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام كانت علاقةً مميّزةً قَلّ نظيرها في مسيرة الرسل والأنبياء، ولذلك فعندما أراد الرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يُبيّنَ للنّاس مدى عمق العلاقة الإيمانيّة النورانيّة بينه وبين الإمام علي عليه السلام، خاطبه أمام النّاس قائلاً عند الخروج إلى غزوة تبوك:

«أنتَ منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبيَّ بعدي»(١).

---

(١) راجع، على سبيل المثال، لا الحصر، ما جاء في الكتب التالية عن الحديث المذكور:

أ . محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، مصدر سابق ج٣ ص١٠٤.

ب . الحافظ الخطيب ابن المغازلي الشافعي، مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، مصدر سابق

ويُعتَبرُ هذا الحديث النبويّ الشريف من أعظم الحجج والأدلّة على أنّ الإمام عليّاً عليه السلام هو الخليفة الحقيقيّ والشرعيّ للرسول صلى الله عليه وآله، فكما أنّ موسى استخلف أخاه هارون عليه السلام على قومه من بعده، فكذلك الحال بالنسبة لاستخلاف الإمام علي عليه السلام على أمّة محمد صلى الله عليه وآله من بعده.

وعلى كلّ حال، ما يهمّنا الآن، هو أنّ موسى عليه السلام الذي ذاق الأمَرَّين من قومه

ص٣٤.

ج. الإمام الشيخ ابن الصبّاغ المالكي، الفصول المهمّة، مصدر سابق ص٤٢.

د. العلامة سبط ابن الجوزي الحنفي، تذكرة الخواص، مصدر سابق ص٢٨.

هـ. الإمام العلامة كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي، مَطالب السؤول، مصدر سابق ص٨٨.

و. محمد بن عيسى الترمذي، صحيح الترمذي، مصدر سابق ج٢ ص٣٠١.

ز. مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، مطبعة بولاق. مصر، ١٢٩٢هـ (باب فضائل الصحابة) وقد جاءت روايته بعدّة طرق.

ح. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، المطبعة الخيرية بمصر، ١٣٢٠هـ، راجع باب (كتاب بدء الخلق) وقد ورد الحديث بطرقٍ عديدة.

ط. الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري الشهير بالحاكم، مستدرك الصحيحين، طبع مطبعة مجلس دائرة المعارف النظاميّة بحيدر آباد دكن، ١٣٢٤هـ، ج٢ ص٣٣٧.

ي. مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق ج١ ص١٧٣ (رواه بطرق عديدة)

ك. الحافظ النسائي، خصائص مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، مصدر سابق ص١٤.

ل. عبد الرحمن الشرقاوي، علي إمام المتقين، مكتبة غريب. القاهرة، د.ت/ ج١ ص٢٧.

م. أحمد مظهر العظمة، علي بن أبي طالب، مطبوعات جمعية التمدّن الإسلاميّ بدمشق، طبع عام ١٩٥٦، ص٣٤.

ن. محمد إبراهيم الأحمد، رابع الخلفاء علي بن أبي طالب، دار الرضوان. حلب، ٢٠٠٤، ص٤١.

س. نصري سلهب، في خطى علي، مصدر سابق ص٧٤.

هو وأخوه هارون عليه السلام، كان على معرفةٍ بمجيء رسول من بعده يُدعى محمداً صلى الله عليه وآله، وكان على معرفةٍ أكيدةٍ بما سيحدث له ولذريّته الطاهرة أيضاً.

وقد رُويَ أنّ موسى عليه السلام كان ذات يومٍ سائراً ومعه يوشع بن نون عليه السلام، فلمّا دخلا أرض العراق ومرَّا بأرض كربلاء انخرق نعله، وانقطع شِراكه، ودخل الحَسَكُ (نوعٌ من الأشواك النباتيّة الحادّة) في رجليه، وسال دمُه، فقال: إلهيّ، أيُّ شيءٍ حدث منّي؟

فأوحى الله إليه أنْ ها هنا يُقتَلُ الحسين عليه السلام وهنا يُسفَكُ دمُه، فَسَال دمُكَ موافقةً لدمه.

فقال موسى عليه السلام: «رَبِّ، ومَن يكون الحسين؟».

فقيل له: «هو سبط محمد المصطفى، وابن علي المرتضى».

فقال: «ومَن يكون قاتلُه؟».

قيل له: «هو لَعين السمك في البحار، والوحوش في القفار، والطير في الهواء».

فرفع موسى يديه ولعن يزيداً ودعا عليه وأمَّن يوشع بن نون على دعائه ومضى لشأنه[١].

وبالطبع، ليس نبيُّ الله موسى عليه السلام هو آخر الرسل والأنبياء معرفةً بمصير سبط الرسول الأخير صلى الله عليه وآله إلى الأسرة الآدميّة، فهناك أيضاً العديد من الرسل والأنبياء الذين

---

(١) راجع:

أ . العلامة محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، دار الكتب الإسلاميّة . طهران، ١٣٦٥هـ، الجزء ٤٤، راجع الباب المخصّص بالكامل عن حديث الرسل والأنبياء عليهم السلام عن الحسين عليه السلام.

ب . توفيق فتح الله، عاشوراء وكلمات خالدة، مصدر سابق ص١٠.

ج . المنبر الحسيني، مصدر سابق ص٣٠.

عرفوا الكثير من الحقائق عن محمد ﷺ وعن أسرار أهل بيته الأخيار الأطهار عليهم السلام.

فالنبيّ سليمان الحكيم عليه السلام، شأنه شأن موسى وإبراهيم وآدم وغيرهم من الرسل والأنبياء عليهم السلام، كان من العارفين بما ستؤول إليه الأمور في عصر الرسول الأخير ﷺ الذي سَيُلاقي من قومه ما لم يَلقه قبله أيُّ رسولٍ آخر.

ومن المعروف عن النبيّ سليمان عليه السلام أنّ الله سبحانه وتعالى قد منحه الذكاء والفطنة، وإصابة الحكم منذ صباه، وقد جمع الله له المُلكَ والحكم والنبوّة.

ومن نِعَمِ الله عليه أيضاً أنّ الريح الشديدة صارت مسخّرةً له، تحمل بساطه وتجري بأمره إلى الأرض المقدّسة التي بارك الله فيها، فتستغرق وقت الذهاب مسيرة شهر، ومثلها في وقت الرجوع.

وقد ذَكَرَ القرآن الكريم أنّ بعض الشياطين أصبحوا تحت سيطرته وإمرتهِ، فيغوصون له في البحار ويستخرجون اللآلئ والأحجار الكريمة النادرة، ويعملون له العديد من الأعمال الغريبة الأخرى التي يعجز الإنسان العاديّ عن الإتيان بمثلها.

وقد بيَّن لنا القرآن أيضاً أنّ الله أسال لسليمان (عين القطر) وهو النحاس المُذاب[1]، ومثلما سخّر الله له بعض الشياطين لخدمته، سخّر له أيضاً الجنّ ليعملوا له ما يشاء من المباني العظيمة والتماثيل والقدور الكبيرة جدّاً لصنع الطعام فيها للضيوف والمحتاجين.

ومن نِعَمِ الله عليه أيضاً، عِلْمُه بمنطق الطير عامّةً، وبمنطق بعض المخلوقات الأخرى، وباختصارٍ شديدٍ، كان سليمان عليه السلام نبيّاً لا يمكن وصف حاله لكثرة الهبات والنِّعم الإلهيّة التي أغدقها الله عليه.

---

(١) علي فكري، أحسن القصص، دار الكتب العلمية. بيروت، ط٥/١٩٧٥، ج١ ص١٣٧.

وقد جاء في الروايات عن هذا النبيّ العظيم عليه السلام أنّه كان في أحد أسفاره جالساً على بساطه والبساط يسير به في الهواء، فمرَّ به البساط فوق أرض كربلاء، فاضطرب البساط، وأدارت الريح بساطه ثلاث دورات، حتّى خاف سليمان عليه السلام ومَن معه السقوط، فسكنتْ الرّيح ونزل البساط في أرض كربلاء...

فقال سليمان للريح (وفي الحقيقة للمَلَك الموكّل بالرّيح): «لِمْ سكنت؟».

فقالت: إنَّ هنا يُقتَلُ الحسين عليه السلام.

فقال: «ومن يكون الحسين؟».

قالت: هو سبط محمد المختار، وابن عليّ الكرَّار.

فقال: «ومَن قاتله؟».

قالت: لعين أهل السّماوات والأرض يزيد، فرفع سليمان يديه ولعنهُ ودعاً عليه، وأمَّن على دعائه الإنس والجنّ، فهبَّتْ الريحُ وسار البساط[1].

وهنا أريد أن أعود وأؤكّد على مسألة حسّاسةٍ لا يمكن تجاوزها أو، على الأقلّ، تجاوز الإشارة إلى خطوطها العريضة والعامّة، إنّها مسألة (الرمزيّة) في الروايات والأحاديث الدينيّة.

فمنذ أن أدرك الإنسان ذاته ومحيطه، ومنذ أن عرف الأنواع البدائيّة من الفنون والآداب، وحتّى الطقوس والعبادات الخاصّة، كان ميّالاً إلى استخدام الرمز في مختلف فعّالياته الفكريّة والروحيّة، وقد استمرّت هذه الحالة معه عبر العصور والأجيال، وعبر مختلف الديانات الوضعيّة والسّماوية، بما في ذلك الديانة الإسلاميّة،

(١) المنبر الحسيني، مصدر سابق ص٣٠، وقد جاء في نهاية الرواية أنّ هذا الحديث مأخوذٌ عن كتاب (البحار) دون تحديد الجزء، ولكن من المؤكّد أنّ الرواية مأخوذةٌ من الجزء /٤٤/ من الكتاب المذكور لمؤلّفه العلامة (المجلسي).

وقد تنبّه الكثير من الباحثين في مجال علم دراسة الإنسان (Anthropology) وعلم اللاهوت (Theology)، وحتّى علم الأساطير (Mythology) إلى الدّور الكبير الذي يلعبه الرمز في حياة الإنسان على كافّة المستويات، وبشكلٍ خاصٍّ المستويين الأدبيّ والروحيّ.

فالرمز يمكن أن يكون حرفاً، ويمكن أن يكون رقماً أو إشارة، أو حتّى لوناً، ويمكن للرمز أن يتحوّل من حالة الحرف إلى حالة النّصّ الكامل سواء في الحديث أو القصّة أو المسرحيّة، ويمكن للإشارة أو اللون أن يتحوّل من مجرّد إشارة مُفردة أو لون أَصَمّ إلى لوحةٍ فنيّةٍ كاملةٍ مليئةٍ بحيويّة الألوان والرموز.

ونحن نعلم أنّ العصر الحديث قد أفرز وبَلْوَرَ العديد من المدارس الرمزيّة التي تتناول جوانب مختلفة من ميادين العلوم الإنسانيّة كالرسم والنّحت والشعر والقصّة والمسرح، وقد أفرز أيضاً بعض التيّارات الفكريّة والفلسفيّة والروحيّة التي تميل إلى النزعة الصوفيّة القائمة أساساً على تقدير الرمز واحترامه وإعطائه القيمة الفكريّة الكبرى باعتباره أحد الطرق الأساسيّة للوصول والوقوف على الحقائق العليا في الوجود.

وعلى سبيل المثال، يقول الباحث السوري (صهيب سعران) في كتابه (مقدمة في التصوّف): (القرآن وعوالمه اللانهائيّة كان الأساس الذي قامت عليه الرمزيّة في الفكر الإسلاميّ بشكلٍ عامٍّ، والغُنوص الشيعي، ومن ثمّ الصوفي بشكل أكثر خصوصيّة)[1].

ومن أجل إزالة أيّ نوعٍ من الالتباس أو سوء الفهم حول قوّة الرمز وتأثيره، ها هو يوضّح معنى العمق الروحي والمعرفي للكلمة (الرمز) في القرآن الكريم ذاته، بقوله:

---

(١) صهيب سعران، مقدمة في التصوّف، دار المعرفة. دمشق، ١٩٨٩، ص٢٦.

(فالكلمة في الإسلام، مصدرُ وحي وإلهام، نورٌ يمدُّ قلب المسلم بينابيع الحكمة، إنّها طريقُ وصولٍ إلى عين اليقين لأنَّ القرآن، وهو المصدر الروحي الأكبر للمسلم، هو اللوح المحفوظ الذي خَطَّتْ عليه الإرادةُ الإلهيّة كلمتَها، بل إنّ الإعجاز القرآني الغنوصي احتوى سريّة الكلمة في الحرف (مفاتيح السور: آلم، آلر، طسم...)[1].

وانطلاقاً من هذه الحقيقة الثابتة، نستطيع القول إنّ القصص والروايات العديدة الواردة في القرآن الكريم عن الرسل والأنبياء السابقين عليهم السلام وعن الأمم والشعوب الغابرة لها أكثر من عمق في المعاني والدلالات، وبالتالي، يجب علينا عدم التوقّف والثّبات عند المعنى الظاهري لها فقط.

وعلى كلّ حالٍ، ربّما سيكون لنا عودةٌ ثانيةٌ لإكمال الحديث عن هذه المسألة الحسّاسة والتي هي في حقيقتها جزءٌ لا يتجزّأ من علوم دراسة الكلمة القرآنية المُخاطِبة العقول البشريّة على مختلف مستوياتها الفكريّة واستعداداتها الروحيّة.

وحتّى لا نسهب كثيراً في الكلام حول هذه المسألة هنا، دعونا الآن نكمل رحلتنا الشيّقة والمثيرة لكوامن النّفس، تلك الرحلة التي نخترق من خلالها حُجبَ الزمن الغابر كي نلتقي بالرسل والأنبياء عليهم السلام الذين هم بدورهم اخترقوا حُجُبَ الزمن المستقبليّ القادم كي يروا ويعلموا ما سيحدث لسبط آخر نبيٍّ على وجه هذه الأرض المثقلة بالهموم والأحزان، والتي لا يزال قابيل يقتل فيها أخاه المظلوم هابيل في كلّ مكانٍ وزمان.

وها نحن الآن نقلّب صفحات الماضي ونطوي الأيام والأعوام والقرون، وها نحن نصل أخيراً بعد طول العناء، ونحطّ رحالنا قرب نبيٍّ كريم من أنبياء الله يُدعى

(١) نفس المصدر السابق ص٢٥.

(إسماعيل بن حزقيل)، إنّه نبيّ بعثه الله في قومه يدعوهم ليلاً ونهاراً إلى عبادة الله الواحد القهّار والحليم الغفّار، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويذكّرهم باليوم الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من يأتي الله بقلبٍ سليم.

فماذا كانت عاقبة ذلك النبيّ في قومه؟

وكيف كان ردُّ فعله على ما قاموا به ضدّه؟ وكيف واسى نفسه على كلّ ما لاقاه من قومه الظالمين؟

إنّ الجواب على ذلك كلِّه موجودٌ عند الإمام الصادق عليه السلام الذي يخبرنا قائلاً: «إنّ إسماعيل الذي قال الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا**﴾[1]، لم يكن إسماعيل بن إبراهيم، بل كان نبيّاً من الأنبياء بعثه الله عزّ وجلّ إلى قومه فأخذوه فَسَلخوا فروة رأسه ووجهه، فأتاه مَلَكٌ، فقال: إنّ الله جلّ جلاله بعثني إليك فَمُرْني بما شئت، فقال: لي أسوةٌ بما يُصنعُ بالحسين عليه السلام»[2].

نَعَمْ، نِعْمَ الأسوة الحسين عليه السلام، ليس للنّاس العاديين فحسب، بل أيضاً لكلّ الرسل والنبيين، فالحسين عليه السلام مصباح تألَّقتْ شعلته في أرض كربلاء، فأضاءت بنورها عوالم السّماء.

وها هو الفكر الإسلاميّ السنّي المعاصر يصوّر هذه الحقيقة المؤكّدة بطريقةٍ تراجيديّةٍ مهيبة وكأنّها جزءٌ من مسرحيّةٍ كونيّة كتبتها السّماء بقطرات من المطر والندى، فحوّلتها الأرض إلى قطراتٍ من الدّموع والدّماء.

---

(١) سورة مريم: الآية٥٤.

(٢) الشيخ الصدوق (ابن بابويه القمّي)، علل الشرائع، مصدر سابق ج١ ص٩٨.

هذا هو الفكر السنّي الحرّ يقول:

(وبينما الحسين في سبحاته القدسيّة ونجواه المائجة بروح الاصطفاء، تبدّى لناظريه في وجهة قلبه أطياف يشتملها الرضى وتلفعها نشوة الاغتباط، وهي تباركه وتشدّ عزمه وتهيب به إلى الوثبة، الوثبة الكبرى، فهتف مُسْتَبْشِراً:

«ربّاه! ماذا أرى؟ إنّها أطياف جدّي المصطفى، وأبي الشهيد، مِن ورائهما الملائكُ تدعوني إلى الله، إلى التضحية العظمى».

كان الكبشُ، في يومٍ، فِداءَ نبيٍّ...

ولكنّ النبيّ الأعظم، إنّما يكون له الفداء الأعظم...

وحبيبٌ إلى نفسي أن أكون ذلك الفداء...)(١).

ألم يَقُلْ الفكر السنّي المعاصر، وهذه المرّة، على لسان العالم الأزهري الفذّ (خالد محمد خالد):

إنّ أهل البيت عليهم السلام جميعاً لم يأتوا إلى الوجود إلا من أجل فداء رسالة سيِّد الوجود!!

ألم يَقُلْ عنهم أيضاً ذلك القلم النابض بالحبّ والوفاء:

(لقد كرّسوا حياتهم للحقّ، أعظمَ ما يكون التكريس...

وضَحّوا في سبيله، أصدقَ ما تكون التضحية...

... إنّهم للتضحية خُلِقوا.. وللفداء عاشوا..)(٢)؟!

فهل هناك أدنى شكٍّ أو رَيبٍ في هذا الكلام العذب المتدفّق من يَراعٍ كريمٍ

(١) عبد الله العلايلي، الإمام الحسين، مصدر سابق ص٥٥٣.

(٢) خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق ص٢٠،٢١.

أخلص الودَّ لأهل المودَّة عليهم السلام عند حديثه عن معاني البطولة والتضحية والفداء؟!

فالبطولة عند أهل البيت عليهم السلام ليست فقط أن تحمل السيف وتصرع الأبطال الواحد تلو الآخر، ولا أنْ تبدّد جموعهم وتفتك بهم كما يفتك الأسد القَسوَرة بالفرائس المُستَنفرة، ولكنّ البطولة الحقيقيّة هي أن تسخّر قوّة السيف من أجل سلامة المبدأ ونبالة العقيدة، البطولة الحقيقيّة هي أن تثبتَ على ما أنت عليه من الحقّ ولو كلّفك ذلك خوض اللجج وسفك المهج.

البطولة الحقيقيّة هي أنْ تدخل في الحياة على الأرض من الباب الضيّق، ومن بعده تعرج بروحك عالياً لتدخل أوسع الأبواب في مملكة السّماء.

فالسيّد المسيح عليه السلام يقول: «ادخلوا من الباب الضيّق، فما أوسعَ البابَ وأسهل الطريق المؤدّية إلى الهلاك، وما أكثر الذين يسلكونها، لكنْ ما أضيقَ البابَ وأصعبَ الطريق المؤدية إلى الحياة، وما أقلّ الذين يهتدون إليها»[١].

ولا نعتقد أنّ هناك من هو أقدر على معرفة الباب الضيق والطريق المؤدّية إلى حياة الخلود من أهل البيت عليهم السلام الذين كانوا هم، بحقيقتهم، كالباب الضيّق أو باب حطّة الذي من دخله غُفِرَ له، ومن استمسك به وثبت على اختياره له فقد تحصَّن بحصن الله، ومن تحصّن بحصن الله فقد أَمِنَ عذابه، ولذلك، فعندما نقول ونؤكّد على أنّ أهل البيت عليهم السلام عموماً كانوا المثال الأعلى والقدوة الأنبل في البطولة والتضحية وفي الثبات على المبادئ والقِيَمِ التي ورثوها عن سيّد الرسالة وصاحبها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّ ذلك لا يعني أنّ هذا الكلام هو كلامنا فقط، وإنّما هو كلام أولئك الذين درسوا سيرة أهل البيت عليهم السلام وحلّلوها التحليل الدقيق والمفصّل،

(١) الإنجيل المقدس، إنجيل متى ج٧ ص١٣.

فَوَصلوا إلى ما وصلوا إليه من خُلاصات ونتائج تتّفق جميعها على أنّهم عليهم السلام هُم أوّل من رسم طريق الفناء في الله، حيث يكون الفناء في الله هو عين الخلود والبقاء.

وقبل أن ننتقل إلى واحتنا الأخيرة، مع نبيٍّ آخر، لنتعرّف على نبوءته ومعرفته بملحمة الحسين عليه السلام، دعونا الآن نورد شيئاً قليلاً ممّا قاله الأديب والمفكّر المصريّ الراحل (أحمد أمين) عن تضحيات ومِحن أهل البيت عليهم السلام في سبيل الثبات على مبادئ رسالة السّماء، وقد أحببنا أن نورد هذه السطور القليلة للأستاذ (أمين) كتأكيدٍ على ما قلناه منذ قليل عن معاني البطولة والفداء عند أهل بيت النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا أعتقد أنَّ هناك حاجة كبيرة لتعريف القارئ الكريم بالأستاذ (أحمد أمين)، فهو أديبٌ ومفكّر مشهورٌ، ولكن لا بأس بتقديم بعض النقاط الضرورية عنه.

ولد أحمد أمين عام (١٨٧٨)، وتعلّم مدّةً قصيرةً في الأزهر، عُيِّن مديراً ثقافيّاً للإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية إلى أن تُوفيّ عام (١٩٥٤)، كان من أعضاء المجمع العلميّ العربي بدمشق ومجمع اللغة في القاهرة، له الكثير من المقالات والكتب في ميادين مختلفة، من أشهرها: (فجر الإسلام)، (ضحى الإسلام)، (ظهر الإسلام)، (يوم الإسلام)، (قاموس العادات)... وكتب أخرى عديدة.

ومن اللافت للانتباه في مؤلّفات هذا الكاتب هو التحوّل الملحوظ في فكره بشأن نشأة التشيّع والفكر الشيعيّ المرتكز على تعاليم أهل البيت عليهم السلام الرساليّة.

فمن المعروف عن هذا الأديب والمفكّر أنّه كان دائم التحامل على الشيعة وعلى الفكر الشيعيّ، بل كان من المتحاملين أحياناً، في بعض كتبه، على أهل البيت ذاتهم عليهم السلام.

وقد ذكر العلامة السيد (محسن الأمين) في كتابه الثمين (أعيان الشيعة) الشيء

الكثير من تحامل هذا المفكّر على المذهب الشيعيّ[١].

ومع ذلك، فقد تغيّرت بعض آرائه عن الشيعة في الفترة الأخيرة من حياته، وراح يدافع، في ما يكتب، عن أهل البيت عليهم السلام وعن البعض من حقوقهم ومبادئهم التي عاشوا لها وقضوا من أجلها، حتّى لتحسب أنّ الذي يدافع عنهم اليوم لم يكن مناوئاً لهم بالأمس.

وعلى كلّ حال، ها هو يصوّر، بشكلٍ إجمالي، ما لاقاه أهل البيت عليهم السلام، سواء في كربلاء أو في غيرها، من ظلمٍ أمويٍّ وعباسيّ ممّا لا يطيقه قلب بشر أو تحتمله الفِكَر، وقد كتب عن ذلك يقول:

(إنّ الدولتين الأمويّة والعباسيّة أخذتا بالعنف وعاملتاهما بأقصى ممّا يُعامَلُ الكَفَرةُ الملحدون، فمن حين إلى حين تحدث مجزرة، ولا يكاد يجفّ منهم دم حتّى يسيل دم، وتفنَّنتا في ذلك فَقَتلٌ وصلبٌ وإحراقٌ وتذريةٌ وإماتةٌ بطيئةٌ في السّجون بحرمانهم من النّور والهواء والأكل والماء، وكلّ هذا وأقلّ منه ما يستنزف الدّمع ويذيب القلب)[٢].

وبالطبع، وكما ذكرنا منذ قليل، فإنّ هذه المجازر التي ارتُكِبت ضدّ أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام لم تكن فيها فاجعة كربلاء الفاتحة ولا الخاتمة، وإنّما كانت حلقةً من سلسلةٍ من الحلقات الدامية التي تجعل كلّ يومٍ من أيامهم كربلاء جديدةً متجدّدةً في جراحها ونزيفها.

وإليكم الآن قصّة نبيٍّ عزيزٍ لاقى من قومه الكثير والكثير من الظلم والجور

(١) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، مطبعة الإنصاف . بيروت، ط٤، ١٩٦٠، ج١ ص٨٩ـ ١٥٠.

(٢) سامح كريّم، إسلاميّات، دار القلم . بيروت، ١٩٨٢، ص٦٩.

والهوان حتّى لَتَحسبه هو وابنه الغالي الحبيب، وما لاقاه هو أيضاً من نفس القوم، نسخةً ثانيةً ممّا لاقاه رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام عليهم السلام من قومهم.

فَمَنْ منّا لم يسمع بنبيّ الله زكريا عليه السلام وبابنه النبيّ يحيى عليه السلام ؟!

ومَنْ منّا لم يقرأ في القرآن الكريم تلك الآيات المباركات التي تصفهما وتصف فيهما الزهد والتقوى والإيمان؟!

ولكنْ، هل كلّنا يَعلم قصّةَ هذين النبيين الكريمين وما حدث معهما في قومهما؟!

وهل هناك مَن يعلم منّا علاقة هذين النبيين برسولنا الكريم صلى الله عليه وآله وبابنه الحسين عليه السلام ؟!

وللإجابة على هذه الأسئلة، دعونا نلقي الضوء على المختصر المفيد من سيرة هذين النبيين الكريمين عليه السلام وعلى ما حدث معهما في قومهما.

فمن المعروف عن النبيّ زكريا عليه السلام أنّه ابن (برخيا) وهو من ذريّة النبيّ سليمان عليه السلام، وكان زكريا عليه السلام الحبرَ الكبير في بني إسرائيل، وهو الذي يقرّب القربان في بيت المقدّس، ويتلو عليهم التوراة، وكان متزوّجاً من امرأةٍ فاضلةٍ هي أخت (حَنّة) زوجة (عمران بن ماثان) أحد كبار بني إسرائيل، وكانت (حنّة) قد حُرمت الولد حتّى يئستْ، فتوسّلت إلى الله الكريم أن يمنَّ عليها ويرزقها ولداً، وقد نذرت لله أنّ المولود المنتظر سيكون مكرّساً لعبادته وخدمته وحده سبحانه وتعالى، فاستجاب الله لها وأصبحت حاملاً، ولكنْ توفيَ زوجها (عمران بن ماثان) وهي حامل، فلمّا وضعت (حنّة) حملها، كان مولودها أنثى ولم يكن ذكراً، ومع ذلك: فقد بَقيَتْ (حنّة) محافظةً على نذرها وأرادت أن تفي لله به. أخذت (حنّة) ابنتَها الصغيرة التي أسمتها (مريم) إلى الأحبار من أبناء (هارون) وقالت لهم: دونكم هذه المولودة التي نذرتها لله، فما كان

منهم إلا التنافس على الفوز بها وتربيتها التربية اللائقة لأنّها بنت إمامهم وكبيرهم وصاحب قربانهم.

فلمّا ألقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة ارتفع قلم زكريا عليه السلام فوق الماء ورسبت أقلامهم، عندئذٍ أخذها زكريا عليه السلام وضمّها إلى خالتها ـ أي زوجته ـ وربّاها أحسن تربية حتّى كبرت وبلغت ما تبلغه النساء، وحتّى يكتمل نذر والدتها (حنّة)، فقد بنى لها زكريا عليه السلام محراباً خاصّاً، فاعتكفت فيه وصارت تتعبَّدُ لله ليلاً ونهاراً، ولم يكن يدخل عليها أحدٌ غير زكريّا عليه السلام.

ولمّا رأى زكريا عليه السلام من كرامات (مريم) عليها السلام ما رأى، وكان قد بلغ من العمرِ قرابةَ مئة وعشرين سنة[1]، ولم يرزقه الله ولداً من امرأته العاقر (أليصابات)، دعا ربَّه أن يرزقه من زوجته ذريّةً طيبة مباركة.

ودعا زكريا عليه السلام ربّه دعاءً خفيّاً لا علنيّاً، وقد أخبرنا القرآن الكريم بدعائه الخفيّ وماذا قال فيه، وكان من جملة ما نادى به ربّه هو: يا ربِّ لقد وهن عظمي، واشتعل الرأس شيباً، وإنّي أخاف بني عمّي وعصبتي من بعدي أن يرثوني بعد حياتي فلا يحسنون خلافتي، فامنحني يا إلهي من فضلك وليّاً من صلبي يخلفني ويرثني ويرث من آل يعقوب العلم والنبوّة (لأنّ زكريا عليه السلام كان من ذريّة يعقوب عليه السلام).

فاستجاب الله سبحانه وتعالى له وبشَّرهُ بغلامٍ من زوجته العاقر (أليصابات)، وأوحى إليه إنّا نبشّرك بغلامٍ اسمه (يحيى) لم نجعل له شبيهاً ولم يُسمّ باسمه أحدٌ من قبل، وسيكون أيضاً سيّد القوم حليماً تقيّاً، ومن الأنبياء الأطهار الصالحين.

وبالفعل، وبعد فترةٍ وجيزةٍ من الزمن، تبيّن أنّ (أليصابات) حامل، وأنّها ستلد ما

(١) علي فكري، أحسن القصص، مصدر سابق ج١ ص١٦٢.

كان زكريا عليه السلام يرجوه ويتمنّاه، وبعد ستة أشهرٍ من بدء حملها يأتي يحيى عليه السلام فيكون قرّة عين لأبويه وخليفةً لوالده العظيم، فيضطلع بأعباء الدعوة إلى الله، وتظهر عليه آثار النجابة منذ الصغر، ويؤيّده الله سبحانه وتعالى بالعلم وقوّة الحكم بكتاب التوراة، ويمتازُ عن أقرانه أيضاً بالبرّ بوالديه وبالحبّ والحنان والصلاح والتقوى وهو ما يزال شاباً في مَيعة الصّبا.

أمّا عن قصّة استشهاد هذا النبيّ، فهناك إجماعٌ عامٌّ بين الروايات التاريخيّة على طريقة وأسباب مقتلهِ، ولكن هناك بعض الاختلافات في بعض النقاط التفصيليّة التي تتعلّق بالعمل الذي قام به الحاكم الآثم في المدينة التي كان يقطنها يحيى عليه السلام، فهناك من يقول إنّ الحاكم الروماني (هيرودس) المسؤول عن ولاية منطقة (اليهوديّة) في فلسطين القديمة وقع في غرام زوجة أخيه (فيليبس) ـ وتدعى هيروديا ـ فأغواها وزنى بها.

وهناك روايةٌ ثانيةٌ تقول إنّه وقع في غرام ابنة أخيه، أمّا الرواية الثالثة فتروي أنّه وقع في غرام ابنة شقيقته (هيروديا) وعلى الرغم من أنّنا لا نستطيع أن نرجّح روايةً على أخرى، إلا أنّنا نورد هذه القصّة التي كلّ ما يهمّنا منها هو العبرة من خاتمتها.

وتقول هذه الرواية، وباختصارٍ شديدٍ، إنّ عيسى ابن مريم عليه السلام بعث يحيى بن زكريا عليه السلام في اثني عشر من الحواريين يعلّمون النّاس وينهونهم عن نكاح ابنة الأخت، وكان هناك ملك من الرومان في بعض نواحي فلسطين يُدعى (هيرودس) وقع في غرام ابنة أخته (هيروديا)، وكان يريد أن يتزوّجها، فلمّا بلغ أمّها (هيروديا) أنّ يحيى عليه السلام نهى عن مثل هذا الزواج، أضمرت له في نفسها شرّاً مستطيراً، وسخطت عليه سخطاً عظيماً، وبعد مدّةٍ من الزمان هيّأت (هيروديا) ابنتها (سالومي) وقالت لها:

أريد أن آتي بك إلى الملك، فإذا واقعك ونال مراده منك، سيسألك عن حاجتك، فقولي له: حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا، وبالفعل، فقد حَدَثَ ما قالته الأمّ (هيروديا)، ولكنّ الملك امتنع في بداية الأمر، لكنّه سرعان ما استجاب لطلبها طمعاً في إرضائها والفوز الدائم بجمالها، فأمر بِطَشْتٍ ثمّ دعا يحيى بن زكريا عليه السلام إلى قصره، وما هي إلا لحظاتٌ حتّى ذُبِحَ يحيى كما تُذبح الخراف وامتلأ الطشت بدمه، وسقطت قطرةٌ من دمه على الأرض، فلم تزل تفور وتعلو حتّى بعث الله (بختنصر) عليهم، فقتل منهم سبعين ألفاً حتّى سكن ذلك الدم(١).

وهنا، علينا أن نعلم أنّ زكريا عليه السلام ذلك النبيّ الصابر الذي دعا الله صباحاً ومساءً من أجل أن يرزقه الله ولداً تقرُّ به عينه، قد سمع بما فعله الملك الآثم بابنه الوحيد يحيى عليه السلام، ولم يتوقّف ذلك الأمرُ المرير عند ذلك الحدّ، بل إنّ المأساة قد امتدّت بمرارتها لتصل إلى زكريا عليه السلام نفسه، فبعد سماع زكريا عليه السلام بفاجعة ابنه الوحيد يحيى عليه السلام، فرَّ هارباً من سطوة الملك، فدخل بستاناً عند بيت المقدس فاكتشف الملك أمره وأرسل في طلبه، وقَتَلَه فوراً، فقضى نحبه بعد طول السنين شهيداً كابنه الحبيب يحيى عليه السلام(٢).

ومن المؤكّد أنّ هذه القصّة المؤثّرة عن النّبيين الشهيدين زكريا عليه السلام ويحيى عليه السلام ستقودنا إلى السّؤال التالي:

ما علاقة هذه القصّة الحزينة بقصّة كربلاء، وما علاقة زكريا عليه السلام وابنه يحيى عليه السلام بمحمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وابنه الحسين عليه السلام؟!

---

(١) السيد نعمة الله الجزائري، قصص الأنبياء، دار البلاغة. بيروت، ط٢/١٩٩٣، ص٤٣٠.

(٢) علي فكري، أحسن القصص، مصدر سابق ج١ ص١٦٧.

وربّما يقودنا هذا السّؤال إلى سؤالٍ آخر لا يقلّ عنه أهميّةً، وهو:

كيف رزق الله سبحانه وتعالى النبيّ زكريا عليه السلام وَلَداً بعد أن تجاوز عمره المئة والعشرين عاماً، وكانت زوجته عاقراً، ولماذا فجعه الله به بعد أن رزقه إيّاه؟!

إنّها، بلا ريب، أسئلةٌ حسّاسةٌ تتطلّب الإجابة عليها بشكلٍ يؤكّد فعلاً وجود علاقة قوية بين مأساة زكريا ويحيى من جهةٍ ومأساة محمد والحسين من جهةٍ أخرى.

وللوقوف على الجواب الشافي على كلّ هذه التساؤلات المنطقيّة، علينا أن نقرأ ما جاء في كتاب (الاحتجاج) للعلامة (الطبرسي)، وفي غيره من الكتب المعتبرة الأخرى.

وقد جاء في تلك الكتب أنّ سعد بن عبد الله سأل الإمام المهدي القائم المنتظر (عج) عن تأويل قوله تعالى: (كهيعص)، فقال الإمام القائم عليه السلام:

«هذه الحروف من أنباء الغيب، أَطْلعَ عليها عبده زكريا ثمّ قصّها على محمد صلى الله عليه وآله، وذلك أنّ زكريا عليه السلام سأل ربّه أن يعلّمه أسماء الخمسة، فأهبط الله عليه جبرائيل فعلّمه إيّاها، فكان زكريا إذا ذَكَر محمداً صلى الله عليه وآله وعليّاً وفاطمة والحسن عليهم السلام سَرَى عنه وانجلى كربه، وإذا ذكر الحسين عليه السلام خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة - أي صعوبة الزفير - وتتابع النّفس، فقال (زكريا) عليه السلام ذات يومٍ: إلهي، ما بالي إذا ذكرتُ أربعةً منهم تسلّيتُ بأسمائهم من همومي، وإذا ذكرتُ الحسين عليه السلام تدمع عيني وتثور زفرتي، فأنبأهُ الله تعالى عن قصّته فقال: (كهيعص)، فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد وهو ظالم الحسين عليه السلام، والعين عطشه، والصاد صبره، فلمّا سمع بذلك زكريا عليه السلام لم يفارق مسجدَه ثلاثة أيام ومنع فيهنّ النّاس من الدّخول عليه

وأقبل على البكاء والنحيب»[١].

وبالطبع، ليس هذا كلُّ شيءٍ بالنسبة لنبيِّ الله زكريا عليه السلام، بل إنّ زكريا عليه السلام كان يرثي لحال الحسين عليه السلام ولحال جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، خير الأنبياء وآخرهم.

ومن خلال معرفتنا بالدّعاء الذي كان ينادي به زكريا عليه السلام ربّه، نستطيع أن ندرك لماذا رَزقه الله سبحانه وتعالى على كبر سنِّه ولداً نبيّاً تقرُّ به عينهُ ثمّ ما لبث أن فجعه به بطريقةٍ مأساويّةٍ مؤسفةٍ تتفطّر لذكرها القلوب.

وها هو الإمام القائم المنتظر عليه السلام يتابع كلامه مخاطباً سعد بن عبد الله وشارحاً له طبيعة الدّعاء والرثاء الذي كان يخاطب به زكريا عليه السلام ربّه:

«كان (زكريا) يرثيه ويقول: إلهي، أتفجع خيرَ خلقك بولده؟ إلهي، أَتُنزل بلوى هذه الرزيّة بفنائه؟ إلهي، أَتُلبس علياً وفاطمة ثياب هذه المصيبة؟ إلهي، أَتُحِلُّ كربة هذه المصيبة بساحتهما؟ ثمّ كان يقول: إلهي ارزقني ولداً تقرُّ به عيني على الكبر، فإذا رَزَقتَنيه فَافْتِنّي بحبّه، ثمّ افجعني به كما تفجع محمداً حبيبك بولده، فرزقه الله يحيى عليه السلام وفجعه به، وكان حمل يحيى عليه السلام ستة أشهر، وحمل الحسين عليه السلام كذلك»[٢].

---

(١) راجع ما جاء في:

أ ـ أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، ١٩٨٣، ج٢ ص٤٦٤.

ب ـ السيد نعمة الله الجزائري، قصص الأنبياء، مصدر سابق ص٤٢٨.

ج ـ توفيق فتح الله، عاشوراء وكلمات خالدة، مصدر سابق ص١١.

(٢) راجع أيضاً ما جاء في:

أ ـ أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، مصدر سابق ص٤٦٤.

ب ـ السيد نعمة الله الجزائري، قصص الأنبياء، مصدر سابق ص٤٢٨.

ج ـ توفيق فتح الله، عاشوراء وكلمات خالدة، مصدر سابق ص١٢.

وهنا، وقبل أن نختتم هذا الفصل المؤثّر بكلّ ما فيه من نبوءات وأحزانٍ نبويَّةٍ كربلائيّة، أريد من القارئ الكريم أن يعود مرّةً ثانيةً ويقرأ ما جاء في دعاء نبيّ الله زكريا عليه السلام وأن يتأمّله جيّداً ويفكّر فيه مليّاً، عسى أن تسقط من عينيه دمعة أو دمعتان تمنعان حَرَّ النّار أن يمسَّ وجهه يوم نصب الميزان ولقاء الرحمن.

ألا تعتقد معي يا صديقي القارئ أنّ القلوب التي تحترق اليوم على الأرض كالشموع بنارِ الصّبر والعشق ستصبح غداً أنواراً بلا نار في سماواتِ كَشْفٍ بلا استِتار؟!

ألا تعتقد معي، أيضاً، أنّ هناك نيراناً لا تطفئها كلّ مياه البحار والمحيطات، ولكن تطفئها فقط دموع العاشقين الصابرين؟!

فَها قد رَحلَ الليل وتنفّس الصباح وما علينا إلا أن نُمْسِكَ عن الكلام المُباح.

صورٌ من الفاجعة الرهيبة

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله الشريف: ﴿...مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾[1].

فما هو الشيء الجوهريّ الذي يمكننا أن نفهمه من هذه الآية القرآنية المباركة؟!

إنّ أبسط ما يمكن أن نفهمه من هذه الآية المباركة هو أنّ الرحمة عملٌ من عمل الرحمن، في حين أنّ القتل أو العنف عمل من عمل الشيطان، فكلّ عملٍ مرتبطٍ بالعنف لسبب غير معقول إنسانيّاً هو عملٌ يسيرٌ، بلاشكٍّ، على نهج شيطانيّ لا على نهج رحماني.

بل كيف لا يكون ذلك العمل عملاً شيطانيّاً، والله يدعونا دائماً للسلم والرحمة والمحبّة، حتّى أنّه عزّ وجلّ قد أسمى نفسه (السلام) ووصف نفسَه أيضاً في مبدأ كلّ سورةٍ من سور كتابه الكريم بـ (الرحمن) و(الرحيم)؟ وهل الرحمة غير السّلام والمحبّة؟!

فمسألة العلاقة بين السلم والعنف، بين الرحمة والنقمة، بين الإحياء والقتل، هي علاقةٌ واضحة المعالم في الفكر الإسلاميّ عموماً وفي فكر أهل البيت عليهم السلام خصوصاً، إذْ أنّها علاقةٌ تستمدّ وجودها من عمق الآداب الإلهيّة والأخلاق الرساليّة.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

ومن هنا نقول، إنّ الحديث عن فاجعة كربلاء، بل عن كلّ الفجائع التي أصابت أهل البيت عليهم السلام، لا بُدّ أن يمرّ عبر مفهوم السّلام في الإسلام، فالإسلام بحقيقته الروحيّة وبمنظومته الأيديولوجيّة قائمٌ على الحوار بالكلمة الطيّبة والحجّة البيّنة، ومهما حاول البعض من المستشرقين أن ينالوا من سماحة الإسلام ومن رسالته الإنسانيّة، فإنّ تلك المحاولة لا تعدو كونها زوبعةً في فنجان.

فالكثير من المفكّرين والأدباء، ومعظم المستشرقين أيضاً، حاولوا أن يكتبوا عن إنسانيّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن رسالته السمحاء بأسلوبٍ نزيهٍ وبعيدٍ عن التعصّب للقوميّات أو للدّين المسيحيّ الذي ينتمون إليه في بلدانهم الغربيّة المختلفة، ولولا ضِيق المجال هنا، لأوردتُ العشرات من الأمثلة المختلفة للتأكيد على مصداقيّة ما نقول.

وأنا أعرف الآن أنَّ هناك من القرّاء مَنْ يتساءل قائلاً: وما علاقة هذا الحديث بالحديث عن عنوان هذا الفصل (صُور من الفاجعة)؟!

ويمكننا الإجابة على هذا السؤال المحتمل بالقول: إنَّ حديثنا الآن عن إنسانيّة محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وعن رسالته هو بداية الكلام عن تلك الفاجعة المليئة بالصور المؤثّرة.

وقد علَّمتني القراءة، شخصيّاً، أنّه على الذي يريد أن يوصل فكرةً ما إلى أذهان النّاس، عليه أوّلاً أن يحدّثهم عن نقيضها، فالمفاهيم والأفكار وحتّى الكثير من المفردات في الوجود لا يمكن أن تُعرف حقَّ معرفتها إلا من خلال نقيضها أو ضدّها.

فعندما أتحدّث عن النّور وصفاته، لابدّ أن أتحدّث أيضاً عن الظلمة وصفاتها، وعندما أتحدّث عن اللون الأبيض وعن رمزه (الثلج) مثلاً، فمن الأفضل أن أتحدّث بنفس الوقت عن اللون الأسود وعن رموزه أيضاً، وهكذا، فالكلام عن الجِنان

الخضراء يستلزم الكلام عن الصحراء، والكلام عن الجنّة يتطلّب الكلام عن جهنّم، والحلم عن اليقظة، والحياة عن الموت، وهكذا إلى ما هنالك من متناقضات وأضداد في هذا الوجود.

ولكن من الممكن أيضاً أن تتبادر إلى ذهن كل واحدٍ منّا هذه الفكرة الأصيلة:

إذا كنّا نحن متأكّدين من حقيقة أنّ الإسلام دين السّلام، فمن أين وُلِدَ العنف في الإسلام، ومن أين جاءنا هجوم بعض المستشرقين علينا وإلصاق تهمة عطش الإسلام الدائم إلى القتل والنهب وسفك الدّماء البريئة؟!

في الواقع، هناك فرق كبيرٌ وفجوةٌ عظيمةٌ بين ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين، فالإسلام ـ كما يقول عنه المفكّر السويسري (مارسيل بوازار) في كتابه (إنسانيّة الإسلام) ـ هو دينٌ قائمٌ على احترام حقوق الإنسان، باعتبار أنّ (الإنسان يمثّل جوهرَ الإسلام)(١).

وهذا يعني أنّ الإنسان في الشريعة الإسلاميّة هو الغاية من هذا الوجود الذي أفاضه الله سبحانه وتعالى، فكلُّ ما في الوجود خُلِقَ من أجله هو، أمّا هو فقد خُلِقَ ليتذكّر، ويتعلّم، ويعمل، ويتعبّد لمن كان السبب في وجوده.

ولكن للأسف، فقد افترقت ثقافة الكثير من المسلمين عن ثقافة الإسلام منذ اللحظات الأولى لغياب الرسول الكريم ﷺ، وقد أوضحنا في فصلٍ سابقٍ كيفيّة حدوث الكثير من الانتهاكات الفاضحة لحقوق الإنسان في العصر الراشديّ وما بعده، وأوضحنا أيضاً كيف أنّ حادثة كربلاء المفجعة هي من الناحية النظريّة وليدة حادثة

---

(١) مارسيل بوازار، إنسانيّة الإسلام، ترجمة: د. عفيف دمشقيّة، دار الآداب . بيروت، ١٩٨٠، ص٩٩.

السقيفة المشؤومة، ولكن يرى البعض أنّ حادثة كربلاء، وهذه المرّة من الناحية العمليّة، هي ثمرة الثقافة الإسلاميّة المزيّفة التي أوجدها واعتنقها بعض كبار الصحابة من المسلمين والتي انعكست سلباً في علاقتهم مع ذاتهم ومع الآخرين.

وعلى سبيل المثال، يؤكّد المستشرق الهولندي (فان فلوتن) (Van Vloten) في كتابه (السيطرة العربيّة) على أنّ الذين قاموا بفتوحات عسكريّةٍ تحت اسم الفتح الإسلاميّ لا يمكن اعتبار ما قاموا به انتصاراً روحيّاً لدعوةٍ ما، ولكنّه (كان يمثّل احتلالاً مسلّحاً ما لبث أن تبلور بوضوح في سلوك الخليفة الثاني عمر وتصعيده لحركة الفتوح)[1].

ويعني هذا الكلام من المستشرق (فلوتن) أنّ المسلمين الأوائل لم يكونوا ـ برأيه ـ على مستوى لائق من الثقافة الروحيّة التي تؤهّلهم للتفاهم بالكلمة الطيّبة مع بقيّة الشعوب التي غزوها، وبالتالي، فقد كانت لهم ثقافتهم الخاصّة التي قامت على تبرير الحروب التي يشنّونها تحت شعارات مختلفة وغايات شتّى.

وعلى كلّ حالٍ، ما أريد أن ألفت نظر القارئ الكريم إليه هو أنّ المستشرق (فلوتن) له آراؤه الخاصّة بالكثير من القضايا الإسلاميّة، ولا يعني استشهادنا ببعض أقواله إخراجه من دائرة بعض المستشرقين المتعصّبين، فعنده العديد من الآراء ووجهات النّظر الغريبة التي لا نتّفق معه بشأنها بأيِّ حالٍ من الأحوال.

ولكنْ، ومهما يكن من أمرٍ، فإنّه لا يمكننا أن نتجاوز فكرة التعدّي على العديد من الأفكار والثوابت الإسلاميّة الإنسانيّة من قِبَلِ بعض كبار الصحابة، وهذا الكلام، وكما ذكرنا سابقاً، ليس من عندنا، بل هو كلامٌ واردٌ في كتابات ومؤلّفات الكثير من الباحثين

---

(١) فان فلوتن، السيطرة العربية، مصدر سابق ص٧٧.

والمفكّرين الذين لهم باعٌ طويلٌ في دراسة وتحليل صفحات وأحداث التاريخ الإسلاميّ من جهةٍ، وفي دراسة وتحليل سيرة الشخصيّات الإسلاميّة البارزة من جهةٍ أخرى.

فالمفكّر والباحث المسيحيّ (سليمان كتاني)، الذي تجاوزت مؤلّفاته حول الإسلام العشرين مؤلّفاً تقريباً، يرى أنّ هناك فارقاً كبيراً بين ثقافة الرسالة الإسلاميّة وبين ثقافة المسلمين من بعض الصحابة، ويرى هذا الباحث أنّه في الوقت الذي استطاعت فيه الرسالة الإسلاميّة إثبات جوهرها الإنسانيّ، حاول بعض كبار الصحابة، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، أن يعيد الروح القبليّة والجاهليّة إلى المسلمين وذلك عن طريق تمهيد الخلافة لصاحبه أبي بكر مع معرفته الكاملة أنّ صاحبه لن ينسى له ذلك الصنيع وسوف يعيد الخلافة إليه عند أوّل فرصةٍ سانحةٍ له بذلك[1]، وقد اعتبر الأستاذ (كتاني) أنّ هذا التصرّف من هذين الصحابيين التفاف واضح منهما على ثقافة السّماء التي قضت بالفعل أنْ تكون الخلافة الشرعية الحقّة في علي عليه السلام وأبنائه الكرام من السيّدة فاطمة عليها السلام.

وحتّى المستشرق اليهوديّ المعروف (ليوبولد فايس)، والذي تظاهر بالإسلام لاحقاً، أكّد أيضاً على الفجوة الموجودة بين ثقافة السّماء وثقافة بعض الصحابة التي كانت على نقيضٍ مع ما أرادته ثقافة السّماء، فالأستاذ (فايس) يقرّ بخلود رسالة الإسلام وبانفتاحها الكلّي أمام العقل الإنسانيّ وذلك من خلال ما تختزنه من كنوز وحكمة في القرآن الكريم[2].

(١) سليمان كتاني، الإمام الحسين في حلّة البرفير، مصدر سابق ص٤٤.
(٢) ليوبولد فايس (محمد أسد)، منهاج الإسلام في الحكم، مصدر سابق ص٦٠.

ولكن بنفس الوقت، يرى ذلك المستشرق اليهوديّ أنّ الصحابي عثمان بن عفّان قد وقع في تصرّفات كانت وخيمة العواقب وقد انعكست لاحقاً بشكلٍ سلبيٍّ على وجه التاريخ الإسلاميّ[١].

وهذا ما يؤكّد على أنّه انتهج نهجاً خاصّاً انحرف به عن الصراط المستقيم إلى مسالك أخرى أودت به وبالأمّة لاحقاً إلى المهالك والضعف والتفكّك، وعلى ما يبدو، فإنّ رأي الأديب والمفكّر المصري الشهير الدكتور (طه حسين) لا يختلف كثيراً عن رأي المستشرق الهولنديّ (فلوتن) بشأن ابتعاد عثمان بن عفان عن ثقافة السّماء ممّا تسبّب بضعفه وانهياره، غير أنّ رأي الدكتور (طه حسين) جاء بطريقة جريئة بعيدة عن الأسلوب الدبلوماسيّ وعن المحاباة، فقال في وصفه لعثمان: (كان عثمان يُقاد كالثور)[٢].

إذن، إنَّ ابتعاد بعض كبار الصحابة عن ثقافة الرسول ﷺ والرسالة، وانتهاجهم نهجاً شخصيّاً خاصّاً بهم مبنيّاً على رواسب الثقافة والأعراف القديمة، جعل منهم ومن أعمالهم ـ كما يقول عنهم مَنْ دَرَسَهم ـ السبب المباشر لتبرير أعمال العنف التي يمارسها بعض المسلمين منذ ذلك التاريخ وحتّى يومنا الحاضر، هذا بالإضافة إلى أنّهم هم السبب المباشر أيضاً في غياب روح الشورى، أو الديمقراطية، في حكومات الأمسِ واليوم بعد كلِّ ما قام به أولئك الصحابة الكبار من تجاوزات واضحة في هذا المجال، كما يقول ويؤكّد على ذلك بعض الدارسين والباحثين[٣].

---

(١) نفس المصدر السابق ص١١٠.

(٢) السيد مرتضى الرضوي، مع رجال الفكر في القاهرة، مطبوعات مكتبة النجاح . القاهرة، ١٩٧٩، ص١٩٨.

(٣) خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدّولة المركزية، مصدر سابق ص١١. ١٢.

إذنْ، من هناك، منذ ذلك التاريخ، ومنذ حدوث تلك التجاوزات الخطيرة التي كانت على حساب قِيَمِ ومبادئ الرسول الكريم ﷺ وعلى حساب تعاليم رسالته الإنسانيّة السّمحاء، بدأت المجازر وبدأ العنف، وغدا سفك الدّماء يتحوّل من ظاهرةٍ فرديّةٍ شاذّة وعابرة إلى ظاهرةٍ جمعيّةٍ عامّةٍ وطبيعيّة تغذّيها أيديولوجيا دمويّة قوية قائمة على الإقتداء بما فعله الآباء والأجداد الأوّلون من قتلٍ وتغييبٍ للكثير من المفاهيم والقِيَمِ الإسلاميّة الإنسانيّة الراقية.

ومن تلك التجاوزات العمليّة الخطيرة بدأت المأساة تنسج خيوطها السوداء القويّة حول كلّ ما يتعلّق بأهل البيت عليهم السلام، فالهدف الأوّل هو أهل بيت النبيّ عليهم السلام وما يحملونه من أفكارٍ رساليّةٍ تمثّل العمقَ الروحي والأفق الأيديولوجي لِفكر الرسول المصطفى محمد ﷺ، لقد غاب الرسول ﷺ عن السّاحة، ورحلت ابنته العزيزة فاطمة عليها السلام متأثّرةً بجراحها، وقُتِلَ الإمام علي عليه السلام غيلةً في مسجد الكوفة، ولم يسلم الإمام الحسن عليه السلام من المكيدة الأمويّة التي قَضَتْ بالتخلّص منه بجرعةٍ من السمِّ النقيع عن طريق زوجته جعدة بنت الأشعث، فهل بقي من أهل البيت عليهم السلام ومن أهل الكساء من أحد؟!

لا، لم يبق أحد من أعمدة أهل البيت المطهّرين من الرجس إلا الإمام الحسين عليه السلام الذي ستستمرّ رسالة جدّه المصطفى ﷺ من خلاله ومن خلال ذريّته الطاهرة.

ولأنّه لم يبق من أهل الكساء ومن أهلِ المباهلة إلا الإمام الحسين عليه السلام، ريحانة جدّه الرسول ﷺ، فمن الواجب القضاء عليه فوراً قبل أن يكون قادراً على نقل أفكاره ومبادئه النهضوية إلى ابنه الصغير الإمام علي زين العابدين عليه السلام.

وبالفعل، ها هي الغيمة السوداء تُقبلُ مُكفهرّةً، كالحة الوجه، محمولةً على

أجنحة الريح الصفراء العاتية مُيَمِّمةً وجهها شطر أرض كربلاء المقدّسة، أرض العزّة والكرامة، أرض الإيمان المعجون بالدّماء والدّموع والآهات والتراب الحزين.

وها هي بعض الصور الفجائعيّة المؤثّرة التي خلّفتها تلك الغيوم المكفهرّة الغاضبة والرياح العاتية التي وُلِدتْ من رحم الإعصار الأمويّ الدّامي الهادف إلى اقتلاع الإسلام من جذوره في أرض الذّبائح المقدّسة.

وغنيٌّ عن القول إنّ التسلسل الزمنيّ للأحداث والصور المؤثّرة ليس مهمّاً هنا، فالشيء المهمّ هو الحدث ذاته والصورة ذاتها، أمّا السّياق الزمني فيُعتَبرُ غير ذي أهميّةٍ في هذا المجال، وها نحن الآن نبدأ بعرض بعض هذه الصور معتمدين في ذلك، وكما هو واضحٌ من مقدّمة كتابنا، على المراجع الفكريّة المعاصرة.

ودعونا نبدأ الآن، أيّها الأحبّة، مع قصّة توبة (الحرّ بن يزيد الرياحي) أحد أعظم القادة في الجيش الأمويّ القادم لسحق الحسين عليه السلام ومحوِ ذكره إلى يوم الدّين، فما هي قصّة توبة ذلك القائد الأمويّ الكبير؟!

تبدأ قصّة هذا القائد القويّ والخطير عندما كان من أوائل المعادين المعاندين للإمام الحسين عليه السلام، فبعد أن كان من أوائل الذين كاتبوا الإمام الحسين عليه السلام وراسلوه من أجل الخروج والمجيء إلى كربلاء، عاد وأنكر أمام الحسين عليه السلام أنّه قد بعث إليه بأيّ رسالةٍ، بل وفوق ذلك راح يجنّد نفسه لخدمة قادة الجيش الأمويّ طمعاً ببعض المكاسب والمناصب.

وبالفعل، يحظى الحرّ بمرتبة لابأس بها في جيش عبيد الله بن زياد ممّا يدفع بابن زياد إلى إرسال كتاب إليه يأمره فيه بمراقبة الحسين عليه السلام قبل وصول موكبه إلى كربلاء، ويأمره أيضاً بالتضييق عليه وإزعاجه في كلّ خطوةٍ يخطوها.

وعندما يلتقي الإمام الحسين عليه السلام بالحرّ بن يزيد الرياحي وجهاً لوجه، يدور بينهما حديثٌ قصيرٌ يُفهمُ من خلاله أنّ الحرّ لن يترك الإمام الحسين عليه السلام طليقاً، بل إنّه مأمورٌ بأخذه إلى عُبيد الله بن زياد، فيرفض الإمام الحسين عليه السلام ذلك الطلب رفضاً شديداً ويبقى ثابتاً على موقفه مع معرفته التامّة بمدى حساسيّة الموقف.

وتتسارع الأحداث تِباعاً، وما هي إلا فترةٌ وجيزةٌ حتّى يتقابل الجيشان وجهاً لوجه، فجيش الإمام الحسين عليه السلام لا يتعدّى السبعين شخصاً إلا قليلاً، ومنهم النّساء والأطفال والشيوخ، في حين أنّ جيش يزيد قد تجاوز عدده الأربعة آلاف مقاتل شرس، وتذهب بعض الروايات إلى أنّه كان أكثر من ذلك بكثير.

وهنا يدرك الإمام الحسين عليه السلام أنّهم لن يقبلوا منه ما يدعوهم إليه من إصلاحٍ وعودةٍ لأسس ومنهاج الإسلام القويم، ولن يقبلوا منه أيضاً طلب العودة سالماً مع أهله وصحبه إلى المكان الذي جاء منه، فالشيء الوحيد الذي سيقبلون به هو الاحتكام إلى منطق السيف ولغة النّار.

وعندما أدرك الإمام الحسين عليه السلام كلَّ هذا، كان لابدّ أن يقف مُحذّراً ومُذكّراً ومُقيماً الحجّة على من لا حجّة لهم عليه، فالبرهان والإيمان هما سلاح الإمام الحسين عليه السلام أمام هذه الحشود التي ما جاءت إلا لتفتك به وبأهله وأتباعه، وبالتالي لتطلق رصاصة الخلاص على قلب الرسالة الإسلاميّة وجوهرها الثمين.

وها هي كتب إخواننا المسلمين السنّة والمسيحيين تسجّل تفاصيل ذلك الموقف الرهيب وكيف كانت عاقبة القائد الحرّ بن يزيد الرياحي قُبيل اندلاع المعارك.

تذكر تلك المؤلّفات والأبحاث المعاصرة أنّ الإمام الحسين عليه السلام وقف في تلك اللحظات الحاسمة مُحيلاً طَرْفَه بين الحشود المدجّجة بالسّلاح، فحمد الله وأثنى

عليه، ثمّ خاطبهم قائلاً:

«أمّا بعد، فانسبوني فانظروا مَن أنا، ثمّ راجعوا أنفسكم فعاتبوها وانظروا، هل يصلح ويحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألستُ ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه وابن عمّه وأولى المؤمنين بالله؟ أَوَليسَ حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي؟ أَوَليسَ جعفر الشهيد الطيّار في الجنّة عمّي؟ أَوَلَمْ قول مستفيض أنّ رسول الله ﷺ قال لي ولأخي: أنتما سيّدا شباب أهل الجنّة وقرّة عين أهل السنّة؟ أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي؟».

فلمّا لم يلقِ القوم إليه سماعهم، قال:

«فإنْ كنتم في شكٍّ ممّا أقول، أو تشكّون في أنّي ابن بنت نبيّكم، فَوَالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيٍّ غيري».

فلم يجبه منهم مجيب، واستطرد يسأل:

«أتطلبون بقتيلٍ منكم قتلتهُ، أو بمالٍ استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟».

فسكتوا لا يحيرون جواباً... فتمزّقت كلماته بدداً، لم يكد يصغي إليها من القوم سوى الحرّ بن يزيد، فإنّه قام إلى قائده عمر بن سعد يسأله:

ـ أصلحك الله، أمقاتلٌ أنت هذا الرجل؟

فأجابه عمر: أي والله، قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي.

قال الحرّ: أفما لكم في واحدة من الخصال الثلاث التي عرض عليكم رضى؟

قال عمر: والله لو كان الأمر إليَّ لفعلت، ولكن أميرك قد أبى ذلك.

فلم يَزِدْ الحرّ، وانثنى يدنو نحو الحسين قليلاً قليلاً وقد أخذته رعدة، ولمحَهُ رجلٌ من قومه فقال:

ـ والله إنّ أمرك لمريب!! والله ما رأيت منك في موقف قطّ مثل ما أراه الآن، ولو

قيل لي: مَن أشجع أهل الكوفة؟ لمَا عَدوتك!!

فقال له الحرّ:

- إنّي والله أخيّر نفسي بين الجنّة والنّار، ولا أختار على الجنّة شيئاً ولو قُطِّعتُ وحُرِقت!!

ثمّ ضرب فرسه فلحق بالحسين وقال له:

جعلني الله فداك يا بن رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعتُ بك في هذا المكان، والله ما ظننتُ أنّ القوم يردّون عليك ما عرضتَ عليهم أبداً... و والله لو ظننتُ أنهم لا يقبلون منك الذي سألتهم، ما ركبتها منك، وإنّي قد جئتك تائباً إلى ربّي ممّا كان منّي، مواسياً لك بنفسي حتّى أموت بين يديك)[١].

وهنا يصوّر الأستاذ (خالد محمد خالد) تتمّة هذا المشهد التراجيدي المؤثّر، فيقول: ونزل (الحرُّ) من فوق جواده، يعانق الحسين ودموعه تتفجّر من مآقيه، ويقول له:

---

(١) راجع على سبيل المثال ما جاء في الكتب التالية، مع مراعاة وجود بعض الاختلافات اليسيرة:

أ. د. عائشة عبد الرحمن، السيدة زينب، مصدر سابق ص١٢٠.

ب. خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق ص١٦٢.

ج. الشيخ عرفان العشا حسونة الدمشقي، الحسين حفيداً وشهيداً، مصدر سابق ص١٦٠.

د. محمد عبد الله المنفلوطي، ريحانة أهل البيت السيدة زينب الكبرى، مكتبة الإيمان. القاهرة، ٢٠٠٧، ص٧٧.

هـ. محمد رضا، الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، مصدر سابق، أوردها باختصار، ص١٤٤.

و. بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق، أوردها شعراً، ص٢٦٨.

ز. أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق أوردها باختصار، ص١٣١.

ـ قد كان منّي بالأمس ما كان، وقد استبان لي حقّك، فجئتك أفتديك بنفسي، أَفَترى في ذلك توبةً لي ممّا صنعتُ؟

وأجابه البطل (أي الحسين عليه السلام) وهو يضمّه إلى صدره النبيل:

ـ «إنّها خير توبةٍ، فَأَبْشِرْ... فأنت الحرُّ في الدّنيا... وأنت الحرُّ في الآخرة إنْ شاء الله»(١).

وهنا يُبدي الأستاذ (خالد) استغرابه الشديد من تصرّفات الجيش الأمويّ الآثم، وأكثر ما كان يثير استغرابه هو أنَّ أفرادَ ذلك الجيش وقادتُه كانوا إذا حان وقت الصلاة يصلّون ويقولون في آخر صلاتهم: (اللهمّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد)، فإذا ما انتهوا من صلاتهم قاموا ليحصدوا بسيوفهم الحاقدة آلَ محمد صلى الله عليه وآله وسلم !!(٢)

أمّا الأديب المسيحيّ (إميل حبشي الأشقر)، فقد أجاد وصف تلك الأحداث المؤثّرة في روايته الشهيرة (فاجعة كربلاء)، وقد صاغ وصفَ حادثة توبة الحرّ بن يزيد الرياحي بأسلوب أدبيٍّ رصين بعيدٍ عن لغة المبالغة في العواطف والانفعالات، وقد استطاع الأديب (الأشقر) أن يقنع القارئ أنّ الحرّ بن يزيد الرياحي عاد إلى رشده وانضمّ إلى جيش الإمام الحسين عليه السلام لأنّه كان، بالأساس، يمتلك بذور الخير في صدره، وقد استطاع الإمام الحسين عليه السلام أن يستنبت تلك البذور النائمة من خلال الخُطَب الهامّة التي كان يلقيها أمامَ العدوّ بين الحين والآخر من أجل تذكيرهم بما أوصاهم به جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ذكر الأستاذ (الأشقر) العديد من تلك الخطب الحسينيّة المشهورة، بل وزاد عليها أيضاً تلك الصورة الحزينة التي وصف من خلالها

---

(١) خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق ص١٦٣.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٦٠.

الإمام الحسين عليه السلام وقد دعا بمصحفٍ فوضعه أمامه، ثمّ رفع عينيه الحزينتين إلى السّماء، ثمّ قال بصوتٍ شجيٍّ مسموع ضارعاً إلى الله تعالى:

«اللهمّ أنت ثقتي في كلّ كربٍ، ورجائي في كلّ شدّةٍ، وأنت لي في كلّ أمرٍ نزل بي عَونٌ وعدّة... كم من هَمٍّ يضعف فيه القلب وتقلُّ فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت به العدوّ، شَكَوتهُ إليك فَفَرَّجْتَهُ وكَشَفْتَهُ، إنّك وليُّ كلّ نعمةٍ ومنتهى كلّ رغبةٍ»[1].

وإذا كان هذا الأديب المسيحيّ قد أبدع في وصف الأحداث الأليمة بأسلوبٍ قصصيٍّ جذّاب وبديع، فإنّ الأديب الشاعر الأستاذ (بولس سلامة) قد حلّق عالياً جدّاً في سماء الشعر الوجداني النبيل، ثمّ عاد فهبط إلينا محمّلاً بالكثير من الكنوز الشعريّة الثمينة التي يعجز الكثير من شعراء هذا العصر عن الإتيان بمثلها.

ولنستمع إليه الآن سويّةً وهو يصوّر لنا الدّفاع المستميت الذي أظهره الحرّ الرياحي بين يديِّ الإمام الحسين عليه السلام وذلك بعد إعلان توبته ممّا كان عليه.

يقول الأستاذ الأديب (سلامة):

ويقول الحسامُ للغمد ودّعني ... فلن أرتضيك بعدُ قِرابا
سوف أبقى في راحة (الحرِّ) مسلولاً ... فإنْ غبتُ في المفاخر غابا
فأجاب الحسينُ يا حرُّ لا تجزع ... فإنّ الكبير ينسى العتابا
نحن أهل الرسول أورثنا جدّي ... صدوراً على الخطوب رحابا
حَسْبنا دمعةُ الندامة نزجيها ... إلى الله قُربةً واحتسابا
دمعة تغسل القلوب وتجلوها ... كما يصهر الشعاعُ الضبابا

(١) إميل حبشي الأشقر، فاجعة كربلاء، دار الأندلس. بيروت، ١٩٦٥، ص١٠.

يغفــر اللهُ مــا أتيــتَ، فَطِــبْ نفســاً ولا تلــبس الهمــوم ارتيابــا[1]

فرحمةُ الله عليك يا بولس سلامة، وحشرك الله مع مَن أحببت من الأنبياء والشهداء والصدّيقين والصالحين، فوَالله ما قرأتُ في ملحمتك الخالدة (عيد الغدير) قصيدةً قَطّ إلا وازددتُ في أهل البيت عليهم السلام حبّاً على حبّ، وصبراً على صبر.

أمّا إذا أراد القارئ الكريم أن يعرف كيف كانت نهاية ذلك البطل (الحرّ)، فنقول له إنّ كلّ الروايات من كتب المتقدمين على مختلف مشاربهم قد أجمعت على أنّ (الحرّ) قد قُتلَ عند اندلاع المعركة أكثر من أربعين رجلاً من جيش الأعداء، وبقي يقاتل مدافعاً عن الإمام الحسين عليه السلام إلى أن حملت الرجالةُ عليه وتكاثروا على قتله، فحمله أصحاب الحسين عليه السلام وهو مضرّجٌ بدمائه ووضعوه أمام الفسطاط الذي يقاتلون دونه، وهكذا كان يُؤتى بكلّ قتيلٍ إلى هذا الفسطاط والحسين عليه السلام يقول: «قَتْلَةٌ مثل قتلة النَّبيين وآل النَّبيين»[2]، ثمّ التفت إلى (الحرّ) وكان به رمقٌ، فقال له وهو يمسحُ الدَّم عنه: «أنت الحرُّ كما سمَّتك أمُّك، حرٌّ في الدّنيا والآخرة»، وهنا يعطينا الإمام الحسين عليه السلام المعنى الحقيقيّ لمفهوم الحريّة، وذلك بأنّ الحرّ هو ذلك الشخص الذي يملك إرادتَه وقرارَه وموقفه.

فالحريّة بالمفهوم الحسيني ليست حركة قادمة من خارج الإنسان، بل هي حركةٌ نابعةٌ من داخله ومن عمق كيانه.

وهذا هو المعنى الذي يريده الإمام الحسين عليه السلام من كلّ واحدٍ منّا، إنّه عليه السلام يريدنا أن نملك حرية القرار وإرادة الموقف، وأن لا نستسلم لأيِّ ضغطٍ داخليّ نابع

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق ص٢٦٩.
(٢) السيد عبد الرزاق المقرم، مقتل الحسين، مطبعة النجف ط٣/١٩٦٣/ ص٣٠٢.

من طمعٍ أو رغبةٍ عمياء، ولا لطمع خارجي ناتجٍ عن خوفٍ أو ضغطٍ أو ما شابه ذلك.

وهذا المعنى هو الذي يؤكّده الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام بقوله: «إنّ الحرَّ حرٌّ في جميع أحواله، إنْ نابتهُ نائبةٌ صَبرَ لها، وإنْ تداكَّتْ عليه المصائبُ لم تكسره وإنْ أُسِرَ وقُهِرَ»(١).

وبالطبع، لم يكن (الحرّ الرياحي) هو البطل الوحيد الذي عاد إلى جادّة الحقّ واختار الآخرة على الدّنيا، بل هناك أيضاً شخصٌ آخرٌ له وزنه ومكانته، إنّه زهير بن القين البجلي المجاهر بكراهيته للإمام الحسين عليه السلام، وتؤكّد الأخبار أنّ زهير بن القين كان قد حجّ في السنة التي خرج فيها الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق، وكان زهير عثمانيَّ الهوى وأمويَّ الميول، فلمّا رجع من الحجّ جمعهُ الطريقُ مع الحسين عليه السلام، وكان لشدّة تمسّكه بعثمانيَّتِهِ يكره مسايرة الحسين والنزول معه في منزلٍ واحدٍ، وفي يومٍ ما لم يجد بُدّاً من النزول معه والاجتماع به، حدث التحوّل الخطير.

فماذا حدث، وماذا نتج؟!

تُجمعُ الروايات على أنّ الإمام الحسين عليه السلام عرف بوجود زهير، فأرسل رسولاً إليه يدعوه للمجيء إلى عنده، فقالت له امرأته (دَلْهَم بنت عمرو): سبحان الله، أيبعث إليكَ ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه؟ فَلَو أتيتَه.

فأتاه زهير استجابةً لرغبة زوجته، ولكن على كرهٍ منه، وذهب للقاء الحسين عليه السلام والتقى به، ثمّ ما لبث أن عاد إلى جماعته مستبشراً وقد أشرق وجهه، وحوَّل متاعه وثقله إلى الحسين عليه السلام، وقال لزوجته (دَلْهَم) أنتِ طالقٌ، فإنّني لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلا خير، وقد عزمتُ على صحبة الحسين عليه السلام لأفديه بروحي وأقيه

---

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق ج٦٨ ب٦٢ ح٣.

بنفسي، ثمّ أعطاها مالَها وسلَّمها إلى بعض بني عمّها ليوصلوها إلى أهلها، فقامت إليه وودّعته وهي تبكي، ثمّ قالت له قبل الفراق: خارَ اللهُ لك، أسألك أن تذكرني بخير يوم القيامة عند جدِّ الحسن عليه السلام، ثمّ نادى زهير أصحابه قائلاً: مَن أحبَّ منكم أن يتبعني وإلا فهو آخر العهد منّي به.

وهنا يقول العلامة الأزهري (عبد الله العلايلي) إنّ زهيراً قال لأصحابه قبل مفارقتهم: إنّي سأحدّثكم حديثاً، إنّا غَزَونا (بلنجر) وهي من بلاد الخزر، ففتح الله علينا وأصبنا غنائم ففرحنا، فقال لنا سلمان الفارسيّ: (إذا أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشدَّ فرحاً بقتالكم معهم ممّا أصبتم من الغنائم)، فأمّا أنا فأستودعكم الله[1].

وبالفعل، فبعد أن ترك زهير زوجته وغادر أصحابه، التحق بالإمام الحسين عليه السلام، وبقي معه إلى أن نشبت المعارك، فقاتل قتال الأسود الكواسر إلى أن نال كرامة الشهادة بين يديّ الإمام الحسين عليه السلام، فقال له الإمام عليه السلام حين رآه صريعاً غارقاً في دمائه:

«لا يبعدنَّك الله يا زهير، ولعنَ الله قاتلك، لعنَ الذين مَسَخهم قردةً وخنازير»[2].

ومهما حاولنا أن نختصر الحديث عن هذه المشاهد المؤثّرة على ساحة كربلاء، فإنّنا لا نستطيع أن نتجاوز بعض ما قاله عظماء الفكر والأدب، وعلى سبيل المثال، كيف لنا أن نتجاوز ذلك الوصف الرائع لانقلاب زهير ابن القين كما جاء على قلم الأديب الكبير (سليمان كتاني)، ذلك الأديب المسيحي الذي نذر نفسه وقلمه لخدمة آل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟!

---

(١) عبد الله العلايلي، الإمام الحسين، مصدر سابق ص١٣٠.

(٢) لبيب بيضون، خُطب الإمام الحسين على طريق الشهادة، مصدر سابق ص٢٥١.

انظروا معي إلى هذين المشهدين المسرحيين الرائعين، ألا يستحقّ كلّ مشهدٍ منهما أن يكون مسرحيةً قائمةً بحدِّ ذاتها؟! ألا يعطينا كلّ مشهدٍ منهما ـ على رغم قِصَرهما الشديد ـ دروساً لا تُنسى في البطولة والكرامة والفداء والوفاء؟!

دعونا الآن نقرأ سويةً المشهد الأول من خلال الحوار الدائر بين زهير وزوجته دَلْهَم بعد أن عرفا أنّ الحسين عليه السلام قد وصل إلى منطقة (واقصة) التي ملأها يزيد اللعين بمئات الجواسيس، والأصعب من ذلك أنّ الحسين عليه السلام يريد أن يأتيه زهير على جناح السّرعة ودون أيّ تأخيرٍ مهما كانت الأسباب والظروف.

وهنا يبدأ المشهد بدخول زهير إلى منزله بشكلٍ سريعٍ، فيدخل ويقفل الباب وراءه، ليجد زوجته الحبيبة والجميلة واقفةً وفي عينيها فرحة عيد ـ ولكنّها هدّأتْ روعَه وهي تسأل:

دَلْهَم ـ ماذا يروعك؟

زهير ـ ألم تسمعي بنزول الحسين محطة (واقصة)؟

دلهم ـ إنّها البشرى منّي إليك، هل أنت سعيدٌ؟ أم أنّك الجازع؟

زهير ـ ولكنّي الجازع يا دَلْهَم، لقد سدَّ المنافذ كلّها (الخليفة) يزيد، ولا أظنّ الحسين، ولا كلّ من يشدّ بحبل الحسين، ناجياً من كفِّ يزيد وقبضة الوالي ابن زياد!!

دلهم ـ ألا تحبّ الحسين؟ وأبا الحسين؟ وأمّ الحسين؟ وأخا الحسين؟ وجدّ الحسين؟

زهير ـ وكيف أهرب من يزيد؟ وقرود يزيد؟ ومن زياد؟ وابن زياد؟

دلهم ـ وهل تبدّل السعود بالقرود؟ والنعيم بالجحيم؟ والبطولة بالجبانة؟ ومَنْ يصدّقك بعد الآن وأنت على نفسك تكذب؟!

زهير .... الخوف من الظلم!!

دلهم .... إنّه الموت تحت حوافره!!

ما كاد ابنُ القين يرى وجهَ زوجته دَلْهَم كيف يموج بما تقول، حتّى هبَّ من مكانه إلى الخارج[1].

فإلى أين ذهب ابن القين تحت تأثير هذه الكلمات السحريّة من زوجته الغالية (دَلْهَم)؟!

الجواب على هذا السّؤال يمكن العثور عليه بسهولةٍ عند قراءتنا للمشهد الثاني من الحوار الثنائيّ الذي يلخّص ما يمكن أن تفعله المرأة المؤمنة بزوجها الذي يمتلك بداخله بذور الخير والإيمان، ولكنّه بحاجةٍ إلى مَن يوقظ هذه البذور من سُباتها الطويل ويحوّلها إلى غِراسٍ خضراء تتفاعل مع قِيَمِ الإيمان والحياة.

وها هو المشهد الثاني يبدأ بدخول زهير على الإمام الحسين عليه السلام وبين يديه عددٌ من المقرَّبين منه، ومنهم محمد وعون ابنا جعفر الطيّار عليه السلام، فيقف بخشوعٍ أمام الحسين عليه السلام.

الحسين ـ «وما اسمك؟».

زهير ـ زهير بن القين، ولكن زوجتي اسمها دَلْهَم.

الحسين ـ «وتحبّها؟».

زهير ـ كالعبادة.

الحسين ـ «يا لها من امرأة رائعة ـ أراها كَتَبتكَ حرفاً رائعاً على شفرة السيف، أتراني حزرتُ؟».

---

(١) سليمان كتاني، الإمام الحسين في حلّة البرفير، مصدر سابق ص١٦٣.

زهير ـ ولكنّي طلّقتها، إنّي آتٍ من عند الشيخ الذي عقد زواجي، وها إنّي الآن قد فَكَكتهُ عنده.

الحسين ـ «وكيف يمكن ذلك؟».

زهير ـ ولقد خصصتها بكلّ ثروتي.

الحسين ـ «لأنّك جئت تنضمّ إليّ؟».

زهير ـ حتّى لا تكون أرملةً من بعدي، وحتّى لا تلقطها الحاجة.

الحسين ـ «يبدو أنّك صمّمتَ أن تستشهد معي!! ».

زهير ـ إنّها دَلْهَم يا سيّدي، أحبّتْ أن أربط شأني بقدرك!!

الحسين ـ «وأنت؟!».

زهير ـ كان سيفي مقصوفاً وأصبح الآن لا يُقصَف[1].

وقد أثبت زهير بالفعل أنّ سيفه لا يُقصف طالما هو باقٍ على قيد الحياة، وقد أثبت لنا زهير وزوجته (دَلْهَم) أيضاً أنّ الانضمام إلى الحسين عليه السلام هو الانضمام إلى سفينة نوح ومركب الأمان والإيمان، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»[2]... قاصداً بذلك النجاة في الدّنيا والآخرة؟!

فزهير الذي استضاء بنور الحسين عليه السلام واعتصم بموكبه ومركبه، كانت آخر عبارةٍ قالها للحسين عليه السلام بعد أن خَيّره الحسين عليه السلام بين الانصراف عنه أو البقاء معه، هي قوله: (والله وَدَدتُ أنّي قُتِلتُ ثمّ نُشرتُ ثمّ قُتِلتُ حتّى أُقتل كذا ألف مرّةٍ وأنّ

(١) نفس المصدر السابق ص١٦٤.

(٢) آية الله السيد محمد تقي المدرسي، الإمام الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة، انتشارات المدرسي ـ طهران، ١٤١٤، ص٥٩.

الله عزّ وجلّ يدمع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك»[١].

وهذه العبارة الأخيرة التي قالها الشهيد السعيد زهير بن القيم تُذكِّرنا بما حدث في التاسع من محرم، أي قبل الفاجعة بيوم واحد فقط، ففي اليوم التاسع من محرم، جمع الحسين عليه السلام أصحابه عند المساء قبل مقتله بليلة واحدة وخطب فيهم قائلاً:

«أُثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السَّراء والضرّاء، اللهم إنّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوّة وعلّمتنا بالقرآن وفقّهتنا في الدّين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدةً ولم تجعلنا من المشركين ـ أما بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، وأهل بيت أبرّ ولا أَوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنّي جميعاً، وقد أخبرني جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّي سَأُساقُ إلى العراق فأنزل أرضاً يقال لها عمورا وكربلا وفيها أستشهد وقد قرب الموعد.

أَلا وإنّي أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً وإنّي قد أذنتُ لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ليس عليكم منّي ذمام، وهذا الليل قد غَشيَكم فاتّخذوه جمَلاً، وليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، وتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم فإنّ القوم إنّما يَطلبونني، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري»[٢].

هذه هي الخطبة الشهيرة التي قالها الإمام الحسين عليه السلام قُبيل استشهاده بيومٍ واحدٍ فقط، وهي خطبةٌ معروفةٌ للجميع بقوّتها وبِنُبلِ معانيها، خاصّةً في الموضع الذي يُخيّرُ الإمام الحسين عليه السلام أصحابه الكرام بين الثبات والبقاء معه وبين تركه وحيداً في ساحة الوغى للقاء مصيره المأساوي المحتوم وحيداً تحت قبّة السّماء التي

(١) توفيق أبو علم، الحسين بن علي، مصدر سابق ص١٣٨.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٢٧.

سَتَحْمَرُّ خجلاً وغضباً لمقتل هذا السبط الطاهر الزكيّ على أيدي شذّاذ الآفاق من بني أميّة!!

وما يهمّنا الآن من المعاني النبيلة لهذه الخطبة العصماء هو ردود فعل أصحابه عليها وعلى الخيارين اللذين وضع الإمام الحسين عليه السلام أولئك الأصحاب أمامهما، أي إمّا البقاء والثبات وإمّا الهروب والإفلات.

فَيَا ترى ماذا كانت ردود فعل أولئك الأصحاب الذين قال فيهم الإمام الحسين عليه السلام منذ قليل «فإنّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي؟!».

فهل كانوا على مستوى هذا القول الرائع من الإمام الحسين عليه السلام حين وَصَفَهم بذلك؟!

وهل كانوا على مستوى تحمّل أعباء تلك المسؤوليّة في وقوفهم معه؟!

وبماذا أجابوه في نهاية المطاف؟!

فالجواب الشافي على كلّ تلك الأسئلة يمكننا العثور عليها في كتب إخواننا السنّة وأيضاً في كتب ودواوين العديد من المفكّرين والأدباء المسيحيين الكبار.

دعونا، الآن، إذنْ نقلّب بعض كتب إخواننا السنّة المعاصرين لنرى طبيعة ردود الأفعال من قبل أصحاب الحسين عليه السلام الذين أصبحوا في حِلٍّ من أمرهم في مسألة البقاء معه والدفاع عنه أمام السيوف الأمويّة التي تنظر شَذَراً إلى قلب الحسين عليه السلام ونَحْرِهِ.

وأوّل ردٍّ فعلٍ من أصحابه وأهله عليهم السلام، كان من بني عقيل، فقد أجابوه قائلين:

(فما يقول النّاس؟ يقولون إنّا تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نَرمِ معهم بسهمٍ ولم نطعن معهم برمحٍ ولم نضرب معهم بسيفٍ ولا ندري ما صنعوا!!

لا والله لا نفعل ولكن نفديك بأرواحنا وأموالنا وأهلنا ونقاتل معك حتّى نَرِدَ موردك، قَبَّحَ الله العيش بعدك)[١].

أمّا صاحبه (مسلم بن عوسجة الأسدي)، فقام قائلاً:

(أنحن نتخلّى عنك ولمّا نعذر إلى الله في أداء حقّك؟ أما والله حتّى أكسرَ في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولا أفارقك، ولو لَمْ يكن معي سلاحٌ أقاتلهم به، لَقَذفتهم بالحجارة دونك حتّى أموت)[٢].

وقال (سعيد بن عبد الله الحنفي) رافعاً صوته بكلّ ثقةٍ وإيمانٍ:

(والله لا نخلّيك حتّى يعلم الله أنّا حفظنا عيبة رسول الله ﷺ، والله لو علمت أنّي أُقتَلُ ثمّ أحيا ثمّ أُحرقُ حيّاً ثمّ أُذرّ، يُفعل بي ذلك سبعين مرّةً، ما فارقتُكَ حتّى ألقى حِمامي دونك!! فكيف لا أفعل ذلك وهي قتلةٌ واحدةٌ، ثمّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً)[٣].

وقد سجّلتْ كتب إخواننا السنّة أيضاً موقف (العباس بن علي)، وما أدراك ما العباس!!

إنّه أخ للإمام الحسين عليه السلام من أبيه أمير المؤمنين علي عليه السلام، وأمّه فاطمة بنت حزام الكلابية، وقد ولدت للإمام علي عليه السلام أربعة أولاد، فُسمّيت لذلك (أمّ البنين) وهم: العباس وجعفر وعثمان وعبد الله، وقد استشهدوا جميعاً في أرض كربلاء دفاعاً عن أخيهم الحسين عليه السلام ومن ألقابه عليه السلام: (السقّاء) و(ساقي العطاشى بكربلاء) لأنّه استسقى الماء لأهل البيت عليهم السلام يوم الطفّ.

---

(١) محمد رضا الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، مصدر سابق ص١٤٧.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٤٧.

(٣) نفس المصدر السابق ص١٤٨.

و(أبو الفضل) لأنّه كان له ولدٌ اسمه الفضل، و(باب الحوائج) لكثرة ما صدر عنه من الكرامات يوم كربلاء وبعده، و(قمر بني هاشم) لجمال هيئته ووسامته وهيبته.

وقد وقف (أبو الفضل العباس) عليه السلام موجّهاً كلامه إلى أخيه الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: «معاذ الله والشهر الحرام... وماذا نقول للنّاس إذا رجعنا إليهم؟! نقول: تركنا سيّدنا وابن سيّدنا غَرَضاً للنبال ودريئةً للرماح وحَرزاً للسباع.. وفَرَرْنا عنه رغبةً في الحياة؟! معاذَ الله.. معاذ الله.. بل نحيا بحياتك.. ونموت معك»[1].

يا لها من كلمات تستنزل الدّموع من عيون ملائكة السّماء!!

يا لها من تعابير تَضجُّ بأنغام اليقين وتصدح بألحان العزّة والكرامة والوفاء!!

فأين أنت يا فاطمة الزهراء عليها السلام لتري ماذا سيحلّ بابنك الحبيب الحسين عليه السلام وبأبنائه وأهل بيته الأطهار؟! ولو أنّكِ رأيتِ ما حدث لابنك الحسين عليه السلام أمام عينيك، فماذا ستقولين غداً لأبيك المصطفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!

لقد صدقتِ يا سيّدتي عندما قُلتِ بعد فَقْدِكِ لأبيك المختار صلى الله عليه وآله وسلم:

ماذا على مَن شَمَّ تربة (أحمد) ألا يشمَّ مدى الزمان غواليا
صُبَّتْ عليَّ مصائبُ لو أنّها صُبَّتْ على الأيام عُدْنَ لياليا

وإذا كانت كتب السِّيَر والأخبار قد وَصَفَتْكِ قائلةً: (فما يذكر التاريخ أنّ فاطمة ضحكت بعد وفاة والدها حتّى لحقتْ به)[2]، فكيف سيكون حالك يا سيّدتي ومولاتي لو أنّك رأيتِ ابنك الإمام الحسن عليه السلام وهو يلفظ أحشاءه من جوفه دَماً بعد أنْ جرّعوهُ السمّ الزعاف؟!

---

(١) خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق ص١٥٦.
(٢) عائشة عبد الرحمن، السيدة زينب، مصدر سابق ص٣٨.

وكيف سيكون حالكِ يا سيّدتي لو أنّك رأيت ابنك الحسين عليه السلام وهو مُقطّع الأوصال فوق الرمال الحارقة قرب الفرات؟!

وما هو موقفك يا سيّدة نساء العالمين لو أبصرتْ عيناك المكتحلتان بالحزن وبسوادِ الليل أحفادَك الأطفال الصغار وهم يُذبَحون من الوريد إلى الوريد بعد أن حَرَّقَ عليهم أعداؤهم الخيام في ساحة كربلاء، ثمّ راحوا يصطادونهم بالسّهامِ الواحدَ تلو الآخر كالعصافير الصغيرة التائهة التي فقدت أبويها الحنونَين فراحت تهيم على وجهها في كلّ مكانٍ وقلوبها الصغيرة تنبض بالرعب والذهول؟!

وعلى كلّ حالٍ يا سيّدتي البتول عليها السلام، ها هو ابنك الحسين عليه السلام يقفُ خطيباً في النّاس غداة اليوم الذي استشهد فيه، فها هو يحمد الله ويثني عليه ثمّ يقول ناصحاً ومُذَكِّراً: «عبادَ الله، اتّقوا الله وكونوا من الدّنيا على حذرٍ، فإنّ الدّنيا لو بقيتْ لأحدٍ وبقي عليها أحدٌ، كانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء، وأولى بالرضا وأرضى بالقضاء، غير أنّ الله تعالى خَلقَ الدّنيا للبلاء، وخَلقَ أهلها للفناء، فَجَديدُها بَالٍ ونعيمُها مضمحلّ، وسرورها مكفهرّ، والمنزل بُلغة، والدّار قلعةٌ، فَتَزَوَّدوا فإنَّ خير الزّاد التّقوى، واتّقوا الله لعلّكم تفلحون»[1].

وهنا لنا أن نتساءل قائلين:

كيف استقبل الجيشُ الأمويّ وقادتهُ هذه الخطب البليغة التي حاول الإمام الحسين عليه السلام من خلالها تذكيرهم بالحقّ وإيقاظ ضمائرهم النائمة؟!

إنّ الجواب على هذا السّؤال الذي يمكن أن يفرض نفسه علينا يُبيِّنُ ـ وبكلّ أسفٍ ـ أنّ ضمائر أفراد الجيش الأمويّ، وبشكلٍ خاصٍّ ضمائر قادته، لم تكن نائمةً أبداً، بل

(١) الشيخ عرفان حسونة الدمشقي، الحسين حفيداً وشهيداً، مصدر سابق ص٦٩.

كانت في حالة موتٍ تامٍّ لا نهوض بعده على الإطلاق، ولذلك، فإنّ خطب الإمام الحسين عليه السلام زادت الكافرين عتوّاً وطغياناً، وبنفس الوقت أيضاً، زادت المؤمنين ثباتاً وإيماناً.

فالحجّة قامتْ، والبيِّنة ثبتتْ، والأقلام جَفَّتْ، والصحف رُفِعتْ.

فعمر بن سعد وعبيد الله بن زياد، وحتّى يزيد نفسه، لا يمكن لهم أن يتأثّروا بأيِّ كلمةٍ من الحسين عليه السلام، أو حتّى من جَدِّ الحسين ذاته صلى الله عليه وآله وسلم، فالحكمة لا تنفع مع هؤلاء أبداً، بل كيف يمكن للكلمة الإلهيّة الطيّبة أن تؤثّر في قلوب هؤلاء، وقلوبهم أقوى وأقسى من الصخر الصلد الأصمّ؟!

ألم نقرأ في كتاب الله تعالى قولَه: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله**﴾[1]؟!

فلماذا، إذنْ، لم يصدع هؤلاء بالحقّ وهم يقفون أمام القرآن بكلّ ما يمتلك من حججٍ وبراهين وآيات حقٍّ ومنزلة عظيمة ورثها عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!

وأعتقد، شخصيّاً، أنّ مقارنةً بسيطةً بين الحسين عليه السلام وتربيته من جهةٍ، وبين يزيد وتربيته من جهةٍ أخرى، ستعطينا الجواب الواضح على السّؤال المطروح.

ويكفي أن نجري تلك المقارنة السّريعة من خلال طرح هذه الأسئلة البسيطة التالية وسنترك أمرَ الإجابة عليها للقارئ الكريم:

- مَن هو والد الإمام الحسين عليه السلام، ومن هو والد يزيد؟!
- من هي والدة الإمام الحسين عليه السلام، ومن هي والدة يزيد؟!
- من هو جَدُّ الإمام الحسين عليه السلام، ومن هو جدُّ يزيد؟!

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢١.

- من هي جدّة الإمام الحسين عليه السلام، ومن هي جدّة يزيد؟!

- من هم أفراد جيش الحسين عليه السلام، ومن هم أفراد وقادة جيش يزيد؟!

- ما هي المدرسة التي تخرَّج منها جيش الحسين عليه السلام، وما هي المدرسة التي ينتمي إليها جيش يزيد؟!

من خلال هذه المقارنة السريعة المعتمدة على الأسئلة المذكورة أعلاه، ستتَّضحُ لنا هويّةُ كلٍّ من الطرفين، وستتجلّى فلسفة الصراع عند كلّ منهما وذلك من خلال إدراك الأهداف والغايات التي ينشدها كلٌّ من قادة المعسكَرَين، ولا ريب في أنّه سيتوضّح لنا أيضاً السبب الذي يمنع أولئك الأجلاف من الرضوخ للحقِّ والاعتراف به.

وليت الأمر يتوقّف عند حدٍّ عدم الاستماع لكلام الإمام الحسين عليه السلام، وعدم الاستجابة له في عمليّة نفخ الرّوح في الضمير الذي فَقَدَ القدرة على الحياة، بل إنّ الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ، فقد راح قادة الجيش الأمويّ يتمادون في غيِّهم وضلالهم إذْ أنّهم عَمَدوا إلى أسلوب قَتْلِ الإمام الحسين عليه السلام وإماتتهِ بطريقة القتل البطيء.

فكيف عَمَدوا إلى قتله ببطءٍ شديدٍ؟!

وهل هناك أصعب وأمرّ من أنْ يرى الأبُ أهل بيته وأطفاله الصغار يموتون عطشاً أمام عينيه، وهو على بُعدِ أمتارٍ من الفرات، ولا يستطيع عملَ شيءٍ؟!

وهل هناك أَمَرُّ وأدهى من أن يُهدَّدُ الرجل الكريم بالإغارة على حَرَمِهِ وهَتْكِ عِرضهِ، وأَسْرِ نسائه وتحريق أطفاله القاصرين؟!

ثمّ، أليس الأصعب من هذا كلِّه أن يُهدَّدَ كلُّ هؤلاء بالموت عطشاً في حين أنَّ

جدّهم الرسول المصطفى ﷺ هو صاحب نهر الكوثر وساقي المؤمنين العطاش يوم المحشر؟! حقّاً، إنّ الظلم الحقيقيّ هو أنْ يعطش الإنسان في فصل الشتاء؟!

نعم، لقد مَنَعَ الجيشُ الأمويّ الإمام الحسين وأهله عليهم السلام وأصحابه من شرب الماء من نهر الفرات، ذلك النّهر الذي كان ماؤه مُباحاً لكلّ النّاس من مسلمين وغير مسلمين، من مؤمنين وكافرين، وحتّى للكلاب والخنازير.

فالماء مُباحٌ للجميع إلا للحسين وأهله عليهم السلام وأصحابه الأطهار الصادقين الصابرين، فهو محرّمٌ عليهم ولو ماتوا جميعهم عطشاً ما لمْ يبايع الإمامُ الحسين عليه السلام يزيد الفاسق الفاجر خليفةً على المسلمين.

وها هي كتب السنّة والمسيحيين المعاصرين تذكر أنّ عمر بن سعد قد قام بتوجيه الأوامر إلى عمرو بن الحجّاج (أنْ يسير في خمسمائة راكب، فَيُنيخُ على الشريعة (مورد النّاس للاستسقاء) ويحولوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء، وذلك قبل مقتله بثلاثة أيام، فمكثَ أصحاب الحسين عطاشاً)[1].

وكانت تلك الأيّام العصيبة مأساةً حقيقيّةً بِحَدِّ ذاتها، فقد أصبح الإمام الحسين عليه السلام محكوماً بالوحدة والوحشة والغربة والظلم والجوع والعطش وقلّة الأصحاب والناصرين.

وبالرغم من كلّ ذلك، إلا أنّه عليه السلام ثَبتَ في ساحة الامتحان الإلهيّ حتّى آخر لحظةٍ له على وجه هذه الدّار، دار البلاء والاختبار، وقد أجاد المفكّر اللبنانيّ المعاصر الدكتور (عمر فرّوخ) (١٩٠٦ـ ١٩٨٧) عندما قال شعراً يذكّر المسلمين من خلاله بأيّام الحسين عليه السلام الخالدة:

---

(١) محمد رضا، الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، مصدر سابق ص١٤٢.

أَفي كـلّ يـومٍ لنـا وقفـةٌ وَرَكْـبُ الحيـاة بنـا يَعـبرُ؟
ونحـن عـن الـدّهر في غَفلـةٍ وللـدّهر مَكْـرٌ بنـا مُنكَـرُ؟
ذكرْنـا عـلى الـدّهر يـومَ الحسينِ ويـومُ الحسـينِ هُـدًى نَـيِّرُ
لـه زجـلٌ في ثنايـا الزمـان وعَصْـفٌ عـلى الظّلـم لا يَفـترُ
وَعَـوْدٌ كَعَـوْدِ الهـلال الجديـد وطِيـبٌ كَعَـرْفِ النَّـدى خَـيِّرُ
إذا جَـدُرَ الحـزنُ بعـدَ الحسـين فـإنّ التـأسّي بـه أجْـدَرُ(١)

لقد تحوّلت تلك الأيام العصيبة في حياة الإمام الحسين عليه السلام إلى مجموعة رموز نبيلة خالدة في الضمير العالميِّ الباحث دائماً عن مُثُلٍ عليا تنتشله من أوهام الحاضر وأوحاله التي كادت تقضي عليه تحت عناوين مزيّفة وشعارات برّاقة جوفاء تخفي وراء ستائرها السميكة الكثير من الذلّ والهوان للنّفس الإنسانيّة السويّة المتعطّشة في ذاتها لكلّ قِيمِ الخير في الوجود ولكلّ لمسة دفءٍ وحنانٍ من فيض ينابيع مبادئ السّماء.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الأديب والمفكّر المسيحيّ (بولس سلامة) قد أشار في أكثر من موضعٍ في ملحمته الشعرية (عيد الغدير) إلى عطش الحسين عليه السلام، ولكنّه لم يتحدّث بالتفصيل عن الآلام المريرة التي عاناها هو وأهله وصحبه، بل سرعان ما ربطَ ما بين العطش من جهةٍ وإقامة الحجّة على الأعداء من جهةٍ أخرى وذلك عن طريق تذكيرهم بحقيقة مقامه وعُلوِّ مكانه.

فبعدَ أن يصوّر الأديب (سلامة) عطش الإمام الحسين عليه السلام بشكلٍ سريعٍ من

(١) الدكتور عمر فرّوخ، المأساة والتأسّي، مجلّة (الموسم) العدد /١٢/ المجلد/٣/ إصدار: المركز الوثائقي لتراث أهل البيت عليهم السلام . أكاديمية الكوفة، هولندا (١٩٩١)، راجع ص٢١.

خلال قوله:

وقـــفَ الظـــامئُ الحســـينُ ونـــادى يـــا جنـــود العـــراق عُـــوا كلـــماتي

نراه يتحوّل بشكلٍ مفاجئٍ إلى تصوير الإمام الحسين عليه السلام وهو واقفٌ قُبيل المعركة رافعاً صوته بحديثٍ مطوّلٍ يذكّر النّاس من خلاله بهويّته الروحيّة المتميّزة:

أَوَلـــيسَ الرســـول جـــدّي، وأمّـــي خـــير بنـــتٍ وأطهـــر الزوجـــاتِ

أمُّهـــا جـــدّتي خديجـــة كانـــت وردةَ المشرقـــين في الســـيّداتِ

بيتُهـــا مهـــبط النبـــوّة، إذْ جبريـــلُ يـــأتي بـــالوحي والآيـــاتِ

أَوَلـــيس الضرغـــام حمـــزة عمّـــي أســـد الله، كاشـــف الكربـــاتِ

أَوَلـــيس الشـــهيد جعفـــر عمّـــي لَقَّـــنَ الـــدهرَ آيـــةً في الثبـــاتِ

أَوَلســـتُ الحســـين نجـــل عـــليٍّ وعـــليٌّ أنشـــودةٌ للحُـــداةِ

وهنا يأتي هذا الشاعر المسيحيّ العملاق بالمفارقة الغريبة عند تصويره للإمام الحسين بصورة الفارس (الظامئ) المتعطّش ولو إلى شربة قليلةٍ من ماء الفرات في حين أنّ أباه عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام هو الذي:

يمنـــع الحـــوضَ غـــبَّ هَـــولٍ وحَشْرٍ يـــوم تـــأتي النفـــوسُ مُبـــترِدَاتِ(١)

فالحسين الظامئ على رمال كربلاء والمتعطّش إلى شربة ماء، سيكون أبوه علي عليه السلام هو صاحب الحوض وساقي المؤمنين العِطاش غداً عند المحشر وهولِ المطلع في عالم السّماء!!

وحتّى نكون واقعيين في كلامنا حول تفاصيل الفاجعة، علينا أن نقول ـ وذلك من باب لفت النّظر والصدق في الكلام ـ إنّ بعض الذين كتبوا وتحدّثوا عن مأساة كربلاء

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق ص٢٦٠.

لم يعالجوا التفاصيل ولم ينقلوا لنا صورة الأهوال الحقيقيّة للفاجعة، وإنّما اكتفوا بذكر الخلاصة العامّة لمُجريات الأحداث العامّة، وهذا ما نجدهُ جليّاً في كتاب (History Of The Arabs) للمفكّر المسيحيّ (فيليب حتّي) (PH. Hitti) الذي تحدّث عن فاجعة كربلاء بأسلوب المؤرّخ المسجّل للأحداث العظيمة التي تترك عظيمَ الأثر على حركة التاريخ وعلى النّفوس والعقائد والتيّارات الروحيّة والفكريّة معاً.

وإذا كان هذا هو الوضع مع المؤرّخ (فيليب حتي)، فإنّ الوضع مع الأديب والمؤرّخ المسيحيّ اللبناني (جرجي زيدان) يختلف تماماً، خاصّةً في ما يتعلَّقُ بتصوير تفاصيل أحداث الفاجعة ووقائعها الدّامية في شهر محرّم الحرام.

وقبل الدخول في الكلام عن بعض الصور والتفاصيل الخاصّة بوقائع مأساة كربلاء لا بدّ من إعطاء القارئ فكرةً موجزةً عن الأديب والمؤرّخ (جرجي زيدان) صاحب الرواية التاريخيّة المعروفة (غادة كربلاء).

فالأستاذ جرجي زيدان (١٨٦١ـ ١٩١٤) أديب ومؤرّخ لبناني، وُلِدَ وتعلَّم في بيروت وتوفي في القاهرة، يُعتبر واحداً من رجال النهضة، وقد أسّسَ في القاهرة مجلة شهيرةً هي مجلّة (الهلال) عام ١٨٩٢، ودار الهلال للنشر، له العديد من المقالات اللغوية والتاريخيّة المتميّزة، من كتبه (تاريخ التمدّن الإسلاميّ) و(تاريخ آداب اللغة العربيّة) وسلسلة (روايات تاريخ الإسلام)، وتُعتبر رواية (غادة كربلاء) واحدةٌ من أهمّ الروايات التاريخيّة في السلسلة المذكورة.

وغادة كربلاء هو لقبٌ أطلقه ذلك المؤرّخ المسيحيّ على فتاةٍ من شيعة أهل البيت عليهم السلام، اسمها الحقيقي (سلمى بنت حجر بن عدي الكندي) المقتول ظلماً على

يدِ الطاغية معاوية في مرج عذراء قرب دمشق لأنّه رفض البراءة من ولاية علي أمير المؤمنين عليه السلام.

ولَئِنْ قصَّرَ ذلك المفكّر المسيحيّ بعض الشيء في إعطاء القارئ الوصف المطلوب لشخصيّة الإمام الحسين عليه السلام وللبواعث الأساسيّة لنهضته الكربلائيّة المباركة، فقد استطاع أن يتجاوز حالة التقصير في وصف الكثير من مآسي الفاجعة وتصوير مجُريات أحداثها التراجيديّة المؤثّرة.

ويكفي أن نذكر من تلك القصص المؤثّرة التي أوردها في روايته الطويلة تلك القصّة المتعلّقة بأحد أطفال الإمام الحسين عليه السلام، وهو الطفل المعروف باسم (عبد الله الرضيع).

وها نحن نورد هذه القصّة المؤثّرة من قصص المأساة كما رواها المؤرّخ والأديب (زيدان) مع شيءٍ من التصرّف والاختصار خوفاً من أن يشعر القارئ الكريم بالملل والضجر.

ففي الربع الأخير من رواية (غادة كربلاء) يصوّر لنا المؤلّف أجواء المعركة العنيفة بين الطرفين غير المتكافئين في العدد والعتاد، وفي خضمٍّ تلك الأحداث الداميّة تبرز بطلة الرواية (سلمى بنت حجر بن عدي) وهي تحمل (عبد الله الرضيع) ابن الإمام الحسين عليه السلام الذي لم يتجاوز عدّة شهورٍ من عمره، وتبتعد به عن بؤرة الأحداث وساحة الصراع الدّامي، ولم تستطع سلمى البقاء هناك خوفاً على الطفل الرضيع من نَبْلٍ يصيبه، فعادت إلى الخيمة فرأت زينب وسكينة وفاطمة آل الحسين يبكين بمرارةٍ وحسرةٍ بجانب فراش علي بن الحسين عليه السلام المريض.

ولمّا رأى عليُّ بن الحسين، وهو الملقّب بعلي زين العابدين عليه السلام، سلمى مقبلةً

نحوه وأخوه عبد الله الرضع يبكي بين ذراعيها ويتلوّى من حرقة العطش، قال لِعَمّته وأخته: «قمنَ، فاسْتَسْقَينَ له».

فصاحت زينب عليها السلام: «ومن أين نستسقي له؟ ومَن يسقينا؟... يا ليته يشرب الدّمع فَنسقيه من آماقِنا»، قالت زينب عليها السلام ذلك ونهضت إلى الطفل الصغير فتناولته وراحت تقبّله وهي تبكي وتضمّه برفقٍ وحنانٍ إلى صدرها المليء بالحسرات والأحزان.

وفي هذه اللحظة ينتقل بنا (جرجي زيدان) إلى صورةٍ جديدةٍ من الأحداث قبل إكمال قصّة مأساة عبد الله الرضيع ابن الإمام الحسين عليه السلام، ولا ريب في أنّ التداخل المتعمّد بين هاتين الصورتين له هدفٌ واضحٌ تماماً، وهو إظهار الوجه الإيماني للحسين عليه السلام وجيشه الصغير من جهةٍ، وإظهار الوجه الشيطانيّ لجيوش يزيد وأعوانه من جهةٍ أخرى.

فالصورة الجديدة المؤثّرة المتداخلة مع قصّة مأساة ابن الحسين الرضيع الذي سيفارق الحياة دون أن يرتوي من الماء، تقوم على تصوير الإمام الحسين عليه السلام وقد جمع ما تبقّى من جيشه الصغير يأمرهم بالصّلاة رغم الخوف والقتل والعطش.

ويستجيب الرجال له فيجتمعون معه ويقفون وراءه والنبال تتساقط عليهم من كلّ جانبٍ وصلّى فيهم الحسين عليه السلام صلاة حارّةً يخشع لها قلب الجماد[1].

فَلمّا فرغوا من الصلاة، تجدّدت آمالهم واطمأنّت قلوبهم، تقدّم أحدُ رجال الحسين عليه السلام ورفع صوته قائلاً: (يا قوم إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب... يا قوم إنّي أخاف عليكم يوم التّناد... يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحقكم الله بعذابٍ، وقد خاب مَن افترى، قال ذلك وهجم وهو يقاتل كالأسد الضاري حتّى قُتِلَ، وما زال

(١) جرجي زيدان، غادة كربلاء، مصدر سابق ص٢١٩.

رجال الحسين يقاتلون ويُقتلون حتّى لم يبق منهم إلا أهل بيته خاصّةً.

إنّها بلا ريب لفتةٌ ذكيّةٌ من الأستاذ (زيدان) عندما قَرَنَ مشهد الطفل الصغير الظامئ مع مشهد صلاة أبيه الحسين عليه السلام من جهةٍ، ومع ظلم وطغيان الجيش الأمويّ من جهةٍ أخرى ذلك الجيش الذي لا يعرف الشفقة أو الرحمة حتّى مع أبناء الرسل والأنبياء.

ولذلك، نرى أنّ الأستاذ (زيدان) يعود ثانيةً لإكمال ما حدث للطفل الرضيع الظامئ الذي يتلظّى قلبه الصغير لشربة ماءٍ عذبٍ تُبعدَ عنه شبح الموت عطشاً قرب نهر الفرات.

وهنا يكمل ذلك المؤرّخ المسيحيُّ رسم الخطوط الأساسيّة لصورة تلك المأساة القاسية على قلب الحسين عليه السلام وعلى قلوب أحباب الحسين عليه السلام، بل وعلى قلوب كلّ من كان لهم ضمائر حيّةً في نفوسهم، وقِيَم إنسانيّةٍ وإيمانيّة في صدورهم، وها هو يتابعُ مجُريات الحدث بقوله إنّ سلمى قد جزعت كثيراً على الطفل، فأرادت أن تلجأ به إلى الخباء... فرآها الحسين والطفل يحترق من ألم العطش بين يديها المتُعَبتين، فأشار إليها أن تأتي، فأتت إليه والطفل يتلوّى من العطش، وقد بحَّ صوته وتعب صدره وهي تحنو عليه لِتَقيهِ من النبال، فتناوله الحسين من بين ذراعيها وأسرع نحو المعركة، ولم تفهم سلمى معنى ذلك ولم تعرف ماذا تعمل...

فإذا بالحسين يخاطب أهل الكوفة والطفل مرفوعٌ بين يديه باتّجاه السّماء، كأنّه يشير إليهم ويقول: يا أهل الكوفة خافوا من الله واسقوا هذا الطفل الصغير... يا قوم خافوا من الله واذكروا عذاب يومٍ أليم.

فتأثّرت سلمى من هذا الكلام كثيراً وظنّته يعطي ثماره، فيحنّ أولئك القوم على

الطفل الرضيع فيسقونه ولو قليلاً من الماء... ولكنّها لم تَكَدْ تفكّر في ذلك حتّى رأت رجلاً من النّبالة قد أوتر قوسه ورمى به نحو الحسين وهو يقول له: (خُذْ اسقِهِ)، فوقع السهم في قلبه وهو بين يدي أبيه الحسين، فصاح الرضيع صيحة الألم العظيم الذي أنساه ألمَ العطش إلى الماء، ثمّ تحوّل صياحه إلى أنين، فأحسَّتْ سلمى أنّ السّهم قد أصاب قلبها لا قلب ذلك الطفل الرضيع البريء الذي ليس له ذنبٌ بِنظر أعدائه إلا أنّه ابن الحسين.

وتركض سلمى إلى الحسين وترى الطفل يختلج بين يديه وهو يئنُّ، وقد تدلّى رأسه على صدره والدّم يقطر منه... فصاحت: (ويلاه ما أظلمهم، ويلاه ما أقسى قلوبهم، قتلوا الطفل!!)، ثمّ همَّت بتناوله فمنعها الحسين من ذلك وقال لها: «لا تبكي يا بُنيّة، إنّ له أسوةٌ بجدّه وعمّه وأهله الصالحين».

ثمّ رفع يديه والغلام القتيل بينهما، وشخصَ ببصره إلى السّماء وقال: «إنْ تكن حَبَستَ عنّا النصر من السّماء، فاجعل ذلك لما هو خيرٌ منه، وانتقمْ لنا من القوم الظالمين»، ثمّ حمله حتّى وضعه مع قتلى أهل بيته، وفيهم إخوة الحسين وأولاده وأبناء عمّه وأبناء أخيه الحسن[1].

هذه هي القصّة التي رواها الأستاذ (جرجي زيدان) حول مصرع عبد الله الرضيع ابن الإمام الحسين عليه السلام بين يديه المتوجّهتَين به إلى السّماء وكأنّه عليه السلام يقول لله السميع العليم: إلهي، انظر ماذا يفعلُ القومُ بي وبابني الرضيع، وها أنا أرفعه قرباناً إليك فداءً للرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولرسالتهِ السّماوية، رسالة الإنسانيّة والرحمة.

هذه هي القصّة بخطوطها الأساسيّة كما وردت في رواية (غادة كربلاء)، ولكنّنا

(١) نفس المصدر السابق ص٢٢٠. ٢٢١.

تصرّفنا فيها بعض الشيء حيث قمنا باختصار بعض التفاصيل من جهةٍ، وأضفنا إليها بعض التعابير والجزئيّات التي أخذناها من بعض كتب وروايات إخواننا السنّة، ومن بعض مؤلّفات المفكّرين والأدباء المسيحيين التي سنذكر عناوينها في هذا الفصل بعد قليل، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذه التعديلات الطفيفة التي ذكرناها لم تؤثّر على جوهر القصّة الحقيقيّة التي نقلناها عن قصّة الأستاذ (جرجي زيدان).

وعلى كلّ حالٍ، نحن لا نشكّ أبداً في أنّ القارئ الذي يقرأ قصّة استشهاد الطفل الصغير عبد الله الرضيع عليه السلام سيتأثّر بها إلى حَدٍّ كبيرٍ وربما سيذرف ذلك القارئ ـ أيّاً كان دينه ومذهبه ـ الكثير من الدّموع الحارّة على مصير ذلك الطفل الذي قضى عطشاً وألماً بعد أن سقوه من دمه الطاهر كؤوس المرارة والعذاب.

ولاشكّ أيضاً في أنّ ذلك القارئ المتأثّر بما حدث قد يتساءل قائلاً:

هل من المعقول أن تصل وحشيّة الإنسان إلى هذا الحدِّ الذي يجعله يفقد معه كلّ شعورٍ بالإنسانيّة وبالشفقة والرحمة؟!

نقول: نعم، إنَّ الإنسان، وربّما المجتمع بأكمله، قد تصل به الحال إلى ذلك الحدِّ السلبيّ السّيئ، وما المجتمع الأمويّ عموماً إلا أوضح مثال على ذلك، فالأمويون ـ كما يقول عنهم المستشرق الفرنسي (كازانوفا) ـ لم يكن عندهم أيّ همٍّ وأيّ هدفٍ من وراء حروبهم إلا الفتك بالآخرين بهدف السلب والنهب وإشاعة الخراب والتفسّخ والتلذّذِ بالمفاسد والشهوات[1].

وبالتالي، فمن الطبيعي تماماً أن يصل الحال بهذا المجتمع الفاسد إلى مستوى تقديس الرزيلة ووأدِ الفضيلة.

---

(١) جورج جرداق، الإمام علي صوت العدالة الإنسانيّة، مصدر سابق ج٤ ص٤٧.

وإذا كنّا قد ذكرنا تفاصيل قصّة استشهاد رمز الطفولة والطهارة عبد الله الرضيع عليه السلام، فإنّنا لن ننسى أيضاً قصّة استشهاد القاسم ابن الإمام الحسن عليه السلام المعروف بلقب (فلقة القمر) لشدّة هيبته وجماله، وقد كان شاباً صغيراً لا يزال في مدارج الصِّبا.

وها هي الكتب والمراجع المعاصرة تصفه وتصوّر دوره في معركة كربلاء قائلةً:

واندفع أصغرُهم سِنّاً ـ القاسم بن الحسن ـ يهزّ السّيف في الهواء السّاخن، ثمّ يهوي به فوق الأعناق الضالّة الظالمة، حتّى نالته سيوفُهم فهوى كالنجم، ينادي: يا عمّاه (قاصداً بذلك عمّه الحسين)...!!

ونسي الحسينُ ما حوله من هول، وانطلق كالصَّقرِ صوب قاتل ابن أخيه، حيث شُدَّ عليه شدّة الليث وضربه بسيفه، فبترَ يده الشقيّة ثمّ طرحه أرضاً، حيث داسَتْهُ خيلُ جيش ابن زياد، فهلك تحت حوافرها...

وانثنى البطل نحو ابن أخيه يضمُّهُ، ويشمُّهُ، ويتملّى رونق الزهور في وجهه وفي جسده الفتيِّ المثخنِ بالجراح.

ولأوّل مرّةٍ سالت عبراتُ الأسد، وقال يخاطب الجثمان المُسجّى بالمجد:

«عزيزٌ والله على عَمِّك أن تدعوه فلا يجيبُك، أو يُجيبك، فلا ينفعك في يومٍ كَثُرَ واترهُ.. وقلَّ ناصره..»[1]!!

ثمّ أسرع إليه عمّه الإمام الحسين عليه السلام، فحملهُ ووضع صدره على صدره، فجاء به حتّى ألقاه مع ابنه علي الأكبر والقتلى من أهل بيته عليهم السلام، ثمّ رفع طرفه إلى السّماء وقال عليه السلام: «اللهمّ أحصِهمْ عَدداً واقتلهم بَدداً ولا تغادر منهم أحداً ولا تغفر لهم

---

(١) خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق ص١٧٦.

أبداً»[١].

وصاح الحسين عليه السلام في تلك الحالة الأليمة: «صبراً يا بني عمومتي، صبراً يا أهل بيتي، فوالله لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً».

وقد علّق العالم الأزهريُّ الفَذّ (خالد محمد خالد) على هذا المشهد الدّامي من كربلاء بقوله مخاطباً أبا عبد الله الحسين عليه السلام:

(لك اللهُ، أبا عبد الله!!

وهل اختارتك المقادير لهذا العبء الذي يدغدغ الجبال، إلا وأنتَ له كفءٌ وبه جديرٌ؟ ألا صبراً آل محمد... فهذا دوركم في الحياة، وحظّكم من الدّنيا.. يا سادة الآخرة، ويا ملوك الجنّة..!!)[٢].

نعم، إنّهم بلا ريب سادة الآخرة وملوك الجنّة، ولكن هل كان عليهم عليهم السلام أن يدفعوا جميعاً تلك الضرائب الباهظة على الأرض كي يحتلّوا تلك المكانة الرفيعة في السّماء؟!

وهل حفظ المسلمون رسولهم الكريم صلى الله عليه وآله في أهل بيته الأطهار عليهم السلام كما أوصاهم في الكثير من خطبه وأحاديثه ومواعظه؟!

ألم ينقل لنا (أبو بكر) الحديث التالي، وقد أخرجه (البخاري) عنه:

«أرقبوا (أي احفظوا) محمداً صلى الله عليه وآله في أهل بيته»؟![٣]

---

(١) لبيب بيضون، خُطب الإمام الحسين على طريق الشهادة، مصدر سابق ص٢٧١، وقد نقل الأستاذ (بيضون) كامل القصّة عن استشهاد القاسم بن الحسن عليه السلام من كتاب (مقتل الحسين) للخوارزمي الحنفي ج٢ ص٢٨، يرجى مراجعة الكتاب المذكور لزيادة الثقة.

(٢) خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق ص١٧٧.

(٣) الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي، إحياء الميّت بفضائل أهل البيت، مصدر سابق ص٤٠.

ألم يخبرنا (ابنُ عمر) أنّ آخر ما تكلّم به رسول الله ﷺ هو قوله:

«أخلفوني في أهل بيتي»؟![1]

ألمْ يوصِنا نبيُّ الهدى والرحمة قائلاً: «اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العَينين من الرأس»؟![2]

نعم، إنّه ﷺ أوصانا وأوصى كلّ المسلمين بذلك، وما الأحاديث النبويّة الشريفة التي أوردناها الآن إلا غيضٌ من فيض ممّا جاء في كتب إخواننا السنّة وفي بعض كتب ومؤلّفات المفكّرين المسيحيين أيضاً.

وحتّى نعرف تمام المعرفة كيف حافظ المسلمون، أو بالأصحّ من ادّعوا أنّهم مسلمون، على أهل بيت رسول الله ﷺ وكيف حفظوا وصاياه فيهم عليهم السلام، دعونا نسأل التّاريخ السؤال التالي:

كيف انتهت حياة كلّ فردٍ من أفراد أهل بيت النبوّة ومهبط الرسالة؟!

كيف انتهت حياة السّيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، وماذا حلَّ بها بعد وفاة أبيها ﷺ؟!

كيف أمضى أمير المؤمنين علي عليه السلام رحلة الحياة بعد رسول الله ﷺ وكيف غاب عن عالمٍ لا يستحقّه ولا يستحقّ وجودَ ذلك الإمام العظيم فيه؟!

وهل هناك من حاجةٍ لذكر الطريقة التي انتهى بها الإمام الحسن عليه السلام؟!

أمّا الإمام الحسين عليه السلام، فلا داعي لطرح السّؤال عن كيفيّة نهايته، فنحن ما زلنا نتحدّث عن أهمّ التفاصيل في نهضته الإنسانيّة ورحلته الاستشهاديّة كما يراها أرباب

(١) نفس المصدر السابق ص٤٦.

(٢) الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، الشرق المؤبّد لآل محمد، مكتبة دار المستقبل. حلب ط١/٢٠٠٦، ص٥٠.

الأدب والفكر والسياسة والدّين في الثقافة العالمية المعاصرة.

ولكنْ، ومع ذلك، نقول دائماً وأبداً إنّ اللسان والقلم يعجزان تماماً عن إعطاء البُعد الحقيقيّ والصورة الواقعيّة للمصائب التي لحقت بأهل البيت عليهم السلام في حياتهم وحتّى بعد غيابهم، والشيء الذي يُؤسَفُ له هو أنّ تلك المصائب قد جاءت بشكلها المخيف السّافر من مصدرٍ واحد، من المسلمين أنفسهم وليس من مصدرٍ عدوانيٍّ آخر.

ولكنْ، ومن أجل أن نكونَ مُنصفين في كلامنا، علينا أنْ ندرك أنَّ هناك فرقاً واضحاً بين (السنّي) و(الأمويّ)، نعم، من الممكن أن يكون كلُّ أمويٍّ معادياً في فكره ومنهجه لفكر ومنهج أهل البيت عليهم السلام، ولكن ليس بالضرورة أن يكون كلُّ سنّيٍّ أمويَّ الهوى أو أن يكون معادياً لفكر ونهج أهل البيت عليهم السلام.

ولعلَّ الراهب الفرنسيّ (لويس غارديه) (Louis Gardet) (١٩٠٤-؟) من المستشرقين القلائل الذين انتبهوا إلى تلك الملاحظة الهامّة حول التفريق بين معنى كلمة (سنّي) وكلمة (أمويّ) وذلك من خلال دراساته المكثَّفة للفكر والتاريخ الإسلاميّ بكلّ جوانبه ونواحيه، بما في ذلك الجانب المأساوي العنيف الذي لحِقَ بأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على يدَ الأمويين ومن بعدهم على يد العباسيين أيضاً.

ولذلك، فإنّ هذا الراهب والمستشرق الفرنسيّ كان يرى على الدّوام (أنّ العديد من المؤرّخين السنّة، على مرِّ الأجيال، أدانوا بشدّة سياسة معاوية، وأكثر منها، شخص ودور ابنه يزيد المسؤول عن هزيمة ومقتل الحسين في كربلاء)[1].

وقد ذكر هذا الراهب كلَّ ما توصّل إليه من حقائق ومعارف في الكتب المتنوّعة

(١) لويس غارديه، أهل الإسلام، مصدر سابق ص٢٦٥.

التي كتبها عن الإسلام، مثل (الحاضرة الإسلاميّة) وكتاب (الإسلام دينٌ وجماعة) وكتابه الأخير (أهل الإسلام).

ومن المعروف عن هذا المستشرق أنّه أخصّائيٌّ في البُنى الاجتماعية للحياة الإسلاميّة، وقد درَّس في معهد (تولوز) الدوليّ للفلسفة مادَّة الفلسفة المقارنة من عام ١٩٥٧ إلى عام ١٩٧٢، وقد ألقى العديد من الدروس والمحاضرات الهامّة في جامعات الرباط والجزائر والقاهرة، وسنعرّف القارئ عليه بشكلٍ أكبر في الفصول القادمة.

وحتّى لا يفوتنا الوقت، وحتّى لا تسرقنا الفكرة تلو الفكرة، وتبعدنا عن محور بحثنا، دعونا ننتقل إلى فصلٍ جديدٍ من هذا الكتاب، وهو فصلٌ لا ينفصل ولا يتجزّأ عن هذا الفصل الذي هو الآن بين أيدينا، إنّه الفصل الذي يستمرّ في تصوير المأساة بعد أن وصلت إلى ذروتها.

إنّه الفصل الذي يتحدّث عن استشهاد أبي الشهداء، الإمام الحسين عليه السلام، بعد أن خذله الخاذل وقلَّ عنه الناصر واستشهد بين يديه المُدافع الصابر.

فالمأساة لم تتوقّف عند حدود قتل الحسين ولا عند حدود قتل أصحابه وأبنائه، بل هناك الكثير والكثير من المشاهد والمواقف التي يقطر لها القلب دماً، قد حدثت على ساحة كربلاء بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام مكسورَ القلب، وحيداً، غريباً، مظلوماً، عطشانب، مذبوحاً من الوريد إلى الوريد على ضفاف نهر الفرات.

إذنْ، هيَّا بنا الآن إلى الفصل الجديد من ملحمة الزمان، إلى ملحمة العاشر من محرّم الحرام، إلى الحدث العظيم الذي كاد أن يتوقّف عنده الزمان عن المسير حتّى يصبح معه كلّ يومٍ من أيام الثائرين عبر الأجيال عاشوراء، وحتّى تصبح لهم كلّ أرضٍ

من بقاع العالم كربلاء.

فهيّا بنا الآن إلى قراءة صفحة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وانتصاره على الموت والفناء.

وبالطبع، فإنّنا لن ننسى قراءة بقيّة الصفحات الأخرى المتعلّقة باستمرار تَتَابُعِ الفجائع المريرة على من تَبقّى من أهل البيت عليهم السلام حتّى بعد استشهاد ريحانة رسول السّماء الأخير صلى الله عليه وآله وسلم.

استشهاد الحسين عليه السلام واستمرار الفاجعة

يقول الباحث والمفكّر البريطاني الدكتور (ك.شيلدريك) (K. Sheldrake) في حديثه عن موقعة كربلاء: (لم يزحف الحسين بأصحابه القلّة طلباً للمجد ولا للسلطة ولا للثراء، بل طلباً لأسمى تضحية، وإنَّ كلّ واحدٍ من تلك العصبة الشجاعة، رجلاً كان أم امرأة، قد عرف أنَّ أعداءهم لا يُهزَمون وأنّهم (أي العدد) لم يأتوا ليقاتلوا فقط بل لِيَقْتِلوا، ومع أنّ هذه العصبة قد مُنعتْ من الماء حتّى الأطفال منها، وأقامت تتحرّق تحت الشّمس الساطعة وبين الرمال اللاهبة، فإنّ التخاذل لم يتسرّب إلى واحدٍ منهم، بل واجَهوا بشجاعةٍ أعظمَ الشدائد بثبات)(١).

وبالفعل، وكما رأينا في الفصل السابق، فقد واجه أصحابُ الحسين وأهل بيته عليهم السلام كلَّ أصناف الضغوط والشدائد دون أن يتسرّب الخوف أو التخاذل إلى قلب أيٍّ واحدٍ منهم.

وها هم قد تساقطوا حول الحسين عليه السلام كأوراق الخريف التي عصفت بها ريحٌ هوجاء مبكِّرةٌ فجعلتها تتناثر هنا وهناك بلا حِراك ولا حياة مُنذرةً بمجيء شتاء قاسٍ وطويلٍ مصحوباً بعواصف وفجائع وكوارث كقطع الليل الحالك لا تُبقي ولا تَذَر.

وها هو الإمام الحسين عليه السلام يلتفت حوله يميناً ويساراً فلا يرى أحداً ينصره، وها هو ينظر إلى أهله وصحبه مذبوحين ومُقطَّعين كالأضاحي والقرابين على مذبح العشق

---

(١) http: H//en. Wikipedia. Org/ wiki/ Husayn – ibn - Ali

الإلهيّ العظيم.

لقد هدأ كلُّ شيءٍ، ولم يعد أحدٌ يسمع صوت قَعْقَعةِ السّلاح، ولكن بقي صوتٌ واحدٌ يعلو ويعلو ويرتفع حتّى يشقَّ عنان السّماء... إنّه بكاء الأيامى وصراخ الأطفال في خيام الحسين عليه السلام خوفاً وذعراً وعطشاً.

إنّها الحجّة الأخيرة على النّاس، وها هو الحسين يطلقها قائلاً ومنادياً بأعلى صوته: أَمَا من مغيثٍ يغيثنا؟ أما من مجُير يجيرنا؟! أما من طالب حَقٍّ ينصرنا؟! أما من خائفٍ من النّار فَيدافعُ عَنّا؟!

لقد قامت الحجّة على الجميع وما من مجيبٍ، فتقدَّم الإمام الحسين عليه السلام نحو القوم مُصلتاً سيفه كارهاً للحياة، طالباً للجنّة، مستبشراً بلقاء جدّه صلى الله عليه وآله وأمّه عليها السلام وأبيه عليه السلام وبصحبه وأهله وبنيه عليهم السلام، ودعا الحسين عليه السلام القومَ إلى المبارزة، فلم يزل يقتل كلَّ من برز إليه من الرجال، ثمّ حمل على الميمنة ومن ثمّ على الميسرة وهو يقول:

أنا الحسين بن علي آليتُ أنْ لا أنثني
أحمي عيالات أبي أمضي على دين النبيّ

وقد وصفه عبد الله بن عمار بن يغوث بقوله: (فما رئي مكسوراً قطّ قد قُتِلَ ولدُه وأهل بيته وأصحابه، أربط جأشاً منه ولا أمضى جَناناً ولا أجرأ مَقْدماً)(١).

وحين قاربت ساعة النهاية، اندفع العديد من رجال جيش ابن زياد إلى خيام الإمام الحسين عليه السلام الذي فيه عياله ومتاعه لينهبوه، فردَّتهم صيحة الإمام عليه السلام الذي كان يقاتل وحده: «وَيْلَكم! إنْ لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في الدّنيا، فَرِحلي لكم

(١) د. عائشة عبد الرحمن، السيدة زينب، مصدر سابق ص١٢٤.

عن ساعةٍ مُباح»!![1] وبالفعل، فقد انتهبوا رحله ومتاعه بعد ساعة!!

وقبل أن ينتبهوا رحله ومتاعه بلحظات قليلة، وقفت أخته زينب عليها السلام غير بعيدة تملأ عينيها من أخيها الحسين عليه السلام قبل أن يمضي مخضَّباً بدمائه شاكياً إلى ربّه، حتّى إذا أثخنتهُ الجراح في كلّ شبرٍ من جسده الشريف وكاد أن يهوي على صعيد كربلاء، خانتها قواها فلم تعد تقوى على النظر إليه، فوضعت يديها على عينيها حتّى لا ترى كيف ستهوي ريحانةُ الرسول صلى الله عليه وآله إلى الأرض.

وعندها صاح عمر بن سعد برجاله: هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتال العرب، احملوا عليه من كلّ جانب.

أمّا السيدة زينب عليها السلام فكان آخر ما سمعته من أخيها الحسين عليه السلام صيحتَه الأخيرة في الألوف المجتمعة عليه لِقَتْله وسلبهِ والتمثيل به:

«أَعلى قَتلي تجتمعون؟! أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخط عليكم لقتْلِهِ منّي، وايم الله إنّي لأرجو أن يُكرمني الله بِهوانكم ثمّ ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله لو قتلتموني لألقى الله بأسَكم بينكم وسفك دماءكم ثمّ لا يرضى بذلك منكم حتّى يضاعف لكم العذاب الأليم»[2].

وقصده القوم واشتدّ القتال وقد اشتدّ به العطش أيضاً، فَحَملَ من نحو الفرات على القوم، فكشَفهم عن الماء واقتحم بفرسه الماء، ولمّا مدَّ يده ليشرب ناداه رجلٌ: أتلتذُّ بالماء وقد هُتِكَتْ حُرمُك؟!

فرمى عليه السلام الماء من يده ولم يشرب أبداً، ولَوى عنق فرسه واتّجه إلى الخيام

---

(١) د. عائشة عبد الرحمن، تراجم سيّدات بيت النبوّة، دار الكتاب العربيّ . بيروت، د.ت ص٧٥٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص٧٥٧.

مسرعاً، وبينما هو يشقّ الصفوف في طريق عودته، أصابه أحد السّهام الحاقدة في صدره الشريف، فمال الإمام الحسين عليه السلام عن ظهر فرسه ثمّ تمالك نفسه ووقف على رجليه وقد أحاط به العدوُّ من كلّ مكانٍ كما يحيط القيدُ بالمعصم.

وبالرغم من كلّ ما أصابه من جراح وطعنات في جسده كلّه، ثبتَ في مكانه واستخرج السّهم الذي أصابه في صدره ورماه بعيداً، ثمّ وضع يده تحت الجراح فلمّا امتلأت دَماً رمى به نحو السّماء وقال: «هَوِّنْ عَليَّ ما نزل بي إنّه بِعَينِ الله»، ثمّ وضعها ثانيةً، والعدوّ ينظر إليه ما يفعل، فلمّا امتلأت من جديد لطَّخ بالدّم رأسه ووجهه ولحيته وقال:

«هكذا أكون حتّى ألقى الله وجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا مخضّب بدمي وأقول: يا جدّي، قَتَلني فلان وفلان»[1].

ثمّ إنّهم تركوه لوحده هنيهة، وعادوا إليه من جديد وأحاطوا به وهو صريع على حَرِّ الرمال لا يستطيع النهوض، فنظر إليه ابنُ أخيه عبد الله بن الحسن عليه السلام، وكان فتًى صغيراً له من العمر إحدى عشرة سنة فقط، فأقبل يشتدُّ نحو عمِّه الحسين عليه السلام وأرادت زينب عليها السلام منعهُ فأفلتَ منها وجاء راكضاً إلى عمِّه المخضَّب بالدّماء محاولاً أن يُبعدَ عنه شبح الموت الذي راح يتراقص حوله على أسنّة الرماح ورؤوس السيوف الحاقدة.

فماذا كانت النتيجة؟ وهل أفلح ذلك الفتى الصغير في إبعاد شبح القتل والتمثيل بعمِّه الحسين عليه السلام؟ وهل شفعت له حداثة سنِّه في إلغاء أو تأجيل ذلك المشهد الدّامي من تلك المأساة؟!

---

(١) السيد هادي المدرّسي، كتاب عاشوراء، دار ومكتبة الهلال. بيروت، ١٩٨٥، ص١٩٥.

وللجواب على تلك الأسئلة، دعونا، أوّلاً، نسأل المؤرّخ (الطبري) لنرى ماذا جاء في كتب المؤرّخين المتقدّمين عن تلك الصفحة من صفحات السِّفر الكربلائيّ الحزين.

ينقل لنا (الطبري) عن العديد من الرّواة أنّ ذلك الغلام الصغير قد جاهد في الوصول إلى عمّه الحسين عليه السلام الغارق بدمائه، وقد قام إلى جنبه، وفي تلك اللحظة الحاسمة يهوي بحر بن كعب بن عبيد الله إلى الحسين عليه السلام بالسّيف يريد قتله تماماً، فقال الغلام: يا بن الخبيثة، أتقتل عمّي الحسين عليه السلام!!

فما كان من بحر بن كعب إلا أن وجَّهَ سيفه القاطع إلى رقبة ذلك الغلام الصغير، فاتّقاه الغلام بيده، فقطعها إلا الجلدة، فإذا يده مُعلَّقة، فنادى الغلام: يا أمّتاه!!

فأخذه الحسين عليه السلام فضمّه إلى صدره، وقال له: «يا بن أخي، اصبر على ما نزل بك، واحتسبْ في ذلك الخير، فإنَّ الله يُلحقك بآبائك الصالحين، برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلي بن أبي طالب وحمزة وجعفر والحسن بن علي، صلّى الله عليهم أجمعين»[1].

وتحرّك الإمام الحسين عليه السلام قليلاً، ورفع يديه المُتعَبَتين إلى السّماء قائلاً:

«اللهمّ إنْ متَّعتهمْ إلى حينٍ، ففرّقهم تفريقاً بَدداً واجعلهم طرائق قِددا ولا تُرضِ الولاة عنهم أبداً، فإنّهم دعونا لينصرونا ثمّ عَدوا علينا يقاتلونا».

وهنا يتقدّم (حرملة بن كاهل) ويرمي الغلام الصغير بسهم فيذبحه وهو في حجر عمّه الحسين عليه السلام... وأمّه واقفةٌ بباب الخيمة تنظر إلى ما فعلوا به وهي عاجزةٌ عن فعل أيّ شيءٍ له.

وحتّى تكتمل صورة العمل الوحشيّ الذي قام به أعداء أهل البيت عليهم السلام، علينا أن

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق ج٥ ص٤٥١.

نقرأ برويَّةٍ ما حدث للإمام الحسين عليه السلام في اللحظات الأخيرة من المواجهة.

الإمام الحسين عليه السلام مُلقى على الأرض، وجراحه النفسيّة لا تقلّ ألماً عن جراحه الجسديّة، وإذا مررتَ به تكاد لا تعرفه من كثرة الدّم الذي خضَّب وجهَه وجسده وكامل ثيابه، لقد نزف معظم دمه ولم يبقَ في عروقه دمٌ إلا مثلما يبقى في المصباح من قطرات زيتٍ تُبقي شعلتَه حيَّةً للحظاتٍ قليلةٍ قبل أن يعمَّ الظلام.

السهام لا تزال مغروسةً عميقاً في جسده وكأنّها تُعبِّرُ بألمها الحادّ عن مدى حقدها عليه، أمّا العطش، فلا يمكن لأحدٍ أن يتخيّل الحدَّ الذي وصل الحسين عليه السلام إليه مع حالة العطش الشديد التي لا تحتملها حتّى رمال كربلاء اللاهثة.

وبالرغم من هذه الحالة المأساوية المُزرية التي بيَّنتْ للجميع أنَّ مصير الإمام الحسين عليه السلام بات محسوماً نهائيّاً بحيث لم يعد يُشكِّل أدنى خطر على مُهاجميه من الأعداء، نرى الإمام الحسين عليه السلام ينظر بثباتٍ في وجوه مَن هم حوله من الأعداء وكأنّه يريد أن يقول شيئاً أو أن يطلب شيئاً.

ويا تُرى ما هو ذلك الشيء الذي يريد أن يقوله أو أن يطلبه؟!

إنّه يريد منهم شيئاً بسيطاً جدّاً، نعم إنّه بسيطٌ جدّاً لكنّ معانيه عميقةٌ جدّاً أيضاً، إنّه عليه السلام يريد منهم قَدَحاً من الماء!!

ويا للعجب!! إنّهم يُلبّون طَلَبه ويأتونه بقدحٍ من الماء العذب الفرات، ماذا حَدَثَ؟ هل عادوا إلى رشدهم؟ هل ندموا على فعلتهم؟ هل تابوا إلى الله من سوء ما قاموا به وتذكّروا الحديث القدسيّ القائل: «أنينُ المُذنبين أحبُّ إليّ من تسبيح المُسَبِّحين»[1]؟!

(١) آية الله السيد عبد الحسين دستغيب، الثورة الحسينيّة، دار التعارف. بيروت، د.ت ص٤٦.

وحتّى لا نُقحِمَ أنفسنا في متاهاتٍ لا طائل منها، وحتّى لا نتأوّل ما حدث، دعونا نقرأ النوايا الخفيّة لإعطائهم الإمام الحسين عليه السلام قدحاً من الماء العذب قُبيل استشهاده بلحظات.

تنقل لنا بعض الكتب المعاصرة ـ نقلاً عن الكتب المتقدّمة ـ أنّ القوم لم يعطوا الإمام الحسين عليه السلام قدحاً من الماء الفرات رحمةً به أو شفقةً عليه، وإنّما أعطوه إيّاه إمعاناً منهم في تعذيبه ومحاولة إذلاله حتّى آخر لحظة من حياته الكريمة.

فعندما استلم الإمام الحسين عليه السلام قدح الماء منهم وأرادَ وضعه على شَفَتَيه المتشقّقتين من العطش، رماه (الحصين بن نمير) بسهمٍ غادرٍ فدخل السّهم في فمه وحال بينه وبين الماء، فامتلأ فمه دماً وسقط القدح من يده(١).

وبسقوط القدح الدّامي من يد الإمام الحسين عليه السلام كانت قطرة الزيت الأخيرة في المصباح تزداد تألّقاً في اشتعالها معلنةً بذلك اقتراب النهاية وإسدال الستّار.

ويحدّثنا التاريخ المتقدّم والمعاصر، ورواتُه من مسلمين وغير مسلمين، أنّ عمر بن سعد نادى في أصحابه قائلاً: مَن ينتدب للحسين ويُوطِئه فرسه؟! فانتدب لهَ عشرة فرسان يَدُوسون صدره ويمزّقون جسدَه(٢).

---

(١) محمد رضا، الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، مصدر سابق ص١٤٥.

(٢) راجع على سبيل المثال:

أ ـ الأمير أحمد حسين بهادرخان الهندي، تاريخ الأحمدي، أشرف على الترجمة: السيد محسن الخاتمي، مركز الدراسات والبحوث العلمية ـ بيروت، ١٩٨٨، ص٢٩٤.

ب ـ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق ج٥ ص٤٥٣.

ج ـ د. عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوّة، مصدر سابق ص٧٥٨.

د ـ د. عائشة عبد الرحمن، السيدة زينب، مصدر سابق ص١٢٦.

هـ ـ أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق ص٢٦٧.

و ـ إميل حبشي الأشقر، فاجعة كربلاء، مصدر سابق ص٣٠.

ولكنْ علينا أن نعرف أنّ الأمر بتمزيق جسد الحسين عليه السلام لم يأت هكذا فجأةً وإنّما جاء أيضاً بعد عدّة مشاهد عنيفة أخرى قُبيل استشهاده بعدّة دقائق فقط.

وإليكم ما حدث بالتفصيل نقلاً عن ما جاء في كتب إخواننا السنّة وفي كتب ودواوين الأدباء والمفكّرين المسيحيين المعاصرين، ونحن عندما نورد وصفَ تلك اللحظات الحاسمة والأليمة بشكلها الكامل في هذا الفصل من الكتاب، فإنّنا نورده كاملاً ومُفصَّلاً من أجل إكمال الإطار العام للصورة الهمجيّة واللاإنسانيّة التي واجهها الإمام الحسين عليه السلام في دقائقه الأخيرة بكلّ صبرٍ وإيمانٍ ورضى بقضاء الله وقدره.

لقد أجمعتْ المؤلّفات المعاصرة على أنّ الإمام الحسين عليه السلام بقي مكبوباً على الأرض ملطخاً بدمه ثلاث ساعات وهو يقول: «صبراً على قضائك، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين»، فابتدر إليه أربعون رجلاً كلٌّ منهم يريد حزَّ رأسه الشريف.

وكان أوّل من ابتدر إليه (شبث بن ربعي) وبيده السيف، فَدَنا منه ليحتَّز رأسه، فرمق الحسين عليه السلام بطرفه، فرمى بعدها السيف من يده وولّى هارباً وهو يقول: «ويحك يا بن سعد، تريد أن تكون بريئاً من قتل الحسين وإحراق دمه، وأكون أنا مُطالبٌ به، معاذ الله أن ألقى الله بدمك يا حسين).

فأقبل (سنان بن سنان) وقال: ثكلتك أمّك وعدموك قومك لو رجعت عن قتله، فقال (شبث): (يا ويلك إنّه فتح عينيه في وجهي فأشبهتا عينيّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فاستحييتُ أن أقتل شبيهاً لرسول الله)، فقال له: يا ويلك، أعطني السيف فأنا أحقّ منك بقتله، فأخذ السيف وهمّ أن يعلو رأسه، فنظر إليه الحسين عليه السلام فارتعد، وسقط

ز. بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق، راجع هامش الصفحة ٢٧٨.

ح. جرجي زيدان، غادة كربلاء، مصدر سابق ص٢٢٥.

ط. عبد الرحمن الشرقاوي، الحسين ثائراً، شهيداً، مصدر سابق ص٣٨٤.

السيف من يده وولّى هارباً، وهو يقول: معاذ الله أن ألقى الله بدمك يا حسين.

فأقبل عليه (شمر بن ذي الجوشن) وقال: ثكلتك أمّك ما أرجعك عن قتله؟ فقال: يا ويلك، إنّه فتح في وجهي عينيه، فذكرتُ شجاعة أبيه، فَذُهِلتُ عن قتله.

فقال (الشمر): يا ويلك، إنّك لجَبانٌ في الحرب، هلمّ إليّ بالسّيف، فوالله ما أحدٌ أحقّ منّي بدم الحسين، إنّي لأقتله سواء شبه المصطفى أو علي المرتضى، فأخذ السيف من يَدِ (سنان) وركب على صدر الحسين عليه السلام فلم يرهب منه، وقال: لا تظنّ أنّي كَمَنْ أتاك، فَلَستُ أردّ عن قتلك يا حسين.

فقال له الحسين عليه السلام: «مَن أنت ويلك، فلقد ارتقيت مرتقًى صعباً طالما قبله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم».

فقال له: أنا الشمر الضبابي، فقال الحسين عليه السلام: «أَمَا تعرفني؟»، فقال: بلى أنت الحسين وأبوك المرتضى وأمّك الزهراء وجدّك المصطفى وجدّتك خديجة الكبرى.

فقال له الحسين عليه السلام: «ويحك إذْ عرفتني فَلِمَ تقتلني؟!»، فقال له: أطلب بقتلك الجائزة من يزيد، فقال له الحسين عليه السلام: «أيّما أحبّ إليك... شفاعة جدّي رسول الله أم جائزة يزيد؟»، فقال: دَانِقٌ من جائزة يزيد أحبّ إليّ منك ومن شفاعة جدّك وأبيك، فقال له الحسين عليه السلام: «إذا كان لا بدّ من قتلي فاسقني شربة ماء».

فقال: هيهات هيهات، والله ما تذوق الماء أو تذوق الموت غصّة بعد غصّة وجرعة بعد جرعة، ثمّ قال: يا ابن أبي تراب ألستَ تزعم أنّ أباك على الحوض يسقي مَن أحبّ؟ اصبرْ قليلاً حتّى يسقيك أبوك، ثمّ قال له: والله لأذبحنّك من القَفا.

ثمّ أَكَبّه على وجهه الشريف وجعل يحزّ أوداجه بالسيف، وكان كلّما قطع منه عضواً، نادى الحسين عليه السلام: «وا محمّداه، واعلياه، واحسناه، واجعفراه، واحمزتاه،

واعقيلاه، واعبّاساه، واقتيلاه، واقلّة ناصراه، واغربتاه».

فاحتزّ (الشمر) رأسه الشريف، ورفعه على رمحٍ طويلٍ، فكبّر العسكر ثلاث تكبيرات[1].

واسودّ وجه النهار وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة...

ومالت الشّمس للغروب وهي تنتحب تاركةً وراءها شفقاً غريباً بحمرته الدّامية التي ازدادت في ذلك المساء الحزين تألّقاً وكأنّ السّماء قد حسدت الأرض وغارت منها لأنّ الحسين عليه السلام أعطاها دمه، فأبت عليها إلا أن تأخذ شيئاً من دم الحسين عليه السلام وترفعه إليها كي تلوّن الأفق الفسيح بشفقٍ جديدٍ وبلونٍ جديدٍ وبحمرةٍ جديدةٍ، إنّها حمرة دم الحسين عليه السلام.

وقد أجاد شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء (أبو العلاء المعرّي) (٩٧٣-١٠٥٧م) عندما قال عن استشهاد الإمام علي عليه السلام وعن نجله الإمام الحسين عليه السلام:

وعلى الأفق من دماء الشّهيدين ... عليٌّ ونجله شاهدانِ
فهما في أواخر الليل فجرانِ ... وفي أوليّاته شَفَقانِ[2]

---

(١) راجع ما جاء في الكتب التالية، مع مراعاة وجود بعض الفوارق في دقّة وعمق التفاصيل:
أ . أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق ص٢٦٥. ٢٦٦.
ب . عبد الرحمن الشرقاوي، الحسين ثائراً، شهيداً، مصدر سابق ص٣٨٣. ٣٨٥.
ج . عبد الحميد جودة السحّار، حياة الحسين، مصدر سابق ص١٦٩. ١٧٠.
د . الشيخ عرفان حسونة الدمشقي، الحسين حفيداً وشهيداً، مصدر سابق، أورد الحادثة باختصار ص١٨١.
هـ . خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق، أورد الحادثة باختصار ص١٧٩.
و . توفيق أبو علم، الحسين بن علي، مصدر سابق، أورد الحادثة باختصار ص١٥٩.

(٢) عباس محمود العقاد، حياة قلم، دار الكتاب العربي . بيروت، ١٩٦٩، ص١٨٤.

وبرأيي الشخصيّ، فإنّ كلام الأستاذ (خالد محمد خالد) عن لحظة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء لا يقلّ قوّةً وبلاغةً عن قوّة وبلاغة ما قاله الفيلسوف الأديب (أبو العلاء المعرّي).

ففي السطور الأخيرة من الفصل الذي يحمل عنوان (المأساة والعَظَمة)، كتب الأستاذ (خالد) يقول:

وقد امتدّ (الشفقُ) على طول الأفق، وكأنّه بساط وُضِعَ ومُهِّدَ لِتَعرجَ عليه إلى جنان الله أرواح الشّهداء...!!

وعلى غير عادة الطقس والمناخ في ذلك الحين وفي تلك الأرض، دوَّت طلقات قويّةٌ صادعةٌ كأصوات الرعود.

ولقد حَسِبَها المجرمون نذيراً لهم.. ولكنْ لا، فهم أهونُ على الله من ذلك..

إنّما هي السّماء، كانت تطلق مدافعها تحيّةً..!! تحيَّةَ إجلالٍ للمهمّة التي أنجزها الشهداء.. وتحيَّةَ استقبالٍ للأرواح التي كانت قد بدأت رحلة خلودها.. حيث تتلقّى من يمينِ الرحمن ما أعدَّه لها من مثوبةٍ، ونعيمٍ، وعطاء..!![1]

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قضى على الشهداء بالمثوبة والنعيم والعطاء، فبماذا قضى المجرمون على كلِّ ما تبقّى من أهل البيت عليهم السلام وعلى الحسين بعد أن قتلوه؟!

وعلى هذا السّؤال، يجيبنا المؤرّخ (الطبري) قائلاً: (... ومال النّاس على نساء الحسين وثقله ومتاعه، فكانت المرأة لتُنازع ثوبها عن ظهرها حتّى تُغلب عليه فيُذهَب

(١) خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق ص١٨٠.

به عنها)[١].

وبالطبع، ليس المؤرّخ (الطبري) هو الوحيد الذي ذكر تفاصيل تلك الحادثة من المؤرّخين والرواة المتقدّمين، بل هناك العديد غيره مثل (ابن الأثير) في كتابه (الكامل في التاريخ) ج٤ ص٧٩- ٨٠، و(المقريزي) في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) الذي ذكر الكثير من التفاصيل المؤلمة التي أعقبت استشهاد الإمام الحسين عليه السلام سواءً ما يتعلّق بسلب ونهب وأسر ما تبقّى من أهل بيت النبوّة، أو ما يتعلّق بسلب الإمام الحسين نفسه عليه السلام ووطء الخيول جسده الشريف.

ولكن، وكما ذكرنا سابقاً، فإنّ ما يهمّنا في هذا الكتاب هو إيراد وتحليل ما جاء في صفحات الكتاب والدواوين والمؤلّفات الفكريّة المعاصرة، ولذلك دعونا نقوم الآن بجولةٍ سريعةٍ في رحاب بعض تلك الكتب والدواوين لنرى إنْ كان هناك ذِكرٌ جليٌّ لتلك الحادثة المخزية التي قام بها أعداء الله وأعداء أهل بيت رسوله المصطفى المختار صلى الله عليه وآله وسلم.

يذكر المؤلّف الأستاذ (عبد الحميد جودة السحّار) في كتابه (حياة الحسين) ما حدث قائلاً:

(وسُلبَ الحسين ما كان عليه فَأُخِذتْ سراويله وقطيفته ونعلاه، ومال النّاس على الإبل والخيل وانتهبوها)[٢].

أمّا الأستاذ المصريّ (توفيق أبو علم) المتخصّص في دراسة تاريخ وتراث أهل البيت عليهم السلام، فيقول: (لمَّا قُتِلَ الإمام الحسين مال النّاس على ثقله ومتاعه وانتهبوا ما

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق ج٥ ص٤٥٢.
(٢) عبد الحميد جودة السحّار، حياة الحسين، مصدر سابق ص١٧٠.

في الخيام وأضرموا النّار فيها وتسابق القوم على سلب حرائر الرسول، وانتهى القوم إلى علي بن الحسين (زين العابدين عليه السلام) وهو مريض على فراشه لا يستطيع النهوض، وجرّد (الشمّرُ) سيفَه يريد قتله، فقال له (حميد بن مسلم): يا سبحان الله أتقتل الصبيان؟! إنّما هو صبيٌّ مريضٌ، فقال: إنَّ ابن زياد أمرَ بقتل أولاد الحسين...

وأمر ابن سعد بالرؤوس فَقُطِعت واقتسمتْها القبائل لتتقرّب بها إلى ابن زياد)[1].

إذنْ، هذا هو مصير أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذه هي المودّة في القربى التي أرادها الله ورسوله من المسلمين!!

ولا يسعني، وأنا أورد هذه الصور والمشاهد عن مآسي أهل البيت عليهم السلام ومُحُبِّيهم في حادثة كربلاء، إلا أنْ أذكر حديثاً مؤثّراً سمعته من الأستاذ (رشاد بولس سلامة)، وهو ابن الأديب والشاعر (بولس سلامة) صاحب ملحمة (عيد الغدير) التي لا تزال تطبع منها آلاف النّسخ كلّ عام.

ومن المعروف عن الأستاذ (رشاد سلامة) أنّه شخصٌ مهتمٌّ بالأدب والثقافة، هذا بالإضافة إلى اهتماماته الاجتماعية والسياسيّة على الساحة اللبنانيّة.

ففي تاريخ ١٨ ذي الحجة من عام ١٤٢٠هـ الموافق لـ ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٠م أجرت قناة المنار التلفزيونيّة لقاء مطوّلاً متعدّد الجوانب والمواضيع مع الأستاذ (رشاد)، وقد تحدّث الأستاذ (رشاد) في ذلك اللقاء عن علاقة والده الراحل (بولس) بفكر وتراث أهل البيت عليهم السلام بشكلٍ يبعث على الدهشة والاستغراب.

وكنت كلّما سمعت شيئاً جديداً منه عن عمق حبّ والده لكلّ أفراد أهل البيت النبويّ الشريف، كلّما ازدادت دهشتي وحيرتي، وكنت أسأل نفسي مستغرباً:

---

(١) توفيق أبو علم، الحسين بن علي، مصدر سابق ص١٦٠.

كيف يمكن لذلك المسيحيّ المعاصر أن يحبّ أهل البيت أكثر بكثيرٍ من أولئك الذين كانوا يعدّون أنفسَهم مسلمين على زمن رسول الله ﷺ؟!

وكيف يمكن لهذا الأديب والشاعر الذي يفخر بهويّته المسيحيّة أن يحبّ الإمام الحسين عليه السلام ويتعاطف معه في ما أصابه في الوقت الذي كان فيه الإمام الحسين عليه السلام ضحيّةً لغدر أولئك الكفرة الذين كانوا يعدُّون أنفسهم سادةَ وقادة المسلمين؟!

وعلى كلّ حالٍ، كان أكثر ما أثّر في نفسي هي تلك القصّة التي رواها الأستاذ (رشاد) والتي حدثت معه شخصياً عندما كان والده في المراحل الأخيرة من نَظْمِ ملحمة (عيد الغدير).

يقول الأستاذ (رشاد): في صباح أحد الأيّام كنتُ أرتّب سرير والدي بعد استيقاظه صباحاً، وكانت صحّة أبي وقتها ليست على ما يرام تماماً، وبينما كنت أقوم بترتيب الوسادة، لاحظتُ أنّ تلك الوسادة كانت مبلّلةً بالماء بشكلٍ واضحٍ على أحد جانبيها فتعجّبتُ من ذلك واعتقدتُ أنّ أبي قد سقط منه كأس الماء - نتيجة ضعفه - على تلك الوسادة ممّا أدّى إلى بَلَلِ جزءٍ يسيرٍ من أحد وجهيها، ولمّا عاد أبي ودخل إلى الغرفة من جديد، سألتهُ: هل سكبتَ الماء، عن غير عَمدٍ، على الوسادة وأنت تشرب الماء ليلاً؟

فقال أبي: لا، لم أسكب الماء.

فقلتُ له: فمن أين جاء الماء، إذنْ، على الوسادة؟!

فسكتَ أبي لحظةً ثمّ نظر إليّ بحسرةٍ وقال: يا بنيّ، إنّ هذا ليس ماءً بل دموعاً.

فالبارحة ليلاً كنتُ أكتب قصيدةً مطوّلةً عن وقائع استشهاد الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام في كربلاء، فكتبتُ القصيدة ووضعت رأسي على الوسادة، وهذا ما تبقّى من

دموع الليل.

وما كان الأستاذ (رشاد سلامة) ينتهي من رواية تلك القصّة عن والده وعن علاقته الوجدانية العميقة بأهل البيت عليهم السلام عموماً، وبالإمام الحسين عليه السلام خصوصاً نتيجة للمصائب وللأهوال التي تعرّض لها في كربلاء، حتّى رحتُ أسأل نفسي قائلاً:

أليس هذا المسيحيّ أفضل من آلاف المسلمين الذين كانوا يصلّون على النبيّ ويطلبون شفاعته عقب كلّ صلاةٍ، حتّى إذا قاموا من صلاتهم تفرّغوا لإبادة أهل بيته عليهم السلام قتلاً وتنكيلاً وتهجيراً في كلّ زمانٍ ومكانٍ؟! أليس المسيحيّ الحقيقيّ أخاً للمسلم الحقيقيّ في إنسانيّته وروحانيته؟!

أليس من الخطأ أنْ نفهم الإسلام الحقيقيّ على أنّه مجرّد لفظ الشهادتين، وإنّما الصواب هو أن نفهم الإسلام على أنّه المبدأ القائم أساساً على سلامة النّاس من يَدِ ولسان الإنسان المسلم؟!! وبالتالي، فقد يكون هناك مسلمون من غير الدائرة الإسلامية يوحدون الله ويسلم النّاس من شرور أيديهم وألسنتهم، وبنفس الوقت، قد يكون هناك من نطق لسانه بالشهادتين، ولكنّه هو الشيطان بِعَينِهِ إذْ لم يدَّخر جهداً في إلحاق أسوأ أنواع الأذى بالنّاس عموماً من مسلمين وغير مسلمين؟!

وكان من الطبيعي أن يكونَ الأرقُ هو ضيفي الثقيل في تلك الليلة المثقلة بالذكريات والهموم، وبالأسئلة والتأمّلات العميقة، ولم يغادرني في ضيفي إلا عندما رأى أنّ السّماء قد مزّقت نقابها عن وجهها المضيء، ذلك الوجه الذي بدأ ينثر الضوء الخجول شيئاً فشيئاً لِيُقبِّلَ وجه الأرض النائمة تحت عباءة الليل.

وعلى أيّ حالٍ، ومن أجل التأكيد على مصداقيّة حديث الأستاذ (رشاد بولس سلامة)، دعونا نقرأ الشيء اليسير ممّا كتبه والده الراحل عن أيّام الحسين عليه السلام.

ولأنّ المجال لا يتّسع لِذكر كلّ ما قاله في الحسين وأهل بيته الكرام عليهم السلام، دعونا نقتطف بعض الأبيات الشعريّة عن اليوم الأخير في عاشوراء شهر محرّم الحرام.

فبعد أن يصف الشاعر (سلامة) وقائع القتال المرير الذي خاضه الإمام الحسين عليه السلام ضدّ جيوش يزيد اللعين وكيف استطاعت تلك الجيوش الجرّارة أن تحيط به وتمطره بِوابلٍ من الرّماح والسّهام التي استقرّت في جميع أعضاء جسمه، من رأسه حتّى قَدَميه، فبعدَ أن يصف الأستاذ (سلامة) ذلك الموقف، نراه ينتقل لتصوير اللحظة التي سقط فيها جسد الإمام الحسين عليه السلام على الرّمال، فيقول عن ذلك:

فتحَ الرملُ قلبَه مستهاماً ... يتلقّى من الحسين الدماءَ
يتلقّى دماءَ طه كنوزاً ... سائلاتٍ فتستفيض ثراءَ
ويُباهي في الأرض، كلَّ بقاع ... الأرض، حتّى يكاد يغزو السّماءَ
ويباهي، فكلُّ حبَّة رملٍ ... دونها حلية الملوك غلاءَ[1]

إذنْ، فكلّ حبّة رملٍ قد تحوَّلت بفعل دم الحسين عليه السلام إلى عقيقٍ أحمرٍ لا تُدانيها تيجان الملوك تألُّقاً وجَمالاً.

أمّا عن الفظائع التي ارتُكبت بحقّ الحسين عليه السلام بعد استشهاده، فيقول:

وانبرى (الشّمر) يذبح السبط ذبحاً ... ليت كانت يمينه شلاءَ
فَصَل الرأس عن قتيلٍ شهيدٍ ... فَعَن الشّمسِ قد أزال الضياءَ
يبتغيه هديّةً لـ (عُبَيد الله) ... يرجو نواله والثناءَ

وأمّا عن عمليّة السلب والنهب، فيقول واصفاً ذلك العمل الدَّنيء:

جرَّدوه من الثياب وضنّوا ... أنْ يُبَقُّوا على الحسين غِطاءَ

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق ص٢٨٢.

نزعتهـا عـن الشـهيد لصـوصٌ وُلِـدوا يـوم أُسـقِطوا أدنيـاءَ

ويتابع الأستاذ الأديب (سلامة) وصفه الدقيق لكلّ تفاصيل الفاجعة واستمرارها المؤثّر حتّى بعد الانتهاء من قتل الإمام الحسين عليه السلام، ومن جملة المآسي التي ذكرها ذلك الأديب والشاعر المسيحيّ (سلامة)، عمليّةَ تمزيق جسد الحسين عليه السلام تحت نِعَال الخيول الهائجة، وعملية سلب حريم الحسين عليه السلام وهتك سِترهنّ بعد أن غاب عنهنّ كلّ مُدافعٍ ونصيرٍ في أرض الوحدة والغربة.

وها هو يصف تلك الفجائع المؤسفة بقوله:

أوطَـأوا الخيـل ظهـره فاسـتعاذ الصَّـلبُ وانقضَّـت الحنايـا التـواءَ
أنِعـالُ الأفـراس داسـت حُسـيناً؟ يـا بـن (سـعد) هَـلا قضيـتَ حيـاءَ
مـا كفـاهم سـلب الحسـين فَراحـوا يسـلبون المخـدَّراتِ النسـاءَ
رُبّ أنثـى تسـتّرتْ بِـرداءٍ واسـتغاثتْ، فَجاذَبوهـا الـرداءَ
هَـدَّها مصرعُ النسـور فَـذَابت في الشرارات شـمعةً صـفراءَ(١)

وبالطبع، فإنّنا سَنُرجئُ مسألة السَّبي وموضوع المسير بالرؤوس إلى الفصل الجديد القادم، ولكن تحضرني الآن عبارتان عن مقتل الإمام الحسين عليه السلام وعن التمثيل به وبالقتلى من أهل بيته وأصحابه، وتحريق خيامه وهَتكِ سِتر بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمام عيون الفجّار والكفّار.

والعبارة الأولى هي تلك التي قالها الخليفة الأموي (عمر بن عبد العزيز) في معرض حديثه عن المصائب التي أحاطت بأهل بيت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وبشكلٍ خاصٍّ عن مصائب الإمام الحسين عليه السلام ومقتله ظلماً في ساحة كربلاء.

---

(١) نفس المصدر السابق ص٢٨٤.

يقول ذلك الخليفة الأمويّ: (لو كنتُ من قتلةِ الحسين وأُمِرْتُ بدخول الجنّة لَـمَا فعلتُ حياءً أنْ تقع عليّ عينا رسول الله ﷺ)[١].

أمّا العبارة الثانية، فهي عبارةٌ عن مقولةٍ موجزةٍ قالها العالمُ والمؤرِّخُ (البيروني) (٩٧٣ـ ١٠٤٨) عن وحشيّة الروح الأمويّة وكيفيّة تعاملها مع الشهداء من أهل البيت عليهم السلام.

فقد ذكر ذلك العالم والمؤرّخ أنّ ما فعلتهُ تلك الطغمة الآثمة بِوَطئها الخيل جسد الحسين، إنّما هو عمل فظيع وشنيع لم يُفعَل في جميع الأمم بأشرار الخلق، من القتل بالسيف والرمح والحجارة وإجراء الخيول على جسد الضحيّة[٢].

وخلاصة القول عند (البيروني)، وهو المؤرّخ الذي خَبِرَ بأحوال الكثير من الأمم والشعوب، أنّ كلّ الأمم التي درس عنها وعرف أحوالها لم تعامل المجرمين وشُذّاذَ الآفاق بتلك الطريقة الوحشيّة التي عامل بها العرب المسلمون سبطَ رسولهم ﷺ وريحانتَه من الدّنيا.

وبما أنّنا كنّا قبل قليلٍ مع الشاعر المبدع (بولس سلامة)، وذلك قبل إيراد عبارتيّ (عمر بن عبد العزيز) و(أبو ريحان البيروني) عن حياء وخجل الضمير الإنسانيّ الحيّ ممّا فعله طغاة بني أميّة بالعترة النبويّة الطاهرة عليهم السلام التي أوصى بها الرسول الكريم ﷺ خيراً وأمر المسلمين عموماً بالتمسّك بها وبالقرآن العظيم، نرى من الأفضل أن نبقى الآن أيضاً مع محطّةٍ شعريّةٍ أخرى لها مساهمتها الخاصّة في الحديث عن عنفوان النهضة الحسينيّة وعن الإمام الحسين عليه السلام الذي كان، ولا يزال، منارةً مضيئةً لكلّ

(١) راجع مجلّة (الموسم)، مصدر سابق، العدد/١٣/ المجلد /٤/، ١٩٩٢، ص٢٥٨.
(٢) أبو ريحان البيروني، الجماهر في الجواهر، نشر مكتب التراث المخطوط. طهران، ١٩٩٥، راجع المقدّمة بقلم المحقّق: يوسف الهادي، ص٥٥.

الثّوار والأحرار في العالم على مدى العصور والدّهور.

إنّ محطّتنا الشعرية الجديدة هي محطّةٌ هامّةٌ مع أحد الأدباء والصحافيين المسيحيين الكبار في عصره، وقد وُلِد ذلك الأديب المسيحيّ (إدوار مرقص) في مدينة اللاذقية وتعلّم فيها، وكتب في كبريات الصحف والمجلات المصريّة والسوريّة واللبنانيّة.

وقد أجاد الكتابة والبحث والغوص في فقه اللغة وأدبيّاتها وفنونها، وله مؤلّفات وكتبٌ كثيرةٌ منها: (كفيلُ البيان والشعر)، (ذخيرة المتأدّب)، (في سبيل العربية)، (ديوان إدوار مرقص)، وكانت وفاته عام (١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م).

وكان من جملة ما قاله الأديب (مرقص) في ديوانه عن الإمام الحسين عليه السلام، سيّد الثوّار ومنارة الأحرار:

ركب الحسين إلى الفخار الخالد ... بيضَ الصفاح فكان أكرم رائدِ
حشد الطغاة عليه كلّ قواهم ... وحموا عليه ورد ماءٍ باردِ
تأبى البطولة أن يذلَّ لِبَغيهم ... مَن لم يكن لسوى الإله بِسَاجدِ
قدم الزمان وذكره متجدّد ... في كلّ قلبٍ بالفضيلة حاشدِ
وخلودُ كلّ فضيلةٍ بخلود من ... لولاه لم يكن الزمانُ بخالدِ
إيهِ دم الشهداء سِلْ متدفّقاً ... واسقِ القلوب بِبارقٍ وبِرَاعدِ
إنّ القلوبَ الممحلات إذا ارتوتْ ... منه زَهَتْ بمكارمٍ ومحَامدِ[1]

(١) راجع ما جاء في الكتب التالية:

أ . جواد شبّر، أدب الطفّ، مؤسسة التاريخ العربي . بيروت، ٢٠٠١، ج١٠ ص٤٣.

ب . علي محمد علي دخيل، أروع ما قيل في الإمام الحسين عليه السلام، دار المرتضى . بيروت، ٢٠٠٤، ص٣٠٥.

وغنيٌّ عن القول إنّ هذه الأبيات الشعرية عن الإمام الحسين عليه السلام ليست هي كلّ ما قاله الأديب (إدوار مرقص) عن توصيف نهضة وشخصيّة الحسين الثائر عليه السلام، ولذلك ستكون لنا وقفاتٌ ومحطّاتٌ جديدةٌ أخرى مع الأديب المسيحيّ (مرقص) في الفصول القادمة إنْ شاء الله تعالى.

أمّا الآن، أيّها الأحبّة الكرام، فإنّنا سننتقل سويّةً إلى أديب وشاعر مسيحيٍّ آخر له شأنٌ عظيمٌ في محبّة أهل البيت عليهم السلام، إنّه شاعرٌ وأديبٌ، ورجل سياسة متميّز في عطاءاته، ولكنّه ـ وللأسف الشديد ـ لم يتمّ تسليط الأضواء عليه بما فيه الكفاية حتّى يعرفه النّاس جيّداً ويتدارسون نتاجاته الأدبيّة الوجدانيّة الراقية التي تفجّرت باكراً في صدر إنسان نبيل ضحّى بالكثير من مُغريات الحياة في سبيل نشرِ ونصرة فكر أهل البيت المحمدي عليهم السلام على الرغم من كونه مسيحيّ الولادة والنشأة والتربية.

ولذلك، فليعذرني القارئ الكريم إنْ كنتُ سأطيل عليه رواية بعض النقاط الهامّة في حياة هذا الشاعر المسيحي النبيل (حبيب غطّاس) والذي اعتمدنا في سَردِ سيرته على كتاب (ماذا في التاريخ) لمؤلّفه العلامة الشيخ (محمد حسن القبيسي).

وِلِدَ الأديب الأستاذ (حبيب غطّاس) عام (١٨٩٠)، ونشأ وترعرع في بيروت، وبعد أن تلقّى علومه في مدينة بيروت، دخل الشاب (غطّاس) سلك الجيش اللبنانيّ، وراح يترقّى ويعلو من رتبة إلى أعلى ومن درجةٍ إلى أرقى حتّى استحقّ وسام الأرز الرفيع ونال رتبة (كولونيل) في الجيش اللبناني.

وكان الكولونيل (غطّاس) محُبّاً للقراءة ومهتمّاً بالثقافة إلى حَدٍّ كبير، ولذلك لم يشغله منصبه العسكريّ العالي عن القراءة والاطّلاع والبحث عن الحقائق، وبعد

ج ـ الموسم، مصدر سابق، العدد ١٣ المجلد ٤، إصدار ١٩٩٢، ص٣٣٠.

رحلةٍ طويلةٍ وشاقّةٍ من البحث والدراسة، آمن الكولونيل (غطّاس) برسالة الإسلام، وأعلن إسلامه عام (١٩٦٠) على رؤوس الأشهاد، وكان رئيس جمهورية لبنان وقتذاك الرئيس (فؤاد شهاب).

ولمّا بلغ الخبر الرئيس (شهاب) أرسل في طلبه حالاً، ثمّ قال له لمّا مَثَل بين يديه: إذا كان الأمر كما سمعتُ عنك، فيلزمك إمّا أن تتنازل عن رتبتك إلى درجةٍ يستحقّها المسلمون من وظائف الجيش، أو تستقيل نهائياً من سلك الجيش اللبناني، ولك الخيار في ذلك لأنّ المرتبة التي أنت فيها من مختصّات المسيحيين دون المسلمين حسب اتفاق الاستقلال اللبناني عند تسلُّمِهِ من الفرنسيين وما ينصّ عليه دستور لبنان، وبإمكانك أيضاً أن ترجع عن إسلامك إلى دينك السابق فتبقى على مقامك ولك المزيد من المراتب والإكرام.

وهنا تأتي اللحظة الحرجة، وهنا يأتي القرار الحاسم والخطير.

هل يبقى على دينه الجديد ويخسر رتبته العسكرية العالية ويفقد كلّ الجاه والمكاسب والامتيازات؟

أمْ أنّ الحكمة تقتضي أن يعود إلى دينه السابق مقابل أن يبقى ضابطاً رفيع المستوى، مُهاب الجانب، مسموعَ الكلمة، مُطاعَ الأوامر؟!

وربّما كان السؤال الأصعب والاستفسار الأقسى الذي يواجهه الكولونيل (حبيب) هو:

إذا كنتُ قد امتلكتُ الحقيقة بعد أن عانيتُ الكثير للوصول إليها، فهل أكون قد خسرتُ الكثير إذا فقدتُ رتبتي العسكرية وامتيازاتي ووجاهتي الاجتماعية؟!

وبما أنّ الإيمان كان قد تغلغل إلى كلّ خليّةٍ فيه، وإلى كلّ نَفسٍ من أنفاسه، فقد

تقدّم، بكلّ رغبةٍ وثبات، إلى الرئيس بأوراق استقالته من الخدمة في الجيش متنازلاً عن رتبته ومكانته لمسيحيٍّ آخر يخلفه وفقاً للقانون اللبناني ولدستوره.

وعاش الأستاذ (غطّاس) بقيّة حياته حرّاً نزيهاً عزيزاً مترفّعاً عن طلب أيّ شيءٍ إلا العلم والمعرفة والثبات على ولاية أهل البيت عليهم السلام، وكان من ثمار تعلّقهِ بهم عليهم السلام أنْ كتب فيهم العديد من القصائد الرقيقة الشفّافة التي ذكرتها بعض الكتب والمجلات اللبنانية وغير اللبنانية، ولعلّ الفضل الأكبر في نشر معظم قصائده يعود للعلامة الشيخ (محمد حسن القبيسي) الذي ذكر سيرة حياة هذا المجاهد الحقيقيّ وعرّف القرّاء على الإبداعات الشعريّة لهذا الرجل الذي امتلأ قلبه حبّاً لأهل البيت عليهم السلام، حيث ذكره العلامة (القبيسي) وذكر العديد من قصائده في عدّة مواضع في كتابه (ماذا في التاريخ) والذي يبلغ عدد مجلّداته (٧٥) مجلّداً، وقد طُبِعَ في بيروت على عدّة مراحل متتابعة.

ومن الطبيعي أن نذكر لهذا الأديب بعض الأبيات الشعرية التي قالها في الإمام الحسين عليه السلام، ولكن قبل أن نذكر تلك الأبيات الشعريّة، أرى من المناسب أن أورد الآن له بعض الأبيات الشعرية في الإمام علي عليه السلام، حيث جاءت تلك الأبيات حاملةً لنا بعض نفحات إيمانه ولواعج مصائبه وأحزانه التي لاقاها في مسيرة حياته الحافلة بالأحداث الجِسام، شأنه في ذلك شأن كلّ مُوَالٍ حقيقيٍّ لأهل البيت عليهم السلام، أهل الحقّ والخير والفضيلة.

وها هو يبثّ شكواه وحزنه إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام قائلاً ومعبِّراً عن عمق آلامه وآماله:

أنينٌ أم صراخ الموجَعينَ ... على جمر الغضا ناموا السّنينا
أمير المؤمنين أم الليالي ... أرادت أن نكون مُعَذَّبينا

فَمَا لانَتْ قناتي وربِّ (عيسى) ولكنْ زدّتُ إيماناً وَدينا
وجئت لبابك العالي أنادي أغثني يا أمير المؤمنينا
أغثني يا أبا الحسنين إنّي ببابك واقفٌ عبداً أمينا
فَمُدَّ إليّ باعَكَ وانتشلني فقد أوتيتَ سلطاناً مُبينا
وزِدني من عطائك ما يقوّي على طول المدى قلبي الحزينا
فألقى وجهَ ربّي وهو راضٍ ووجهَك عندما أجد المنونا(١)

أمّا القصيدة الثانية التي أودّ ذكرها الآن، فهي القصيدة التي تبدأ بقوله: (روحي فداك حسين)، وهي مثال رائع لقصائد الرثاء في الشعر العربيّ المعاصر، ولن نعلّق على ما جاء فيها من صورٍ ومن عباراتٍ مؤثّرةٍ، وإنّما سنترك أمر التعليق عليها لمن يريد ذلك.

ولنستمع الآن سويّةً إلى قول الشاعر (حبيب الغطّاس) وهو يخاطب الإمام الحسين عليه السلام قائلاً:

روحي فداك حسين ما بَدا قمرٌ بالليل أو أشرقت في الصبح أنوارُ
أنت الشهيد الذي أدميتَ أفئدةً لولاك لم يُدْمِها والله بَتّارُ
صَدُّوك عن مورد الماء المُباحِ فلا سالتْ بأرضهمُ سحبٌ وأنهارُ
يا كربلاء سَقَتْكِ المزنُ هاطلةً على رُفاةِ الحسين فهو مغوار
يلقى المنيَّةَ عطشاناً ومبتسماً إنّ المنيّة في عينيه أقدار

(١) راجع موقع: http:// www. ١٤masom. Com/ mostabsiron/F١٥١.htm
وقد اعتمد هذا الموقع في ذكره لسيرة حياة (حبيب الغطاس) ولتراثه الشعريّ على كتاب (ماذا في التاريخ؟) لمؤلّفه العلامة الشيخ (محمد حسن القبيسي) الذي أسلفنا ذكره.

صلّى عليه إله العرش ما بزَغتْ شمسٌ وما طلعتْ بالليل أقمار[١]

وبقي أن نذكر الآن أنّ الأستاذ الأديب (حبيب غطّاس) قد انتقل إلى جوار ربّه الكريم عام (١٩٦٥) في المشفى العسكريّ في بيروت بتاريخ ٢٧/ ٨/ من العام المذكور.

ولولا خوفي من احتمال شعور القارئ الكريم بالملل لأوردتُ العديد من القصائد الشعرية الأخرى للمغفور له الأديب الشاعر (حبيب غطاس)، ولكن ستكون لنا معه وقفاتٌ شعريّةٌ أخرى في الفصول القادمة من هذا الكتاب.

وربّما سيأتي الكمُّ الأكبر من القصائد الشعريّة للكثير من الشعراء الكبار عربياً وعالمياً ضمن فصل خاصّ عن الحسين عليه السلام وكربلاء في الأدب العالمي الحديث، وبالتحديد في القسم الخاصّ بالشعر.

وعلى كلّ حال، دعونا نعود الآن إلى آخر ما يمكن أن نتحدّث عنه بشأن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام والتمثيل به والتنكيل بمن تبقّى من أهل بيته من النساء والأطفال.

فبعد أن داست الخيولُ العشرة صدر الإمام الحسين عليه السلام ومزّقته تمزيقاً، وبعد أن قطع الأعداء الطغاة رأسه الشريف مع باقي رؤوس الشهداء أمام نظر الأطفال والنساء الحرائر، مالَ العدوُّ على الخيام فأحرقوها وأطلقوا أياديهم الآثمة سلباً ونهباً وضرباً لنساء أهل البيت عليهم السلام، وقد تحدّثنا عن كلّ ذلك في الصفحات الماضية من هذا الفصل.

وما يهمُّنا الآن هو مصير رأس الإمام الحسين عليه السلام، فَمَنْ الذي أخذه، ولماذا؟ وماذا حدث بالتفصيل مع ذلك الشخص الذي استأثر به؟!

---

(١) مجلّة الموسم، مصدر سابق، العدد ١٢، المجلد٣، إصدار عام ١٩٩٦، ص١٥١.

وعن هذه الأسئلة يجيبنا الكاتب المصريّ (محمد رضا) في كتابه (الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة)، ويؤكّد الأستاذ (رضا) في كتابه المذكور على أنّ الشخص الذي استأثر برأس سيّد الشهداء، الإمام الحسين عليه السلام، هو (خولي بن يزيد الأصبحي)، أمّا السبب الذي جعله يستأثر بالرأس الشريف فهو الأمل بالحصول على جائزةٍ ماليّةٍ كبيرةٍ من سيّده عبيد الله بن زياد.

وهنا تحديداً، ينقل لنا ذلك الكاتب، وهو كما ذكرنا سابقاً من إخواننا السنّة، ما دار من حديثٍ بين (خولي ابن يزيد الأصبحي)، وبين زوجته (النوّار بنت مالك) حول رأس الحسين عليه السلام.

ويبدأ الحديث بدخول (خولي) على زوجته (النوّار) وهو مسرور ومنفرج الأسارير، فتخاطبه زوجته قائلةً له: ما الخبر؟ ما عندك؟

فردّ عليها (خولي) قائلاً: (جئتك بغِنى الدّهر، هذا رأس الحسين معكِ في الدّار)، وبالطبع فإنّه قد قال ذلك لأنّه كان يرجو أن يكافئه (عبيد الله) مكافأةً عظيمةً لا تخطر على بال أحدٍ أبداً.

فقالت له (النوّار): (ويلك، جاء النّاس بالذهب والفضلة وجئت أنت برأس الحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله!! لا والله لا يجمع رأسي ورأسك بيتٌ واحدٌ أبداً).

ثمّ قامت (النوّار) من فراشها وخرجت إلى الدّار حيث كان رأس الحسين عليه السلام موضوعاً تحت الإجّانة (وعاء كبير) وجلست تنظر ناحيته.

فماذا رأت (النوّار)؟!

تقول (النوّار) نفسُها: (فوالله ما زلتُ أنظر إلى نورٍ يسطع مثل العمود من السّماء

إلى الإجّانة، ورأيتُ طيراً بيضاً ترفرف حولها)[١].

وهذه بلا ريب شهادةٌ قويّةٌ من (النوّار بنت مالك) زوجة (خولي بن يزيد الأصبحي)، ذلك الرجل الآثم الذي شارك في قتال الإمام الحسين عليه السلام، ومن ثمّ في الاستئثار برأسه الشريف طلباً للجاه وللثروة العظيمة عند أحد طغاة بني أميّة المتجبّرين.

ولكنْ يرى الكثير من الأدباء والمفكّرين من إخواننا المسلمين السنّة ومن المسيحيين أيضاً، بالإضافة إلى بعض الهندوس والصابئة، أنّ الكرامات الحقيقيّة للإمام الحسين عليه السلام تجلّت وظهرت بعد استشهاده ولا يمكن لأحدٍ أن ينكر ذلك لسببٍ واحدٍ وهو أنّ ما وصل إليهم اليوم من رواياتٍ كثيرةٍ متطابقةٍ في معناها عن تلك الكرامات الحسينيّة إنّما هي رواياتٌ صحيحةٌ جاءتْ أوّلَ ما جاءتْ في كتبٍ ومؤلّفاتٍ لم يكن أصحابها على مذهب أهل البيت عليهم السلام، وهذا ما يعزّز مصداقيّة تلك الروايات المتواترة.

وإذا كنّا في نهاية المطاف قد ذكرنا العديد من الحوادث، ونقلنا أيضاً العديد من الصور المحزنة عن مصائب الإمام الحسين عليه السلام ومآسي أهله وعياله وأصحابه المخلصين الذين ثبتوا معه على الحقّ فوق رمال كربلاء، فعلينا أن نذكر أيضاً أنّ هناك العديد من الأبطال الذين ذاقوا مع الإمام الحسين عليه السلام مرارة الآلام في سبيل إحياء الإسلام على الرغم من أنّهم لم يكونوا معه عليه السلام في كربلاء، بل كانوا ينتظرون الأخبار بكلّ صبرٍ ورضى في المدينة المنوّرة التي كانت تستعدّ لارتداء السواد عمّا قريب.

---

(١) محمد رضا، الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، مصدر سابق ص١٦١.

وعلى الرغم من ضيق المجال لذكر بعض تلك المشاهد المؤثّرة التي شهدتها مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد وصول خبر استشهاد الإمام الحسين عليه السلام مع أهله وأصحابه وتسيير ما تبقّى من النساء والأطفال سبايا إلى يزيد ابن معاوية في دمشق، فإنّنا نجد أنفسنا مضطرين إلى ذكر بعض تلك المواقف المؤثّرة لأبطالٍ حقيقيين جاهدوا وناصروا الإمام الحسين عليه السلام وضحّوا من أجله وأجل إحياء معالم دين جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بأغلى ما يملكون.

وسأكتفي هنا بذكر واحدٍ من أولئك الأبطال الذين كانت أرواحهم النورانيّة الصافية ترفرف برفقٍ وخشوعٍ حول الإمام الحسين عليه السلام في وحدته وغربته.

وقد يُفاجأ القارئ الكريم إذا قلنا له إنّ ذلك البطل العظيم الذي سنتحدّث عنه الآن من خلال هذه السطور القليلة هو امرأةٌ وليس رجلاً.

نعم، إنّها امرأةٌ.

فهل سمعت بامرأةٍ اسمها (فاطمة بنت حزام العامريّة الكلابيّة)؟!

وهل عرفت، أيّها القارئ الكريم، ماذا قدّمت تلك المرأة الفاضلة (رض) للحسين عليه السلام وَلِدِين الحسين ودين أبيه وجدّه عليهما السلام؟!

اسمعْ، إذنْ.

(فاطمة بنت حزام) هي زوجة أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد وفاة السيدة (فاطمة الزهراء) عليها السلام، وقد تزوّجها الإمام علي عليه السلام لاحقاً كي تعتني بأولاده بعد غياب أمّهم الزهراء عليها السلام، وقد رُزِقتْ فاطمة بنت حزام من أمير المؤمنين علي عليه السلام بأربعة أولاد ذكور، وهم: (عبد الله) و(جعفر) و(عثمان) و(العباس) الملقَّب بأبي الفضل وهو أكبرهم.

وكانت تلك المرأة الفاضلة مثالاً في الشرف والإخلاص والطاعة، وكانت أمّاً حقيقيّةً لأولاد السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

ومن المعروف عن تلك السيّدة الفاضلة (رض) أنّها جاءت ذات يومٍ إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد زواجهما وقالت له بكلّ أدبٍ واحترامٍ:

ـ لي إليك حاجة.

فقال عليه السلام لها: «قولي ما عندك».

قالت: أنا أطلب منك أن تغيّر اسمي فعندما تناديني يا فاطمة، أرى الانكسار بادياً على وجوه الحسن والحسين وزينب، فإنّهم يذكرون أمّهم فاطمة الزهراء ويتألّمون، فما كان من الإمام علي عليه السلام إلا أن استجاب لها وغيّر اسمها وسمّاها (أمّ البنين)[1].

هذه هي (أمّ البنين)، وهذه هي شهامتُها وسماحتُها ونُبلُ أخلاقها وتربيتها التي تَلَقَّتْها في مدرسة فاطمة الزهراء عليها السلام وخديجة الكبرى (رض).

أمّا إذا أردنا أن نعرف كيف كانت تلك المرأة بطلةً من أبطال وبطلات كربلاء على الرغم من عدم وجودها الفعليّ في ساحة المعركة، فما علينا إلا أن نتوقّف قليلاً ونقرأ السطور القليلة التالية عنها.

لقد انتشر خبر استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء في جميع أرجاء الأرض الإسلاميّة، وقد عرف النّاس في المدينة بمقتل الإمام الحسين عليه السلام عن طريقين.

فالطريق الأوّل، كان من خلال فَوَران التراب بالدّم في القارورة التي أعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أمّ سلمة (رض) وإعلامه لها بأنّ الحسين عليه السلام سيُقتل في كربلاء وستمتلئ القارورة بدمٍ عبيطٍ يختلط مع التراب في الساعة التي يُقتَل فيها على يَدِ

(١) سلمان هادي طعمة، أمّ البنين، دار البقيع . طهران، ١٩٩٦، ص٢١.

أعدائه الضّالين، ولم تعلن أمّ سلمة (رض) الخبر إلا للخواصّ فقط.

أمّا الطريق الثاني، فقد كان من خلال (بشر بن حذلم) الذي نعى الحسين عليه السلام إلى عموم أهل المدينة، وقد كانت أمّ البنين (رض) في طليعة المستقبلين له، وكانت تحمل على كتفها طفلاً صغيراً لِولدها أبي الفضل العباس عليه السلام حيث كان قد تركه عندها لأسباب وظروف خاصّةٍ به اقتضت منه ذلك.

إذنْ، لقد استقبلت تلك المرأة المجاهدة (بشر بن حذلم) وهو ينعى الحسين عليه السلام وينادي برفيع صوته قائلاً لأهل المدينة:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قُتِلَ الحسينُ فأدمعي مدرارُ
الجسمُ منه بكربلاء مضرَّجٌ والرأس منه على القناة يُدَارُ

ولمّا وقع بصرها على الناعي لم تسأله عن مصير أحدٍ من أولادها الأربعة، وإنّما سألته فقط عن حال الحسين عليه السلام وما جرى معه، وقد عَلَتْ الدهشةُ وجهَ بشر بن حذلم عندما عرف أنّ هذه المرأة هي فاطمة بنت حزام العامرية، وهي أمّ البنين كيف لا تسأله عن مصير أولادها في المعركة!! وقد ظنّ (بشر) أنّ الصدمة قد جعلتها تغفل عن ذكر أولادها، فراح يعدّدهم لها الواحد تلو الآخر، وفي كلّ واحدٍ منهم كان يعزّيها ويقول لها بكلّ إكبارٍ وخشوعٍ: عظّم الله لك الأجر بولدك جعفر، فتقول له بلهفةٍ: وهل سمعتني أسألك عن ابني جعفر؟! أخبرني عن ولدي الحسين، إنّي أسألك عن الحسين.

ولم يصدّق (بشر) ما يسمع وما يرى، ولذلك راح يخبرها عن حال بقيّة أولادها إلى أن وصل إلى خبر ابنها العباس، فما كاد يخبرها بقوله:

(يا أمّ البنين، عظّم الله لك الأجر بولدك أبي الفضل العباس)، حتّى اعتراها

اضطرابٌ شديدٌ في اللحظة التي سمعت فيها نبأ مصرع ابنها أبي الفضل العباس عليه السلام، بحيث اهتزَّ بدنها حتّى أنّ الطفل الصغير الذي كانت تحمله على كتفها قد سقط إلى الأرضِ ولم تَقوَ على حمله ثانية، ولكنّها تمالكت نفسها واستمرّت في إلحاحها على (بشر) قائلة له: أخبرني يا (بشر) عن حال ولدي الحسين..

يقول بشر: وحينما أخبرتُها بمقتل الحسين ومصرعه، صرخت ونادت:

واحسيناه..، واحبيب قلباه.. يا ولدي يا حسين.. نورُ عيني يا حسين.

وقد شاركها الجميع بالبكاء والنحيب على الحسين عليه السلام، ولم تذكر أبناءَها إلا بعد أنْ ذكرتْ الحسين باكيةً عليه(١).

وتحدّثنا المؤلّفات المعاصرة أنّ تلك البطلة المجاهدة بأولادها فداءً لدين جدِّ الحسين صلى الله عليه وآله وسلم، كانت تخرج إلى البقيع فتبكي بنيها الأربعة (عبد الله وجعفراً، وعثمان، وأبا الفضل العباس) ـ وقد قُتِلوا جميعاً في كربلاء، وتندبهم أشجى ندبة وأحرقها، فيجتمع النّاس إليها يسمعون منها، حتّى أنّ مروان بن الحكم ـ عدوّ الطالبيين ـ كان يجيء أيضاً فيمن يجيء لذلك، فلا يزال يسمع ندبتها ويبكي(٢).

وكما ذكرتُ سابقاً، فإنّني سأكون ضَنيناً بذكر الأبطال الكبار الذين ضحّوا بكلّ ما يملكون من غالٍ ورخيصٍ في سبيل إحياء معالم دين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي حاول الملوك الأمويون إزالته ومحو آثاره والعودة بالنّاس إلى عصر الجاهليّة بكلّ ما فيه من سلبيّات وتناقضات، ولكن هذه المرّة بثوبٍ جديدٍ وبأسلوبٍ جديدٍ، إنّه الأسلوب القائم على حكم القبائل والعشائر من خلال حكمٍ مركزيٍّ واحدٍ هو النّظام الملكيّ

(١) نفس المصدر السابق ص٢٠.

(٢) د.عائشة عبد الرحمن، السيّدة زينب، مصدر سابق ص١٥١.

الفرديّ المطلق حيث يكون الملك فيه هو الحاكم والمشرِّع الوحيد وليس هناك أيُّ اعترافٍ بقوانين وشرائع أخرى حتّى ولو كانت تلك القوانين مستمدّة من شريعة السّماء.

ولذلك أعود ثانيةً وأقول: إنّ ذكر الأبطال المميزين في واقعة كربلاء مثل (أمّ البنين) و(مسلم بن عقيل) و(هاني بن عروة) و(بُرير بن خضير) وحتّى (السيدة زينب عليها السلام) نفسها وغيرهم من الأبطال الذين شهدوا كربلاء أو لم يشهدوها بشكلٍ مباشرٍ، مثل (أمّ البنين)، لم أغفل عن ذكرهم سهواً، ولم أتوسّع في ذكر بعض النقاط الهامّة من بعضهم إلا من أجل مشروعٍ فكريٍّ متكامل يتناول أولئك الأبطال بشكلٍ مفصَّلٍ بحيث يكون نصيب كلّ واحد منهم كتاباً مستقلاً نتناول فيه سيرة حياة ذلك البطل أو البطلة ونستعرض من خلاله كلّ ما قدَّمه وما قام به من مآثر وتضحيات من أجل إبقاء (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) شهادةً حيّةً تملأ الآفاق والأكوان بعبير الفضيلة وحرارة الحقّ وبشائر الفرقان.

أمّا الآن، فقد آن الأوان لنجمع متاعنا ونرحل عن أرض كربلاء التي امتزجت فيها دموعنا مع دماء أحبَّتِنا فوق رمالها الصفراء التي ارتوت من تلك الدّموع السخيّة والدّماء الزكيّة، وها نحن نبتعد عنها الآن وقد تركنا فوق ترابها الكئيب الذّاهل ممّا جرى فوقه جثثَ أولئك الأحبّة بلا رؤوس ولا أيادٍ ولا أصابع.

وأكثر ما يشجينا الآن، ونحن ننظر إلى الوراء، هو منظر جسد سيّدنا الإمام الحسين عليه السلام ممدَّداً على التراب بلا رأسٍ وقد مزّقته الخيول وعجنت لحم صدره ونحره اللذين كان يقبّلهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باستمرارٍ بتراب أرض الفاجعة، وعلى الرغم من تمزيق جسده الشريف إلا أنّنا نستطيع أن نرى يده لا تزال ممدودةً باتجاه

إحدى الخيام المحروقة وكأنّ أصابعها كانت تريد أن تستقرَّ برفقٍ وحنانٍ على رأس جثّة طفل لم يتجاوز الأشهر من عمره.

أمّا الطفل الرضيع، وعلى الرغم من أنّه كان جثّةً هامدةً قد مزّقتها السّهام، إلا أنّ عينيه كانتا مفتوحتين ومتّجهتين إلى جهة جثّة الأب تبحثان عن الرأس المقطوع، تبحثان عنه بلهفةٍ وشوقٍ، تبحثان عنه لِتَسألاه بكلّ دهشةٍ واستغرابٍ، وبكلّ ما في سؤال الطفل من براءة:

- أبي... يا أبي... أنا طفلٌ صغيرٌ، فلماذا قَتَلوني؟!

رحلة الآلام من كربلاء إلى الشام

مع غروب الشّمس العاشر من المحرّم الحرام، كان وجه السّماء يزداد حمرةً خجلاً ممّا فَعَلَتْه الأيادي الآثمة على الأرض، وكانت الشّمس قد ودَّعتْ أشلاء الضحايا بصمتٍ مهيبٍ وهي تقول في قرارة نفسها.

قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره!! وتباً لحظّي العاثر التعيس!! أما يكفيني أنّني قد شاهدت أوّل جريمةٍ في تاريخ الإنسان الأوّل على الأرض عندما هَشّم قابيلُ رأس أخيه هابيل التقيّ بلا هوادةٍ ولا رحمة؟!

أما يكفيني ما رأيت من الفظائع والمجازر التي ارتُكِبتْ بحقّ الرسل والأنبياء، وبحقّ الأوصياء والأولياء، وكيف لي أن أنسى ما فعل القَتلَةُ الآثمون بالنبيّ يحيى عليه السلام وبأبيه النبيّ زكريا عليه السلام، وكيف ساموا إبراهيم عليه السلام وعيسى عليه السلام ومحمداً صلى الله عليه وآله وسلم سوء العذاب؟!

وربّما كان أكثر ما يشجي الشّمس ويحزنها وقد لملمت آخر خيوطها عن أرض المذبحة هو أنّها شهدت ـ وللمرّة الثانية ـ جميع مآسي أولئك الرسل والأنبياء مجتمعةً من جديد في مجزرةٍ جديدةٍ اسمها كربلاء الحسين عليه السلام.

إذنْ، غابت شمس العاشر من المحرّم سنة إحدى وستين، وأرض كربلاء غارقةٌ في الدّماء، قد تبعثرت فيها أكرمُ الأشلاء، وما هي إلا ساعةٌ أو أكثر قليلاً حتّى لاح القمر من وراء الغيوم خابيَ الضوء، وقد أرسل ما تبقّى من ضوئه الشاحب إلى أرض

القربان العظيم ليعانق برفق وحنان تلك الأشلاء النبويّة المبعثرة هنا وهناك.

وفي سكون الليل المهيب، وتحت ضوء القمر الكئيب، كان هناك مشهدان متناقضان، بل مشهدان يمثّلان فلسفة الحياة وطبيعتها الغريبة الغادرة.

وإذا أردنا أن نتعرّف على كلٍّ من المشهدَين، فلنترك الحديث للكاتبة والباحثة الدكتورة (عائشة عبد الرحمن) المتخصّصة بالدراسات الإسلاميّة العميقة والجادّة.

وها هي تلك الكاتبة الملتزمة بالقضايا الإسلاميّة تصف لنا المشهدَين الغريبين والمتناقضين بقولها المليء بالصور والتعابير المؤثّرة:

(وعلى ذلك الضوء الشاحب بَدَتْ (زينب) في نَفَرٍ من الصبيةِ وجمعٍ من الأرامل والثواكل، عاكفات على تلك الأشلاء، يلتمسن فيها ذراعَ ولدٍ حبيبٍ، أو كتفَ زوجٍ عزيزٍ أو قَدَم أخٍ غالٍ.

وغير بعيدٍ منهنّ، كان عسكر (ابن زياد) يَسمَرون ويشربون ويحصون على ضوء المشاعل ما قطعوا من رؤوس وما انتهبوا من أسلاب)[1]، إنّها مقارنةٌ غنيَّةٌ كلّ الغنى عن الشرح والتوضيح.

وما أن خَيَّمَ الظلام تماماً وتوارى القمر وراء الغيوم الكثيفة على صدر السّماء المُكفهرّة حتّى كانت رؤوس الشهداء الأبرار والمؤمنين الأحرار تُحمل على رؤوس الرماح إلى عبيد الله بن زياد في الكوفة، أمّا السبايا فلم يُؤخَذوا إلا عند زوال اليوم التالي.

وسار الجميع صامتين مُيَمِّمين وجوههم شطر الكوفة، وهذا هو الحسين بن علي عليه السلام، الفتى المريض، يسير صامتاً أيضاً وقد أثقلته السلاسلُ والأغلال في يديه

(١) الدكتورة عائشة عبد الرحمن، السيدة زينب، مصدر سابق ص١٢٦.

ورجليه وحول عنقه، أمّا نساء أهل بيت رسول الله ﷺ فلم يكن حالهنّ أفضل من حال سبايا الحروب وأسيرات المعارك والغارات.

أمّا السيدة زينب عليها السلام، شقيقة الحسين عليه السلام وحاملة راية الثورة من بعده، فقد كانت تتقاذفها الأفكار وتتجاذبها الصُّور والذكريات، إنَّ ملامح وجهها المبارك الآن كملامح وجه شقيقها الحسين عليه السلام لها تأثيرٌ كبيرٌ في إثارة الأحزان وكوامن نفس الإنسان النقيّ الطامح للحاق بمواكب أهل السّماء، ولذلك يُذكَرُ عن جدّها رسول الله ﷺ وعن أبيها أمير المؤمنين علي عليه السلام وعن أمّها الزهراء فاطمة عليها السلام بأنّه كلّما كان يقع نظرُهم عليها، أو احتضنوها، أو قبّلوها، اغرورقت عيونهم بالدّموع، وانحدرت سخيَّةً على صفحات خدودهم، حتّى كأنّهم عليهم السلام كانوا يرون برؤيتها كلّ ما سيجري من المصائب عليها، أو كانوا يرون منها مواضع ضرب السياط، وغمد السيوف، وكعب الرماح، فيتذكّرون أسْرَها ويشاهدون في عينيها الذّابلتين صور الفجائع والمصائب والسَّبي من كربلاء إلى الكوفة ومنها إلى الشام[1].

إذنْ، عند زوال الشّمس الحادي عشر من الشهر المحرّم ارتحل (ابن سعد) إلى الكوفة ومعه رتل السبايا من نساء أهل البيت عليهم السلام بقيادة العقيلة زينب عليها السلام، سَيَّروهنّ على أقتاب الجمال بغير وطاء كالأسيرات وهنّ ودائع خير الأنبياء ﷺ.

وقبل أن تودّع زينب عليها السلام أرض الشهادة والكرامة، وقفتْ قليلاً قرب جسد شقيقها الإمام الحسين عليه السلام المرمّل بالدماء، وبسطتْ يديها تحت بدنه المقدّس والممزّق، وحَرَّكتْهُ ورفعته قليلاً نحو السماء، وقالت مُناديةً اللهَ سبحانه وتعالى بصوتها

(١) السيّد نور الدين الجزائري، الخصائص الزينبيّة، منشورات الشريف الرضي. قم، ١٩٩٨، ص٤٩.

المبحوح الشجيّ:

«إلهي، تقبّلْ منّا هذا القربان»[١]، وفي روايةٍ أخرى: «اللهمّ تقبّلْ هذا القربان من آل محمد»[٢].

نعم، إنّ الإمام الحسين أعظمُ قربانٍ قَدَّم نفسه فداءً لرسالة أعظم الأديان السّماوية وآخرها، وإنّ دمه هو زيت المصباح المحمدي الذي أبقى شعلته متّقدةً على مرِّ الأجيال والعصور، وما من ثائرٍ في الإسلام ضدّ الظلم والطغيان إلا وفي وريده قطراتٌ من دم الحسين عليه السلام.

وعلى كلّ حالٍ، سار (عمر بن سعد) بالسبايا المُشار إليهم، فلمّا قاربوا مدينة الكوفة اجتمع أهلها للنظر إليهم، فتقدّمت امرأةٌ من الكوفيّات وقالت:

من أيّ الأسارى أنتنّ؟!

فأجابت بناتُ علي عليه السلام: «نحن أسارى آل محمد».

ويا له من جوابٍ بليغٍ يُبكي الحَجَر ويستنطق العِبَرْ.

وأيّ عبرةٍ بعد هذا الجواب (نحن أسارى آل محمد)؟!

ثُمّ ألا يذكّرنا هذا الجواب منهنّ (عليهن السّلام) بنداء السيّدة زينب عليها السلام عندما جاءها الأمرُ بالمسير في موكب الأسيرات المحمديّات حيث وقفت ورفعت يديها الطاهرتين إلى السّماء ونادت بحرارةٍ وحرقةٍ نابعةٍ من أعماق القلب الكسير:

«يا محمّداه.. صلّى عليك ملائكة السّماء.. هذا حسينٌ بالعراء.. مُرمّل بالدماء.. مُقطّع الأعضاء.. وبناتك سبايا.. وذريّتك مُقتّلة.. تسفي عليها الصّبا»[٣]؟! فأيّةُ عبرة

(١) لبيب بيضون، خطب الإمام الحسين على طريق الشهادة، مصدر سابق ص٣١٤.

(٢) عبد الرزاق كيلو، السيدة زينب بنت علي، دار المنارة ـ اللاذقية، ١٩٩٥، ص٣٦.

(٣) محمد عبد الله المنفلوطي، ريحانة أهل البيت السيدة زينب الكبرى، مصدر سابق ص٨٥.

أعمق من هذه العبرة؟!!

لقد صدق فيلسوف الشعراء (أبو العلاء المعرّي) عندما قال عن عمق تلك العِبرة:

أرى الأيـــامَ تفعـــل كـــلَّ نكـــرٍ فـــما أنـــا في العجائـــب مُســـتَزيدُ
ألـــيسَ قُريشُـــكم قتلـــتْ (حُســـيناً) وكـــان عـــلى خلافـــتكم (يزيـــدُ)؟!

ومهما يكن من أمرٍ، فقد سار الركب ووصل أخيراً إلى الكوفة، واجتمع النّاس حول ذلك الموكب يضجّون بالنُّواح والبكاء حتّى بكى لمرآهم كلّ عدوٍّ وصديق.

ويذكر الكاتب المصري المعاصر (محمد عبد الله المنفلوطي) أنّ الإمام علي زين العابدين عليه السلام لمّا سمع بكاء أولئك النّاس، أنشد قائلاً:

يـــا أمّـــة الســـوء لا سُـــقياً لِـــرَبعِكُمُ يـــا أمّـــة لم تُـــراعِ أحمـــداً فينـــا
لـــو أنّنـــا ورســـول الله يجمعنـــا يـــوم القيامـــة، مـــا كنـــتم تقولونـــا؟!
تُســـيِّرونا عـــلى الأقتـــاب عاريـــة كأنّنـــا لم نُشـــيِّد فـــيكمُ دينـــا!

ثمّ يتابع زين العابدين عليه السلام قوله مخاطباً بني أميّة:

تُصـــفِّقون علينـــا كفّكـــم فرحـــاً وأنـــتم في فجـــاج الأرض تَسْـــبُونا!
ألـــيس جـــدّي رســـول الله ولـــيُّكمُ هـــادي البريّـــة مـــن سُـــبُل المُضـــلِّينا؟
يـــا وقفـــة الطـــفّ قـــد أوْرَثْتنـــي حُزنـــاً والله يهتـــك أســـتارَ المُســـيئينا[1]

ويذكر الأستاذ (المنفلوطي) أيضاً، هو وغيرُه من الكُتّاب المعاصرين، أنّ السيدة زينب عليها السلام لم تطق وقتها أن ترى أهل الكوفة يبكون الحسين وآله وهم ضحايا، ويَرْثونَ حال الأسيرات من بنات الرسول صلى الله عليه وآله، وما انتُهِكَ من حرمتهنّ، فأشارت عليها السلام إليهم أنْ اسكتوا، فَسَكتوا وطأطأوا رؤوسهم خزياً وندماً، على حين مضت هي

(١) نفس المصدر السابق ص٨٦.

تقول مؤنّبةً:

«أمّا بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الخَتل والخذل، أتبكون؟! فلا سكنت العَبرة ولا هدأت الرنَّة، إنّما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوّةٍ أنكاثاً، تتّخذون أيمانكم دخلاً بينكم، وإنّ فيكم الصَّلِف والصنف وداء الصدر الشنف.. ألا ساءَ ما تزرون.

أي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فقد ذهبتم بعارها وشنارها، فلن ترحضوها بغسل أبداً، وكيف ترحضون قتل سليل خاتم النبوّة ومعدن الرسالة، ومدار حجّتكم ومنار محجّتكم، وهو سيّد شباب أهل الجنّة؟! لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء.

ويلكم يا أهل الكوفة أتعجبون لو أمطرتْ دَمَاً؟! ألا ساء ما سوَّلت لكم أنفسكم، أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون.

أتدرون أيَّ كبدٍ لرسول الله فَرَيتم، وأيّ دمٍ له سفكتم، وأيّ كريمةٍ له أبرزتم؟!

لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هَدًّا»[1].

وما أنْ أتمّت عليها السلام كلامها وتوبيخها، حتّى ضجّ النّاس بالبكاء، وذهلوا، وسقط ما في أيديهم من هَول تلك المحنة الدّهماء التي ما استفاقوا من صدمتها بعد.

ثمّ لَوَتْ رأسها المُتعَب عنهم، ومضت قُدُماً إلى حيث أُريدَ لها أن تمضي، هي والسبايا من آل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام غير آبهةٍ بما يكون.

ومضت عليها السلام حتّى بلغت دار الإمارة في قلب الكوفة، فأحسَّتْ حرقة البكاء تجري في حلقها ومرارة المهانة والقهر تعتصر أعماق قلبها الذي لم يعرف الفرحَ في حياته أبداً.

---

(١) نفس المصدر السابق ص٨٧.

وكيف لا تبكي وكلّ حجر من أحجار دار الإمارة تذكّرها بأبيها أمير المؤمنين علي عليه السلام !!

وكيف لا يتصدّع قلبها الكبير همّاً ولوعةً وهي تسترجع في ذاكرتها أيام الصِّبا مع شقيقيها الحسن والحسين عليهما السلام في تلك الدّار التي كانت تتلألأ بأنوار النبوّة والهداية وتفيض على النّاس علماً وحكمة ورحمة!

وتماسكتْ جيداً، وتمالكت أعصابها مستمسكةً بحبل الصبر والإيمان، ولكن وبالرغم من هذا، فقد ازدادت دقّات قلبها وشعرت بمزيج من القَرَفِ والغضب والأسى حين رأتْ الدَّعيَّ الفاجر (عبيد الله بن زياد) جالساً في المكان الذي كان أبوها علي عليه السلام يجلس فيه ليحكم بين النّاس بشريعة وعدالة السّماء.

كانتْ بالأمس القريب معروفةً بـ (العقيلة زينب)، والعقيلة كلمة تعني السيدة العزيزة والكريمة في قومها، وها هي اليوم تدخل على (ابن زياد) أسيرةً يتيمةً ثكلى، لقد فقدتْ الأبَ والأمّ والولدَ والشقيق والكثير من الأعزّاء والأحبّة الغَوالي.

نعم، لقد فقدت السيّدة زينب عليها السلام كلّ ذلك، لكنّها قرّرت أن لا تفرّط بعزّتها وكرامتها وكبريائها أمام جبروت ذلك الطاغوت الأمويّ، لقد قررت ذلك وهي تسترجع في نفسها قول الله عزّ وجلّ بأنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

ووقفت العقيلة العلوية زينب عليها السلام أمام الطاغية ابن زياد غير آبهةٍ به ومترفّعةً عن النّظر إليه، وعندئذٍ نظر ابن زياد إليها مَليّاً ثمّ سألها: (من تكون)؟ فلم تجبه...

وأعاد السّؤال عليها أكثر من مرّةٍ، وهي لا تجيب عليه، احتقاراً لِشخصهِ اللئيم واستصغاراً لخلقه الذميم، وعندئذٍ قيل له إنّها زينب ابنة علي وفاطمة عليهما السلام.

وهنا يحدّثنا الأديب والمؤرّخ (إميل حبشي الأشقر)، وغيره من الأدباء

والمفكّرين المعاصرين، عن الحوار الساخن بين العقيلة زينب عليها السلام وعبيد الله بن زياد.

فبعد أن عرف ابن زياد أنّ تلك السيدة الجليلة التي تنزّه عينيها الكريمتين عن النظر إليه هي السيدة زينب حفيدة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال لها بلهجة المغتاظ الحاقد:

ـ الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم.

فأجابته بكلّ هدوءٍ ورويّة:

ـ «الحمد الله الذي أكرمنا بمحمدٍ وطهّرنا تطهيراً.. إنّما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر!!».

قال: ألم تري ما صنع الله بأهل بيتك؟!

قالت: «كُتِبَ عليهم القتل فخرجوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم يا بن زياد، فتختصمون عنده».

فغضب قائلاً: لقد شفى الله غيظي من أخيك وأصحابه العصاة.

فبكت وجعلت تقول: «لَعمري، لقد قتلت من قتلت، فإنْ يشفك هذا فقد اشتفيت».

ثاب: إنّك شجاعةٌ، ولقد كان أبوك شجاعاً..

ثمّ التفتَ إلى (علي) فقال: ما اسمك؟

ـ «علي بن الحسين».

ـ أولم يقتل اللهُ علي بن الحسين؟

فسكت.

قال: ما لك لا تتكلّم؟

قال: «كان لي أخٌ يقال له عليٌّ فقتله النّاس».

- بل قتله الله.

وهنا يصوّر لنا ذلك الأديب والمؤرّخ (الأشقر) الحوار الدائر في مجلس ابن زياد بأسلوب أدبيٍّ بارع، وبمحاولة جادّة منه على نقل جوهر ذلك الحوار الهامّ بكلّ أمانةٍ وإخلاص، ولذلك نراه يتابع تصوير الأحاديث والأحداث في ذلك المجلس بقوله:

فرأى الغلام (زين العابدين) أنّ السكوت أولى.

فقال الطاغية: أتكلّمُ فتسكتْ؟!

قال: «الله يتوفّى الأنفس حين موتها، وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله عزّ وجلّ».

فقال الطاغية: وستموت أنت بإذنه.

ثمّ قال لابن معاذ الأحمري: اقتل هذا الغلام يا بن معاذ.

فقال علي: «ومن توكل بالنساء؟».

وقامت زينب فقالت: «يا بن زياد، حسبك منّا.. أما رُويتَ من دمائنا.. وهل أبقيتَ من آل الحسين أحداً؟»

ثمّ اعتنقت ابن أخيها وقالت:

«أسألك بالله إنْ كنت مؤمناً، يا بن زياد، أن تقتلني إذا قتلته فأنا لا أرغب في الحياة بعده».

ثمّ قال علي: «إن كانت بينك وبينهنّ قرابةٌ فأرسل معهنّ رجلاً تقيّاً يصحبهنّ بصحبة الإسلام إلى الشام».

فجعل (الطاغية) ينظر إلى زينب ثمّ قال:

عجباً للرحم، فوالله لقد آثرتْ أن تموتَ معه.. دعوا الغلام ينطلق مع نسائه ولا

تقتلوه.

ثمّ أمر مناديه، فنادى: الصلاة جامعة.

فاجتمع النّاس، ثمّ خرج حتّى صعد المنبر فقال: الحمد لله الذي أظهر الحقّ وأهلَه، ونصر أمير المؤمنين ورجاله، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب الحسين بن علي وشيعته.

وكان عبد الرحمن بن الحصين في المسجد يسمع الخطبة وقد قضى يومه في الأحياء وعند القصر، ولم يرجع إلى المنزل.

وكذلك قضى اليوم الثاني، ليرى بعينيه نساء الحسين وصغاره، الذين بلغ أهل الكوفة، أنّهم سينتهون إليها مع عمر بن سعد.

وقد هَمَّ بأنْ يجيب ابن زياد ويلعنه على مسمعٍ من النّاس، ولو أمرَ بعد ذلك بضرب عنقه.

ولكنّ عبد الله بن عفيف الأزدي، كان أسبق منه فقد سمعه القوم يقول:

يا ابن مرجانة إنّ الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك، والذي ولّاك وأبوه، أتقتلون أبناءَ الأنبياء وتتكلّمون بكلام الصدّيقين؟!

وكان عبد الله ضريراً، ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل مع علي، وذهبت الأخرى مع عليّ أيضاً بصفّين.

وهو لا يفارق المسجد، يصلّي فيه إلى الليل ثمّ ينصرف.

فلمّا سمعه ابن زياد قال: عليَّ به.

فحملوه إليه، فنادى الرجل بشعار قومه (الأزد) يقول:

ـ يا مبرور...

فوثب إليه فتية منهم فانتزعوه وذهبوا به.

فصبر ابن زياد ساعة ثم أرسل رجالَ الشرط فقبضوا عليه.

فلمّا لقيه قال: يا بن عفيف، أنا وأبي، وأمير المؤمنين وأبوه، مع الكذبة؟

- نعم، أنتم ومن يخضع لكم من النّاس...!

- تقول هذا وأنت أعمى فماذا كنت تصنع لو كنت مبصراً؟!

- كنتُ أحمل السيف في وجهك ووجه يزيد.

- ثمّ تموت كما مات الحسين..!

- أجل، فالموت مع حفيد رسول الله خيرٌ من العيش في ظلّك يا بن مرجانة اللعين الظالم.

- إذنْ فاعلم أنّك لاحقٌ بمولاك.

قال: هنيئاً لي فسأدخل الجنّة.. اضرب يا ابن مرجانة فالعيش لا يطيب لك إلا إذا غاصت يداك في الدّماء.

فقال الأمير لجلاده: سيفك..

فبرى الجلاد عنقَه بضربة واحدة، وأهل الكوفة ينظرون.

ثمّ قال: اصلبوه في المسجد! فَصُلِبَ، والرهبة تملأ نفوس النّاس.

ثمّ قال: عليَّ برأس الحسين، فلمّا أتوا به، قال: اجعلوه على خشبة وطوفوا به في الكوفة[1].

وغنيٌّ عن القول إنّ تصوير هذه الأحداث الساخنة في مجلس ابن زياد لم ينفرد بها الأديب والمؤرّخ المسيحيّ (إميل حبشي الأشقر)، بل إنّ هناك العشرات من الأدباء

(١) إميل حبشي الأشقر، فاجعة كربلاء، مصدر سابق ص٥٠. ٥٢.

والباحثين والمفكّرين المسلمين والمسيحيين المعاصرين الذين ذكروا هذه التفاصيل في كتبهم ومؤلّفاتهم، وحتّى في دواوين الشعراء منهم، معتمدين في تسجيلهم لتفاصيل تلك الأحداث على أهمّ وأقدم المصادر الإسلاميّة السُّنيّة المُعتَبرة.

وهنا تحديداً أريد أن أتوقّف عند نقطةٍ هامّةٍ جدّاً، وقد تعمّدتُ أن أذكرها الآن في مكانها المناسب حتّى لا يتّهمني القارئ الكريم بالإهمال لذكرها وتوضيحها نظراً لِما تحمله من معانٍ ومقاصد لا تخفى عن ذهن كلّ إنسان عاقلٍ ولبيب.

وتتعلّق هذه النقطة الهامّة بمصير رأس الإمام الحسين عليه السلام عند الدخول به إلى مجلس عبيد الله بن زياد.

فماذا كان مصير الرأس الشريف، رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، في مجلس ابن زياد، وكيف تصرّف ابن زياد معه حين وُضع بين يديه القذرتين؟!

إنّ الجواب الأكيد على هذا السؤال الحسّاس ليس بالصعب ولا بالغامض، بل هو واضحٌ في تفاصيله وضوح الشّمس في رابعة النّهار، ولكن، وبالرغم من وضوحه في كافّة المراجع والمصادر الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، إلا أنّنا سنجيب عليه مستخدمين في ذلك كتاباً نفيساً لأحد علماء جامعة الأزهر الشريف في مصر، وعنوان الكتاب هو (الثائر الأوّل في الإسلام الحسين سيّد الشهداء) لمؤلِّفه العالِم الأزهري (محمد عبد الباقي سرور نعيم)، وهو بالطبع واحد من إخواننا السنّة، وقد طُبع الكتاب المذكور في أواسط القرن الماضي وهو من الكتب النادرة، بل والمفقودة، وقد وفّقني الله سبحانه وتعالى في الحصول على نسخةٍ أصليّةٍ منه بطريق المصادفة، ولكنّ ذلك لم يمنع استغرابي ودهشتي من عدم إعادة طباعة هذا السِّفر الرائع على الرغم من أنّ طبعته الأولى قد قارب عمرُها أكثر من نصف قرن تقريباً.

وحتّى لا نخرج عن جوهر السّؤال المطروح، دعونا نقرأ عن كيفيّة تعامل ابن زياد مع رأس الإمام الحسين عليه السلام عندما أُحضِرَ إليه في مجلسه، وماذا نتَجَ عن ذلك؟.

يقول ذلك العالم الأزهري (محمد عبد الباقي سرور نعيم) في كتابه المذكور سابقاً:

(لما أصبح ابن زياد، جلس في قصر الأمارة وأَذِنَ للنّاس بالدخول، وأمر بإحضار الرأس الشريف بين يديه وأخذ ينظر إلى رأس الحسين وتبسَّم، وكان في يده قضيباً فأخذ ينكث به ثنايا الحسين رضي الله عنه والنّاس ينظرون ولا يتكلّمون.

وكان بجواره (زيد بن أرقم) وهو البقيّة الباقية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له:

يا بن زياد، أعل هذا القضيب عن هاتين الثَّنيتين، فوالذي لا إله غيره لقد رأيتُ رسول الله يلثمهما، ثمّ بكى، فقال له ابن زياد: والله لولا أنّك شيخٌ قد خرفتَ وذهبَ عقلُك لضربتُ عنقك الآن.

فقام ابن الأرقم وخرج لتوِّه من مجلسه وهو يقول للمسلمين الذين ينظرون ولا يتكلّمون: والله يا معشر المسلمين إنّكم لَعبيدٌ بعد اليوم، فقد قتلتم ابن فاطمة بنت رسول الله، وأمَّرتم عليكم ابن مرجانة يقتل خياركم ويستعبد شراركم، فما أنتم بأحرارٍ بعد اليوم)(١).

وهنا أريد أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى نقطةٍ هامّةٍ وهي أنّ بعض الروايات المعاصرة تنقل لنا أنّ (ابن الأرقم) لم يقل: (والله يا معشر المسلمين إنّكم لَعبيدٌ بعد

---

(١) محمد عبد الباقي سرور نعيم، الثائر الأول في الإسلام الحسين سيّد الشهداء، نشر: مكتبة الجمهورية المصرية. القاهرة، د.ت ص١١٦.

اليوم)، وإنّما قال: (والله يا معشر العرب إنّكم لَعبيدٌ بعد اليوم)[1]، والفرق كبيرٌ وواضحٌ بين هذين التعبيرين، وأنا شخصياً أرجّح القول الأخير.

وبعد هذه المحطّة القصيرة في الكوفة، بعث عبيد الله بن زياد إلى يزيد بن معاوية في دمشق يخبره بقتل الحسين عليه السلام ومن معه، وأنّ عياله في الكوفة، ينتظر أمره فيهم، فعاد إليه الجواب من يزيد يأمره فيه بحملهم إليه والرؤوس معه.

وعندئذٍ أمر ابن زياد جماعةً من أعوانه بحمل رأس الحسين عليه السلام ورؤوس من قُتِلَ معه إلى يزيد، وسرَّح في أثرهم الإمام عليَّ بن الحسين عليه السلام مغلول اليدين، مقيّد القدمين، والجامعةُ حول عنقه، وعياله معه في أسوأ حالٍ يمكن أن يخطر على بال.

وتذكر كلُّ كتب التاريخ أنّ يزيد أمر عبيد الله بن زياد أن يسير بركب السبايا سالكاً الطريق الشمالية الطويلة إلى الموصل ثمّ إلى حلب ومنها إلى دمشق، مع العلم أنّ هناك طريقاً صحراوياً مباشراً وقصيراً يربط ما بين الكوفة ودمشق.

فلماذا فضَّل يزيد الطريق الطويل للسبايا على الطريق القصير؟!

لقد كان بوسع ابن زياد أن يعبر الطريق القصير المؤدّي مباشرةً إلى دمشق، لكنّه كان يهدف، هو وسيّده يزيد، إلى التشهير بمقتل الحسين عليه السلام وإلى نشر خبر مقتله في كلّ الأصقاع والآفاق كي يعلم النّاس بقتله وكيفيّة نهايته الأليمة حتّى لا يبقى لأيِّ مدافعٍ عن الحقّ في صفوف المسلمين أيُّ أملٍ في مقاومة يزيد وأعوانه.

ولذلك، فقد رأى يزيد أنّ من أبلغ أنواع الأخبار بمقتل الحسين عليه السلام أن يرى النّاس رأسَ الحسين عليه السلام يطوف به في البلاد، وأن تُرى نساؤه وبناته وصبيانه سبايا يُسَار بهم في البلدان والأمصار، ويُشهر أمرُهم في كلّ مكانٍ يأتونه، ولذا سلكوا به

---

(١) إميل حبشي الأشقر، فاجعة كربلاء، مصدر سابق ص٤١.

الطريق العامر بالبلدان والآهل بالسكّان، وهو الطريق من الكوفة إلى الموصل ثمّ إلى حلب، فحماه، فحمص، وأخيراً وصولاً إلى قصر يزيد في دمشق.

وبالطبع، فإنّنا لا نريد أن نحوّل هذا الكتاب إلى كتابٍ تاريخي يروي قصّة مسيرة الرؤوس والسبايا بشكلها الدقيق والمفصّل، وإنّما نريد أن نذكر بعض النقاط الهامّة في تلك المسيرة الفجائعيّة الحزينة على درب الآلام من مسرح الفاجعة إلى عاصمة الشام.

وأوّل نقطةٍ لافتة للنظر في تلك المسيرة الملهبة للمشاعر الإنسانية والعواطف الوجدانية هي تلك النقطة المتعلّقة بردود فعل المسيحيين الأوائل الذين عاصروا وقائع تلك الفاجعة وكانوا ـ جغرافيّاً ـ على مقربة من مكان الحدث.

فقد نقلت الكتب المعاصرة عن كتب المتقدّمين أنّ عبيد الله بن زياد دَعا شمر بن ذي الجوشن، وشبث بن ربعي، وعمرو بن الحجاج، وضمّ إليهم ألف فارسٍ، وأمرهم بإيصال السبايا والرؤوس إلى الشام حيث يقيم يزيد.

وتذكر تلك الكتب أيضاً أنّ الركب مرَّ في طريقه بمدينة (تكريت)، وكان فيها العديد من النصارى، فلمّا حاول الركبُ أن يدخلها بالسبايا والرؤوس (اجتمع القسّيسون والرهبان في الكنائس، وضربوا النواقيس حزناً على الحسين، وقالوا: إنّا نبرأ من قومٍ قتلوا ابن بنت نبيِّهم، فلم يجرؤوا (أصحابُ الركب) على دخول المدينة، وباتوا ليلتهم في البريّة)[١].

وبتحليلٍ بسيطٍ لهذه السطور القليلة عن ردِّ فعل المسيحيين تجاه أحداث الفاجعة، نرى أنّ بذور الثورة ضدّ الحكم الأمويّ قد أخذت طريقها إلى النّور في

(١) محمد جواد مغنيّة، الحسين وبطلة كربلاء، مصدر سابق ص٢٣٠.

التربة المسيحيّة على شكل استنكارٍ واستهجان، بل ومعارضة شديدة ضدّ تلك الحكومة الأموية الجائرة التي تأمر بقتل وسَبي أبناء وبنات الأنبياء.

وإذا كان هذا هو ردّ فعل القساوسة والرهبان المسيحيين على جريمة قتل الإمام الحسين عليه السلام ظلماً، والتمثيل به وبالقتلى من أهل بيته، وسبي نسائه وبناته، فعلينا أنْ لا نستغرب اليوم من وجود الكثير من رجال الفكر المسيحيّ الذين جعلوا من أقلامهم الحرّة وسيلةً لتبليغ عموم النّاس، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، أنّ كلّ ما حدث في كربلاء للإمام الحسين ولأهل بيته عليهم السلام لم يكن في جوهره وذاته إلا محاولةً أمويّةً جادّةً لسحق محمد المصطفى صلى الله عليه وآله ذاته، ولِطَعن المبادئ الأخلاقيّة والإنسانيّة التي كانت متجسّدةً بأبهى صورها، وبأعلى كمالاتها في شخص الإمام الحسين عليه السلام، حفيد النبوّة وابن الرسالة.

وحتّى تتّضح هذه الصورة أكثر في مخُيّلة القارئ، دعونا نقرأ الآن سويّةً ما يراه الأديب والصحافي المسيحيّ (أنطون بارا) في معاني التشيّع وفي شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام حيّاً وشهيداً.

يرى الأستاذ (بارا) (أنّ التشيّع للإمام عليه السلام هو بمعنى التحلّي بأعلى درجات العشق الإلهيّ، وأنّ الإمام الحسين عليه السلام ليس مختصّاً بالشيعة أو المسلمين لوحدهم، بل (الحسين) عليه السلام للعالمين أجمعين، فالحسين عنده (جوهر الأديان))[1].

وبطبيعة الحال، فإنّ هذه الرؤية للأستاذ (بارا) تجاه الإمام الحسين عليه السلام ومُوالاته لدرجة العشق والوجد لا تمثّل وجهة نظر خاصّة ولا حتّى رؤية شخصيّة

---

(١) راجع نصّ المقابلة الصحفية مع الأديب والمفكّر (أنطون بارا) في العدد الخامس والخمسين من مجلّة (رسالة الثقلين) عدد (صفر . ربيع الأول) ٢٠٠٧، وهي تصدر عن المعاونية الثقافية في طهران.

ذاتيّة اختصّ بها الأستاذ (بارا) دون غيره من الأدباء والمفكّرين المسيحيين وغير المسيحيين، بل هي رؤية عامّة ونظرة إنسانيّة شاملة نكاد نراها جليّةً واضحةً في آثار ومؤلّفات كلّ من خاض في ميدان دراسة أحداث الفاجعة مقرونةً بطبيعة وبمقوّمات شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام المعروف عند القاصي والدّاني، عند المؤالِف والمخالف بـ (ريحانة الرسول)، و(سيّد شباب أهل الجنّة)، بل والمعروف عند الكثيرين منهم بلقب (وارث الأنبياء)، وهو ما عبّر عنه الأستاذ المسيحي (أنطون بارا) بقوله السابق (الحسين عنده جوهر الأديان).

وبما أنّنا لا نزال في معرض حديثنا عن رحلة الآلام إلى الشام، دعونا الآن نقرأ بهدوءٍ ورويّةٍ ما جاء في كتابٍ بالغ الأهميّة يتناول في مجُمله سيرة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، إنّه كتاب (تذكرة الخواص) لمؤلّفه العلامة (سبط ابن الجوزي الحنفي)، فقد روى هذا العلامةُ ـ الحنفيُّ مَذْهباً ـ نقلاً عن كتاب (سيرة ابن هشام) حديثاً هامّاً ومتميّزاً عن رحلة رأس الإمام الحسين عليه السلام إلى دمشق.

فقد روى العلامة (ابن الجوزي) الحديثَ المُشار إليه مرفوعاً إلى (ابن هشام النحوي البصريّ) قائلاً:

(لمّا أنفذ ابن زياد رأسَ الحسين عليه السلام إلى يزيد بن معاوية مع الأسارى موثقين في الحبال، منهم نساء وصبيان وصبيّات من بنات رسول الله صلى الله عليه وآله على أقتاب الجمال موثّقين، مكشّفات الوجوه والرؤوس، وكلّما نزلوا منزلاً أخرجوا الرأس من صندوق أعدّوه له فوضعوه على رمحٍ وحرسوه طول الليل إلى وقت الرحيل ثمّ يعيدوه إلى الصندوق ويرحلون.

فنزلوا بعض المنازل وفي ذلك المنزل دَير فيه راهب، فأخرجوا الرأس على

عادتهم ووضعوه على الرمح وحرسه الحرس على عادته وأسندوا الرّمح إلى الدير، فلمّا كان في نصف الليل رأى الراهب نوراً من مكان الرأس إلى عنان السّماء، فأشرف على القوم وقال: مَن أنتم؟!

قالوا: نحن أصحاب ابن زياد.

قال: وهذا رأس مَنْ؟

قالوا: رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

قال: نَبيِّكم؟!

قالوا: نعم.

قال: بئس القوم أنتم، لو كان للمسيح ولدٌ لأسكنّاه أحداقنا.

ثمّ قال (مجُدّداً): هل لكم في شيء؟

قالوا: وما هو؟

قال: عندي عشرة آلاف دينار تأخذونها وتعطوني الرأسَ يكون عندي تمام الليلة، وإذا رحلتم تأخذونه.

قالوا: وما يضرّنا؟!

فناولوه الرأس وناولهم الدنانير، فأخذه الراهب فغسله وطيّبه وتركه على فخذه، وقعد يبكي الليل كلّه، فلمّا أسفر الصبحُ، قال:

يا رأس لا أملك إلا نفسي، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ جدّك محمداً رسول الله، وأُشهد اللهَ أنّني مولاك وعبدك.

ثمّ خرج عن الدّير وما فيه وصار يخدم أهل البيت، ثمّ إنّهم أخذوا الرأسَ وساروا، فلمّا قربوا من دمشق قال بعضهم لبعضٍ:

تعالوا حتّى نقسم الدنانيرَ لا يراها يزيد فيأخذها منّا.

وأخذوا الأكياس وفتحوها وإذا الدنانير قد تحوّلت خزفاً وعلى أحد جانب الدينار مكتوب ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[1]، وعلى الجانب الآخر ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[2]، فَرَموها في بردى (وهو نهرٌ في دمشق))[3].

ولو أردنا أن ندخل هنا في بعض التفصيلات الدقيقة التي وردت في الكثير من الكتب والمؤلّفات عن بعض المواقف المؤثّرة، فبإمكاننا الوقوف مَليّاً عند هذه القصّة المؤسفة التي لا تحتاج إلى أيِّ شرح أو تعليق.

وتقول هذه القصّة المحزنة أنّ القوم ساروا برأس الحسين عليه السلام ورؤوس أهله والأسرى من نسائه وعياله، فلمّا قربوا من دمشق دَنَتْ أمّ كلثوم عليها السلام من شمر وكان من جملتهم، فقالت له: «لي إليك حاجةٌ!!».

قال: ما حاجتك يا ابنة علي؟!

قالت: «إذا دخلتَ بنا البلد فاحملنا في طريقٍ قليل النظارة وتقدّم إليهم أنْ يُخرِجوا هذه الرؤوس من بين الحوامل وينحونا عنها فقد خُزينا من كثرة النظر إلينا ونحن في هذه الحال».

فأمرَ في جواب سؤالها أن تُجعَلَ الرؤوس على الرماح في أوساط المحامل بَغياً منه وكفراً وسلكَ بهم بين النظّارة حتّى أتى بهم باب دمشق وجاء شيخ ودنا من نساء الحسين عليه السلام وعياله وهم في ذلك الموضع، فقال:

---

(١) سورة إبراهيم: الآية٤٢.

(٢) سورة الشعراء: الآية٢٢٧.

(٣) العلامة سبط ابن الجوزي الحنفي، تذكرة الخواص، مصدر سابق ص٢٣٧.

الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وأراح البلاد من رجالكم وأمكن أمير المؤمنين يزيد منكم!!

فقال علي بن الحسين: «يا شيخ هل قرأت القرآن؟».

قال: نعم.

قال: «هل عرفت هذه الآية: قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى؟».

قال الشيخ: نعم، قد قرأت ذلك.

فقال علي عليه السلام: «فنحن القربى يا شيخ، فهل قرأت في سورة بني إسرائيل: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾(١)؟».

فقال الشيخ: قد قرأت.

فقال علي بن الحسين عليه السلام: «فنحن القربى يا شيخ، فهل قرأت: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾(٢)؟».

قال: نعم.

فقال علي بن الحسين: «نحن القربى، فهل قرأت هذه الآية: إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً؟!».

قال الشيخ: قد قرأت ذلك.

فقال علي عليه السلام: «فنحن أهل البيت الذي خصّنا الله بآية التطهير».

فبقي الشيخ نادماً على ما تكلّم به، والتفتَ إلى زين العابدين وقال: بالله عليك أنتم هم؟!

---

(١) سورة الإسراء: الآية٢٦.

(٢) سورة الأنفال: الآية٤١.

فقال الإمام: «إنّا لنحن هم من غير شكٍّ، وحقّ جدّنا رسول الله إنّنا لَنَحنُ هم».

فبكى الشيخ ورمى عمامته ثمّ رفع رأسه إلى السّماء وقال: اللهمّ إنّا نبرأ إليك من عدوّ آل محمد من جنٍّ وإنس.

ثمّ قال: هل لي من توبة؟

قال عليه السلام: «نعم، إنْ تبت تاب الله عليك وأنت معنا».

قال: أنا تائبٌ.

فبلغ يزيد بن معاوية حديث الشيخ فأمر به فَقُتِل[1].

وغنيٌّ عن القول إنّ هذه المواقف والأحداث المؤثرة لم يقتصر ذكرها على المصادر المتقدّمة زمنيّاً، وإنّما يمكن الوقوع عليها في الكثير من المراجع التاريخيّة والمؤلّفات الفكريّة الحديثة والمعاصرة.

وعلى سبيل المثال، فالحادثة التي سنذكرها الآن هي واحدةٌ من أهمّ وأشهر الحوادث التي تزامنت مع وصول رأس الإمام الحسين عليه السلام والسبايا إلى قصر يزيد في دمشق، وهي حادثةٌ تجاوزت في ذكرها وثبوت حدوثها حدودَ المذهب والدّين.

إنّها حادثةٌ مأساويّةٌ راح ضحيّتها ـ هذه المرّة ـ رجلٌ مسيحيٌّ نصراني لم يكن له ذنبٌ قد ارتكبه إلا قوله الحقّ وحبّه الصادق للإمام الحسين عليه السلام ولأهل بيته الكرام المظلومين بَغياً وعدواناً.

لقد أجمعت المراجع الإسلاميّة بكلّ أطيافها ومذاهبها، وكذلك المؤلّفات المسيحيّة المعاصرة على أنّه كان هناك تزامنٌ قد حدث بالصدفة بين إدخال رأس الإمام الحسين عليه السلام إلى مجلس يزيد وبين وصول رسول قيصر إلى نفس المجلس.

---

(١) الشيخ عبد الزهراء الكعبي، الحسين عليه السلام قتيل العَبرة، مصدر سابق، ص١٥٧.

فماذا جرى وقتذاك في ذلك المجلس الذي كان يغصُّ بالزوّار والوافدين؟!

تُجمعُ معظمُ المراجع المعاصرة، على مختلف مشارب مؤلّفيها، على حدوث ما سنذكره، وسوف نذكر بالتفصيل بعضاً من تلك المواقف التي سبقت الحوار الذي دار بين يزيد ورسول قيصر الروم إليه، وها هي العديد من المراجع والكتب المعاصرة تنقل لنا صورة الأحداث، فتقول:

وانتقلوا (أي الفرسان مع السبايا) إلى دمشق، وقبل أن يُدخِلوهم إلى مجلس يزيد أتوهم بحبالٍ فَرَبَقوهم (ربطوهم) بها، فكان الحبل في عنق زين العابدين إلى زينب وأمّ كلثوم وباقي بنات رسول الله، وكلّما قصّروا عن المشي ضربوهم حتّى أوقفوهم بين يديّ يزيد وهو على سريره.

فقال له علي بن الحسين: «ما ظنّك برسول الله لو يرانا على هذه الحال؟!».

فبكى الحاضرون وأمر يزيد بالحبال فَقُطِعتْ ووضع الرأس المقدّس بين يديّ يزيد.

والتفتَ يزيد إلى الإمام السجّاد عليه السلام وقال:

كيف رأيت صنع الله يا علي بن الحسين؟

فقال: «رأيت ما قضاه الله عزّ وجلّ قبل أن يخلق السماوات والأرض».

وشاور يزيد من كان حاضراً عنده في أمره فأشاروا عليه بقتله.

فقال زين العابدين: «يا يزيد لقد أشار عليك هؤلاء بخلاف ما أشار به جلساء فرعون عليه حين شاورهم في موسى وهارون، فإنّهم قالوا له: أرجه وأخاه ولا يقتل الأدعياء أولاد الأنبياء وأبناءهم».

فقال يزيد: ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم.

وقال علي بن الحسين: «ما هذه فينا نزلت، إنّما نزل فينا ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾[١]، فنحن لا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما آتانا»[٢].

وتؤكّد المراجع المعاصرة ذاتها، إسلاميّة وغير إسلاميّة، أنّ الإمام علي بن الحسين عليه السلام وقف في مجلس يزيد وخطب بالنّاس خطبةً بليغةً ـ كنّا قد ذكرها سابقاً قسماً يسيراً منها ـ يقول فيها: «الحمد لله الذي لا بداية له والدّائم الذي لا نفاد له، والأوّل الذي لا أوّلية له والآخر الذي لا آخرية له، والباقي بعد فناء الخلق، قَدَّر الليالي

(١) سورة الحديد: الآية٢٣.

(٢) أ ـ توفيق أبو علم، الحسين بن علي، مصدر سابق ص١٦٧.

ب ـ محمد عبد الباقي سرور نعيم، الثائر الأول في الإسلام الحسين سيّد الشهداء، مصدر سابق ص١١٩.

ج ـ عبد الحميد جودة السحار، حياة الحسين، مصدر سابق ص١٨١، ذكرها باختلافات يسيرة.

د ـ محمد رضا، الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، مصدر سابق ص١٦٩، مع بعض الاختلاف.

هـ ـ الشيخ عرفان حسونة الدمشقي، الحسين حفيداً وشهيداً، مصدر سابق ص٢٧٤ مع بعض الاختلاف.

و ـ خالد محمد خالد، أبناء الرسول في كربلاء، مصدر سابق ص١٩٠ ذكر الحادثة باختلافٍ يسير.

ز ـ عبد الرزاق كيلو، السيدة زينب بنت علي، مصدر سابق ص٤٦ ذكر الحادثة باختلافٍ يسير.

ح ـ جرجي زيدان، غادة كربلاء، مصدر سابق ص٢٣٩ ذكر الحادثة باختلافٍ يسير.

ط ـ عباس محمود العقاد، أبو الشهداء الحسين بن علي، مصدر سابق ص١٥٦ ذكره باختلاف.

ي ـ بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق هامش ص٢٩٠ مع اختلافٍ يسير.

والأيام وقسّم فيما بينهم الأقسام، فتبارك الله الملك العلام..» إلى أن قال:

«... أيّها النّاس مَن عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأتُهُ بحسبي ونسبي، أيّها النّاس أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرِّدا، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى وخير من طاف وسعى وحجَّ ولبّى، أنا ابن من حُمِلَ على البراق وبلغ به جبرائيل سدرة المنتهى فكان من ربّه كقاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السّماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن من ضرب بين يديّ رسول الله ببدر وحنين ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين ووارث النَّبيين ويعسوب المسلمين ونور المجاهدين وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ومفرّق الأحزاب، أربطهم جأشاً وأمضاهم عزيمةً، ذاك أبو السبطين الحسن والحسين علي بن أبي طالب، أنا ابن فاطمة الزهراء وسيّدة النساء وابن خديجة الكبرى، أنا ابن المرمَّل بالدّماء، أنا ابن ذبيح كربلاء، أنا ابن من بكى عليه الجنُّ في الظلماء وناحت الطّير في الهواء»[1].

وعلى الرغم من أنّ الكثير من الكتب والمراجع المعاصرة قد أوردت هذه الخطبة العصماء للإمام علي زين العابدين عليه السلام بهذه الطريقة، إلا أنّ البعض من تلك المراجع قد أثبتتها بالفعل ولكن بطريقةٍ أخرى لا تقلّ بلاغةً وفصاحةً وحجّةً عن الخطبة التي ذكرناها منذ قليل وإنْ كانت لا تختلف عنها في المعنى والجوهر.

ونظراً لبلاغة وقوّة تلك الخطبة التي وردت بطريقةٍ أخرى، فقد رأينا أنّه من الأصوب أن نذكرها هنا أيضاً وذلك من باب التأكيد على الحجج التي أوردها الإمام زين العابدين عليه السلام في مجلس يزيد الذي كان يغصّ بالنّاس وبأعيان الشّام، وذلك

(١) توفيق أبو علم، الحسين بن علي، مصدر سابق ص١٦٨.

داخل مسجد دمشق.

فقد ذكر الكاتب والأديب المصري (عبد الحميد جودة السحّار) في كتابه (حياة الحسين) أنّ النّاس اجتمعوا في مسجد دمشق، وجلس علي بن الحسين بالقرب من يزيد، فارتقى رجلٌ المنبر وجعل يسبُّ الحسين، فقام علي زين العابدين وسار إلى المنبر والتفت إلى الرجل وقال:

ـ «بالله عليك إلا ما أذنت لي أن أصعد المنبر، وأتكلّم بكلامٍ فيه رضى الله ورسوله؟!».

فقال الرجل: اصعد وقل ما بدا لك.

فصعد المنبر وتكلّم بعذوبة لسانٍ وفصاحةٍ وبلاغةٍ، فأعاره النّاس أسماعهم فقال: «أيّها النّاس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن من حجّ ولبّى، أنا ابن من طاف وسعى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن العطشان حتّى قضى، أنا ابن مَن منعوه من الماء وأحلّوه على سائر الورى، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن من راحت أنصاره تحت الثرى، أنا ابن من غدت حريمه أسرى، أنا ابن من ذُبحت أطفاله من غير سوء، أنا ابن من أضرم الأعداء في خيمته لظى، أنا ابن من أضحى صريعاً بالعَرا، أنا ابن من لا له غسل ولا كَفَن يُرى»(١).

وضجّ الناس بالنحيب والبكاء وعلت الأصوات داخل المسجد، فخاف يزيد أن تكون فتنة، فأمر المؤذّن أن يقطع عليه خطبته، فصعد المؤذّن، فقال:

ـ الله أكبر.

---

(١) عبد الحميد جودة السحّار، حياة الحسين، مصدر سابق ص١٨٤.

فقال علي بن الحسين عليه السلام: «كبّرت كبيراً وعظّمت عظيماً وقلتَ حقّاً».

قال المؤذّن: أشهد أن لا إله إلا الله.

فقال علي: «أشهد بها مع كلّ شاهد».

قال المؤذّن: أشهد أن محمداً رسول الله.

فبكى علي عليه السلام وقال: «يا يزيد، سألتك بالله محمد جدّي أم جدّك؟!».

فقال يزيد: جدّك.

قال علي: «فَلِمْ قتلتَ أهل بيته؟».

فأُفحِمَ يزيد وقام وقد ظهر عليه الغضب والضيق ودخل داره.

ولكن لا يحسب القارئ الكريم أنَّ رجلاً مثل يزيد يمكن أن ينهزم بسهولةٍ أمام عامّة النّاس أو أن يقبل الفضيحة والعار دون أن يلجأ إلى الانتقام من خصمه ولو بأقذر الطرق والأساليب.

فيزيد لم يغادر المسجد ويدخل داره إلا بعد أن انتقم من محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن ذريّته شرّ انتقام أمام رؤوس الأشهاد والأعيان.

فماذا فعل يزيد كي يرضي النّار التي تأكل قلبه حقداً وبغضاً لآل محمد عليهم السلام؟!

الجواب بكلّ بساطةٍ هو ما جاء في معظم الكتب والمؤلّفات المتقدِّمة والمعاصرة حيث ذكرتْ أنّ حقد يزيد وبغضه لمحمد وآل محمد عليهم السلام تجلّى واضحاً من خلال إصدار أوامره بكشف الغطاء عن رؤوس الشهداء وانثنائه يعبث بقضيب كان في يده بثنايا الإمام الحسين عليه السلام وهو يقول منشداً:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا　　جزع الخزرج من وقع الأسل

لَأَهلّــــوا واســـــتهلّوا فرحــــاً ثــمّ قــالوا: يــا يزيــد لا تشــل[1]

وهنا يقف (أبو برزة الأسلمي) مستنكراً لِما كان من يزيد ويقول على مسمعٍ من النّاس:

(أشهدُ لقد رأيت النبيّ يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول: أنتما سيّدا شباب أهل الجنّة، قتل اللهُ قاتِلَكما ولعنه وأعدّ له جهنّم وساءت مصيراً).

فغضب يزيد منه وأمر به فأُخرِجَ من مجلسه أمام عيون النّاس سَحْباً[2].

وعلى الرغم من الاشمئزاز المنطوي على الكثير من الاستنكار الذي أبداه المفكّرون والأدباء تجاه ما قام به يزيد وما فعله برأس الحسين عليه السلام على رؤوس الأشهاد، فإنّنا لا نرى أيَّ غرابةٍ في كلّ ما فعله برأس الإمام الحسين عليه السلام وببقيّة بيت النبوّة ومهبط الرسالة.

فأبوه معاوية كان معلّماً له في تتبُّعِ أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم المخلصين من أجل اجتثاثهم من الوجود ومن أجل استئصال رسالتهم وقِيَمَهم، وجدُّه أبو سفيان فعل كلّ ما سوّلتْ له نفسه برأس الشهيد العظيم (حمزة) بعد أن مضغت زوجته (هند) كبده الذي مزّقته بأظفارها وأنيابها إمعاناً في حقدها على أصحاب الرسالة السّماوية الجديدة.

ومن الأدباء والشعراء الذين انتبهوا إلى هذه الملاحظة التاريخية الهامّة الأديب والشاعر المسيحي (بولس سلامة) الذي لخّص تلك الملاحظة التي تربط بين الجدِّ والحفيد من حيث الخسّة والنّذالة بقوله: (الأرجح ما رواه بعض المؤرّخين من أنّه

(١) د. عائشة عبد الرحمن، السيدة زينب، مصدر سابق ص١٤١.

(٢) توفيق أبو علم، الحسين بن علي، مصدر سابق ص١٦٩.

(أي يزيد) نكتَ رأس الحسين بالقضيب شامتاً كما فعل جدُّه صخر (أبو سفيان) بأسد الله حمزة)[١].

ولم يكتفِ الأديب (سلامة) بالكلام عن تلك النقطة نثراً، بل راح ينسجها قصيدةً عصماء تخلّد رذائل الأمويين أبد الدهر وتنشر فضائحهم ما بقي الليل والنّهار، وها نحن ننقل بيتين شعريين فقط من تلك القصيدة الرائعة التي تحمل عنوان (التطواف) لنؤكّد على أنّ هناك مَن سبق يزيد في التمثيل بجثث الشهداء وبالأولياء، وبأهل البيت عليهم السلام، ولذلك فإنّهم لم يستغربوا أبداً ما قام به يزيد بحقّ الشهداء الأطهار الأبرار من أهل البيت المحمديّ الكريم عليهم السلام، وإنْ كانوا استنكروا ذلك العمل أشدّ الاستنكار.

يقول بولس سلامة في قصيدته (التطواف):

جِيءَ بالرأس هامة السبط تُلقى بين كَفَّيِّ يزيد بئس الدانق

يتلهّى بضرب رأس حسين هكذا (الجدُّ) رأس (حمزة) خازق[٢]

وبالطبع، فإنّ الأستاذ (سلامِة) يعني بقوله (هكذا الجدّ رأس حمزة خازق) أنّ أبا سفيان، جدَّ يزيد، كان قد مزّق رأس أسد الله (حمزة) بعد استشهاده دفاعاً عن رسالة السّماء التي جاء بها محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وآله وسلم وحياً عن ربّ العالمين.

إذنْ، حتّى الكثير من رجال الفكر والأدب من المسيحيين يعرفون أنّ البيت السفياني بيت غدر وخيانة، ويعرفون أيضاً أنّ داء الإسلام الخطير هو بنو أميّة الذين دخلوا وتغلغلوا في الإسلام كما تتغلغل الخلايا السرطانيّة المهلكة في الجسم المُعافى والسليم.

---

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق راجع هامش الصفحة ٢٩٧.

(٢) نفس المصدر السابق ص٣٠٢.

وبالمقابل أيضاً، فإنّ كلّ واحدٍ من أولئك المفكّرين المسيحيين الذين أضاؤوا عقولَهم بأنوار المعرفة واتّخذوا الحقّ سلاحاً ماضياً في محاربة التعصب والجهل والانغلاق، قد أدركوا أيضاً أنّ أهل البيت عليهم السلام هم طريق الخلاص وسبيل الأمان لأهل الإيمان في كلّ زمانٍ ومكانٍ من هذا الوجود.

ولعلّ الشاعر المسيحيّ المتقدّم (زينبا بن إسحاق الرسعني الموصلي) قد أجاد القول شعراً عندما عبّر عن حقيقة أهل البيت عليهم السلام من حيث إنّهم هم قوّة الحبّ السارية في الكون بكلّ موجوداته ومفرداته، فقال شعراً:

يقولون ما بال النصارى تحبّهم وأهلُ النهى من أعربٍ وأعاجم
فقلتُ لهم إنّي لأحسب حبّهم سرى في قلوب الخلق حتّى البهائم[1]

وأعتقد أنّنا وصلنا الآن إلى المكان المناسب لذكر قصّة ذلك الرجل المسيحيّ النبيل الذي دفع حياته ثمناً لحبّ الحسين وأهل بيته الأبرار عليهم السلام.

وقد سبق لنا أنْ ذكرنا أنّ ذلك المسيحيّ كان رسول قيصر الروم إلى يزيد، وقد كان حاضراً وشاهداً على كلّ ما دار وجرى من أقوالٍ وأحداثٍ في مجلس يزيد الذي كان يضمّ سبايا أهل البيت عليهم السلام من جهةٍ، وأنصاره وأعوانه من جهةٍ ثانيةٍ.

فماذا حدث لذلك الرسول المسيحيّ الذي كان ضيفاً على يزيد؟!

فبعد أن سمع ذلك الرسول الذي بعثه قيصر الروم إلى يزيد كلّ ما دار في ذلك المجلس من حواراتٍ عنيفةٍ، وبعد أن شاهد بأمّ عينه ما فعل يزيد برأس الإمام الحسين عليه السلام، وقف وقال مخاطباً يزيد: (إنَّ عندنا في بعض الجزائر حافر حمار عيسى عليه السلام

(١) محمد سعيد الطريحي، شعراء مسيحيّون في رحاب الحسين، راجع: نشرة (الغدير)، العدد/٥٩/ تصدر عن مركز الإمام الخوئي. لندن، عدد آذار، ٢٠٠٣، ص٥.

ونحن نحجُّ إليه في كلّ عامٍ من الأقطار ونهدي إليه النذور ونعظّمه كما تعظّمون كتبكم، فأشهد أنّكم على باطل) فأغضب يزيد هذا القول، وأمر بقتله[١].

فماذا كان ردّ فعل رسول قيصر الروم عندما سمع يزيد يأمر بقتله؟!

الجواب وبكلّ وضوح هو أنّه قام إلى الرأس الطاهر وقَبَّله وتشهّد الشهادتين، وعند قتله سمع أهل المجلس من الرأس الشريف صوتاً عالياً فصيحاً يردّد (لا حول ولا قوّة إلا بالله)[٢].

ولا يحسب القارئ الكريم أنّنا أوردنا هذه القصّة المؤثّرة عن ذلك الرسول المسيحيّ من خلال مرويّات كتب المسلمين الشيعة، أبداً، بل لقد أوردناها من خلال ما وقعنا عليه من مرويّات كتب المسلمين السنّة وكتب المسيحيين على حدٍّ سواء.

وبالفعل، فإنّه من البديهيّ تماماً بالنسبة للفكر الإنسانيّ المطّلع على سيرة سيّد الشهداء عليه السلام أن يحرّك نوازعَ الحبِّ والإيمان في ضمير ووجدان كلّ إنسانٍ يبحث في ذاته عن بذور النقاء والطهر والارتقاء إلى عوالم السّماء.

ففي أعماق كلّ إنسانٍ يبحث عن إنسانيّته الحقيقيّة شمعة مُطفأةٌ تنتظر من يوقد فيها النّار كي تتألّق نوراً ومعرفةً، ومَنْ كالإمام الحسين عليه السلام يقدر أن يوقد تلك الشموع المطفأة في كهوف نفوسنا!!

ففي الكثير من كتب المفكّرين والأدباء المسيحيين نستطيع أن نقرأ عشرات القصص والأحاديث عن كرامات رأس الإمام الحسين عليه السلام خلال تطوافه في البلدان الإسلاميّة ذهاباً وإيّاباً، وعلى سبيل المثال، لا الحصر، يمكننا أن نذكر هذه الحادثة

(١) توفيق أبو علم، الحسين بن علي، مصدر سابق ص١٦٩.
(٢) أنطون بارا، الحسين في الفكر المسيحيّ، مصدر سابق ص٨٦.

الغريبة التي جرت مع راهب مسيحي كان معتكفاً في صومعته يتعبّد الله وحيداً.

فعندما مرّ الركبُ بجوار صومعته، نزل ذلك الراهب إليهم راكضاً يستطلع حال الرأس المعلّق على الرمح وحال السبايا المكبّلات بالسلاسل والأغلال، وفي أثناء الليل رأى نوراً عظيماً ساطعاً من الرأس المطهّر، وسمع قائلاً يقول: «السّلام عليك يا أبا عبد الله»، فتعجّب وذهل ممّا سمع ورأى.

وما أنْ أسفر الصباح عن وجهه، حتّى عاد واستخبر القوم ثانيةً عن حقيقة الرأس المرفوع على الرمح، فقالوا له: إنّه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب وأمّه فاطمة بنت النبيّ محمد ﷺ فقال لهم: (تباً لكم أيّتها الجماعة، صدقت الأخبار في قولها إذا قُتِلَ تمطر السّماء دماً)(١).

وهنا بالتحديد أجد نفسي مُضطرّاً للخروج عن المنهج الذي رسمته في تقديم أو صياغة أفكار هذا الفصل من الكتاب، إنّه بلا ريبٍ خروجٌ بسيطٌ عن المخطط المرسوم ولكنّني أراه ضروريّاً الآن في هذا المكان.

إنّ هذا الخروج الطفيف يتعلّق بالسيدة زينب عليها السلام، عقيلة بني هاشم وحاملة اللواء الحسيني بعد الفاجعة، فقد ذكرتُ سابقاً أنّني لن أتحدّث كثيراً عن شخصيّات عديدة شهدت وقوع الفاجعة، بل ونالت قسماً عظيماً منها، وأوضحتُ، بنفس الوقت، أنّ عدم ذكري لتلك الشخصيات مثل (مسلم بن عقيل) و(هاني ابن عروة)، وحتّى السيدة (زينب عليها السلام) نفسها، نابعٌ من الرغبة في كتابة كتب مستقلّة عن كلّ شخصيّةٍ من هذه الشخصيّات الهامّة بُغية توضيح دورها الفعّال في سرعة تفعيل مبادئ النهضة الحسينية المباركة، ولكنّني الآن أجد نفسي مُرغَماً على ذكر بعض المواقف المميّزة

(١) نفس المصدر السابق ص٨٦.

للسيدة زينب عليها السلام والتي سيبدو كتابنا هذا، دون ذكر تلك المواقف المميّزة، ناقصاً وغير ناضجٍ في بعض جوانبه ومعالمه.

فمواقف السيّدة زينب عليها السلام، ريحانة آل محمد صلى الله عليه وآله، تتجلّى بقوة وصدق وإيمان منذ لحظة انطلاق الإمام الحسين عليه السلام وتوجّهه إلى كربلاء، وتزداد تلك المواقف قوّةً وصلابةً عند وقوفها بين يديّ الطاغية عبيد الله بن زياد وقولها له بعد أن بادرها قائلاً: (الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم...)، فتردُّ عليه قائلةً بفصاحة لسان أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة:

«بل الحمد لله الذي أكرمنا بِنَبيِّه، وطهّرنا من الرجس تطهيراً، وإنّما يفضح الله الفاسقَ، ويكذّب الفاجرَ، وهو غيرنا يا بن زياد»، فتغلي مراجلُ الغضب في عروقه لكنّه يعود ويسألها: كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟

فَتجيبهُ بعمق الإيمان الذي لا يبرد ولا يلين: «كُتِبَ عليهم القتال فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينهم وبينك! فتختصمون عنده يوم القيامة»[1].

ويرى الكاتب والأديب (عبد الرزاق كيلو)، وهو أحد إخواننا السنّة، أنّ أحدَ وجوه البطولة في سيرة السيدة زينب عليها السلام مع أخيها الإمام الحسين عليه السلام هو وقوفها البطوليّ في وجه يزيد الآثم الباغي، وقولها له على رؤوس الأشهاد، بعد أن شكّكَ بصدق رسالة جدّها المصطفى صلى الله عليه وآله، وبعد أن شتم أهل بيت النبوّة عليهم السلام:

«إنّك أميرٌ متسلّطٌ، تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك! أظننتَ يا يزيد أنّ بنا هواناً على الله وأنّ بك عليه كرامة!.. فشَمختَ بأنفك حين رأيت الدّنيا مستوثقة إليك!

ألا إنّ الله إنْ أمهلك فلأنه يقول: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ

---

(١) عبد الرزاق كيلو، السيدة زينب بنت علي، مصدر سابق ص٣٨.

﴿لأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾[1]، لَتَردنّ على الله غداً يا يزيد! وأنت تودُّ لو كنتَ أبكماً أعمى، ولَتجدنّنا عليك مغرما حين لا تجد إلا ما قدّمتْ يداك، تستصرخ بابن مرجانة (أي ابن زياد)، ويستصرخ بك، ولَتعلمنّ يوم يحكم الله بيننا، أيّنا شَرٌّ مكاناً وأضعف جنداً!!»[2].

ولا يختلف رأي الأديب والمفكّر المصري المعروف (عباس محمود العقاد) كثيراً عن رأي الأستاذ (عبد الرزاق كيلو) حول بطولات ومآثر السيدة زينب عليها السلام في مجلس ابن زياد ومجلس يزيد، ولكن ما أراد أن يلفت الأستاذ (العقّاد) أنظارنا إليه هو ذلك التشابه في الأحداث في مجلس ابن زياد ومجلس يزيد عندما وُضِعَ رأس الإمام الحسين عليه السلام بين يديّ كلٍّ منهما.

وقد قال الأستاذ (العقّاد) حرفيّاً عن ذلك الموضوع: (وتكرّر منظر القصر بالكوفة في قصر دمشق عند يزيد.. ولا نستغرب أن يتكرّر بعضه حتّى يظنّ أنّه قد وقع في التاريخ خلطٌ بين المنظرين)[3]، وبالطبع، فإنّ الأستاذ (العقّاد) لم يقصد فقط تلك المواقف البطوليّة للسيّدة زينب عليها السلام في مواجهتها للطاغيتين ابن زياد ويزيد، وإنّما قصد أيضاً ما فعله كلٌّ منهما برأس الإمام الحسين عليه السلام من تمثيلٍ به وإهانةٍ له.

ومهما تحدّثنا عن السيّدة زينب عليها السلام وعن مواقفها البطوليّة في النهضة الحسينيّة فسيبقى القلم عاجزاً تماماً عن الوفاء لها بحقوقها، وسيبقى مُقصِّراً أيضاً عن الإحاطة بعظمة شخصيّتها الاستثنائيّة التي جمعت بين أنوار النبوّة وأنوار الإمامة فأمسكتْ بذلك بالمجدِ من أطرافه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية١٧٨.

(٢) نفس المصدر السابق ص٤٤.

(٣) عباس محمود العقّاد، أبو الشهداء الحسين بن علي، مصدر سابق ص١٥٤.

وحتّى لا نسهب كثيراً في الحديث عن السيّدة زينب عليها السلام، وهي التي تستحقّ أن يُكتَبَ عنها الكثير من المؤلّفات والدراسات التخصصيّة، يكفي أن نقول إنّ السيدة زينب عليها السلام كانت، وستبقى، في عيون المسلمين وفي عيون المفكّرين المسيحيين في الشرق والغرب رمزاً حيّاً ومثالاً بارزاً يُحتذى به للمرأة المسلمة المؤمنة والمجاهدة الثائرة من أجل إعلاء شرف الكلمة، وفي سبيل حمل راية الدفاع عن قِيَمِ السّماء الجليلة وفضائل الرسالة النبويّة النبيلة.

وكيف لا تكون السيدة زينب عليها السلام كذلك، وهي ابنة الزهراء فاطمة عليها السلام سيّدة نساء العالمين؟!

وكيف لا تكون زينب عليها السلام، كأمّها الزهراء عليها السلام، المثال الأكمل للمرأة المؤمنة الخالدة، في عيون المسلمين والمسيحيين، وهي ربيبة الوحي وابنة علي عليه السلام الذي كان يرى دائماً أنّ السعادة الحقيقيّة هي في فناء الفاني بالخالد الباقي؟!

ولكن، وقبل الانتقال إلى الصفحات الأخيرة من هذا الفصل التراجيديّ الحزين الذي سطّرت أحداثه ونسجتْ صورَه أقلامُ الأدباء والمفكّرين بمدادٍ من الصِّدق الممتزج بآلام الفاجعة، دعونا نقدّم لكم الآن - ولو سطوراً قليلةً - عن الصورة المشرّفة للسيدة زينب عليها السلام كما يراها الفكر المسيحيّ الحديث.

فالفكر المسيحيّ الحديث يرى فيها صورةً مُستَنْسَخةً عن أمّها الزهراء فاطمة عليها السلام مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف الخاصّة التي عاشتها كلّ منهما، فلو أنّ السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام كانت في مكان ابنتها السيدة زينب عليها السلام لَتَصرَّفتْ كما تصرَّفت زينب عليها السلام تماماً.

وبالمقابل أيضاً، لو أنّ السيدة زينب عليها السلام عاشت الظروف التي عاشتها أمّها

الزهراء عليها السلام لتصرّفت مثلها تماماً دون أدنى شكّ.

وعلى كلّ حال، ومنعاً للإطالة، سنكتفي الآن بإبراز صفحة واحدة من صفحات سيرة السيدة زينب عليها السلام قبل رحلتها الجنائزيّة الأليمة إلى دمشق حيث وقفت أسيرةً بين يدّ اللعين يزيد تدافع عن رسالة جدّها المصطفى صلى الله عليه وآله وعن بقيّة آل بيته عليهم السلام الذين قضوا ما بين قتيلٍ وأسيرٍ.

فَقَبْلَ أنْ يصوّر الأديب والمفكّر المسيحيّ (بولس سلامة) الأهوال التي لاقاها ركبُ السبايا في تلك المرحلة المضنية للروح قبل الجسد، وقبل أن ينقل لقارئه صوراً مخزيةً عن الفعائل الأمويّة السوداء برأس الإمام الحسين عليه السلام في مجالس الشؤم والغدر، نراه يعمد مباشرةً لتسليط الأضواء على الدّور الأنثوي في واقعة كربلاء.

فالسيدة زينب عليها السلام هي العنصر الأنثوي الأبرز في أحداث الفاجعة، ولكنْ لهذا العنصر الأنثوي دورٌ إيجابيٌّ وفعّالٌ في استمرار لهيب الثورة من جهةٍ، وفي حماية البقيّة الباقية من آل بيت النبوّة من جهةٍ ثانيةٍ.

ولذلك، فإنّ هذا المفكّر والأديب الشاعر (بولس سلامة) يركّز الأضواء ويسلّطها على دور السيدة زينب عليها السلام الفعّال ومحاولاتها المستميتة في منع ابن زياد من قتل الإمام علي بن الحسين، الملقّب بزين العابدين عليه السلام، في مجلسه بالكوفة مع معرفتها الكاملة بأنّ محاولاتها الجريئة لمنع ابن زياد من تنفيذ غايته بقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وآله قد يكلّفها حياتها هي بالذات.

إذنْ، فهي مستعدّةٌ وقادرةٌ على أن تفني ذاتها في رضى ذات الله مستذكرةً بذلك تلك الدروس العظيمة التي كانت تتلقّاها في مدرسة أبيها الإمام علي عليه السلام.

وها هو الأستاذ الأديب (سلامة) يصوّر العقيلة الهاشميّة عليها السلام وموقفها البطوليّ

عندما سمعت ابن زياد يأمر بقتل زين العابدين، الإمام علي بن الحسين عليه السلام، بقوله واصفاً إيّاها، ثمّ ناقلاً لنا ما قالته لابن زياد بطريقته الشعرية المؤثّرة:

صرخـــتْ كـــاللبوءة الســـمحة التّـــزآرِ مجروحـــة بـــدون ضـــمادِ

اقتلوني قبل الغلام وهذا الصدرُ السّمحُ فاستفتِحوا بفؤادي

اقتلوا بنتَ فاطم، فدمُ الزهراء غالٍ على السيوف الحدادِ (١)

وبعد إكباره لهذا الموقف الزينبيّ الفدائي النّبيل، يعود الأستاذ (سلامة) ويخاطبها قائلاً:

زينـــب العُـــربِ مـــا أعـــزّ المُفـــدّى في الضـــحايا ومـــا أجـــلّ الفـــادي

فرُوحُ الأبيات الشعريّة التي تتحدّث عن السيدة زينب عليها السلام في هذه القصيدة التي خطّها وأبدعها يراعٌ مسيحيٌّ ناطقٌ بالحقّ وصادحٌ بالصدق، تُبيّنُ لنا أنّ الحسين عليه السلام الذي قَبِلَ أن يفدي الإسلام بروحه قد جاء بعده من يفدي أيضاً المبادئ والقِيمَ التي عاش هو من أجلها، فالسيدة زينب عليها السلام هي الفادي لمبادئ الإمام الحسين عليه السلام وهي الفادي للإمام علي بن الحسين عليه السلام، مستودع نسل وفكر الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ووعاء أسرار رسالته، إنّها زينب عليها السلام العقيلة التي تستحقّ بجدارةٍ ما نقوله عن دورها الفدائيّ الخالد في حفظ رسالة أهل بيت رسول السّماء صلى الله عليه وآله وسلم:

فإذا كان الإسلام محمديّاً في وجوده وميلاده،

فهو عَلَويٌّ في نبضه ودمائه،

وحسينيٌّ في خلوده وبقائه،

وزينبيٌّ في سموّه وارتقائه.

(١) بولس سلامة، عيد الغدير، مصدر سابق ص٢٩٢.

ولكنْ، وبما أنّنا الآن في معرض حديثنا عن الدّور الجهاديّ للمرأة المؤمنة في النهضة الحسينيّة المباركة، علينا أن لا نغفل عن الدّور العظيم والفعّال الذي لعبته تلك الطفلة الصغيرة التي لم يكن قد تجاوز عمرها ثلاث سنوات.

إنّها نجمةٌ صغيرةٌ أضاءت بنورها اللطيف سماء دمشق لكنّها سرعان ما هَوَتْ صريعةً بلا حراكٍ في براثن الحقد والظلم والظلام الأمويّ الذي أراد إطفاء نور فاطمة وأبيها وزوجها وبنيها عليهم السلام ولكن إرادة الله القهّار كانت دائماً وأبداً فوق إرادتهم، بل كيف لا تكون إرادته عزّ وجلّ فوق إرادتهم وفوق ظلمهم وطغيانهم وهو القائل ـ سبحانه وتعالى ـ في محكم تنزيله الحكيم: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

إنّ تلك البطلة الصغيرة التي لم يتجاوز عمرها عمرَ الزهور هي السيّدة (رقيّة بنت الحسين عليه السلام)، إنّها الطفلة الصغيرة، الجائعة، الظامئة، الغريبة، الأسيرة، اليتيمة، الصابرة، إنّها الطفلة الصغيرة التي تحاكي الزنابق جمالاً وطهارةً ونقاءً، وقد جاء بها الطغاة من الكوفة إلى دمشق وهي ـ على صِغر سنّها ـ مُكبّلةٌ بالقيود والسلاسل الثقيلة التي تركت أثرها الواضح حول رقبتها وحول معصميها وقدميها الصغيرتين الحافِيَتين.

فهل يتخيّل عقلٌ بشريٌّ سَويٌّ فداحة هذا الخطب العظيم الذي تجسّد في كربلاء عموماً دون أن يرث بداخله وفي أعماق نفسه شيئاً من آلام الفاجعة؟!

أعتقد شخصياً أنّ كلّ باحثٍ عن الحقّ، وكلّ إنسانٍ جادٍّ في التنقيب عن جوهر ومعدن الإنسانيّة الحقيقيّة بداخله، سيدرك بطريقةٍ أو بأخرى أنّه أحد الورثة الحقيقيين لمُصيبة هابيل عليه السلام ومأساة سقراط وعذاب المسيح عليه السلام وهموم علي عليه السلام

(١) سورة التوبة: الآية ٣٢.

وفاجعة الحسين عليه السلام.

أمّا عن طريقة استشهاد تلك الطفلة الطاهرة فتحدّثنا كتب السيرة والتاريخ قائلةً أنّه بعد وصول تلك الطفلة الصغيرة مع موكب السبايا إلى دمشق، بقيت منهكة القوى، سقيمة البدن، كسيرة القلب، وآثار القيود والأغلال واضحة المعالم، أمّا آثار السياط اللاهبة فقد بقيت بارزةً على ظهرها الصغير حتّى لحظة مفارقتها للحياة.

وتؤكّد كتب التاريخ أيضاً: أنّها عليها السلام قامت في إحدى الليالي مرعوبةً فزعةً من منامها وقالت باكيةً: أين أبي الحسين عليه السلام؟ فإنّي رأيته الساعة في المنام مضطرباً شديداً، فلمّا سمعن النّساء بكين وبكى معهنّ سائر الأطفال وارتفع العويل، فانتبه يزيد من نومه، وقال: ما الخبر؟ ففحصوا عن الواقعة وقصّوها عليه، فأمرَ ـ بكلّ الحقد الذي يكنّه لأهل بيت النبوّة عليهم السلام ـ أن يؤخذ إليها رأس أبيها الحسين عليه السلام مُغطّى بمنديلٍ، فَوُضِعَ الرأس المغطّى بين يديها وكُشِفَ الغطاء عنه، وما أن أزاحت التراب عن وجهه المشرق النيِّر حتّى عرفته، وما أن عرفته حتّى شهقت شهقةً عظيمةً وازداد نحيبها وراحت تصيح بعد أن أخذت ذلك الرأس الطاهر، رأس أبيها عليه السلام، وضمّته إلى صدرها الحنون وهي تبكي بكاءً مُرّاً وتصيح:

يا أبتاه مَن ذا الذي خضّبك بدمائك؟

يا أبتاه مَن ذا الذي قطع وريدك؟

يا أبتاه مَن ذا الذي يَتّمني على صغر سِنّي؟

يا أبتاه مَن لليتيمة حتّى تكبر؟

يا أبتاه مَن للعيون الباكيات؟

يا أبتاه من بعدك؟ واخيبتاه!!

يا أبتاه من بعدك؟.. واغربتاه!!

يا أبتاه ليتني لك الفداء.

ثمّ وضعت فمها على فم الشهيد الشريف عليه السلام وبكت عليه حتّى غشيَ عليها، فلمّا حرّكوها فإذا قد فارقت روحُها الحياة الدّنيا ويداها الصغيرتان ممسكتان برأس أبيها الإمام الحسين عليه السلام، فلمّا رأى أهل البيت عليهم السلام ما جرى عليها ارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب واستجدّوا العزاء وكلّ من حضر من أهل دمشق، فلم يُرَ ذلك اليوم إلا باكٍ وباكية[1].

وبعد أن أوردتُ هذه القصّة المؤلمة عن السيدة رقية بنت الإمام الحسين عليه السلام، لا يسعني إلا أن أطلب من القارئ الكريم طلباً بسيطاً وسهلاً.

أطلب منك أيّها القارئ العزيز أن تغلق الكتاب الذي بين يديك الآن وتضعه جانباً، ثمّ بعد ذلك أطلب منك أن تغمض عينيك وتسترخي استرخاءً تامّاً، ثمّ تخيَّلْ ما يلي:

تخيَّلْ أنّ ابنتَك المدلّلة أو أختك الصغيرة قد أُخِذتْ منك أسيرةً مغلولة العنق واليدين والقدمين وهي تُساق تحت ضرب السياط المؤلمة دون رحمةٍ بها أو شفقةٍ على صِغر سنِّها.

---

(١) راجع ما جاء في كلّ ممّا يلي مع وجود بعض الفوارق البسيطة:

أ . حسن الشاهرودي، يتيمة الحسين عليه السلام، مؤسسة السيدة زينب الخيرية . بيروت، ١٩٩٨، ص٢٠.

ب . الشيخ عباس القمّي، نفس المهموم، طبع دمشق، د.ت ص٤١٦.

ج . علي زراع، رقيّة بنت الإمام الحسين عليه السلام، مجلة (أهل البيت عليهم السّلام)، العدد الخمسون تصدرها رابطة أهل البيت عليهم السلام الإسلاميّة العالميّة . لندن، عدد نيسان ١٩٩٩م، ص٤٩.

فما هو موقفك، وما هو ردُّ فعلك على من ظلمها وأسرها وأذلّها ثمّ أزهق روحها؟!

وسأترك لك الآن أمر الخيال بكلّ تفاصيله، وسأدع لك أيضاً أمر الجواب عن موقفك وعن ردود أفعالك تجاه الموضوع المتخيّل في ذهنك بكلّ خصوصيّاته وأبعاده.

وبعد العودة من عالم التخيّل إلى عالم الواقع المُعَاش لابدّ أن ندرك أنّ المشاكل التي تصادفنا في حياتنا، والتي قد تصل أحياناً إلى حدِّ المحن والخطوب، ما هي إلا مشاكلٌ ومحِنٌ يسيرةٌ أمام المحن والخطوب العظيمة التي تعرّض لها أهل البيت عليهم السلام في مسيرة حياتهم التي تلوّنتْ في معظمها باللون الأحمر القاني.

ولذلك نقول ونؤكّد على أنّ قلب الإنسان وعاءٌ، وأنّ هذا الوعاء قد ينكسر في أيّة لحظةٍ من اللحظات تحت تأثير الضغوط والهموم والآلام، ولكنّ هذا الانكسار في القلب قد لا يخلّف وراءه أيَّ أثرٍ إيمانيٍّ في النّفس أو الروح وذلك لأنّ الانكسار قد يكون من أجل أمرٍ دنيويٍّ رخيص لا يمتُّ بأدنى صلةٍ إلى عمليّة صقل النّفس أو إلى تنقية الروح والعودة بها إلى أصالتها الحقيقيّة.

إلا أنّ ذات تلك الهموم والغصّات والآهات يمكن أن تتحوّل إلى حالاتٍ نفسيّةٍ محمودةٍ إذا اختلف الهدف الذي ظهرت من أجله، فإذا كانت الغَصّة أو الدمعة ـ على سبيل المثال ـ من أجل مصائب الإمام الحسين وأهل بيته الأبرار عليهم السلام. فإنّ ثوابها لا يقلُّ أبداً عن ثواب المُسبِّح والمستغفر بالأسحار، فقد أجمع الأئمّة من أهل البيت النبويّ الكريم عليهم السلام على قول: «نَفَسُ المهموم لهَمِّنا تسبيح»[1]، وهذا يعني أنّك عندما

(١) آية الله دستغيب، الثورة الحسينيّة، مصدر سابق ص٦٥.

تبكي وتسقط دمعةٌ من عينك حزناً على ما أصاب الحسين عليه السلام، بل وعلى ما أصاب أهل البيت عليهم السلام عموماً، فهذا يعني أنّ تلك (الآه) التي انطلقت من فمك أو تلك الدمعة التي سقطت من عينك إنّما هي التعبير الصادق عن وجود الحسين عليه السلام بداخلك، نعم، فأنت عندما تبكي وتتساقط الدموع من عينيك بسخاءٍ استذكاراً لمِا حدث في كربلاء، فهذا يعطيك مؤشّراً على أنّ الحسين عليه السلام الداخليّ الذي يعيش فيك هو الذي يبكي، وهو الذي يمدّك بحرارة الإيمان وبحرقة البكاء، وذلك لأنّ القلب السليم في رحلته الشاقّة نحو المعرفة والإيمان لا يمكن أن يصل إلى شاطئ الحقيقة واليقين إلا من خلال المرور في دروب الأحزان الموحشة المفروشة بالقلق والخوف وبالآهات والدّموع والغصص المريرة.

فعندما تعبر نَفْسُ المرء وتجتاز بوّابات الهموم والأحزان تصبح نفساً وضيئةً صقيلة كالذهب النقيّ الصافي الذي تحرّر، بفضل النّار والاكتواء بها، من كلّ شائبةٍ ومن كلّ عيبٍ، فالقلب المسكون بالأحزان هو خير وعاءٍ لمعرفة الرحمن.

فللمؤمن قلبان: قلبٌ يتأمّل وقلبٌ يتألّم، وقد صدق نبيُّ الله سليمان الحكيم عليه السلام عندما قال: (في كثرة الحكمة كثرة الغَمّ، والذي يزيد علماً يزيد حزناً)[1].

وهكذا نرى أنّ القلب المنكسر في مرضاة الله والمتعاطف مع مصائب وآلام أولياء الله هو حقّاً ذلك القلب الذي يستحقّ لقب (خزينة الله) و(وعاء النّور) و(عرش الرحمن)، ومن هنا يمكننا القول أنّه إذا تألّم قلب المؤمن وارتعش خوفاً وحزناً على ما أصاب الإمام الحسين وأهل بيته الأطهار عليهم السلام فإنّ عرش الرحمن يهتزّ لذلك.

(١) متري هنري، سفر الجامعة، ترجمة: القُمص مرقس داود، مكتبة المحبّة القبطيّة الأرثوذكسية. القاهرة، ١٩٢٤، ص٢٧.

فما حدث في كربلاء ألهبَ الضمير العالميّ شرقاً وغرباً، وما الأثر العميق الذي خلّفتْهُ تلك الفاجعة الأليمة في الآداب العالمية عموماً، والتي أفردنا لها باباً خاصّاً بها، إلا الدليل الأقوى على أنّ كربلاء وشهداءَها هُم الضمير الحيّ للإنسان في شتّى الأديان، وما من قائدٍ ثوريٍّ في هذا العالم إلا ونجد في ثورته على الظلم رؤى ومطالب من ثورة الحسين عليه السلام.

فعندما تقول الباحثة والراهبة الكاثوليكيّة (كارين آرمسترونغ) في كتابها (الإسلام في مرآة الغرب) إنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يسير على خُطى جدّه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان يستنكر كلّ الأفعال التي تتنافى مع تعاليم كتاب الرسالة، وكان يحتجّ على مساوئ الأمويين ومظالمهم التي لا تُحتَمل، فإنّ كلامها صحيحٌ لا ريبَ فيه، بل إنّ كلامها الحَرفيَّ القائل: (ظهرَ احتجاجُ جسّده حفيد محمد، الحسين، الذي رفض القبول بالخلافة الأمويّة فقُتِلَ بطريقةٍ وحشيّةٍ هو ومَن معه في معركة كربلاء على يد الخليفة يزيد)[1]، هو كلامٌ دقيقٌ وصحيحٌ، ويعكس هذا الكلام تعاطف تلك الباحثة والراهبة الكاثوليكيّة مع فجيعة الحسين وأهل بيته عليهم السلام الذين وصفتْ طريقة مقتلهم بأنّها (طريقة وحشيّة) أمر بها يزيدُ رجالَه، وهي طريقةٌ أراد بها يزيد أن يجتثّ الحسين عليه السلام من جذوره جسديّاً وفكريّاً، ولذلك فعل ما فعله انتقاماً من الحسين عليه السلام وثأراً من جدِّه صلى الله عليه وآله وسلم ومن رسالته.

فما حدث في العاشر من محرم الحرام مع كلّ ما في ذلك الحدث من صورٍ محزنةٍ ومخيفةٍ قد زرع في أذهان النّاس على مختلف مشاربهم ومذاهبهم فكرةً

(١) كارين أرمسترونغ، الإسلام في مرآة الغرب، ترجمة: محمد الجورا، دار الحصاد . دمشق، ط١/٢٠٠٢م، ص٣٠٤.

جوهريّةً على درجةٍ عظيمةٍ من الأهميّة والجديّة، وتتجلّى هذه الفكرة بالقول إنّ المصائب التي حلّت بالإمام الحسين عليه السلام، بما في ذلك استشهاده في ساحة المعركة، جعلت منه مناراً للثائرين على الظلم من بعده ومثالاً أعلى يُقتَدى به شهيداً مثلما يُقتَدى به إماماً حَيّاً.

فعظمة الحسين عليه السلام الحقيقيّة وصلت إلى ذروتها لحظةَ هجرته إلى الله على رأس موكبٍ مهيبٍ من الربّانيين من أصحابه وأهل بيته عليهم السلام الذين رأوا أنّ الحياة الحقيقيّة هي أن يموتوا قاهرين، وأنّ الموت الحقيقيّ هو أن يعيشوا مقهورين، ففضّلوا بذلك الموت على الحياة من أجل رسالة السّماء وكرامة الإنسان ورفعة كلّ فضيلةٍ من الفضائل النبيلة التي لا غنى عنها لكلّ جيلٍ من الأجيال.

وقد أصاب البحّاثة والأديب المسيحيّ الموصلي (يوسف يعقوب مسكوني) (١٩٠٣ـ ١٩٧١) عندما قال معلّقاً على هذه النقطة المتعلّقة باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام وبعظمته التي هي في جوهرها امتدادٌ لعظمة ومبادئ أبيه الإمام علي عليه السلام، ولَئِنْ كان الإمام الحسين عليه السلام ـ كما يقول الأديب (مسكوني) ـ (أوّل بطلٍ من أبطال الاستشهاد من أجل صرح الحقّ والفضيلة، فإنّ أباه علياً قد ذاق من طعم هذا الجور، فكان استشهاد الأب خير مثالٍ لاستشهاد الابن وكلاهما ضحيّة انتصارٍ للحقّ وإزهاق للباطل)[1].

إذنْ، ففاجعة كربلاء لا تستمدّ عمقها التراجيديّ من مجرد أنّها حادثةٌ مأساويّةٌ حدثت لجماعة من النّاس الأبرياء الذين لم يرتكبوا أيَّ ذنبٍ يُذكر فأُبيدوا عن آخرهم

(١) محمد سعيد الطريحي، شعراء مسيحيّون في رحاب الحسين، نشرة الغدير العدد/٥٩/ مصدر سابق راجع الصفحة ٥.

تقريباً بطريقةٍ وحشيّةٍ لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، وإنّما هي تلك الفاجعة التي تستمدّ عمقَها التراجيديّ من كونها تمثّل وتجسّد صراعاً أبديّاً بين قوى الخير وقوى الشرّ، بين ثقافة الكلمة عند أهل السّماء ومنطق السّيف عند أهل الدّنيا، إنّها ثنائيّة النّور والظلام ودوام الصراع الوجوديّ بينهما.

وبما أنّ كربلاء تمثّل ملحمة الصراع الوجوديّ الدائم بين الخير والشرّ، وبين النّور والظلام، فمن الطبيعيّ أن يتعاطف أصحاب الضمائر الحيّة النيّرة مع الجانب الخيّر والمنير في ساحة تلك المعركة سواءً كان ذلك المتعاطفُ مع الجانب النورانيّ الخيّر مسلماً سُنّيّاً، أم مسيحيّاً، أم هندوسيّاً، أو حتّى صابئيّاً أيضاً.

ولو توقّفنا هنا قليلاً وتوجّهنا بالسؤال التالي إلى كلّ قارئٍ، وبالتحديد إلى كلّ قارئٍ من إخواننا المسلمين السنّة، وطلبنا منه الإجابة عليه بكلّ صدقٍ وأمانةٍ، فماذا سيكون جوابه على هذا السؤال؟

والسّؤال هو: ماذا تعرف عن أقوال أئمّة المذاهب السنيّة الأربعة حول فاجعة كربلاء؟

هل تعرف ما قاله الإمام الشافعي نثراً وشعراً؟

وهل تعرف موقف الإمام أبي حنيفة من أحداث تلك الملحمة الحسينيّة؟

وهل قرأت مواقف وأقوال الإمام مالك عن شخصيّة ونهضة الإمام الحسين عليه السلام؟

وهل توقّفتَ ودرستَ برويّةٍ وإمعانٍ موقف الإمام أحمد بن حنبل من يزيد وما فعله بأنوار البيت المحمديّ الشريف عليهم السلام؟

وبالطبع، فإنّنا لن نجيب على هذه الأسئلة نيابةً عن قارئنا الكريم، بل إنّنا سنترك

أمرَ الإجابة على هذه الأسئلة له، فهو صاحب الحقّ في أن يجيب عليها بكلّ أمانةٍ وصدقٍ.

ولكن، وخدمةً منّا لبقيّة القرّاء من مسلمين وغيرهم، سأقدّم إليكم الآن بعض المقتطفات الشعريّة من حديقة الإمام الشافعيّ، أحد أهمّ أئمّة المذاهب السنيّة الأربعة، وقد اخترت أن تكون تلك المقتطفات شعراً لا نثراً لأنّني على ثقةٍ أكيدةٍ من أنّ معظم القرّاء سيحفظون هذه الأشعار عن ظهر قلب.

فمن المعروف عن الإمام الشافعي (محمد بن إدريس بن العباس بن شافع) (١٥٠ـ ٢٠٤هـ) أنّه قال العديد من القصائد الرقيقة في مدح أهل البيت عليهم السلام وتمجيد خصالهم وفضائلهم حتّى أصبحت بعض قصائده فيهم عليهم السلام عنواناً لمدحهم ومَثَلاً لِذكر عُلوِّ مكانتهم وسموِّ فضلهم.

ولعلّ أشهر ما قاله الإمام الشافعيّ في مدح عموم أهل البيت عليهم السلام هو قوله في ديوانه:

يا آل بيت رسول الله حُبُّكُمُ ... فرضٌ من الله في القرآن أنزلهُ
يكفيكم من عظيم الفخر أنّكمُ ... مَن لم يصلِّ عليكم لا صلاة له[1]

ومن المعروف عنه أنّه كان متعاطفاً مع أهل البيت عليهم السلام حتّى اتّهمه البعضُ بالتشيّع وبأنّه أصبح (رافضيّاً)، فلمّا بلغته الأخبار بشأن هذه التّهم الموجّهة إليه أجاب قائلاً:

يا راكباً قف بالمُحصَّبِ من مِنى ... واهتفْ بقاعد خيفها والناهضِ

---

(١) راجع ديوان الإمام الشافعيّ، جمعه وعلّق عليه: سليمان سليم البوّاب، دار الحكمة . دمشق ص٥٧.

حَـراً إذا فـاض الحجيجُ إلى مِنـى فيضـاً كملـتطم الفـرات الفـائضِ
إنْ كـان رفضـاً حـبُّ آل محمّـدٍ فَليشـهد الـثقلانِ أنّي (رافضي)[1]

هـذا هـو، وباختصـارٍ شـديدٍ، موقفـه مـن آل بيـت النبوّة ومهبط الـوحي ومعـدن الرسالة.

ولكـن بقـي علينـا أن نُبـيّن موقفـه مـن أحـداث ملحمـة كـربلاء ومـن طرفيهـا المتناقضين والطرف الحسينيّ المحمديّ والطرف اليزيديّ السفيانيّ.

وكي نتبيّن موقفه بوضوحٍ كاملٍ، يكفي أن نذكر هنا هـذه القصيدة العصماء التي تستثير كوامن النّفوس الصافية وتحرّك فيها أنبل وأرقّ المشاعر الإنسانيّة التي سرعان ما تستنكر الظلـم والطغيان والقهـر الـذي وقـع عـلى الإمـام الحسين وأصحابه وأهلـه عليهم السلام.

وها هو الإمام الشافعي يقويل واصفاً حزن الدّنيا على مصاب الحسين عليه السلام:

تـأوَّبَ همّـي والفـؤاد كئيـبُ وأرّقَ نـومي والرقـاد غريـبُ
فمـن مُبلـغٌ عنّـي الحسين رسـالةً وإنْ كرهتْهـا أنفـس وقلـوبُ
قتيـل بـلا جُـرم كـأنّ قميصَـه صـبيغٌ بـماء الأرجـوان خضـيبُ
وللسّـيف أعـوال وللـرمح رنّـةٌ وللخيـل مـن بعـد الصـهيل نحيـبُ
تزلزلـت الـدّنيا لآل محمـدٍ وكـادت لهـم صُـمُّ الجبـال تـذوبُ
وغـارت نجـوم واقشـعرّت كواكـبٌ وهُتـك أسـتار وشُـقّ جيـوبُ
يُصـلّى عـلى المبعـوث مـن آلِ هاشـمٍ ويُغـزى بنـوهُ إنَّ ذا لعجيـبُ
لـئن كـان ذنبـي حـبّ آل محمـدٍ فـذلك ذنـبٌ لسـت عنـه أتـوبُ

(١) نفس المصدر السابق ص٤٢.

هـم شـفعائي يـوم حشري ومـوقفي إذا مـا بـدت للنـاظرين خُطـوبُ[1]

ولا أعتقد أنّني أُجانب الصواب إذا قلتُ إنّ موقف كلّ أئمّة المذاهب السنيّة الأخرى لا تختلف في جوهرها عن موقف الإمام الشافعي أبداً، بل إنّ البعض من المفكّرين والأدباء المعاصرين الذين يعتنقون المذهب (الوهابي) لم يجدوا حَرَجاً في سبٍّ ولعن قاتلي الإمام الحسين وأهل بيته الأطهار عليهم السلام ومَنْ مثّل بهم وأخذ ما تبقّى منهم في رحلة سَبي طويلةٍ وشاقّةٍ لم تنتهِ أهوالُها ومتاعبها حتّى بعد وصول موكب السبايا الأسرى إلى قصر الطاغية يزيد في دمشق.

ـ وخير مثالٍ على قولنا هذا، الداعية الوهابي والشاعر السعودي (عائض القرني) أحد أشهر ممثّلي المذهب الوهابي في عصرنا هذا، وقد كتب هذا الأديب والداعية الوهابيّ قصيدةً متميّزةً في تصوير موقفه من المآسي والمصائب التي تعرّض لها الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام.

ولم يُخفِ هذا الداعية موقفه أيضاً من قَتلةِ ريحانة الرسول صلى الله عليه وآله وسيّد شباب أهل الجنّة عليه السلام.

وهذه باقةٌ صغيرةٌ من تلك القصيدة (الوهابية) والتي جعل الداعيةُ (القرني) عنوانها (أنا سُنّيّ حسينيّ)، ويقول (القرني) فيها:

بكى البيت والركن الحطيم وزمزمَ ودمـعُ الليـالي في محاجرهـا دمُ

وشـقَّ عليك المجد أثوابَ عزِّه ووجه الضحى من بعد قَتلك أدهمُ

فيا ليت قلبي كان قبرك مَعلماً تُكفَّـن في أجفـان عينـي وتُكـرمُ

ويا ليت صدري كان دونك ساتراً بـه كـلُّ رمـح مـن عداك يُحطّـمُ

---

(١) لبيب بيضون، خُطب الإمام الحسين على طريق الشهادة، مصدر سابق ص٣٦٥.

أريحانـــة المختـــار صرتَ قضـــيّةً وأصـــبحتَ للأحـــرار نِعـــمَ المعلِّـــمُ
ولكنّنـــي وافقـــتُ جـــدَّك في العَـــزا فـــأخفي جراحـــي يـــا حسـين وأكـــتمُ
أُصِـبنا بيـومٍ في الحسـين لـو أنّـه أصـاب عـروشَ الـدَّهرِ أضحتْ تهـدَّمُ

ثمّ ينتقل الشاعر السعوديّ الوهـابي (القرني) إلى تحديد موقفه من قَتَلةِ الإمام الحسين عليه السلام بقوله في نفس القصيدة:

ألابـــن زيـــادٍ ســـوَّد الله وجهـــه معـــاذيرُ في قتـــل الحســـين فَـــتُعلمُ؟
يُقاضـــيه عنـــد الله عنّـــا نبيُّـــهُ بقتـــل ابنـــه واللهُ أعـــلى وأحكَـــمُ
عـــلى قاتليـــه لعنـــة الله كلّـــما دجـا الليـل أو نـاح الحَـمامُ المـرنِّمُ(١)

وبالطبع، ليست هذه الأبيات الشعريّة هي القصيدة بكاملها، ولكنّنا سنعود لاحقاً لِذكرِ بقيّة الأبيات الهامّة منها في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب.

وهكذا نرى أنّ القلب الذي تزداد نوافذه انفتاحاً على عوالم فضائل وأسرار أهل البيت عليهم السلام، سيزداد تألّقاً وبريقاً، بل وسيزداد أيضاً معرفةً بحكمة الحياة وطبيعة تناقضاتها الحادّة، فالعشق الحسينيّ بابٌ من أبواب المعرفة وسبيل من سُبُل الرشاد.

نعم، نحن لا نشكّ أبداً في مصداقيّة قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إنّ لِقَتلِ الحسين حرارةٌ في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»(٢).

فوالله حرارته لا تبرد أبداً، ولن تبرد أبداً...

ولكن هل سألنا أنفسنا يوماً عن مصدر تلك الحرارة المتّقدة في قلوبنا؟

---

(١) راجع جريدة (الحياة)، العدد/ ١٦٠٧٧/ بتاريخ ١١ نيسان ٢٠٠٧، ص١٧، القصيدة موجودةٌ بالكامل.

(٢) الميرزا حسين النوري، مستدرك الوسائل، مؤسسة آل البيت. قم، ١٤٠٨هـ، ج١٠ ص٣١٨.

وهل تساءلنا أيضاً عن سبب استمراريّة تلك الحرارة بنفس القوّة والوتيرة؟!

إنّ أبسط ما يقال عن مصدر تلك الحرارة في قلوب المؤمنين من عشّاق الحسين عليه السلام، من مسلمين ومسيحيين وغيرهم، هو حُبُّ الثورة على كلّ من يريد أن يغلق النوافذ بوجه ثقافة السّماء، فالحرارة حرارة الإيمان بالكلمة وبمن يحمل ثقافة الكلمة ومحتواها الروحيّ والمعنويّ، ولذلك، فإنّ تلك الحرارة التي تَسْكُنُ القلوب هي تلك الطاقة التي نستمدّها من سلطان الكلمة ومن وهجها الأقدس.

وطالما هنالك حياةٌ وموتٌ، هناك خيرٌ وشرٌّ، وطالما هنالك في وجودنا خيرٌ وشرٌّ، هنالك أيضاً صراعاتٌ لا حصر لها بين هذين القطبين المتضادّين المتنافرين.

ولأنّ الصراع موجودٌ في كلّ حركةٍ من حركات الحياة، فإنّ الألم أيضاً موجودٌ كنتيجةٍ طبيعيةٍ من النتائج المترتّبة على ذلك الصراع المرير في وجودنا، وربّما يصل الأمر ببعض أولئك الذين يقضون أعمارهم في حالة صراعٍ مع قوى ومظاهر الانحراف والانحطاط في المجتمع أن يتحوّلوا إلى ما يمكن أن نطلق عليه اسم (الجوهر المتألّم).

فالمسيح عليه السلام جوهرٌ متألّمٌ، والحسين عليه السلام أيضاً جوهرٌ متألّم، أمّا نحن البشر العاديين فيمكن أن نُسمّى ـ في حال تعاطفنا القويّ وصراعنا إلى جانب الحقّ والخير ضدّ الباطل والشرّ ـ بأصحاب (الألم الجوهري).

فأهل (الألم الجوهريّ) هم أولئك النّاس الذين يصارعون ويقارعون مظاهر الخلل والانحراف ويدفعون ضريبة ذلك الصراع ألماً ودماً من أجل مبادئ وقيم جوهرية نبيلة، في حين أنّ أهل (الجوهر المتألّم) هم بحدٍّ ذاتهم جواهر وقِيَم مبدئيّة سامية وُجِدَتْ بيننا لتكون مُثُلاً عُليا لنا، ومع ذلك فهي ترفض أن تبقى في حالة سكون

أو في حالة ركود كمنظومةٍ من المبادئ الأخلاقيّة الجامدة التي تنتظر من يجيء ويدافع عنهـا دون أن تُبـدي هـي أيَّ حِـراكٍ، إنّهـا جـواهر أخلاقيّـة وقِـيَم إنسـانيّة متجسّـدة في أشخاصٍ محدّدين، وقـد قَبِـلَ أولئك الأشـخاص (الجـواهرُ) أن يتجسّـد الألم في كلّ نَفَسٍ من أنفاسهم نتيجة همّتهم التي لا تفترُ ولا تبردُ في مقارعة الباطـل وفي قطـع دابر الشرور من وجودهم.

فالحسين عليه السلام ـ على سبيل المثال ـ ابتدأت ولادته بمجلس عـزاء وانتهـت حياتـه بفاجعةٍ أبكت أهل الأرض والسّماء، وما من يومٍ مرَّ على الحسين عليه السلام دون هَـمٍّ وألمٍ أو دون هواجس ومخاوف أَرَّقَتْ ليلَـه وأَقلَقـتْ نهـاره، إنّهـا غربـة الـروح السّـماوية في مجتمعٍ سرعان ما يتنكّر لوصايا الأنبياء ومبادئ الرسل وقِيَمِ الرسالات.

لقـد أصـبحت روح الإمـام الحسـين عليه السلام صـدى دائـم الترديـد لِلفظـة (الآه) الخارجة من عمق القلب الإنسانيّ المقهور، من عمق القلب الشجيّ الذي يمثّل عرشَ الرحمن بِعلوِّ مكانه وسموِّ مقامـه، وبالمقابـل، فـإنّ لفظـة (الآه) أصبحتْ هـي النغمـة القدسية الحزينة التي تتغنّى بها روح الإمام الحسين عليه السلام آناءَ الليل وأطراف النّهار.

ولا أعتقد أنّ هناك أيّة قصّة أبلغ من القصّة التي ذكرها الكاتب والأديـب اليونـانيّ المعاصر (نيكوس كازانتزاكيس) عن العلاقة بين (الآه) و(الله).

يذكر هذا الأديب العظيم (كـازانتزاكيس) ذو النزعـة الصـوفيّة الحـاضرة دائـماً في كلّ رواياته ومؤلّفاته أنّ أحد الأدباء المسيحييّن مرّ ذات يومٍ بأحد الدراويش المسلمين الذين استوطنوا في جزيرة (كريت) وسأله قائلاً:

ـ أيَّ اسم تطلقه على الله؟

فأجاب الدرويش:

ـ ليس لله اسم، إنّه أكبر من أن تحتويه الأسماء، الاسم سجنٌ والله حرّ.

ولكنّ الأب أصرّ على سؤاله قائلاً:

ـ ولكن إذا شئت أن تناديه حين تكون هناك حاجةٌ فأيُّ اسمٍ تستخدمه؟!

أطرق الدرويش مفكّراً ثمّ افترقت شفتاه:

ـ آه! هكذا أناديه، ليس الله، بل (آه).

وأربك هذا الكلامُ الأب فتمتم: إنّه على حقّ[1].

وبالفعل، فإنّ ما يناسب هذا المقال في هذا المقام هو ما وردنا عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام من أنّ كليم الله موسى عليه السلام ناجى ربَّه مرّةً فقال: إلهي، أين نجدك؟

فأوحى سبحانه وتعالى إليه مجُيباً: أنا عند المنكسرة قلوبهم...

وهكذا نرى أنّ المآسي والفجائع المريرة التي وقعت على أهل البيت النبويّ الطاهر عليهم السلام لم تقع على غيرهم بنفس القساوة والمرارة، بل إنّنا لم نقرأ في التاريخ الإنسانيّ أنّ نبيّاً رسولاً قد تعرّض أهل بيته للمجازر والمذابح من أجل القِيَمِ والمبادئ مثلما تعرّض له آل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد صدق الكاتب والباحث المعاصر (عمر فرّوخ) عندما أكّد على مصداقيّة هذه الحقيقة الثابتة بقوله: (لم يعرف التاريخ مأساةً شغلت الإنسانيّة كمأساة الحسين بن علي عليه السلام، وعَهدُ الإنسانيّة بالمآسي أنّها نوعٌ من المصائب التي تظهر فجأةً عظيمة فادحة ثم تتضاءل ويخفُّ أثرها في كتب التواريخ: تلك هي بلا رَيبٍ المآسي الشخصية الفرديّة التي لا تنطوي في أوّل أمرها إلا على إشفاق مَن نزلت بهم المصيبة وإلا على

(١) نيكوس كازنتزاكي، تقرير إلى غريكو، ترجمة: ممدوح عدوان، الجندي للطباعة والنشر. دمشق، د.ت، ج١ ص١٥٢.

عاطفة عارضة في مَن اتّفق له أنْ شهدها، أمّا مأساة كربلاء فكانت من نوعٍ آخر).

فما هو هذا النّوع الآخر من المآسي الذي تندرج تحته مأساة كربلاء؟!

إنّه ـ والكلام أيضاً للدكتور (فرّوخ) ـ (الاستشهاد في سبيل مبدأ إنسانيٍّ قويم، ولكنّ فكرة تلك المأساة لم تزل، بل لقد قوي أثرها واتّسع صداها، والمسلمون لن ينسوا الحسين بن علي بن أبي طالب ذلك الشهيد الذي أصبح المثل الأعلى للاستشهاد في سبيل الدفاع عن المبدأ الحقّ وكان القدوة الصحيحة لطالبيِّ المثُل العليا)(١).

وكدليلٍ أكيدٍ على أنّ حجم المأساة في كربلاء، قد تجاوز كلّ المقاييس والمعايير التي يمكن أن يتقبّلها العقل البشريّ، وأنّه قد تجاوز أيضاً الحدود والحواجز المحليّة إلى درجة أنْ جعل منها مأساة إنسانيّة ذات أبعاد عالميّة تتردّدُ أصداؤها في كلّ بقعةٍ من بقاع الأرض، هي القصّة المثيرة التالية التي وردت أساساً في العدد الثامن من مجلّة (لواء الإسلام) الصادرة في القاهرة بتاريخ شباط عام (١٩٤٨).

فقد وردت في الصفحة / ٦٧/ من المجلّة المذكورة القصّة التالية، وهي قصّة تتعلّق بالرئيس الأميركي الأسبق (فرانكلن روزفلت) (١٨٨٢ـ ١٩٤٥) والذي استلم كرسي الرئاسة من عام (١٩٣٣) وحتّى عام (١٩٤٥)، أي حتّى عام وفاته.

وقد كتب محُرِّرُ تلك القصّة قائلاً: (لقد حدّثنا أحدُ كبار الرجال من الأقطار الشقيقة، من غير الشيعيين، أنّه التقى بمستر (روزفلت الصغير)، فدار الحديث بينهما عن الحرب وويلاتها، وأخذ يشرح له آداب الحرب في الإسلام، ويقارنها بوحشيّة الحروب بين الدول الغربية، فقال له (روزفلت): مهما بلغ المحاربون من الوحشيّة

(١) راجع مجلة الموسم، العدد /١٣/ المجلّد /٤/ مصدر سابق ص١٧.

والاعتداء، فإنّنا لم يُسمَعْ عنّا أنّنا قتلنا ابن نبيٍّ ننتسب إليه، ولا جَرَّدنا بنات النبيّ وآله من ثيابهم وأخذناهم سبايا غير مكرمين، قال محدِّثُنا: فَوَجَمتُ ولم أتكلّمْ)[١].

ويحقّ لهذا المسؤول العربي الذي لم يشأ محرِّرُ الخبر أن يذكر اسمه أن يسكت عن الكلام وأن يصمت كلياً أمام ما قاله الرئيس الأمريكي الأسبق (روزفلت).

فكيف يتكلّم قومٌ عن آداب الحرب وعن ادّعائهم التمسُّك بأخلاقياتها وهم الذين قتلوا ابن بنت نَبيِّهم وسَبُوا حريمَه ونساءَه وساقوهم أسارى كالعبيد من بلدٍ إلى آخر دون ذنبٍ أو جريرة؟!

وعلى كلّ حالٍ، بقي علينا أن نُبيِّنَ للقارئ أنّه رُبَّما المقصود من اسم (روزفلت الصغير) الوارد في الخبر هو الرئيس (فرانكلن روزفلت) تمييزاً له عن الرئيس الأمريكي (تيودور روزفلت) (١٨٥٨ـ ١٩١٩) الذي حَكَمَ أمريكا من عام (١٩٠١) وحتّى عام (١٩٠٩)، والحائز على جائزة نوبل للسلام عام (١٩٠٦).

وبما أنّنا قاربنا الانتهاء من الكلام عن آلام أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام في رحلتهم الملحميّة من الكوفة إلى الشام، وبما أنّنا أيضاً قد عرضنا كلّ ما يمكن عرضه من آراء ومواقف حول الصور المؤثّرة والأحداث المؤسفة التي أعقبت استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في ساحة المعارك الضارية، نرى الآن أنّه من الأفضل لنا أن نحثّ الخُطى ونسدل الستار على آلام الحسين عليه السلام وعلى مصائب آل وأبناء وأصحاب الحسين عليه السلام.

ولكن، وقبل أن نسدل الستار على تلك الآلام والجراح التي عصفت في كربلاء

---

(١) راجع مجلّة الموسم، العدد /١٢/ المجلّد (٣) مصدر سابق ص٦٤، وقد تمّ نقل الخبر عن مجلّة (لواء الإسلام) العدد /٨/ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ. فبراير ١٩٤٨، إصدار القاهرة ص٦٧.

بالبقيّة الباقية من أهل بيت النبوّة، علينا أن نؤكّد للجميع أنّ العقول النظيفة والأقلام الواعية، أيّاً كانت هويّة تلك العقول والأقلام، لا ترى في كربلاء أنّها مجرّد ملحمةٍ شيعيّةٍ تراجيديّة، أو أنّها عبارةٌ عن موروثٍ روحيٍّ مكتوب بدماءٍ جماعة من شيعة علي عليه السلام وابنه الحسين عليه السلام، بل ترى تلك العقول والأقلام أنّ تلك الملحمة الحسينيّة هي بحدِّ ذاتها إرث بشريٌّ عام كتبهُ الإمام الحسين عليه السلام بدمائه ودماء أبنائه وأهله ليكون إنجيلاً جديداً يبشّر بخلاص كلّ المظلومين والمستضعفين في الأرض على مَرِّ العصور والأجيال.

فالمفكّر والأديب المسيحيّ (أنطون بارا) سُئِلَ ذات مرّةٍ عن عالميّة الملحمة الحسينيّة، فأجاب قائلاً: (ليست الملحمة الحسينيّة مختصّة بالشيعة والسنّة والمسلمين فحسبْ، بل إنّما هي لكلّ مؤمنٍ، كما جاء في ذلك الحديث: (إنَّ لِقَتلِ الحسين حرارةً في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً)، ولم يقل: (في قلوب المسلمين)، بل يشمل كلَّ إنسانٍ حرٍّ آمن بخطى الحسين وطريقه، ولذا نرى أنّ المفكّرين وأهل العالم يأسرهم حبُّ الحسين عندما يطّلعون على سيرته، تماماً كما صاروا من المعجبين والمحبّين لِطريق علي بن أبي طالب عليه السلام ولسلوكه)[1].

وبالفعل، فإنَّ صنّاعُ التاريخ من رسل وأنبياء وحكماء وأبطال وعلماء وقادة فكر ليسوا حِكراً لشعب دون شعب وليسوا وقفاً لِدينٍ دون آخر، إنّهم كالشّموع التي تضيء بنورها كلّ الزوايا المظلمة دون استثناء، إنَّ تلك الشّمعة أو الشمس لا تضيء لِفردٍ دون فردٍ ولا لشعب دون شعبٍ آخر، فالنُّور يغمر الجميع، وعلى الجميع أن يستحمّوا بنور المعرفة والحقيقة.

---

(١) راجع المقابلة الصحفية مع المفكّر والأديب (أنطون بارا) في مجلّة (رسالة الثقلين)، العدد /٥٥/ مصدر سابق ص١١١.

الفهرس

الإهداء ٥
شعاعٌ من وهج الحقيقة والتاريخ ٦
أهل البيت عليهم السلام عمادُ الوجودِ ورحمتُه ٣١
يُحدّثونكم عن الحسين عليه السلام ٧٧
فاجعة كربلاء ومأساة السقيفة ١٥٦
عصر الإمام الحسين عليه السلام ٢١٥
جذور الثورة ودوافع النهضة ٢٤١
نُبوءة أهل البيت عليهم السلام بفاجعة كربلاء ٣١٦
نبوءات الأنبياء عليهم السلام بفاجعة كربلاء ٣٦٨
صورٌ من الفاجعة الرهيبة ٤١٦
استشهاد الحسين عليه السلام واستمرار الفاجعة ٤٥٧
رحلة الآلام من كربلاء إلى الشام ٤٨٩
الفهرس ٥٤٣

التنضيد والإخراج الفني
الكوثر
Agsatr٦@yahoo.com